مُقاتِلٌ من الصّحراء

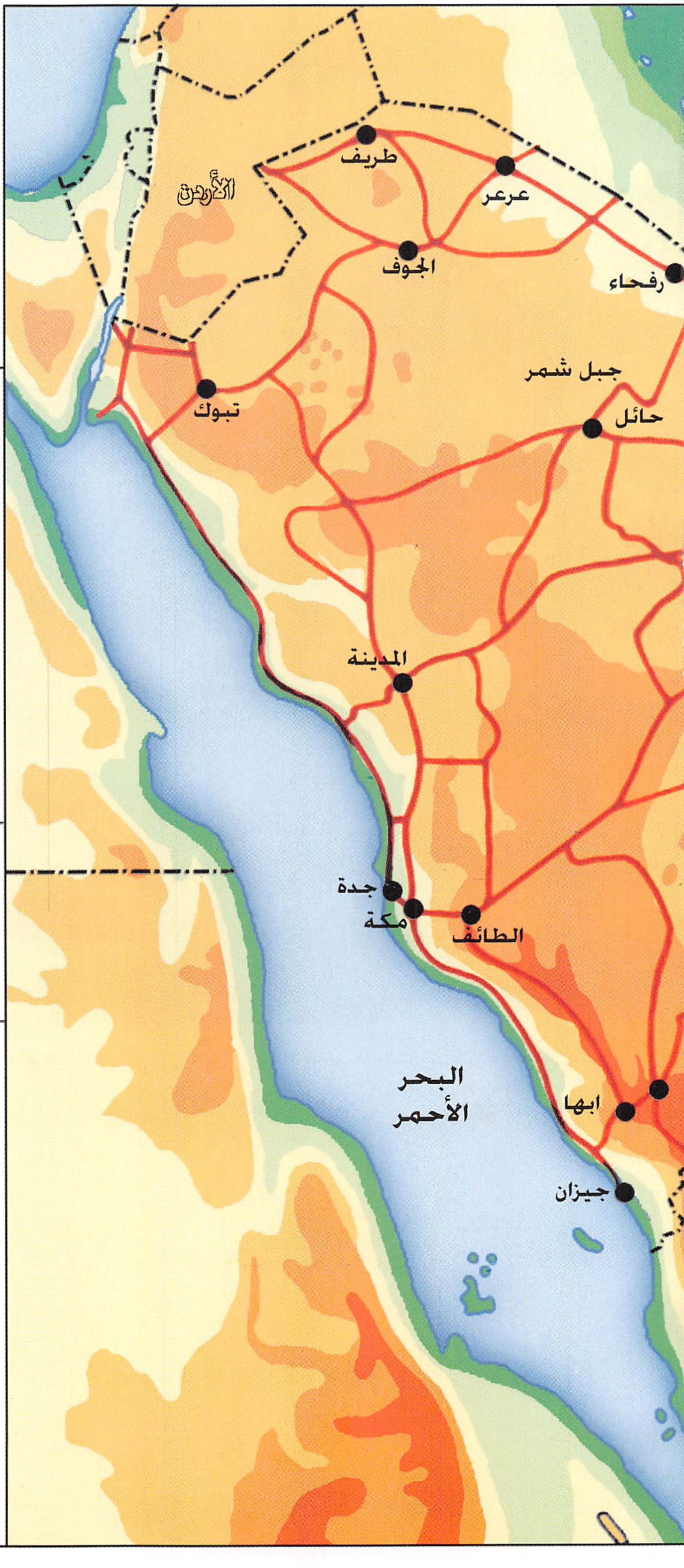
حقائق وذكريات ورؤية مستقبلية
لقائد القوات المشتركة ومسرح العمليات



صاحب السمو الملكي الفريق أول ركن
خالد بن سلطان بن عبد العزيز

مُقاتِلٌ
مِنَ الصّحراء

شبه الجزيرة العربية



مصطلحات الخارطة

الحدود الدولية

الطرق الرئيسية

مدن/مواقع

الخرج

مقياس الرسم ١/١٢,٥٠٠,٠٠٠

٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠

كيلومتر

الارتفاعات بالأمتار

٥٠٠٠
٣٠٠٠
٢٠٠٠
١٠٠٠
٥٠٠
٣٠٠
٢٠٠
١٠٠
٠



الكويت
الكويت
الخفجي
حفر الباطن
الجبيل
الدمام
الظهران
الخبر
البحرين
قطر
الخليج العربي
خليج عمان
الإمارات العربية المتحدة
الثمامة
الرياض
حرض
الخرج
العبيلة
عُمان
السليل
المملكة العربية السعودية
نجران
شرورة
الوديعة
اليمن
البحر العربي
خليج عدن



قبل بداية حرب تحرير دولة الكويت الشقيقة بأسبوعين، استعرض خادم الحرمين الشريفين القائد الأعلى للقوات المسلحة قوات من ٢٤ دولة.

صاحب السمو الملكي الفريق أول ركن
خالد بن سلطان بن عبد العزيز

مُقاتِل من الصّحراء

حقائق وذكريات ورؤية مستقبليّة
لقائد القوات المشتركة ومسرح العمليّات

دار الساقي

الطبعة السابعة ١٩٩٦

ISBN 1 85516 431 0

دار الساقي

بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٦٠٢٣١٥ (٠١)

DAR AL SAQI

London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH

Tel: 0171-221 9347, Fax: 0171-229 7492

إليك أبي

فهرس الكتاب

قائمة الصّور

(جميع الصور الواردة في الكتاب من المكتبة الشخصية للمؤلف ما لم يذكر خلاف ذلك).

الصورة التي تلي الغلاف: مع خادم الحرمين الشّرِيفَين الملك فهد بن عبدالعزيز.

المجموعة الثانية **بين الصفحتين ١٩٢ و ١٩٣**

المؤلف يستعرض حرس الشرف الصيني
عند سور الصين العظيم
المؤلف مع زاو زي يانج
المؤلف مع يانج شانج كون
قادة دول مجلس التعاون العربي (المصدر: SIPA Press)
صدام حسين (المصدر: Saadon/SIPA Press)
صدام حسين بين قواته في الكويت (المصدر: J. Pavlovsky/SYGMA)
المؤلف مع تشيني، وزير الدفاع الأمريكي (المصدر: U.S. Air Force)
المؤلف والفريق أول شوارتزكوف
الفريق تشارلز هورنر (المصدر: U.S. Air Force)
الفريق أول كولين پاول (المصدر: Tripett/SIPA Press)
الفريق جون يوساك (المصدر: AP/Wide World)
الفريق والتر بومر (المصدر U.S. Dept. of Defense)
المؤلف يستمع إلى إيجاز مع القادة البريطانيين
المؤلف مع وزير الدفاع البريطاني
المؤلف مع اللواء المدرع البريطاني
شارة «فأر الصحراء» (المصدر: UPI)
المؤلف مع الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، ولي العهد
المؤلف مع الأمير سلطان بن عبدالعزيز

المجموعة الثالثة **بين الصفحتين ٣٥٢ و ٣٥٣**

المؤلف والأمير محمد بن فهد مع الرئيس المصري مبارك
في زيارة لمركز قيادة القوات المصرية
المؤلف مع قائد القوات السورية
المؤلف مع وزير الدفاع لدولة البحرين
المؤلف مع قائد قوات النيجر
في زيارة للنقطة الدفاعية الحصينة للقوات السنغالية

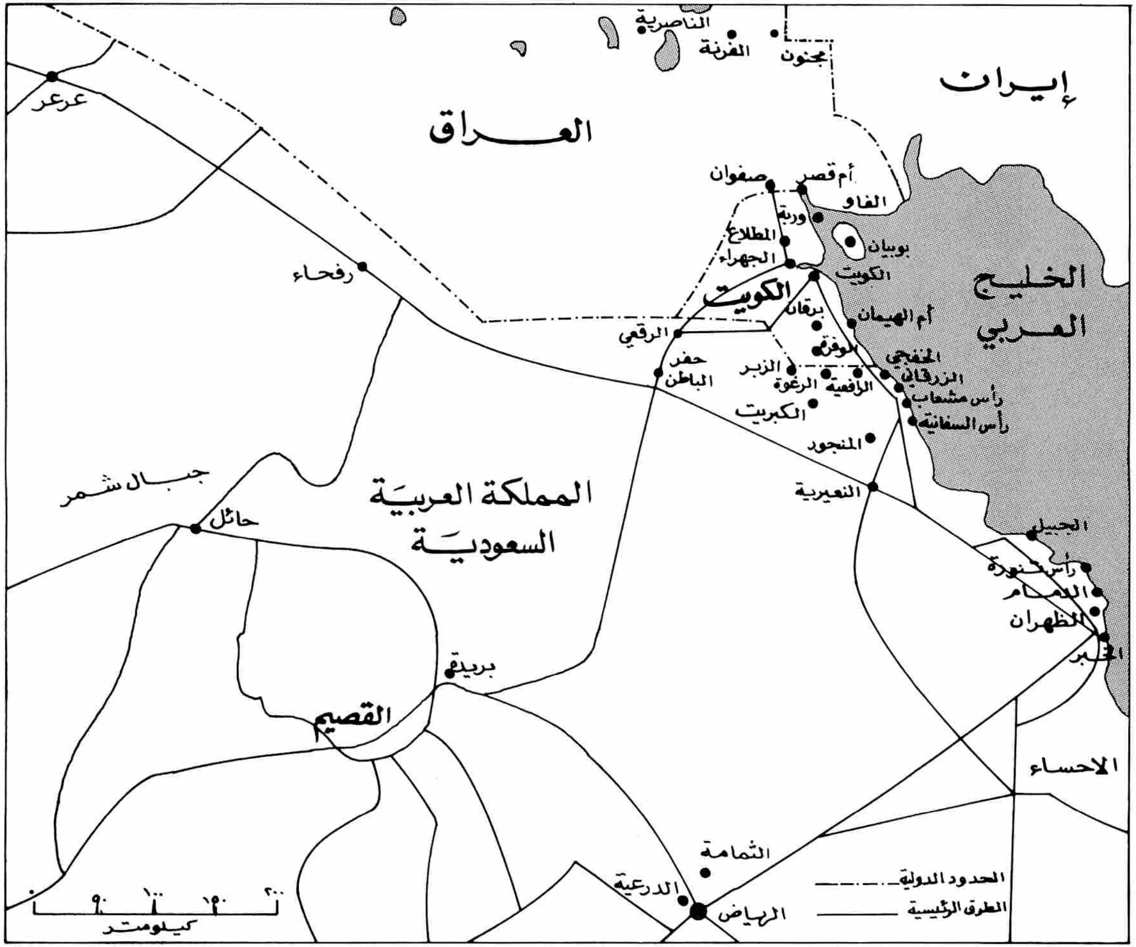
المؤلف مع رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة
المؤلف مع سلطان عُمان
المؤلف مع ولي عهد دولة قطر
المؤلف مع ولي عهد دولة البحرين
المؤلف مع الرئيس مبارك
المؤلف مع الرئيس الأسد (من شريط ڤيديو)
المؤلف مع رئيس النيجر
المؤلف مع عاهل المملكة المغربية
المؤلف مع الرئيس الفرنسي (المصدر: Witt/SIPA Press)
المؤلف يحمل وسام «القائد الفارس الشرفي» في قصر باكنجهام (المصدر: جريدة الحياة)
المؤلف مع ضابطين من أركان قيادة القوات المشتركة
المؤلف مع أخيه فهد وأكبر أولاده فيصل وسارة
أصغر خمسة من أبناء المؤلف
المؤلف مع أصغر أبنائه سلمان

قائمة الخرائط والجداول والمخططات

الخرائط

الجداول والمخططات

مسرح عمليات حرب تحرير دولة الكويت



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كانت لحظة قاسية على النفس تلك التي ودّعتُ فيها عمراً من العمل العسكري، وهبت له نفسي، فأحببته وتفانيت فيه بكل ذرة من كياني وكل خلجة من خلجات فؤادي. كانت كل خطوة أخطوها تقرع ذكرى وتثير هاجساً، وأنا أغادر مبنى وزارة الدفاع بعد أن أعلنتُ انتهاء مهمة قيادة القوات المشتركة، ورفعت طلباً بالإحالة إلى التقاعد. لم أكن أسمع في تلك اللحظة سوى وقع أقدامي ولم أكن أشعر بما حولي. هأنذا أتلقى التحية العسكرية للمرة الأخيرة وأطوي سجل حياتي العسكرية، سجلاً حافلاً بالأحداث الجسام والملمّات العظام، تارة خيراً ويُسراً وأخرى ضُراً وعُسراً. كانت لحظة من أصعب اللحظات التي مرّت بي، إذ كيف يضع الجندي سلاحاً حمله ما يقرب من ربع قرن؟ كيف يخلع لباساً تشرّف به عمراً؟ كيف يبتعد عن رفاق الدرب وزملاء السلاح وشركاء النصر، الذين قضى معهم أزهر سنيّ حياته؟!

بدأ شتات الذكريات التي كنت أسترجعها على وقع خطواتي يتبلور وينتظم عقداً متسلسلاً من الوقائع والأحداث كأنها شريط سينمائي. بدءاً بطفولتي التي اتسمت بالمغامرة، وصباي الذي طبعه حب الجندية، وشبابي الذي حفل بالعمل العسكري الذي عشقته بكل جوارحي، ودراساتي في المعاهد العلمية العسكرية والمدنية، وتدرّجي في الوظائف والمناصب، وانتهاءً بقيادتي للقوات المشتركة في حرب الخليج.

وكما أسهمَت البيئة العربية الأصيلة، والآداب الإسلامية الرفيعة في تكوين شخصيتي وطباعي، فقد أسهمت كذلك أحداث منطقة الشرق الأوسط، تلك المنطقة المضطربة التي لا يكاد يقرّ لها قرار، في رسم مسار حياتي العملية.

فكانت الصراعات والحروب أودية جرى فيها نهر حياتي، وحروفاً سطّرت مستقبلي العسكري.

ففي عام ١٩٥٦ عندما وقع العدوان الثلاثي على مصر، كنت وقتها طفلاً لا أعرف للحرب مَعْنًى، لكني شعرت أن خطراً ما يحيط بنا حين رأيت والدي وأعمامي والشعب كله يهرعون إلى حمل السلاح، فانطبع في ذاكرتي أن الزيّ العسكري وحمل السلاح هما الوسيلة الوحيدة لدرء المخاطر. ثم لم تلبث أن اندلعت حرب اليمن التي هدّدت أمن المملكة وأمانها، ومنها تعلمت، وأنا لا أزال صبياً، أن لا مناص من الاستعداد وحمل السلاح والاعتماد - بعد الله - على قوتنا الذاتية. ومن هنا كان توجُّهي بضرورة الانخراط في سلك الجندية لأشارك في الدفاع عن أرضنا وترابنا. ثم وقعت حرب يونيه عام ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل، بينما كنت أدرس في أكاديمية ساندهيرست العسكرية، فتجرعتُ وإخواني العرب هناك كأس الذل والمهانة، إذ أصبحنا هدفاً للتندّر والسخرية. ومن تلك الحرب أدركت أهمية القوة الجوية، بعد أن أعطى التفوق الجوي لإسرائيل قصب السبق في ذلك النزال.

ولَمّا نشبت حرب أكتوبر عام ١٩٧٣، شعرنا بنشوة الانتصار بعد أن نجح العرب في محو عار الهزيمة والذل الذي حاق بهم عام ١٩٦٧. وبهرني الأداء الرائع لقوات الدفاع الجوي المصرية في تلك الحرب ودورها في الحد من قدرة الذراع الطويلة لإسرائيل، مما جعلني أُنادي بأن يكون الدفاع الجوي في المملكة قوة مستقلة. وأصبحتُ فيما بعد قائداً لها.

ولم يمض وقت طويل حتى اندلعت حربٌ ضروس أخرى قرب حدودنا، حربٌ استمرت ثماني سنوات وأهلكت الحرث والنسل، تلك هي الحرب العراقية - الإيرانية، والتي رأيت فيها جرحاً عربياً إسلامياً يقطر دماً ومرارة، وطعنة في جسد أمة أثخنتها الجراح وتكسّرت فيها النصال على النصال. وتعلمنا من تلك الحرب ضرورة امتلاك أسلحة ردع تجبر العدو على التفكير غير مرة قبل الاعتداء أو التهديد. ووُلدَت قوة الصواريخ الإستراتيجية السعودية، وكُلّفت بقيادتها.

ثم وقعت الطامة الكبرى بغزو صدام دولة الكويت، وما آلت إليه الأحداث من تحالف دولي شنّ حرباً برية استغرقت مائة ساعة، وشهدت أكبر حملة جوية في التاريخ العسكريّ. ووجدتُني في قلب الأحداث قائداً للقوات المشتركة. فعشت وقائع الحرب وأحداثها لحظة بلحظة، كنت أسهر حين ينام الآخرون،

وأُعرّض نفسي للموت ويأمن الآخرون. لم أكن أفكر إلاّ في درء الخطر عن بلدي، ورفع الظلم عن بلد شقيق.

وما أن انقشع غبار المعركة حتى انبرت الأقلام، في الشرق والغرب، تصف وتوضح، وتحلّل وتفسّر، وتُجْمِل وتعمّم. انتقل ميدان المعركة إلى الأوراق. انزوت الطائرات والصواريخ، وبرزت المقالات والأقلام. سوّدت الصفحات وسالت عليها أحبار الطباعة، ولكني ما وجدت في تلك الأوراق رأياً متجرداً ولا قلماً منصفاً. كان همُّ من تصدى للكتابة أن يُمجّد بلداً أو يصنع بطلاً، علَت الطنطنة الإعلامية واختفت الحقائق. أين دور العرب والمسلمين في تلك الحرب؟ أين دور المملكة؟ أين دور خادم الحرمين الشريفين الذي تجلّت لديه الشجاعة، كل الشجاعة، أن يضع في لحظة الخطر أمن الوطن فوق كل اعتبار، فاتخذ قراراً تاريخياً أملاه المنطق وفرضته الحكمة؟ وأين دور ولي العهد الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، وجهوده في تطوير الحرس الوطني حتى أضحى قوة مقاتلة حديثة، أبلت وحداته مع وحدات القوات البرية بلاءً حسناً في معركة الخفجي، التي ستظل نقطة مضيئة في سجل التاريخ العسكري السعودي؟ وأين دور وزير الدفاع الأمير سلطان بن عبدالعزيز، ذلك الجنديّ المجهول الذي كانت بصماته وأفكاره تشكل نبض المعركة وحركتها، فكان حقاً القائد الموجِّه، مفتاح النصر وسر النجاح؟ وأين دور الجنديّ السعودي، الذي أثبت للعالم أجمع قدرته على استيعاب أحدث التكنولوجيا العسكرية وأشدها تعقيداً، فبذل النفس والنفيس ليرفع كلمة الله أو يستشهد دونها؟ وأين دور كل دولة هبّت إلى مساندة الحق وردع الباطل، نصرة للعدل وفرضاً للسلام؟

لقد أظهرت تلك الحرب بجلاء أن المملكة العربية السعودية، القلب النابض للعالم الإسلامي، هي حجر الزاوية في الدفاع عن منطقة الخليج. فما كان التحالف ليخوض تلك الحرب أو أن تنتهي إلى ما انتهت إليه من انتصار للإرادة الدولية، لولا البنية الأساسية العسكرية والعمق الإستراتيجي الذي تتمتع به المملكة، فضلاً عن الإسهامات المادية والعينية التي بذلتْها في هذا الصدد، فجعلت رحى الحرب تدور دون خلل أو فتور. استطاعت القوات المتحالفة الشقيقة والصديقة التجمع والانتشار والقتال والانتصار وتحرير دولة الكويت الشقيقة، وكانت المملكة هي محور ذلك التحالف ومناط تجمّعه. وعلى الرغم من ذلك، اختفت حقائق كثيرة أو شوّهت أو قُدّمت مبتورة أو في غير موضعها.

وفي عالم أَفَلَتْ فيه شمس الحقيقة، وجَنَحَتْ الآراء لغير الحق والصدق، أحسست أنّ لديّ قصة، بل قصصاً، من واجبي أن أرويها. وشعرت بأني مدين لأسرتي وعائلتي ووطني، ولدول التحالف التي خاضت الحرب معنا، ولجنودنا الذين ضربوا أروع الأمثلة في البسالة والولاء، بل وللتاريخ نفسه، مدين لهؤلاء جميعاً، بأن أضع الأمور في نصابها وأن أذكر لكل ذي فضل فضله، وأن أطرح الدروس والعبر علّها تكون نبراساً للآخرين.

ولا يفوتني أن أشير إلى أن هذا الكتاب لا يمثل وجهة نظر رسمية إزاء الحرب أو إزاء بلدي، فلست أتحدث هنا باسم المملكة العربية السعودية أو باسم العائلة المالكة، بل أروي تجارب عشتها، ووقائع شهدتها، وأحداثاً شاركت في صنعها.

وقد ضمّنت الكتاب بعض الفصول التي تتحدث عن طفولتي وعائلتي وحياتي العلمية والعملية، كي أقدم للقارىء لمحة عن ظروف نشأتي والخبرات التعليمية والتدريبية التي توافرت لي وعاونتني، دون شك، على حمل المسؤولية وأداء الأمانة وإنجاز المهمة. ومن هنا يُعَدّ الكتاب نوعاً من كتابة السيرة الذاتية، تمثل حرب الخليج فيها جزءاً من سجلي العسكري وأحداث حياتي. بيد أن الكتاب ليس تأريخاً عسكرياً كاملاً للحرب، وليس سيرة ذاتية شاملة. فالسيرة الذاتية قد تكون سابقة لأوانها لرجل لم يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره.

ويحدوني الأمل على أن يكون تسجيلي للأحداث التي عشتها لحظة بلحظة، عبرة وعظة وصوت نذير لا يفتأ يتردد في آذاننا، يدعونا إلى اليقظة كل اليقظة. ففي عالم يموج بالأحقاد والفتن، غابة يأكل فيها القوي الضعيف، لا سبيل إلى تحقيق أفضل الأوضاع إلاّ بالاستعداد لأسوأ الاحتمالات. فالقوة هي الدرع التي تحمي الحق، وتصون الكرامة، وتحقق الأمن والأمان.

ولا يفوتني أن أذكر بالشكر والعرفان، بعد شكر الله عزَّ وجل، كل أولئك الذين بذلوا مساعدتهم لي في إعداد هذا الكتاب وما تطلبه من بحث واستقصاء، ومنهم أناس ظهرت أسماؤهم بين دفتيه، ومنهم من لم ترد أسماؤهم، بيد أني مدين لهم جميعاً بالشكر الجزيل، لا سيما زملائي في القطاع العسكري الذين عملوا بجواري ولم يتسع المجال لذكرهم، كما أشكر المملكة قيادة وشعباً، وقادة الدول المتحالفة الذين تشرفت بقيادة قواتهم.

وأخيراً، يطيب لي أن أذكر بمزيد من الشكر والتقدير العميد محمد فاروق

عبدالكريم، الذي قابلته للمرة الأولى عندما كنّا ندرس معاً في كلية القيادة والأركان في فورت ليڤنوورث في ولاية كانساس، كان ولا يزال صديقاً حميماً ومستشاراً صدوقاً ومساعداً لا تفت من عزيمته الصعاب على مدى الاثني عشر عاماً الماضية.

إنني لأرجو أن يجد القارىء في هذا الكتاب كل المتعة والفائدة، وأن أكون قد وُفقت في توضيح أكثر الحقائق، ووضع معظم الأمور في نصابها، إحقاقاً للحق وإبراءً للذمة وإخلاصاً للتاريخ. والله الهادي إلى سواء السبيل.

خالد بن سلطان بن عبدالعزيز

ذو الحجة ١٤١٥ هـ/مايو ١٩٩٥م

الفصل الأول

في قلب العاصِفَة

كانت عاصفة رملية شديدة. كأن يداً خفية تغرف الرمال الساخنة وتذروها في وجوهنا، فتلسعنا كالسياط. دوامات هائلة من الرمال تتصاعد صوب السماء ثم لا تلبث أن ترتد نحو الأرض، عندما تغير الرياح اتجاهها، فتصفع الحاجب الزجاجي لعربة القيادة التي كانت تقلُّنا. ثم تستقر الرمال عروقاً غليظة على نهر الطريق. كان صخب الأفكار في رأسي لا يقل عن صخب الطبيعة من حولي.

كنّا نتجه نحو الكويت على الطريق الساحلية في المنطقة الشرقية للمملكة العربية السعودية. وإلى يمين الطريق كانت ثمة أراض سبخة تنعكس عليها أشعة الشمس الحارقة، فترسل لمعاناً حاداً يبهر العين ويجعلها تبدو للناظر إليها كأنَّها امتداد طبيعي لمياه الخليج. وكنّا قد مررنا للتوّ بمدينة الخفجي، ولم يتبق من رحلتنا سوى ثمانية كيلومترات لنصل إلى مركز حدود سعودي، هو المنفذ الرئيسي من المملكة إلى الكويت الشقيقة على تلك الطريق الساحلية. كان الازدحام دوماً أمراً مألوفاً في هذا المركز، لكنَّ دهشتي لا توصف ذلك اليوم حين شاهدت تلك الجموع الغفيرة من البشر ينتحبون ويتصايحون ويحتشدون حول مكاتب الجوازات والجمارك هرباً من القيظ والغبار . . . وصدام حسين.

كانت الطريق الممتدة خلف مركز الحدود والمتجهة نحو الكويت، تغصُّ بصفوفٍ متراصة من السيارات المتلاصقة تمتد على مدى البصر. لم يكن لأحد أن يحيط بتلك الصورة كاملة إلاّ من طائرة عمردية. وأية صورة كانت! صورة تنطق بالفوضى والذعر والاضطراب! وعندما اقتربنا من المنطقة، تراءت لنا الكثبان الرملية والأراضي السبخة مُرَقَّطَةً بالسيارات التي هجرها أصحابها، وكان معظمها غائصاً في الأرض الرخوة الناعمة. فعندما عجز أصحابها عن السير على

الطريق الممهدة، انحرفوا نحو الصحراء يتسابقون للنجاة في اتجاه الجنوب. وبعد أن نفد الوقود أو غاصت سياراتهم، حملوا ما استطاعوا من متاعهم، ومشوا صوب الحدود ومن خلفهم نساؤهم وأطفالهم، حتى أضناهم التعب وبلغ الإرهاق منهم مداه، فاضطروا إلى التخلي عن أحمالهم، من حقائب مكدسة بمقتنياتهم ولوازم النوم وصناديق المعلبات وأجهزة الراديو والمسجلات والأكياس البلاستيكية وأشياء أخرى، حتى بدت المنطقة كلها كأنها مسرح لرحلة خلوية تعج بالهرج والمرج، دهمها مطر غزير.

كان حرس الحدود يتولون جمع أولئك التائهين في الصحراء وتقديم العون إليهم، وإرشادهم إلى الطريق المؤدية إلى المملكة. أقاموا عدداً من الخيام الكبيرة لإيوائهم، وقدّموا الطعام والشراب إلى أسَرٍ خوت بطونها وزاغت أبصارها. وخلال ذلك كله، كانت تجري محاولة متعثرة لتسجيل أسماء هذا الطوفان الجارف من اللاجئين.

رأيت هذا المشهد في أغسطس عام ١٩٩٠، بعد مضي أسبوعين على غزو صدام حسين الكويت. وكان خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود، قد وافق على تعييني قائداً للقوات المشتركة ومسرح العمليات في العاشر من الشهر نفسه. وكانت تلك زيارتي الميدانية الأولى لتفقد القوات، وتقييم التهديد الخطير الذي كان علينا أن نواجهه ونتصدى له.

كنت أتساءل، يا تُرى كم يبلغ عدد العملاء العراقيين الذين اندسوا وسط ذلك الطوفان البشري من الكويتيين الذين لاذوا بالفرار من ديارهم، والذين يقدر عددهم بعشرات الآلاف؟ كان هذا الأمر يمثل كابوساً أمنياً ينبغي أن نحسب له ألف حساب. وبات واضحاً ضرورة أن نُحْكم عملية فرز القادمين والتحقق من هوياتهم.

ولأسباب لم أستطع فهمها، لم يُقْدِم صدام على إغلاق الحدود الكويتية ـ السعودية، واستمرت الموجات البشرية تعبر تلك الحدود. فهل كانت تلك سياسة متعمدة من جانبه لتفريغ الكويت من أهلها؟ على كل حال، لم يمضِ وقت طويل، حتى وجدنا أنفسنا مواجَهين بتوفير أماكن لإيواء ٣٦٠ ألفاً من أشقائنا الكويتيين. لقد سمح صدام بالخروج من الكويت لكل من أراد أن يخرج، بمن في ذلك القادة العسكريون وكبار موظفي الدولة. وقد أدهشني حقاً أمران: أولهما، إتاحة الفرصة لمثل تلك الشخصيات المهمة للرحيل من البلاد. وثانيهما،

فَشَلُ العراقيين في الاستيلاء على القاعدتين الجويتين في الكويت خلال الأربع والعشرين ساعة الأولى من الغزو، مما أتاح الفرصة أمام الطائرات الكويتية للإقلاع منهما حتى بعد سقوط العاصمة بوقت طويل. وما زال هذان الأمران يشكِّلان لغزاً محيراً حتى يومنا هذا. وتمكنت نحو ٤٠ طائرة كويتية، وعدد من الزوارق البحرية، والجزء الأكبر من أحد ألوية الجيش الكويتي من الوصول إلى المملكة بسلام.

ألقيتُ نظرة خاطفة، عند مركز الحدود شمال الخفجي، على هذا السيل المتدفق من مواطني الكويت المدنيين. وبينما كنت أجول ببصري بين ذلك الحشد البائس، وهو يدور حول مكاتب الجوازات والجمارك، أدركت أنني أشهد منظراً مأساوياً يعكس إلى حدٍّ بعيد حقيقة العالم الذي نعيش فيه. فلم يكن هؤلاء البائسون إلاَّ أناساً عاديين، أخرجهم الخوف من ديارهم، وكل همهم النجاة بأنفسهم وأهليهم من سعير الحرب التي لا تبقي ولا تذر. هؤلاء هم الكويتيون، الذين كانوا حتى الأمس آمنين في بلادهم واثقين بأنفسهم. ها هم قد تحولوا، بين عشية وضحاها، إلى لاجئين. وسألت نفسي: هل سنكون نحن في المملكة العربية السعودية الضحية التالية؟

أرجِّح أن صداماً عندما غزا الكويت، كانت نيته أن يقتل أو يأسر أسرة الصباح، ولعل أحد مستشاريه أشار عليه بذلك قائلاً: «هل تريد الاستيلاء على الكويت؟ إذاً تخلَّص من الأسرة الحاكمة، فيصبح البلد كلُّه طوع بنانك، وعندئذٍ يمكنك أن تبقى فيه أو تنسحب منه، حسبما يروق لك». فعند زوال أسرة الصباح، لن يكون لولاء الناس مرتكزٌ، أو لشرعية الدولة رمْزٌ. فعندما استولى الجيش على السلطة في العراق عام ١٩٥٨، كان أول عمل قام به، هو قتل الملك فيصل الثاني، الذي كان لا يزال في مقتبل العمر، وأفراد عائلته جميعاً. مثلما عَمَدَ البلاشفة، أتباع لينين، إلى قتل القيصر نيقولا الثاني وعددٍ من أفراد أسرة رومانوف خلال الحرب الأهلية التي أعقبت الثورة الروسية عام ١٩١٧.

بيد أنه إذا كانت نية صدام هي فعلاً القضاء على أسرة الصباح، فلا شك أنه لم يتبع الأسلوب الصحيح. لِمَ اختار أسلوب الهجوم بالمواجهة، ولماذا لم يلتف من الغرب فيسد عليهم منافذ الهرب؟ كان هذا هو السؤال الذي دار في خلدي.

كان في وسعه، من وجهة نظري، أن ينجز تلك المهمة بفرقتين فقط: فرقة تهاجم الكويت، والأخرى تلتف لقطع طريقيْ الخفجي والرقعي، وهما المخرجان الوحيدان المؤديان إلى خارج المدينة جنوباً إلى المملكة، كما تستولي في الوقت نفسه على المطار والقاعدتين الجويتين. كان في وسعه، بعد غزو الكويت، أن يغلق حدودها فيحكم قبضته على الأسرة الحاكمة. لعل صداماً توقع قدراً أكبر من المقاومة، أو ظن أن الحكومة الكويتية لن تغادر البلاد، بل ستبقى لتقاوم الغزو. لكنّ ما حدث أخلف حساباته، فقد لجأ أمير الكويت وولي العهد وأفراد من الأسرة الحاكمة إلى المملكة يوم الغزو، قبل ساعة أو ساعتين فقط من وصول القوات الغازية. وكان ذلك قراراً حكيماً جاء في مصلحة الكويت، إذ تمكنوا من إقامة حكومة في المنفى وتدعيم حركة المقاومة السرية في الكويت المحتلة.

في يوم الغزو المشؤوم، كان ابن عمي وصديقي الحميم صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن فهد، أمير المنطقة الشرقية في المملكة، مسؤولاً بطريقة مباشرة عن تأمين سلامة صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الصباح أمير دولة الكويت. وطبقاً لما رواه لي، فيما بعد، فقد ذهب بنفسه إلى الخفجي بناءً على تعليمات خادم الحرمين الشريفين، ليكون في رفقة الشيخ جابر في سيارة كان يقودها بنفسه أقلّتهما إلى داخل المملكة. ولأن تلك القصة لم يُعْرف عنها إلاّ القليل، فسأسردها هنا بشيءٍ من التفصيل.

عَلِم الأمير محمد بالغزو العراقي في الساعات الأولى من صباح اليوم الثاني من أغسطس. وفي السادسة والنصف من صباح ذلك اليوم، تلقى مكالمة هاتفية من أحد ضباط مركز الحدود السعودي، شمالي مدينة الخفجي، يخبره أن سمو أمير الكويت موجود في المركز ويرغب في التحدث إليه، مما أدهش الأمير محمداً. ولكن اتضح له بعد قليل أن الشيخ جابراً يود الاتصال بخادم الحرمين الشريفين ولم يكن معه رقم هاتفه في جدّة. وما أن زوده محمد بالرقم، حتى أصبح أمير الكويت على اتصال مباشر مع الملك.

اتصل الملك هاتفياً بالأمير محمد وأصدر إليه تعليماته بأن يَعْرِض على أمير الكويت أن يتوجّه جنوباً إلى الدمام، حيث يمكن ضمان أمنه وسلامته. فلم يكن من الحكمة أن يبقى في منطقة الحدود التي يمكن أن يجتاحها العراقيون في أية لحظة. قام الأمير محمد بتكرار الاتصال بأمير الكويت. وظل يحاول إقناعه، على مدى ساعتين، بمغادرة الحدود، أو بالانتقال، على الأقل، إلى قصر الإمارة في

الخفجي حتى يكون في وضع أكثر أمناً، وتكون اتصالاته أكثر يسراً. لكنّ الشيخ جابراً لم يستجب، وأصرّ على ألاّ يبرح مركز الحدود؛ إذ كان قد أرسل رُسُلَه إلى مدينة الكويت لاستطلاع الأمر، وبقي ينتظر عودتهم. كما كان سمو ولي العهد الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح لا يزال وقتئذ في المدينة.

وفي الحادية عشرة، أصدر الملك فهد توجيهاته إلى الأمير محمد ليذهب بنفسه إلى الخفجي، ويصطحب أمير الكويت إلى داخل المملكة. وعندما وصل محمد، بعد رحلة استغرقت ساعتين ونصف الساعة، كان وليُّ عهد الكويت وعدد من أعضاء الأسرة الحاكمة ومعظم الوزراء قد لحقوا بأميرهم. وناشد محمد سمو أمير الكويت أن يأتي معه من أجل الكويت وشعبها. ولم يلبث محمد إلاّ قليلاً حتى تلقى مكالمة هاتفية أخرى من خادم الحرمين الشريفين، يستفسر فيها عن سبب بقاء أمير الكويت في الخفجي، ويستعجل حضوره إلى المملكة، غير أن سموه كان لا يزال ينتظر رُسُلَه الذين بعث بهم إلى الكويت.

وأخيراً، وفي الرابعة بعد الظهر، اقتنع أمير الكويت بضرورة مغادرة المكان. وانطلقا نحو الدمام في سيارة قادها الأمير محمد وإلى جانبه أمير الكويت. كان يوماً شديد الحرارة من أيام شهر أغسطس. بلغ فيه القيظ مداه، كما بلغ التعب والإرهاق من محمد أقصاه، فلم يكن قد ذاق للنوم طعماً طيلة ٢٤ ساعة. أما الشيخ جابر فبدا متماسكاً رابط الجأش، لكنه لم يتحدث كثيراً. كان متأثراً بالأحداث السريعة المتلاحقة التي حفل بها ذلك اليوم. لقد كان الخطب جللاً. وأخيراً، تمكّن محمد، الذي جَهِد في مغالبة النعاس وكاد أن يغفو وراء عجلة القيادة مرات عدة، من الوصول بالأمير سالماً إلى قصر الضيافة الملكي في الدمام. وأمر بتشديد الحراسة على القصر ومضاعفة عدد الحراس. ومكث معه ساعتين قبل أن ينطلق إلى منزله كي ينتزع قسطاً من النوم. لكنّ نومه لم يدم أكثر من ساعة، فقد تلقى مكالمة هاتفية من أحد المسؤولين في حفر الباطن، يخبره فيها أن عدداً آخر من أسرة الصباح نجح في التسلل عبر الرقعي التي تعتبر المنفذ الثاني إلى المملكة.

مكث سمو أمير الكويت وحاشيته في الدمام مدة أسبوعين. وبلغ عدد الضيوف من أسرة الصباح في اليوم الأول ١٥٠ فرداً تقريباً. وانضم إليهم على مدى الأسبوعين التاليين ما بين عشرة وعشرين فرداً كل يوم، معظمهم في حالة من الذهول. فقد لاذ بعضهم بالفرار وليس معهم إلاّ ما يستر أجسادهم من ثياب.

ولَمَّا كان خادم الحرمين الشريفين حريصاً كل الحرص على راحة ضيوفه، فقد أصدر تعليماته بأن يُوَفَّر لهم كل ما يحتاجون إليه من مستلزماتٍ شخصية ومنزلية. وتم تحويل أحد المباني القريبة ليكون مستشفى صغيراً لتوفير الرعاية الصحية لهم.

وكما تولى الأمير محمد رعاية أمير الكويت وحاشيته، تواصلت جهوده كذلك في رعاية الأعداد الغفيرة من اللاجئين إلى المنطقة الشرقية. فكان عليه أن يوفر لهم المسكن والأسرَّة والمفروشات والمكيفات والطعام والخدمات الصحية وما شابه ذلك. ولحسن الحظ، كان الوقت صيفاً ومباني المدارس والجامعات خالية من الطلبة، فاستُخدمت تلك المباني بالإضافة إلى المنشآت الرياضية والشقق الخالية مأوىً مؤقتاً لأولئك اللاجئين. وهبّتْ لجان المتطوعين في كل أنحاء المنطقة إلى تقديم شتى أنواع المساعدات إلى إخوانهم الكويتيين، بل إن بعض السعوديين أخلوا منازلهم للكويتيين، وانتقلوا للسكن مع أقربائهم. وآثر، فيما بعد، كثير من الكويتيين الذين لجأوا إلى المملكة التوجه إلى الرياض وجدّة وأبها ومدن أخرى في العالم العربي، وبقي نحو ١١٠ آلاف منهم في المنطقة الشرقية خلال أيام الأزمة.

بعد أن أمضيت يوماً في المنطقة الشرقية، واستمعت في مركز العمليات في مدينة الملك فهد العسكرية إلى تقرير قدّمه، اللواء الركن صالح علي المُحيًا، قائد المنطقة، وضباط أركانه، انتقلت بالطائرة فوق شاطئ الخليج إلى رأس مشعاب، وهو ميناء صغير فيه مهبط جوي ويبعد ٤٠ كيلومتراً عن الحدود الكويتية. وانطلقت من رأس مشعاب تُقِلني عربة القيادة لأقف بنفسي على حقيقة الموقف عند الحدود، ولأتفقد قواتي.

قواتي! أين هي قواتي تلك؟ كانت تنتظرني مفاجأة مفزعة. كانت دفاعاتنا عن الحدود الشمالية للمملكة غير قادرة على الصمود أمام الجحافل العراقية. فعندما كنّا نُقيّم التهديدات المُحْتملة ضد منطقتنا الشرقية قبل الأزمة، أسقطنا من حساباتنا احتمال تعرضنا لتهديدات برية من الدول العربية المجاورة الواقعة شمال المملكة. ولكننا، لم نستبعد، بطبيعة الحال، احتمال حدوث تهديدات جوية أو بحرية أو صاروخية أو إرهابية من الجانب الآخر للخليج. وكنّا على أتم الاستعداد لمجابهة مثل تلك الأخطار. لهذا السبب، كنّا نحتفظ بأعداد محدودة من القوات

البرية في الجزءين الشمالي والشرقي من المملكة. وبهدف توفير إسناد عسكري عاجل عند الطوارئ، أنشأنا بنية أساسية عسكرية قوية على شكل «مدن عسكرية» تم تشييدها في مواقع إستراتيجية حول المملكة. وتُعَدّ مدينة الملك خالد العسكرية في حفر الباطن من أكبر تلك المدن. وهي تقع عند ملتقى حدود المملكة والعراق والكويت، ويجري بين جنباتها وادي الباطن الذي كان يستخدم في الماضي كطريق اقتراب طبيعي للغزوات التي كانت تُشن ضد الجزيرة العربية من جهة الشمال. ويقال أن وادي الباطن كان، في العصر الجليدي، واحداً من أكبر أنهار قارة آسيا لكنه جفَّ، لسوء حظنا، منذ نحو ١٠ آلاف عام لانقطاع الأمطار الغزيرة.

كانت توجد وحدات صغيرة الحجم من المشاة والمدرعات والقوات الجوية متمركزة بشكل دائم في مدينة الملك خالد العسكرية. بيد أن هذه المدينة العسكرية، التي أُنشِئتْ على أحدث طراز، يمكنها أن تستوعب عشرات الآلاف من القوات إذا ما دعت الحاجة. ومن المدن العسكرية الأخرى مدينة الملك فيصل العسكرية في خميس مشيط في الجنوب، ومدينة الملك عبدالعزيز العسكرية في تبوك في الشمال الغربي. وتُعد هذه المدن بمجمعاتها السكنية الكبيرة ومكاتبها ومستودعاتها ومخازنها ومستشفياتها ومدارسها مدناً حقيقية، بل هي أنموذج معاصر حقاً للقلاع الصحراوية التي شَيَّدَهَا حكام الجزيرة العربية الأقدمون للدفاع عن حدودهم.

لم يولِ جهاز استخباراتنا أو هيئة الأركان العامة العراق كبير الاهتمام قبل أزمة الخليج. إذ لم يكن في منظور أحد، في ظل تلك الظروف السياسية التي كانت سائدة في السبعينات والثمانينات، أن تتعرض المملكة إلى خطر من ذلك الاتجاه. كان أمراً مستبعداً تماماً أن يتحول العراق (ذلك البلد العربي الشقيق الذي بذلت له المملكة كل العون في حربه الطويلة مع إيران) إلى عدوٍ لدود. لقد غاب عن الذين ينتقدون المملكة أنها أُخذت على حين غرّة، أن أحداً، مهما شطح به الخيال، لم يكن ليتصور أن العراق قد يغزو المملكة، أو أن تصبح الكويت، تلك الدولة الصغيرة الصديقة التي تجمعنا بها عضوية مجلس التعاون لدول الخليج العربية(*)، مَعْبَراً للعدوان على حدودنا بعد احتلال العراق لها، وهلاّ سأل هؤلاء اللائمون أنفسهم: أثمة دفاعات على حدود فرنسا مع بلجيكا؟!

(*) تحالف إقليمي تكَوَّن عام ١٩٨١ من المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين ودولة الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عُمان.

لهذه الأسباب، لم تكن لدينا قوات في المنطقة الشرقية وعلى مقربة من الحدود، إلاّ لواء الملك عبدالعزيز الآلي الثاني من الحرس الوطني السعودي. وكانت مواقعه في مرمى المدفعية العراقية تماماً. كما كانت توجد إلى الغرب في المنطقة الشمالية، في مدينة الملك خالد العسكرية، قوة صغيرة من دول مجلس التعاون الخليجي، عُرِفَتْ بقوة «درع الجزيرة». وهي قوة لها قدرة قتالية محدودة، إذ كانت تتكون من مجموعة لواء من القوات البرية السعودية، وعدد من سرايا وكتائب متفرقة من الدول الأخرى أعضاء مجلس التعاون الخليجي، وقد هرعت إثر الغزو إلى اتخاذ المواقع الدفاعية.

وفي مدينة الملك خالد العسكرية أيضاً، كانت قد وصلت قوة عسكرية مغربية قوامها ٩٦٢ رجلاً، بالإضافة إلى فوج من القوات الخاصة المصرية. وكانت هاتان الوحدتان طليعة القوات العربية الشقيقة التي بادرت إلى الوصول إلى المملكة لتقديم العون إلينا بعد أيام قليلة من الغزو العراقي. وعندما زرت القوة المغربية، بدا للوهلة الأولى أن المغاربة كانوا مجموعة من المقاتلين الأشداء، صَقَلَتْهُم حربهم الطويلة مع جبهة البوليساريو. لكن تلك المجموعة كانت لا تزال في معسكرها، انتظاراً لوصول وحدات الإسناد.

وتعزيزاً لهذا الخط الدفاعي، تدفقت الوحدات السعودية من جميع أنحاء المملكة. إذ أسرع اللواء الثامن الآلي من القوات البرية الملكية السعودية إلى التحرك من تبوك في الشمال الغربي، من طريق القصيم، وقطع ما يزيد على ١٠٠٠ كيلومتر، بينما انطلق اللواء العاشر الآلي من خميس مشيط في الجنوب، واجتاز مسافة مماثلة. ولا شك أن كل عسكري سيقدّر ذلك الجهد الهائل الذي بذلته تلك القوات لتجتاز هذه المسافات الشاسعة عبر المملكة تحت وطأة قيظ شهر أغسطس. تحركت القوات طبقاً للأولويات الصحيحة: الوحدات المقاتلة أولاً، ثم تلتها وحدات الإسناد الإداري. وأدى ذلك إلى حدوث بعض المصاعب في الإمدادات والتموين والصيانة والإصلاح.

عندما قمت بزيارة تفقدية لهذين اللواءين، كان بعض وحداتهما قد وصلت إلى الجبهة فعلاً وتقوم بتجهيز مواقعها الدفاعية. أما بقية الوحدات فكانت لا تزال على الطريق في أرتال ممتدة عدة كيلومترات. وفي مثل هذه الرحلة الطويلة إلى الجبهة، لا بد من إعادة تزويد العربات بالوقود، وإصلاح ما تعطل منها، وإعطاء الجنود، الذين أعياهم التعب، قسطاً من الراحة، وتزويدهم بالمياه العذبة

والوجبات الساخنة. ويعني هذا الانتشار السريع لمواجهة التهديد العراقي من اتجاه الكويت، أن على قواتنا، التي هرعت من تبوك وخميس مشيط، قطع الرحلة دون نقاط لتوزيع المياه، أو محطات للتزود بالوقود، أو مستودعات للتموين، أو ورش لإصلاح العربات. وذكرت في تقريري الذي رفعته إلى صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز، النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام، أننا في صدد وضع الخطط الدفاعية واتخاذ الترتيبات القتالية بدءاً من الصفر، إذ كنّا نواجه موقفاً لم نعهده من قبل.

زرت الألوية الثلاثة: لواء الحرس الوطني ولواءَيْ القوات البرية. واستمعت إلى تقارير قادتها. واستفسرت عن عدد القوات التي وصلت فعلاً، وتلك المنتظر وصولها، والصعوبات التي كانت تواجهها. والأهم من ذلك كله، كنت أريد أن أقف على درجة استعدادها القتالي.

لم تواجه وحدات الحرس الوطني مصاعب كثيرة، إذ كانت متمركزة في المنطقة الشرقية، ولم يكن عليها أن تقطع تلك المسافات الطويلة. ويعتبر لواء الحرس الوطني من الألوية الخفيفة التسليح ذات القدرة النيرانية المحدودة، لذا استبعدت احتمال استخدامه في صد هجوم عراقي مدرع متفوق. أما لواءا القوات البرية، فكان لكل منهما كتيبة دبابات عضوية ضمن تنظيمه الأساسي، ولكنَّ عدد الدبابات في الكتيبة يجعلها غير قادرة على مواجهة الفرق المدرعة العراقية. وانتابني القلق حين شاهدت عدداً من دباباتنا وقد نُشر في خط واحد على طول المواجهة بفاصل كبير بين الدبابة والأخرى، لتشكل أهدافاً ثابتة وصيداً سميناً للمدفعية العراقية.

كانت الحشود العراقية المواجهة لنا على طول خط الحدود، متفوقة بجميع المقاييس، فقد بلغت قوتها نحو ٢٠٠ ألف جندي و ٢٠٠٠ دبابة في الكويت. ووفقاً لتقارير استخباراتنا، كان العراقيون يقومون بإعادة التموين والاستعواض (أي إعادة تزويد العربات والدبابات والمعدات بالوقود، واستعواض الذخائر والخسائر والمستهلَك من أصناف التموين، وإصلاح العربات والمعدات المعطلة) بشكل يوحي باستعدادهم للتقدم نحونا. وحتى ذلك الحين، لم يكن قد وصل من الجنود الأمريكيين سوى طلائعهم التي كانت لا تزال في الجبيل، على بعد ٢٠٠ كيلومتر إلى الخلف، فضلاً عن عدم جاهزيتهم للقتال في تلك المرحلة. لذلك لم يكن على خط المواجهة إلاّ السعوديون، وبضع مئات من قوات مجلس

التعاون لدول الخليج العربية (درع الجزيرة).

جعلتني تلك الجولة الميدانية أُدرِك حجم التحدي الذي علينا أن نواجهه، ومدى الأخطار التي كنّا نتعرض لها. غدا الأمر بالنسبة إليّ مسألة حياة أو موت. حاولت أن أبدو رابط الجأش، لكن ما أن عدت إلى مقر إقامتي في ميناء رأس مشعاب وخلوت بنفسي، حتى أخذت أذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، تعتصرني مشاعر الإحباط وأنا أفكر في ما يجب أن أقوم به. كان عليَّ أن أبدي قدراً من القوة، وأن أُثبِت أن جيشاً سعودياً يملأ أرض المعركة ويقارع المعتدي. وأن قائداً يمسك بزمام الأمور، ويتولى مسؤولية الدفاع عن بلده.

لكنني كنت على يقين أنه إذا هاجم صدام، وكان على استعداد لتحمل الخسائر الفادحة جرَّاء الضربات الجوية، فسوف يتمكن في غضون أيام من الوصول إلى الجبيل وحقول البترول الشرقية. وانتابني شعور بالاكتئاب وأنا أُقلِّب الأمر على أوجهه. فإذا كانت نية صدام هي الاحتفاظ بالكويت، فَلِمَ يبقى متقوقعاً في ذلك المسرح الضيق معرِّضاً قواته للهجمات المضادة؟ لا بد أن يتحرك وينشر قواته جنوباً في اتجاه الساحل. إن أي محلل عسكري إستراتيجي لا يسعه الافتراض أن صداماً سوف يتوقف عند الحدود السعودية.

في تلك الأيام والأسابيع الأولى التي سادها القلق والترقب، بعثنا عملاءنا إلى الكويت والعراق ليعودوا إلينا بما يتوافر لديهم من معلومات يمكن أن تنم على نوايا صدام. وقد أظهر ضابط برتبة لواء ـ كان الرجل الثالث في هيئة الاستخبارات العامة ـ شجاعة نادرة عندما تطوع بالدخول إلى الكويت المحتلة متخفياً في زيّ البدو في مهمة استغرقت ثلاثة أيام، ووصل إلى صفوان تحت سمع العراقيين وبصرهم. كانت مغامرة خطيرة حقاً، فَأَسْرُ هذا الرجل كان من شأنه أن يوقعنا في حرج شديد، لكنه عاد بأدقِّ المعلومات عن انتشار القوات العراقية.

كانت قوات صدام في الكويت، آنئذ، أكثر بكثير مما يحتاج إليه للبقاء هناك. وتشير التقارير التي كنّا نتلقاها أنه كان يعزز قواته في صورة منتظمة. وكان السؤال المُلِحُّ: «لِـمَ يعزز قواته هناك على هذا النحو؟». كانت تلك الأعمال تنبئ، بما لا يدع مجالاً للشك، بأن لصدام أهدافاً أخرى أبعد من احتلال الكويت.

كان يبدو، في ذلك الوقت، أننا نشهد «وقفة عملياتية»، وهي وقفة متوقعة

من وجهة النظر العسكرية، كي يستطيع صدام تأمين أهداف المرحلة الأولى من الهجوم، وإعادة التموين والاستعواض، وتحريك وحدات الإسناد القتالي مثل المدفعية وراجمات الصواريخ إلى الأمام، وتخصيص المهام القتالية للمرحلة التالية، وإتاحة الفرصة لقادة الوحدات الميدانية لاستكمال الخطط العملياتية. ولعله، من الناحية السياسية، توقف للتحقق من ردود فعل العالَمَيْن العربي والإسلامي والمجتمع الدولي، وكذلك لاتخاذ الترتيبات الإدارية لإحكام قبضته على الأرض التي احتلها. وربما أراد بذلك أيضاً أن يوحي لنا أن احتلال أرضنا لم يكن أمراً وارداً في خطته.

ولكنْ هل لنا أن نصدقه؟ هل كان يضع عينيه على آبار البترول وقاعدتي الملك عبدالعزيز البحرية والجوية في المنطقة الشرقية؟ أم أنه كان أكثر طموحاً، ويطمع في إسقاط كل دول مجلس التعاون الخليجي الست وإعادة رسم خريطة الجزيرة العربية بأسرها؟ وبدأتْ مثل هذه الأسئلة الكئيبة تطاردني بإلحاح.

عكفت على دراسة الخرائط والمخططات، محاولاً جعل نفسي مكان صدام. وسرعان ما تبادر إلى ذهني أنه قد يَشُنُّ هجوماً بالمواجهة على حقول نفطنا وموانئنا البحرية، مع استخدام قواته الخاصة للاستيلاء على منطقتنا الخلفية. كان في وسعنا، في هذه الحالة، التصدي له بقواتنا الجوية في شكل مكثف. لكن ذلك يعني أن نضحّي بها دون شك. وكان يمكن أن نتوقع أيضاً مساندة فورية من القوات الجوية الأمريكية، نظراً إلى وصول بعض الأجنحة الجوية، وانتشار مجموعتين من حاملات الطائرات الأمريكية في منطقة الخليج. ولكن إذا نجح صدام في الاستيلاء على أكثر من ٤٠ ٪ من احتياطي النفط في العالم، فلا شك أن الغرب سيفكر في الأمر ملياً قبل أن يواجهه. بل قد يُضْطر إلى التعامل معه بسياسة الأمر الواقع، ولعل ذلك أقصى ما يهدف إليه صدام. كان هذا الاحتمال باعثاً على القلق إلى أبعد الحدود.

كان شهر أغسطس يُمثل أفضل الأوقات لصدام ليبدأ هجومه، قبل أن يتسنى لأشقائنا وأصدقائنا حشد قواتهم لمساندتنا. وكنت على ثقة أنه إذا وقعت معركة برية، فلا قِبَلَ لنا بقوات صدام. وكنت أحاول ألاَّ أُبدي جزعي، وإن كنت مدركاً أننا في صدد خَطْبٍ جلل. لقد كنّا الأقل عدداً والأضعف عدة . وتلك حقاً كانت أصعب لحظة في حياتي.

عندما عدت إلى الرياض، بعد ذلك بأيام، قابلت الفريق جون يوساك

John Yeosock، قائد القوات البرية للقيادة المركزية الأمريكية، الذي كان في المملكة، آنذاك، بهدف الإعداد لاستقبال القوات الأمريكية. سألني متلهفاً عمّا شاهدته في الجبهة. فأجبته بنبرات حادة: «يبدو الأمر وكأننا خضنا الحرب فعلاً وخسرناها». وكنت أعني أنه لا يزال أمامنا الكثير لنقوم به من أجل الحفاظ على استقلالنا ووحدة أراضينا.

في العشرين من أغسطس، أي بعد يومين من رجوعي إلى الرياض عقب جولتي الميدانية الأولى، عدت إلى الجبهة مرة أخرى بصحبة صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني الذي أراد أن يرى بنفسه الموقف على الطبيعة.

كان الأمير عبدالله أول من بادر إلى زيارة القوات في الميدان من بين كبار أعضاء العائلة المالكة. واستغرقت زيارة سموه من العشرين حتى الثاني والعشرين من أغسطس. وكانت تلك المرة الأولى التي تنضوي فيها وحدات من الحرس الوطني والقوات البرية السعودية تحت قيادة واحدة. كما كانت المرة الأولى التي أصحب سموه فيها قائداً للقوات المشتركة ومسرح العمليات في جولة تفقدية.

وكما ذكرت، كان الموقف في المنطقة الشمالية أفضل بكثير منه في المنطقة الشرقية. فالقوات في الشمال كانت في حالة جيدة، لأنها لم تقطع سوى ٤٠ كيلومتراً في تحركها من مدينة الملك خالد العسكرية إلى مواقعها الدفاعية، ولديها إمكانية الحصول على حاجتها من الوقود والذخيرة، مع سهولة الوصول إلى مستودعات التموين وورش الإصلاح. أما المشكلة الأساسية، فكانت في المنطقة الشرقية. كانت الأولوية القصوى عندي هي العمل على رفع الروح المعنوية لأفراد الألوية التي انتقلت من أقصى شبه الجزيرة إلى أقصاها على وجه السرعة، وتعيش الآن حالة من الشظف في الصحراء والعواصف الرملية ودرجات الحرارة المتفاوتة ونقص في الإمدادات والتموين. كانت شدة الطلب للثلج أمراً دفعني إلى الاتصال بأمير الخفجي لإرسال عدة شاحنات محملة بالثلج بأقصى سرعة ممكنة.

كنّا في أَمَسِّ الحاجة إلى التمويل الفوري، فاتصلت هاتفياً بالأمير سلطان ورجوته أن يرسل بعض المبالغ العاجلة. وأوضحت لسموه أنني لم أشأ أن أطلب هذه الأموال من خلال القنوات العسكرية نظراً إلى ضيق الوقت. وكم كانت

استجابة سموه خير معين لي في ذلك الوقت العصيب! إذ تمكنت من إعطاء قائد كل لواء ٥٠ ألف ريال لحساب المصروفات النثرية، يضيفها إلى مخصصات التموين لتحسين الطعام وشراء الكميات اللازمة من الثلج كل يوم. وأعطيت كذلك ستة ملايين ريال لكل من قائدَيْ المنطقتين الشرقية والشمالية كمعونة عاجلة. وكان لهذه الإجراءات الفورية التي تم اتخاذها لراحة الجنود أثرها البالغ في رفع معنوياتهم. وتناولت وجبة مع أفراد إحدى الوحدات تحت خيمة معلقة بين شاحنتين لتوفير مساحة كافية من الظل. ومع أن الرياح كانت تزمجر من حولنا مثيرة دوامات رملية كثيفة، إلاّ أنها لم تثبط عزائمنا أو تنل من معنوياتنا قِيد أنملة.

لم يكن كل ما تم اتخاذه بصفة فورية، سوى إجراءات مؤقتة لسد بعض الثغرات. فقد كان واضحاً أنه تلزم إقامة قاعدتَيْ إمدادات وتموين أماميتين: واحدة في الشرق والأخرى في الشمال. وأنه يجب تشييدهما تحت الأرض لتكون محتوياتهما بعيدة عن أيّ أضرار تنجم عن القصف الجوي أو المدفعي أو الصاروخي من جانب المعتدي. لذلك، أصدرت التعليمات بالبدء فوراً بالحفر والتجهيز. ففي الشرق، وتحديداً إلى الشمال من قرية النعيرية، تمتد سلسلة من التلال على بعد ٦٠ كيلومتراً تقريباً من الحدود تصلح موقعاً لهذه القاعدة، إذ كان من الممكن حفر الكهوف في بطون هذه المرتفعات لتخزين الوقود والذخائر بأنواعها وغيرهما من مواد الإمدادات والتموين. وبدأ العمل فوراً في هذا الموقع، وتدفقت الحمولات دون انقطاع. وفي بادئ الأمر، كان كل شيء تحت الخيام: الطعام والوقود والمياه والذخيرة. وأمضيت تلك الأيام القليلة الأولى موجِّهاً اهتمامي إلى إنجاز ترتيبات الإمدادات والتموين، إلى جانب الإجراءات الإدارية اللازمة.

وكان نقل المياه في الصحراء إلى هذا العدد الكبير من الرجال أمراً شاقاً، مما جعلني أفكر في جعله أشد مشقة لصدام. فأصدرت أوامري بتحديد كل آبار المياه في الصحراء، واستعنت في ذلك بخبراء من وزارة الزراعة. كنت أريد التأكد من تدمير تلك الآبار إذا تقدم صدام وأجبرنا على الانسحاب. فإن كان هذا هو الثمن الذي علينا أن ندفعه لوقف تقدم صدام، فلا مانع من دفعه. وكان سكان الخفجي أنفسهم، الذين يزيد عددهم على ١٥ ألف نسمة، يعتمدون في إمدادات المياه على محطة للتحلية. وسألت نفسي: هل ندمر هذه المحطة أيضاً إذا أقدم العراقيون على غزونا؟ كان ذلك قراراً صعباً، ولكنْ لم يكن هناك بد من الإقدام عليه.

وماذا نفعل إذا أقدم العراقيون على استخدام الغازات السامة؟ لقد استخدمها صدام من قبل ضد إيران، كما استخدمها ضد شعبه في العراق. وانتابني القلق إزاء تجهيز قواتنا بالملابس والأقنعة الواقية. فقد تم تزويد بعض الوحدات في المنطقة الشمالية بالأقنعة دون الوحدات الأخرى التي كانت لا تزال في الخلف. وللأسف، عند فحص الأقنعة الموجودة في المخازن تبين عدم صلاحية بعض مرشحاتها، وأنه لا بد من تغييرها. ويبدو أنه من النادر حقاً في الحرب، أن تسير كل الأمور حسبما خُطِّط لها.

في تلك المرحلة، كان لديَّ أقل من ٨٠٠٠ رجل في حالة استعداد قتالي للدفاع عن الحدود الشمالية الطويلة. لذلك، قمت بنشر الكتيبتين الجاهزتين كقوات ساترة، بينما جرت الجهود، على قدم وساق، لإعداد وحدات ثقيلة في الخلف.

أشار عليَّ بعض ضباط أركاني بإنشاء حقول ألغام أمام مواقعنا الدفاعية، لإيقاف أيّ تقدم عراقي، وقَدَّموا إليَّ خرائط بالمواقع المقترحة لهذه الحقول. وكان الأمريكيون يوافقونهم في هذا الرأي، إذ يُعتبر إنشاء حقول الألغام عادةً إجراءً منطقياً في العمليات الدفاعية، وجزءاً لا يتجزأ من الإجراءات الدفاعية الواجب اتخاذها لأية قوة، مهما صغر حجمها. لكنني رفضت رفضاً باتاً، واتضح لي، بعد ذلك، أنّ رفض هذا الاقتراح كان من أفضل القرارات التي اتخذتها. إذ لم أشأ أن يُبْتَلَى سكان هذه المناطق بالألغام التي لم تنفجر، كما ابتُلي بها سكان الصحراء الغربية بعد الحرب العالمية الثانية، وكما حدث أيضاً بعد حرب فوكلاند Falkland. وكان المنطق الذي بَنَيْتُ عليه هذا القرار هو: إذا أفلحتْ الجهود السياسية، التي كانت قائمة في ذلك الوقت مع العراق، في إقناع صدام بالانسحاب من الكويت، فإن عملية تطهير المنطقة من الألغام لن تتم بلا خسائر في صفوف قواتي. أما إذا فشلت الجهود الدبلوماسية في إجلاء صدام بالحُسْنَى، واضطُرَّتْ قوات التحالف إلى الهجوم لتحرير الكويت، فإن حقول ألغامنا التي زرعناها بأيدينا ستتحول إلى هاجسٍ مخيف وعائق رهيب يعرقل تقدمنا. كما أن عمليات التطهير قبل العمليات الهجومية قد تؤدي إلى كشف نوايانا للمعتدي.

كان الاستثناء الوحيد لهذا القرار في قطاع القوات المصرية، إذ ألَحَّ عَليَّ قائدها في السماح له بإنشاء حقل ألغام بعرض بضع مئات من الأمتار على الطريق المؤدية إلى الرقعي لعرقلة أي تقدم عراقي نحو المملكة. وافقت على ذلك،

لأسباب اقتنعت بها، شريطة أن تقوم القوات المصرية بإزالة جميع الألغام قبل إخلاء المنطقة، وعندما يحين الوقت، تتقدم هذه القوات نفسها من ذلك القطاع وهي في طريقها لتحرير الكويت.

ولعل أهم ما خلصت إليه في جولتي الميدانية الأولى في الجبهة، أن الحماقة، كل الحماقة، أن نحاول الدفاع عن الحدود نفسها، أي أن يكون الخط الأمامي للدفاعات الرئيسية على الحدود مباشرة. فهذا العمل بمثابة الحكم بالإعدام على كل المدافعين عنها؛ لأنها ستكون في مرمى الأسلحة العراقية المختلفة، مثل الهاونات والمدافع وراجمات الصواريخ.

كان لا بد من تعديل الخطط الدفاعية التي وضعتْها قيادة القوات البرية. فالألوية السعودية قوات تكتيكية، وليست حرساً للحدود، لذلك لا ينبغي نشرها على الحدود مباشرة. فالأصوب سحبها إلى الخلف، بعيداً عن مرمى مدفعية صدام، وإنشاء منطقة أمن لتكون هناك مساحة كافية تُمكِّن قواتنا الجوية من التدخل لإعاقة تقدم القوات المعتدية دون التأثير في قواتنا. (كنت قلقاً في شأن التنسيق بين قواتي وقوات حرس الحدود التابعة لوزارة الداخلية التي تعمل في النقاط المنتشرة على طول الحدود وتبعد كل واحدة منها عن الأخرى مسافة ٢٠ كيلومتراً. كان لا بد من بقاء تلك القوات لإثبات سيادتنا على الأرض، وفي الوقت نفسه كنت أريد التأكد من أنها تستطيع عند انسحابنا أن تنسحب معنا أيضاً، حماية لها وحفاظاً على أرواح أفرادها).

لذلك، قررت إنشاء خط دفاعي عند «رأس مشعاب» وإلى الغرب، على بعد ٤٠ كيلومتراً من الحدود الشمالية. وأصبحت المنطقة الواقعة شمالي هذا الخط وحتى الحدود الدولية تشكل «منطقة قتل» للقوات المعتدية، فالصحراء أعتبرها عاملاً مساعداً في مصلحتنا وأكبر مصدر قوة لنا؛ لأنها توفر العمق الذي نريده. فإذا تقدم العراقيون نحونا ستطول خطوط إمدادهم ومن ثَم يسهل علينا قطعها وتدميرها. اتخذت قراري هذا في اليوم الثامن عشر من أغسطس، وَوُضِعَ موضع التنفيذ بعد ذلك بيومين.

كان الدفاع عن مدينة الخفجي التي لا تبعد عن الحدود سوى عشرة كيلومترات، أمراً صعباً، سواء أهاجمها العراقيون بحشود كبيرة، أم لم يهاجموها. إذ كان في قدرتهم تدميرها بنيران مدفعيتهم وصواريخهم من الجانب الآخر للحدود متى أرادوا ذلك. وكنت أدرك أن وضع أية قوات عسكرية داخل

المدينة سوف يعطي العراقيين ذريعة لقصفها. لذلك، أعلنت مدينة الخفجي «مدينة ميتة». ولم نشأ إثارة حالة من الفوضى والذعر بإخلاء المدنيين في ذلك الوقت، لكنْ كان علينا أن نضع خطة طوارئ لإجلاء السكان في اللحظة التي يُقْدِم فيها صدام على الهجوم. وقد أَعَدّتْ سلطات الدفاع المدني، بمساعدة أمير المنطقة الشرقية واشتراك قائد المنطقة، خطة لإجلاء السكان براً وبحراً. بيد أن السكان اقتنعوا من تلقاء أنفسهم، ودون أن نبلغهم رسمياً بخطتنا، أنّ الأسلم لهم مغادرة المدينة.

وعلى الرغم من انشغالي بهذه الأمور كلها، قمنا بإعادة التجميع للقوات المتيسرة، وقتئذ، بعد تقييم الموقف مع اللواء الركن عبدالرحمن محمد العلكمي، قائد المنطقة الشمالية، واللواء الركن صالح المُحيًا، قائد المنطقة الشرقية. وأثلج صدري، حقاً، أن يعمل معي مثل هذين الضابطين في مسرح العمليات.

عدت إلى الرياض بعد أن أصبحت الحقيقة المرة أكثر وضوحا في ذهني. فالبلاد تواجه خطراً محدقاً لا شك فيه، ولم يكن هذا الاحتمال ليدور في خلدي قبل نشوب الأزمة، أي قبل ثلاثة أسابيع فقط. كنت أشعر بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقي كلما تذكرت المصاعب التي عَليَّ أن أواجهها، والمهام التي عَليَّ أن أُنجزها. وكما ذكرت في تقريري الذي رفعته إلى سمو الأمير سلطان، كان عليّ أن:

- أعمل على رفع مستوى الكفاءة القتالية للقوات في مواقعها الجديدة.
- أكثف من تدريباتها القتالية، وأمدّها بجميع الاحتياجات.
- أضع خطة دفاعية محكمة، وأُنشئ قيادة ذات كفاءة وفعالية.
- أتعامل مع القوات الشقيقة والصديقة التي بدأتْ وقتئذ تتدفق إلى المملكة.

ولبرهة من الزمن، تخيلت نفسي جالساً في مسرح أُطفئت أنواره، أَنْتَظِر رفع الستار لمتابعة أحداث مسرحية مأساوية تزخر بالعنف والدماء وقسوة المجهول. فما من أحد يدري من سيُكتَب له البقاء، وما ستسفر عنه أحداث الفصل الأخير!

الفصل الثاني

القرارُ التاريخي

عندما علم الملك فهد بخبر غزو العراق الكويت، وكان ذلك قبيل الثانية صباحاً من يوم الخميس الثاني من أغسطس ١٩٩٠، لم يصدِّقه. ولكن التقارير وردت بعد ساعة واحدة لتؤكد أن قوات «الكوماندوز» العراقية المحمولة جواً احتلت بالفعل عدداً من المباني الحكومية المهمة في مدينة الكويت. واتضح بعد ذلك، أن تلك القوات كانت تشكل رأس الحربة لقوات غزو قوامها ثلاث فرق من قوات الحرس الجمهوري العراقي. فقد نفذت فرقة مدرعة، وفرقة مشاة آلية الهجوم الرئيسي على الكويت، بينما نفذت فرقة مدرعة أخرى الهجوم المساند من الغرب.

حاول الملك فهد الاتصال بصدام حسين عبر أحد هواتفه الخاصة التي تربو على الخمسة عشر هاتفاً، وهو لا يكاد يصدِّق ما يسمع. لكنه لم يتمكن من مكالمته. ولم يستطع الملك فهد التحدث إلى صدام إلاّ عند العاشرة من صباح ذلك اليوم. ووجد صداماً في غاية الغبطة، كأنَّما حِيزت له الدنيا بأسرها. ويُروى أن محادثتهما دارت على النحو التالي :

الملك : «ما هذا الذي أسمع؟!».

صدام : «لا تشغل بالك، سأرسل إليك عزت إبراهيم (نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقي) وسيشرح لك كل شيء».

وحاول الملك فهد، في صباح اليوم نفسه، الاتصال هاتفياً بالملك حسين، عاهل الأردن، لكن قيل له إنه نائم. وبدا لخادم الحرمين الشريفين أن الملك حسيناً كان يتهرب من التحدث إليه.

وفى الثالثة بعد ظهر الجمعة، الثالث من أغسطس، استقبل الملك فهد المبعوث العراقي، عزت إبراهيم. وقد أدهش الملك إصرار المبعوث العراقي على إبلاغه تأكيدات صدام حسين أن المملكة لن يصيبها أي أذى من جانب العراق.

وأجابه الملك فهد: «إنني أناقش وضع الكويت، وليس أمن المملكة العربية السعودية!».

وكان رد عزت إبراهيم: «لم أحضر إلى هنا لأناقش مسألة الكويت. لقد تصحَّح وضع الكويت الآن. ولا يمكن لعقارب الساعة أن تعود إلى الوراء. جئت فقط لأطمئنكم على أمن المملكة».

كان لهذا الحديث، الذي أظن أنه دار بينهما، أثره في تحديد نظرة الملك إلى الأزمة. كان الملك غاضباً أشد الغضب من احتلال العراق الكويت. لقد أدى ذلك الاحتلال إلى زعزعة الأوضاع القائمة في الجزيرة العربية، تلك الأوضاع التي حاول جاهداً، منذ أن تولى الحكم، العمل على استقرارها. أما الآن، فقد أدى الغزو إلى قلب موازين السياسة العربية رأساً على عقب. كما كان الملك وما زال يحمل في قلبه حباً خاصاً للكويت، إذ كانت الملاذ الآمن لأبيه (جدي) جلالة الملك عبدالعزيز ـ يرحمه الله ـ من مناوئيه آل رشيد، خلال حكمهم حائل وشمال الجزيرة العربية. وظل الملك عبدالعزيز في الكويت حتى خرج منها في يناير عام ١٩٠٢ في غارته التاريخية لاسترداد الرياض إلى حكم آل سعود.

وثمة سبب آخر أَحزَن الملك كثيراً، يعزى إلى تلك الصداقة القوية التي كانت تربطه بصدام وتجعله يبذل له كل العون والمساعدة. فإبَّان حرب العراق مع إيران، قدمت المملكة إلى صدام قروضاً بلغت ١٦ مليارا من الدولارات، بالإضافة إلى مبالغ أخرى أُعطيت له كمنح لا ترد. والآن، جاء صديقه الحميم ليطعنه من الخلف! وظهر جلياً ذلك الشعور بالأسى في خُطَب الملك الكثيرة التي ألقاها خلال الأزمة وأشار فيها مراراً إلى أن صداماً خيب كل آماله فيه.

وكما يحدث دائماً في النزاعات بين الدول العربية، كان أول ما انصرف إليه تفكير الملك هو حل النزاع العراقي ـ الكويتي من طريق الوساطة. ولكن بحلول مساء الجمعة، وبعد يومين من المشاورات والاتصالات مع القادة العرب والأجانب، تبين للملك أن لا جدوى من الاستمرار في ذلك النهج. تأكد الملك، في ذلك اليوم، من أن صداماً ينوي البقاء في الكويت، ولن تُفلح أية قوة

عربية في إخراجه منها. وأصبح الحديث عن «حل عربي» ضرباً من الوهم. فقد ذهب الحل العربي مع الريح وألقت به في مكانٍ سحيق. لم تعد تفلح تلك الأساليب الدبلوماسية العربية التقليدية. لم يعد هناك مكان للحوار الأخوي، أو لإصلاح ذات البين، أو للتنازلات المتبادلة، أو للعناق والقبلات التي يتلوها رأب الصدع. حقاً، لقد كان الخطب جللاً.

ارتكز استياء الملك ورفضه عدوان العراق على الكويت، على عاملين: إنساني وأخلاقي. فالكويت جارة وشقيقة وعضو، في الوقت نفسه، في مجلس التعاون لدول الخليج العربية. ولم يغب عن فطنته المغزى السياسي الجغرافي (الجيوبوليتيكي) لهذا الاحتلال. فلو ابتلع صدام الكويت، فلا شك أن استقلال المملكة ودول الخليج قاطبة، سيصبح في خطر داهم. فضم الكويت إلى العراق، سيجعل منه، دون شك، قوةً تسيطر على دول الخليج، بل على نظام الشرق الأوسط برمَّته. وعندما يغدو العراق سيّد المنطقة بلا منازع، فسوف يضغط على المملكة لترضخ لإرادته.

في ضوء هذه الرؤية لا يصبح هجوم صدام أو عدم هجومه على المملكة هو بيت القصيد. ذلك أن احتلاله الكويت يمكنه من إملاء شروطه في كل القضايا المهمة، لا سيما ما يتصل منها بالسياسة النفطية والسياسة الخارجية. ومن هنا جاءت قناعة الملك أن العدوان على الكويت عدوان على المملكة، وأن اختفاء الكويت يشكل خطراً جسيماً على أمن المملكة، عاجلاً أو آجلاً.

كان هذا الفهم الواضح للأثر الذي انطوت عليه مغامرة صدام في توازن القوى في المنطقة، سبباً في استياء خادم الحرمين الشريفين، أيضاً، من الملك حسين وياسر عرفات. فكلاهما اهْتَمَّ بالتأكيد أن صداماً ليست لديه نية الهجوم على المملكة. كانا يقولان للملك: «لِمَ كل هذا التوتر؟ لقد أَكَّدَ لنا صدام نفسه أنه لا يُضْمِرُ لكم شراً». ولم يلتفت الملك أيضاً إلى تلك التحليلات السطحية التي افترضت أن صداماً كان يمكن أن ينسحب من الكويت لو لَمْ يصدر قرارٌ بإدانته من مجلس جامعة الدول العربية في جلسته الطارئة في القاهرة. وكانت وجهة نظر الملك أن الذين يفكرون بهذه العقلية أَعْمَوا أبصارهم عن الآثار التي ستنجم بسبب ما فعله صدام. لقد هدد باحتلاله دولة الكويت، بقاء المملكة دولة مستقلة ذات سيادة. ولا أظن أن أحداً في المملكة كان يساوره أدنى شك في أن ابتلاع الكويت يعني وقوع المملكة تحت ضغوط لا قِبَلَ لها بها من جانب صدام حسين، سواء أَقرَّر مهاجمتها على الفور أم أرجأ ذلك لبعض الوقت.

ردد صدام غير مرة، بعد انتهاء الحرب، قوله: «أخطأنا خطأً جسيماً لعدم إقدامنا على غزو المملكة العربية السعودية»، مما يعني أنه كان يُبيّتُ النية لغزو المملكة في مرحلة قادمة. وعلى كلٍ، لا سبيل لدينا إلى التحقق من نواياه، إلاّ أنّ ما فعله، من وجهة نظرنا، كان أمراً جدًّ خطير.

لم يكن هناك بدٌ مع تعرض المملكة لهذا الخطر الداهم من أن يستعين الملك بالولايات المتحدة الأمريكية. وهي القوة الوحيدة التي تستطيع أن تطرد صداماً من الكويت، وتعيد الحال إلى ما كانت عليه. وأبدى الملك ملاحظة في حينها، قائلاً: «لقد تباطأ الكويتيون في طلب المساعدة، وها هم اليوم ضيوف علينا، فلا يجب أن نرتكب الخطأ نفسه فنحل ضيوفاً على غيرنا!». عَلِمْنا أن الكويتيين تلقوا تحذيراً أمريكياً بتحركات القوات العراقية، ولكنهم تباطأوا في طلب النجدة حتى فات الأوان.

وكان الاستنتاج الذي تم التوصل إليه، في تلك الساعات العصيبة والأيام المحمومة التي تلت الغزو العراقي، بعد تقدير الموقفين السياسي والعسكري، أن نسبة القوات البرية السعودية إلى القوات البرية العراقية ١ : ١٥. ونسبة القوات البرية في جميع دول مجلس التعاون الخليجي إلى القوات البرية العراقية ١ : ٧. وإذا قَدِم الجيش المصري بكامله لنجدة دول مجلس التعاون الخليجي فستظل النسبة ١ : ٢. أما إذا كان في قدرتنا استقدام الجيش المصري والجيش السوري كاملين، عندها فقط تصل النسبة ١ : ١. ولكن لم يكن أمراً واقعياً أن نفترض أن مصر أو سوريا أو حتى شركاءنا الخليجيين يمكن أن يرسلوا كل قواتهم البرية إلينا. فالسوريون، على وجه الخصوص، كانوا مرتبطين بوجودهم على الجبهة مع إسرائيل وفي لبنان. وكان عليهم أن يحتفظوا بقوات لهم في مواجهة العراق. بالإضافة إلى هذه الصعاب كلها، كنّا وأشقاءنا العرب نَفْتَقِرُ إلى وسائل نقل إستراتيجية واسعة النطاق، وسياسة دفاعية متكاملة.

هل كان في وسعنا أن نتطلع إلى مساندة من بقية دول العالم الإسلامي؟ كانت باكستان منشغلة بمواجهتها مع الهند، بينما بنجلاديش وماليزيا لا تمتلكان القوة الكافية، فضلاً عن بُعد الشقة بيننا وبينهما. وكان الجو المحيط بنا مفعماً بالعداء. فإيران في الشرق، يسعدها أن تتعرض المملكة للعدوان. أما اليمن في الجنوب، والأردن في الشمال الغربي، فكلاهما متعاطفٌ مع العراق، ومرتبط به في مجلس التعاون العربي، الذي أسّس حديثاً. فقد بدا هذا المجلس، عند

مقارنة بين القوات العراقية وقوات دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ومصر وسوريا

القوة والسلاح / الـدول		العراق	البحرين	عمان	قطر	المملكة العربية السعودية: القوات المسلحة	المملكة العربية السعودية: الحرس الوطني	الإمارات العربية المتحدة	مصر	سوريا
مجموع القوات المسلحة	العاملة	١ ٠٠٠ ٠٠٠	٦ ٠٠٠	٢٩ ٥٠٠	٧ ٥٠٠	٦٧ ٥٠٠	٥٥ ٠٠٠	٤٤ ٠٠٠	٤٥٠ ٠٠٠	٤٠٤ ٠٠٠
	الاحتياط	٨٥٠ ٠٠٠							٦٢٣ ٠٠٠	
دبابات القتال الرئيسية		٥ ٥٠٠	٥٤	٣٩	٢٤	٥٥٠		١٣١	٣ ١٩٠	٤ ٠٠٠
دبابات خفيفة		١٠٠		٣٦				٧٦		
عربات قتال المشاة		١ ٥٠٠		٢	٣٠	< ٥٠٠		٣٠	٤٧٠	٢ ٢٥٠
ناقلات جنود مدرعة		٦ ٠٠٠	١٠٣	٦	١٦٠	١ ١٠٠	١ ١٠٠	٥١٠	٢ ٧٤٥	١ ٥٠٠
مدافع ذاتية الحركة		٥٠٠		١٢	٦	٢٧٥		٢٠	< ١٤٠	١٨٦
مدافع مقطورة (مجرورة)		٣ ٠٠٠	١٤	٦٣	< ٨	٢٠٠	٦٨	٧٧	١ ١٢٠	٢ ٠٠٠
راجمات صواريخ		٢٠٠				< ١٤		٥٨	٣٠٠	٢٥٠
طائرات مقاتلة		٦٨٩	٢٤	٥٧	١٨	١٨٩		٩١	٤٧٥	٥٥٨
طائرات عمودية هجومية		١٥٩	١٢		٢٠			١٩	٧٤	١٠٠

المصدر: التوازن العسكري ١٩٩٠ ـ ١٩٩١

تأسيسه، أنه رد حاسم على مجلس التعاون لدول الخليج العربية. أما في الشمال الغربي، فهناك إسرائيل بتاريخها الطويل من العداء للعرب. بينما كان العراق، على حدودنا الشمالية، يحشد قواته التي تزداد أعدادها كل ساعة. والأدهى من ذلك، أن الذي يتربع على سدّة الحكم في العراق حاكمٌ لا يحترم كلمته. فبينما رفض نائبه، عزت إبراهيم، مجرد الحديث عن غزو الكويت، كانت القوات العراقية ترتكب أبشع الجرائم فيها.

قرر قادتنا السياسيون، إثر تحليلهم الموقف من كل جوانبه، أن القوات الصديقة التي تمكن دعوتها لمساندتنا لا بد أن تتوافر فيها شروط عدة، أوجزها في الآتي :

١ ـ التمتع بخفة حركة عالية، وقدرة سريعة على الرد.

٢ ـ امتلاك القدرة على الردع، حتى قبل الوصول إلى المملكة.

٣ ـ القدرة على حماية خطوط الإمداد، لا سيما البحرية منها.

٤ ـ القدرة على الدفاع عن المملكة ومواجهة أي هجوم عراقي محتمل.

٥ ـ الاستعداد لشن عملية هجومية لتحرير الكويت في القريب العاجل.

والنتيجة الواضحة أن مثل هذه الشروط لا تتوافر إلاّ في القوات الأمريكية. وسيظل قرار الملك فهد استدعاء القوات الأمريكية، والقوات الأخرى الشقيقة والصديقة، الذي سُمّي بحق قراراً تاريخياً، أحد إنجازاته الخالدة. وهو قرار أملاه المنطق أيضاً. فالملك لديه الشجاعة كل الشجاعة أن يضع في لحظة الخطر أمن الوطن قبل أي اعتبار. فعل ذلك مواجهاً كل المحاذير والشعارات الجوفاء التي كان يرددها أدعياء القومية العربية. ولم تثنه عن عزمه مقولة القائلين: إن الاستنجاد بالقوات الغربية سوف يشعل المنطقة بأسرها. فهل تعني القومية العربية أن نرضخ لإرادة المعتدي؟!

لم يغب عن خادم الحرمين الشريفين أن بعض المسلمين قد يعترض، بلا شك، على طلب المساندة من القوات الأجنبية، خصوصاً أنها المرة الأولى التي تدخل فيها قوات غير إسلامية إلى أراضينا. فالمملكة لم تتعرض في تاريخها لاستعمار غربي، خلافاً لأجزاء العالم العربي الأخرى. كان الملك يدرك تخوف بعض المسلمين من بقاء القوات الأجنبية في المملكة بعد انتهاء مهمتها. كما كانت ثمة مخاوف أخرى من ردود الفعل السلبية لبعض المواطنين السعوديين

ومواطني الدول العربية والإسلامية الأخرى. بيد أن الملك أدرك بحكمته أنه، إزاء التهديدات الناجمة عن غزو صدام الكويت، لا بد من تحمل تلك المخاطر كلها. فالملك يأخذ الرأي العام الإسلامي بعين الاعتبار في كل ما يفعله. وإنجازاته الإسلامية يعرفها القاصي والداني. ويكفي قيامه بأكبر توسعة في التاريخ للحرمين الشريفين، وتوجيه رسالة رسمية إلى الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، وليّ العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني (في ٢٤ صفر ١٤٠٧هـ، الموافق ٢٧ أكتوبر ١٩٨٦م في المدينة المنورة) يُعَبِّر عن رغبته في أن يُلَقَّبَ بلقب يعتز به هو: «خادم الحرمين الشريفين» بدلاً من «صاحب الجلالة» أو أية ألقاب تدل على التبجيل أو التعظيم.

تدور تكهنات كثيرة عن كيف ومتى عقد خادم الحرمين الشريفين العزم على دعوة الأمريكيين. ويدّعي بعض الكُتّاب أن ذلك القرار اتُّخِذ في اليوم السادس من أغسطس، عندما وصل ديك تشيني Dick Cheney، وزير الدفاع الأمريكي، إلى جدّة، على رأس وفد كبير يضم الفريق أول نورمان شوارتزكوف Norman Schwarzkopf، قائد القيادة المركزية الأمريكية، وروبرت جيتس Robert Gates، الذي عُيِّن فيما بعد مديراً لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، وپول ولفوڤيتز Paul Wolfowitz، نائب وزير الدفاع للشؤون الدولية، والفريق تشارلز هورنر Charles Horner، قائد القوات الجوية للقيادة المركزية الأمريكية، والفريق جون يوساك، قائد القوات البرية للقيادة المركزية الأمريكية، وفي صحبتهم جَمْعٌ من كبار المساعدين وهيئة الأركان. استقبل الملك فهد الوفد الأمريكي، كما استقبله أيضاً ولي العهد الأمير عبدالله، والأمير عبدالرحمن بن عبدالعزيز نائب وزير الدفاع، والأمير سعود الفيصل وزير الخارجية، وعثمان الحميد مساعد وزير الدفاع، والفريق أول ركن محمد صالح الحمّاد رئيس هيئة الأركان العامة. وتولى أخي، الأمير بندر سفير خادم الحرمين الشريفين لدى واشنطن، مهمة الترجمة للملك. أما الأمير سلطان، وزير الدفاع، الذي كان في المملكة المغربية، في ذلك الوقت، يتماثل للشفاء إثر عملية جراحية في الركبة، فقد تمت استشارته بالهاتف في كل مرحلة، وفي كل جانب من جوانب الأزمة. وقد توجَّه إلى جدّة في ليلة السادس من أغسطس واجتمع إلى تشيني في اليوم التالي.

ويقول بعض الروايات إن العامل الأساسي في قرار الملك يُعزى إلى صور الأقمار الصناعية التي عرضها عليه تشيني وأظهرت وجود حشود عسكرية عراقية على حدود المملكة. وثمة رواية أخرى تجزم أن الأمر بدأ يتخذ الصورة التي

انتهى إليها قبل ذلك، وتحديداً بعد لقاء «المرأة الحديدية» مارجريت تاتشر Margaret Thatcher، رئيسة وزراء بريطانيا، والرئيس الأمريكي جورج بوش George Bush في آسپن Aspen في ولاية كولورادو Colorado في يوم الغزو نفسه، حيث أقنعته بضرورة التدخل.

هذه الروايات جميعها تغفل أمراً مهماً هو أنّ قرار الملك استدعاء القوات الأمريكية لم يكن وليد لحظته، ولم يكن موضع خلاف داخل العائلة المالكة. ولم يتدخل في اتخاذ الملك لهذا القرار شخص أجنبي أو غير أجنبي. فمثل هذا القرار الحيوي الذي يتعلق بمصلحة الوطن لا يُتَّخذ بناء على تعليق عابر من هنا أو هناك! فحماية بلدنا وأمنه لم يكونا ليعتمدا على مصادفة وجود السيدة تاتشر في آسپن، أو عرض بعض الصور على الملك! فواقع الأمر، أن القرار الذي اتخذه كان بدعم من كبار العائلة المالكة. وهو اتفاق تأصل بمرور السنين يقضي بأنه إذا تعرض أمننا ووحدة أراضينا لخطر لا طاقة لقواتنا به، فلن نتردد في طلب المساندة من أية دولة صديقة تجمعنا بها مصالح مشتركة، بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية.

ومما تنبغي الإشارة إليه أن القدرة الدفاعية للمملكة، في ضوء توجيهات الأمير سلطان، تحسنت بشكل ملحوظ خلال العقد الماضي. وارتفعت، بوجه خاص، كفاءة القوات الجوية وكذلك قدرات الدفاع الجوي، مع تحسين البنية الأساسية العسكرية وتطويرها بما اشتملت عليه من «المدن العسكرية» التي أنشئت في المواقع الإستراتيجية في مختلف أنحاء المملكة. وعلى الرغم من تلك التطورات الهائلة، تبقى ثمة حقيقة لا يمكن إغفالها أو إخفاؤها، مؤداها أن المملكة، بمساحتها الشاسعة وقلة سكانها ووجود ذلك الاحتياطي الهائل من النفط في أراضيها، لا تزال هدفاً للطامعين. ولهذا، قامت فرضية ثابتة اتفق عليها كل صانعي القرار في المملكة تقضي بضرورة الاستعانة بأصدقائنا وكل من تربطنا بهم مصالح مشتركة، لا سيما الولايات المتحدة الأمريكية، إذا تعرضنا لعدوان شامل لا طاقة لنا به (من جانب الاتحاد السوڤيتي السابق على سبيل المثال). وكان ضمن حساباتنا أن من مصلحة الغرب مساندتنا، فالصداقة تَصْدُق على مستوى الأفراد، أما على مستوى الدول فالمصلحة تكون دائماً فوق كل اعتبار.

وليس سراً أن الأمريكيين حاولوا جهدهم سنوات طويلة لتتخذ هذه العلاقة الأمنية شكلاً رسمياً، بالسماح لهم بتخزين معدات عسكرية في المملكة. فقد

طلب الرئيس كارتر Carter من المملكة أن توقع اتفاقية دفاع مع الولايات المتحدة، عقب صدمة سقوط الشاه أوائل عام ١٩٧٩ تحسباً من أن سقوطه قد يؤدي إلى حالة من عدم الاستقرار في المنطقة. كما ذهب الرئيس ريجان Reagan أبعد من ذلك حين عرض على المملكة صفقة تشبه «التحالف الإستراتيجي» مع إسرائيل، وقال: «في وسعكم أن تحصلوا على كل شيء تحصل عليه إسرائيل». لكن الملك فهداً، الذي كان وقتها ولياً للعهد، لم يرَ ضرورة إلى أن تتخذ تلك العلاقة بين المملكة والولايات المتحدة شكلاً رسمياً، وكان دائماً يقول إنه إذا حدث أمرٌ يعرّض مصالحنا ومصالح الولايات المتحدة للخطر، فلن نحتاج عند ذلك إلى تحالف رسمي، بل سنحارب معاً، أما إذا لم تكن مصالح الولايات المتحدة مهددة فلا شيء سيجبرها على الوقوف معنا.

كانت وجهة نظر خادم الحرمين الشريفين دائماً أن الأخطار التي تهدد المملكة نوعان: خطرٌ يشكل تهديداً لمصالح الولايات المتحدة، وفي مثل هذه الحالة سيتدخل الأمريكيون لا محالة. وخطرٌ لا يشكل تهديداً لمصالحهم، وفي هذه الحالة قد يترددون في التدخل. ولذلك رأى الملك عدم جدوى الارتباط بتحالف مع الولايات المتحدة؛ لأن ذلك يثير حفيظة العالمين العربي والإسلامي. ولا أعتقد أن أحداً من كبار العائلة المالكة يختلف مع هذا التحليل، لكن الصحفيين وغيرهم من المراقبين يبحثون دائماً عن نقاط للخلاف.

وعلى الرغم من رفض الملك طلبات الولايات المتحدة إقامة تحالف رسمي، إلاّ أننا كنّا على اطلاع تام ومستمر على الاستعدادات الدفاعية الأمريكية في المنطقة. فقد أُحطنا علماً بتصميم الإدارة الأمريكية، في عهد الرئيس كارتر، على التدخل العسكري في المنطقة إذا تعرضت المصالح الأمريكية للخطر، وهو ما عُرف بمبدأ كارتر. ولاحظنا أيضاً ميلاد (قوة الانتشار السريع) الأمريكية وتطورها عام ١٩٨٣ في القيادة المركزية الأمريكية CENTCOM التي أَضْفَتْ المصداقية، للمرة الأولى، على التزام الولايات المتحدة بأمن الخليج. كما ارتفعت، في الوقت نفسه، مبيعات الأسلحة الأمريكية للمملكة. لكل ذلك، آثر الملك فهد وجيراننا في الخليج، بدلاً من توقيع اتفاقية دفاع مع واشنطن، أن ينضوي الجميع تحت مظلة دفاعية أمريكية. مظلةٌ تُفْتَح فقط عندَ تعرض المنطقة لتهديد حقيقي.

تلك هي خلفية قرار الملك، بعد أن عَرّض صدام أمننا وأمن المنطقة بأسرها للخطر، وهدد الاقتصاد العالمي الذي تُشَكِّل منطقتنا الشرقية الغنية بالنفط مركزاً

حساساً فيه. ولمّا كان الأمريكيون هم وحدهم القادرين على صدّ عدوان صدام ودحره، فلا بديل من مقدمهم، وإن لم يغب عن بالنا أن استدعاءهم لا يخلو من مخاطر جمّة. ولكن خوفنا تبدّد بناء على إصرار الملك على أن يقبض بنفسه على زمام الأمور. فعلى سبيل المثال، كان من ضمن شروط قبول مساندة الولايات المتحدة شرط ينص على توقيع تعهد بمغادرة القوات الأمريكية المملكة متى طلب منها الملك ذلك.

لم يكن استدعاء الأمريكيين أو عدمه أمراً يشغل بال الملك ومستشاريه، بل ظل شغلهم الشاغل: «هل يمكن الاعتماد على الأمريكيين فعلاً، وهل سيأتون بأعداد كافية وتصميم صادق على إتمام المهمة؟». هذا هو السؤال الذي شغل تفكيرنا خلال الأيام الأربعة أو الخمسة التي أعقبت الغزو، والذي دار في شأنه كثير من الأخذ والرد عبر المحيط الأطلسي.

وريثما تتضح الإجابة عن ذلك السؤال، مضى الملك في مشاوراته مع القادة، عرباً وغير عرب. كان عليه التأكد من مصداقية الاعتماد على الولايات المتحدة ثم على بريطانيا قبل أن يصدر قراره الحكيم باستدعاء القوات الأجنبية. تحدث الملك ساعات طويلة، في تلك الأيام الأولى، إلى الرئيس بوش والسيدة تاتشر. ولا أعرف على وجه التحديد هل تناول الحديث موضوع تحرير الكويت أم لا، ولكن في وسعنا الافتراض أنه لولا حصول الملك على تأكيدات جازمة من الرئيس الأمريكي ورئيسة وزراء بريطانيا أنهما سيخوضان المعركة، لمضى في محاولاته للبحث عن حل عربي للمشكلة، على الرغم من يقينه أن الحل العربي لا يمكن أن يُعَوَّل عليه، لكنه لم يشأ أن يخاطر بفقدان العرب والغرب معاً.

وهذا يعني أن الهدف من مهمة تشيني في الرياض يوم ٦ أغسطس كان إضفاء الصِّبْغَة الرسمية فقط على أمر تم الفصل فيه. فالملك قد حزم أمره فعلاً، والرئيس بوش قد أصدر أوامره إلى حاملتي طائرات بالتوجه إلى المنطقة قبل السادس من أغسطس. وبينما الفرقة ٨٢ المحمولة جواً تستعد للتحرك، كان الملك يستقبل الوفد الأمريكي.

وكما سبق أن ذكرت، فلا يساورني أدنى شك أنه لم يكن هناك اختلاف في الرأي في هذا الأمر بين صانعي السياسة في المملكة: الملك فهد وولي عهده الأمير عبدالله والأمير سلطان النائب الثاني.

صوّر بعض المعلقين حرب الخليج وكأنها حرب غربية استعمارية استهدفت

حماية المصالح الاقتصادية الغربية. وذهب بعضهم الآخر، وبينهم كثير من العرب، إلى أنها مؤامرة أمريكية ـ إسرائيلية خبيثة لتدمير الدولة العربية الوحيدة القادرة على تحدي القوة العسكرية الإسرائيلية. وغاب عن هؤلاء المعلقين كافة أن صداماً لم يهدد فقط المصالح الغربية والإسرائيلية، فلو كان التهديد مقتصراً على تلك المصالح وحدها، لكان التحالف الذي خاض المعركة ضده مختلفاً. لكنه تجاوز ذلك فهدد مصالح دول لها أدوار رئيسية في المنطقة كالمملكة وسوريا ومصر ودول أخرى غير عربية كتركيا وإيران. وإن أحداً لن يطيق أحلامه في فرض هيمنته على المنطقة، وهو الهدف الأساسي لعدوانه.

رأى كثير من الدول، على اختلاف مصالحها، في عمل صدام تهديداً لأمنها واستقرارها، مما مَكّن الرئيس جورج بوش من تكوين تحالفٍ أنزل بالعراق أشد العقاب. فالنظرة إلى الحرب من منظور المصالح الغربية دفاعاً عن حقول النفط أو حمايةً لأمن إسرائيل فقط، تُعَد نظرة قاصرة لا تُلِم بكل جوانب الأزمة لأنها تغفل أثر العمل الذي قام به صدام في السياسة الإقليمية ومصالح القوى الفاعلة في المنطقة.

لقد بلغت الحماقة بصدام أنه هدد مصالح كل الدول التي تتاخم حدود بلاده، بالإضافة إلى دول أخرى بعيدة عنه، مما حدا بعدد من الدول العربية على التحالف مع دول أجنبية صديقة لشن الحرب عليه، على الرغم من اقتناعها أن المحصّلة النهائية لتلك الحرب ستكون في مصلحة أعداءٍ لها كإسرائيل. ولكنّ عدوان صدام جعلها أمام أمرين أحلاهما مرّ.

الفصل الثالث

المعركة من أجل السّلطة

بينما الملك وولي العهد والأمير سلطان يعالجون الأزمة على مستوى السياسة العليا في تلك اللحظات الدقيقة الحرجة، مضى القادة العسكريون يقدحون أذهانهم للوصول إلى الرد العسكري المناسب على تلك الحرب التي تدور رحاها قرب حدودنا.

أذكر أنني كنت في مزرعتي التي تبعد مسافة ساعة بالسيارة عن مدينة الرياض، عندما علمت للمرة الأولى بخبر اجتياح القوات العراقية الحدود الكويتية. أسرعت بالعودة إلى مكتبي في مقر قيادة قوات الدفاع الجوي، وأعلنتُ حالة التأهب القصوى لشبكة الدفاع الجوي التي تغطي المملكة. كانت الساعة، عندئذ، الرابعة من صباح الثاني من أغسطس ١٩٩٠.

توجهْتُ، بعد ذلك بقليل، إلى مكتب الفريق أول ركن محمد صالح الحمّاد، رئيس هيئة الأركان العامة. ثم لحق بي الأعضاء الآخرون في لجنة الضباط العليا، وهم: الفريق الركن يوسف عبدالرحمن الراشد، قائد القوات البرية، والفريق الركن أحمد إبراهيم بحيري. قائد القوات الجوية، والفريق الركن طلال سالم المفضي، قائد القوات البحرية.

كانت تواجهنا ـ نحن العسكريين ـ مشكلة ملحَّة، تتصل بإعداد الترتيبات العملية لاستقبال القوات التي عرضت الدول الصديقة إرسالها إلينا، وتأمين المساعدات اللازمة لنقلها وإيوائها وتموينها. أبدى المصريون والسوريون والمغاربة استعدادهم لإرسال قواتهم إلينا. ولكنْ، حتى ذلك الوقت، لم تكن ثمة استعدادات لاستقبالها. وكان لزاماً علينا أن نرد على استفسارات الأصدقاء الذين هبّوا إلى مساندتنا. لم يتطلّب الأمر إعادة ترتيب قواعدنا الجوية والبرية فحسب،

بل كل هيكل الإمداد والتموين لدينا. كان الأسبوع الأول مرهقاً حقاً من الوجهة العسكرية؛ إذ لم تتضح أهداف صدام بعد، وكانت استجابة المجتمع الدولي لا تزال أمراً يصعب التكهن به.

سافر أفراد أسرتي، في أواخر شهر يوليه، خارج البلاد لقضاء العطلة الصيفية، وكان من المقرر أن ألحق بهم في الرابع من أغسطس. ولم أتمكن بطبيعة الحال من ذلك، لكنني أقنعتهم بالبقاء حيث كانوا لبعض الوقت. لم أفعل ذلك ليغدوا آمنين من الخطر، بل لحرصي على أن أُكرّس كل وقتي واهتمامي للأزمة القائمة.

عندما بدت لي الصعوبات التي نواجهها في تحويل مؤسستنا العسكرية من حالة السلم إلى حالة الحرب، أيقنت أنه لا بدّ من التفكير بطريقة مبتكرة. أدركت الحاجة إلى إيجاد قيادة مستقلة إلى جانب الهيكل العسكري القائم لقواتنا المسلحة، وتعيين من نحتاج إليه من الضباط والأفراد لإنجاز تلك المهمة التي نحن في صددها. وخلاصة الفكرة التي كانت تراودني هي تشكيل قيادة عسكرية مؤقتة لقيادة وحدات وتشكيلات من القوات البرية والجوية والبحرية وقوات الدفاع الجوي، تحت إمرة قائد واحد، يُعهد إليها بأداء مهام محددة. وكان ذلك إجراءً متبعاً في معظم الجيوش، حتى في مجال الأعمال غير العسكرية عندما تستجد ظروف غير متوقعة. وتصورتُ أنه لكي تؤدي تلك القيادة مهامها على الوجه الأكمل، فلا بدّ أن تُمنح صلاحيات كاملة. تلك كانت رؤيتي إلى الوضع الراهن، من موقعي قائداً لقوات الدفاع الجوي الملكي السعودي في الأيام العصيبة الأولى.

وبعد قضاء ليلة لم يغمض لي فيها جفن، وأنا أفكر في تلك المسائل، كتبتُ مقترحاتي وأرسلتها إلى رئيس هيئة الأركان العامة ورجوته النظر فيها ودراستها. وكان أول ما بَنَيْت عليه وجهة نظري هو أن هيكل القيادة الحالي تواجهه صعاب جمَّة في التعامل مع الأزمة. وأوضحت وجوب تشكيل قيادة للقوات المشتركة تكون مستقلة عن التسلسل القيادي العسكري القائم لتتولى إدارة الموقف، بما في ذلك التعامل مع الأمريكيين والقوات الصديقة الأخرى.

ولكي أساعد رئيس هيئة الأركان العامة في الأسبوع الأول من الأزمة، طلبت من ضباط أركاني في قوات الدفاع الجوي إعداد رسومات تخطيطية تبين عدد وحجم ونوع الوحدات التي نحتاج إليها من الدول الشقيقة والصديقة، وكذلك

الاستعدادات التي ينبغي أن تتم قبل وصول تلك القوات، والإجراءات الواجب اتخاذها حتى تصبح جاهزة للقتال. وقدّمت تلك البيانات إلى رئيس هيئة الأركان العامة.

اتصلت، في اليوم الخامس من أغسطس، بالأمير سلطان في المملكة المغربية أطلب توجيهاته، فلا ريب أنه، وقد شغل منصب وزير الدفاع لأكثر من ثلاثة عقود، أضحى نبض القوات المسلحة الموجِّه لحركة إيقاعها بفكره وقلبه. فهو على علم تام بكفاءة كل قائد وضابط، وبمدى استعداداتنا وقدراتنا. كان الرجل الوحيد الذي في مقدوره أن يجد حلولاً للمشاكل التي كنّا نواجهها. فالأمير سلطان وإن لم يكن رجلاً عسكرياً إلاّ أن خبرته العسكرية تفوق خبرة كل قائد في صفوف قواتنا المسلحة.

كان الأمير سلطان، لسوء الحظ، يتحرك في تلك الفترة بصعوبة وألم شديدين عقب الجراحة التي أجريت له في الركبة، حتى إن الملك طلب منه، رفقاً به ورحمة، أن يبقى في المغرب إلى حين اكتمال شفائه. ولكن الأمير سلطان ما كان ليبقى بعيداً عن وطنه في تلك الظروف المصيرية. وشعرت بالارتياح عندما علمت بقراره العودة إلى البلاد فوراً.

كان متوقعاً أن يبدأ وصول القوات الأمريكية بأعداد كبيرة إلى المملكة في أيّة لحظة. وكان ديك تشيني، وزير الدفاع الأمريكي، والفريق أول شوارتزكوف قد خلّفا وراءهما الفريق تشارلز هورنر، قائد القوات الجوية للقيادة المركزية، والفريق جون يوساك، قائد القوات البرية للقيادة المركزية، لإعداد الترتيبات اللازمة لوصول تلك القوات. وعُيِّن هورنر، إذ كان أقدم الضباط الأمريكيين، قائماً بأعمال قائد القيادة المركزية. وبدا، مثلي، مهموماً في شأن الدفاعات التي تفصل جحافل الجيش العراقي في الشمال عن العاصمة الرياض نفسها، فهي دفاعات لا تتعدى قوة ساترة سعودية. وظل نائب هورنر للقوات الجوية مشغولاً بنشر الطائرات الأمريكية التي ستخوض المعركة جنباً إلى جنب مع قواتنا الجوية إذا تخطى العراقيون حدودنا. ولكن، وحتى ذلك التاريخ، لم يكن قد تحدَّد بعد مقر القيادة للقوات الأمريكية. وكانت مهمة يوساك الرئيسية هي التنسيق مع مختلف الجهات الحكومية السعودية للإعداد لاستقبال القوات البرية الأمريكية في موانئنا ومطاراتنا، والترتيب لتحركها إلى أرض المعركة. وكان الأمريكيون في حاجة إلى قرارات سريعة وحاسمة في شأن المواقع المناسبة لتلك القوات وترتيب إمدادها

وتموينها. وتم ذلك كله في الأيام الأولى من شهر أغسطس، تلك الأيام الحُبْلَى بالأخطار والهموم. كان من المتعيّن على الأمريكيين أن ينشروا جنودهم في المواقع التي تمكنهم من الرد إذا أقدم العراقيون على الهجوم.

كانت القوات الصديقة التي جاءت لمساندتنا في حاجة إلى أن تعمل مع فريق سعودي، بل مع قائد سعودي يملك سلطة التنفيذ. فثمة فراغ لا بدّ من ملئه، فاقترحت تكوين قيادة للقوات المشتركة لتملأ ذلك الفراغ.

وقبل اكتمال تلك الترتيبات تدخلت بطريقتي الخاصة لتسيير بعض الأمور. فحصلت على موافقة الأمير سلطان ليكون مقر القيادة الأمريكية قرب مركز القيادة الحديث لقواتنا في الطابق الأسفل من مبنى وزارة الدفاع. فيسهل بذلك على الأمريكيين الاتصال برجالنا والتعاون معهم. وقدّم ضباط أركاني كل المساعدات الممكنة إلى الفريق هورنر. ومن الطريف أن هورنر في تلك الأيام الأولى من الأزمة، كان يتنقل في سيارة مستأجرة غير مزودة بهاتف. فأمّنا له سيارة مزوّدة بهاتف لنظل على اتصال دائم به.

كنت حريصاً كل الحرص أن يدرك رئيس هيئة الأركان العامة وقادة القوات أني لم أكن أسعى إلى منصب أعلى، أو أرغب في رئاسة القيادة المقترحة للقوات المشتركة. وأشرت عليهم أن يختاروا لذلك المنصب شخصاً قديراً، وألاّ نتوانى جميعاً في مساعدته بكل ما نستطيع. وخلال يوم أو يومين، وتحت ضغط الحاجة الملحّة إلى استيعاب القوات الأمريكية القادمة، استجاب رئيس هيئة الأركان العامة لفكرتي فأرسل خطاباً إلى الأمير سلطان يؤيد فيه فكرة تعيين قائد للقوات المشتركة، ويرشحني، كأفضل شخص مناسب، لذلك المنصب. رَدّ الأمير سلطان على الخطاب فوراً، وطلب من رئيس هيئة الأركان العامة أن يبحث عن شخص آخر غيري. ربما كانت وجهة نظره ألاّ يظهر وكأنَّه يُحابي ابنه، واقترح سموه اسم قائدٍ آخر فعلاً. كان ردّ رئيس هيئة الأركان العامة على خطاب الأمير سلطان أنه، من وجهة نظره، لا يجد قائداً آخر أفضل مني ليقوم بتلك المهمة. وهنا تتجلى شجاعة هذا الرجل في ذلك الاعتراف، خصوصاً أن تعييني في هذا المنصب كان من شأنه أن يَقْلِب التسلسل القيادي رأساً على عقب.

رُفع الأمر برمَّته إلى خادم الحرمين الشريفين، فوافق بتاريخ ٩ أغسطس على تعييني قائداً للقوات المشتركة ومسرح العمليات، على أن يسري القرار اعتباراً من الثانية عشرة ظهر يوم الجمعة ١٠ أغسطس. ولم يَصْدُر بذلك مرسوم ملكي ولا

إعلان رسمي، إذ اكتفى الملك بإرسال خطاب يحمل موافقته إلى الأمير سلطان. وكانت تلك طريقة حكيمة في تناول هذا الأمر، إذا أخذنا في الاعتبار المعارضة الشديدة التي أثارتها فكرة إنشاء قيادة للقوات المشتركة بين صفوف كبار الضباط، وبينهم من هم أعلى رتبة مني. وتمنيت لو أن تعييني صدر بموجب مرسوم ملكي حتى تبرز المسؤوليات الجسام التي أسندها الملك إليَّ، ولكن عندما أُعيد التأمّل في تلك الأحداث يتبين لي أن تلك الرغبة كانت غير واقعية.

ولا بدّ أن أصحح هنا رواية نورمان شوارتزكوف لهذه الأحداث في كتابه «It Doesn't Take a Hero». كتب أن تعييني يُعَدّ أول نصر أحرزه هورنر ويوساك. وادَّعى أنهما بدافع الحاجة إلى قائد سعودي يملك سلطة إنفاق الأموال، «توسلا» إلى الأمير سلطان الذي عيَّنني بعد التشاور مع الملك. يقول شوارتزكوف: «إن الأمر ببساطة يعني أن خالداً كانت لديه صلاحية توقيع الشيكات». وهذه نظرة غير صائبة إلى أسباب تعييني قائداً للقوات المشتركة والخطوات التي أدت إليها. ولا يسع الفريق هورنر والفريق يوساك إلاّ أن يؤكدا أنهما لم يقابلا الأمير سلطان ولم يناقشا معه أمر تعييني ولم تكن لهما يد في ذلك الموضوع أصلاً.

بادرت، دون إبطاء، إلى تشكيل قيادة القوات المشتركة ومسرح العمليات، واختيار الضباط الذين سيعملون معي. أدركت، منذ البداية، أن مهمتي تتضمن ثلاثة جوانب مختلفة سأتناولها بالتحليل في هذا الفصل وفي الفصول التي تليه.

كان الجانب الأول من مهمتي عملياً، وهو تسهيل تدفق القوات الشقيقة والصديقة إلى المملكة، بكل ما تحمله كلمة تسهيل من معنى. وكان الجانب الثاني رمزياً ولكنه جدّ مهم، وهو التأكد من أننا لن نصبح لقمة سائغة يبتلعها حلفاؤنا الأمريكيون الأقوياء. أما الجانب الثالث فكان وظيفياً، يتمثل في إقناع زملائي قادة القوات بضرورة أن تكون لديّ الصلاحيات العملياتية الكاملة حتى تتوافر لي المرونة اللازمة لإنجاز مهمتي.

وتتضح أسباب الشد والجذب بيني وبين قادة القوات، في ذلك الوقت، إذا عرف القارئ أن الخلاف بيننا تركّز على المستوى الذي يجب أن تعمل فيه قيادة القوات المشتركة. كنت أرى أن مسؤولية قائد القوات المشتركة تتطلب قيادة «عملياتية» على جميع وحدات القوات البرية في مسرح العمليات، وكذلك القوات الجوية والبحرية. وبمعنى آخر، كنت أرغب في أن تكون لديّ صلاحية تخصيص

المهام لكل الوحدات، البرية والجوية والبحرية، والإصرار على تنفيذها. وعلى النقيض من ذلك، كان قادة القوات الآخرون يرون أن قيادة القوات المشتركة الجديدة، ليست إلاّ قيادة «تكتيكية» يُلْحَق عليها ضباط اتصال من القوات الجوية والقوات البحرية، تكون مهمتهم نقل طلبات المساندة الجوية والبحرية إلى قادة القوات الذين ينفذونها أو يعترضون عليها حسبما يتراءى لهم، فيصبح هؤلاء القادة، بهذا المفهوم، هم السلطة الأعلى، كلٌّ في ما يخصه.

وفي غمرة هذا الصراع، منحني ولي العهد الأمير عبدالله نفحة تشجيع شدّت من أزري في معركتي من أجل السلطة. كنت قد رافقت سموه، كما سبق أن ذكرت، في زيارته للقوات على الجبهة يوم العشرين من أغسطس. ويقضي البروتوكول أن أطير إلى حفر الباطن لأكون في شرف استقباله. لذلك، أعددت الترتيبات لأصل إلى هناك قبل ساعة من وصول سموه. وبينما كانت طائرتي تستعد للإقلاع من رأس مشعاب، جاء إلى أرض المطار رجل يسعى ليخبرني أن الأمير عبدالله يريد التحدث إليّ على وجه السرعة. واعتقدت أن هناك أمراً خطيراً قد حدث. فهبطت من الطائرة وأسرعت إلى أقرب هاتف في مبنى المطار. كان المتحدث هو الأمير تركي بن عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز، أحد كبار مستشاري الأمير عبدالله. أخبرني أن وليّ العهد يقترح تغييراً في موعد تناول الغداء مع إحدى الوحدات في حفر الباطن. كان الأمير عبدالله يريد متسعاً من الوقت ليزور بقية الوحدات، لكنه لم يشأ أن يغير البرنامج دون أن يستشيرني. كانت لفتة طيبة رفعت من روحي المعنوية إلى حدٍّ تعجز عن وصفه الكلمات، وبلسماً شافياً في صراعي مع كمٍّ هائل من المشاكل. أكّد ولي العهد سلطتي الجديدة بأرق أسلوب. شعرت حقاً بأنه وضع وساماً على صدري.

كان الفريق جون يوساك، قائد القوات البرية للقيادة المركزية الأمريكية، رجلاً عسكرياً منضبطاً وصاحب أسلوب صريح ومباشر ولديه بعض الخلفية عن بلادنا، وذلك، بلا شك، سبب اختياره لتلك المهمة. وقد نما إعجابي به شيئاً فشيئاً. مكث مدة عامين في المملكة قبل عشر سنوات مستشاراً في مجال تحديث الحرس الوطني السعودي. فكان على دراية تامة بالروتين الحكومي عندنا، الذي لا يختلف عن غيره في بلاد أخرى، حيث تطول الإجراءات وتتعثر القرارات.

ونظراً إلى أننا كنّا نواجه ظروفاً طارئة، أصبح لزاماً عليّ أن أعمل على الإسراع في إنجاز المهام والأعمال التي قد تتعطل في قنوات العمل الحكومي. ولَمَّا لم تكن هناك قواعد محددة مسبقة تحكم العلاقات الأمريكية ـ السعودية، كان علينا أن نصوغ تلك القواعد أولاً بأول.

اتفق البلدان، في الأيام القليلة الأولى من الأزمة، على أن تقوم الولايات المتحدة بنشر قواتها وأن تقوم المملكة بتسهيل تلك المهمة. ولكن لم يكن ثمة اتفاق في شأن التفاصيل، ولم يتم تبادل أية وثائق رسمية أثناء اجتماع تشيني مع الملك في ذلك الخصوص. كان علينا صياغة تلك التفاصيل في منتهى الدقة. فلقد كانت القوات الأمريكية تعمل ضمن حلف شمال الأطلسي (ناتو NATO) حيث تحكم كل تحرك، صغيراً أو كبيراً، تنظيمات أُرسِيتْ قواعدها منذ أكثر من ٤٥ عاماً. كما تحكم الدول الأعضاء في الحلف معاهدات ومذكرات تفاهم وترتيبات مختلفة على المستوى الثنائي والجماعي، فضلاً عن اتفاقيات خاصة بوضع القوات. لكن المملكة العربية السعودية والولايات المتحدة الأمريكية دخلتا في تحالف لتنفيذ عمليات مشتركة في الخليج دون شيء مما سبق ذكره. وتبين لي، بعد وقت قصير، أن ذلك الوضع كان يشكل ميزة كبرى، إذ تسنى لنا وضع القواعد على الطبيعة كلما وجدنا أنفسنا في حاجة إليها.

كنت أمتلك بعض الميزات التي ساعدتني على إنجاز مهمتي، فقد كان لديّ فهْم واضح للفروق الحضارية بين الغربيين والسعوديين يؤهلني لأن أضيّق الفجوة بينهما، وأجعل الأعمال التي يتعيّن علينا القيام بها مقبولة لدى الطرفين. كنت أعرف، مثلاً، متى أسعى إلى حل وسط، ومتى وأين أضع حداً فاصلاً لا يُسْمح بتجاوزه مراعاةً لتقاليدنا وحفاظاً على مشاعرنا.

شَكّل يوساك هيئة أركان اختارها بعناية من القوات البرية والبحرية والجوية ومشاة البحرية الأمريكية، واختار اللواء پول شوارتز Paul Schwartz نائباً له، الذي كان لديه خبرة بالمملكة حيث أمضى، هو الآخر، عدة سنوات مع الحرس الوطني. وكان شوارتز رجلاً دمث الخلق يتمتع بموهبة فذة في التعامل الإنساني والعلاقات الاجتماعية. وقمت، بدوري، باختيار أكفأ الرجال من بين صفوف القوات المسلحة السعودية لتشكيل هيئة أركان لقيادة القوات المشتركة. وانصَبَّ جلُّ اهتمامي، في الأيام القليلة الأولى، على بناء تنظيم يوازي تنظيم القيادة الأمريكية، تنظيم يستطيع أن يخطط العمليات ويديرها بالاشتراك مع تلك القيادة.

عَيّنت اللواء الركن عبدالعزيز محمد آل الشيخ نائباً لي، وكان يشغل من قبل منصب نائب قائد القوات البرية، ويُعد ضابطاً ميدانياً قديراً. وكنّا، من قبل، نختلف أحياناً وتتصادم آراؤنا أحياناً أخرى، إلاّ أنني كنت معجباً بأمانته وصرامته وقدرته على المبادرة. كنت في حاجة إلى رجل صريح وشجاع مثله، يسدي إليّ النصح الخالص دون مواربة أو تحفظ.

أدركت ويوساك حاجتنا إلى كيان تتكامل فيه جهود القيادتين. كنّا نفتقر إلى مركز يتلقى المشاكل ويعمل على حلها، لذا شَكَّلْنا هيئة عُرفت باسم «C^3IC»، وهو مصطلح مكون من الأحرف الأولى للكلمات Coalition Coordination Communications and Integration Cell أي مركز التنسيق والاتصال والتكامل لقوات التحالف. وكان المسؤولان عن المركز، على مدار الساعة، هما اللواء شوارتز واللواء الركن صالح عبدالمحسن القرزعي، وهو ضابط ميداني من الطراز الأول. وبعد فترة قصيرة أوكلت إلى اللواء القرزعي مهمة قيادة اللواء الثامن الآلي، واخترت العميد الركن عبدالرحمن عبدالله المرشد بدلاً منه في المركز، وهو رجل يتميز بالكفاءة والثقة بالنفس. وقام الرجلان، اللواء شوارتز والعميد المرشد، بعملهما على أكمل وجه ممكن. وكان المركز هو المكان الذي وُلِدت فيه القدرة على إنجاز عمليات سعودية ـ أمريكية مشتركة، بل غدا عاملاً أساسياً في تحقيق النصر. وكانت تُحَل فيه جميع الصعاب التي تنشأ بين القيادة المركزية وقيادة القوات المشتركة، بما في ذلك مشاكل الإمداد والتموين وتبادل المعلومات الاستخبارية والتدريب وتحديد ميادين الرماية... وموضوعات أخرى. وتقرر بعد ذلك، نظراً إلى اتساع نطاق عمليات التنسيق، أن يُقَسّم المركز إلى عدة أقسام: قسم خاص بالعمليات البرية، وقسم للعمليات الجوية، وقسم للعمليات البحرية، وقسم للإمدادات والتموين، وقسم للعمليات الخاصة، وقسم للاستخبارات.

وكما سبق أن ذكرت، كنت في الأسابيع الأولى أحمل لقب «قائد القوات المشتركة»، من دون أية صلاحيات. فلم يكن رئيس هيئة الأركان العامة وقادة القوات على دراية تامة بمسؤولياتي. وفي الوقت الذي كنت أجاهد لممارسة صلاحياتي كاملة، كنت أعمل أيضاً نظيراً ليوساك، قائداً للقوات البرية. وبمعنى آخر، كنت أقوم بعملين في آن واحد: الأول، قيادة القوات المشتركة. والثاني، قيادة الوحدات البرية في مسرح العمليات.

في تلك الأيام من شهر أغسطس، وهي فترة كان يشوبها الترقّب والحذر إذ كان من المحتمل أن يبادر صدام إلى الهجوم، لم يكن الفريق أول شوارتزكوف قد وصل بعد إلى المملكة. وبذلتُ والفريق يوساك الجهد الجهيد لإقامة العلاقات الأساسية الصحيحة بين قواتنا على أرض الواقع عندما كانت القيادة المركزية الأمريكية لا تزال في مدينة تامپا Tampa في ولاية فلوريدا Florida. وصممت على نشر القوات السعودية في المقدمة أمام القوات الأمريكية، حتى إذا بادر العراقيون إلى الهجوم يكون السعوديون أول من يضحون بدمائهم وأرواحهم. وحددنا أيضاً المواقع التي ستنتشر فيها القوات الأمريكية خلف الوحدات السعودية والحدود بينهما. كنت أعلم أن يوساك يحتاج إلى بعض الوقت لنشر قواته، لذلك لم أقترح أبداً أن تحتل القوات الأمريكية مواقع دفاعية متقدمة في تلك الفترة.

كنت ويوساك نعالج قدراً كبيراً من المشاكل، خلال اجتماعاتنا التي كانت تستغرق الليل كله (نغالب النوم بتناول أقداح من قهوة الكابوتشينو القوية). كانت القوات الأمريكية في حاجة عاجلة إلى تسهيلات كبيرة لإتمام عمليات الإنزال في الموانئ والمطارات. وفي إحدى الليالي، أخبرني يوساك بحاجته إلى ٣٠ مرسى للسفن في ميناء الدمام إضافة إلى بعض المخازن القريبة. ولأنني أقدِّر آراءه كثيراً، فلم أناقشه في ذلك الطلب. لكن تنفيذه يعني ترحيل الناس والسفن من ميناء الدمام على وجه السرعة، مما يعرِّض التجارة المدنية وحركة المرور للفوضى والاضطراب. وإذا لَجَأْتُ إلى القنوات البيروقراطية فسوف يستغرق الأمر أسابيع عدة. لكنني استطعت حل تلك المشكلة خلال ساعات قليلة.

لم يكن الأمريكيون في ميناء الدمام قادرين على أسلوب التعامل مع قيادات متعددة. فهناك مسؤول عن التخزين وآخر عن الأرصفة وثالث عن المعدات. وكنت أريد تركيز جميع السلطات في الميناء في يد رجل واحد حتى ينجز مهمته. فوجدت في الرائد علي منصور الشعيبي الرجل الذي أردت.

وطبقاً للقوانين السعودية، لا بد أن يُفْسح كل ما يحضره الأمريكيون عبر سلطات الجمارك. يعني هذا الإجراء أن تتحول الجمارك إلى عنق زجاجة ويتعطل كل شيء. كان يوساك يطلب الإمداد من الولايات المتحدة ومن ألمانيا بكميات تفوق الوصف، ثلاثة آلاف من هذا الصنف وخمسة آلاف من ذاك الصنف. فإذا أخضعنا كل الحاويات للتفتيش الجمركي بالأسلوب المعتاد، فمعنى ذلك أن نجنّد الشعب السعودي عن بكرة أبيه للعمل كمفتشين في الجمارك. ولحسن الحظ،

استطعت أن أجد مخرجاً من تلك المشكلة التي كان من شأنها أن تُربك عملنا إلى حدٍّ بعيد.

في إحدى الليالي، وفي الحادية عشرة تحديداً، اتصل بي يوساك ليخبرني أن المسؤول عن الإمدادات والتموين في الظهران يتضجر من أسعار العقود المحلية التي ترتفع كل يوم ارتفاعاً غير معقول، سواء أكانت عقود الطعام أم المياه أم الشاحنات أم غيرها. كان يقول: «إذا حددنا الإيجار اليومي للشاحنة بـ ٢٠٠ دولار اليوم، يصبح ٤٠٠ دولار غداً». فقررت أن مثل ذلك العمل ينبغي إيقافه عند حده فوراً، فالمملكة هي التي تدفع كل تلك النفقات. وفي صباح اليوم التالي، تم العمل بإجراءات الرقابة على الأسعار.

ولعل تلك المواقف التي أُورِدُها، على سبيل المثال لا الحصر، تنمّ على أن اهتمامي، في بداية الأمر، كان منصرفاً إلى مسألة الإمدادات والتموين. لكنْ ثمة جانب آخر لا يقل أهمية عنها. أدركت ويوساك أن لكل من المملكة والولايات المتحدة دوراً مهماً وحساساً في التحالف، وإن اختلف دور كلٍّ منهما. فالحقيقة التي لا جدال فيها، أنه لا يوجد لدى الدول ما يضارع الأسلحة المتقدمة والتقنية الحديثة والقدرة العالية التي تتمتع بها القوات المسلحة الأمريكية، إلاَّ أن الإمكانات والموارد التي تتمتع بها المملكة لا توجد إلاَّ في قليل من الدول. كان الموقف يُحتِّم على كل جانب أن يبذل أقصى ما عنده. لكننا، كدولة مضيفة، لا بدّ أن نتولى وضع القواعد والأسس.

وفي وقت متأخر من إحدى الليالي أثناء جلسة «الكابوتشينو» المعتادة، سألني يوساك: «كيف تنظر إلى العلاقة بين بلدينا؟». فأجبته: «أعتقد أن الأمر يحتاج إلى وضع أسس وضوابط تحكم علاقاتنا حتى يمكن الرجوع إليها». فأجاب ضاحكاً: «ضع أنت تلك الأسس والضوابط، وسوف يلتزم بها الجميع». فالرجل كان على حق، فالمملكة هي البلد المضيف ومن حقها أن تضع تلك الأسس والضوابط وأن يلتزم بها كل أعضاء التحالف. وهذا الالتزام لا يحرمهم، بداهة، حقهم في التفاوض في شأن ما يعترضون عليه. وهكذا سارت الأمور في نهاية المطاف.

ومنذ البداية اتفق خادم الحرمين الشريفين وولي العهد الأمير عبدالله والأمير سلطان على أن القوات السعودية يجب ألاَّ تعمل إلاَّ تحت قيادة سعودية، وألاَّ تقاتل تحت قيادة أمريكية. فالحفاظ على سيادة المملكة كان من أسمى

الأولويات. ومن هذا المنطلق، طلب الملك من الأمريكيين في الأيام الأولى من شهر أغسطس أن يقدّموا تعهداً مكتوباً بأن يغادروا المملكة متى طُلِب منهم ذلك، دون سؤال عن الأسباب.

كنت أخشى أن تذهب وعود واشنطن للمملكة أدراج الرياح عندما تبدأ الحرب ويَحْمَى الوطيس وينفرد الأمريكيون بالقيادة. فرأيت ضرورة أن نحدد، من البداية، كيفية إصدار الأوامر العسكرية وتمريرها. كنت أخشى، حتى قبل أن أُعَيَّن قائداً للقوات المشتركة، ألاّ تستمر المملكة في الاحتفاظ بهويتها الفريدة وشخصيتها المتميزة، إذا ظَهَرَتْ بمظهر سلبي تحت المظلة الأمريكية. ولهذا السبب، كنت أحاول جاهداً في تعاملي مع هورنر ويوساك، وشوارتزكوف فيما بعد، أن أُشَكِّل هيئة أركان على درجة عالية من الكفاءة والمصداقية حتى تكون قادرة على العمل مع القيادة الأمريكية. كما يكون لها، في الوقت نفسه، استقلالها التام. كان من واجبي أن أحمي اسم المملكة وسمعتها واعتبارها. فالأمر ليس مباراة في التنس، لا يضيرني أن أخسرها، بل مسألة حياة أو موت.

حرصت على أن يُدْرِك ضباط أركاني خطورة هذه المسألة. فعندما اجتمعت إليهم للمرة الأولى سألتهم: «ما اسم القائد العسكري في ڤيتنام؟». فأجابوا جميعاً: «وستمورلاند Westmoreland». فسألتهم: «وما اسم القائد العسكري في كوريا؟». فأجابوا: «ماك آرثر MacArthur». فسألتهم: «ولكن، ألم يكن الڤيتناميون والكوريون يحاربون إلى جانب الحلفاء؟ إن أحداً لا يعرف أسماء قادتهم!». قلت لهم إنني لا أريد أن يتكرر هنا في المملكة ما حدث في ڤيتنام وكوريا، حيث كان القائد الأمريكي هو القائد الأعلى والأقوى الذي يفعل ما يشاء.

كنت على يقين أني سأصبح مسؤولاً أمام مليكي ووطني فيما لو سَجّلِ التاريخ أننا كنّا نخضع لقيادة أجنبية فوق تراب وطننا. لذلك، انصرف جلّ اهتمامي إلى العمل على ألاّ يكون هناك قائد أعلى في إدارة ذلك الصراع الذي كنّا في صدده.

وضعت هذا الأمر نصب عينيّ عندما اقترحت، بعد مداولات طويلة، أن يكون لقبي «قائد القوات المشتركة ومسرح العمليات». كان هذا اللقب غريباً، بل خطأ من الوجهة العسكرية. فالأصل أن تكون التسمية إما «قائد القوات المشتركة» وإما «قائد مسرح العمليات» وليس كليهما. والسؤال الذي يطرح نفسه هو: لِمَ أدخلت تلك الإضافة؟

الهدف الأول، هو الحيلولة دون تسمية الفريق أول شوارتزكوف، الذي كان سيصل إلى المملكة في أواخر أغسطس، «قائداً أعلى» أو حتى «قائد القوات المشتركة»، إذ كان منصبه في ذلك الوقت قائداً للقيادة المركزية الأمريكية. والهدف الثاني، هو عدم تمكينه من أن يُطلق على نفسه «قائد مسرح العمليات». وكان هذا أمراً متوقعاً، إذ كانت له قوات في البحرين وفي بلدان أخرى في المنطقة إلى جانب قواته في المملكة. ومن ثَم فإنني قصدت أن يُشَكّل اللقب الذي اقترحته للأمريكيين عقبة مزدوجة تحول دون ظهورهم بمظهر المتفرد بالقيادة العليا. فكان من المتعيّن عليّ، من أجل الحفاظ على كرامة بلدي واستقلاله، ولأسباب عسكرية أخرى صحيحة، أن تكون قيادتي على مستوى قيادة القائد الأمريكي نفسها. بمعنى أن تكون قيادة موازية، فلا تكون نسبتها ٤٩٪ أو ٤٩,٥٪، بل ٥٠٪ إلى ٥٠٪، وليس أقل من ذلك في حال من الأحوال.

يضاف إلى ذلك أنه في خطاب تكليفي من قِبَل الأمير سلطان، وردت عبارة بين قوسين مفادها أن مسرح العمليات لا يعني فقط المنطقتين الشمالية والشرقية اللتين تجاوران الكويت والعراق، لكنه يشمل كل جزء من أجزاء المملكة تمتد إليه العمليات القتالية. ويعني هذا أنه متى تعرضت أرض المملكة لخطر ما من أي اتجاه ـ كاليمن أو الأردن أو إسرائيل مثلاً ـ تصبح مواجهة ذلك الخطر ضمن مسؤولياتي. لم أكن أعلى الضباط رتبة في القوات المسلحة السعودية، لكن لا بد من منحي الصلاحيات الكاملة التي تُعِينني على الوفاء بتلك المسؤوليات.

لم يلقَ اقتراح هذا اللقب ترحيباً من الجانب الأمريكي، فلم تكن فكرة القيادة الموازية واردة في فكر الأجهزة الأمريكية. كانوا يفضلون أن يكون لقبي «قائد القوات العربية والإسلامية المشتركة». ولما فشلوا في ذلك طلبوا أن يكون لقبي «قائد القوات المشتركة في مسرح العمليات» («في»، وليس «و»)، وهو لقب من شأنه أن يقلص سلطاتي إلى حدٍّ كبير. لكنّ السلطات الأمريكية قَبِلتْ، في النهاية، بهذا اللقب الذي أصررت عليه. بيد أن الصحافة الأمريكية، ومع الأسف الصحافة العربية أيضاً، لم تُظهر ذلك بالسرعة المناسبة. واستخدم الرئيس بوش نفسه هذا اللقب في خطاب التنويه الكريم الذي وجّهه إليّ لمناسبة منحي وسام الاستحقاق بعد نهاية الحرب. ولكن، على الرغم من أن ذلك الخطاب قد ألمح إلى أنني وحدتُ قوات من ١٤ دولة عربية وإسلامية تحت قيادة واحدة، إلاّ أنه أغفل ـ ربما من غير قصد ـ القوات غير الإسلامية التي كانت تحت قيادتي (مثل

القوات الفرنسية والتشيكوسلوفاكية والمجرية والنرويجية والفيليبينية . . . وقوات أخرى).

كان عليّ أن أخوض معركة بلا هوادة مع زملائي في لجنة الضباط العليا لأقنعهم بأفكاري. كنت أريد سيطرة «عملياتية» كاملة، بينما هم يريدون قَصْرَ سلطاتي على القيادة «التكتيكية». كنت حريصاً عند اختيار الضباط للعمل معي أن يكونوا ممن يخططون ويديرون، بينما هم يريدونهم ضباط اتصال فقط ملحقين على قيادتي. أرادوا لي أن أحتفظ بلقب قائد القوات المشتركة، بينما يحتفظون هم بالسيطرة المباشرة على قواتهم. حاولوا، في البداية، أن يقصروا سلطاتي على الوحدات البرية في المنطقتين الشرقية والشمالية. حتى في هاتين المنطقتين، أرادوا أن أخضع لسلطات قائد القوات البرية. وكان عليَّ أيضاً إذا أردت تخصيص مهام للقوات الجوية أو البحرية أن أحصل أولاً على موافقة قادة تلك القوات.

كنت أؤكد لهم أنني لا أسعى إلى كسب شخصي، بل إلى إنجاز المهمة على الوجه الصحيح. وفي إحدى المرات، عقب مناقشة حادة، عدت إلى بيتي أَتَمَيَّز من الغيظ، لكنني لم ألبث أن راجعت نفسي وأقسمت ألاّ استسلم أبداً. من يدري ما سوف يحدث لهذا البلد لو انقطع الحوار بيننا؟ عدتُ واستأنفت المعركة من أجل الصلاحيات التي كنت أحتاج إليها، يوماً بيوم وشبراً بشبر، وكأنني أَنْحَتُ في الصخر. وفي النهاية، وافق زملائي على أن أتولى شؤون الأمريكيين. ولكن ماذا عن القوات المصرية والقوات السورية والقوات المغربية التي وصلت؟ وماذا عن غيرها من القوات الكثيرة التي يُتوقع وصولها؟ من سيكون مسؤولاً عنها؟

أرسلت خطاباً إلى الأمير سلطان بعد أن عاد من المغرب ليمسك بزمام الأمور في وزارة الدفاع، على الرغم من الألم الذي كان يشعر به في ركبته، وشرحت له طبيعة خلافاتي مع لجنة الضباط العليا. وكتبت بالحرف الواحد «فلتأمر بأن يتولى القيادة رئيس هيئة الأركان العامة، وسوف أعمل مساعداً له أو تحت قيادته في أي شكل من الأشكال، ولكن لا بدّ من أداء العمل بالأسلوب الصحيح». وأوضحت لسموه أن خلافاتنا خَلَّفت صعوبات جمّة، فالفريق هورنر، القائم بأعمال القائد في القيادة المركزية الأمريكية، لا يعرف حتى الآن مع من يكون تعامله.

وَضَعَتْ خلافاتنا الأمير سلطان في موقف حَرِجٍ لا يُحسد عليه. لم يكن يريد أن يظهر أمام القادة الآخرين في مظهر من يحابيَ ابنه ويَنْتصِر له. فطلب من مساعد وزير الدفاع، الشيخ عثمان الحميد، رئيس هيئة الأركان العامة السابق، وهو رجل عسكري يحظى باحترام الجميع، أن يسعى في الوساطة بيننا، لكنّ مساعيه لم تفلح في تقريب وجهات النظر. كنت مصمّماً أن تكون لي سيطرة «عملياتية» على جميع القوات، وكانوا لا يريدون ذلك. وتأزّمت العلاقة بيني وبينهم وبعد أن كنت أذهب لأتناول طعام الغداء مع قادة القوات في مكتب رئيس هيئة الأركان العامة كل يوم تقريباً، ابتعدت عنهم وانقطعت عن الذهاب.

أخيراً، وفي الخامس من نوڤمبر، أرسلت خطاباً «سرياً للغاية» إلى الأمير سلطان. كان خطاباً قوياً من خمس صفحات أفرغت فيه كل ما اعتلج في صدري من مخاوف وشكوى. كانت البلاد في خطر وكنت أبذل قصارى جهدي، لكن الجهود لم تؤتِ ثمارها، فالمشاكل تزداد يوماً بعد يوم. عشرات الألوف من الرجال كانوا في طريقهم إلى المملكة، والمسؤوليات الملقاة على عاتقنا أضحت تنوء بحملها صُمُّ الجبال. كان على سموه اتخاذ القرار إن كنت سأمارس القيادة العملياتية أو التكتيكية.

وبعد ثلاثة أسابيع، في السابع والعشرين من نوڤمبر، حدث انفراج في الأزمة عندما استدعانا الأمير سلطان إلى الاجتماع في مركز عمليات القوات الجوية. كان من عادته أن يزور مراكز القيادة للقوات المختلفة بشكل دوري ليطّلع على سير الأوضاع. فيستمع إلى تقارير القادة ويراجع خطط العمليات ويقف على درجة الاستعداد القتالي للقوات. وكان يرسل أيضاً فرقاً للتفتيش على الوحدات المختلفة في مواقعها. ولعله اختار مقر قيادة القوات الجوية تلك المرّة، لأن معظم معارضي منحي القيادة العملياتية هم من تلك القوات، وترتكز معارضتهم على مخاوف متوارثة. ففي معظم الجيوش، يخشى القادة الجويّون أن يجدوا أنفسهم تحت سلطة قائد قوات برية يرأسهم، بدلاً من أن يعمل معهم على قدم المساواة. بيد أنني كنت أعلم جيداً أنه لا توجد في التاريخ العسكري حرب كانت القيادة العليا فيها لقائد قوات جوية. وفي كل حال، أصبح مقر قيادة القوات الجوية هو مسرح الصراع على الصلاحيات. ولئن كان قائد القوات الجوية الفريق أحمد بحيري صديقاً لي، إلاّ أن وجهات نظرنا، في ما يتعلق بتلك القضية من منظور مهني عسكري لها، كانت مختلفة.

حضر الاجتماع ما يقرب من ٢٤ قائداً، بينهم رئيس هيئة الأركان العامة وقادة القوات وقادة القواعد الجوية في أنحاء المملكة وغيرهم من كبار القادة. كان الوقت ضُحى والأضواء خافتة في غرفة الاجتماع الفسيحة.

بدأ الاجتماع بتقرير عن القوات الجوية، تَلَتْه مناقشات بين القادة. ومن عادة الأمير سلطان أن يتكلم والابتسامة على وجهه، لكنه، هذه المرة، ظل عابساً وهو يتحدث عن الأخطار المحدقة التي تتعرض لها المملكة والتي لم يسبق أن تعرضت لمثلها قط. ثم تفجرت كلماته تَقْطُر غيظاً وهو يجول ببصره من قائد إلى آخر:

«تتنازعون أمركم بينكم وأمن البلاد في خطر! هذا أمر لا يمكن احتماله. أريد القوات البرية والجوية والبحرية وقوات الدفاع الجوي، كل القوات تحت قيادة واحدة. وإذا ارتأيتم أن خالداً لا يصلح للقيام بهذه المهمة فأبعدوه. لا يهمني أنه ابني، فكلكم أبنائي ولن أتحيز لأحد منكم في خلافاتكم. لا بد أن تَبُتُّوا هذه المسألة الآن. وأريدكم أن تعلموا جميعاً علم اليقين أنني لن أدع البلاد تتعرض للخطر بسبب خلافاتكم. من منكم يستطيع أن يتولى القيادة؟ من يأنس في نفسه القدرة على تولي هذه القيادة فليتكلم وسأقف إلى جانبه حتى النهاية وأمنحه الصلاحيات الكاملة. وإذا لم يتقدم منكم أحد فليُمنَح خالدٌ ما يحتاج إليه من سلطات».

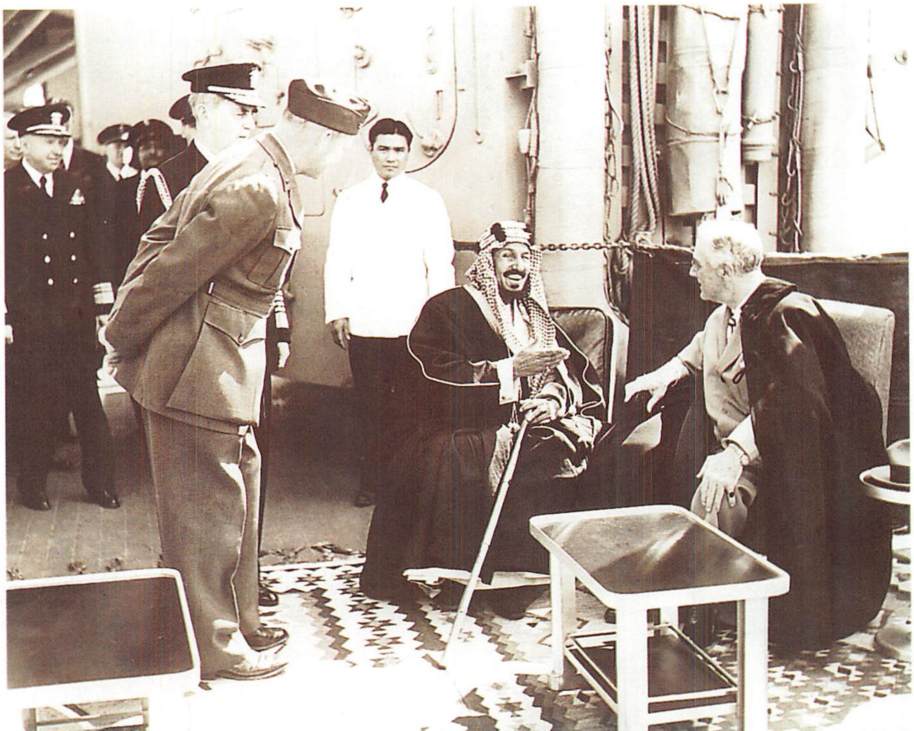
ومضى الأمير سلطان في حديثه على هذا المنوال نصف ساعة. ظل يتحدث في لهجة قيادية صارمة، صرامة لم أعهده يتحدث بها من قبل، على كثرة ما شهدت له من مواقف مماثلة. كان حقاً قائد القادة. وكان لموقفه الحاسم وقراره الحازم الذي لم تؤثر فيه مشاعر الأبوة، وقع كبير وأثر بالغ في نفوس كل القادة. لم يتقدم أحد إلى القيادة. إذ بدا لهم جميعاً أننا وصلنا إلى نقطة تحوّل بالغة الأهمية في مسار الأزمة.

كان حديث الأمير سلطان مفتاح نجاحي. فتلك هي المرة الأولى التي شعرت فيها أنني أتحمل المسؤولية الكاملة. فمنذ تلك اللحظة، كنت أحصل على الدعم كل الدعم. كما مُنِحْتُ كل الصلاحيات التي أحتاج إليها للإعداد للحرب. وفي الثلاثين من نوفمبر، فوّض إليَّ الأمير سلطان سلطات واسعة، وأحسست وقتها أنني قادر ـ بعون من الله ـ على قيادة يحق لبلادي أن تعتز بها وتفخر.



صورة يرجع تاريخها إلى الثلاثينات يظهر فيها الملك عبدالعزيز، مؤسس المملكة العربية السعودية، وسط أبنائه. ويظهر والدي صاحب السمو الملكي الأمير سلطان في أقصى اليسار. كان أميراً على مدينة الرياض وهو في تلك السن المبكرة.

يرجع تاريخ العلاقات السعودية - الأمريكية إلى اجتماع دام خمس ساعات بين الملك عبدالعزيز والرئيس فرانكلين روزفلت على متن البارجة كوينزي التي كانت ترسو في منطقة البحيرات المرّة في مصر في ١٤ فبراير ١٩٥٤. والمترجم هو العقيد ويليام إدي، وكان يعمل وزيراً في المفوضية الأمريكية في جدّة ويتحدث العربية بطلاقة، إذ ولد في مدينة صيدا اللبنانية.









(إلى اليمين ـ أعلى) صورة نادرة لجدِّي الأكبر، الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، ربما التقطت في بداية هذا القرن. وإثر صِدام مع مناوئيه، آل رشيد، عام ١٨٩١ اضطر إلى اللجوء إلى الكويت. وفي عام ١٩٠٢ استرد ابنه عبدالعزيز مدينة الرياض، وكان عمره وقتئذ ٢٤ عاماً. توفي الإمام عبدالرحمن عام ١٩٢٨.

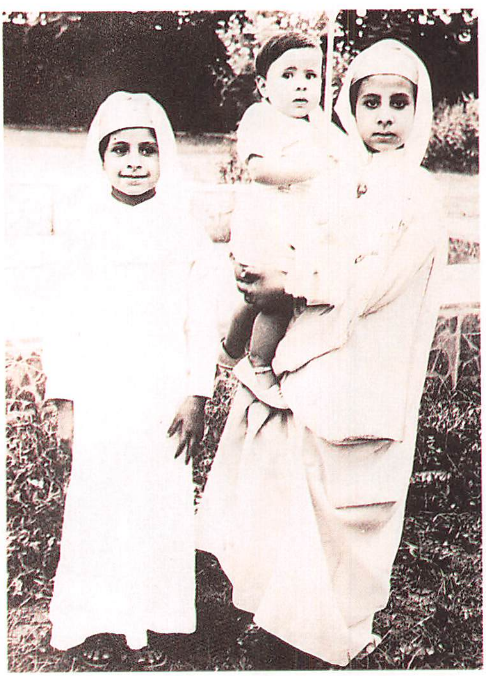
(إلى اليسار ـ أعلى) جدّي لأمي، الأمير عبدالعزيز بن مساعد آل جلوي الذي ظل أميراً على منطقة حائل، شمالي نجد، لنصف قرن من الزمان، منذ عام ١٩٢٢ حتى تقاعده في السبعينات، عن عمر يناهز التسعين عاماً. وشارك إبّان شبابه في معركة استعادة الرياض عام ١٩٠٢.

(إلى اليسار) أقف أمام بيت والدي القديم، المسمّى بالعزيزية، في مدينة الرياض. كنت وقتها في الثالثة من عمري.



(إلى اليسار) أقف في منتصف الصف الأمامي إلى جانب أخي فهد، توأم طفولتي. ويظهر في يمين الصورة صديق آخر من أصدقاء اللعب، نادر ابن مربيتي بشرى.

(أسفل) مع أخي فهد وبعض أتباعنا. كنت وقتئذ في الثامنة من عمري تقريباً.



أقف وأخي فهداً في حديقة العزيزية، بيتنا القديم في الرياض، بينما أحمل أخي فيصلاً الذي كان وقتها رضيعاً، وكنت في العاشرة من عمري.





الملك سعود (بالنظارة السوداء) ووالدي سمو الأمير سلطان في زيارة للملك حسين، عاهل الأردن، في عمان، بعد فترة قصيرة من جلوسه على عرش بلاده عام ١٩٥٣.





الملك فيصل، الذي يظهر في يسار الصورة العليا وفي الصورة اليسرى، كان له دور رائد في ترسيخ أسس اقتصاد المملكة ومكانتها الدولية إبَّان فترة حكمه التي استمرت من عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٧٥. ويظهر في الصف الأول أيضاً عمي صاحب السمو الملكي الأمير تركي بن عبدالعزيز الذي كان وقتها نائباً لوزير الدفاع. وأظهر في هذه الصورة متكئاً على الكرسي الشاغر الذي يفصل بينهما (ونلت يومها لوماً من والدي بسبب تلك الجلسة غير المنضبطة).

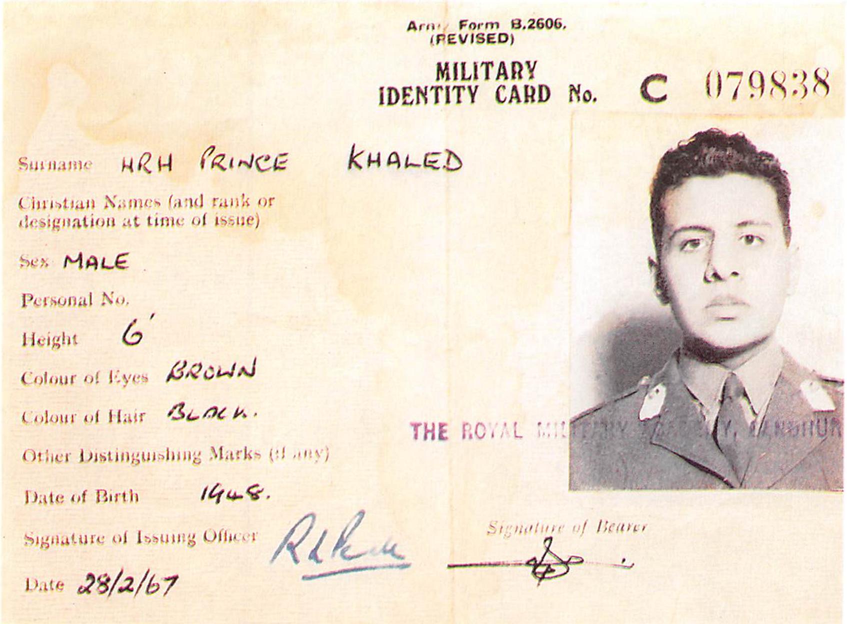


في عام ١٩٩٠ اتخذ الملك فهد قراراً شجاعاً وتاريخياً باستدعاء القوات الشقيقة والصديقة للمساندة في دحر عدوان صدام على الكويت. وكان ذلك العدوان تهديداً صريحاً لاستقلال المملكة وجيرانها من دول الخليج العربية.



الملك خالد الذي حكم البلاد من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٨٢، وتميزت فترة حكمه بالرخاء والخطط التنموية الطموحة.

(الى اليمين) ما أن تجاوزت الثانية عشرة من عمري حتى بدأ يراودني حلم الالتحاق بأكاديمية ساندهيرست. وعلى الرغم من أنني ولدت في شهر سبتمبر عام ١٩٤٩ إلا أنني سجّلت ١٩٤٨ تاريخاً لميلادي حتى أحظى بالقبول المبكر في الأكاديمية. صدرت لي هذه البطاقة العسكرية وأنا في السابعة عشرة والنصف من عمري.



Army Form B.2606.
(REVISED)

MILITARY IDENTITY CARD No. C 079838

Surname HRH PRINCE KHALED

Christian Names (and rank or designation at time of issue)

Sex MALE

Personal No.

Height 6'

Colour of Eyes BROWN

Colour of Hair BLACK.

Other Distinguishing Marks (if any)

Date of Birth 1948.

Signature of Issuing Officer

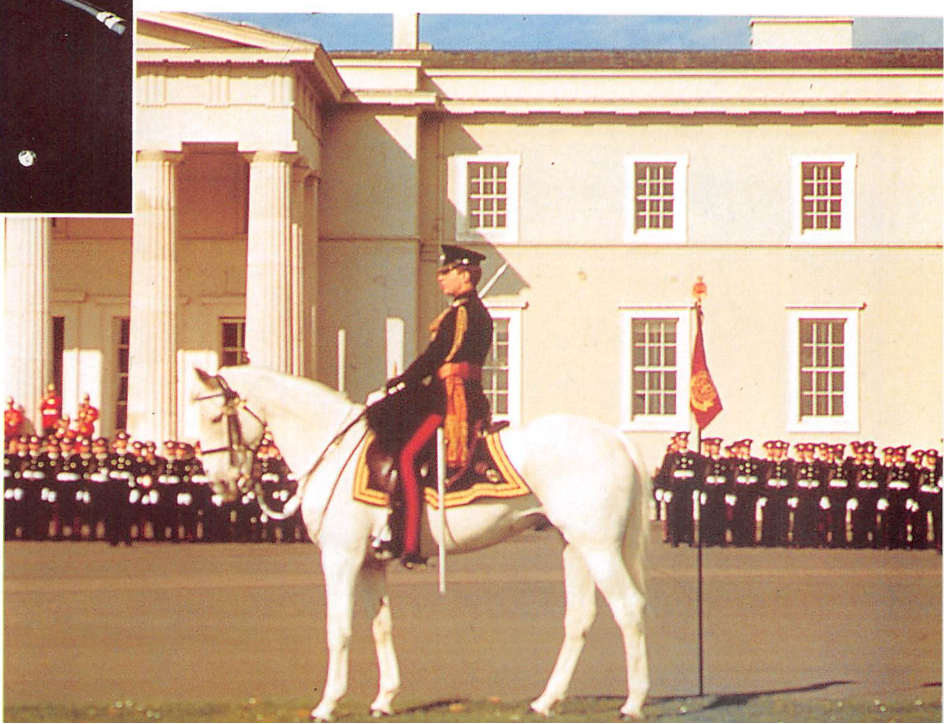
Signature of Bearer

Date 28/2/67

THE ROYAL MILITARY ACADEMY, SANDHURST



(إلى اليسار) التقطت لي هذه الصورة في السنة التي تخرجت فيها في أكاديمية ساندهيرست. كنت، بكل فخر، عريفاً في حكومة الطلاب في سرية غزة.

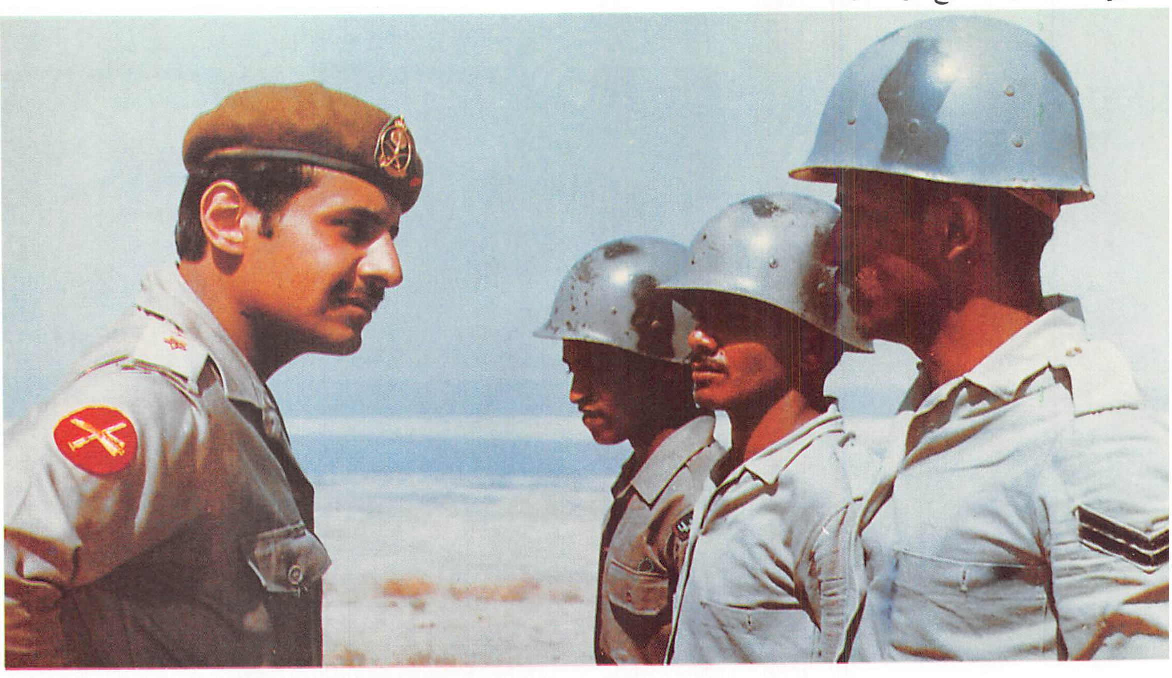


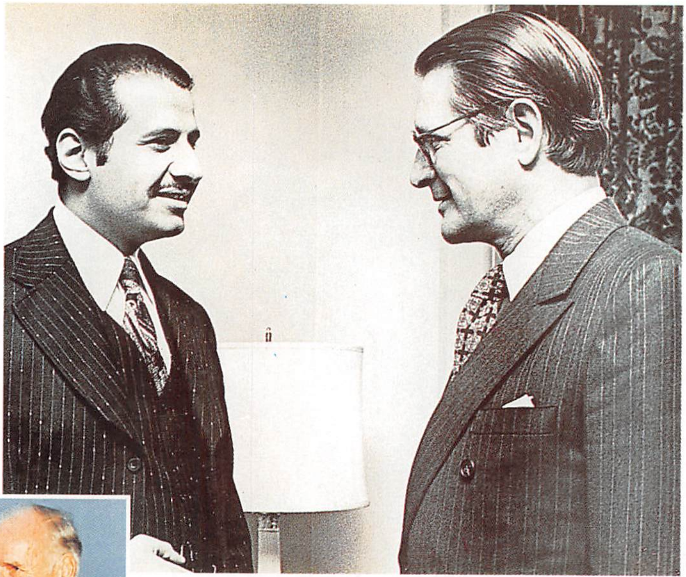
(الى اليمين) المبنى القديم وساحة العرض لأكاديمية ساندهيرست، وفي مقدمة الصورة أركان حرب الكلية ممتطياً صهوة جواده الأشهب الشهير.



(إلى اليسار) والدي سمو الأمير سلطان والزعيم المصري جمال عبدالناصر متشابكَيْ الأيدي في جو من الود والوئام. بيد أن صداقتهما انقطعت إبَّان الحرب الأهلية في اليمن في الستينات، إذ أدت تلك الحرب إلى مواجهة بينهما.

(أسفل) أول قيادة ميدانية أتولاها في عام ١٩٧٠، قائداً لإحدى سرايا صواريخ هوك في تبوك شمال غربي المملكة، وكنت أبلغ من العمر ٢١ عاماً.





(إلى اليمين) في إحدى زياراتي إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٣ للتفاوض في شأن صفقة صواريخ هوك المطوّر مع شركة ريثيون، والتقيت في هذه الزيارة إليوت ريتشاردسون، وزير الدفاع في حكومة الرئيس نيكسون. كانت الزيارة نقطة تحول مهمة في عملي العسكري.



(إلى اليسار) قمت عام ١٩٨٨، بصفتي قائداً لقوات الدفاع الجوي بزيارة رسمية لرئاسة شركة ريثيون، المصنّعة لصواريخ هوك وپاتريوت، في «ليكسنجتون» في ولاية ماساتشوستس. ويظهر في الصورة من اليمين إلى اليسار: جيم لويس، النائب الأول للرئيس ومدير برنامج الشركة في الشرق الأوسط، وتوم فيليپس، الذي كان يشغل منصب الرئيس والمدير التنفيذي للشركة، ودينيس پيكارد الذي كان يشغل منصب النائب الأول والمدير العام لقسم أنظمة الصواريخ بشركة ريثيون.



(إلى اليمين) لقاء مع «تكس» ثورنتون، رئيس شركة ليتون، في مزرعته في ولاية كاليفورنيا. تفاوضت معه في شأن عقد بلغت قيمته مليارات الدولارات للحصول على نظام القيادة والسيطرة والاتصالات. وقد أصبح هذا العقد، فيما بعد، من أكبر المشاكل التي واجهتها في مجال تزويد المملكة بالأسلحة الحديثة.

الفصل الرابع

حفيد ابن سعود

عشقت الجندية منذ نعومة أظفاري، وأدركت منذ صباي أنني لم أُخلَق للحياة المدنية. كنت أتوق إلى حياة خشنة مثيرة أحقق فيها طموحاتي، وأقوم بأعمال بطولية لا تضارَع.

ولعل ذلك يرجع إلى شخصيتي التي كانت ـ وأظنها لا تزال ـ عنيدة مقاتلة. كنت أصرُّ، وأنا طفل، على أن أفعل ما يروق لي وأقاوم حتى لا يفرض أحدٌ عليَّ رأيه. أفخر بأنني لا أبكي أبداً حتى إن وقعت على الأرض وأُصبت بجرح أو شعرت بألم. وحدث، عندما كنت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة، أن سقطتُ عن فرسي وانكسرت ساقي. ويشهد أخي فهد، الذي كان يرافقني، أنه لم يرَ دمعة تنحدر من عيني ذلك اليوم. كنت طفلاً خشناً لا ينسجم الآخرون معه في سهولة. كنت أصرّ دائماً على أن أكون قائداً لا تابعاً.

ومما لا شك فيه أن العامل الرئيسي الذي أسهم في تكوين شخصيتي أنني الابن الأكبر للأمير سلطان. وكان والدي ـ ولا يزال ـ دائم الانشغال بمهامه الحكومية وزيراً للدفاع، إذ يحتفظ بهذا المنصب حتى الآن، دون انقطاع، لأكثر من ثلاثين عاماً. فصورته التي انطبعت في ذاكرتي، وأنا طفل، هي استغراقه الدائم في العمل، منهمكاً في الأوراق أو متحدثاً عبر الهاتف. ويعني انهماكه في العمل أن أقوم ببعض الأعباء العائلية نيابة عنه، مما زرع في نفسي الشعور بالمسؤولية، وهو شعور حَرِصَ والدي على غرسه فيَّ منذ طفولتي. وفي أسرة كبيرة كأسرتنا تنعم بالكثير من الإخوة والأخوات الذين تربطهم علاقات المحبة والحنان، لا يخلو الأمر من بعض المشاكل البسيطة في محيط الأسرة التي يلزم التدخل فيها ومعالجتها. فيحتاج الأمر إلى شخص يُسدي النُصح، أو يقرّب بين

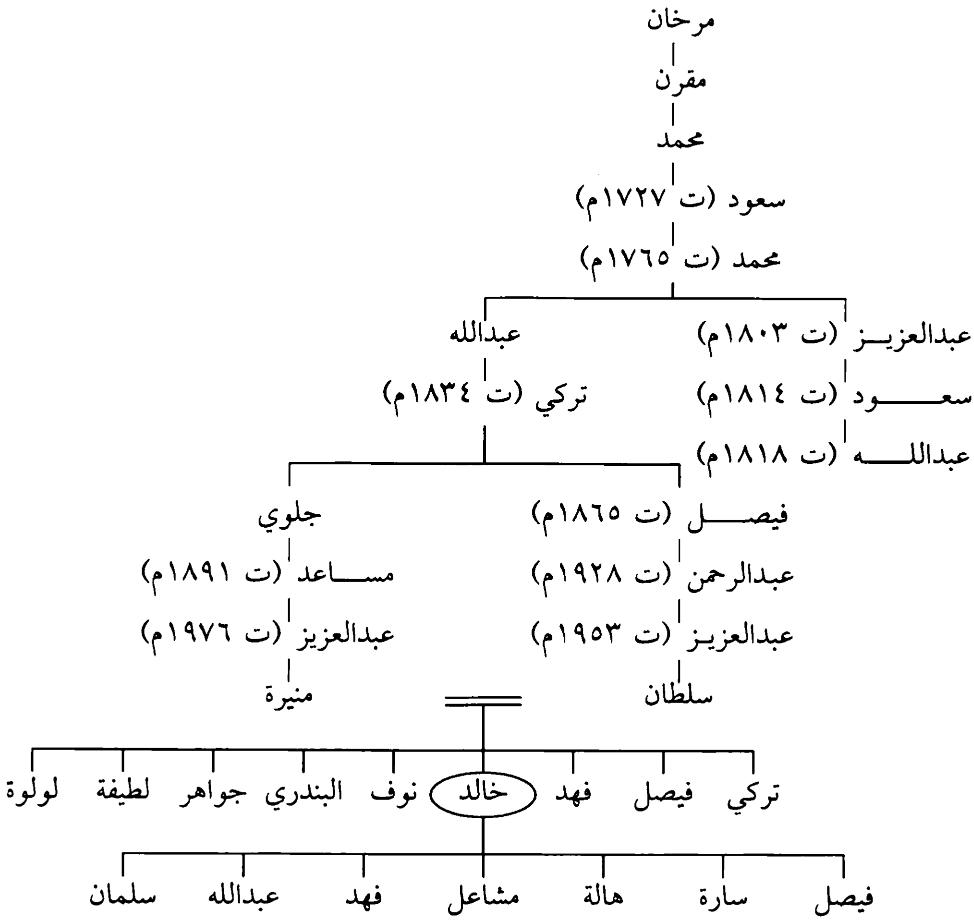
وجهات النظر، أو على الأقل يكون موجوداً قرب من ينشده. وأدركت في سن مبكرة أنّ عليّ القيام بذلك الدور، كابن أكبر لشخصية مهمة.

في أوائل الستينات، كنت فتى لا يزال في مقتبل العمر. وأذكر أنني تأثرت كثيراً بالشخصية القيادية الفذة للملك فيصل ـ يرحمه الله ـ الذي تولى مقاليد الحكم عام ١٩٦٤ في فترة حاسمة من تاريخ المملكة. فقد عمل على تعزيز مكانة العائلة وسمعة المملكة. وكان حاكماً مهيباً يحظى بالاحترام قبل أن يحظى بالحب. رجل صارم يأخذ نفسه بالشدة ويتوقع الكثير الكثير من الآخرين. ولا شك أن أنموذج شخصيته أثّر فيّ، كما تأثر به كثير من فتيان العائلة.

وثمة عامل آخر أسهم إسهاماً إيجابياً في بناء شخصيتي، هو أنني حفيد الملك عبدالعزيز ـ الذي عُرف بابن سعود ـ الجد العظيم الذي وحَّد هذه البلاد بإيمانه وحكمته وسيفه، وظل يحكمها طوال نصف قرن من الزمان، وأعطاها الاسم الذي لا تزال تُعرف به «المملكة العربية السعودية». كنت لا أزال في الرابعة من عمري عندما قضى الملك عبدالعزيز نحبه عام ١٩٥٣. لذا، لا أكاد أذكر عنه إلاّ القليل، إلاّ أنني سمعت عنه الكثير من والدي وأعمامي. وأستطيع فقط أن أستشعر وجوده المهيب. كان رجلاً ضخماً، غليظ اليدين، رقيق الابتسامة.

كتبت، وأنا في الخامسة عشرة من عمري، مقالة نُشِرَت في مجلة المدرسة، عن استرداده الجَسُور لمدينة الرياض عام ١٩٠٢ وهو في الرابعة والعشرين من عمره. انطلق من قلب الصحراء ليحقق المباغتة، وهو ما نسميه اليوم باللغة العسكرية «هجوم الصاعقة». فقد تسلق ورجاله أسوار المدينة على جذوع النخيل، وانقضّوا على حاميتها. وكان رفقاؤه الأساسيون في هذه الحملة العسكرية أربعة رجال من آل جلوي، وهم فرع من بيت آل سعود. بينهم ثلاثة من أبناء الأمير جلوي، وهم: عبدالله وعبدالعزيز وفهد. وأما الرابع فهو حفيده عبدالعزيز بن مساعد الذي كان وقتها لا يزال صبياً، وأصبح بعد ذلك جَدّي لأمي. وقد عُرف آل جلوي بالبسالة في القتال. وكان عبدالله بن جلوي، في واقع الأمر، هو الذي طارد عجلان، حاكم المدينة، في فناء قلعته وأغمد فيه سيفه فحُسِمَتْ المعركة لمصلحة آل سعود. وأُعلِن الملك عبدالعزيز حاكماً على الرياض في صباح اليوم نفسه.

وخلال العقود التالية، ذاع صيت آل جلوي أنهم من أخلص المخلصين



شجرة العائلة

تمتد جذور عائلتي إلى «مرخان» و«مقرن» اللذَين عاشا في القرن السابع عشر الميلادي. أمّا «سعود» (المتوفى عام ١٧٢٧م) فهو الجدّ الذي سُميت عائلتنا باسمه. تحالفَ محمد بن سعود (المتوفى عام ١٧٦٥م) مع الشيخ محمد بن عبدالوهاب مؤسس حركة الإصلاح الديني. ويُذكر أن «تركي» (المتوفى عام ١٨٣٤م) هو الذي استردّ نجد من قبضة الأتراك ونقل عاصمة آل سعود إلى الرياض بعد أن سقطت الدرعية، العاصمة القديمة، في قبضة قوات محمد علي حاكم مصر.

أمّا الملك عبدالعزيز (المتوفى عام ١٩٥٣م)، مؤسّس المملكة العربية السعودية الحديثة، فَلَهُ ذرية كبيرة من الأبناء، ولكن للاختصار أثبتنا في هذه الشجرة واحداً فقط من أبنائه، هو والدي صاحب السموّ الملكي الأمير سلطان.

للدولة السعودية. فحاربوا ضد الأتراك وضد المناوئين للحكم داخل البلاد. وعُيِّنوا، مقابل إخلاصهم هذا، أمراء على المناطق بعدما استتب الحكم السعودي في أرجاء المملكة. فقد عَيَّن الملك عبدالعزيز آل جلوي أمراء على المنطقة الشرقية، واستمر هذا المنصب مقصوراً عليهم حتى عهد قريب. كان آل جلوي رجالاً أشدَّاء، وكان الأمر في حاجة إلى يد قوية تقبض على زمام الأمور وتفرض النظام وتنفذ القانون في منطقة الأحساء، في وقت كانت فيه صناعة البترول لا تزال في بداياتها الأولى هناك.

وفي عام ١٩٢٢، عُيِّن جدِّي لأمي، الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي، أميراً على حائل بعد أن أبلى بلاءً حسناً كقائد عسكري. وحائل هي المركز الرئيسي في الشمال الغربي للجزيرة. وقد استولى الملك عبدالعزيز عليها قبل ذلك بعام من آل رشيد، وكانوا من أشد المناوئين لآل سعود. واستمر عبدالعزيز ابن مساعد في حكم حائل لمدة نصف قرن قبل إحالته إلى التقاعد في أوائل السبعينات، وكان عمره يناهز التسعين عاماً. وفي تلك المنطقة، منطقة جبل شمر في شمالي نجد، نشأت أمي. وكان لعبدالعزيز بن مساعد ولدان، هما عبدالله وجلوي، وسبع بنات. وتزوج الملك فهد إحدى بناته وأنجبت له إخوتي من الرضاع: فيصلاً ومحمداً وسعوداً وسلطان وخالداً. أما ابنته الأميرة منيرة فتزوجها والدي الأمير سلطان وأنجبت له أربعة من البنين وخمساً من البنات. كما أن لي إخوة وأخوات من زوجات أبي الأخريات. وتربطني بهم جميعاً روابط قوية من المحبة والاعتزاز، وأحمل لهم في قلبي الحب كل الحب. نشأنا أسرة سعيدة مترابطة، ولا نزال كذلك. وتزوج عمي، الأمير نايف، ابنة ثالثة من بنات الأمير عبدالعزيز بن مساعد أنجبت له ابْنَيْ عمي وأَخَوَيَّ من الرضاع أيضاً سعوداً ومحمداً. ونحمد الله أنّ علاقاتنا الأسرية قوية ومتشابكة.

ولدت في مكة المكرمة في الرابع والعشرين من سبتمبر ١٩٤٩، وأسماني الملك عبدالعزيز نفسه خالداً. ومن التقاليد الشائعة عندنا أن يُحتفل بتسمية المولود بعد مضي سبعة أيام على ولادته. لكن اليوم السابع لمولدي وافق يوم عرفة، وهو يومٌ مباركٌ تقف فيه جموع الحجيج على صعيد عرفات الطاهر في خشوع وتذلل لله رب العالمين. وكان الملك عبدالعزيز شديد التمسك بالدين الحنيف، فأمر أن تؤجل تسميتي إلى اليوم الثامن لمولدي. وترك انتسابي إلى هذا الرجل العظيم بصمات جليّة على كل جوانب شخصيتي، وهو لي بحق مصدر كل فخر واعتزاز.

وآل سعود عائلة عريقة مرموقة. ولا أذكر ذلك لانتمائي إليها، بل لأنها بحق ليست كغيرها من العائلات المالكة، سواء في منطقتنا أو في أي جزء آخر من العالم. فهي تضرب بجذورها إلى مئات السنين في قلب صحراء الجزيرة العربية، تلك الصحراء التي لا نظير لها بقبائلها وعشائرها. الصحراء التي أنجبت صناديد الرجال وأشعر الشعراء. الصحراء التي أنزل الله فيها على قلب نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قرآناً عربياً غير ذي عوج يتلى آناء الليل وأطراف النهار إلى يوم الدين.

ترتبط عائلة آل سعود برباطٍ وثيق بغيرها من العائلات الكبيرة، التي لا تختلف عنها كثيراً بحكم صلة الدم والمكان. وتحظى بعض هذه العائلات بتاريخ عريق لا يقل عراقة عن تاريخ عائلتنا. ولكن ما أعطى عائلتنا مكان الصدارة خلال ٢٥٠ عاماً مضت، يُعزى إلى اتفاق وعهد بين رجلين عظيمين. ففي عام ١٧٤٤ عقد سلفنا محمد بن سعود تحالفاً مع الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وهو مصلح ديني نذر نفسه لتنقية الإسلام من البدع والخرافات التي كانت سائدة في عصره.

وكانت الجزيرة العربية، في ذلك الوقت، وهي مهد الإسلام تشهد تراخياً في تطبيق أصول الإسلام، وتعيش حالة من الفوضى بسبب الصراعات القبلية والتنافس على مناطق النفوذ. مما أقضَّ مضجع البلاد وأدى إلى إهمال العلم الشرعي.

كان ذلك هو وضع الجزيرة الذي أبى الشيخ محمد بن عبدالوهاب إلاَّ أن يصححه. لكنه كان يحتاج معه إلى رجل قوي يساعده على نشر رسالته الإصلاحية، ويستطيع أيضاً أن يعبئ الجيوش ويحكم القبائل. ووجد الرجل الذي أراد في سلفنا محمد بن سعود حاكم الدرعية (العاصمة القديمة، التي لا تزال آثارها موجودة حتى يومنا هذا في ضواحي مدينة الرياض). وتمكّن الرجلان، بالقرآن والسيف، من إعادة الناس في وسط الجزيرة إلى جادة الصواب.

وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، تزوج أحد أبناء سلفنا محمد بن سعود كريمة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فقويت بهذا الزواج أواصر الولاء بين آل سعود وآل الشيخ. واستمر التزاوج والترابط بين العائلتين حتى اليوم. وثمة مثال من حياتي الخاصة يشهد على هذا الولاء هو تلكم الصداقة الحميمة التي تربطني بعبدالمحسن بن عبدالملك آل الشيخ. فما فتئ الرجل يشعرني بولائه وحبه عبر السنين.

كان الدفاع عن الإسلام في صورته الخالصة من أية شائبة، ممثلاً في تلك الحملة التي انطلقت في القرن الثامن عشر، من أهم الأسس التي قامت عليها شرعية حكم آل سعود.

ومن أهم مصادر قوة آل سعود النظر إليهم حماةً للفضائل العربية، تلك الفضائل التي امتدت أجيالاً، قبل الإسلام وبعده، فقد حافظوا على أخلاق الصحراء. وأعني بالفضائل العربية شمائل الكرم والنبل والشجاعة والدفاع عن العرض إضافة إلى الذود عن الشرف ورعاية مصالح الآخرين. وكان الالتزام بهذه المبادئ من أسباب استمرار الحياة في بيئة الصحراء القاسية. فالحياد عنها لا يعني سوى الموت. وإن كانت وسائل الاتصال الحديثة وغيرها من وسائل الراحة، قد خففت اليوم شيئاً كثيراً من قسوة الحياة في الصحراء، إلاّ أنني أعتقد أن تاريخ عائلتي الحافل بالمحافظة على هذه الفضائل العربية، له دوره الكبير في الولاء الذي نحظى به الآن.

يبلغ عدد أفراد عائلتنا نحو خمسة آلاف فرد من الذكور والإناث، الأمراء والأميرات، من الفروع المختلفة. يجتمعون حول أبناء الملك عبدالعزيز وأحفاده، الذين لهم وحدهم حق ولاية العرش. وإذا كان لي أن أذكر مبدأً واحداً يوحّد هذه العائلة الكبيرة فهو الاحترام. يحترم كل فرد منها من يكبره سناً، ولو كان فارق السن بضعة أشهر أو أسابيع. ويعني هذا في الواقع أن هناك خطاً يمليه الاحترام، لا يمكن تعدّيه عند حدوث خلاف في وجهات النظر بين اثنين من أفراد العائلة، سواء أكان أحد الطرفين أباً أم عمّاً أم أخاً أم ابن عم أم نسيباً. وقد يعترض بعض الناس على هذا التقليد الراسخ ويرون أن الفرد ينبغي له التعبير عمّا في نفسه بلا قيود ولا حدود. ولكن إذا أمعنْت النظر وفكرت في الأمر ملياً، فستجد من العقل والحكمة وجود حدٍّ معينٍ يتوقف المرء عنده ولا يتجاوزه.

لا أدَّعي أن كل شيء في عائلتنا مثالي لا تشوبه شائبة، وأنها خلوٌ من الخلافات. ولا أدَّعي أيضاً أننا أناس بلا أخطاء. فكل عائلة لا تخلو من أفراد يسيئون إلى الآخرين بأخطائهم. قد يحدث ذلك في عائلة من أربعة أو خمسة أفراد، ناهيك من عائلة من خمسة آلاف فرد. لكن الذي لا خلاف فيه أن إنجازات العائلة مجتمعة كفيلة، في نظري، بأن تغفر مثل تلك الزلاّت. كما أن احترام بعضنا بعضاً كفيل بمنع أية نزاعات من التفاقم.

عُرفت العائلة بالتكاتف وقت الشدة، وهذا من أسباب قوتها واستمرارها.

وإذا حدثت لنا متاعب في المستقبل فسيكون مردّها، لا ريب، إلى الخلافات داخل العائلة. لذا، كان لزاماً علينا أن نُنشِّئ أبناءنا على الإيمان الراسخ بالأهمية القصوى لوحدة العائلة، واليقين التام بأن لكل مجتهد نصيباً، سواء أكبيراً كان أم صغيراً. نربيهم على ذلك حتى لا يسود بينهم الحسد، ولا تفرقهم الكراهية.

وإذا كان لي أن أوجز أهم الخصائص التي يستمد منها آل سعود قوتهم، فسأسردها على النحو التالي:

- أولاً: وقبل كل شيء، الالتزام التام بمبادئ الإسلام وحمايته، عقيدة ونظاماً شرعياً.
- ثانياً: احترام الملك وتقديره، فهو كبير العائلة والأب لكل فرد فيها.
- ثالثاً: الالتزام بخدمة المجتمع والتفاني في رفع اسم المملكة عالياً في المحافل الدولية.
- رابعاً: الاهتمام بالاستغلال الأمثل لثروات المملكة وتوزيع عائداتها لتشمل كل المواطنين، مع تسخيرها في تحقيق التنمية الشاملة للبلاد. وكان لهذا أعظم الأثر في القفزة الحضارية التي حققتها المملكة في السنوات الماضية.
- خامساً: احترام الصغير للكبير في محيط العائلة، مهما كان فارق السن.
- سادساً: الالتزام بحل الخلافات في نطاق العائلة وتقوية أواصر الصلة بين أفرادها على أسس من تقديم مصلحة العائلة على مصلحة أي فرد فيها.
- سابعاً: تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على أفراد العائلة بالأسلوب نفسه الذي يطبق به على المجتمع السعودي كافة.
- ثامناً: تخصيص بعض المناصب الحكومية المهمة لذوي الكفاءة من أفراد العائلة، مع الإيمان بأن كل فردٍ أهل للاحترام بصرف النظر عن منصبه.

إن الإخلال بأي من هذه المبادئ السابقة، من وجهة نظري، سوف يؤدي إلى تهديد كيان العائلة، وتقويض دعائم الحكم، وتفريق أواصر الدولة.

إني لعَلَى ثقة تامة أن الشعب السعودي يدرك تماماً أنه لولا اهتمام آل سعود بخدمة مواطنيهم، بما يملكونه من معين لا ينضب من الخبرة والموهبة، ولولا تماسك العائلة وتآزرها، لانقسمت البلاد بعضها على بعض، كما كانت الحال قبل أن يوحدها الملك عبدالعزيز.

تأثرتُ كثيراً بأنّ جدّي الملك عبدالعزيز كان محارباً شجاعاً وفارساً ماهراً، يجيد فنون الصيد واستخدام الخنجر والسيف والبندقية، وفن العيش في الصحراء. سبق الملك عبدالعزيز أولئك الذين اشتهروا بعمليات القوات الخاصة في التاريخ الحديث، من أمثال ديفيد سترلنج David Stirling، رائد مثل تلك الحروب في بريطانيا، الذي شنت مجموعته غارات خلف الخطوط الألمانية في الصحراء الغربية أثناء الحرب العالمية الثانية، واستوحى البريطانيون منه فكرة القوات الخاصة المعروفة باسم SAS. فقد أتقن الملك عبدالعزيز، قبل هؤلاء جميعاً، فن الغارات الليلية كتلك الغارة التي استعاد فيها الرياض، وكررها بنجاح ضد الأتراك وضد مناوئيه في السنوات التي تلت ذلك. ولعلّ هذا التراث الذي لا يُنسى، هو منبع إعجابي بالقوات الخاصة.

كان الملك عبدالعزيز على استعداد تام لاستيعاب التكنولوجيا العسكرية الحديثة. ومن هنا، أدرك قيمة الأسلحة التي غَنِمها من الأتراك. كان يعرف أن الذخيرة أحد مفاتيح النصر. وقد أثار اهتمامي ما يُروى أنه كان يحصي بنفسه طلقات الذخيرة التي يوزعها على الرماة. ولحرص الملك عبدالعزيز على تحسين المهارات العسكرية لرجاله وتحديث معداتهم، أرسل ابنه فيصلاً ليشتري أسلحة من پولندا والاتحاد السوفيتي سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١. وقد حقق فيصل لنفسه مجداً سامقاً في حرب عسير ثم اليمن في العشرينات والثلاثينات، وهو لمّا يزل في السابعة والعشرين من عمره. كما استقدم الملك عبدالعزيز مدربين لتعليم رجاله، منهم النيجيري طارق الأفريقي، الذي كان أول من شغل منصب رئيس الأركان في المملكة. كما استقدم عسكريين ذوي خبرة من بلاد الشام. وفي الأربعينات والخمسينات، عندما كانت الأموال أكثر وفرة، استمر التدريب على يد البعثات العسكرية البريطانية والأمريكية. وفي عام ١٩٤٢، بعث الملك عبدالعزيز ابنه منصوراً، أول وزير للدفاع، لزيارة القوات الهندية التي كانت تخدم ضمن صفوف الجيش الثامن البريطاني في شمالي أفريقيا. كان الملك عبدالعزيز حاكماً يستمع إلى النصيحة ويسعى إلى المعرفة، ويستعين بطاقات المبدعين وخبراتهم من أهل الثقة الذين انتقاهم من أنحاء العالم العربي ومن خارجه.

كنت، في صغري، أتوق كثيراً إلى سماع قصص الملك عبدالعزيز وأخويه محمد وعبدالله. كما تستهويني قصص أبنائه المقاتلين الأشداء، أعمامي تركي وسعود وفيصل ومحمد. أولئك النفر الذين أبلوا بلاءً حسناً في حروب التوحيد التي وقعت في العقود الأولى من هذا القرن. ولكن، لسوء الحظ، لم تسنح لي الفرصة للتعرف عن كثب بالأمير تركي، الذي مات في وباء الطاعون يوم اجتاح البلاد سنة ١٩١٩، أي قبل مولدي بثلاثين عاماً. كانوا جميعاً رجالاً عسكريين، تربوا في بيئة عسكرية. وقد وصف الملك عبدالعزيز النظام الصارم الذي فرضه على أبنائه للكاتب الأمريكي، اللبناني الأصل، أمين الريحاني سنة ١٩٢٢ حين قال:

«علينا أن نبقى على أتم استعداد، وفي لياقة بدنية عالية، فأنا أدرب أبنائي على السير حفاة، والنهوض قبل الفجر بساعتين، وأكل القليل من الطعام، واعتلاء صهوات الجياد بلا سروج، ففي بعض الأحيان لا يكون لدينا الوقت لوضع السرج على الجواد، فنقفز على ظهره وننطلق(*)».

استوحيت قوتي من تراث هذا الجد العظيم وأنا أعيش في عالم يموج بالأخطار، عالم تبرز فيه بشكل جليّ أهمية الشجاعة والإقدام مع امتلاك المهارات العسكرية واستخدام أحدث التكنولوجيا في المجال العسكري.

أمضيت تعليمي المدرسيّ كله في مدرسة تعليم صغار الأمراء التي أسسها الملك سعود ـ يرحمه الله ـ في أوائل الخمسينات. وكان مقرها، في سنواتها الأولى، في قصره في حي الناصرية في مدينة الرياض، وتسمى «معهد الأنجال».

لم تكن الطرق، في تلك الأيام، معبدة بالإسفلت كما هي اليوم، وكانت الرحلة من بيتنا إلى قصر الملك تستغرق ثلاثة أرباع الساعة. ويعني ذلك قطع رحلة طويلة عند رجوعنا لتناول طعام الغداء في بيتنا. ثم علينا أن نقطع الرحلة نفسها عند العودة بعد الظهر لاستكمال اليوم الدراسي. ولكن عندما أدرك الملك

(*) Amin Rihani, *Ibn Saud,* London 1928, quoted in Leslie McLaughlin, *Ibn Saud: Founder of a Kingdom,* London, 1933, p. 33.

سعود ـ وكان رجلاً كريماً عطوفاً بحق ـ العناء الذي نلاقيه، أصدر أمراً بأن نتناول، أنا وأخي فهد، غداءنا في القصر مع ابنه الأمير منصور. وسعدنا بذلك الترتيب كل السعادة. وكان من ثمار ذلك، تلك الصداقة الطويلة والاحترام المتبادل بيننا. وفي عام ١٩٦٤، عندما تولى الملك فيصل حكم البلاد، نُقلت المدرسة من مقرها في القصر وأسند أمرها إلى وزارة المعارف.

كانت المدرسة، أول عهدها، تتكون من فصل واحد، يضم نحو ٢٥ تلميذاً. ثم أصبحت بحلول التسعينات معهداً كبيراً ينتظم فيه أكثر من ١٢٠٠ طالب. وتغطي فصوله الدراسية مرحلة رياض الأطفال حتى المرحلة الثانوية. كما أصبح عدد أبناء غير الأمراء في المدرسة يفوق كثيراً عدد الأمراء، فلم تعد حكراً عليهم. وتغير اسم المدرسة، الآن، ليصبح «معهد العاصمة». كما أنشئ فيها قسم خاص بالبنات في مبنى مستقل.

ومنذ تأسيس المدرسة، وعلى مدى ٣١ عاماً، كان يديرها، أو الأحرى يحكمها، رجل عادي في مظهره قوي في إرادته، هو الأستاذ عثمان ناصر الصالح. وقد اختاره الملك سعود مديراً للمدرسة. ولكن ما أن تولى الإدارة حتى رفض رفضاً قاطعاً تدخل أحد في إدارة مدرسته، حتى إن كان الملك نفسه. وكان إذا حاول أحد، أي أحد، أن يملي رأيه عليه يهدد بالاستقالة على الفور. وأدركت بعد ذلك مدى عظمة هذا الرجل. وكنت أحرص على زيارته بعد إحالته إلى التقاعد، كلما سنحت الفرصة، عرفاناً لفضله في تعليمي وتعليم جيل كامل من السعوديين.

كان مديراً ممن يسمَّون بـ«الطراز القديم». يتبع نظاماً صارماً ويمنع تناول المأكولات أو الحلوى داخل المدرسة. ويشدّد على احترام المدرسين في كل الأوقات ويمنع الخوض في السياسة في غرف الدراسة. وكان التلاميذ يُنادَون ويُعرفون بأسمائهم فقط دون أن تسبقها أية ألقاب.

وحدث، وأنا في الرابعة عشرة من عمري، أن تمرّدتُ على نظامه الحديدي الصارم. فقلت له ذات مرة: «لا تكن صارماً هكذا . . ما نحن إلاّ أولادٌ صغار، ولسنا دُمًى تحرك خيوطها. دعنا نعش حياتنا». وبدلاً من أن تمتد يده إليّ بالعصا، ابتسم ابتسامة عريضة. لقد بهرته جرأتي حتى قرَّر ألاّ يعاقبني.

أعدُّ أخي فهداً، الذي يصغرني بأحد عشر شهراً، أقرب المقربين إلى نفسي، كأننا توأمان. كنّا نتشاجر أيام الطفولة ونتنافس. ولكنّ صداقتنا نمت وتوطدت

ونحن على أعتاب مرحلة الرجولة. أمضينا فترة الدراسة بكاملها معاً، نجلس جنباً إلى جنب في غرفة الدراسة. لم نكن من أوائل الفصل، ولكن مستوانا الدراسي كان فوق المتوسط. وفي أحد فصول الصيف، تولى الأستاذ عثمان الصالح تدريسنا مناهج تعليمية إضافية مكنتنا من القفز سنة دراسية. وحدث مرة، أن سأل والدي الأستاذ عثمان أيّنا أفضل تحصيلاً من الآخر، فأجابه أن فهداً أفضل مني بقليل. ولَكم كانت سعادتي بالغة عندما ظهرت نتائج الامتحانات وأخذ والدي يفحصها ليجدني متفوقاً على فهد بقدر قليل. وفي حقيقة الأمر، كان فهد متفوقاً عليَّ دائماً، ولم يتغير ذلك إلاّ في السنتين الأخيرتين من المرحلة الثانوية، حين حالفني بعض التوفيق واستطعت، بشيء من الاجتهاد اليسير، أن أتفوق عليه قليلاً. وفي السنوات الأخيرة، لم أعد أرى أخي فهداً بالقدر الذي أتوق إليه. فعندما كنت أعمل في القوات المسلحة، كان هو يعمل في وزارة الشؤون الاجتماعية حتى أصبح وكيلاً للوزارة. ثم عُين بعد ذلك أميراً على تبوك، في أقصى شمال غربي المملكة. وقد قام، على مدى الأعوام الثمانية الماضية، بتأسيس إدارة نموذجية يُعْتد بها.

ومن أصدقاء الطفولة المقربين أيضاً الأمير محمد بن فهد، أمير المنطقة الشرقية، الذي تقلد هذا المنصب المهم منذ سنوات عدة، ولا يزال يتولى شؤونه باقتدار. وذكرت من قبل أن محمداً أخٌ لي من الرضاعة. وكنّا لا نزال صديقين منذ طفولتنا حتى اليوم. فقد تزوج والده الملك فهد، قبل أن يصبح ولياً للعهد، من خالتي. ولهذا، كنّا نعيش ونلعب معاً معظم وقتنا ليلاً ونهاراً. لم أكن مولعاً بالرياضة أيام الدراسة، لكن محمداً أقنعني بلعب كرة اليد. وأتقنت اللعب في موقع الدفاع متصدياً للمهاجمين ومغلقاً منطقة المرمى. وحدث ذات مرة أن رشحت نفسي لريادة الفصل، كما رشح محمد نفسه للمنصب عينه. ثم رشح ابن عم آخر لنا هو الأمير سلطان بن محمد نفسه كذلك (وهو الآن من كبار رجال الأعمال، وأكنّ له كل الحب والاحترام). وكان واضحاً أن الأصوات ستنقسم بيننا وأن سلطان سيفوز. فسحبت ترشيحي، وأوحيت إلى مؤيديَّ أن يدلوا بأصواتهم لمصلحة محمد، وتم فوزه فعلاً.

وكنّا نُعَدُّ من المشاغبين في الفصل أحياناً. وتصادف مرور مدير المدرسة ذات يوم ونحن نشاغب أحد المدرسين، فسأل المدير المدرس بحزم: «هل أنت راضٍ عن سلوك هؤلاء الأولاد؟». فأجابه المدرس: «ماعدا هذين الاثنين»، وأشار إليّ وإلى محمدٍ.

إثر ذلك، استدعانا الأستاذ عثمان الصالح إلى مكتبه. حاولت أن أجادله وأبرر له سلوكنا، بينما وقف محمد صامتاً. ولم يكن ما فعلته من الحكمة في شيء. فقد أمر محمداً بالانصراف، أما أنا فكان نصيبي ضرباً مبرحاً. وكان هذا درساً مبكراً لضرورة ترك الجدال في بعض المواقف. لكنني، على ما يبدو، لم أستوعب ذلك الدرس جيداً حتى هذا اليوم.

ظهرت القيمة الحقيقية لصداقتي الحميمة للأمير محمد أثناء حرب الخليج. كان كلانا يفهم الآخر جيداً، ولذلك، استطعنا في سهولة ويسر، أن نحُلَّ كل مشكلة واجهتنا. وكان ذلك مصدر ارتياح لكلينا. كنت واثقاً من الاعتماد عليه، وكان خير عون لي، لا سيما عندما أنشد مساعدته في تخطي الإجراءات البيروقراطية أو إنجاز أمر عاجل على وجه السرعة.

يكبرني محمد بستة أشهر، فهو بذلك مقدَّم عليَّ، وله حق الاحترام حسب تقاليد عائلتنا. ولهذا السبب، هزتني من الأعماق إحدى لفتاته الطيبة، التي ربما لا يذكرها هو نفسه. فمحمدٌ، بحكم وظيفته المدنية أمير منطقة، يتبع إدارياً صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز، وزير الداخلية. لكنه عندما أراد الذهاب إلى جدّة، أثناء الأزمة، اتصل بي إن كنت أمانع في تغيبه عن عمله ليوم أو يومين. ولم يكن ملزماً في حال من الأحوال أن يفعل ذلك، لكنها كانت بحق لفتة طيبة تنمّ على تقديره لقيادتي.

وعلى الرغم من أن ذكريات جدي كان لها الأثر الكبير في صقل شخصيتي، إلاّ أن مَثَلي الأعلى، وأنا أشُبُّ عن الطوق، هو والدي الأمير سلطان. ظل نبراساً ملهماً لي طوال حياتي. وأثناء حرب الخليج، وأنا آنئذٍ أشغل منصباً مستهدفاً من كل جانب، منصب قائد القوات المشتركة ومسرح العمليات، كان الدرع التي أحتمي بها. كان يذود عني ذات اليمين وذات الشمال. فلو تخيَّلت أننا نلعب مباراة في كرة القدم الأمريكية، لكنت أنا من يندفع بالكرة وهو اللاعب الذي يسبقني ويطرح أرضاً كل من يحاول إعاقتي. كان هناك خط هاتفي مُؤمَّن يربطني به. وكنت أتحدث إليه يومياً غير مرة. وكانت توجيهاته اليومية ترسم لي المسار. وآلمني كثيراً أنّ التحليلات التي قرأتها عن حرب الخليج لم توفِّه حقه وزيراً للدفاع. كان له دور في الحرب لا يقل أهمية عن دور ديك تشيني، وزير الدفاع

الأمريكي. كان حقاً الجندي المجهول وراء النصر في حرب الخليج.

كان ينتابني، في صغري، شعور بأن أبي لا يحبني قدر حبه لإخوتي، وأنه يفضلهم عليَّ. ولكن عندما أصبحت رجلاً تبيَّن لي أنه يحبُّني حباً جماً، وأن ما حسبته قسوة منه، لم يكن سوى محاولة منه لتربيتي وتهذيب شخصيتي. فلا غرو أن أحمل له حباً لا يماثله حب، واحتراماً لا يدانيه احترام. ولا أملك إلاّ أن أخفض له جناح الذل اعترافاً بفضله.

بدأ والدي يصطحبني معه في رحلات الصيد بالصقور ولَمّا أتجاوز التاسعة أو العاشرة من عمري. وهي رحلات قد تستغرق أسبوعاً كاملاً. كما عهد بي إلى أحد أصدقائه وأتباعه، وهو رجل من أعيان قبيلته، اسمه الشيخ محمد بن خالد ابن حثلين، عمره من عمر والدي أو يكبره قليلاً. كان الشيخ محمد يحب الصيد، وكان يصطحبني وأخَوَيَّ فهداً وبندراً، ويعلمنا أصول الحياة في البادية.

وفي تلك الأيام، وقبل الطفرة التي نتجت من اكتشاف البترول، كانت فاكهة المانجو تُعد رفاهية تهفو إليها النفس. وكانت الحلوى المعتادة هي علب الحليب المركز التي كنّا نثقبها بسكين الصيد لنمتص ما بداخلها. لم تكن مكيفات الهواء منتشرة، لذلك كنّا في فصل الصيف ننطلق إلى الصحراء في آخر الليل، وننام هناك، بعد الفجر، حتى توقظنا أشعة الشمس. وغدت رحلات الصيد هوايتي المفضلة بعد أن كبرت. فأصبحت أذهب إلى قلب الصحراء لمدة شهر أو ستة أسابيع كل عام تقريباً، حيث نسير في قوافل ونقيم معسكراً، ثم نتابع الصيد من شروق الشمس حتى غروبها. وكنت أجد الكثير من المتعة في رحلات الصيد، لكنني توقفت عنها نهائياً في أواخر السبعينات. وكانت آخر رحلة صيد لي في شتاء عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ حين ذهبت إلى الشمال مروراً بمدينة عرعر الحدودية ومكثت شهراً كاملاً في الصحراء العراقية أمارس هواية الصيد. وأصبحت أعرف طبيعة الأرض هناك معرفة جيدة مما ساعدني على توظيف تلك المعرفة أثناء حرب الخليج.

يتميز والدي بأنه رجل منظم. يمتد تاريخه الوظيفي في الحياة العامة إلى أيام شبابه حين عينه الملك عبدالعزيز أميراً على الرياض. وهو دقيق في مواعيده، وهي صفة يقال إنه اكتسبها من الملك فيصل، إذ كان ساعده الأيمن لسنوات عدة. وكان الملك فيصل دقيقاً في عاداته اليومية، حتى ليقال إن الناس تضبط ساعاتها على تحركاته. وهكذا اكتسبت من والدي صفة الدقة والحرص بشكل

مباشر، ومن الملك فيصل بشكل غير مباشر. فنما عندي حب النظام والتفاني في أداء الواجب.

من الأمور التي علقت بذاكرتي منذ أيام الطفولة أن أبي كان يخصص وقتاً يجلس فيه معنا، مهْما عظمت مشاغله. وكانت وجبة الغداء مناسبة مهمة فنجتمع كل يوم في بيت جدتي، حصة بنت أحمد السديري أرملة الملك عبدالعزيز، وهي سيدة مرموقة تكنّى بـ«أم فهد»، اسم ابنها الأكبر، الملك فهد. كنّا نذهب جميعنا إلى بيتها، الملك ووالدي وأعمامي وعماتي وكل أبنائهم وبناتهم. كان اجتماعاً يومياً حاشداً لا ينقطع. ومن بين أعمامي جميعهم، ربما أكون الأقرب إلى الأمير سلمان بن عبدالعزيز، أمير منطقة الرياض، فهو لي نعم الصديق والناصح الأمين. ساعدني على حل كثير من المشاكل بما في ذلك مشاكلي الشخصية. وللأمير سلمان جهوده العظيمة وبصماته الواضحة التي لا ينكرها أحد في التطوير الهائل لعاصمة المملكة.

كانت «أم فهد» شخصية قوية يحترمها الجميع، وتمتزج مشاعر القوة لديها بمشاعر الحب والحنان. لقد فاتني، للأسف، أن أستمع إليها جيداً أيام طفولَتي لأتعلم منها دروس الماضي. ويخطئ الغربيون في اعتقادهم أن النساء لا يحظَيْن بالاحترام في مجتمعنا. فهذا الاعتقاد مجاف تماماً للحقيقة والواقع. فتأثير النساء في بيئة المنزل في بلادنا عظيم، وبلا حدود. وعندما توفيت «أم فهد» في عام ١٩٦٩، لم ينقطع والدي عن تناول الغداء مع عائلته في بيت أمي في الرياض أو في جدّة، حيث يجتمع أبناؤه وبناته، إذا تصادف وجودهم مع أزواجهم وأبنائهم.

استطاع والدي بهذا التقليد أن يجمعنا ويؤلف بيننا ويشجعنا على الحديث ومناقشة كثير من الأمور والتعبير عن آرائنا، في حدود اللياقة والاحترام. كان تقليداً رائعاً حقاً، تقليدٌ يسر المرء أن يشهده ويشارك فيه. كان فرصة يومية، إلاّ إذا حالت دونها ظروف قاهرة، أن أنعم برؤية أمي وأقبّل يدها وأتشرف بالجلوس إليها وأفوز بدعواتها وأتجاذب معها ومع إخوتي وأخواتي أطراف الحديث.

تركت أمي، الأميرة منيرة، بصمات واضحة في حياتي. فهي، كما ذكرت من قبل، كبرى بنات عبدالعزيز بن مساعد آل جلوي، ابن عم الملك عبدالعزيز ورفيق دربه الذي قاتل إلى جانبه، وعاش حتى ناهز التسعين عاماً. إنني لأشعر حقاً بالفخر لأن الدماء التي تجري في عروقي تنحدر من أصلين كريمين: من جَدَّيَّ الملك عبدالعزيز وعبدالعزيز بن مساعد آل جلوي. وكلاهما من القادة

العسكريين المبرِّزين، فإليهما يُعزى الدور الرئيسي في استعادة مدينة الرياض ومن ثَم في توحيد المملكة.

يفيض قلب أمي عطفاً وحناناً، فهي لا تحمل ضغينة لأحد، ولا مكان في قلبها إلاّ للحب. وهي، في الوقت نفسه، صريحة إلى أبعد الحدود تعبر عمّا في صدرها بلا تردد. وكان من شأن هذه الصفة أن تسمو بأخلاق من حولها. ولم يحدث أن غادرتُ البلاد دون أن أودِّعها. وهي دائماً أول من أحدثه لدى عودتي، أقدمها على زوجتي وأولادي. وتفتخر أمي بأن تُكنى «أم خالد» بدلاً من الأميرة منيرة. وهو فخر أعتبر نفسي أولى به منها . وشاع بين الناس في المملكة أن مَنْ أراد مني شيئاً وخشي رد طلبه، فعليه أن يتوجَّه إلى أمي ليطلبه منها؛ لأنه يعلم تمام العلم أنها إذا طلبت مني شيئاً فإنني ملبّيه لا محالة.

كانت أمي، أيام حرب الخليج، كلما سمعت بسقوط صاروخ سكود Scud، تأمر بإعداد سيارتها لتنتقل بها إلى مقر وزارة الدفاع حيث كنت أعمل، فتدور حوله ليتأكد لها أن المبنى لا يزال قائماً، وأن ابنها لا يزال حياً يرزق!

إلى جانب أمي كانت مربيتي، بشرى، شخصية مهمة في طفولتي. كانت سوداء البشرة قصيرة القامة، حادة الطباع، وبلغ من حدة طبعها أن أمي كانت تتحاشى الخلاف معها. وكانت أمَةً لأسرة أمي في حائل (قبل أن يُلغى نظام الرق في المملكة رسمياً عام ١٩٦٢) وانتقلت إلى الرياض مع أمي عندما تزوجها الأمير سلطان. وتزوجت بشرى من قبل، ودام زواجها عاماً أو عامين قبل أن يموت زوجها في حادث. ثم كرَّست حياتها، بعد ذلك، لخدمة عائلتنا. لم تكن تقرأ أو تكتب، لكنها كانت مربية لا نظير لها. تمتلك موهبة نادرة في تربية الأطفال، وكان ذلك من حسن حظي. قامت على رعايتي أنا وأختي البندري، ثم أخي الأصغر تركي حتى بلغ العاشرة من عمره.

كانت بشرى وابنها نادر جزءاً من عائلتنا، ولا أبالغ إذا قلت إن تأثيرها في حياتي كان مهماً. فقد قامت على رعايتي طوال فترة صِبايَ، وعلمتني كيف أكون رجلاً. كان لها رأيها المستقل وعزيمتها التي لا تلين. تتحرك الصُمُّ الرواسي، ولا يتغير لها رأي. عندما كنت في الخامسة أو السادسة، أوكل أبي إلى عبدالله ابن مسعود أمر مرافقتي. أعطته بشرى بعضاً من مالها ليشتري ذخيرة لبندقيته، ثم طلبت إليه أن يعلمني استخدام البندقية والرماية بها. وعندما كنت أسقط جرّاء رد فعل الطلقة، كانت تطلب من عبدالله أن يساعدني على النهوض واستئناف

الرماية. كما كانت تطلب من ابنها أن يصارعني، وتشجعنا بحماسة: «اهجم عليه.. هيا.. كن قوياً». أما إذا رأتني أسير مترهلاً فتصرخ بي: «قف معتدلاً وإلاّ كسّرت عنقك». وإذا تسللت إلى مجلس أبي وبدر مني سلوك لا يعجبها، تقفز كالنمرة وتلطم وجهي. كانت تصرخ بي: «لا تطأطئ رأسك وأنت تتحدث إلى الناس، أنظر في عين من تتحدث إليه».

انتهى دور بشرى، بطبيعة الحال، بعد أن أكملت الدراسة الثانوية، ولكن بقي بيننا وُدٌّ لم ينقطع. عندما التحقت بالأكاديمية الملكية العسكرية في ساندهيرست Sandhurst، كانت تعاني مرض السرطان ونقلت إلى لندن لتلقي العلاج. كنت أهرب من ساندهيرست في الحادية عشرة ليلاً وأذهب إلى لندن لأمضي الليل كله إلى جانبها في المستشفى، ثم أعود قبل الفجر. قضت نحبها في المملكة، بعد عودتها من لندن بزمن قليل. وقيل لي إنها ظلت تحتفظ بصورتي معها وهي في النزع الأخير. كانت تعُدُّني حقاً ابناً لها.

تركت الأحداث التي دارت في اليمن أثراً بالغاً في حياتي. فقد دارت في الستينات حرب أهلية في اليمن استمرت سبع سنوات، وكنت أيامها شاباً يافعاً. كان لتلك الحرب أثرها في تهديد أمن المملكة، كما شغلت والدي الوقت كله. ولعل من أهم آثارها أيضاً أنها جاءت بالملك فيصل إلى الحكم، وحددت اختياري لحياتي المهنية.

عندما أطيح بالإمام البدر في انقلاب عسكري شهدته صنعاء يوم ٢٦ سبتمبر عام ١٩٦٢، كنت في الثالثة عشرة من عمري. وما زلت أذكر الصدمة التي خلّفها ذلك الحدث في المملكة وفي العائلة المالكة. كانت تلك المرة الأولى التي يُطاح فيها بنظام ملكي في الجزيرة العربية، وكانت سابقة غير مستساغة لدينا. استنجد النظام الجمهوري الجديد في اليمن بمصر. ولم يلبث الرئيس جمال عبدالناصر، الذي كان وقتها رمزاً للقومية العربية، أن أرسل جيشه لحمايته. وتحولت بذلك دولة كانت تربطنا بها علاقات الصداقة طوال ٣٠ عاماً، ودون سابق إنذار، إلى تهديد مباشر. وهو وضع لا يختلف كثيراً عن الوضع الذي خلّفه غزو صدام حسين الكويت. ولست أعني بذلك أن صداماً صورة أخرى من عبدالناصر، فعبدالناصر، على الرغم من كل أخطائه، يُعَدّ بطلاً قومياً في نظر مؤيديه.

كان الخطر الذي يتهددنا محدقاً، ويَمسُّ صُلب كياننا. لقد وضعت مصر نفسها، بإرسالها جيشاً إلى اليمن، في موقع يسمح لها بمساعدة مجموعات المعارضة التي بدأت تنشر الفوضى في أرجاء شبه الجزيرة العربية. ولم يمضِ وقت طويل حتى بدأت الطائرات المصرية الإغارة على مدننا الحدودية في جيزان ونجران. ولم يكن في وسعنا أن نفعل شيئاً للدفاع عنها. فلم يكن لدينا جيش أو قوات جوية أو نظام للدفاع الجوي نواجه به القوات المصرية. ولا أزال أذكر قلق أبي البالغ في شأن ضعفنا وقلة حيلتنا. كنت أيامها صغير السن، لكنني كنت أشعر بالألم، أن كبرياءنا قد جُرحت.

كان لعبدالناصر تحدياته الأيديولوجية أيضاً. كان بطلاً نتطلع إليه. ويحبه الأمراء الصغار، بلا استثناء، حباً جماً إلى درجة أن الخلاف كان ينشب بيننا إذا قال أحدُنا إنه أشدنا حباً له. كنّا جميعاً ناصريين، كما كان أكثر العرب كذلك. كان هذا الاتجاه واضحاً في عائلتي، كان أبي وأعمامي معجبين بعبدالناصر، وتستهويهم خطبه وأفكاره. تجد صورته على الجدران وسيرته على كل لسان أينما يمَّمت وجهك. فنحن في المملكة، بطبيعتنا، نُكِن لإخواننا المصريين كل محبة وأخوّة، ونحتفظ لهم بمشاعر الود والألفة. وقَدِمَ كثير من المصريين للعيش في المملكة، خصوصاً في منطقة الحجاز. وتظل مصر هي المكان المُفضل الذي يقصده السعوديون لقضاء إجازاتهم، ونتيجة لذلك تَمّت زيجات كثيرة بيننا وبينهم.

لكنّ عبدالناصر لم يَدَع لنا خياراً إلاّ أن نتصدى له، بعد أن أرسل جيشه إلى اليمن وأعلن تصميمه على الإطاحة بعائلتنا. وترك ذلك جرحاً غائراً في نفوسنا. إذ تبين لنا، على أرض الواقع، أن القومية العربية التي ما فتئ عبدالناصر يتغنّى بها لم تكن إلاّ ستاراً لطموحاته السياسية. بدا لنا واضحاً، كفلق الصبح، أن اليمن لم تكن منتهى طموحات عبدالناصر، بل كان يطمع في أن يصبح زعيم العرب الأوحد. ومن هنا، تغيرت نظرتنا إليه تغيراً جذرياً، تغيراً من النقيض إلى النقيض. فبعد أن كان بطلاً في الخمسينات، أصبح خطراً في الستينات، على الأقل، في نظرتنا إليه. كنّا لا نزال أطفالاً في ذلك الوقت، لكننا كنّا نشعر بما يدور في خلد آبائنا. فقد كان علينا، لكي نحافظ على استقلالنا، أن نقاوم القوات المصرية في اليمن بكل ما أوتينا من قوة. وكأنما التاريخ يعيد نفسه، فلم يكد يمضي جيل واحد حتى وجدنا أنفسنا مضطرين، وللسبب نفسه، أن نقاوم أحلام صدام في السيطرة والنفوذ. ويرى بعض الناس أن حرب اليمن التي خضناها،

بالوكالة، في الستينات تمثل أول اختبار لإرادتنا الوطنية. بينما جاء الاختبار الثاني في حرب الخليج التي خضناها، بالأصالة، ضد العراق. وفي كلتا الحالتين ثمة حاكم عربي يهدد بممارسة ضغوط لا تُحتمل على صانعي القرار في بلدنا، وكانت مقاومته أمراً لا مفر منه. وفي كلتا الحالتين، كان لملك المملكة العربية السعودية ـ الملك فيصل في الحالة الأولى، والملك فهد في الحالة الثانية ـ الرؤية الإستراتيجية الصائبة حين أسرع إلى درء الخطر قبل أن يصل إلى عقر دارنا.

في الاختبار الأول، سلّم الملك سعود زمام الأمور إلى ولي العهد الأمير فيصل في أكتوبر عام ١٩٦٢. وكانت الخطوة الأولى التي أدت إلى تولّيه شؤون الحكم بعد ذلك بسنتين. وعيّنَ الأمير فيصل، بعد ذلك مباشرة، الأمير فهداً وزيراً للداخلية، والأمير عبدالله رئيساً للحرس الوطني، والأمير سلطان وزيراً للدفاع. ومن هنا، كان والدي المسؤول الأول بين أفراد العائلة المالكة عن درء الخطر العسكري القادم من اليمن.

كان الصراع القبلي متأصلاً في اليمن. لكن الأمير سلطان، بذكائه وحكمته، أدّى دوراً بارعاً في التأليف بين زعماء القبائل. وظلت الشخصيات اليمنية المهيبة، بعمائمها وخناجرها المعقوفة تتدلى من أحزمتها، تسعى إليه في جدّة والرياض. لم أكن أسمع ما يدور بينهم من مباحثات، لكنني، وأنا أراقب الموقف عن كثب، تعلمت من صبر والدي وحكمته الشيء الكثير. وكان لِمَا تعلمته أثره الكبير في قدرتي على التعامل مع أعضاء التحالف على اختلاف مشاربهم إبّان حرب الخليج.

كانت خبرة حرب اليمن ذات قيمة كبرى لوالدي وأعمامي، وإن كان جل العبء السياسي والدبلوماسي في الصراع مع عبدالناصر قد وقع، بطبيعة الحال، على عاتق الملك فيصل. خاضت المملكة الصراع ضد موجة الناصرية بمفردها. وظلت صامدة إلى أن أثبتت هزيمة العرب في حرب ١٩٦٧ أن عبدالناصر، على الرغم من جاذبيته الشخصية وما أشيع عن قدراته الخارقة، كان هو نفسه معرضاً للسقوط. ومما رجّح كفة الملك فيصل أنه، خلافاً لعبدالناصر، كان ملماً بالبديهيات الإستراتيجية لليمن، وعلى معرفة بقبائلها القوية وبطبيعتها الجبلية وبتاريخها الحافل بالأحداث. تعلم الكثير عن تلك البلاد أثناء الحملات العسكرية على اليمن التي قادها بنفسه نيابة عن والده، ابن سعود، في عام ١٩٢٦ وعام ١٩٣٢.

اكتسب الأمير فهد والأمير عبدالله والأمير سلطان في الستينات خبرة الحرب، تلك الخبرة التي يطلق عليها اليوم مصطلح «إدارة الأزمات». علمتهم تلك الأيام، أنه إذا حزب الأمر فلا مناص من القتال، وأن حماية البلاد والعائلة ليست أمراً يوكل إلى الآخرين. وأعتقد أن مجهوداتنا الناجحة في بناء التحالف القوي أثناء أزمة الخليج، كانت دليلاً واضحاً على استعدادنا لبذل دمائنا والدفاع عن أنفسنا. لم يكن ذلك التحالف قاصراً على الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، لكنه شمل أيضاً مصر وسوريا وشركاءنا الخليجيين والمغرب والنيجر والسنغال وتشيكوسلوفاكيا وبولندا والفيليبين وغيرها. كانت مواجهتنا صداماً ضرورة حتمية، مهما قال عنها المرجفون، فهي درس تعلمناه في اليمن قبل ذلك بثلاثين عاماً.

في الستينات، وتحت التأثير النفسي لحرب اليمن، التحق الكثير من الأمراء الصغار بالخدمة العسكرية. ومما لا شك فيه أنني بدأت أميل إلى هذا الاتجاه وأنا أرى والدي محاطاً دائماً بالعسكريين. فأصبحت أتوق إلى الانخراط في السلك العسكري. وبدأت، وأنا لا أزال في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمري، أُلح على والدي ليرسلني إلى الأكاديمية الملكية العسكرية البريطانية في ساندهيرست. كنت قد سمعت عن شهرتها وجدية الدراسة فيها، وسبق أن التحق بها ما يربو على عشرة طلاب من السعوديين.

لكنني عندما أتأمل في الأمر ملياً، أرى أن ضعف قدرتنا على الدفاع عن بلدنا، كان هو السبب الرئيسي الذي دفعني إلى الانخراط في الجندية.

الفصل الخامس

جرعة من الانضباط البريطاني

تقف الأكاديمية الملكية العسكرية في ساندهيرست شامخة وسط مساحة شاسعة من الأراضي الخضراء البهيجة لمقاطعة ساري Surrey. وتبعد الأكاديمية نحو ثلاثين ميلاً عن مدينة لندن. وتُعد من أفضل الأكاديميات العسكرية العريقة وأكثرها صرامة وانضباطاً في العالم بأسره، وتضارع أكاديمية سان سير Saint Cyr في فرنسا أو أكاديمية ويست پوينت West Point في الولايات المتحدة الأمريكية، وهما من المعاهد العسكرية المرموقة التي يُعرف عنها أنها تُعنى بتحويل الشباب الغَضّ إلى قادة أكْفاء. وقد يبدو لك، للوهلة الأولى، وأنت تنظر إلى الواجهة العظيمة لمبنى أكاديمية ساندهيرست القديم بحدائقه الغناء وبحيراته الأخّاذة، أنك أمام قصر مُشيّد لدوق إنجليزي. ولكن سرعان ما تكتشف أن الكلية تحمل ملامح سجن للأحداث الجانحين.

تتلخص طريقة التدريب في أكاديمية ساندهيرست في أنهم يعمدون أول الأمر إلى تحطيمك تماماً، جسدياً وعقلياً، فتتحول في أيديهم بفعل المعاملة القاسية إلى عجينة طرية، ثم يعمدون عقب ذلك إلى بنائك مجدداً، فيعلمونك النظام والأدب واللباقة، ويردون إليك ثقتك بنفسك وتقديرك لذاتك، ثم يجتهدون عقب ذلك ليجعلوا منك، كما تقول العبارة الإنجليزية القديمة، ضابطاً ورجلاً مهذباً.

أمضيت سنتين في ساندهيرست في أواخر الستينات، من سن السابعة عشرة حتى التاسعة عشرة. ولا أدّعي أنها كانت خبرة سارة تماماً، لكنني أجزم أنها من أكثر خبرات حياتي ثراءً وفائدة.

ليس النجاح في ساندهيرست أمراً سهل المنال. فمن الطلاب من يترك

الدراسة لصعوبتها ومنهم من يُستبعد لفشله فيها. لذا، كان إتمام الدراسة، في حد ذاته، إنجازاً لا يستهان به. عندما بدأت الدراسة في ساندهيرست كنت واحداً من ستة طلاب عرب. وعند نهاية البرنامج لم يبق من هؤلاء الستة سواي والشيخ خليفة بن أحمد آل خليفة، وزير الدفاع البحريني الحالي، الذي لا يزال من أعز أصدقائي مُنذ ذلك الحين. كنّا على تواصل دائم طوال فترة الدراسة، يشجع أحدنا الآخر على المثابرة والاستمرار.

كان الخوف والرعب من يوم يعود فيه الطالب إلى بلده يجر أذيال الخيبة، بعد فشله في الحصول على شهادة التخرج ضابطاً، دافعاً من أكبر الدوافع لمعظم الطلاب إلى مواصلة الدراسة وتحمل مشاقها.

تروى قصة ـ وأرجح صدقها ـ أن أحد الشبان السعوديين الذين سبقوني إلى الالتحاق بأكاديمية ساندهيرست، وهو واحدٌ من أول ستة سعوديين قُبِلوا للدراسة فيها عام ١٩٤٨، أُجبر على تَركْ الدراسة والعودة إلى بلده، لا لشيءٍ سوى أنه لم يكن يهوى الرياضة. وقبل أن يرحل استدعاه قائد الأكاديمية الجنرال السير هيو ستوكويل Sir Hugh Stockwell (الذي حقق بعد ذلك شهرة واسعة، أو قل إن شئت خزياً مبيناً، بعد أن قاد القوات البريطانية في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦).

وانطلق صوت القائد هادراً: «هل تريد مني شيئاً يا بنيّ قبل أن ترحل؟».

فأجابه الشاب: «شيء واحد يا سيدي».

فسأله القائد: «حسناً، ما هو؟».

فأجابه الشاب: «أن تطلق عليَّ الرصاص».

وكما رويتُ من قبل، كنت أُلح على والدي ليرسلني إلى ساندهيرست قبل أن أُنهي دراستي الثانوية. كنت أتعجل الذهاب، لأنني لم أكن أعرف ما ينتظرني هناك. لم أكن مقتنعاً بتأجيل التحاقي بالأكاديمية، في حين التحق بها أربعة من أبناء عمومتي قبل أن ينهوا دراستهم الثانوية.

لكنّ الأمير سلطان كان حازماً في قوله لي: «دعك من الآخرين ولتكملْ دراستك الثانوية أولاً. أريدك أن تنهج النهج الصحيح إذا كنت تريد الالتحاق بساندهيرست حقاً. عليك أن تفعل كما يفعل الشاب الإنجليزي تماماً. لا بد من

أن تحصل على مؤهلات زميلك الإنجليزي نفسها، فالدراسة العسكرية لا تقبل أقل من الشهادة الثانوية».

أنهيت دراستي الثانوية بعد ذلك بسنتين وعندها قال لي أبي: «جاء وقت الاختيار، في وسعك إن شئت أن تتخلى عن فكرة الدراسة في ساندهيرست وتلتحق بالجامعة. لن يملي أحدٌ عليك اتجاهاً، فالاختيار لا بد أن ينبع من داخلك. ولكن إذا قررت الالتحاق بساندهيرست فعليك أن تمضي حتى النهاية. وإذا فشلت فلا أريد أن أرى وجهك مرة أخرى. عليك أن تنظر إلى ساندهيرست كجواد جَموح، إذا جَفل منك فعليك أن تلحق به مهما كانت الصعاب». راودتني نفسي مرات عدة، في الأسابيع الأولى من الدراسة، أن أتخلى عن محاولة اللحاق بالجواد الجموح، ولكن كلمات والدي كانت تشحذ همتي وتشد أزري.

كنت واحداً ممن يُطلق عليهم «الطلاب الأجانب»، أي طالباً غير بريطاني أُتيحَت له فرصة الدراسة، لأن حكومة بلده كانت على وفاق مع الحكومة البريطانية. كنت والشيخ خليفة من البحرين وطلاباً آخرين من تايلاند والهند وباكستان وسيلان وزامبيا والعراق نمثل مجموعة الطلاب الأجانب. وكان عدم إجادة اللغة الإنجليزية عائقاً كبيراً لكثير منّا، نحن الطلاب الأجانب. وكنت، إبّان فترة المراهقة، قد أمضيت ثلاثة فصول صيفية أدرس اللغة الإنجليزية في إحدى مدارس لندن. وأتبعت ذلك بشهرين كل عام، لمدة عامين، أمضيتها مع أسرة إنجليزية، أسرة العقيد دينت Dent وزوجته وولديه، في ستوكبريدج Stockbridge، مقاطعة هامپشاير Hampshire في جنوب بريطانيا. وكانت تلك كل ممارستي للغة الإنجليزية.

لهذا السبب، أُرسلت أنا ومجموعة من الطلاب الذين كانت تعوزهم إجادة اللغة الإنجليزية، في سپتمبر عام ١٩٦٦، إلى مؤسسة تعليمية نائية للجيش البريطاني في بيكونسفيلد Beaconsfield للالتحاق بدورة في اللغة الإنجليزية استمرت ثلاثة أشهر. كان ذلك قبل بداية الدراسة الفعلية في ساندهيرست في ٣ يناير عام ١٩٦٧. وتسمى هذه المؤسسة التعليمية جناح ساندهيرست. وهي تتولى إعداد الطلاب الأجانب للالتحاق بالأكاديمية، بتدريسهم اللغة الإنجليزية لمدة أربع أو خمس ساعات يومياً، فضلاً عن التدريبات العسكرية بقية الوقت. ومن الأمور التي جعلت التجربة أكثر صعوبة وتحدياً أنهم أسكنونا في أكواخ مع جنود الجوركا Gurkha حيث يقيم كل ١٢ فرداً في كوخ. والجوركا جنود أشداء من

جبال نيبال، ولهم تاريخ يمتد إلى أكثر من مائتي سنة في خدمة الإمبراطورية البريطانية. ويشبهون أهل اليمن إلى حدٍ كبير، فكلاهما من سكان الجبال، كما أن الجوركا يشدُّون إلى خصورهم خناجر معقوفة تتدلى من أحزمتهم يسمونها الـ«كوكري» Kukri. وتم تحذيرنا من أن الجوركي إذا استل الكوكري، فلن يعيده إلى غمده قبل أن يراق على جوانبه الدم. كان العيش مع هؤلاء الجنود هو أول تدريب عملي تلقيته في الصلابة والشدة.

كان نادر، ابن مربيتي، في صحبتي في بيكونسفيلد وقد أرسله والدي معي، لأن نادراً كان مثلي حريصاً على الالتحاق بأكاديمية ساندهيرست. ولكن نادراً كان نحيفاً وضعيفاً. ولسوء الحظ، كان المطر المتقاطر من سقف الكوخ القديم، الذي يرجع تاريخه إلى الحرب العالمية الثانية، يتساقط مباشرة على سريره، فتبادلنا الأسِرّة إذ لم يكن البلل يضيرني. ولكنه أُصيب أثر ذلك بداء السل، واضُطر إلى العودة إلى البلاد بعد أن قَدّم إليَّ خدمة لن أنساها.

أصدر والدي الأمير سلطان تعليمات مشدَّدة بألاّ يرسل أحد إليَّ، بمن في ذلك أمي، أية نقود، وكان يفترض أن يكفيني المبلغ البسيط الذي كنت أتلقاه شهرياً من اللواء مشهور الحارثي، الملحق العسكري في لندن (كان اللواء الحارثي وزوجته في غاية النبل معي، ولا يزال ابنهما نائلٌ الذي تخرج قبلي في ساندهيرست من أصدقائي المقربين). وفي يوم من الأيام وصلني خطابان من أمي، أحدهما موجه إليّ والآخر إلى نادر. كان خطابي يفيض شوقاً وحناناً ودعاءً بالتوفيق، أما خطاب نادر فكان فقرة قصيرة مرفقاً بها شيك بمبلغ مائة جنيه إسترليني. وقعت عيني على الشيك عندما فضَّ نادر خطابه. فقلت له: «اسمع يا نادر أنت بمثابة أخ لي، ولا فرق بيننا. لِمَ لا نضع نقودي ونقودك وننفق منها معاً؟». وفكر نادر للحظات، ولعله قال في سرِّه، إذا كانت أم خالد قد أرسلت إليّ بمائة جنيه فلا بد أنها أرسلت إليه ألفاً. ووافق على اقتراحي، فأخذتُ نقوده كلها وأعطيته منها خمسة جنيهات. وأعترف بأنني أنفقت باقي الثروة كلها على نفسي، لكنني عوضته عنها بعد ذلك في صفاء نفس وطيب خاطر.

مرت الأيام ولم أنسَ جنود الجوركا الذين كانت تبهرني رباطة جأشهم وانضباطهم وبشاشة وجوههم. وعندما عَلِمْت أن البريطانيين بدأوا يستغنون عنهم تدريجياً لقلة الاعتمادات المالية وضعف الإمبراطورية، استقدمت عدداً منهم للعمل رجال أمن في مزرعتي التي تقع على مشارف الرياض. وفي كل مرة ألج

فيها بوابة المزرعة، أشعر بسعادة غامرة عندما أتلقى التحية من جندي بادي الحيوية والنشاط، طُبع شعار الكوكري على غطاء رأسه.

ينقسم برنامج الدراسة في ساندهيرست، الذي يستمر لمدة سنتين، إلى ستة فصول دراسية كل منها ١٤ أسبوعاً. الفصل الأول هو مرحلة «التحطيم» التي سبق أن تحدثت عنها وعُرِفت بأنها لفحة من عذاب أليم. وتتم بطريقتين: أولاهما، تطبيق مبدأ اللياقة البدنية الذي يقدسونه، إذ يتعرض الطالب لإجهاد بدني مستمر. فيركض مسافة ثلاثة أميال يومياً بكامل هيئته الميدانية، البندقية والخوذة وجعبة الظهر والزمزمية، وساعة تلو ساعة من التدريبات المختلفة. تارة يسير الطلاب بخطواتٍ عسكرية جيئة وذهاباً عبر الفناء، وأخرى تدريبات الاقتحام حيث يتسلق الطالب الموانع التي يبلغ ارتفاعها ١٢ قدماً، أو يخوض الأنهار، ويتدلى على الحبال، ويزحف تحت الشباك. وتدريبات ليلية حيث زمهرير البرد يكاد يفتت العظام ، ويجعلك لا تكاد تشعر بأطرافك. ويستلقي الطالب على وجهه في أخدود مملوء بالطين، ومنتهى أمَله أن ينتهي من هذا الجحيم.

وعندما يعود الطالب إلى المعسكر وقد أعياه التعب، عليه أن يمضي الساعات الطوال يلمّع حذاءه وينظف معداته ويُبيض أحزمته وعلاَّقاته ويُلَمع الأزرار. فهو باختصار يجهز نفسه وجميع مهماته للتفتيش، الذي غالباً ما تتلوه جرعة أخرى من العقاب في شكل تمرينات الضغط وتدريبات إضافية. كان هناك، ولا يزال بكل تأكيد، ما يسمى بـ «حلاقة ساندهيرست» إذ يأتي أحدهم بورقة مقوَّاة ويحكها على وجهك ليتأكد أنك قد حَلقت ذقنك بكل عناية من كلا الاتجاهين. وإن ذلك كله ليهون أمام العقاب البدني والعقلي الذي تتلقاه إذا وقعت أسيراً في تدريبات النجاة. فعلى الرغم من إدراك الطالب تماماً أنه لن يتعرض للتعذيب الحقيقي، إلاّ أن فرائصه ترتعد خوفاً من الوقوع في الأسْر. فأثناء دراستي هناك، كان عقاب الأسرى أليماً حقاً. فالتهديد قائمٌ بأن من يقع في الأسْر سيُسحل سحلاً. ولحسن الحظ، كانت تُتاح للأسير فرصة الفكاك من الأسْر والهرب إلى الحقول المجاورة. وفي أحد التمرينات، تمكنت من الهرب وانطلقت أتعثر في الظلام حتى وجدت كوخاً في أحد الحقول واتخذت من القش الدافئ فراشاً وثيراً. وعندما انفلق الصبح اكتشفت أنني كنت نائماً جوار خنزير.

ليس الجهد البدني هو الذي يجعل تدريبات ساندهيرست تفوق كل احتمال، لكنها المهانة التي تصاحبه. إنها العنصر الثاني في عملية «التحطيم». يعامَل

الطلاب خلالها معاملة الحشرات، وهناك من يصرخ بهم ويستأسد عليهم ويسومهم سوء المهانة والعذاب. هناك الرقباء الشداد من لواء الحرس ومَنْ يوالونهم، من الطلاب القدامى ذوي النزعة السادية الذين ذاقوا الأمرّين في العام الذي مضى، ويريدون أن يصبُّوا جام كبتهم على من جاء بعدهم. كان التدريب على الالتحام واستخدام الأسلحة والرماية وقراءة الخرائط واستخدام أجهزة الاتصالات والإسعافات الأولية ، من المهارات الأساسية التي على الطالب أن يكتسبها وهو يقدح زناد فكره ويُجهد كل ذرة في جسده من أجل البقاء ليجتاز الأسابيع العجاف.

لم أكن معتاداً على تلقّي الأوامر الصارمة كل وقت وحين . لم أتعرض من قبل للصياح بي جيئة وذهاباً! لم أتعرض من قبل للسَّب والإهانة! ولَمَّا كنت ذا طبع عنيد، وجدت صعوبة بالغة في كبت غيظي وابتلاع ألمي وعدم الرد على الإهانات صاعاً بصاع! وكان من شأن ذلك كله أن ينهي مستقبلي العسكري قبل أن يبدأ.

وحدث، أثناء دراستي، أن أحد الطلاب الذين فُصِلوا لضعف مستواهم الدراسي وضع فوَّهة مسدسه في فمه وأفرغ طلقة خُلَّبِيّة (وهي ذخيرة تستخدم أثناء التدريب وتسمى بالذخيرة الفشنك في بعض الجيوش) فقضى نحبه منتحراً. بيد أن بعض الطلاب كانوا قدوة حسنة لنا، ومن هؤلاء الطالب شامي من باكستان الذي كان مثالاً يحتذى به في الاجتهاد والمثابرة والتفاني في خدمة الوطن. وكانت مكافأته أن عُيِّن وكيل ضابط. استُشهد والده في الحرب بين الهند وباكستان عام ١٩٦٥، وفَقد هو نفسه إحدى ساقيه في الحرب بين البلدين عام ١٩٧١، لكنه لا يزال في الخدمة. كان شامي أول من وَجَّهتُ إليه الدعوة لأداء فريضة الحج، من المسلمين غير العرب.

تعرضت في ساندهيرست لمشكلة صحية مؤلمة. حين أُصبت بناسور وتطلب العلاج تدخلاً جراحياً. ذهبت إلى أشهر الجراحين في لندن، في ذلك الوقت، الدكتور نورمان تانار Norman Tanner الذي أجرى من قبل عمليات جراحية ناجحة لكثير من أفراد العائلة المالكة. وشخّص حالتي أنها خرَّاج، وقام بإزالة ما اعتقد أنه الخراج، ولم يقم باستئصاله كاملاً. ونتيجة لذلك، أُجْرِيَتْ لي ست عمليات جراحية لعلاج تلك المشكلة. وأخيراً، أشار عليَّ الدكتور جون إند John Ind، وهو طبيب موهوب، بأن أستشير اختصاصياً آخر هو الدكتور جون

جريفث John Griffiths، فانتهت بعد ذلك المشكلة تماماً بغير رجعة، لكنها كانت كابوساً مزعجاً حقاً. كان عليَّ أن أضع ضماداً ثقيلاً على الجرح حتى لا تظهر منه أية إفرازات. كنت أخشى أن يؤدي اكتشاف مشكلتي الصحية إلى فصلي من ساندهيرست بسبب عدم اللياقة الطبية. فكان عليَّ أن أُخفي تلك المشكلة تماماً.

كنّا ننفذ، في أحد الأيام، واحداً من تدريبات الاقتحام الشاقة، وكانت تتطلب، كما سبق أن ذكرت، الركض لمسافة ثلاثة أميال يتخلله اجتياز عدد من الموانع. كنت أسير مترنحاً من فرط الإعياء عندما دفعني طالب من الخلف، فصحت به: «ابتعد»، لكنه دفعني مرة أخرى قائلاً: «صه أيها العربي الغبي». لو أنه كان من الطلاب القدامى لما وسعني إلاً أن أبتلع الإهانة، لكنه زميلي من الفصيل نفسه. وكانت الإهانة أكبر من أن تُحتمل. أحسست بالدم يغلي في عروقي، فوكزته بمؤخرة البندقية بكل قوتي وطرحته أرضاً. وعندما استدعيت للتحقيق قلتُ: «إنه أهان هويتي القومية». ولكنّ ذلك لم يشفع لي في شيء. وعُوقبت بالحبس داخل المعسكر لمدة ثلاثة أسابيع وبأداء التدريبات الإضافية. وكان ذلك كله أهون بكثير من فصلي من الأكاديمية.

وحدث أن كانت أمي، في تلك الفترة، تُعالَج في لندن من أزمة ضيق في التنفس، ولم أتمكن من الخروج لرؤيتها؛ إذ كنت وقتها رهين الحبس في المعسكر. وكانت سعادتي لا توصف عندما جاءت هي في صحبة إحدى أخواتي لرؤيتي. لم تكن أمي تعرف أنّي كنت أنفِّذ عقوبة الحبس. ولم أتمكن من الجلوس معها أكثر من عشر دقائق. كانت في غاية التعب ولا تقوى على المشي، واكتفينا بالجلوس في سيارتها، بينما التهمتُ طَبقاً من «الكبسة» الشهية (أكلة من الأرز واللحم على الطريقة السعودية) أحضرته معها، فأتيت عليه. كانت، مثلها مثل كل الأمهات، تخشى أن تكون تغذية ابنها أقل مما يجب.

وبعد حادثة تدريب الاقتحام، قررت أن أرد الإهانة الصاع صاعين. كان معنا طالب آسيوي دمث الخلق، طلق المحيا، قمة في الذوق والأدب، لكنه لفرط أدبه وحسن خلقه، كان يُعَامَل معاملة العبيد على أيدي أفراد الفصيل. ولما لم يكن لي سابق خبرة بالمدارس البريطانية الداخلية، ولم أعهد مثل هذا النظام من قبل، لذا فاتني أن ذلك السلوك يُعَد أمراً مألوفاً بين قدامى الطلبة ومستجدّيهم. ولكنني أيقنت أنه إذا لم يكن المرء ذئباً فستأكله الذئاب.

عندما التحقت بالدفعة ٤٢ في أكاديمية ساندهيرست كنت غِراً ساذجاً. فإذا

طلب أحد مني ستة بنسات، مثلاً، ليجري مكالمة هاتفية، أعطيه ما يطلب بلا أدنى تردد. وكنت أرفض رفضاً قاطعاً أن يعيدها إليَّ. ولكن ما أسرع ما لاحظت أن باقي الطلاب حسبوني صيداً سهلاً، وكانوا يسخرون مني ويتندَّرون بتصرفاتي، فغيّرت أسلوبي تماماً. كنت أقدح ذهني لأتذكر أولئك الذين يدينون لي بالبنسات وأدور عليهم واحداً بعد الآخر قائلاً: «هيا، أريد نقودي الآن وفوراً». ولم تلبث أن تغيرت معاملة الجميع لي.

ولعل من الإنصاف أن أعترف هنا بأنني عندما التحقت بساندهيرست كان وزني زائداً ولياقتي البدنية ضعيفة وكنت مدللاً بعض الشيء. ولَمّا كنت أميراً شاباً في المملكة، فلم أكن مضطراً إلى خدمة نفسي. صحيح أن مربيتي بشرى كانت تقسو عليّ أحياناً، إلاّ أنني لم أتعود تنظيف دورات المياه، ولم أتعود أن أُنادى بأقذع ألفاظ السباب، مثل: «أيها التافه، الكسول، اللعين، الفاسد». كان الرقيب أول راي Ray يخاطب سريتنا مزمجراً: «أنا أناديك قائلاً: يا سيدي، وأنت تناديني بقولك: يا سيدي، والفرق الوحيد هو أنك تعني ما تقول، بينما لا أعني أنا شيئاً مما أقول».

ويُروى أن الملك حسيناً، عاهل الأردن، كان يَلقى المعاملة نفسها عندما التحق بأكاديمية ساندهيرست، قبل أن ألتحق بها بعشرين سنة. كان رقيب أول السرية يصرخ في وجهه أثناء التفتيش: «أيُّ ملك كسول أنت اليوم يا سيدي!». وقد علمت أن كلمة «كسول» تستخدم في تدريبات الجيش البريطاني لوصف كل نشاط لا يستنفد الطاقة القصوى للعضلات والأعصاب للمتدرب. كان إخوتي وأبناء عمومتي يدرسون في جامعات مختلفة، يهنأون برغد العيش وكل صنوف المتعة، بينما كنت أنا في ساندهيرست أعالج قدميَّ المتقرحتين، وأزحف على ركبتيَّ، مستخدماً فرشة تلميع الأحذية لمسح البلاط! فهل أخطأت الاختيار؟

ابتُليت، بعد وقت قصير في ساندهيرست، برقيب من الطلاب القدامى اسمه بارني رولف سميث Barney Rolfe Smith، وكان عضواً في ما يسمى «حكومة الطلاب Cadets Government». ومن الواضح أن مظهري لم يَرُقْ له. أمرني سميث، يوماً، أن أحضر إليه في اليوم التالي في السادسة صباحاً لإجراء اختبار اللياقة البدنية. كنت أعرف أن الاختبار هو «اختراق ضاحية»، وأنني سأفشل فيه لا محالة. لم تكن بنْيَتي تساعدني على الركض السريع وكنت أشعر بآلام مبرحة جرّاء الجراحة التي أجريت لي. كنت أتخيل أن الفشل سيؤدي حتماً إلى

فصلي من ساندهيرست، وبالتالي إلى أن يطردني أبي من الأسرة، لا سيما أن صدى كلمات الوعيد التي وجّهها إليّ كان لا يزال يتردد في سمعي. أو هكذا كنت أتخيل.

في تلك الليلة، وبينما كنت جالساً مع صديقي الشيخ خليفة، أخذت أقدح زناد فكري لأصل إلى حل. لا بد أن أفعل شيئاً لأنقذ الموقف. كان كابوساً ثقيلاً يجثم على صدري. ودونما تردد وجدتني أخلع حذائي وجوربي، وأتناول شفرة حلاقة وأدقها دقاً في إبهام قدمي مستخدماً كعب حذائي. سال دمي بغزارة مغطياً كل قدمي. فاستشاط الشيخ خليفة غضباً وصاح بي: «ماذا دهاك! أَجُنِنْتَ؟». كان وجهه شاحباً من هول الصدمة. لم أعتنِ بالجرح وتعمدت أن أهمله. وفي صباح اليوم التالي توجهت أحجل على قدم واحدة، إلى المستشفى. كان إصبع قدمي متورماً ولا يزال أثر الدماء عليه. قلت لهم: «كنت أسير حافي القدمين فحدث ما حدث». ومن المضحك أنهم تركوا الإصبع المصاب ووضعوا الضماد على الإصبع الذي يليه! وإن كنت قد نجوت من الاختبار ذلك اليوم، فلا شك أن سميث كان واثقاً أنني جرحت نفسي عمداً، ولكن أنّى له إثبات ذلك. قلت له: «من ذا الذي يقوم بعمل أحمق كهذا؟». على كلٍ، لقد نجحت في مراوغة النظام الصارم في الأكاديمية.

تعلمت، خلال الفصل الأول في ساندهيرست، فن النجاة خصوصاً في المواقف التي لا مفر فيها من الفشل. تعلمت أن أكون واسع الحيلة، أتميّز غيظاً وأغلي كمداً وتُجرح كبريائي ولا أكاد أبين. تعلمت كيف أبتسم في الضراء وفي مواجهة المحن. وكان ذلك كله درساً لا يُقدر بثمن في مواقف كثيرة عرضت لي في حياتي.

أحتفظ في بيتي في الرياض بصورتين التقطتا في مكان واحد في برشلونة (حيث ذهبت إلى هناك في مناسبتين مختلفتين مرافقاً لإحدى أخواتي التي كانت تعالَج على يد طبيب عيون مشهور هناك). التُقِطت الصورة الأولى قبل وقت قصير من ذهابي إلى ساندهيرست، وأظهر فيها شاباً ممتلئ الجسم غضاً يافعاً مرحاً خالياً من الهموم يتطلع باسترخاء إلى تناول كوب ثانٍ من الآيس كريم. أما الصورة الثانية، فالتقطت لي بعد ذلك بستة أشهر، ويظهر فيها فرق واضح. أقف ممشوقاً بعدما اختفت كل معالم السمنة، تعلو وجهي ابتسامة واثقة، بيد أنني أُحَدِّقُ إلى الأفق البعيد، كأنني أتوقع ظهور خطر ما.

جاء أخي فهد ليزورني عند نهاية الفصل الأول من دراستي في ساندهيرست. انطلقت أمشي في خطوة عسكرية منتظمة نحو البوابة الرئيسية لأجده في انتظاري هناك. وعندما وقع بصرُه عليَّ ورآني نحيفاً هزيلاً، اغرورقت عيناه بالدموع. خُيّل إليه أنني مريض. وما أن صعدت إلى سيارته حتى بادرني بصوت متهدج: «هيا بنا نتناول وجبة دسمة».

تحسنت الأحوال بشكل كبير في ساندهيرست بعد انتهاء فترة التدريب الأساسي. بدأوا يعاملون الطلاب كبشر، بعد أن كانوا يعاملونهم كحيوانات. أخذنا ننعم في الفصول التالية بالراحة والمدنية، فقد اشتملت على الدراسة الأكاديمية لفن الحرب، والإستراتيجية، والتاريخ العسكري، والشؤون الدولية. أصبح يُنظر إلينا كأننا طلاب جامعة، وأخذنا نسترد ثقتنا بأنفسنا. فعقب انتهاء المحاضرات اليومية وساعتين من الرياضة الإجبارية، كان في وسع الطالب أن يخرج في ملابس مدنية أنيقة مرتدياً قبعة ساندهيرست. كان هدفنا من الخروج دائماً هو شراء شرائح السمك والبطاطا (البطاطس) أو الدجاج والبطاطا من قرية كامبرلي Camberley. أما إذا توافرت للطالب الرغبة والوقت والمال، فلا بأس من أن تجرَّه قدماه إلى لندن لقضاء عطلة نهاية الأسبوع.

اقتنيت سيارة شيڤروليه كورڤيت Chevrolet Corvette حمراء اللون واستفدت منها في كل ما صُنعت لأجله. كنت أسابق بها الريح في طريقي إلى لندن، حيث أجلس أحياناً في ردهة فندق رويال جاردن Royal Garden وكان وقتها لا يزال حديثاً، فأترك انطباعاً لدى أبناء عمومتي وأصدقائي بأن لديّ المال الكثير، وأنني معتاد على ارتياد ذلك المكان المرموق. كنت لا أزال صغير السن، إلاّ أنني كنت اهتم بالجوانب المظهرية. أما الواقع، فكان غير ذلك. كنت أحياناً لا أجد مكاناً يؤويني إلاّ سيارتي، فعندما أشعر بالتعب أقودها إلى مكان هادئ وأستسلم للنوم. وأحياناً أخرى أرتاد الفنادق الصغيرة، خلف متحف «مدام توسو Tussaud» حيث في إمكانك، في تلك الأيام، أن تستأجر سريراً بجنيه إسترليني واحد في غرفة ليس فيها، بداهة، حمام خاص. وذات صباح، وأنا أندفع خارجاً من أحد تلك الأماكن، فوجئت بسيارتي وقد تلطخت عمداً بالأصباغ، فأعدت طلاءها باللون الأبيض. كانت تلك فترة الستينات التي عُرِفَت بأنها «فترة الزهور والحب والشَّعْر الطويل ونبذ الحرب». كان ذلك الاتجاه هو السائد في المجتمع الإنجليزي في ذاك الوقت، وتبين لي، من أصدقائي الإنجليز، أنني لم أكن مسايراً للأوضاع القائمة في المجتمع، كطالب قصير الشعر في أكاديمية عسكرية.

وعودة إلى الأكاديمية، حيث كانت اللغة الإنجليزية لا تزال تمثل مشكلة لي. كنت أتحدثها بطلاقة، لكنني أجد صعوبة في فهْم المحاضرات. كان علينا أن ندرس المعارك الحربية التي خاضها الجيش البريطاني، كموقعة ووترلو Waterloo وموقعة سوم Somme. لم تكن تلك الأحداث التاريخية تمثل صعوبة للطالب البريطاني، أما بالنسبة إليّ، فكان الأمر مختلفاً. كانت أحداثاً غريبة عليَّ، أحداثاً تتعلق بتاريخ بلد آخر غير بلدي.

لاحظ قائد سريتي الرائد كارني D.B. Carnie (وله موقف نبيل معي لن أنساه) أنني كنت متخلفاً عن الركب، على الرغم من المحاولات المستميتة التي بذلتها. كانت الظروف كلها تعمل لغير مصلحتي. كانت تنقصني اللياقة البدنية وأعاني مشكلة صحية (الناسور) أجد حرجاً في البوح بها خشية الفصل من الأكاديمية. لم يكن تعليمي السابق يؤهلني لتحمل قسوة التدريب في ساندهيرست، والبيئة التي انتقلت إليها غريبة عني وبردها قارس، وفوق هذا كله كنت ضعيفاً في اللغة الإنجليزية. بيد أن هاجس الطرد من ساندهيرست جعلني أتشبث بالبقاء والنجاح. كانت كلمات أبي لا يزال صداها يتردد في أذني. ترك هذا الإصرار انطباعاً مؤثراً لدى الرائد كارني الذي هبّ إلى نجدتي.

تولى الرائد كارني، بعد التفاهم مع الملحق العسكري في لندن، ترتيب التحاقي ببرنامج مكثف في اللغة الإنجليزية، مدته ستة أسابيع في مدينة إيستبورن Eastbourne على الساحل الجنوبي لإنجلترا. وقد آتى هذا البرنامج ثماره، إذ أصبحت بعده، قادراً على متابعة المحاضرات وأحرزت تقدماً ملحوظاً، بيد أنني لم أحقق تفوقاً أكاديمياً. كان الرائد كارني مولعاً بالسباحة وكرة الماء، ومن فرط حرصي على أن أترك انطباعاً جيداً لديه وأحصل على تقرير طيب منه، بدأت أمارس هاتين اللعبتين. وبعد مضي أكثر من عشر سنوات، وكنت أدرس في كلية القيادة والأركان في فورت ليڤنوورث Fort Leavenworth في مدينة كانساس Kansas، زارني الرائد كارني وكان يشغل منصب الملحق العسكري البريطاني لدى الولايات المتحدة. ضحكنا ملء أشداقنا ونحن نستعيد تلك الذكريات.

لعل أهم نقاط القوة في أكاديمية ساندهيرست أنها تُعامل طلابها على قدم المساواة، سواء أكانوا بريطانيين أم أجانب، ملوكاً أم من عامة الناس، من أبناء كبار الضباط أم من أبناء الطبقة العاملة. كانوا يعامَلون جميعهم على أساس من العدل ودون محاباة. كل يعرف حدوده. يتعلمون الالتزام بقواعد سلوكية محددة

لا يمكن التهاون في شأنها، إذ هي أكثر أهمية من الفرد نفسه. وتتلخص تلك القواعد في شعار الأكاديمية: «اجتهد لتقود». ويُفترض أن يكون خريج ساندهيرست شاباً تشرّب المبادئ العسكرية الرفيعة كالشجاعة والانضباط وضبط النفس والاستقامة ـ وهي مبدأ يحظى بكل اهتمام ـ إضافة إلى القدرة على التفكير والتصرف السليم في المواقف الحرجة. ففي ذلك المبنى الأنيق بمناظره الخلابة ومروجه الخضراء، لم نكن لننسى أبداً أننا لم نأتِ إلاّ لنتعلم كيف نقود الرجال في أرض المعركة، وكيف نقتل الأعداء، ولكن طبقاً لمواثيق الحرب وفي حدود ضوابطها.

لم نكن لنتعلم ذلك كله دفعة واحدة، فلم يكن من السهل كبح جماح الحيوية والمرح اللذين جُبِل الشباب عليهما. وفي إحدى المناسبات وفي محاولة لإثبات سعة الحيلة، تطوعت مع ثلاثة طلاب بالسفر إلى المغرب عن طريق الركوب المجاني (أوتوستوب). كان ذلك في ربيع عام ١٩٦٧. وكان معنا من المال ما يكفي لشراء الجمال التي كنّا نخطط لاستخدامها في السفر عبر الصحراء الجزائرية. ووصلنا إلى مدينة الرباط، ثم اشترينا أربعة جمال من أحد الأسواق في أطراف المدينة وبدأنا الرحلة. ولكن، تجري الرياح بما لا تشتهي السفن (بما في ذلك سفن الصحراء). نفق أحد الجمال، ونفدت نقودنا. ولم يكن أمامنا إلاّ أن نعود أدراجنا. وحطت رحالنا في حديقة لا تبعد كثيراً عن هيلتون الرباط. انصرف رفاقي عائدين إلى بلادهم، وترددت في اللحاق بهم. وآثرت الاتصال بالسفير السعودي الذي أبلغ الأمير عبدالله، شقيق الملك الحسن، بوجودي. دعاني الأمير لأحل ضيفاً عليه. ومكثت عشرة أيام، أنساني كرم ضيافته كلَّ ما لقيته من صعاب في ساندهيرست. وأذكر أنني تشرفت بالسلام على العاهل المغربي بينما كان يلعب الجولف. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أقابل فيها الملك الحسن، الذي أعدُّه واحداً من أذكى حكام العالم العربي وأغزرهم علماً.

لم أكد أعود إلى بريطانيا حتى اندلعت حرب يونيه عام ١٩٦٧. كان أمراً ثقيلاً على نفس كل عربي، لا سيما في ساندهيرست. بلغت إسرائيل قمة الصلف بعد نشوة انتصارها على العرب، إثر ضربة جوية مبكرة دمرت القوة الجوية المصرية وهي رابضة على الأرض، وهوت بالعرب إلى أدنى درجات الإحباط واليأس. كما أظهرت خواء صيحات الكفاح من أجل الاستقلال التي كان يطلقها العرب منذ الحرب العالمية الثانية. فبعد أن تحققت لإسرائيل السيطرة الجوية

الكاملة اجتاحت مساحات شاسعة من الأراضي العربية، شملت شبه جزيرة سيناء المصرية، ومرتفعات الجولان السورية، والأراضي الفلسطينية في غزة والضفة الغربية والقدس الشرقية. ومن دواعي سروري، وبعد ربع قرن من الزمان، أن أرى جهود السلام تحرز تقدماً كان لحرب الخليج فيه دور لا يخفى على أحد.

وفي أكاديمية عسكرية مثل ساندهيرست، لم يكن هناك إلاّ الإعجاب، كل الإعجاب، بقدرة إسرائيل على هزيمة جيرانها العرب خلال أسبوع. لم يكن الطلاب ولا المعلمون مُلمّين بالظروف السياسية للمنطقة، وانصب تقييمهم للموقف على الوجهة العسكرية. وربما لم يَدُر بخلد أيّ منهم أن ما حدث لم يكن سوى جولة واحدة في صراع طويل. وعلى الرغم من أن الصراع في ڤيتنام كان لا يزال قائماً على أشدّه، إلاّ أن حرب الشرق الأوسط استحوذت على الاهتمام، وكانت موضوعاً لكل حديث في ساندهيرست. كان البريطانيون يُحَقِّرون من شأن العرب، ربما لأن فكرة الإمبراطورية كانت لا تزال حية في أذهانهم. وبما أني عربيّ في ساندهيرست، فلم أسْلم من الأذى، وكنت موضع السخرية والمهانة، وتدور حولي معظم النكات السخيفة. أين المفر؟ هناك قواعد سلوكية يعرفها جميع الضباط تُطبّق في السلم والحرب، في النصر والهزيمة، لكن الطلاب لا شأن لهم بتلك القواعد. جعلني ذلك الموقف أشعر بألم ومهانة لم أعهدهما في حياتي. ومما زاد الأمر سوءاً أنني والشيخ خليفة، الذي كان يشاركني في تلك الآلام، صدَّقْنا في بادئ الأمر كل ما جاء في البيانات العسكرية المصرية، وفي تعليقات أحمد سعيد من إذاعة صوت العرب. فظننَّا أننا في طريقنا إلى نصر مؤزَّر. كنّا نستمع لإذاعة «صوت العرب» من القاهرة، فيزداد يقيننا بأن الحرب تدور لمصلحتنا. ثم وقعت الطامة. وليتنا سمعنا تلك الأخبار السيئة في أول الأحداث، إذاً لكان الأمر أهون بكثير.

كان لتلك الهزيمة وقع ثقيل في نفوسنا. كانت صدمة قاسية مُرَّة أن نبدأ حياتنا العسكرية والجيوش العربية تلعق جروحها بعد هزيمة قاسية.

وفي سنة ١٩٦٧ والسنة التي تلتها، كانت قبرص مقر التدريب السنوي لأكاديمية ساندهيرست. ويشترك في التدريب عادة ما يقرب من نصف طلاب الأكاديمية، أيْ نحو ٦٠٠ طالب. وكان هناك اتفاق بين بريطانيا وقبرص تحتفظ بريطانيا بموجبه بسيادة على بعض القواعد هناك. وقُسِّمَ الطلاب إلى فريقين متضادين، وزُوِّدُوا بالذخيرة الخُلَّبِيَّة، وأمضينا ساعات طويلة ومضنية نمارس

التكتيكات العسكرية، يحارب بعضنا بعضاً بين صخور جزيرة قبرص وغاباتها.

كانت مفاجأة لنا عندما هددت تركيا بغزو الجزيرة بدعوى حماية الأقلية التركية المقيمة في جزئها الشمالي من اعتداء الغالبية اليونانية. إذ احتشدت السفن الحربية التركية قرب شواطئ الجزيرة، بينما قصفت الطائرات الحربية الأهداف العسكرية للقبارصة اليونانيين. أصبحت تركيا واليونان على حافة الحرب. كانت نيقوسيا، عاصمة الجزيرة، مقسمة إلى قطاع تركي وآخر يوناني. وسادت حالة من الذعر في المعسكر البريطاني، فلم يكن أحد يدري إن كان الأتراك يخططون للهبوط على الجزيرة والتقدم نحو القاعدة التي لم يكن فيها سوى حامية صغيرة. ونظراً إلى عدم وجود قوات بريطانية نظامية، فقد دُفِعَ بطلاب ساندهيرست إلى الأتون، وسحبت الذخيرة الخلبية واستُبدِلت بها ذخيرة حية، وأصبح المعلمون ضباطاً يقودون قوات حقيقية. وبدا كأن التدريب سيتحول إلى مواجهة حقيقية بين بريطانيا وتركيا.

أخذ اللاجئون يتدفقون من مناطق الخطر بحثاً عن ملاذٍ آمن، وأُوكِلَتْ إلينا مهمة العناية بهم، فأنشأنا معسكراً للأُسَر النازحة، حيث قمنا بأعمال الطبخ وتقديم الطعام، بل الخدمة أيضاً. وما زلت أذكر كم كنت أقشر أكواماً كبيرة من البصل والبطاطا!

وعندما بدأت الاشتباكات الفعلية نمى إلى علمي أن اللواء علي حسن الشاعر، الملحق العسكري السعودي لدى بيروت، كان يريد إرسال طائرة لإخلائي، لكنني رفضت. لم يكن من تقاليد ساندهيرست، ولا التقاليد العربية أو التعاليم الإسلامية، أن يُوَلّي المرءُ دبره. وكان من شأن هذا الفرار، أن يدمغ جبيني بالعار.

لم يمضِ وقت طويل حتى عدنا إلى بريطانيا، واستغرقنا في الدراسة مرة أخرى. يرتكز أسلوب التعليم في ساندهيرست إلى تحويل كل نشاط عسكري إلى مجموعة من الإجراءات تسمى «إجراءات العمل المستديمة». فسواء أكان الأمر متعلقاً بالمشي، أم بإطلاق النار، أم بتفكيك أجزاء السلاح، أم بإصدار الأوامر، أم باستخدام اللاسلكي، أم بقراءة الخرائط، أم بكتابة تقديرات عسكرية، أم بالقتال، أم بأخذ الأسرى، فثمة أسلوب صحيح متفق عليه للتعامل مع كل أمر من هذه الأمور. هناك قواعد دقيقة تحكم كل حركة وسكنة وكل شاردة وواردة. فكل شيء يتم تعليمه بالأسلوب نفسه وإن اختلف الموضوع. تُعطى في البداية

شرحاً نظرياً، يليه تطبيق عملي، ثم يُطلب منك أداء العمل، وأخيراً يخضع أداؤك للتقييم. وتتكرر هذه الخطوات إلى أن تتقن الأداء. وتُراقب مهارة الطالب في كل مرحلة لمعرفة مدى اقترابه من المستوى المطلوب. فإذا لم يحقق ذلك المستوى، فإنه يعيد فصلاً دراسياً أو فصلين أو يُفصَل آخر الأمر من الأكاديمية نهائياً.

الهدف النهائي من كل تلك القواعد مساعدة الضابط على السيطرة على نفسه وعلى رجاله في مواقف المعركة المشحونة بالإجهاد والذعر. ويوضح هذا الهدف جون كيجان John Keegan، وهو معلم سابق في ساندهيرست ومعلق عسكري، في كتابه القيّم «وجه المعركة»، الذي نُشِرَ في لندن عام ١٩٧٦ حين يقول: «إن الهدف، هو تحويل إدارة الحرب إلى مجموعة من القواعد ونظام من الإجراءات. وبذلك تتحول الأفعال الفوضوية الغريزية إلى أعمال مرتَّبة ومنطقية».

ولا شك أن التغلب على الخوف الغريزي من الموت والاحتفاظ برباطة الجأش تحت النيران مع القدرة على اتخاذ القرارات السريعة، كلها أعمال تتطلب قدراً هائلاً من القدرة الجسدية والعقلية. وهذه صفات لا يُفْطَرُ عليها معظم الناس، بل يقتضي الأمر اكتسابها وتنميتها. وعندما أنظر إلى ما تعلمته في ساندهيرست يظهر لي أن أهم درس استفدته كان حُسن التصرف ليس بصفتي ضابطاً فحسب، بل حُسن التصرف بوجه عام. تعلمت أن آخذ الأمور مأخذ الجد وأن أكون منضبطاً انضباطاً ذاتياً، عقلاً وجسداً ومشاعرَ، وهي أشدها صعوبة.

كان لدينا شيء من الفراغ يوم الأحد من كل أسبوع. ورغبة منّا في استغلال الوقت في ما يفيد، قررت والشيخ خليفة أن نتعلم الطيران. أمضينا أيام آحادٍ كثيرة في التدريب على قيادة طائرة من نوع شيروكي Cherokee في إحدى مدارس الطيران القريبة في مطار بلاكبوش Blackbush. أما عطلات نهاية الأسبوع الأخرى، فكان دَأْبنا أن نذهب إلى لندن في السيارة حيث نستمتع بالطعام الشهي ونلتقي أصدقاءنا ونعوِّض شيئاً مما فاتنا من النوم. فعلى الرغم من ضغوط العمل، كانت هناك أيام للمرح والمتعة. رغبت، ذات مرة، أن أحضر حفلة ساهرة تقام في شهر يونيه في ساندهيرست، وهو احتفال ممتع وبهيج، لكنني احتجت إلى «بدلة سهرة» لحضور الاحتفال، فاستعرتها من صديق مصري اسمه محمد عاصم، كان يعمل موظف استقبال في فندق رويال جاردن ويرتدي تلك البدلة خلال ساعات العمل.

وفي تلك الأيام، كانت أكاديمية ساندهيرست تتكوّن من ثلاث كليات: الكلية

القديمة والكلية الجديدة وكلية النصر. وتتألف كل كلية من أربع سرايا. بدأت دراستي في الكلية الجديدة في سرية يقودها الرائد كارني وتسمى باسم معركة سوم التي وقعت أثناء الحرب العالمية الأولى. وقبل نهاية آخر فصل دراسي لي في الأكاديمية، أُدْخِلَتْ بعض التعديلات، فتم تقليص عدد السرايا من أربع إلى ثلاث. وأُلْغِيتْ سرية سوم، وانتقلت إلى سرية غزة Gaza ، تحت قيادة الرائد هنري ترايجير Henry Trigear، وسميت هذه السرية باسم المعركة التي خاضها الإنجليز ضد الأتراك في الحرب العالمية الأولى. وقبل أن أغادر سرية سوم استدعاني الرائد كارني وقال لي: «أنت سيئ الحظ، فلو بقيت سرية سوم لأصبحت فيها وكيل ضابط. كان في نيتي أن أرقِّيك، فعلى الرغم من الظروف الصعبة التي واجهتك فإنك اجتهدت ونجحت». كنتُ فخوراً الفخر كله بكلمات الثناء تلك التي صدرت عن الرائد كارني. ففي كل سرية يُرقّى أربعة طلاب إلى رتبة وكيل ضابط، أما الترقية إلى وكيل أول فلا ينالها إلاّ طالب واحد فقط.

ولا أزال أحتفظ بخطاب أرسله الرائد كارني في شأني إلى سمو الأمير سلطان في ٣٠ يوليه عام ١٩٦٨. يقول:

> «لقد حاول جاهداً وأظهر اهتماماً شديداً ومقدرة في كل ما درسه. وشعرت بالأسف لأن سرية سوم سوف تُحَلّ، لأنني كنت أنوي ترقيته إلى وكيل ضابط في الفصل النهائي. وسيكون، على كل حال، برتبة عريف في سريته الجديدة. ولا يساورني شك في أنه سيؤدي عمله بمهارة وحماسة. وأعتقد جازماً أنه أحسنَ استغلال وقته أثناء وجوده في بريطانيا. وقد نمت شخصيته إلى حدٍّ بعيد، وسيكون ضابطاً متميزاً عندما يتخرج. وتُعَدّ القدرة على القيادة من أبرز سماته، فلديه كامل الثقة والدبلوماسية والذكاء. وسيكون، في المستقبل، ذُخراً عظيماً للمملكة العربية السعودية، عندما يزداد معرفةً ويكتسب خبرةً».

كان الفصل الأخير في أكاديمية ساندهيرست عسكرياً صرفاً وشاقاً إلى حدٍّ بعيد ولا يختلف كثيراً عن الفصل الأول. ولعل الفرق الوحيد بينهما أن الطالب أصبح الآن متقدماً بعد أن كان مستجداً. بمعنى أن المرء أصبح عضواً في «حكومة الطلاب» التي تتحكم في رقاب الدفعة الجديدة، وكنّا من قبل نلقى

المعاملة نفسها من الطلاب القدامى. لقد جاء دورنا لنعامل الطلاب الجدد معاملة الحشرات ونسومهم سوء العذاب.

كان الهدف النهائي من هذا الفصل، هو تهيئة الطلبة للمرحلة الأخيرة قبل تخرجهم والارتفاع بمستوى كفاءتهم وتطوير قدراتهم على التفكير تحت الضغوط المختلفة. ولتحقيق ذلك، ينفذ الطلاب تمرينات لا حصر لها في أجواء مماثلة للمعارك الحقيقية، فيُطلَب منهم وضع الخطط والتقديرات واتخاذ القرارات العسكرية في أضيق الأوقات.

وتنتهي السنتان الدراسيتان في أكاديمية ساندهيرست بطابور عرض مهيب. وفي أحد طوابير العرض التي شهدتها أيام دراستي، حضر اللورد مونتجمري Montgomery، بطل معركة العلمين، لاستعراض الطلاب. فعلى الرغم من تقاعده من الجيش قبل عشر سنوات كان لا يزال محتفظاً بمظهره العسكري الباهر وشخصيته القيادية. وتصادف أن وقف أمامي ونَوّه بي في كلمة ثناء. وبعد انتهاء العرض حصلتُ على إجازة لمدة ٢٤ ساعة، هي المكافأة المعتادة التي يحصل عليها الطالب إذا أثنى عليه الضابط الذي يستعرض الصفوف.

وفي طوابير العرض، يقوم طلاب الأكاديمية، وهم في أحسن مظهر وفي نسق استعراضي منتظم، بإبراز مهاراتهم التي تدربوا عليها بقيادة أركان حرب الكلية. فتمر الصفوف بالخطوة البطيئة في دورة كاملة على إيقاعات الموسيقى العسكرية، ويلي ذلك دورة أخرى بالخطوة المعتادة. ويتقدم الطلاب المتخرجون، بعد ذلك، في صفوف متوالية متجهين نحو المبنى الرئيسي ومن خلفهم أركان حرب الكلية ممتطياً صهوة جواده الأشهب الشهير. ويصعد هذا الموكب المهيب الدرجات العريضة للمدخل الرئيسي، فيلج الجميع، وما أن يكتمل ولوجهم المبنى حتى تُغلق البوابة الرئيسية. فيصبح هؤلاء الطلاب بذلك ضباطاً.

تلك هي اللحظة التي طالما حَلمت بها ولم آلُ جهداً في سبيل الوصول إليها. كنت أتيه فخراً بالنجمة التي وُضِعَتْ على كتفي. فأقمتُ، احتفاءً بالتخرجُ، حفلة لثلاثين من زملائي الضباط في فندق رويال جاردن.

في تقرير إتمام الدراسة، كتب عني العقيد ماثيو A.W. Mathew، قائد الكلية الجديدة، الآتي:

«هو رجل معتز بذاته فخور بتراثه. قائد لديه القدرة على أن يُمسك بزمام الأمور، ويتخذ القرار الحاسم متى دعت الحاجة. لا يبتئس، بل يبقى رابط الجأش، منفرج الأسارير، مثالاً يُحتذى حتى في أحلك الظروف. استمتع بدراسته في ساندهيرست ولا شك أنه سيكون ضابطاً مميزاً».

تغيرت أكاديمية ساندهيرست كثيراً على حدّ علمي. قُلّص برنامج السنتين إلى حدٍّ كبير، لم يعد الطلاب الجدد يتعرضون للمهانة. لم يعد هناك وجود لحكومة الطلاب المرعبة. أصبح التدريب والتأديب في يد ضباط الحرس وضباط الصف. بيد أنه، وكما ظهر لي من الضباط البريطانيين الذين شاهدتهم في حرب الخليج، لا تزال مناقب ساندهيرست ملء السمع والبصر.

الفصل السّادس

تحليق الصّقور

لم يمضِ وقت طويل على التحاقي بأكاديمية ساندهيرست، ولَمّا أتجاوز السابعة عشرة، حتى علمت أن صواريخ هوك Hawk وصلت إلى المملكة في غيابي. كان سلاحاً جديداً تماماً، ولم أكن قد سمعت من قبل بالدفاع الجوي، لكنني لا أزال أذكر الضجة التي أحدثها ذلك السلاح. إنه سلاح سيحمي سماء المملكة، سيشدُّ من عَضُدنا وينقلنا إلى عالم التقنية الحديثة. كانت صواريخ هوك موضوعاً لحديث جميع مَنسوبي القوات المسلَّحة. لقد دخلت المملكة عصر الصواريخ. ولم أكن حينذاك أدري أن عناية الله تسطّر لي مستقبلاً في ذلك المجال.

سبق وذكرت أن وصول القوات المصرية إلى مشارف حدودنا مع اليمن، في أواخر عام ١٩٦٢، أحدث لنا صدمة عنيفة. أُجبِرنا، ربما للمرة الأولى، على أن نفكر جدياً في سبل الدفاع عن بلادنا المترامية الأطراف ضد أيّ عدوان خارجي. فحتى ذلك الحين، كانت الاهتمامات الأمنية مقتصرة على الأمور الداخلية كاحتواء الصراعات بين القبائل قبل أن تستفحل ويصعب التغلب عليها، إلى جانب تحقيق التوازن بين مصالح المناطق المختلفة واحتياجاتها. وباستثناء اليمن، التي لم تغب عن بالنا لوجود صراع حدودي بيننا وبينها، لم نحسب حساباً لعدوان خارجي. ومردّ ذلك أننا كنّا نخال أن المساحة الشاسعة لبلادنا، بصحاريها القاحلة والبحار التي تحدها من الشرق والغرب، حصونٌ طبيعية منيعة ضد كل عدو محتمل. وكنّا نمارس دورنا السياسي بحرص وحذر، في ما يتعلق بالسياسة العربية، معتمدين على نظرية توازن القوى في المنطقة، وهي نظرية لن تسمح لأية دولة عربية أن يجمح بها طموح إلى السيطرة. كانت شبه الجزيرة العربية، وليس

العالم الخارجي، مَحطَّ اهتمامنا. وقبل الطفرة الهائلة في أسعار النفط في السبعينات، كانت مواردنا المالية محدودة وطاقتنا البشرية غير مُدَرَّبة ومجتمعنا لا يزال تقليدياً. وقد بدأنا للتو عملية التحديث التي وضعتنا، بعد عقدين فقط، في الصدارة بين معظم جيراننا.

لم تتجاوز قوتنا العسكرية، في أوائل الستينات، بضع دبابات متهالكة والعدد نفسه تقريباً من الطائرات وبضعة آلاف من الجنود. كان لدينا عدد من المدافع المضادة للطائرات، من عيار ٢٠ مم و٤٠ مم و٩٠ مم و١٢٠ مم، ضمن سلاح المدفعية وهي اليوم معروضة في المتاحف. ولم يكن حالها، آنذاك، أفضل من حالها اليوم. لم يكن هناك دفاع جوي بالمعنى الحديث. فعندما قصفت القوات الجوية المصرية مدننا الحدودية، نجران وجيزان، إضافة إلى مطار خميس مشيط ومستشفى أبها، وقفنا مكتوفي الأيدي. لم نكن في وضع عسكري يسمح بخوض معركة، حتى لو كانت تلك المعركة ضد قوة صغيرة أو متوسطة كالقوة المصرية في اليمن.

في ظل ذلك الوضع الذي لا يبعث على الاطمئنان، عَيّن الأمير فيصل، ولي العهد، والدي الأمير سلطان وزيراً للدفاع في نوفمبر عام ١٩٦٢. وكانت مهمته الأولى هي مواجهة تهديدات عبدالناصر في اليمن.

أكد الأمير سلطان لولي العهد، طبقاً لقصة تتداولها العائلة في هذا الخصوص، أنه سيتوجّه من فوره إلى غرفة العمليات في الوزارة ويستدعي ضباط الأركان العامة ليراجع معهم الخطط الدفاعية عن المملكة. ابتسم الأمير فيصل ولم يعلق. انطلق الأمير سلطان إلى مكتبه في وزارة الدفاع وطلب التوجه إلى غرفة العمليات. وجاء الرد من أركانه وقد غلبتهم الدهشة: «أية غرفة عمليات؟!». فأمر باستدعاء ضباط الأركان العامة، وجاء الرد أيضاً: «أية أركان عامة؟!». فأمر أن تُعرض عليه الخطط، وجاء الرد: «أية خطط؟!». أمر بأن تشتبك القوات الجوية مع القوات المصرية المهاجمة، لكن لم تكن هناك طائرة واحدة تصلح للإقلاع. عاد إلى الأمير فيصل وقال له: «لا شيء هناك، لا شيء على الإطلاق: لا خرائط ولا خطط ولا دبابات ولا ضباط». فرد عليه الأمير فيصل: «هذا هو السبب في أنني أوكلت إليك هذه المهمة. ولتبدأ العمل من الآن».

لم يكن البريطانيون أقل تبرماً منّا إزاء تدخل عبدالناصر في السياسة العربية.

وكانت لا تزال لديهم مستعمرة في عدن والمناطق القبلية التي تقع خلفها. وعلى هذا الأساس، وافقت بريطانيا على تزويدنا باثنتي عشرة طائرة مقاتلة من نوع هنتر Hunter و لايتننج Lightning إضافة إلى سرية صواريخ أرض - جو من نوع ثندربيرد Thunderbird. نصبنا السرية في خميس مشيط التي كانت تضم قاعدة جوية صغيرة في منطقة عسير، الواقعة في الجنوب الغربي من المملكة، شمال اليمن مباشرة. كانت صواريخ ثندربيرد من نوع قديم يعود إلى الحرب العالمية الثانية. وكان على الطاقم أن يسحب الصواريخ بالحبال لتركيبها في مواقع الإطلاق. ولم تكن تلك الصواريخ في كل حال لتردع المصريين، بيد أن شراءها كان بمثابة نواة للدفاع الجوي السعودي.

لا ريب أن السيادة الجوية الكاملة التي كان يتمتع بها المصريون، تركت أثراً عميقاً في تفكير الأمير سلطان. فمنذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا، يأتي تحديث القوات الجوية وقوات الدفاع الجوي في مقدمة اهتمامات سموه. بات واضحاً أن في وسع أيّ طامع بالمملكة أن يجتاز عن طريق الجو الموانع الطبيعية، المتمثلة في الخليج العربي أو البحر الأحمر أو الصحارى الشاسعة. وهكذا فإن التهديد الأساسي الذي يواجه المملكة كان تهديداً جوياً، وليس برياً مثل الذي وقع إثر غزو العراق الكويت بعد ذلك بأكثر من ربع قرن. وأصبح مبدأ الحماية الجوية للمملكة منذ ذلك التاريخ هو الفرضية الأساسية في سياستنا الدفاعية.

تحول ذلك المبدأ إلى واقع ملموس عام ١٩٦٦، عندما تعاقد الأمير سلطان على شراء صفقة كبيرة من أسلحة الدفاع الجوي، وكان المصريون وقتئذٍ لا يزالون في اليمن. شملت الصفقة أكثر من ٥٠ طائرة مقاتلة بريطانية الصنع، و١٢ سرية صواريخ أرض ـ جو أمريكية الصنع من نوع هوك، فضلاً عن شبكات الاتصالات والرادار المرتبطة بها. وكما سبق أن ذكرت، أحدث وصول أول دفعة من سرايا صواريخ هوك عام ١٩٦٦ ونصبها في منطقة جيزان، ضجة عارمة تَردد صداها حتى بلغني في ساندهيرست.

في بداية الأمر، قال الأمريكيون إن السلاح الجديد، ويشمل نظام صواريخ موجهة أرض ـ جو لتوفير الحماية الجوية ضد الهجمات على ارتفاعات، من منخفضة إلى متوسطة، نظام جدّ معقد بالنسبة إلى السعوديين، وأنه ليس لديهم من يستطيع استيعابه. واستلزم الأمر إرسال المتدربين الشبان إلى جدّة لتعلم اللغة الإنجليزية لمدة تسعة أشهر، وتبع ذلك دورة تشغيل معدات هوك لأفراد التشغيل،

وبرنامج تدريب في مجال الإلكترونيات لأفراد الصيانة قبل أن يكلَّفوا بالعمل في مواقع الدفاع الجوي. وكانت المواقع خلال تلك الفترة تُدار من جانب مهندسين أمريكيين. وإزاء هذا الموقف الذي وضع المملكة في موقف لا تحسد عليه، أصدر الأمير سلطان أوامره إلى رئيس الأركان بأن يُختار أكفأ الضباط لتدريبهم على ذلك السلاح الجديد. فانخرط صفوة الضباط في برنامج التدريب على استخدام صواريخ هوك.

كان من تقاليد الجيش أن يُسمح للضابط الخريج بتحديد ثلاثة خيارات للالتحاق بها مرتَّبة حسب رغبته. لذا، تلقيت من الملحق العسكري السعودي في لندن قبل تخرجي بثلاثة أشهر أنموذجاً لأحدد فيه اختياراتي الثلاثة. فكتبت القوات الخاصة أولاً (ولا يزال ينتابني بعض الأسف لأني لم أسلك ذلك الاتجاه)، ثم المدرعات، فالمدفعية. بيد أنه بعد تخرجي من ساندهيرست عام ١٩٦٨ وعودتي إلى المملكة لم يتحقق واحدٌ من اختياراتي، بل وجدت نفسي مُكلَّفاً بقيادة فصيل في الدفاع الجوي. كانت القوات المسلحة في حاجة إلى ضباط يجيدون الإنجليزية لإلحاقهم ببرنامج صواريخ هوك. ووقع الاختيار عليَّ بحكم تخرجي في أكاديمية ساندهيرست.

التحقت على الفور ببرنامج دراسة الإلكترونيات في مدرسة الدفاع الجوي في جدّة. وحزَّ في نفسي كثيراً أن قائد المدرسة لم يكن سعيداً لوجودي هناك. لم يُحدد لي مساقاً للدراسة، ولم يوكل إليّ أية واجبات! وكلما ذهبت إليه لتلقي التعليمات والأوامر، يقول لي: «لا تهتم، اذهب واسترح». كان يرى أن ذلك هو العمل الملائم لأمير مثلي. كان تغيير نمط الحياة من برنامج عمل شاقٍ في ساندهيرست إلى جو من الراحة في جدّة، سبباً في إحباط معنوي كامل. فأخذت أبحث عن شيء أشغل به وقتي، فاتجهت إلى مدرسة اللغات وعملت مساعداً لمديرها. ولكن هذا العمل لم يُرْضِ تطلعاتي، فتقدمت إلى امتحان للدراسة في الولايات المتحدة واجتزته. ولم يمضِ وقت طويل حتى التحقت بمدرسة الدفاع الجوي الأمريكية في فورت بلس Fort Bliss في ولاية تكساس Texas، التي تقع قرب الحدود المكسيكية في مدينة إلپاسو El Paso الصغيرة. وعلى مقربة من المدرسة، يقع ميدان الرماية وايت ساندز White Sands لاختبار الصواريخ وكذلك ميدان الرماية ماك جريجور McGregor.

تلك كانت زيارتي الأولى للولايات المتحدة، وكان ذلك في مطلع عام

١٩٦٩. كنت في العشرين من عمري شاباً في مقتبل العمر تلقى تعليمه في إنجلترا وتخرج للتو برتبة ملازم. شابٌ حريصٌ على أن يتعلم أسلوب العمل الأمريكي، وحريصٌ في الوقت نفسه على الاستمتاع بوقته هناك. كنت أدرس وأعمل في غاية الجد، وألهو وألعب في غاية المرح. وفي إلپاسو كان لقائي الأول مع ضابط سعودي شاب هو صالح المُحيا، وهو قائد القوات البرية حالياً. وفي غضون ١٨ شهراً، أكملت ثلاث دورات تتعلق بالصواريخ والدفاع الجوي: دورة في الحرب الإلكترونية ودورة صواريخ هوك للضباط ودورة صيانة صواريخ هوك. كما تلقيت تدريباً وظيفياً عملياً في ميدان ماك جريجور لرماية الصواريخ ضمن فريق تفتيش أمريكي.

كان لهذا التدريب العملي فائدة عظمى، إذ عُيِّنت مفتشاً للدفاع الجوي بعد عودتي إلى المملكة عام ١٩٧٠. وكنت عضواً في فريق مهمته زيارة مواقع سرايا هوك، وتقييم استعدادها العملياتي. كانت تلك السرايا قد نُشرت في مواقع عدة داخل المملكة، منها الرياض والظهران وجدّة والطائف وخميس مشيط وتبوك. وكان هذا الفريق من قبل يتكون من ثلاثة خبراء أمريكيين وثلاثة رقباء سعوديين، فحللت محل واحد من الخبراء الأمريكيين، وأصبحت أول سعودي يشغل ذلك الموقع. وكان هذا العمل يتطلب التحرك الدائم من موقع إلى موقع، فأتاح لي فرصة معرفة أجزاء كثيرة من بلادي.

وبعد بضعة أشهر، في أواخر عام ١٩٧٠، قام الفريق بزيارة تفتيشية لسرية صواريخ هوك في مدينة تبوك. كانت لا تزال مدينة صغيرة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية. وهي لا تبعد كثيراً عن ميناء العقبة الأردني وميناء إيلات الإسرائيلي المجاور له. لم تكن تبوك، في ذلك الوقت، إلاّ نقطة على الخريطة ومحطة صحراوية للحجاج القادمين براً من سوريا والأردن في طريقهم إلى مكّة المكرمة، لكنها من الناحية الإستراتيجية كانت موقعاً مهماً لقربها من إسرائيل.

تبين لنا خلال التفتيش أن السرية والعاملين عليها ووحدات المساندة الخاصة بها في حالة مزرية يرثى لها. فأعلنتُ بعد تقييم شامل أنّ السرية «غير جاهزة للعمل». وأوصى فريق التفتيش في تقرير شديد اللهجة بنقل قائد السرية من موقعه. ولمّا كانت صواريخ هوك لا تزال من الأسلحة التي توليها الدولة أهمية كبرى، فقد وجد ذلك التقرير، وهو أول تقرير سلبي يصدر عن فريق التفتيش، طريقه إلى السلطات العليا بشكل مباشر. وصدر توجيه من القيادة العليا بتكليف

من كتب التقرير بأن يتولى قيادة السرية. وكنت أنا صاحب ذلك التقرير. وتظاهر الأمير سلطان بأنه لم يكن يعلم بتعييني قائداً للسرية إلاً عندما ذهبت لوداعه!

وبدأتْ أسعد فترة في حياتي وأمتعها. كنت لا أزال في الحادية والعشرين من عمري، وتلك هي المرة الأولى التي أتولى فيها قيادة ميدانية. أصبحت مسؤولاً عن ١٨٠ فرداً وأربعة ضباط وست قواعد إطلاق. كل قاعدة منها مزودة بثلاثة صواريخ. كان أول عمل قمت به هو إلغاء كل الإجراءات التي كانت قائمة. أخضعت أفرادي، الذين كان يعوزهم الانضباط والنظام ويغلب عليهم شعور بالدَّعة والملل، لبرنامج تدريبي على غرار برنامج ساندهيرست، تمرينات رياضية مستمرة وتدريبات متصلة وتفتيش لا يكاد ينقطع. ولم تمضِ سوى بضعة أيام حتى أدرك كل من في الموقع مدى جدية القائد الجديد وصرامته.

تبين لي أن وحدتي وقعت نهباً للمخدرات التي كانت تُهرَّب إلى تبوك من طريق خليج العقبة الذي لا يبعد عنها أكثر من مائة كيلومتر. وسرعان ما استشرت المخدرات وأفرخت كل أنواع الجريمة. فلاحقت المهربين وقبضت على ثلاثة منهم بمساعدة الشرطة المحلية وأودعتهم السجن. قمت بملاحقة أفرادي وكنت أُنزل بالمخالفين منهم أشد العقاب، كما أجزل المكافأة لكل من ألمس فيه إتقان الأداء وحسن السلوك. وأصبح شعاري الثواب والعقاب. وأخذت أطبِّقه دوماً وكانت له ثماره الحسنة في كل قيادة توليتها وفي كل مرحلة من مراحل حياتي. أصبحت أعرف رجالي فرداً فرداً. ووضعت ثلاثة أنواع من العقاب تتفاوت درجة شدتها. فالعقوبة الأولى هي الحبس في زنزانة فوق الأرض، والثانية الحبس في حفرة تحت الأرض. أما الثالثة، فالحبس في حفرة بجوار الصرف الصحي، حيث الرائحة الكريهة التي لا تُحتمل، حتى إن أحداً لا يقوى على البقاء هناك أكثر من ست ساعات من دون أن يخرَّ مغشياً عليه. كنت في غاية القسوة والصرامة، فكأنني «حكومة طلاب» مكونة من طالب واحد في أكاديمية ساندهيرست. وعُرف عني أنني الرجل الذي أعاد النظام إلى نصابه.

في غضون أسابيع بدا رجالي وقد تبدلّ حالهم تماماً، بعدما استعادوا ثقتهم واعتزازهم بأنفسهم. كان التغير ملحوظاً في لياقتهم ومشيتهم ومظهرهم. ولم تمضِ سبعة أشهر حتى أصبحت سرية الصواريخ، التي كانت غير جاهزة للعمل، من أكفأ السرايا، إذ حققت المركز الثاني على مستوى المملكة في مسابقة الرماية السنوية. وذاع صيت وحدتنا، على الرغم من عدم توافر سبل الراحة في تبوك.

وزارنا سمو الأمير سلطان في إحدى جولاته التفقدية وأثنى علينا. وأعتقد أنه كان فخوراً بالإنجاز الذي حققتُه.

بدأت أشعر بقدرتي على القيادة في تبوك وأنظر إلى عملي العسكري بقدر كبير من الجدية. فقد عاينت ثمار غرسي في مثل تلك القيادة الصغيرة بعد وقت وجيز، في حين لو كنت قائد لواء لاستغرق الأمر شهوراً عدة قبل أن تظهر ثمار التغير. تحولتُ بفعل ٢٠ شهراً من العمل الشاق في تبوك إلى جندي محترف. كان من الممكن أن تسير الأمور خلافاً لذلك، فالملك عمّي ووزير الدفاع والدي. وكان في وسعي الحصول على عمل مُرَفَّه يروق لي، في الرياض أو في قلب مدينة جدّة، لكنني آثرت العمل هناك في قلب الصحراء، في الوحدات الميدانية. كنت أريد أن أثبت وجودي. لم تكن نقطة التحول الحقيقية في حياتي هي تخرجي في أكاديمية ساندهيرست، ولا هي تعييني قائداً لقوات الدفاع الجوي السعودي ولا قائداً للقوات المشتركة. كان تعييني قائداً لسرية الدفاع الجوي (سرية الخندق) في تبوك هو نقطة التحول الحقيقية في حياتي.

تزوجت للمرة الأولى، لُولُوَة، ابنة عمي الملك فهد (الأمير فهد آنذاك)، وأنا في العشرين من عمري. وكنت لا أزال عضواً في فريق التفتيش في الدفاع الجوي. كانت شابة في السابعة عشرة من عمرها.

رُزقنا خلال عام من زواجنا ببنت سمَّيناها ريماً. وكانت زوجتي وابنتي تقيمان في بيت والدي في الطائف. كنت أزورهما من حين إلى آخر بين جولات التفتيش وأمكث معهما بضعة أيام في كل مرة. وحدث في إحدى تلك الزيارات، وعُمْر ابنتي وقتئذ أربعة أشهر، أن استيقظت في منتصف الليل وأيقظت زوجتي وأخبرتها برغبتي الشديدة في أخذ ريم إلى الرياض في اليوم التالي ليراها والدايَ. وكانا لم يرياها منذ ولادتها. ولَمّا لم تكن صحة زوجتي تسمح لها بالسفر إلى الرياض وقتها، فقد سافرت ومعي ريم ومربيتها. وصلت إلى الرياض وزرت والديَّ، فلما رآها والدي قال: «ما شاء الله. تبدو كملاك طاهر، تفيض جمالاً ورقة. أخشى عليها من الحسد. أدعو الله أن يحفظها ويبارك فيها». عادت ريم ومربيتها بالطائرة إلى الطائف، ولحقتُ بهما من طريق البر، إذ كان لديّ بعض الأعمال في طريقي إلى هناك. استغرقت رحلتي الليل كله. وعندما وصلت إلى البيت

وجدت ريماً تعاني نزلة برد وفاضت روحها في اليوم التالي. وكأنما حركني هاجسٌ خفيٌ في تلك الليلة لأصطحبها إلى الرياض حيث أَحَبُّ الناس إلى نفسي وقلبي: أبي وأمي.

كنت وقتها شاباً في مقتبل العمر، وكانت هي مولودتي الأولى. حزّ فراقها في نفسي، وترك موتها في قلبي جُرحاً لم يندمل.

واريتها في التراب وأنا أحاول جهدي أن أبدو متماسكاً. كنت حريصاً على ألاَّ أُبدي جزعي. ولكن حدث أمر زادني ألماً على ألم. فقبل دفن ابنتي، جاء رجل إلى بيتي وطلب مقابلتي «لأمر هام». نزلت من غرفتي حيث كنت أحاول أن أحبس دموعي. بادرني الرجل قائلاً: «أريد أن أسألك معروفاً . لقد علمت أنك اشتريت سيارة لابنتك وأريد أن أطلبها منك قبل أن يطلبها غيري، هل لي أن آخذها؟».

كنت فعلاً اشتريت سيارة لخروج ريم ومربيتها للتنزه، ولم يكن مستغرباً أن يقصدك أناس يطلبون المساعدة، ولكن في وقت كهذا؟! أثارت كلمات ذلك الرجل حنقي وكدت أفقد أعصابي. تمالكت نفسي بجهد جهيد. قلت له: «من الأفضل لك أن تنصرف الآن وفوراً». وغادرت المكان.

جاءني أخي فهد في تلك الليلة مع بعض الأصدقاء لتعزيتي. وتوجهت في اليوم التالي إلى مكة لأداء العمرة. كنت حقاً محتاجاً إلى تلك الوقفة الروحانية. ثم عُدت بعد ذلك إلى جدّة ثم إلى العمل.

عوضنا الله خيراً، فرُزقنا بعد ذلك بطفلين، فيصل الذي وُلد عام ١٩٧٣ وسارة التي وُلدت عام ١٩٧٦. وهما مناط حبي وعنايتي. وإن كنت قد انفصلتُ عن أمهما عام ١٩٧٨، فلا أزال أغمر ولديَّ بفيض حناني. وتبقى أمهما، ابنة عمي. فكلانا جزء لا يتجزأ من العائلة. وإذا حدث وطلبت مني أمراً فإنني أُسرع إلى تلبيته عن طيب خاطر.

تلقيت في عام ١٩٧١، وكنت لا أزال قائد سرية الصواريخ في تبوك، مكالمة هاتفية من سمو الأمير تركي بن عبدالعزيز. كان، وقتها، نائباً لوزير الدفاع ويتمتع بمحبة منسوبي القوات المسلحة وتقديرهم. أمرني بالتوجه إلى الرياض فوراً

للانضمام إلى فريق المفاوضات الدائرة للتعاقد مع شركة نورثروب Northrop، التي تصنع الطائرات في الولايات المتحدة الأمريكية، لتزويدنا بطائرات موجهة تعمل بلا طيار. وتُسمى تلك الطائرات درونز Drones وتُستخدم هدفاً للتدريب في الدفاع الجوي. كان الدافع إلى تلك المكالمة الهاتفية أمرين: أولهما أن الملك فيصلاً كان قد أصدر توجيهاته بأن يتم التعاقد مباشرة، في ما يتعلق بنظم الأسلحة الرئيسية، مع الشركات المصنِّعة. كنّا قبل ذلك نوقّع عقداً شاملاً مع إحدى الشركات مثل شركة ريثيون Raytheon، التي تصنع صواريخ هوك، ثم تقوم الشركة من جانبها بالتعاقد مع شركات أخرى لتوريد كثير من الأجزاء اللازمة لنشر السلاح وتركيبه في شكله النهائي (مَيْدَنَته). وقد يشمل ذلك إنشاء مواقع الدفاع الجوي والتموين والتخزين والإسكان والأهداف الجوية. ولكن، طبقاً لتوجيهات الملك فيصل التي كانت تستهدف الترشيد والكفاءة، كان على المملكة أن تقوم بهذه المهمة بنفسها للحصول على العناصر الإضافية اللازمة للسلاح. وكانت صفقة الطائرات الموجَّهة بلا طيار، التي كنّا في صدد التعاقد في شأنها مع شركة نورثروب، مثالاً على التوجه الجديد في سياسة شراء أنظمة الأسلحة.

أما السبب الثاني لاستدعائي إلى الرياض، فهو أني كنت الضابط الوحيد في المملكة بأسرها الذي كان على شيء من الخبرة المباشرة بذلك النوع من الطائرات. فقد تعاملت معها أثناء التدريب الوظيفي (التدريب على رأس العمل) في ميدان الرماية ماك جريجور في تكساس. كنت أمضيت ثلاثة أشهر مفتشاً مساعداً في الجيش الأمريكي في تلك الصحراء، التي لا تكاد ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، أعمل في برج المراقبة لتقييم البطاريات الأمريكية وهي تطلق صواريخها على الأهداف الجوية، وكانت بعض هذه البطاريات قد أتت من قواعدها في ميامي Miami حيث كانت منصوبة تجاه كوبا.

كنت راغباً في البقاء في تبوك، لذلك رجوت الأمير «تركي» أن يعفيني من تلك المهمة، لكنه لم يوافق. قَدِمتُ إلى الرياض وشكّلت فريق مفاوضات من ضابطين ومسؤول مالي. واجتمعنا إلى ممثلي شركة نورثروب في مبنى وزارة الدفاع. وتمكنّا خلال ثمانية أشهر من إبرام صفقة حظيت بموافقة الأمير تركي. ولفت نظر المسؤولين أسلوبي في التفاوض. واستطعنا أن نحصل على أسعار مخفَّضة من نورثروب. كان عقداً صغيراً لكنه كان جدّ مهم لي شخصياً ولمستقبلي العملي. كان عقداً أكسبني مهارة التفاوض.

كان النظام في تلك الأيام يقضي بتعيين «ضابط مشروع» لكل عقد من عقود الدفاع. فكان لكل نظام من نظم الأسلحة ضابط مشروع خاص به، مهمته الاتصال بالشركة الأجنبية ومراقبة تنفيذ بنود العقد وقبول المعدات والإشراف على تدريب قواتنا على ذلك السلاح الجديد. ومن هنا، كان موقع ضابط مشروع لنظام سلاحٍ رئيسي ينطوي على قدرٍ كبير من السلطة والمسؤولية. وسبقني إلى هذا الموقعَ ابن عمي الأمير عبدالرحمن الفيصل الذي تخرج في ساندهيرست قبلي بست سنوات (حيث كان كابتن فريق المبارزة) وتخَصَّصَ في المدرعات. كان ضابط مشروع الدبابات الخفيفة AMX-30 التي اشتريناها من فرنسا.

وسعدت عندما علمت عام ١٩٧٢، على أثر نجاحي في المفاوضات مع شركة نورثروب، أنني عُينت ضابط مشروع لعقد الطائرات الموجَّهة من الشركة نفسها، وعقد صواريخ هوك من ريثيون.

لقد تبدلت الأحوال. مضت أيام تبوك. وأصبح لزاماً عليّ وأنا لا أزال ضابطاً ميدانياً شاباً، أن أتعلم أسس الإدارة المكتبية. لقد أُوكلت إليَّ وأنا في هذه السن المبكرة مسؤولية علاقاتنا بشركة ريثيون، تلك الشركة الأمريكية العملاقة التي دلفنا من بابها إلى عصر الصواريخ، والتي كنّا نعتمد عليها اعتماداً كلياً ـ بعد الله ـ في الدفاع عن مجالنا الجوي. كانت «ريثيون» هي فارس الميدان في كل الأمور ولم يكن لنا في الأمر شيء. كنّا في حاجة إلى رجل يضع الأمر كاملاً في أيدي السعوديين. وانطلق طموحي من عقاله.

عندما تدخل مكتب أحد الضباط، قد تجد اسمه منقوشاً على لوحة فوق مكتبه، وعلى الوجه الآخر منها في مواجهته عبارة يضعها نصب عينيه. وغالباً ما تكون آية أو بعض آية من القرآن الكريم، أو قولاً مأثوراً، أو حكمة متوارثة. أما أنا، فاخترت بيتاً للشاعر التونسي أبي القاسم الشابي يقول فيه:

ومن يتهيب صعود الجبال   يعش أبد الدهر بين الحفر

ظل هذا البيت منقوشاً على لوحة اسمي فوق مكتبي منذ بداية تعييني في الرياض وحتى إحالتي إلى التقاعد من الخدمة العسكرية. وكانت تلك اللوحة هي الشيء الوحيد الذي حملته معي بعد أن حُلَّت قيادة القوات المشتركة عقب حرب الخليج.

الفصل السابع

ترويض الشركة

عندما عُيِّنت ضابط مشروع صواريخ هوك عام ١٩٧٢، لاحظت أن شركة ريثيون الأمريكية منتجة هذه الصواريخ، لا تختلف كثيراً عن شركة أرامكو ARAMCO (شركة الزيت العربية الأمريكية(*)). فكما كانت شركة أرامكو تدير صناعتنا البترولية، آنذاك، أضحت ريثيون تدير دفاعنا الجوي. كان دخلُنا منوطاً بالأولى، وحمايتنا منوطة بالثانية. كانت الشركتان الأمريكيتان تتحكمان في قطاعات حيوية في المملكة. كانتا تمثلان صرحَيْن عملاقَيْن من الخبرة والثروة. ويرتبط الصرحان ارتباطاً وثيقاً بالحكومة الأمريكية، أما شؤونهما فتصرفها مجالس إدارة جبارة مقرها الولايات المتحدة. وفي المملكة، فالقليل من الناس هم الذين يستطيعون التحدث إلى ممثليهما حديث الند للند.

جاءت ريثيون إلى المملكة عام ١٩٦٦ لإدخال صواريخ هوك، ولم تكن تخضع لرقابة سعودية؛ لأنه لم يكن في المملكة من السعوديين من يعرف سبل التعامل مع تلك التقنية البالغة التعقيد. فكانت ريثيون تورّد الصواريخ وقطع الغيار وتتولى الصيانة، وكان مهندسوها يتولون تشغيل مواقع الدفاع الجوي والصيانة الرئيسية لصواريخ الدفاع الجوي في جدّة، بل كانت الشركة تستقدم المدرِّبين بمعرفتها. وكانت تنفذ العقد من دون رقابة منّا، أيّاً كان نوعها. وبعبارة أخرى كنّا نعتمد اعتماداً كلياً على مهندسي ريثيون ومدربيها وإدارييها وفنييها من جميع التخصصات. واتخذت الشركة من جدّة مقراً لها، حيث يعيش منسوبوها في

(*) انتقلت ملكية شركة أرامكو بالتدريج إلى المملكة خلال السبعينات حتى أصبحت سعودية ١٠٠٪، وفي شهر ربيع الثاني ١٤٠٩ هـ (نوفمبر ١٩٨٨)، تم تأسيس شركة الزيت العربية السعودية (أرامكو السعودية) بمرسوم ملكي كريم.

مُجمّع سكني يتكون من نحو ١٠٠ ڤيلاً بُنيت على سفح هضبة على ساحل البحر كانت تعرف باسم شبه الجزيرة. ولم يكن يسمح للسعوديين بدخولها إلاّ بعد الحصول على تصريح مُسْبَق من جلين جربس Glen Grubbs، المدير العام لشركة ريثيون، وهو أمريكي شديد المراس جاد في تعامله. وكانت مدرسة الدفاع الجوي في الموقع نفسه، وقد عُرِفَتْ بين سائقي سيارات الأجرة باسم مدرسة ريثيون. وكان هناك أيضاً مستشفى صغير يعرف بمستشفى ريثيون. وكان التسلسل القيادي في مصلحتهم إلى حدٍّ كبير، فجربس، ممثل الشركة، يملك صلاحية الاتصال المباشر بالأمير سلطان، وبالملك في بعض الأمور. لكن إذا أراد أحد كبار الضباط السعوديين، كقائد مدرسة الدفاع الجوي مثلاً، مقابلة المدير العام لشركة ريثيون، فقد كان عليه أن يأتي إلى مقر الشركة ويطلب تحديد موعد لمقابلته.

لم يكن ذلك الوضع يروق للملك فيصل. فقد كان ـ يرحمه الله ـ وطنياً غيوراً في وطنيته لا تلين له قناة. وبالمثل لم يكن الأمر ليروق للأمير سلطان. لذلك كانت التوجيهات الصادرة إليّ تقضي بالعمل على كبح جماح الشركة وتنظيم العلاقة بيننا وبينها على نحو أفضل. ولم يكن ذلك بالأمر الهيِّن بالنسبة إلى ضابط برتبة نقيب في العشرينات من عمره، لكنني قمت به في متعة بالغة.

وأدركت، بطبيعة الحال، أنه كان عليّ قبل أن أفرض نفسي على الشركة، أن أتعلم الشيء الكثير. ولم يكن في وسعي الاصطدام مباشرة بمؤسسة بضخامة ريثيون وهي تؤدي مثل هذا الدور الحيوي في حماية أمننا الوطني . لكنني تمكنت، في أول اجتماع مع جربس، أن أخطو خطوة جريئة في الاتجاه الصحيح.

بدأت الحوار على النحو الآتي: «طُلب مني أن أتولى إدارة العلاقة مع شركتكم، فإذا كانت هناك أية مشكلة ترغبون في مناقشتها مع الحكومة السعودية، أرجو أن تتوجهوا بها إليَّ. وإذا لم أتمكن من حلِّها فسأرفعها إلى قائد الدفاع الجوي. وإذا لم يتمكن، هو الآخر، من حلِّها فسيرفعها بدوره إلى جهات أعلى وهكذا. وسأتولى هذه العلاقة. لا بد أن تكون المسؤولية في يد أحدنا». وتابعت قائلاً: «من الآن فصاعداً، لن نجتمع في مكتبك، فإذا رغبت في مقابلتي فسوف تتم المقابلة في مكتبي».

كانت الجملة الأخيرة هذه تنطوي على قدرٍ كبير من الجسارة، إذ لم يكن لي

مكتب، في ذلك الوقت. كنت أصرّف الأمور من حقيبة يدي. وكنت إذا احتجت إلى مكان لعقد اجتماع أدخل أول مكتب أصادفه.

ولا أدَّعي أنني أمسكت بزمام الأمور منذ تلك اللحظة، فالعادات القديمة لا تتغير بسهولة. وليس من يقتلع نبتة كمن يجتث شجرة. ولم يكن مستغرباً أن تقاوم ريثيون وأن لا تستكين لعملية «ليِّ الذراع» على يد أمير صغير مثلي. واستغرق الأمر أربع سنوات أو خمساً من الشد والجذب، أتقدم خطوتين، وأتراجع خطوة قبل أن أحقق سيطرة حقيقية، بيد أنها لم تكن سوى بداية.

وساعدني أمران على إنجاز تلك المهمة. أولهما، أن جلين جربس أدرك بحدسه أن ثمة تغييراً سيحدث لا محالة. فبدلاً من أن يحارب لتظل ريثيون مسيطرة، سعى إلى إقناع الشركة تدريجياً بالتعامل مع الواقع الجديد وإلى أن تصبح ريثيون شريكاً للحكومة السعودية، وانتهى الأمر بأنها أصبحت فعلاً شريكاً أصغر. أما الأمر الثاني، فقد تمكن جربس من الحصول على تأييد توم فيليپس Tom Phillips، رئيس ريثيون في ذلك الوقت، للسياسة الجديدة.

وقّعت المملكة عقد صفقة صواريخ هوك عام ١٩٦٦. واستمر تنفيذه خمس سنوات، وكانت قيمته ١١٢ مليوناً من الدولارات. وكان هذا مبلغاً باهظاً بمقاييس تلك الأيام، لكنه لم يكن ضخماً بالنظر إلى أنشطة الشركة وخدماتها الشاملة. كان توم فيليپس بعيد النظر، فقد أدرك أنه العقد الأول في سلسلة من العقود التي تمت بالفعل بين شركته والمملكة.

وروى لي جلين جربس بعد ذلك، إذ عملنا معاً لأكثر من عشرين سنة، أن توم فيليپس قال لمساعديه عندما عُرض عليه ذلك العقد الأول: «ليكن في علمكم، أيها السادة، أن المملكة العربية السعودية ستكون أكبر متعاقد معنا بعد الجيش الأمريكي. هذا ما أراه. وأرجو أن تعاملوا السعوديين من هذا المنطلق». وفي السنوات التي أعقبت ذلك، كان جربس يُستدعى للمثول أمام رئيس مجلس الإدارة كلما عاد إلى الولايات المتحدة فيسأله: «هل نقدم خدماتنا على الوجه الأكمل إلى هؤلاء الناس؟». ويكون الرد دائماً بالإيجاب. ولا شك في أنهم جَنَوْا كثيراً من الأرباح من المملكة خصوصاً في السنوات الأولى، إلاّ أننا ربحنا منهم الكثير أيضاً، ليس في ما يتعلق بالمعدات فحسب، ولكن، وهو الأهم، في ما يتعلق بالتدريب ونقل التكنولوجيا. ففي نهاية المطاف استطعنا، بفضل مساعدتهم، أن ننشئ شبكة دفاع جوي وفق أحدث ما توصلت إليه التقنية الحديثة

في العالم، شبكة تغطي كل أنحاء المملكة. وهي بحق مبعث فخر لنا، بل لكل دولة في العالم تمتلك مثيلتها. يضاف إلى ذلك أنها تدار كلها بأيدٍ سعودية. تلك كانت ثمرة عَقْدٍ أو عقدين كاملين من الزمن في عمل دؤوب.

ولا يسعني إلاّ أن أسجل بكل التقدير تلك الجهود التي خططت للعلاقة الجديدة بين المملكة وريثيون، وأخص بالذكر جهود فيل فالون Phil Phallon المفاوض الأول للشركة، وجلين جربس مديرها العام في المملكة. ولا يفوتني أن أنوه بجهود جيم لويس Jim Lewis، الرجل الذي تخصص في حل المشاكل. وكان قد بدأ عمله مساعداً للسيد جربس عام ١٩٧٠ حين قابلته للمرة الأولى، وانتقل بعد ذلك إلى إيران أيام حكم الشاه ليرأس عمليات ريثيون هناك قبل أن يعود إلى المملكة عام ١٩٧٧ ممثلاً رئيسياً لشركة ريثيون، وتولى هذا المنصب باقتدار حتى إحالته إلى التقاعد في نهاية عام ١٩٩٣.

وعلى النقيض من ممثلي الشركات الأخرى التي تعمل في المملكة، كان التعامل مع ريثيون أكثر يسراً، إذ كان في وسع ممثليها أن يتخذوا القرارات بأنفسهم من دون الرجوع إلى رؤسائهم في الولايات المتحدة، حتى لو كان الأمر يتعلق بعشرات الملايين من الدولارات. كان أهم أسباب نجاحها في التعامل معنا يكمن في أنّ المسؤولين فيها يعينون مديرين يملكون صلاحيات حقيقية تمكّنهم من اتخاذ القرارات ووضعها موضع التنفيذ.

اعترض نشوب حرب أكتوبر ١٩٧٣ عملي بصفتي ضابط مشروع. وهي الحرب التي رأيت فيها محاولة شجاعة لاسترداد الأراضي العربية التي اغتصبت عام ١٩٦٧، ولإجبار إسرائيل على الجلوس إلى مائدة المفاوضات. شنت مصر وسوريا هجومين متزامنين عبر قناة السويس وعلى مرتفعات الجولان. وفي بداية الأمر، حققت القوات العربية نجاحاً باهراً أفقد إسرائيل اتزانها، إلاّ أن القوات المصرية، وبعد أن عبرت قناة السويس وحطمت خط بارليف - وتلك معجزة عسكرية في حد ذاتها - لم تتقدم إلى ممرات سيناء (كنت من بين المراقبين الذين اعتقدوا بأنها كانت وقفة عملياتية تمهيداً لتطوير الهجوم). ونتيجة لذلك، تمكنت إسرائيل من أن تلقي بثقلها على الجبهة السورية، وأجبرت القوات السورية على الانسحاب من هضبة الجولان، وتقدمت في اتجاه دمشق. وبعد فوات الأوان،

انتقلت الوحدات المدرعة المصرية (النسق الثاني) من وضع الدفاع إلى وضع الهجوم شرق القناة، لكن الإسرائيليين كانوا قد أصبحوا على استعداد تام للتعامل معها بعد أن أدوا مهمتهم على الجبهة السورية. وكان للدعم الهائل الذي تلقته إسرائيل من الولايات المتحدة أكبر الأثر في تدعيم موقفها، إذ كانت الدبابات والمدافع والمعدات الأخرى تنقل إلى ميدان المعركة مباشرة عبر جسر جوي من القواعد الأمريكية في ألمانيا، بل من قاعدة كيلي Kelly الجوية في ولاية تكساس. ولو أن الاتحاد السوفيتي انتهز هذه الفرصة وبادر إلى الهجوم على الولايات المتحدة في ذلك الوقت لَوَضَعَ القيادة الأمريكية في وضع عسكري حَرِج.

كان قرار الرئيس محمد أنور السادات بدفع النسق الثاني إلى المعركة لتطوير الهجوم قراراً سياسياً وليس عسكرياً. فقد وقفت القيادات العليا لجيشه، بلا استثناء، ضد هذه الفكرة، لأنها تعرِّض الضفة الغربية للقناة لهجوم إسرائيلي، وتعني أيضاً تطوير الهجوم على أرض تتدرج في الارتفاع كلما اتجهنا شرقاً، وتُعرِّض القوات للهجمات الجوية الإسرائيلية لخروجها من مظلة صواريخ الدفاع الجوي أرض ـ جو. وإزاء هذا الموقف، حاول اللواء سعد مأمون، قائد الجيش الثاني الميداني، معارضة أوامر السادات في بداية الأمر، لكنه أصيب بنوبة قلبية حادة لَمَّا رأى إصرار الرئيس على خطته التي كانت ترمي إلى تخفيف الضغط عن الجبهة السورية. وكان من نتائج هذا الخطأ الجسيم أن فقد الجيش المصري اتزانه. ولا يخفى على أحدٍ ما حدث بعد ذلك.

وهكذا تحول الانتصار العربي المبدئي إلى وضع حَرِج، بيد أن الجيوش العربية حاربت ببسالة عام ١٩٧٣ خلافاً لما حدث عام ١٩٦٧، وأثبتت للعالم أجمع أنها أتقنت فنون الحرب الحديثة. لكن النتيجة النهائية للحرب لم تحقق ما كان العرب يأملون فيه.

كانت المملكة حريصة على أن يكون لها دور في تلك الحرب. فقررت إرسال لواء من تبوك لتعزيز الدفاعات السورية في سعْسع، وهي نقطة على الطريق المؤدية من الجولان إلى دمشق حيث توقف الزحف الإسرائيلي. ووقع الاختيار على اللواء محمد بديره، وهو من أكثر ضباطنا خبرة في التكتيكات العسكرية، لقيادة اللواء الذي كان مسلحاً بصواريخ TOW المضادة للدبابات والمحملة على عربات جيب، وكان سلاحاً جديداً وفعالاً في ذلك الوقت. كنت واحداً من ستة

ضباط أُرسلوا إلى تبوك، لتجهيز كتيبة الدفاع الجوي العضوية التي كانت جزءاً أساسياً من اللواء (كان مخططاً أن تتكون الكتيبة من سريتي مدافع مضادة للطائرات وسرية صواريخ هوك). تمنيت أن أذهب إلى سعسع لقيادة سرية هوك، لكن اللواء بديره قرر أن يأخذ مدافع مضادة للطائرات عيار ٤٠ مم. ولَمَّا لم أكن مُدرَّباً على استخدام تلك المدافع، لم يكن لي نصيب في الذهاب إلى سعسع في صحبة اللواء. وقد استغرقت إجراءات تجهيز اللواء وقتاً غير قليل. وبينما اللواء في طريقه إلى دمشق، كانت الحرب قد وضعت أوزارها أو تكاد. وبقي هناك أكثر من سنتين لمساندة السوريين في الدفاع عن جبهتهم.

كنّا نتابع أخبار الحرب من تبوك بكل اهتمام، إذ كانت لنا من قبل تجربة غير سارة مع البيانات العسكرية في حرب ١٩٦٧. لذلك، كنّا ننظر بعين الريبة هذه المرة إلى البيانات المصرية والسورية. ولكنني، عندما عكفت على دراسة تفاصيل تلك الحرب، أُعجبت باستخدام القوات المصرية الكفء لصواريخ أرض ـ جو القصيرة المدى، SAM-6 المتحركة، و SAM-7 المحمولة على الكتف، وكذلك استخدامها المتمكِّن للمدفعية المضادة للطائرات، ومنها مدافع شيلكا Shelka ذات الأربع سبطانات (مواسير) من عيار ٢٣مم المزودة بالرادار. فقد سببت هذه المدافع إرباكاً كبيراً للقوات الجوية الإسرائيلية التي كان الإسرائيليون يحيطونها بهالة كبيرة من الدعاية، وما فتئوا يسمونها الذراع الطويلة لإسرائيل. وبدلاً من أن تضع مصر الطائرة في مواجهة الطائرة، تمكنت باستخدام هذا السلاح الجديد من أن تضع الصاروخ في مواجهة الطائرة. وكان ذلك ناتجاً من قرار اتُّخِذَ في شهر يونيه عام ١٩٦٩ بفصل قوات الدفاع الجوي عن سلاح المدفعية وجعلها قوة مستقلة تساندها شبكة إنذار مبكر اقتداءً بالنموذج السوڤيتي. كما نجحت مصر أيضاً، باستخدامها صواريخ مالوتكا Malotka المحمولة المضادة للدبابات، في تحويل المعركة البرية إلى مواجهة بين الصاروخ والدبابة.

ومما خلصت إليه من نتائج حرب أكتوبر، زاد اهتمامي، بل ولعي، بالقدرة الهائلة للصواريخ. أدركتُ أننا في حاجة إلى دفاع جوي أكثر من حاجتنا إلى طائرات للدفاع عن مجالنا الجوي الشاسع. وكنت واثقاً من أن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تفرض حداً أعلى (سقفاً أعلى) على مبيعات المقاتلات الاعتراضية للمملكة بدافع طمأنة إسرائيل، وأنها ستوعز إلى بريطانيا وفرنسا أن تحذوَا حذوها. فلن تسمح أية دولة غربية أن تمتلك المملكة قوات جوية مؤثرة. ولم يكن متوقعاً أن تضع القيود نفسها على أسلحة الدفاع الجوي التي يمكن أن

نحصل عليها. فإذا كان هناك حدّ أعلى لعدد الطائرات التي يمكن أن نمتلكها، فلن يكون هناك حدّ أعلى لعدد سرايا الدفاع الجوي التي يمكن أن نحصل عليها. لذلك، كان طريق الدفاع الجوي هو الطريق الذي علينا أن نسلكه. وكانت قناعتي بهذا الأمر لا تقبل الجدل، فاستقرت، منذ ذلك الحين، فكرة في رأسي شغلتني لسنوات عدة تالية، كما سيتضح للقارئ فيما بعد.

يدور صراع سجال لا تتوقف رحاه بين منتجي الصواريخ ومنتجي الطائرات المقاتلة، إذ يحاول كل طرف أن يتفوق على الآخر. فلا يكاد يظهر صاروخ قادر على إسقاط طائرة على مدى ٤٠ أو ٥٠ كيلومتراً مثلاً، حتى تُتَّخذ الإجراءات في مجال صناعة الطائرات لتحييد ذلك الصاروخ. لذا، أصبح صاروخ هوك الأساسي الذي حصلنا عليه عام ١٩٦٦ نوعاً قديماً في عام ١٩٧٣. وحتى نواكب التطورات السريعة في صناعة الصواريخ، كان علينا أن نمتلك صاروخ هوك المطوَّر الذي كانت إمكاناته تفوق إمكانات صاروخ هوك الأساسي. وكان من ضمن مسؤولياتي، بصفتي ضابط مشروع هوك، أن أتابع هذه التطورات وأستعد للمفاوضات، التي لا مفر منها مع شركة ريثيون، المصنِّع الوحيد لهذه الصواريخ، فور أن نعقد العزم على تحديث أنظمتنا الدفاعية.

قبل أن نشرع في المفاوضات الفعلية، تم الاتفاق على قيام بعض الضباط السعوديين بزيارة عمل إلى الولايات المتحدة. وشمل برنامج الزيارة مقابلة ممثلي ريثيون للتزود بالمعلومات عن نظام صواريخ هوك المطوَّر، ومشاهدة المعدات الأخرى، وزيارة المصانع التي تنتجها. أُسندت إليّ رئاسة الفريق السعودي، وبدأتْ رحلتنا بعد حرب ١٩٧٣ بقليل واستمرت شهرين ونصف الشهر. كانت هذه الرحلة بالغة الأهمية بالنسبة إليّ.

عوملنا بقدر كبير من الحفاوة والتكريم منذ بداية مهمتنا، فكان في استقبالنا رئيس مجلس إدارة شركة ريثيون السيد آدمز Adams، المنحدر من نسل جون كوينسي آدمز John Quincy Adams، الرئيس السادس للولايات المتحدة الأمريكية. وأقيم على شرفنا احتفال مناسب في مقر الشركة في مدينة لكسنجتون Lexington قرب بوسطن Boston. بدأنا بزيارة قسم أنظمة الصواريخ في أندوڤر Andover القريبة، ثم توجهنا إلى هنتسڤيل Huntsville لمشاهدة البرامج التطبيقية (Software) ومرافق الصيانة لصواريخ هوك المطوَّر. بعد ذلك، سافرنا إلى مواقع الاختبار في ألاباما و إلپاسو حيث زرت المواقع التي كنتُ أعرفها من قبل، بما

في ذلك الميدان الذي رأيت فيه للمرة الأولى صاروخ هوك الأساسي أثناء إطلاقه. كان يرافقني ضمن الفريق السعودي النقيب صالح محمد الحجاج، الذي كان يعمل ضابط اتصال مع شركة ريثيون (تقاعد برتبة عميد ولا يزال من أعز أصدقائي) والنقيب محمد سعيد الكيال. وهو ضابط دفاع جوي أصبح بعد ذلك من أقرب مساعديّ في عملي العسكري، وهو يتقن اللغة الإنجليزية، إذ أمضى بضع سنوات في مدرسة في بريطانيا، والتحق بساندهيرست قبل أن ألتحق بها بسنتين. وعمل أيضاً قائداً لقسم اللغة الإنجليزية في مدرسة الدفاع الجوي، وكان وقتها برتبة ملازم أول. وفي ذلك القسم، كان الأفراد الذين وقع عليهم الاختيار للتدريب على صواريخ هوك يتلقون برنامجاً في تعليم اللغة الإنجليزية قبل أن ينتقلوا إلى التدريب الفعلي. وكان أول لقاءٍ لي مع الكيال في تلك المدرسة عام ١٩٦٩ ونشأت بيننا صداقة حميمة منذ ذلك الزمان.

كنت والكيال، عند زيارتنا للولايات المتحدة عام ١٩٧٣، لا نزال ضابطين في مقتبل العمر، ولم تكن لدينا خبرة في مقابلة الشخصيات البارزة. ووجدنا أنفسنا، دون سابق إعداد، نتعامل مع كثير من الجنرالات والمديرين والإداريين وكبار المسؤولين الحكوميين الذين كان بينهم جوزيف سيسكو Joseph Sisco، مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى. جاءت ذروة الإثارة في رحلتنا عندما رتب لنا السيد آدمز، رئيس شركة ريثيون، وكان من الشخصيات المرموقة في واشنطن، زيارة لأليوت ريتشاردسون Elliott Richardson، وزير الدفاع في حكومة الرئيس نيكسون Nixon.

كانت تلك الزيارة أكبر من أن تخطر لي ببال. فكيف لي وأنا لا أزال أحبو في ميدان العمل العسكري مقابلة وزير دفاع أقوى دولة في العالم بأسره، الولايات المتحدة الأمريكية؟ أقابله في إطار إجراءات المفاوضات لإبرام عقد مهم سيغير وجه الدفاع الجوي في المملكة ويعزز استعدادها العسكري.

ومن أغرب ما حدث، أنه عند دخولنا مكتب أليوت ريتشاردسون، طُلب إلى السيد آدمز أن يبقى في غرفة الانتظار. كان آدمز يتوقع أن يدخل معي. ولاحظت استياءه من ذلك الموقف. كان الشرر يتطاير من عينيه. كان صديقاً لريتشاردسون، وأظنه عاتبه لهذا الموقف عتاباً شديداً بعد ذلك. وإلى جانب أن آدمز شخصية مميزة بصفته مدير إحدى كبريات الشركات الأمريكية، كان يحظى باحترام كبير في المملكة إثر مجاملة لطيفة قدمها إلى الملك فيصل عام ١٩٦٦. فقد حدث أن

كان الملك فيصل يزور مدينة نيويورك وفي صحبته الأمير سلطان في شهر يونيه من ذلك العام، لكن عمدة المدينة، في محاولة منه لإرضاء الناخبين اليهود، رفض إقامة مأدبة عشاء للملك. وظهر آدمز في الميدان فجمع كبار رجال الأعمال من أنحاء الولايات المتحدة ونظم للملك استقبالاً حافلاً لم يحظَ بمثله أي زعيم دولة زار مدينة نيويورك. وتوطدت العلاقات بينهما بسبب ذلك. وكان تصرفه معي أيضاً في غاية اللطف والأدب. ولك أن تتخيل كيف جلس ينتظرني حتى انتهت مقابلتي مع ريتشاردسون، ثم انصرفنا معاً من البنتاجون.

ولم تخلُ زيارتي لريتشاردسون من مواقف حرجة. فلم يكن لديّ تفويض بإجراء اتصالات عالية المستوى. وفي الواقع، لم يكن لديّ تصريح بمقابلة شخصيات رسمية في الحكومة الأمريكية. فأثناء حكم الملك فيصل، لم يكن يسمح لنا بمقابلة مسؤول أجنبي كبير من دون أن يحاط الملك علماً بذلك. ولَمّا كنّا أول وفد عسكري يزور الولايات المتحدة الأمريكية بعد حظر النفط، الذي فرضه الملك فيصل إبّان حرب أكتوبر، لم يكن مستبعداً أن يُظهر الشعب الأمريكي بعض مشاعر العداء لنا، وكان ذلك كله يتطلب معالجة بكياسة وحكمة.

اتصلت بوالدي أطلب منه النصيحة والتوجيه، وأخبرته أن زيارتي لريتشاردسون ستكون للمجاملة الخالصة، وأني مضطر إلى القيام بها؛ لأن ترتيبها أُعد من قبل. فقال لي: «لا مانع . . ولكن لا تتعهد بشيء، وتجنب الصحافة».

أدركت أن أليوت ريتشاردسون قد أَعَدّ لي قائمة طويلة من الأسئلة. كان رجلاً طويل القامة، نحيلاً، وتشع نظراته ذكاءً وحدّة، نظرات محام في نيويورك. بدا واضحاً أنه يضعني في اختبار خاص، كما بدا واضحاً أيضاً أنه شغوف بمعرفة كل شيء عن المملكة، وعن الملك فيصل بوجه خاص، بعد أن أحدث هزة كبيرة في الولايات المتحدة بسياسته المستقلة وقراره حظر النفط ومساندته لكل من مصر وسوريا إبّان حرب أكتوبر.

كان يجلس معنا، خلال المقابلة، عدد من مساعدي ريتشاردسون وقد انكبوا على تسجيل ملاحظاتهم على إجاباتي. ووقع بصري على الكيال، فإذا به، هو الآخر، منهمك، حتى لا يتفوق عليه أحدٌ، في تسجيل الملاحظات. كان يسجل في أوراق أخرجها من حقيبته، ويا لها من حقيبة! كانت محشوّة بالوثائق السرية المتعلقة بمباحثاتنا في شأن صواريخ هوك المطوّر. كنت أَوْكلت إليه مهمة الاحتفاظ بها، وحذرته، ممازحاً، أنه سيقدم إلى محاكمة عسكرية إذا ضاعت

منه. ويبدو أن الكيال أخذ ذلك التحذير مأخذ الجد، فكانت تلك الحقيبة الثقيلة لا تفارقه أبداً. كان يحملها أنّى ذهب حتى تقوّس ظهره، فبدا وكأنه قد بلغ من الكبر عتيّاً.

فاجأني ريتشاردسون بسؤال سياسي حساس. أراد أن يعرف رأيي حول إسرائيل والفلسطينيين، فأجبته: «إن وجهة نظر جلالة الملك فيصل معروفة لكم جيداً، ولست في صدد التعليق عليها». وأضفت: «وما أنا إلاّ نقيب، وليس مسموحاً للنقباء التحدث في السياسة». أوقفتْه تلك الكلمات عند هذا الحد، كما أنقذتني من التعرض لأي عتابٍ أو لوم من الملك فيصل الذي كانت ستصل إليه لا محالة، كل مقولة أدليت بها.

كانت تلك الزيارة إلى الولايات المتحدة نقطة تحول مهمة في حياتي. لقد أذكت طموحي بعد أن انتقلت إلى مستوى أعلى على مسرح الأحداث، وعرفت المنهج الذي يفكر به القادة الأمريكيون. كنت حريصاً على الإبداع في عملي، وكنت أشعر أن العقد الذي أوكِلتْ إليّ مهمة التفاوض في شأنه سيدفع مستقبلي العملي إلى آفاق رحبة جديدة.

كانت المفاوضات مع ريثيون، في الأشهر الثلاثة أو الأربعة التي تلت ذلك، صعبة ومعقَّدة. حفلت بالخلاف تارة وبالشجار تارة أخرى، ولكنّ الأمر انتهى ونحن على وفاق تام. ووُقِّعَ عقد صواريخ هوك المطوّر في الرياض في الثامن من أپريل عام ١٩٧٤، وقعه عن الجانب السعودي، الأمير سلطان. ولم يكن الوصول إلى تلك المرحلة أمراً سهلاً، فقد وجدت لزاماً عليّ أن أتعلم الكثير من التفاصيل الفنية المتعلقة بنظام هوك، ونفقات إنتاجه، والجوانب القانونية في العقد، بفقراته الكثيرة وملاحقه المتعددة، وكان عليَّ، إن أردت تعديل شرط في إحدى الفقرات، أن أبذُل الكثير من الدراسة والسهر. كنت أعمل بمفردي، بينما كان في وسع الشركة أن تستدعي الخبراء من كل حدب وصوب، فوجدت نفسي محتاجاً إلى من يساعدني ويشير عليَّ.

وظَّفت أربعة من المسؤولين السابقين في الحكومة الأمريكية ممن كانت لديهم خبرة كاملة بنظام هوك، أحدهم ضابط صف يدعى بورن Bourn (وكان يعمل مع ريثيون في المملكة)، أما الثلاثة الباقون فمدنيون. وكانوا كلهم مخلصين في نصائحهم ولم ينحازوا إلى الشركة في أي شكل من الأشكال.

كما تمكنتُ في ذلك الوقت من الاستعانة بزميل آخر كفءٍ، إلى جانب

الكيال، هو النقيب عبدالله رشاد جستنيه الذي كان قد أمضى سنتين ونصف السنة في بوسطن، بين عامي ١٩٦٩ و١٩٧١ بصفته أول ضابط اتصال من الدفاع الجوي السعودي مع شركة ريثيون. وتخرج في تلك الفترة مهندساً، واكتسب قدراً كبيراً من الخبرة في مجال الإلكترونيات. وعُيِّن بعد عودته إلى المملكة، نظراً إلى كفاءته الفنية، مساعداً لقائد مركز الصيانة والإمداد الفني في جدّة (كان اسمه آنذاك الصيانة الرئيسية). وكان أول لقاء لي معه في ذلك المكان. كنت أعمل قائداً لميدان الرماية، إضافة إلى عملي كضابط مشروع، إذ كنت أنظم رماية سرايا الدفاع الجوي في أنحاء المملكة. وكانت مهمة جستنيه هي التأكد من صلاحية جميع الأنظمة في ميدان الرماية في جدّة، إضافة إلى تأمين قطع الغيار التي تحتاج إليها الوحدات. كنّا نتقابل كثيراً كلما زرت جدّة في أوائل السبعينات وكنت أقدّر فيه خبراته المتميزة.

وعندما كنت في صدد تشكيل لجنة فنية استشارية، ونحن نُعد العدة لمفاوضات صواريخ هوك المطوّر، وقع اختياري على جستنيه. وكنت في حاجة أيضاً، بالإضافة إلى الفنيين المتخصصين، إلى أناس لهم باع في شؤون إبرام العقود وذوي خبراتٍ في مجال الأعمال والتمويل والشؤون الدولية. عَيَّن الأمير سلطان لمساعدتي في هذا الأمر ثلاثة ضباط كانوا يعملون في برنامج سلاح الصيانة، هم: العقيد ناصر عبدالعزيز العرفج، والعقيد علي محمد الخليفة، الحاصلان على درجة الدكتوراه في العلوم السياسية، والعقيد أحمد عبدالله المالك، الحاصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد (ترقّى الأول والثاني إلى رتبة لواء، والثالث إلى رتبة عميد بعد ذلك). ثم عَيَّن الأمير سلطان ثلاثة من المدنيين المتميزين الأكْفاء هم الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي، الذي أصبح فيما بعد وزيراً للصناعة، وهو الآن سفير خادم الحرمين الشريفين لدى بريطانيا، والدكتور محمد الملحم، الذي أصبح بعد ذلك وزير دولة، والدكتور محمد عمر مدني، من وزارة الخارجية (كان يخدم ضمن أركاني أثناء حرب الخليج). وكان لخبرة الدكتور مدني بالقانون الدولي أكبر الأثر في نجاح مهمة اللجنة. كنت أضطر في بعض الأحيان إلى أن أطلب من هؤلاء الرجال أن يواصلوا العمل حتى وقت متأخر من الليل، لمراجعة متطلباتنا وصياغة مواقفنا. وكان هذا الفريق القوي المتكامل هو سلاحي الذي واجهتُ به مفاوضي شركة ريثيون.

تعلمت بعض الحيل أثناء إجراء المفاوضات، منها أن للانطباعات الأولى أهميتها الكبرى، إذ تحدد نقاط قوّتك ونقاط ضعفك. فمن العوامل الإيجابية في

نجاح المفاوضات أن تبهر الفريق الذي أمامك، وتمسك بزمام المبادرة. ولا بد من أن يدرك الفريق الآخر إلى طاولة المفاوضات أنك رجل له ثقله وأنك تحظى بالدعم الكامل من بلدك وأنك تخفي في جعبتك الكثير والمثير. ومن المفيد، من وجهة نظري، أن تهتم بالشكليات أثناء العمل، وهي في كل حال طبيعتي في أداء الأعمال، إذ إنني أعطي المظهر دائماً أهمية الجوهر نفسه. حدث في أوائل عام ١٩٧٤، أثناء عثرة في المفاوضات، أن اقتضى الأمر سفري إلى الولايات المتحدة لمقابلة رئيس شركة ريثيون. وقررت إثر وصولي إلى نيويورك أن أستأجر طائرة إلى بوسطن، إذ كنت أعرف أن رئيس الشركة سيكون في استقبالي، وكنت أرغب في أن أترك لديه انطباعاً باهراً. ولم يكن معنا ما يكفي من المال، فاستيقظ أحد أصدقائي مبكراً وظل يتحدث بالهاتف إلى شركات تأجير الطائرات نحو ساعة، حتى حصل على أدنى سعر واستطاع أن يوفر لنا ١٠٠٠ دولار.

لم يكن التقتير من طبعي، فلمّا حان هبوطنا في بوسطن سألت صديقي: «كم عدد طاقم الطائرة؟». فأجاب: «الطيار والملاح والمضيف فقط». فقلت له: «أكرم الثلاثة وأجزل لهم العطاء».

كان من شأن هذا السخاء أن يذهب بكل الجهود المضنية التي قام بها صديقي في التفاوض مع شركات تأجير الطائرات في الصباح، ولكننا حققنا هدفنا، فوصلنا وصولاً لائقاً، وودّعنا الطاقم وداعاً رائعاً على مشهد من الوفد الرفيع المستوى من شركة ريثيون الذي كان في استقبالنا.

ولو أمعنّا النظر في تلك الأحداث، لاكتشفنا أن قيمتها، في المدى الطويل، لم تقتصر فقط على الأسلحة المتقدمة التي حصلنا عليها من ريثيون (على الرغم من أنها كلفتنا ٢٦٤ مليوناً من الدولارات)، بل إن قيمتها الحقيقية في تلك التنازلات الإضافية التي استطعت أن انتزعها من الشركة. فعلى سبيل المثال، كان موظفو ريثيون من الأمريكيين وأسرهم يشغلون، في تلك الأيام، المجمَّع السكني للدفاع الجوي في جدّة. وكان الضباط السعوديون يسكنون خارج المجمَّع، ويضطرون إلى الحضور إليه كل يوم من أماكن إقامتهم. وكان هذا وضعاً معكوساً، من وجهة نظري. لم أكن لأحتمل أن يسكن ضابط سعودي برتبة رائد في شقة مستأجرة من غرفتين في أطراف المدينة، بينما ينعَم موظفو ريثيون بالعيش الرغيد في المجمَّع. كان لا بد من أن ينتقل أبناء بلدي إلى المجمَّع، ليعيشوا هناك إلى جانب موظفي ريثيون. ورفضت أن أوقع العقد بالأحرف الأولى إلاّ بعد

موافقة الشركة على تسليم ٤٠ ڤيلاّ، من مجموع ١٠٠ ڤيلاّ كانت تشغلها، إلى الضباط السعوديين. وعلى الرغم من أن كثيراً من زملائي في وزارة الدفاع كانوا يطلبون إليَّ ألاَّ أُحَمِّل الأمر أكثر مما يحتمل، لأن موضوع الڤيلاّت في نظرهم أمرٌ ثانويٌ، إلاّ أنني كنت أعدُّ ذلك أمراً لا يقبل النقاش أبداً. تمسكت بموقفي ولم أتزحزح. كان صراعاً مريراً مع الشركة، لكن مسؤوليها اضطروا إلى الموافقة في نهاية المطاف. واستطعت أن أحصل منهم على مزيد من الڤيلاّت في العقد التالي، حتى أصبح المجمَّع سعودياً بكامله وفيه الآن من ٨٠٠ إلى ٩٠٠ وحدة سكنية.

وقد أضفتُ بنداً إلى العقد، بناء على اقتراح أحد أعضاء اللجنة، وكان اقتراحاً سديداً بالفعل، مؤدَّاه أن تتولى الخطوط الجوية السعودية كل عمليات الشحن والنقل المترتبة على تنفيذ بنود هذا العقد. وصمَّمتُ أيضاً على أن تتولى بمعرفتها مهمة الترتيب مع شركة ناقلة أخرى لتحل محلها إذا عجزت عن القيام بالمهمة. وأسرعت إليها لأحصل على تأييدها. وقد قابل مديروها هذه الخطوة بكل التقدير. وقاوم مفاوضو ريثيون هذا البند بكل ما أُوتوا من قوة، إلاّ أنهم وافقوا عليه في النهاية. وبعد ذلك بسنتين، تحول ذلك البند إلى مرسوم ملكي يطبَّق الآن في كل تعاقدات المملكة.

كانت صفقة صواريخ هوك المطوّر، أول مشروع كبير أُشرِف على تنفيذه، وقد فتح أمامي آفاق التعامل مع وزارات الدفاع والصناعات الحربية في الخارج. علمتني أن أفكر في أمور كبيرة، وأن أتعامل مع ميزانيات ضخمة. والأهم من ذلك كله، أنها أرست الأسس التي انطلق منها الدفاع الجوي السعودي.

في تلك الأيام، كان هناك مكتب للمشاريع في قيادة الدفاع الجوي يشرف على كل ضباط المشاريع، وكنت واحداً منهم. ولكن بعد إتمام عقد صواريخ هوك المطوّر، الذي كان عقداً ناجحاً في كل المقاييس، أصبح وضعي مميزاً مما أقْنع قائد الدفاع الجوي، العقيد محمد الحماد (رئيس هيئة الأركان العامة حالياً) بتعييني مديراً لمكتب المشاريع. فاقترحت أن يسمى «مكتب تخطيط ومشاريع الدفاع الجوي»، وتوسعتْ تبعاً لذلك مهامه، وأصبح قاعدة انطلاق لي. وكان الدرس الأساسي الذي تعلمته من صفقة ريثيون أنه في قوة مثل الدفاع الجوي تستخدم تقنية عالية حديثة، وتعتمد اعتماداً كبيراً على مُصَنِّعِين ومدربين أجانب، تصبح العقود أداة حاسمة للتحكم في زمام الأمور. فمن خلال العقود يمكن

السيطرة على الشركات ومن ثَم التحكم في النظام كليةً. كان هذا مخططاً تعهدته بالعناية والرعاية حتى اكتمل في جلسات عقدتُها في ساعات متأخرة من الليل، مع زملائي، واستغرق ذلك منّا شهوراً عدة. كنّا نستعير غرفة الاجتماعات الخاصة بجلين جربس لنتدارس فيها بعد انتهاء أوقات العمل.

على هذا الأساس، تم إنشاء المكتب الجديد في يونيه من عام ١٩٧٤ في مدينة جدّة، ليكون قريباً من مقر شركة ريثيون. كنت قد رُقِّيت للتو إلى رتبة رائد وعُينت مديراً للمكتب، وعُين الكيال مساعداً لي. وضغطت على جلين جربس ليتخلى لنا عن غرفة في إحدى الڤيلاّت الخاصة بالشركة اتخذتها مكتباً لي. وبعد ذلك حصلنا على مكتب آخر انتقل إليه الكيال، ثم وظفنا مترجماً وناسخ آلة كاتبة.

كان لا بد أن أكون والكيال على درجة عالية من الكفاءة ليحوز مكتب التخطيط والمشاريع الثقة والتقدير وليمارس صلاحياته على الشركة. وتطلب ذلك جهداً جهيداً، إذ كانت الشركة تستخدم عدداً كبيراً من العاملين، الأمر الذي يجعل مسايرتها عملاً ليس باليسير.

قَررت بعد فترة أنه لنمارس صلاحياتنا الحقيقية، لا بد أن يكون مكتبنا في قيادة الدفاع الجوي في الرياض، قريباً من وزارة الدفاع، وليس في جدّة قرب شركة ريثيون. كما دعت الحاجة إلى زيادة عدد العاملين معي، وبدأت أبحث عن الأشخاص المناسبين من بين ضباط الدفاع الجوي، ووقع اختياري على عبدالله جستنيه، وهو ذو كفاءة فنية عالية، وجدت منه العون كله أثناء مفاوضات صواريخ هوك المطوّر. وأذكر أنني زرت يوماً مدرسة الدفاع الجوي لأتحدث مع قائدها العقيد حسين صابر محمد، وهو رجل هادئ يتميز بقدر عال من الذكاء والقدرات الفائقة، وحضر الحوار جستنيه وعدد آخر من زملائنا حيث عُقد اللقاء في غرفة اجتماعات صغيرة.

قلت للعقيد صابر: «إنني في حاجة إلى ضابط ليخدم معي في المكتب الجديد لتخطيط ومشاريع الدفاع الجوي». كنت في تلك الأيام أحمل في جيبي دائماً مفكرة صغيرة أدوِّن فيها أسماء ضباط الدفاع الجوي الذين أقابلهم خلال عملي. وفي الوقت الذي كنت أطرح فيه السؤال كنت أقلب في مفكرتي، واقتربت منه وأشرت إلى اسم معين وقلت له: «ما رأيك في هذا الرجل؟». فأجاب على الفور: «لقد أحسنت الاختيار فعلاً».

انصرف العقيد صابر وبقية الزملاء عَقِب اللقاء إلى مباشرة أعمالهم، وبقيت أنا مع جستنيه. خلعت سترتي العسكرية ووضعتها على مقعد قريب وشمرت عن ساعدي وقلت له: «أريد التحدث معك في بعض الأمور المهمة». وشرحت له وظائف المكتب الجديد، ثم أضفت: «إنني اخترت الرجل الذي سيعمل معي في الرياض». فأجاب: «أرجو لك التوفيق». فقلت له: «إنه أنت، أقصدُك أنت، أريدك أن تنضم إلينا، وأريد ردك في غضون ثلاثة أيام».

لاحظت أن جستنيه لم يكن سعيداً تماماً لهذا الاختيار. كانت أسرته وأصدقاؤه يقطنون في جدّة حيث نشأ فيها وترعرع. ولعل هذا ما يدفعه إلى عدم الترحيب بوظيفة في الرياض، وسط البلاد، بعيداً عن البحر. لكنه سألني بابتسامة ساخرة: «وما هي الإجابة التي تتوقعها مني؟». فأجبته: «أريدك أن توافق». فقال: «إذاً لست في حاجة إلى ثلاثة أيام».

وانتقلنا إلى الرياض، وبدأنا ننظّم القسم الجديد. لم يكن معي هناك سوى جستنيه وموظف مدني اسمه محمد عيطه، ولا يزال في مكتب المشاريع في جدّة حتى الآن، أما الكيال فبقي في جدّة ليدير مكتبنا هناك.

لم تحظَ سلطات قسم التخطيط والمشاريع بقبول من جميع العاملين في الدفاع الجوي. ففي بداية الأمر، عند انتقالنا إلى الرياض، كان مكتبي صغيراً للغاية، طوله مترين وعرضه متراً ونصف المتر. وكانت الغرفة المجاورة أكبر بعض الشيء، وتستخدم قاعة اجتماعات. كان أول ما طلبته من جستنيه هو أن يحوّل غرفة الاجتماعات إلى مكتب لي. واستقر هو في غرفة صغيرة مجاورة، كانت تستخدم مخزناً. كنت أريد أن يدرك الجميع أن قيادة الدفاع الجوي أصبح فيها قسمٌ للتخطيط والمشاريع. بدأنا نوسع مكاتبنا على حساب المكاتب المجاورة في لطف وكياسة، فكنا إما أن نقنعهم بترك مكاتبهم لنا بالحسنى، أو نعمل على تدبير أماكن بديلة لهم.

عند توقيع عقد صواريخ هوك مع شركة ريثيون عام ١٩٦٦، وقعت الشركة عقداً آخر لصيانة جميع مرافق الدفاع الجوي في المملكة. وبعد ذلك بسنوات عدة، تحول عقد الصيانة من شركة ريثيون إلى شركة «دلة»، وكانت شركة حديثة التأسيس، يمتلكها ويديرها السيد صالح عبدالله كامل. وكان هذا التحول مبنياً على توجيه من الملك فيصل، سبق أن أشرت إليه، يقضي بأن تتعاقد المملكة في حالة المشروعات الكبيرة مع كل شركة بشكل مباشر بدلاً من السماح للشركات الأجنبية

بالتعاقد من الباطن (عقوداً فرعية). وقضت توجيهاته أيضاً بأن تُعْطَى الأولوية للشركات السعودية، إذا كانت قادرة على إنجاز المهمة. وبناءً على ذلك، طُرحت عملية صيانة مرافق الدفاع الجوي في مناقصة عامة أُرسيت على شركة دلة التي تقدمت بالسعر الأدنى.

بلغت قيمة عقد الصيانة المبرم مع ريثيون ٣٠ مليوناً من الدولارات، وكان العرض الذي قدمته دلة يزيد على خمسة ملايين دولار بقليل. يضاف إلى ذلك أن ريثيون كانت تتمتع بمرونة أكبر في الإنفاق، إذ لم تكن تخضع للنظام المالي المعمول به للمشتريات الداخلية. ولعل انعدام المرونة كان سبباً في عدم نجاح شركة دلة في السنة الأولى، مما دفع بعض الناس إلى المطالبة بإعادة التعاقد مع شركة ريثيون. لكنني، بمرور الوقت، استطعت إقناع الحكومة بأن تعطي دلة صفقة أكثر عدلاً، تنطوي على قدرٍ أكبر من المرونة مع زيادة في قيمة العقد. وعلى الرغم من ذلك، كانت قيمة عقد دلة أقل من نصف قيمة عقد ريثيون. وأصبح صالح كامل نتيجة ذلك من أكبر المقاولين في المملكة، إن لم يكن في العالم العربي كله. وكان أول عميل لشركة دلة هو الدفاع الجوي الملكي السعودي. وهذه حقيقة يسعدني أن السيد صالح كامل يعترف بها في كل الأوقات.

عندما بدأ قسم التخطيط والمشاريع، وجدنا أنفسنا نتعامل مع شركتين فقط، هما ريثيون ودلة. ولكن سرعان ما دب النشاط في القسم في الرياض وجدّة، حيث أصبحنا نعمل ليلاً ونهاراً. وكان لإنشاء القسم دور كبير في اجتذاب العروض من شركات متعددة، وبدأنا نتلقى الدعوات من أصحاب العروض لزيارة مصانعهم ومقارّ شركاتهم في كل أنحاء العالم.

بالتدريج، أصبحت أهدافنا أكثر تحديداً وأكثر طموحاً. كنّا نرغب في تحمل مسؤولية بناء الدفاع الجوي، ووضع أنظمة جديدة للشراء، واختيار مواقع دفاع جوي جديدة ومسحها ومعاينتها على الطبيعة، وبناء المرافق الجديدة، وتركيب المعدات. كنّا نرغب في أن نضع الرجل السعودي المناسب في المكان المناسب، وأن نتأكد من اكتساب الأفراد السعوديين الخبرات والتقنية الحديثة، حتى يستطيعوا، في نهاية الأمر، أن يتولوا بأنفسهم مسؤولية صيانة المعدات، ومهمة التدريس في مدرسة الدفاع الجوي. كنا نرغب في أن نكون قناة الاتصال الوحيدة و همزة الوصل الرئيسية بين الشركة والمملكة، فننقل طلبات الشركة إلى

المسؤولين السعوديين وطلبات هؤلاء المسؤولين إلى الشركة، وألاّ يكون هناك اتصال إلاّ وفقاً للتسلسل القيادي. كان هذا هو النمط الذي أردته ولم أرتضِ سواه، إذ كان هو الأنموذج القائم بالفعل في معظم الدول.

وكان مكتب الإمداد التابع لقسم تخطيط ومشاريع الدفاع الجوي، إحدى وسائل السيطرة في أيدينا. كانت مهمة هذا المكتب هي تسلم جميع المعدات والمستلزمات من الشركات بموجب شهادات قبول، ومن ثَم تخزينها، ليقوم بتوزيعها بعد ذلك على وحدات ومجموعات الدفاع الجوي في أرجاء البلاد. وأصبحت عملية التسليم والتسلم بهذا الأسلوب مركزية وتخضع لقدر أكبر من الرقابة وتحديد المسؤولية.

تمكنت، في ضوء هذه المستجدات كلها، أن أقلب الموازين في علاقتنا بشركة ريثيون. أصبح وضعاً طبيعياً أن يأتي إلينا ممثلو الشركة بدلاً من أن نذهب إليهم. كنت كثيراً ما أقول لزملائي: «أليس الدفاع الجوي هو «الزبون» وهم الذين يقدمون الخدمة؟ نحن لا نطلب منهم معروفاً أو قرضاً، إنهم لا يقدمون إلينا شيئاً بلا مقابل. هم يقدمون الخدمة. ونحن نُوفّي إليهم حقهم كاملاً غير منقوص. هذه بلدنا ولا بد أن يأتوا هم إلينا». لم يكن التعامل معي بالأمر الذي يروق لشركة ريثيون، لكن هذا الأمر لم يكن يعنيني في قليل أو كثير، فلست مرشحاً في انتخابات يريد أن يكسب أصواتاً، لم أكن أسعى إلى كسب ود ريثيون، لكنني كنت أريد منهم أن يحترمونا، وأن يقيموا وزناً لنا ولبلادنا، وكان ذلك هو ما انتهى إليه الأمر في نهاية المطاف. ونصحني كثير من الناس بأن أكون حريصاً ودبلوماسياً في تعاملي مع ريثيون، وحاولت فعلاً أن أخفف من وطأة التغيرات التي كنت عازماً على تحقيقها، وذلك باتباع أسلوب التدرج، فلم يكن في وسعي أن أضع الشركة أمام تحدٍّ صارخ، وأصرّ على تغيير الأوضاع بين عشية وضحاها. لم يكن هناك بد من أن أعمل على تغيير الأوضاع القائمة رويداً رويداً.

وكان أسلوبي في ذلك يقوم على اكتساب المزيد من العلم والمعرفة، لاستيعاب طبيعة العمل استيعاباً تاماً، قبل أن أفرض قيادتي. وكنت أرى أن دور الشركة لا يقتصر على تزويدنا بالعتاد الحربي بل يتعدّاه إلى تزويدنا بالمعرفة التقنية. كان علينا أن نتعلم منهم كل ما نستطيع، ولكن دون تضحية بمستوى قدرات دفاعنا الجوي الذي كان لا يزال في بداياته الأولى. وكانت البلاد بوجه عام، في السبعينات، لا تزال تتلمّس طريقها في كل الجوانب المتعلقة بالنمو

والتطور التقني. ولم يكن من الحكمة في شيء، بغض النظر عن الأنفة والاعتزاز اللذين يملآن جوانح أنفسنا، أن نحاول الجري قبل أن نتعلم المشي.

وبعد عام من إنشاء قسم تخطيط ومشاريع الدفاع الجوي، اقتضى الأمر التفاوض من جديد مع شركة ريثيون في شأن عقد أكبر من سابقه، وهو ما سمي بـ «العقد الثلاثي»، وكانت قيمته تزيد بقليل على مليار دولار. وكما يظهر من تسميته كان نظام «الثلاثي» يضيف وحدة نيران ثالثة (أي فصيل ضرب) إلى سرية صواريخ هوك، مما يحقق قدراً أكبر من الانتشار أو تنويع التشكيلات. كان هدفي في كل مرحلة الحصول على أحدث أنواع الأسلحة مهْما بلغ تعقيدها، وفي الوقت نفسه الترتيب لإتمام أكبر قدر ممكن من التدريب على تلك الأسلحة حتى يبلغ أبناء شعبنا قمة الإتقان في استخدامها، فيتحقق لنا الاعتماد الذاتي ويقل اعتمادنا على الآخرين.

لن أثقل على القارئ بالتفاصيل الفنية، ولكن يكفي هنا أن أشير إلى أن مفاوضات «العقد الثلاثي» بدأت في نهاية عام ١٩٧٤، وتم توقيع العقد عام ١٩٧٦ بعد عامين ونصف العام من العمل المُضْني. وفي ذلك الوقت، كانت وزارة الدفاع قد استحدثت إدارة المشتريات الخارجية التي يعمل فيها خبراء قانونيون إلى جانب خبراء آخرين يعملون على صياغة البنود والشروط المتعلقة بعقود الدفاع بغية حماية المصالح الوطنية للمملكة.

بذلتُ في إتمام ذلك العقد جهداً كبيراً، ويذكر زميلي عبدالله جستنيه أننا كنّا نبدأ جلساتنا في العاشرة صباحاً ولا نبرح غرفة الاجتماعات إلاّ في العاشرة مساءً، وكنّا نقتات ببعض السندويتشات التي يخرج أحدنا لشرائها.

وعندما أنشأت قسم التخطيط والمشاريع، كان جلين جربس لا يزال الممثل الرئيسي لشركة ريثيون في المملكة، وعملنا معاً عن قرب وبشكل ودي. وأذكر أنني طلبت منه مرة أن تستمر الشركة في الالتزام بما جاء في العقد لمدة ستة أشهر أخرى. وكان العقد قد انتهى ولم توقع المملكة بعد عقداً جديداً. ووافقت الشركة على ذلك. كانت كلمتي ضماناً كافياً لهم. فبعد توقيع عقد «هوك الثلاثي»، وهو عقد ضخم ومعقد، أصبحت المملكة هي أكبر متعاقد مع الشركة خارج الولايات المتحدة. وبناءً على ذلك، تمت ترقية جلين جربس واستدعاؤه إلى أندوڤر ليدير مكتباً جديداً يتولى شؤون برنامج التسليح في المملكة، فأصبح بذلك مديراً لكل مشاريع ريثيون في المملكة.

وفي تلك الأثناء، واجه برنامج هوك المطوَّر كثيراً من المشاكل، مما ألقى بظلال قاتمة على مفاوضات برنامج هوك الثلاثي. كانت المشكلة، في بساطة شديدة، هي أن مهندسي ريثيون واجهتهم صعوبات كبيرة في تحويل صواريخ هوك الأساسي إلى صواريخ هوك المطوّر، إذ كان الأمر يتطلب تفكيك النظام القديم وتعديله وإضافة قطع إلكترونية جديدة إليه. وشعرت بقلق بالغ عندما علمت بأن عملية التحويل هذه كانت تتم ببطء، وأنها لم تكن تسير حسب الجدول الزمني المرسوم لها. إذ أفقدتنا عملية التحويل هذه، إلى حدٍّ كبير، قدرتنا على الدفاع الجوي الإقليمي، فقد تم تفكيك النظام القديم، ولم يحل محله نظام جديد. كانت ريثيون في حاجة إلى وجود شخص في المملكة يتميز بالقدرة على حل المشاكل، وخبير بمعالجة الأمور سريعاً قبل أن تقع الكارثة.

كان جيم لويس هو ذلك الخبير، وهو رجل جدير بالاحترام فعلاً، وكان موجوداً في طهران لإدارة برنامج ريثيون في إيران. استدعاه فيل فالون، أحد كبار المديرين التنفيذيين في شركة ريثيون، إلى الولايات المتحدة بناءً على حَثٍّ منّي، وطلب إليه الانتقال إلى المملكة والتعامل مع المشكلة القائمة. قَبِلَ الرجل التحدي ووصل إلى المملكة، بعد ذلك بأيام، للعمل بصفته مديراً للعمليات، وكان ذلك في أغسطس عام ١٩٧٧ . وعندما وصل لويس أوقف كل شيء وبدأ بوضع جدول زمني جديد بالتعاون مع فريق المهندسين الذي شكَّله في الولايات المتحدة. كاد صبري ينفد، فقد أمضى لويس بضعة أسابيع في إعداد الجدول الزمني الجديد. وبعد أن فرغ من إعداده، عرضه عليَّ فلم يعجبني . كنت أريد أن تتم العملية في وقت أقل، لكنه قال لي: «ليعلم الأمير أنني لن أقدم خطة زمنية، إلاّ إذا كنت واثقاً من أنني قادر على تنفيذها، ملتزم بتوقيتاتها».

أخيراً حضر لويس إلى مكتبي يحمل جدولاً زمنياً موقعاً ومؤرخاً، فسألته: «أليس في إمكانكم إنجاز العمل في وقت أقل؟». فأجاب قائلاً: «مستحيل». فقلت له: «لا بد أن تحاول . لا بد من وضع المعدات في مواقعها في أقرب وقت». ولكنه اعترض قائلاً: «لن أعد بشيء لا أستطيع الوفاء به. إنني أعرف إمكاناتي جيداً. ومعي طاقم من المساعدين هنا، نحن نعرف الأشياء التي نحتاج إليها. وهذا أقصى ما في وسعنا». فقلت له: «هل هذا أقصى ما في وسعك فعلاً؟». فأجاب: «هو كذلك دون أدنى شك». أمسكت بقلمي ووقعت على الجدول. كانت مدة العمل حسب الجدول سنة ونصف السنة، لكنه أنجز المهمة قبل الموعد بستة أسابيع. تمّ التحول إلى نظام هوك المطوَّر، لكنه كلف ريثيون

ما لم تكن تتوقع. وعندما أُطيح بالشاه عام ١٩٧٩، وسادت منطقة الخليج حالة الاضطراب والقلق، كانت أنظمتنا على أعلى قدْر من الاستعداد. وعندما اندلعت الحرب العراقية ـ الإيرانية في السنة التالية، كانت وحداتنا ومعداتنا جاهزة للاستخدام إذا ما اقتضت الحاجة. أثبتت لنا الأيام أن الجهود الحثيثة والتدريب المحموم والحرص الدؤوب على إتمام برامج التسليح، كان لها جميعاً ما يبررها.

وحظي جيم لويس، ذلك الرجل الكفء، بثقتي الكاملة. تفاوضنا مراراً، وتغلبنا على الكثير من الصعاب، وإن لم يخلُ الأمر أحياناً من بعض الخلافات في شأن النفقات. كان كل منّا يشعر أحياناً أن الآخر يبخسه حقه. فهو يشعر أن شركته تستحق أموالاً أكثر مقابل خدماتها، وأنا أشعر أن المملكة تستحق خدمات أفضل مقابل أموالها. كنّا معاً نجد متعة كبيرة في التغلب على كل مشكلة تعترضنا.

بحلول منتصف السبعينات، أصبحت جميع عقود الدفاع الجوي التي تبرمها الحكومة تتم من طريق قسم التخطيط والمشاريع الذي كنت أرأسه. كنت أدير جميع مشاريع الدفاع الجوي من الألف إلى الياء، كنت أضم إلى فريقي ضباطاً أختارهم وأدربهم على فنون التفاوض والفنون الأخرى، بينما الآلاف من الشباب السعودي قد انخرطوا في مدرسة الدفاع الجوي. وفي عام ١٩٧٦، تمكنت من تدبير بعثة لعبدالله جستنيه إلى أريزونا Arizona في الولايات المتحدة لدراسة الماجستير ثم الدكتوراه في إدارة التكنولوجيا الصناعية. كانت دراسة تتعلق بأمور التخطيط ونقل التكنولوجيا، وهي جوانب مهمة في مجال الدفاع الجوي. واستدعى ذلك أن يبقى جستنيه بعيداً عن المملكة ست سنوات. وحل محله المقدم أحمد لافي العبلاني، وهو من ضباط الدفاع الجوي المقتدرين، وكان قد حضر دورة دراسية في الولايات المتحدة عن صواريخ هوك المطوّر عام ١٩٧٥.

كانت علاقة المملكة بشركة ريثيون، التي كانت دعامة النجاح بالنسبة إليّ، ناجحة في كل المقاييس. كان من المفيد حقاً لكلا الطرفين أنني جعلت الشركة تعلم يقيناً أنها لم تكن تتعامل مع دولة يستخف بها، بل هي تتعامل مع صورة جديدة للمملكة تختلف تماماً عن صورتها القديمة التي كانت عليها عند بداية العلاقة بينهما في الستينات. أصبحت المملكة دولة حديثة تخطو في مضمار التقدم بخطى ثابتة حثيثة. أصبحتْ المملكة بلداً يحفل بحمَلَة شهادات الدكتوراه، وبالحاسبات الآلية، وبمستويات الأداء العالية. ويحفل بالمفاوضين المتمرسين،

وفيه وزارة دفاع على أعلى درجة من الكفاءة والتنظيم، وعلى قمتها رجل يتميز بالدقة والنظام. رجل بنى أنظمة الوزارة على أسس راسخة قوية. إنه صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبدالعزيز. أصبحت بلادنا جديرة بالاحترام. وأصبحنا قادرين على مراقبة أداء الشركة التي كان لها الباع الأطول عبر السنين في مساعدتنا على بناء قوات دفاعنا الجوي وتحديثها.

الفصل الثامن

القيادة والسيطرة والاتصالات

كنت في ميدان الرماية، الذي يبعد نحو ٧٠ كيلومتراً عن مدينة جدّة، أشهد تدريباً على إطلاق صواريخ هوك عندما فُجِعْتُ بنبأ وفاة الملك فيصل. كان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس ١٩٧٥. انتقلت فوراً إلى المطار وتوجهت إلى الرياض. وعلمت، وأنا في الطائرة، أن الملك فيصل لم يمت ميتة طبيعية، بل قُتل بيد آثمة أطلقت عليه الرصاص. وراعَني أن الذي أطلق عليه الرصاص هو ابن عمي، الأمير فيصل بن مساعد، الذي أذكره منذ أيام الدراسة شاباً هادئاً خلوقاً، فكيف أقْدم على مثل هذه الفعلة النكراء؟

بدأت الشائعات تتردد هنا وهناك، وبلغت حد القول أن الأمير فيصلاً عندما كان يدرس في بيروت ثم في جامعة كولورادو Colorado الأمريكية، أجرت له الاستخبارات الأمريكية عملية «غسل مخ» ليُقدم على قتل الملك فيصل. وتعزو الشائعات سبب ذلك إلى سياسة الملك فيصل الوطنية التي كانت مصدر قلق وضيق للسلطات الأمريكية، فقد ساند مصر وسوريا إبّان حرب أكتوبر، كما ساند الفلسطينيين في مقاومتهم الاحتلال الإسرائيلي، وجعل الولايات المتحدة تستشيط غضباً جرّاء حظر البترول الذي فرضه على الغرب. غير أنه من الصعب الاقتناع بمثل هذا التوجه في تفسير الأحداث. ومن التفسيرات التي راجت أيضاً في بعض الأوساط، أن القاتل أقدم على فعلته حينما دخل إلى مكتب الملك فيصل، أثناء استقباله وزير البترول الكويتي، بدافع الثأر لأخيه خالد. وكان أخوه، خالد، متعصباً لرأيه دينياً، وكان قد قُتل قبل ذلك ببضع سنوات في تبادل لإطلاق النار مع رجال الشرطة، حين حاول، مع مجموعة من رفاقه المتعصبين، الهجوم على مركز البث التليفزيوني في الرياض، إذ كانوا يعدّون هذا المركز مخالفاً لأحكام

الشريعة الإسلامية. ثم تحصّنوا في أحد البيوت القريبة من مبنى التليڤزيون، وبادروا إلى إطلاق النار على الشرطة عندما حضرت لاستجلاء الأمر. كانت الأوامر الصادرة إلى قوة الشرطة تقضي بعدم الرد على النار بالمثل، لذلك فمن المرجح أن تكون الرصاصة التي قتلت خالداً قد أطلقها أحد رفاقه. وفي كل حال، فقد حُوكم فيصل بن مساعد لاحقاً، ونُفِّذ فيه حد القصاص.

لا شك أن مقتل الملك فيصل على يد أحد أفراد العائلة المالكة كان فاجعة أليمة، تأثرت بها العائلة بأسرها . وما زلت أذكر هذه الحادثة بشيء من الحرج، إذ حينما توجَّهنا لدفن الملك فيصل بعد وفاته بأربع وعشرين ساعة، في حضور الكثير من رؤساء الدول، الذين كان بينهم الرئيس أنور السادات، غلبني الحزن ولم أستطع كبت مشاعري، فما كان من والدي إلاّ أن زجرني وطلب مني أن أتمالك نفسي. كان الملك فيصل يمثل لنا، نحن الأمراء الشبان في ذلك الوقت، شخصية مهيبة قوية، إذ كان قائداً ملهماً استطاع أن يفرض احترام العائلة والدولة على المجتمع الدولي. وترك فقده حزناً عميقاً في نفوسنا.

في ذلك الوقت الحرج والمحنة القاسية، أسدى عمي، الأمير محمد، إلى العائلة معروفاً طوَّق به الأعناق. كان أكبر الأحياء سناً من أبناء الملك عبدالعزيز، ومن حقه تولي الحكم لو أراد. لكنه كان رجلاً متواضعاً، لم يطمح إلى حُكم أو مُلكٍ، فقد سبق أن تنازل عن ولاية العهد طواعية لشقيقه الذي يصغره سناً الأمير خالد. وقد أَرْسَى بذلك سابقة مهمة مؤداها أن اختيار الملك يُبنى على السن والكفاءة معاً.

وكما تقضي التقاليد، اجتمعت العائلة بعد ساعة أو ساعتين من وفاة الملك فيصل لمبايعة الملك خالد، الذي تعهد أن يحكم بهدْي القرآن والسنة. كنت أقف في صف طويل أنتظر دوري لمبايعة الملك، حين رأيت الأمير محمداً يتقدم ويمسك يد الرجل الواقف أول الصف ويقول له: «أريدك أن تبايع أيضاً الأمير فهداً ولياً للعهد».

كان الأمير فهد، النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء في ذلك الوقت، وسيصبح تلقائياً ولياً للعهد. وكان إزاء المأساة التي حلت بالعائلة بعد وفاة الملك فيصل، يرغب في تأجيل تعيينه رسمياً. وقال معترضاً: «إن الوقت ليس مناسباً لذلك». لكنّ الأمير محمداً أصرَّ على موقفه قائلاً: «كلاً . . هذا هو الوقت المناسب». وبتعيين الأمير فهد ولياً للعهد، يكون الأمير محمد قد تخطى اثنين

من إخوته هما: الأمير ناصر والأمير سعد. وكانا أكبر سناً من الأمير فهد وأصغر من الملك خالد. فرض الأمير محمد اختياره على العائلة بصفته كبيرها، وتفادى بذلك أية خلافات قد تظهر في المستقبل. كما أرْسَى تقليداً جديداً بطلبه البَيْعة لولي العهد. فأصبح تقليداً رسمياً أن يُبَايَع الملك وولي العهد في الوقت نفسه. والذي لا شك فيه أن الموقف الذي اتخذه الأمير محمد، لكي يحقق انتقال السلطة في صورة سلسة، هو موقف عظيم يجب أن يذكر في حقه بالشكر والعرفان.

كان عقد السبعينات في المملكة هو عقد الإثارة والقلق، إثارة مردُّها إلى تلك القفزات المتتالية في أسعار النفط عامي ١٩٧٣ و١٩٧٩. قفزات نقلتنا إلى مصافٍ أغنى الدول. ولا يحتاج المرء إلى العودة بذاكرته إلى الوراء كثيراً، ففي الخمسينات، عندما كنت طفلاً كنّا فقراء، وفجأة أصبح في مقدورنا أن نقتني أي شيء في العالم. أصبحت أحلامنا في التقدم والازدهار أمراً ممكناً. أقمنا في فترة قصيرة شبكات من الطرق الحديثة وأنظمة الهاتف المتقدمة. أنشأنا المطارات في كل ركن من أركان بلادنا المترامية الأطراف. امتلكنا أفخم السيارات وأقمنا أحدث المستشفيات والفنادق والجامعات. صممنا المباني العامة التي تبهر النظر على يد أشهر المعماريين في العالم. ارتفع دخان المصانع بكل أنواعها حول ميناءي الجبيل على الخليج، وينبع على البحر الأحمر، اللذين صُمِّما وفق أحدث الطرز العالمية. فضلاً عن الكثير من المرافق التي انتشرت في كل مكان. تحول مستوى المعيشة في بلدنا، الذي كان متقشفاً في الأربعينات ومتواضعاً في الخمسينات، ومريحاً في الستينات، إلى مستوى من الثراء والرفاهية يتحدث عن نفسه ولا تكاد تخطئه العين.

كان علينا، في الوقت نفسه، أن ننفق الأموال الطائلة من أجل تقوية دفاعاتنا، نظراً إلى التغيرات الجذرية التي تأثرت بها كل جوانب حياتنا. حدثت تلك التغيرات في حقبة تسودها الاضطرابات والقلق والتوجس. ففي بلدنا، كان فقدان الملك فيصل صدمة قاسية، إذ فقدنا بين عشية وضحاها قائداً سديد الرأي كنّا نعوِّل عليه كثيراً. وفي المنطقة العربية كان اتجاه مصر نحو سلام منفرد مع إسرائيل سبباً في نشأة الصراعات داخل الصف العربي، مما جعل التوتر يخيّم في سماء الأمة العربية. ولم يقتنع بمبادرة السادات، في ذلك الوقت، إلاّ العدد القليل من أبناء المنطقة. لكن الأيام أثبتت، بعد مرور ١٥ عاماً، أن السادات كان مُحِقّاً. فقد تجددت جهود السلام وأخذت تؤتي ثمارها، وإن كان الرئيس التونسي

الحبيب بورقيبة قد سبق السادات بعقد من الزمان في دعوته إلى السلام مع إسرائيل. كان الرئيس التونسي يحضُّ العرب على قبول ما تقدمه إسرائيل، ثم ممارسة الضغوط بعد ذلك للحصول على المزيد من التنازلات عندما تسنح الفرصة لذلك، كما فعل الصهاينة من قبل. لكن نداءه لم يجد لدى العرب آذاناً صاغية. واستمر الصراع العربي ـ الإسرائيلي المرير يزداد عنفاً وشراسة، تتخلله الحروب الطاحنة بين الحين والآخر.

بلغ التوتر في المنطقة مداه، في السبعينات، عندما جاء تكتل ليكود اليميني، بزعامة مناحيم بيجن Menachem Begin، إلى سدّة الحكم في إسرائيل. والليكود تكتل متشدد لا يتورَّع عن العدوان، ويسعى إلى إقامة إسرائيل الكبرى. لم يكن في وسعنا أن نغض الطرف عن نُذُر الحرب قرب حدودنا الشمالية الغربية. وكان سقوط الشاه وقيام الجمهورية الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩، صدمة عنيفة أخرى جعلت الاضطراب يسود منطقة الخليج كلها. وزادت مخاوفنا على أمن المملكة. ولا يفوتني أن أذكر هنا أنه لم تكن ثمة مخاوف من إيران كدولة إسلامية، لكن التوجهات السياسية المتطرفة ومحاولات النظام الإيراني تصدير الثورة، كانت هي مبعث القلق.

وإن كنت، بحكم عملي العسكري، لم أدخل معترك السياسة، إلاّ أن وجودي في قيادة الدفاع الجوي، مع مسؤولياتي المتزايدة عن تأمين الأسلحة الجديدة، جعلاني أفكر دوماً في العدد المطرد من المدن الرئيسية والمصانع والمرافق التي تنبغي حمايتها من أي عدوان جوي محتمل. فلم يكن مستبعداً أن تخترق طائرات معادية مجالنا الجوي بين لحظة وأخرى في هذا الجو المتوتر الذي يسود المنطقة.

كان شغلي الشاغل بناء نظام متكامل للدفاع الجوي يغطي مساحة المملكة بكاملها، وكان ذلك عملاً لا يكاد ينتهي. فالحاجة كانت ماسّة إلى وحدات جديدة، للدفاع عمّا يستجد من أهداف حيوية كثيرة. وانحصر الأمر في وضع نظام من الأولويات، إلاّ أن تلك الأولويات لم تكن ثابتة، فالأهداف التي يحتمل تعرُّضها لهجوم جوي كثيرة تشمل العاصمة والمدن الرئيسية الأخرى والمنشآت البترولية والمصافي ومحطات التحلية ومقر قيادة القوات المسلحة والقواعد الجوية والموانئ البحرية والصناعات الجديدة على الساحلين الشرقي والغربي. كان عليَّ أن أحدد الأهداف الحيوية ثم أصنفها في ضوء احتمال تعرُّضها للهجوم. وكان

هذا العمل يتطلب تخطيطاً وتنسيقاً وإدارة للموارد المتاحة. ويتطلب، فوق ذلك كله، تدريباً مكثفاً شاملاً على مختلف المستويات. ولَمّا كان هناك نقص شديد في الأيدي المدرَّبة، فقد اعتبرت التدريب أهم من العتاد الذي نحصل عليه. ومن هنا، كانت ضرورة التوسع المستمر في مدرسة الدفاع الجوي، التي أنشأتها شركة ريثيون في جدّة عام ١٩٦٢، إضافة إلى إرسال مئات من الشباب للتدرب في الخارج من أفراد وفنيين ومشغلين وإداريين ومهندسين وباحثين. فالتقدم في هذا المجال لا حدود له، وكنّا على دراية تامة بأن الحرب الإلكترونية تتقدم يوماً بعد يوم. ويبدو ذلك الأمر جلياً بالنظر إلى التقدم في الأجهزة الإلكترونية، التي لا يكاد يخلو منها بيت في هذه الأيام.

فَرَضتْ المساحة الشاسعة للمملكة، الحاجة إلى أنظمة متداخلة متكاملة للدفاع الجوي، أنظمة بعيدة المدى وأخرى متوسطة المدى وثالثة قصيرة المدى، إضافة إلى الدفاع المحلي. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ الدفاع الجوي لا يضمن الحماية الكاملة، إذ لا يمكن تأمين عدد كافٍ من الأنظمة يحقق الأمان التام. ألم ينجح مهربو المخدرات بطائراتهم الصغيرة في عبور الحدود المكسيكية ـ الأمريكية دون أن تكتشف أمرهم أجهزة الدفاع الجوي؟ ألم ينجح شاب ألماني، قبل بضع سنوات، في الوصول بطائرة صغيرة حتى قلب موسكو حيث هبط في الميدان الأحمر، جاعلاً من الدفاعات الجوية السوفيتية مهزلة مضحكة أدت إلى إقالة قائدها؟

قبل التحاقي بالدفاع الجوي، كانت لدينا مدافع مضادة للطائرات من عيار ٤٠ مم تُشغَّل يدوياً، وهي من أولى أنظمة المدفعية التي حصلت عليها قواتنا، ولا تزال تعمل حتى الآن. أضفنا بعد ذلك مدافع من أحدث الأنواع، بموجب عقد تفاوضَ صالح المحيا في شأنه منذ البداية، وهي مدافع أورليكون Oerlikon القصيرة المدى من عيار ٣٥ مم، التي تشتبك مع أهداف تحلق على ارتفاعات منخفضة. وتابعت العقد لاحقاً في محاولة لإخضاع كل عقود الدفاع الجوي لمعايير موحدة.

إن أهمية المدفعية المضادة للطائرات في معركة الدفاع الجوي، لا تقل عن أهمية الصواريخ. فعلى الرغم من أن قذيفة المدفع أسرع من الصاروخ، إلاّ أنها تختلف عنه من حيث المدى، فأقصى مدى لقذيفة المدفع هو ١٠ ـ ١١ كم، أما مدى الصاروخ فيزيد على ذلك بخمسة أمثال. لكنّ دور المدفعية المضادة

للطائرات يبرز عندما يخترق العدو الحدود ويبدأ التحليق الفعلي فوق الأهداف الحيوية. وربما لا يكون أمامك من خيار سوى استخدام المدفعية لدَرْء الخطر إذا شوَّش العدو على أنظمة الصواريخ باستخدام وسائل الحرب الإلكترونية، كما حدث للصواريخ العراقية في حرب الخليج. ولا يلزمك، في هذه الحالة، استخدام الرادار لإطلاق قذائف المدفعية، إذ يمكن استخدام العين المجردة، كما فعل العراقيون حين كانت مدافعهم التي نَصَبوها فوق المباني العالية تصيب طائرات التحالف. وكان معظم خسائر قوات التحالف في الطائرات بفعل المدفعية العراقية.

انتقلنا في مرحلة السبعينات، كما ذكرت، من صواريخ هوك الأساسي، وهو سلاح متوسط المدى، إلى صواريخ هوك المطوَّر، ثم انتقلنا في الثمانينات إلى نظام صواريخ هوك الثلاثي، نظراً إلى كثرة الأهداف المطلوب حمايتها. فحصلنا على ست سرايا منها، تتكون كل سرية من ثلاثة فصائل ضرب (Fire Units) ومجموعة من الرادارات ومركز قيادة سرية ومركز تنسيق المعلومات. وللمحافظة على الكفاءة القتالية لهذه السرايا، بعد نشرها، كان لا بد من تنفيذ الصيانة الدورية والسنوية في أوقاتها المحددة والتدريب الشاق المتواصل لمنسوبيها، شأنها في ذلك شأن جميع وحدات الدفاع الجوي. وكنت أصرُّ على أن تتحرك السرايا بكامل معداتها من مواقعها إلى ميدان الرماية للتدريب على إطلاق الصواريخ. وكنت أول من قرر الرماية الليلية للوحدات مع تبديل المواقع، الأمر الذي مكنني من إذكاء روح التنافس بين الوحدات وتحسين مستويات أدائها.

تخضع كل الأسلحة، التي نحصل عليها، للاختبار في شهر أغسطس للتثبت من صلاحيتها للعمل في جو المملكة، إذ تصل درجات الحرارة في هذا الشهر أعلى معدل لها. وقد أرسيتُ تقليداً يقضي بإخضاع كل مشروع جديد للتعاقد على شراء السلاح لمراجعة نصف سنوية تشمل التصنيع والصلاحية الفنية والتمويل والتدريب. وكانت تلك المراجعات التي تتم في المملكة وفي مقر الشركة المورِّدة بالتناوب، تسهم في حل ما يقرب من ٩٠٪ من المشاكل التي كانت تواجهنا. كما تعطي كبار المسؤولين من الجانبين ـ المملكة والشركة ـ فرصة العمل على معالجة مشاكل التأخير في التنفيذ وقطع الغيار والتدريب.

علمتني خبرة الانتقال من نظام هوك الأساسي إلى نظام هوك المطوَّر، بكل ما انطوت عليه من مشاق، أن بعض المشاريع قد تستغرق سنوات قبل أن تؤتي

ثمارها. كنت أتولى، بصفتي مديراً لقسم تخطيط ومشاريع الدفاع الجوي، اختيار الأنظمة الملائمة، وأعمل جاهداً على إقناع اللجان المختلفة والمستشارين الفنيين والقيادات العليا في القوات المسلحة بأهمية تلك الأنظمة. كان هدفي إنشاء شبكة للدفاع الجوي على درجة عالية من الكفاءة، مع تكاملها مع أنظمة القوات الجوية. كان ذلك هدفاً نذرت له جهدي لسنوات طويلة.

كنت أعكف على الدراسة والتحليل والمشاورة قبل أن أُقْدِم على التفاوض مع شركة أجنبية. كنت أبذل قصارى جهدي لاختيار أفضل الكفاءات للعمل معي، وأضع الرجل المناسب في الموقع المناسب. كنت أريد للدفاع الجوي أن يحظى بأفضل العناصر من بين الضباط العاملين الذين يُختارون على أساس الكفاءة والخبرة، ولا شيء غير ذلك. كنت أعرف أنني رئيس صارم يتوقع من مرؤوسيه الكثير، ومن ثَم فعليه أن يكون مثالاً يُحتذى. كنت أعود إلى بيتي محملاً بحقائب مكدسة بالأوراق التي لم يتسع وقت العمل لإنهائها. كنت آخذ نفسي بالشدة، فأُصِبْتُ بآلام في الظهر أجبرتني على العمل واقفاً أشهراً عدة. واسترعى انتباهي أن بعض الزملاء ممن كانوا يعملون معي قد عانوا مشاكل صحية بعينها. فعبدالله جستنيه أُصيب بقرحة في المعدة استدعت علاجه في أحد مستشفيات جدّة، وزميل آخر، هو الرائد محمد عيد القرافي، وكان ساعدي الأيمن في مفاوضاتي مع الفرنسيين، تعرض لأزمة قلبية. كان مرد ذلك، بلا ريب، إلى ضغوط العمل.

تبلغ مساحة المملكة ما يزيد على ٢,٢٥ مليون كيلومتر مربع، مساحةٌ شاسعة على شكل مستطيل طوله ١٧٠٠ كيلومتر وعرضه ١٤٠٠ كيلومتر تقريباً، كأنها قارة كاملة. ونظراً إلى النقص في الطاقة البشرية، فإن الاعتماد على القوات البرية لحماية هذه المساحة الشاسعة، أمر غير معقول. ومن جانب آخر فهناك قيود على حجم قواتنا الجوية. وأعتقد أنَّ ثمة سقفاً أعلى فرضته الولايات المتحدة وأصدقاء إسرائيل داخل أمريكا، على عدد الطائرات المقاتلة التي يُسمح لنا بامتلاكها. ومعنى ذلك أن تظل قدراتنا الدفاعية محدودة دائماً وأضعف من أن تصل إلى مستوى القوة الجوية للدول المجاورة. وسبق أن ذكرت في الفصل السابع، كيف أن قدرة المصريين على استخدام صواريخ سام SAM المتحركة ضد القوات الجوية الإسرائيلية وأثر ذلك في تغيير قواعد الحرب، أمرٌ أعجبني إلى حدٍّ بعيد. وخلصت إلى أن الحل يَكْمن في دفاع جوي قوي يمكن أن يؤمن قدراً معقولاً من الحماية إذا نُشر على أساس إستراتيجي متكامل وزُوِّد بنظام إنذار مبكر.

في عام ١٩٧٤، بدأت أنادي بفصل الدفاع الجوي، وكان لا يزال جزءاً من القوات البرية، واعتباره قوة مستقلة رابعة، أي أن يصبح قوة مستقلة عن القوات البرية والقوات الجوية والقوات البحرية وأن يُعطى الأولوية القصوى، لكنني واجهت معارضة قوية. ولا يفوتني أن أذكر أن مسألة القيادة والسيطرة على قوات الدفاع الجوي هو أمر يشغل فروع القوات المسلحة في كثير من بلدان العالم المختلفة.

ويُعزى الخلاف، في شأن تبعية الدفاع الجوي ضمن التسلسل القيادي للقوات، إلى مدرستين في الرأي. فالمدرسة الغربية، ترى أن اعتراض الطائرات المعادية هو مهمة القوات الجوية، وأنه يجب أن تكون قوات الدفاع الجوي تحت السيطرة العملياتية للقوات الجوية. أما المدرسة الشرقية ـ المعارضة ـ والتي ظهرت في الاتحاد السوفيتي السابق، فترى أن استخدام المصادر والمرافق والوسائل المختلفة كمحطات الإنذار المبكر ومحطات الرادارات الأرضية والطائرات الاعتراضية القصيرة المدى تقع كلها ضمن مهمة قوات الدفاع الجوي، وبالتالي فتجب السيطرة عليها بواسطة قيادة دفاع جوي مستقلة، بدلاً من تركها تحت قيادة القوات الجوية أو القوات البرية. ويعتمد الاختيار بين هاتين المدرستين على الإمكانات المتاحة كأعداد الطائرات والعقائد العسكرية السائدة في القوات المختلفة. وقد اختارت مصر، بفعل تأثّرها بالفكر العسكري السوفيتي، المدرسة الشرقية في ما يتعلق بهذا الموضوع. ولَمّا كنت معجباً باستخدام المصريين لصواريخ أرض ـ جو وبالأداء الرائع لقوات الدفاع الجوي المصرية أثناء عبور قناة السويس في حرب أكتوبر ١٩٧٣، فقد بذلت محاولات لفصل دفاعنا الجوي عن القوات البرية وتعزيزه قوةً مستقلة.

كانت وجهة نظر المعارضين للفصل تستند إلى صغر حجم قوة الدفاع الجوي في ذلك الوقت. وكانوا يرون أن قوة قوامها ٢٠٠ ضابط و١٠٠٠ فرد لا يمكن أن تشكّل قوة مستقلة. وكان للتوسع في منشآت الدفاع الجوي أثره في إضعاف تلك الحجة. كنت مقتنعاً تماماً بفكرتي، وتصديت للدفاع عنها بكل ما أوتيت من قوة. ولم أتوقف عن إثارتها في كل اجتماع ومنتدى سنحت لي الفرصة فيه. ولا شك أنني أثقلت على زملائي لكثرة ما جادلتهم في شأن تلك الفكرة.

بحلول عام ١٩٧٦، أدركت أنني لم أحرز تقدماً يذكر في هذا الصدد، بل أدى إلحاحي إلى عكس ما اشتهيت، فبدلاً من تعزيز فكرتي وكسب مؤيدين لها،

تكتلت الآراء المعارضة ضدها. لذلك، غيرتُ من خطتي وقررت اتباع أسلوب غير مباشر. وبدأت أسعى إلى تحقيق أهدافي على مراحل متدرجة وخطوة بعد خطوة. وقد آتى هذا الجهد ثماره حين صادقت القيادة العليا عام ١٩٨٣ على فصل الدفاع الجوي عن القوات البرية، وأصبح مرتبطاً برئيس هيئة الأركان العامة، وتم تخصيص موازنة منفصلة له.

لكن ما أسرع ما أدركت أن الدفاع الجوي لن يثبت وجوده قوةً مستقلة، إلاّ إذا تحقق له التكامل الداخلي، وقبل كل شيء اتصالات على درجة عالية من الكفاءة بين أجزائه المختلفة. كان قد تحقق عند هذه المرحلة، من طريق برامج التسلح المختلفة، تأمين قدر كبير من منظومات الأسلحة ونشرها في شكل مجموعات للدفاع الجوي في أنحاء البلاد المختلفة، وفي المناطق الحساسة كالمنطقة الشرقية. لكن أنظمة التسليح تلك لم تكن قادرة على الاتصال بعضها ببعض. ولم يكن في وسع القائد في الرياض أن يحصل على صورة متكاملة للمجال الجوي للبلاد في كل وقت من الأوقات. كنّا نحتاج إلى نظام للقيادة والسيطرة والاتصالات، يُرْمَزُ إليه بـ C^3، يربط رادارات الإنذار المبكر والمدفعية والصواريخ بمركز سيطرة رئيسي.

اقتنعت السلطات بالسماح لي ببدء المفاوضات مع شركة ليتون Litton ، وهي شركة أمريكية كبيرة تخصصت في إنتاج مثل هذا النظام (C^3). وتم توقيع عقد معها قيمته ١,٦ مليار من الدولارات في ٨ أبريل عام ١٩٧٩، بعد أكثر من عامين من الجهود المضنية. ونظراً إلى ضخامة المشروع وتعقّده التقني تحدد يوم ٧ فبراير عام ١٩٨٥ موعداً لإتمامه وتسليمه صالحاً من وجهة النظر العملياتية، أي بعد فترة زمنية قدرها ٧٠ شهراً أو ست سنوات إلاّ شهرين من توقيع العقد. شعرت بسعادة غامرة يوم توقيع العقد، كان إنجازاً باهراً. لكني لم أكن أدري وأنا أعيش تلك الفرحة الغامرة، أن إتمام هذا المشروع سيستغرق ١٤ عاماً وأنه سيكلفني عناءً كثيراً!

تفاوضت في شأن الخطوط العريضة للعقد مع رئيس شركة ليتون، وهو رجل متميز في إدارته يُدْعى تشارلز بيتس ثورنتون Charles Bates Thornton، من ولاية تكساس، واشتهر باسم تكس ثورنتون. كان متقدماً في السن عندما قابلته. وكان

قد أبلى بلاءً حسناً في القوات الجوية الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية، وعمل بعد ذلك في شركة فورد Ford لتصنيع السيارات، قبل أن يصبح العقل المدبر في إنشاء شركة ليتون وإدارتها. وهي مؤسسة يبلغ رأس مالها خمسة مليارات من الدولارات. كان مديراً قديراً يفهم لغة الأرقام فهماً جيداً. ولعلنا لم نكن لنصادف أية متاعب مع شركة ليتون لو أنه ظل على قيد الحياة. فقد وافاه الأجل المحتوم متأثراً بمرض السرطان بعد توقيع العقد بوقت قصير. وحَلّ فْرِيدْ أوجرين Fred O'Green محله رئيساً للشركة، وهو شاب ريفي خلوق، من ولاية أيوا Iowa. وسارت علاقتنا به على ما يرام، على الأقل في بداية الأمر.

وأرى لزاماً عليّ أن أسرد، ولو في عُجالة سريعة، بعض تفاصيل علاقتنا بشركة ليتون لا لشيء سوى أنها ألقت بظلالها على السنوات الأخيرة من حياتي العسكرية في قوات الدفاع الجوي قبل حرب الخليج، وأثّرت بشكل مباشر في اتجاهنا نحو التعاقدات الأجنبية في مجال الدفاع بوجه عام.

ومن حق القارئ غير المتخصص أن أقدم إليه عرضاً مبسطاً عن الإمكانات التي يتيحها نظام القيادة والسيطرة والاتصالات الذي تعهدت ليتون بتقديمه. كان النظام مصمَّماً لربط جميع عناصر الدفاع الجوي في أنحاء المملكة بمركز سيطرة رئيسي. فهو عبارة عن شبكة اتصالات تغطي المملكة بكاملها. فترتبط، من جهة، بالرادارات البعيدة المدى القادرة على نقل صورة للمجال الجوي، كما ترتبط، من الجهة الأخرى، بأجهزة القيادة والسيطرة التي تُعرف بـ TSQ73. تتميز هذه الأجهزة بالقدرة على تحليل الصورة الجوية، وتحديد الخطر القادم، واختيار السلاح المناسب لتدمير الأهداف الجوية المعادية. وهذا يعني أن نظام C^3 الذي يعمل من طريق التكنولوجيا المتقدمة ذات السيطرة الآلية، يستطيع أن يكتشف الأهداف الجوية في الوقت الحقيقي، ويتتبعها ومن ثَم يعطي الأمر إلى سرايا الدفاع الجوي بالاشتباك معها. وكان مركز شبكة الاتصالات مدينةَ الرياض وتغطي تلك الشبكة المملكة بأسرها، من تبوك شمالاً حتى حدود اليمن جنوباً، ومن الظهران شرقاً حتى جدّة غرباً. والهدف من هذا النظام بجملته هو تأمين صورة كاملة للمجال الجوي لقائد الدفاع الجوي، إضافة إلى تمكينه من السيطرة على جميع أنظمة الأسلحة.

وإن كان المحامون واللجان الفنية قد تولوا التفاوض في شأن كل تفاصيل العقد، كبيرها وصغيرها، إلاّ أنني كنت المحور الأساسي في تحديد محتوى

البرنامج وتحمل المسؤولية كاملة. شكّلتُ لجنة من كبار ضباط الدفاع الجوي، تم اختيارها من كل الإدارات والأقسام، حدّدتْ متطلباتنا من الاتصالات ومن وحدات TSQ73، ووضعت جدولاً زمنياً للتدريب الذي يحتاج إليه رجالنا.

إضافة إلى الأنظمة الإلكترونية المعقدة، كان النظام يتطلب قدراً كبيراً من أعمال الإنشاء لإيواء أجهزة القيادة والسيطرة والرادارات ومعدات الاتصالات، حتى تكون قريبة من سرايا صواريخ هوك والأسلحة الأخرى. كنت أتمنى، في بداية الأمر، أن يتمكن المقاولون المحليون من القيام بعمليات البناء، لكن الطبيعة الفنية المعقدة للمشروع جعلت الشركات المحلية عاجزة عن الإقدام على تلك العملية. وعهدت شركة ليتون بالإنشاءات، بموجب عقد فرعي (من الباطن)، إلى مؤسسة فرانكفورت Frankfurt التي يمتلكها فيليپ هولزمان Phillip Holzman، ونتج من ذلك تأخير البرنامج ١٨ شهراً تقريباً.

لم يمضِ وقت طويل حتى أدركنا أن فترة التنفيذ، التي تحددت بسبعين شهراً، كانت مبنية على حسابات مفرطة في التفاؤل. وأضحى من الصعب على الشركة الالتزام بها، إذ واجهت صعوبات فنية جمَّة تتصل بالرادارات ذات المدى البعيد على الساحلين الشرقي والغربي بسبب ارتفاع نسبة الرطوبة في الهواء، والفروق الكبيرة في درجات الحرارة، إضافة إلى الأحوال الجوية المتقلبة. وثمة أمر جعل المهندسين في حيرة من أمرهم، هو ما أطلقوا عليه «البث الشاذ». فعندما تدير جهاز رادار منصوباً على أيٍّ من شواطئ شبه الجزيرة العربية، وخاصة الشواطئ الشرقية، تظهر لك صورة فضائية تمتد حتى الهند، لكنها صورة مشوَّشة يصعب فهمها. كان هذا التشويش يحدث في كل من الظهران وجدّة. واحتاج الأمر إلى إجراء تعديلات أساسية في نظام الرادار. وفى نهاية المطاف، نُصبت أجهزة الرادار بنجاح لتغطي كل المملكة، وتم استخدام محطات تقوية لربط محطات الرادار بالشاشة الكبيرة الموجودة في غرفة العمليات في مركز قيادة قوات الدفاع الجوي في الرياض.

ظهرت مشكلة خطيرة أخرى، فشركة ليتون لم توفر الكميات الكافية من قطع الغيار. وكانت تلك المشكلة، من وجهة نظري، هي السبب الرئيسي في تأخر إتمام المشروع. ففي وقت من الأوقات، بلغ العجز في قطع الغيار ما قيمته ١٠٠ مليون دولار. واستغرق تصحيح هذا الوضع بضع سنوات، وأصبحت مشكلة العجز في قطع الغيار أكثر إلحاحاً، في الوقت الذي ظهرت فيه مشاكل الرادار في

الظهران، وبدأ تدفق بقية المعدات لتركيبها في المباني التي شيدتها شركة فيليب هولزمان.

لم يغب عن تقديري أن شركة ليتون واجهت مشاكل فنية صعبة، لكنني لم أكن راضياً عن أدائها بشكل عام. وأدى ذلك، بطبيعة الحال، إلى تعكير صفو العلاقة بيني وبين فِريدْ أُوجرين. وبعد سلسلة من الاجتماعات المرهقة مرات عدة وسيل متبادل من الخطابات المتحفظة، أُعِيدَ النظر في الجدول الزمني مرات عدة، وتم التفاوض في شأن تعديل بنود العقد الأصلي. واقترحت، بشكل حاسم، سحب روبرت سيتز Robert Seitz، ممثل شركة ليتون في المملكة، بعد أن فقدت الثقة به. وحل محله جلين جربس، وهو مدير كفء لديه إلمام تام بالأمور الفنية، وكان قد ترك شركة ريثيون، في ذلك الوقت، ليعمل نائباً تنفيذياً لشركة ويتيكر Whitaker ثم مستشاراً لها. وهي شركة كانت تتولى إدارة بعض المستشفيات في المملكة.

ولا أريد أن أترك لدى القارئ انطباعاً بأن شركة ليتون لم تستطع أن تؤدي شيئاً بصورة صحيحة. لقد بذلت جهداً مقدراً حين نظمت برنامجاً للتدريب على نظام القيادة والسيطرة في كاليفورنيا California، وأفاد منه مئات الشباب السعوديين، ويُعَد هذا البرنامج حقاً، من أبرز الخدمات التي قدمَتها إلينا تلك الشركة. كان برنامجاً ناجحاً في كل المقاييس. وساعدتني ليتون في حماية الطلاب المتدربين هناك من إغراءات لوس أنجلوس Los Angeles التي لا تقاوم. فاشترت الشركة «موتيل» صغيراً يبعد كثيراً عن المدينة، ولكن الأمر لم يسلم من بعض المخالفات حين تورط عدد من الطلاب المراهقين في مغامرات طائشة. ففي إحدى المرات، هرب اثنان منهم إلى المكسيك حيث احتجزا ثم أعيدا إلى مقرهما. وإلى جانب برامج التدريب، كانت المعدات التي ورّدتها الشركة جيدة حقاً، كما أن المباني التي أقامتها شركة هولزمان لإيواء تلك المعدات مبانٍ متميزة.

ازدادت مشكلة الإدارة في ليتون تعقيداً عندما ظهر الدكتور أوريون هوخ Orion Hoch على الساحة. وهو رجل هادئ عنيد من أصل ألماني، وحاصل على درجة الدكتوراه في الفيزياء. أصبح رئيساً للشركة عام ١٩٨٧ بعد تقاعد فِريدْ أُوجرين. وأذكر أنه زارني في مدينة بيرمنجهام Birmingham في ولاية ألاباما Alabama حين كنت في رفقة والدي الذي كان يخضع لعملية جراحية.

بادرني هوخ قائلاً: «يا سمو الأمير، أريد أن أبدأ معكم صفحة جديدة. فلننسَ المشاكل الماضية». سررت لذلك كل السرور وجرت بيننا مناقشة ودية ووعدته بأنني سأساعد ليتون بكل ما أستطيع. بيد أن المشاكل لم تنتهِ. فقد لاحظت، على وجه الخصوص، أن الدكتور هوخ كان يرغب في أن تكون له ولإدارته السيطرة الكاملة على البرنامج من مقر الشركة في الولايات المتحدة. لكن برنامجاً كالذي كانت ليتون في صدد تنفيذه، لم يكن ليدار من على بعد عشرة آلاف ميلٍ!

طلبت منّا الشركة تسلُّم النظام وقبوله بعد وضع المعدات في أماكنها. لكنني وزملائي في قيادة قوات الدفاع الجوي، رفضنا تَسلُّم الصفقة قبل أن يُجرى عليها اختبار للتحقق من تكامل النظام ومن جاهزيته للعمل بنسبة ١٠٠٪. فقد علمتني التجربة أنه لا يمكن التحقق من كفاءة أي سلاح نحصل عليه، إلا بإجراء الاختبارات الشاملة الدقيقة.

وبعد مناقشات طويلة، تمت الموافقة والتوقيع على تعديل آخر في العقد في أغسطس عام ١٩٨٨، وتم بموجب هذا التعديل تأخير التسليم حتى ٣١ يناير عام ١٩٨٩، على أن تُجري ليتون قبل التسليم اختباراً متكاملاً للنظام يغطي أرجاء المملكة تمهيداً لقبوله. واستقدمنا مستشارين محايدين لمراقبة الاختبار، منهم العميد المتقاعد جوزيف فيمياني Joseph Fimiani، من الجيش الأمريكي وكان يشغل منصب مدير الدفاع الجوي في البنتاجون (يعرف أيضاً في بعض الأوساط أنه الأب الروحي لبرنامج صواريخ باتريوت Patriot، إذ كان مديراً لذلك البرنامج في أيامه الأولى عندما كان يسمى SAM-D).

تطلب ذلك الاختبار، كما توقعت، قدراً كبيراً من الجهد من جانب الشركة وأيضاً من جانب قيادة قوات الدفاع الجوي. كان ممثلو الجانبين موجودين في كل المواقع حين طلبنا من القوات الجوية السعودية أن تقوم بغارات وهمية وغارات مخطَّطة وغارات مفاجئة على النظام ليتأكد لنا أنه يعمل في صورة مرضية.

انتهى الاختبار في ديسمبر عام ١٩٨٨. وكانت عملية تقييم أداء النظام معقدة للغاية، وظنت ليتون أن الأمر قد انتهى وأن النظام اجتاز الاختبار. وعلى الرغم من اتفاقنا على أن أداء النظام فاق توقعاتنا، إلاّ أنه تبين لنا ولمستشارينا بعض التناقضات العملياتية. وكانت المشكلة تكْمن في مجموعة البرامج التطبيقية

(Software). كنت حريصاً كل الحرص، أن يعمل النظام بكفاءة تامة، إذ كنّا في أمَسّ الحاجة إليه في وقت تموج فيه منطقتنا بالاضطرابات. كنت أريد أن أثبت أن قرار شراء نظام (C^3) كان صائباً. لكن إذا كنّا قد انتظرنا كل هذه المدة لنرى النظام وهو يعمل، فلا ضير من الانتظار قليلاً لنراه يعمل في صورة مرضية تماماً. لم أرَ بأساً في ذلك، فما كان لي أن أقبل النظام إلاّ وهو يعمل بكفاءة تامة لا تشوبها شائبة. وقررت ألاّ أعتبر أن ليتون قد وفَّت بالعقد كاملاً إلاّ بعد تصحيح كل التناقضات التي لحظناها.

لم يَرُق رأيي هذا للدكتور هوخ، فبدا شديد الاستياء. واستغرق الأمر أشهراً عدة من المفاوضات الشاقة لإقناع الشركة بإتمام العقد على النحو الذي يرضينا. وبدأ جلين جربس، ممثل ليتون الجديد في المملكة، بحصر كل الأجزاء والقطع الناقصة والتناقضات والأخطاء في أداء النظام وجَمَعَها في ملف ضخم. لكن تصحيح كل تلك الأوضاع لم يتم إلاّ بعد أن عينت شركة ليتون السيد ألتون بران Alton J. Brann، وهو رجل يفيض حيويةً ونشاطاً وفى منتصف الأربعينات من عمره، رئيساً للشركة ومديراً عاماً لعملياتها عام ١٩٩١. وفي تلك الفترة، اندلعت أزمة الخليج وتَسلّمتُ مهام عملي قائداً للقوات المشتركة. وأَوْكَلْتُ قيادة قوات الدفاع الجوي إلى نائبي اللواء ماجد طلحاب العتيبي.

ولأسدل الستار على هذه القصة، يسعدني أن أقول إن ألتون بران كان نسمة هواء عليل في جو خانق مُفْعَم بالغبار. شرع فور تعيينه في تغيير فلسفة الشركة، وقام بتقييم البرنامج، وانتهى إلى أن ليتون ينبغي أن تتولى مسؤولية إتمامه على نفقتها. ويسعدني أن أقول إنّ النظام، وقت كتابة هذه السطور، يعمل بدرجة كفاءة ١٠٠٪.

لقد اتُّهِمْتُ بالتحامل على شركة ليتون! لكنني لا أرى سبباً لذلك، فقد كنت أطالب لبلدي بنظام يعمل بكفاءة تامة مقابل الأموال الطائلة التي أنفقناها. ثم إن حصاد السنين من التجارب مع شركة ريثيون التي تكلّلت بالوصول إلى علاقة متوازنة معها، جعلني أرفض تماماً أن أترك المجال أمام شركة ليتون أو غيرها من الشركات لتستخفَّ بنا. نحن دولة مستقلة ذات سيادة كاملة، ولن ترهبنا شركة أياً كان نفوذها أو كانت حاجتنا إليها.

ولا ريب أن بعض اللوم يقع على عاتقنا نحن. ولعلنا أعطينا ليتون حرية أكثر من المطلوب. ولا أظن أن هذا الخطأ سيتكرر مرة أخرى. لقد علمتنا تجربتنا مع

ليتون أن نتوخى الحيطة والحذر في مفاوضاتنا مع الشركات الأجنبية، فأضفنا إلى كل العقود بنوداً وشروطاً كثيرة تحمي مصالحنا وتضمنها.

آتى برنامج ليتون ثماره بالنسبة إليَّ، إذ تعلمتُ الكثير، واتسعت معارفي بلا حدود، وكل ما أرجوه أن تكون ليتون، بالمثل، تعلمتْ بعض الشيء عن المملكة العربية السعودية وشعبها.

الفصل التاسع

بناءُ القوة الرابعة

مع ازدياد متطلبات عملي صعوبة وازدياد النظُم التي نشتريها تعقيداً وتطوراً، شعرت بحاجتي إلى تحديث معلوماتي وتطوير قدراتي. ففي السنوات العشر الأولى التي أعقبت تخرجي في ساندهيرست، مارست الكثير من التدريب الوظيفي أثناء ممارسة العمل، سواء أكنت مفتشاً أم قائد سرية أم ضابط مشروع صواريخ هوك أم مدير قسم تخطيط ومشاريع الدفاع الجوي. وكانت عمليات التفاوض وإدارة العقود التي توليتها، خير معلم لي. لكن في أواخر السبعينات، شعرت في قرارة نفسي بالرغبة في المزيد من التعليم العسكري النظري. ففي الدفاع الجوي، يقضي المرء معظم وقته محدِّقاً إلى السماء، منصرفاً عن التعمق في التكتيك الذي يتّبعه الآخرون في ميدان المعركة، لا سيما في القوات البرية والقوات البحرية. كانت لديّ رغبة جامحة في توسيع آفاق معرفتي.

كانت أمنيتي، وأنا بعد ضابط شاب برتبة مقدّم لم يتجاوز العقد الثالث من عمره، أن ألتحق بكلية القيادة والأركان العامة للجيش الأمريكي في فورت ليڤنوورث في ولاية كانساس الأمريكية. وكم كنت مسروراً حين وافق الجانبان السعودي والأمريكي على ذلك! فالتحقت بدورة مدتها سنة دراسية واحدة تبدأ في الأول من أغسطس ١٩٧٨، وتنتهي في شهر يونيه ١٩٧٩.

ولمّا شعرت بأنني لست مهيأً بالقدر الكافي لتلك الدورة، قررت القيام بزيارة قصيرة إلى مصر في أوائل صيف عام ١٩٧٨. فمصر كانت ولا تزال موئل الفكر الإستراتيجي في العالم العربي، إذ تزخر مكتباتها بأغنى المراجع العسكرية باللغة العربية. فأمضيت فيها أياماً مثمرة متجولاً في مكتباتها، عاكفاً على القراءة

والتحصيل، ومستمتعاً في أمسياتها بمباريات حامية في لعب «الطاولة» مع أصدقائي المصريين.

ساد التوتر، أواخر عام ١٩٧٧، علاقة مصر بالدول العربية بسبب زيارة الرئيس السادات إلى إسرائيل في شهر نوفمبر من العام نفسه. وعلى الرغم من التقلب الذي كان يسود العلاقات أحياناً بين مصر والمملكة، فقد كنت دوماً أؤمن بأهمية الروابط الوثيقة بينهما. وأقدّر أن مصر، بثروتها البشرية المتميزة وتراثها العسكري الراسخ، هي حليفنا الطبيعي في المنطقة. وقبل سنوات عدة، وفي شهر يناير عام ١٩٧٤ تحديداً، دفعتني دراستي لحرب أكتوبر إلى الرغبة في زيارة خط بارليف، الذي كان يعتبر خط الدفاع الإسرائيلي الأسطوري على طول قناة السويس. وأعتقد أن كثيراً من الناس يوافقني على أن اقتحام المصريين لخط بارليف عام ١٩٧٣ يُعَد أروع الإنجازات العسكرية العربية في تاريخنا الحديث. لذلك توجهتُ إلى مصر لأعرف عنه المزيد.

في أثناء زيارتي لمصر، وفي الثامنة من صباح أحد الأيام، رتب لي ضابط الارتباط السعودي زيارة للواء محمد حسني مبارك، قائد القوات الجوية المصرية، فأمضيت معه نصف ساعة ممتعة. أُخِذت بذكائه وألمعيته، ولم يدُر بخلدي أنه سيصبح نائباً لرئيس الجمهورية، ثم رئيساً لجمهورية مصر العربية بعد اغتيال الرئيس السادات. وفي اليوم نفسه، تفضل ضابط مصري كبير هو اللواء أركان حرب أحمد بدوي، قائد الجيش الثالث الميداني، بمرافقتي لزيارة بقايا التحصينات الإسرائيلية شرقي قناة السويس. وأطلعني على الاستعدادات الدقيقة والجهود الجبارة التي تكلَّلت بالنجاح في عبور القناة. عندئذٍ، أصبحتُ على قناعة تامة أنه لا توجد خطوط دفاعية تستعصي على الاجتياح. فكل التحصينات، مهْما بلغت قوتها، يمكن اختراقها إذا توافرت الإرادة الصلبة والتخطيط السليم. تناولت، بعد ذلك، طعام الغداء مع الجنود المصريين. وكانت تلك أول معرفتي بالقوات المسلحة المصرية. ولشد ما أسفت حينما علمت أن مرافقي اللواء بدوي، الذي تولى منصب وزير الدفاع في مصر في شهر مايو من عام ١٩٨٠، لقي حتفه في حادث تحطم طائرة عمودية في مارس عام ١٩٨١!

لعلّ أفضل وسيلة للتعرف بالقوات المسلحة في أي بلدٍ وفهْم التقاليد والإجراءات والمصطلحات المتداولة بين جنودها، هي الالتحاق بدورات تعليمية بإحدى كلياتها العسكرية. وكما أكسبتني أكاديمية ساندهيرست معرفة السمات الخاصة للجيش البريطاني، فإن كلية القيادة والأركان العامة في فورت ليڤنوورث

علمتني الكثير عن القوات المسلحة الأمريكية. وإن كنت قد التقيت فعلاً من قبل عدداً كبيراً من الضباط الأمريكيين خلال حياتي العسكرية، وعملتُ، لفترة قصيرة، عضواً في فريق تفتيش أمريكي أثناء تدريباتي السابقة على صواريخ هوك في مدرسة الدفاع الجوي للجيش الأمريكي في فورت بلس في ولاية تكساس، إلاّ أنني لم أندمج في بيئة عسكرية أمريكية مثلما فعلت في فورت ليڤنوورث.

ضمّت تلك الدورة ما يقرب من ٩٠٠ ضابط أمريكي، تراوحت أعمارهم بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين، كلهم برتبة رائد وأعلى، وكلهم ممن ينتظرهم مستقبل زاهر. كما ضمت الدورة كذلك ٩٦ ضابطاً من البلدان الحليفة والصديقة للولايات المتحدة، بينهم ما يقرب من ٢٠ ضابطاً عربياً من دول مختلفة، مثل السودان ولبنان والأردن والكويت والإمارات العربية المتحدة ومصر والمغرب وتونس، والمملكة. وربما كنت من أصغر الضباط في الدورة سناً، لكنني لم أكن أكثرهم تأهيلاً في أية حال من الأحوال. كان معظم الضباط غير الأمريكيين في فورت ليڤنوورث قد تخرجوا في كليات الأركان في بلادهم، بل إن بعضاً منهم كانوا معلمين يدرّسون في تلك الكليات. ولكنهم اختاروا أن يصبحوا دارسين مرة أخرى كي يزدادوا علماً ومعرفة. أما أنا فلم يسبق لي الالتحاق بعملٍ تحضيري مماثل يزوِّدني بمعرفة كافية أستعين بها على استيعاب مواد هذه الدورة بسهولة. كانت زيارتي القصيرة تلك إلى مصر هي كل زادي. فقد أتيت مباشرة من قسم تخطيط ومشاريع الدفاع الجوي في الرياض. وسرعان ما أدركت أني إن أردت النجاح فعليّ أن أعمل بجد واجتهاد لكي أحققه. ومع إدراكي أن الطمع في الفوز بالمركز الأول أمرٌ تَحُفُّه مشاق وصعاب، إلاّ أنني في الوقت نفسه كنت أرجو ألاّ أكون الأخير.

مما زاد الأمر صعوبة في فورت ليڤنوورث، أنه إلى جانب عبء الدراسة، كان عليّ إنجاز بعض الأعمال مع شركة ليتون. وكان ذلك العمل يستغرق منّي قرابة الساعتين كل يوم أقضيهما في الاجتماعات والمكالمات الهاتفية والأعمال الورقية. فاللجان الفنية في الرياض أنهت أعمالها، ولم يبقَ سوى بعض الشروط والبنود، والتفاصيل المالية المهمة تنتظر التسوية. ولمّا كنت أتحمل المسؤولية النهائية عن هذا العقد، كان عليّ أن أقوم بمهمة الاتصال بين الخبراء من جهة، والأمير سلطان من جهة أخرى. وفي تلك الآونة، كان الملك خالد يتلقى العلاج الطبي في كليڤلاند Cleveland في ولاية أوهايو Ohio وفي رفقته الأمير سلطان. وكنت أسافر أيام السبت إلى هناك لأرفع إليهما تقريراً عمّا تم إحرازه من تقدم.

وكما أسلفت، تم التوقيع على العقد مع ليتون بعد ذلك ببضعة أشهر، أي في ربيع عام ١٩٧٩.

كان لدورة القيادة والأركان العامة التي التحقت بها وحصلتُ في نهايتها على درجة الماجستير في العلوم العسكرية، دورها في صقل خبرتي العسكرية، وتوسيع آفاقي في التكتيك والإستراتيجية وفي صنع القرار السياسي العسكري، وإدراك الأهمية الشاملة لدراسة التاريخ لفهْم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل، وكذلك في الإدارة التي استغرقت ٢٥٪ من ساعات الدورة. كما علمتني تلك الدورة الكثير عن الكيفية التي ينظر بها العسكريون الأمريكيون إلى العالم. وكانت دراستنا منصبّة على الاتحاد السوفيتي بصفته مصدر الخطر الرئيسي الذي يهدد الولايات المتحدة، فالحرب الباردة كانت على أشدها في ذلك الحين.

مجمل القول، أن تلك السنة كانت شاقة ومثمرة في الوقت نفسه. فسعدت بصداقة عدد كبير من الزملاء، كما حاولت، بكل ما أوتيت من عزم وجهد، أن أقدِّم صورة طيبة عن العرب. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير أبداً. وإذا كانت الفترة التي قضيتها ضابط ميدان في تبوك واحدة من الخبرات المهمة والمؤثرة في حياتي العسكرية، فلا شك أن سنة التحصيل الدراسي والعمل الشاق في فورت ليڤنوورث تندرج ضمن تلك الخبرات أيضاً.

من البرامج التي تضمنتها الدورة برنامج يسمى «تعرف بالعالم من حولك»، يُطلب فيه من كل ضابط أجنبي أن يلقي محاضرة ويقدم عرضاً شاملاً عن بلده. وتمكنت عند تقديم محاضرتي، بفضل وسائل الإيضاح البصرية والسمعية، من اجتذاب جمهور غفير قَدِمَ بعضه من مدينة كانساس نفسها. ولعل ما أدى إلى زيادة عدد الحاضرين هو رغبتهم في مشاهدة أمير يمثِّل بلده ويتحدث عنها. وحققت المحاضرة نجاحاً كبيراً، حتى إنه طُلب إليّ إلقاؤها مرة أخرى في قاعة تتسع لعدد أكبر من الجمهور.

قبل موعد إعادة المحاضرة بيوم واحد، استدعاني اللواء آرثر Arthur، قائد الكلية، إلى مكتبه وأخبرني، وهو متجهّم الوجه، أنه تلقى تقريراً يفيد باحتمال تعرضي لاعتداء أثناء المحاضرة. لم يذكر شيئاً عن مصدر المعلومات أو عن العدو المرتقَب. لكنه أخبرني أنه أوعز إلى الشرطة السريّة أن تتولى أمر حمايتي، فيراقب رجلان منها الجمهور من وراء الستار أثناء إلقائي المحاضرة. وطلب إليّ ألاّ أجلس وحيداً قبل المحاضرة أو بعدها، وألاّ أكُفّ عن الحركة خلال تقديمي المحاضرة حتى لا أصبح هدفاً ثابتاً.

وللمرة الأولى في حياتي شعرت بأنني شخصية مهمة حقاً.

لم تكن مثل تلك الظروف مثالية للتحدث إلى جمهور في محاضرة عامة، لكنني بذلتُ قصارى جهدي للمحافظة على رباطة جأشي. وانتهت المحاضرة بسلام، على الرغم من أني، تحت ضغط المناسبة نفسها، نسيت التعليمات بألاّ أَكُفّ عن الحركة، فكنت أقف ثابتاً في مكاني مخالفاً بذلك التعليمات التي صدرت إليّ من قبل.

كان في فورت ليڤنوورث كنيسة وكنيس، ولم يكن فيها مسجد للمسلمين الذين يبلغ عددهم ثلاثين أو أربعين مسلماً، بينهم أُسَر الضباط. أَثَرْتُ الأمر مع قائد الكلية، وقلت له إنني مستعد لترتيب هذا الموضوع ولو تطلب الأمر بناء مسجد في القاعدة على نفقتي الخاصة. ولَمّا كان الدستور الأمريكي يكفل حرية العبادة للمواطنين، فلم نتوقع أن يصدر من المسؤولين اعتراض على ذلك. ووعدني قائد الكلية بأن يحاول الحصول على موافقة السلطات العليا. لكنه أبلغني، قبيل انتهاء الدورة، أنه أخفَق في الحصول على تلك الموافقة. واقترح تخصيص غرفة داخل الكلية نؤدي فيها الصلاة. لكننا افترقنا كل في سبيله قبل أن نتمكن من أداء الصلاة جماعةً بالفعل. ومع ذلك، لم أستسلم إلى اليأس، بل ما زلت آمل أن أتلقى دعوة من السلطات في فورت ليڤنوورث في يوم من الأيام لبناء مسجد فيها.

أثارت فورت ليڤنوورث في نفسي الرغبة في الدراسة والتحصيل. وكنت أدرك تماماً أنني لو عدت إلى مكتبي بقسم تخطيط ومشاريع الدفاع الجوي في الرياض، فسوف أغرق في دوامته مجدداً، ولن أخرج منها للعودة إلى الدراسة قبل مرور سنوات عدة. لذلك، طلبت من رئيس هيئة الأركان العامة، أثناء زيارة قصيرة قضيتها في المملكة خلال العطلة الصيفية، أن يسمح لي بالالتحاق بكلية الحرب الجوية في ماكسويل Maxwell في ولاية ألاباما. وكنت أعرف تمام المعرفة أني إذا أردت التعمق في مجال الدفاع الجوي، فلا بد من دراسة المزيد عن الموضوعات التكتيكية والإستراتيجية لفروع القوات المسلحة الأخرى، خاصة القوات الجوية. وحالفني الحظ مرة أخرى، إذ كنت واحداً من ضابطين في الدفاع الجوي السعودي يَرْقَيَانِ إلى المستوى العلمي المطلوب لحضور تلك الدورة. وهكذا، تمت الموافقة على قبول طلبينا للالتحاق بكلية الحرب. وسارت الأمور على ما يرام وكأن الله سبحانه وتعالى - جلت حكمته - قد تولى توجيه خطاي تمهيداً لما هو آتٍ مستقبلاً.

استغرقت الدورة في كلية ماكسويل عشرة أشهر، وتركزت على موضوعات الإستراتيجية الشاملة والإدارة والاقتصاد. وهي موضوعات ثبت لي عظم فائدتها على المدى الطويل، لا سيما إبّان حرب الخليج. كما احتلت المباريات الحربية مكاناً بارزاً في المنهج الدراسي، الأمر الذي أوضح لي مصاعب التوفيق بين مهام القوات الجوية وقوات الدفاع الجوي. ولو كنت أعلم ما يخبئه المستقبل لي من تحديات، لبذلت جهداً أكبر، ولَمَا غفوت طرفة عين خلال بعض المحاضرات.

علمت في الأسبوع الأول من الدورة، أن بعض الضباط المشتركين فيها يزمعون الالتحاق في الوقت نفسه ببرنامج دراسي آخر للحصول على درجة الماجستير في العلوم السياسية. وكانت جامعة أوبورن Auburn تنظم هذا البرنامج مساءً في مبنى ملحق بكلية الحرب الجوية. وفكرت في أن أحذو حذوهم، إلاّ أن أحد المعلمين حذرني من مغبة ذلك، قائلاً إن الضباط الأمريكيين أنفسهم يجدون صعوبة في الالتحاق بالدورة والبرنامج معاً. لكنني لم أستطع مقاومة التحدي، بل زادني ذلك التحذير تصميماً على الالتحاق بالبرنامج. وقلت في نفسي دعني أجرب الأمر أسبوعين أو ثلاثة، فإذا تبين لي أن دراستي العسكرية ستتأثر سلباً به، تخليت عندئذٍ عن الفكرة. ودخلت امتحاناً في مادة «الحكومة الأمريكية»، لكن درجاتي لم تكن مشجعة. ولم أحصل لدى الدكتورة آن بيرمالوف Anne Permaloff، وهي أستاذة متشددة، إلاّ على درجة «مقبول». فأنا لم أعتد الكتابة، لأنني درجت في الدفاع الجوي على إملاء الرسائل والتقارير والمذكرات. وشاءت المصادفات أن أتعرف بأستاذ جامعي متقاعد، كان عقيداً في الاستخبارات العسكرية، فطلبت منه المساعدة بإعطائي دروساً إضافية لتحسين مستوى كتابتي. ولكني، على الرغم من مساعدته لي، كدت أستسلم لليأس وأتخلى عن تلك المحاولة.

وفي تلك الآونة، تلقيت مكالمة هاتفية من أحد أصدقائي في المملكة، وقال لي: «سمعت أنك التحقت ببرنامج لنيل درجة الماجستير؟». وهكذا، أُسقط في يدي، ولم يعد أمامي من خيار سوى الاستمرار في الدراسة حتى النهاية. فلو أقدمتُ الآن على الانسحاب من برنامج الماجستير لذاع الخبر بين الناس، ولن أُطيق أبداً أن يقال إنني تراجعت عن مواصلة الدراسة مهْما كانت صعوبتها.

بهذا العزم الأكيد وذاك الإصرار الشديد، أمضيت قرابة سنة دراسية في ماكسويل، كنت أدرس خلالها في كلية الحرب الجوية نهاراً وفي ملحق جامعة أوبورن ليلاً. ولا أبالغ إن قلت إن تلك السنة هي الوحيدة في حياتي الدراسية

التي كنت أعمل خلالها مدة خمس عشرة إلى سبع عشرة ساعة في اليوم دون انقطاع. لكن جهودي المضنية لم تذهب أدراج الرياح، إذ نجحت في الحصول على كلتا الدرجتين. فحصلت على لقب «خريج متميز» لدفعة عام ١٩٨٠ في كلية الحرب الجوية، وهذا تكريم يُمنح لأول ٢٤٪ من طلاب الدفعة. كما نلت، في الوقت نفسه، درجة الماجستير في العلوم السياسية من جامعة أوبورن.

كان تعطشي إلى المعرفة أعظم من أن يقاوم، حتى إنني لم أدَع الفرصة تفوتني للذهاب إلى كاليفورنيا في خريف عام ١٩٨٠ للالتحاق بدورة أخرى مدتها ثلاثة أشهر في «إدارة الشؤون الدفاعية الدولية» في مدرسة الدراسات العليا للبحرية في مونتري Monterey. وكان من الموضوعات التي عالجَتْها تلك الدورة: الخيار بين أولويات الدفاع، في ظل تخصيص الموارد النادرة والموازنة بين الحاجات والإمكانات في إطار الموازنة العسكرية المحددة. وهذه كلها موضوعات اكتشفت مدى أهميتها وعظم فائدتها بعد ذلك. كما اكتشفت أني كنت أتعلم، في كل الدورات التي التحقت بها، من زملائي الضباط قدر ما أتعلمه من المعلمين. فكل ضابط كان يحاضر في مجال تخصصه في حلقة بحث خاصة. وألقيت، بدوري، عدداً من المحاضرات تناولت فيها قضايا الأمن في الشرق الأوسط.

وخلال السنتين ونصف السنة التي قضيتها في الولايات المتحدة، من ١٩٧٨ حتى ١٩٨١، كنت مواظباً على الاتصال بزملائي في قيادة الدفاع الجوي السعودي، متحدثاً إليهم عبر الهاتف مرات عدة كل أسبوع، للوقوف على مدى تقدم العمل. ووقع اختياري على العقيد صالح الحجاج ليحل محلي في إدارة قسم تخطيط ومشاريع الدفاع الجوي أثناء فترة غيابي. وهو عسكري يمتاز بشخصية قوية ومواهب إدارية. وكنت أنتهز فرصة العُطلات للعودة إلى المملكة لأتابع شخصياً، على الطبيعة، مدى التقدم الذي تم إحرازه. وعدت إلى مكتبي في الرياض في شهر يناير من عام ١٩٨٢، لأتابع مسيرة العقد المتعثرة مع شركة ليتون، وكذلك لسد الثغرات التي حدثت في دفاعاتنا الجوية، كذلك لأستأنف المعركة من أجل إنشاء «القوة الرابعة»، التي كنت أعلق عليها الكثير من الآمال.

استحوذت صواريخ هوك من شركة ريثيون (الأساسي أو المطوَّر أو الثلاثي) على اهتمامي طوال سنوات عدة منذ بداية خدمتي في الدفاع الجوي. وحصلنا

على هذه الصواريخ للمرة الأولى، كما أوضحت من قبل، في الستينات أثناء الحرب الأهلية في اليمن. وهي صواريخ متوسطة المدى، يبلغ مداها ٤٠ كيلومتراً، ساعدت على الدفاع عن مدننا الحدودية.

دفعتنا حرب أخرى نشبت بعد ٢٠ عاماً، هي الحرب العراقية ـ الإيرانية عام ١٩٨٠، إلى اتخاذ خطوة إلى الأمام لتطوير الدفاع الجوي. فبسبب الخطر من احتمال امتداد القتال إلى المنطقة الشرقية من المملكة، قررنا ضرورة امتلاك أسلحة دفاع جوي قصيرة المدى. فحصلنا على صواريخ ستينجر Stinger الأمريكية الصنع، وهي صواريخ قصيرة المدى لا يكاد يتجاوز مداها الأربعة كيلومترات، وقد أثبتت فعاليتها ضد القوات السوفيتية في أفغانستان. ويُعَدّ صاروخ ستينجر سلاحاً من نوع «أطلِقْ وانسَ» fire and forget، يحتاج إطلاقه إلى رجلين فقط، أحدهما يحمل الصاروخ ويطلقه، بينما يظل الآخر على اتصال بمركز العمليات لتحديد الأهداف وتمييز العدو من الصديق.

إضافة إلى صواريخ ستينجر، قررنا في منتصف السبعينات الحصول على سلاح خفيف الوزن سريع الحركة قصير المدى يعمل ضد الأهداف التي تحلّق على ارتفاعات منخفضة، وذلك لإسناد وحداتنا المدرعة والآلية. ووقع اختيارنا على صواريخ كروتال Crotale الفرنسية الصنع. وضمن المنظومة الكاملة للصواريخ الموجهة أرض ـ جو، تُعد صواريخ هوك المتوسطة المدى وصواريخ باتريوت البعيدة المدى، التي حصلنا عليها أثناء أزمة الخليج، من أهم نظُم الدفاع الجوي قاطبة. لكن ما أن اندلعت الحرب بين العراق وإيران حتى أدركنا مدى أهمية صواريخ كروتال في الدفاع عن منشآتنا النفطية، وغيرها من المنشآت الحيوية ضد خطر امتداد الحرب التي كانت تدور رحاها عند رأس الخليج.

ويمكن تركيب صاروخ كروتال، وهو من صنع شركة طومسون Thomson CSF ويبلغ مداه ٩ ـ ١٠ كيلومترات، على هيكل عربة ذات عجلات (مدولبة) أو ذات جنزير (مجنزرة) تُكسِبه خفة الحركة عبر الأراضي المختلفة، كما يمكن نقله جواً بطائرات C-130 أو C-5. وبناء على طلبنا، قامت الحكومة الفرنسية، في بادئ الأمر، بتركيب بعض وحدات الإطلاق في المنطقة الشرقية كإجراء طارئ. وكان المهندسون من الفرنسيين، أما أطقم التشغيل فمن السعوديين. وعندما حاز أداء ذلك السلاح وقدرته على العمل في جميع الأحوال

الجوية إعجاب القيادة العليا السعودية، قررت ضرورة حصولنا على نظام كروتال خاصٍّ بنا. وتم بالفعل تكليفي بإتمام هذه الصفقة.

سافرتُ إلى پاريس للاجتماع إلى آلان جوميز Alain Gomez، المدير التنفيذي لشركة طومسون، والتعرف به عن كثب. وهو رجل عُرف بصِلاته الواسعة وحنكته الإدارية، فقد تخرج في معهد الإدارة الوطني المرموق في فرنسا، كما كان صديقاً شخصياً للرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران François Mitterrand. ويُعَدّ جوميز صنفاً نادراً من الرجال: إذ إنه رجل أعمال اشتراكي. وعندما أُمِّمَت شركة طومسون، وهي المؤسسة الفرنسية الرائدة في ميدان الصناعات الحربية، عينت الحكومة الاشتراكية في فرنسا جوميز رئيساً لها. وجدتُه مفاوضاً عنيداً ولكنه لطيف، شأنه في ذلك شأن كل الفرنسيين بصفة عامة. فالفرنسيون يحترمون التزاماتهم وينفذونها بدقة بعد التوقيع على العقد.

وقع اختياري على الرائد محمد القرافي، من سلاح المدرعات، لمساعدتي في تلك المفاوضات. فهو ضابط يتمتع بقدرات فائقة ويتكلم الفرنسية وذو خبرة في التعامل مع الفرنسيين منذ اشتراكه في عقد صفقة الدبابات الخفيفة AMX التي حصلت عليها المملكة قبل عشرة أعوام. فطلبت نقله إلى الدفاع الجوي، وأسندت إليه مشروع صواريخ كروتال. فأحاط معرفة بالمشروع من جميع جوانبه في وقت وجيز، وأصبح ساعدي الأيمن.

لم تكن المفاوضات أمراً يسيراً. فبادئ ذي بدء، لم يَرُقْ للأمريكيين ولا للبريطانيين أن نحصل على أسلحة فرنسية، وحاولوا إقناعنا بشراء أسلحتهم القصيرة المدى. إلاّ أن الصاروخ الأمريكي المعروف باسم شاپارال Chaparral المصمَّم للتصدي للأهداف الجوية ذات السرعات العالية التي تحلِّق على ارتفاعات منخفضة، كان في ذلك الوقت في طور الاستغناء عنه. في حين أن الصاروخ البريطاني راپير Rapier لم يكن يرقى إلى مستوى صاروخ كروتال الفرنسي. ولاحظنا، خلال حرب فوكلاند عام ١٩٨٢، أن البريطانيين أنفسهم لجأوا إلى استعمال صاروخ كروتال بدلاً من راپير، فترك هذا الأمر دعاية سيئة لسلاحهم آنذاك. تقدم الأمريكيون بعرضهم إلى الأمير سلطان مباشرة، محاولين قطع الطريق عليَّ. ولكن الحقيقة الثابتة أن صواريخ كروتال كانت أفضل سلاح قصير المدى في الدفاع الجوي، الأمر الذي جعلني أفضّله على غيره.

كنت أفضّل دائماً العقود الشاملة ذات الاكتفاء الذاتي، وهي العقود التي

تغطي كل شيء في بنودها من المعدات وقطع الغيار والتدريب ونقل التقنية، وما إلى ذلك. قد تستغرق المفاوضات في شأن هذا النوع من العقود وقتاً أطول، لكنها في نهاية المطاف توفر كثيراً من الوقت والجهد والمال. مضت سنوات عدة قبل أن يقبل الفرنسيون، الذين لهم أسلوبهم الخاص في صياغة العقود، التوقيع على عقد موحَّد كانت معظم بنوده وشروطه مستخلَصة من عقودنا مع شركة ريثيون. وواجهتُ معهم المشكلة نفسها التي واجهتُها من قبل في تعاملي مع أورليكون، الشركة السويسرية لصنع المدافع، حين أعدتُ التفاوض معها وأعدتُ أيضاً صياغة عقدها وفق شروط موحَّدة تُسهل علينا أمر الإدارة والرقابة.

تم في نهاية الأمر بعد جهد جهيد توقيع الصفقة مع شركة طومسون، واستبدلنا في الوقت المناسب بصواريخ كروتال ٢٠٠٠، وهي الجيل الأول من تلك الصواريخ التي بدأنا بها، صواريخ كروتال ٤٠٠٠ وهي صواريخ أشد فعالية من سابقتها وذات مدى قصير يتراوح بين ٩ ـ ١٠ كيلومترات، كما تم الاتفاق على زيادة عددها.

بذلت قصارى جهدي خلال تلك المفاوضات الطويلة لأحتفظ بزمام المبادرة. وكما أسلفت، فإني أعتقد أن من أسباب النجاح في المفاوضات أن تؤدي العمل على أعلى مستوى من الأداء وبأسلوب متميز لافت للنظر. فما كنت لأرضى أن يبهر الفرنسيون أعضاء فريقنا المفاوض أو يطغى مظهرهم على مظهرنا. فخلال زياراتي لباريس، كان من دواعي سروري أني كنت دوماً أحظى باستقبال حافل رفيع المستوى. وعلى الرغم من إبرامنا العقد مع الحكومة الفرنسية، إلاّ أنني كنت قادراً دوماً على التعامل مباشرة مع الشركات الفرنسية المعنية.

كُلفتُ بعد ذلك بتولّي رئاسة لجنة للتفاوض في شأن عقد تبلغ قيمته أربعة مليارات من الدولارات مع الفرنسيين لشراء أسلحة أكثر تطوراً للدفاع الجوي. وتُعد هذه الصفقة أكبر صفقة سلاح تعقدها فرنسا في تاريخها. وكانت المملكة قد وافقت، قبل ذلك بسنوات عدة، على المساهمة في تطوير صاروخ شاهين Shahine، وهو نسخة معدلة من صاروخ كروتال. ويعتبر شاهين نظاماً من الصواريخ الذاتية الدفع التي يمكن تركيبها على العربات المدرعة AMX-30 وتندفع بقوة محرك توربيني خاص بها. وتحمل منصة إطلاق صواريخ شاهين ستة صواريخ، ويبلغ مدى الصاروخ ١٠ ـ ١١ كيلومتراً، ويمتاز على منافسيه بأنه

سلاحٍ يستخدم في جميع الأحوال الجوية ومزوَّد بجهاز للرؤية الليلية مما يجعله فعالاً على مدار الساعة. وبوجه عام، كان أداء الفرنسيين جيداً وعلاقتنا بهم ممتازة والأسلحة التي تم توريدها إلينا من الطراز الأول.

لم أكن أسعى، في جميع هذه العقود، إلى شراء أسلحة متطورة فحسب، بل كنت أهتم أيضاً بتحسين مقدرة ضباطي ورفْع مستواهم العلمي. ففي أوائل عام ١٩٨٤، عندما تم الاتفاق على صفقة النوع المعدل من صاروخ شاهين المعروف باسم شاهين ٢، أبلغت الفرنسيين أن توصيتي إلى الأمير سلطان بالموافقة على الصفقة رهن بموافقتهم على تخصيص ٣٠ مقعداً سنوياً للطلَبة السعوديين في الأكاديمية العسكرية الشهيرة سان سير. لم يسبق للفرنسيين أن واجهوا مثل هذا الطلب من قبل، إذ كان أقصى ما يخصصونه للبلدان الصديقة مقعداً أو مقعدين على أكثر تقدير، فضلاً عن أن مثل هذا الطلب يستدعي الحصول على موافقة الرئيس الفرنسي شخصياً. وافق الفرنسيون أخيراً في عام ١٩٨٤ على قبول ١٠٦ من الطلَبة السعوديين على مدى خمسة أعوام، كما وافقوا عام ١٩٨٨ على قبول ١٠٠ طالب آخر. ووقع بعض التداخل بين هذين البرنامجين، لذا تراوح عدد الطلَبة بين ٢٠ و ٢٥ طالباً في السنة الواحدة. وتخرج بالفعل أكثر من ١٠٠ شاب سعودي في سان سير، وأثبتوا جدارتهم حين عملوا مدربين في معهد قوات الدفاع الجوي السعودي، وضباطاً في وحدات صواريخ كروتال أو شاهين، أو ضباط اتصال مع القوات الفرنسية أثناء حرب الخليج. وأتوقع أن يتولى واحد من هؤلاء الضباط الذين تلقّوا تدريبهم في فرنسا، منصب قائد قوات الدفاع الجوي في المستقبل.

في سان سير، لم أرتضِ لأبناء بلدي أن يُخدعوا بدراسة برنامج مبسط يُعد للطلاب الأجانب، بل أردت لهم أن يعامَلوا على قدم المساواة مع الطلاب الفرنسيين. وهذا يفرض عليهم أن يكونوا على استعداد تام لهذا التحدي. وتم الاتفاق أن يُمضي طلابنا ثلاث سنوات تحضيرية في فرنسا يدرسون خلالها اللغة الفرنسية في السنة الأولى، والرياضيات المتقدمة في السنتين التاليتين، قبل الشروع في دراستهم مع زملائهم الفرنسيين في سان سير لمدة سنتين. ووقع اختيارنا على الطلاب الذين أنهوا دراستهم الثانوية، وحصلوا على نسبة ٨٠٪ فأعلى. وأُخضعوا لعملية اختيار من قبل لجنة خاصة، ولاختبار تحريري وفحص طبي دقيق. وأُجريت مقابلة شخصية لأولئك الذين اجتازوا عمليات الفرز هذه قبل التحاقهم بدورة تدريبية شاقة في معهد قوات الدفاع الجوي. وانصب التركيز في تلك

الدورة على: الرياضيات وقراءة الخرائط والاستخبارات ورماية الأسلحة الصغيرة، والتدريبات العسكرية بشكل عام. هذا، بالإضافة إلى تمارين اللياقة البدنية والجري مسافات طويلة والسباحة وما إلى ذلك. وكان في تقديرنا أنه لا يوجد برنامج دراسي في سان سير يتطلب لياقة بدنية أعلى من ذلك. ولم يخفِق في اجتياز الدورة في البرنامجين الأولين سوى طالبين من مجموع الطلاب الذين ذهبوا إلى فرنسا وعددهم ٢٠٦ طلاب.

وحتى إذا لم يخدم الضباط السعوديون خريجو سان سير سوى سنوات معدودة في قواتنا المسلحة، إلاّ أنهم يشكلون ثروة بشرية قيّمة للبلاد، فخبرتهم ستزداد وتُصقل ولسوف تستفيد منهم الأجيال القادمة. لقد شعرت بالفخر والاعتزاز حقاً حين دُعيت مرة إلى حفلة التخرج في سان سير وشاهدت عدداً كبيراً من الضباط السعوديين يشاركون في العرض وهم في هيئة أنيقة ومظهر رائع، ويتكلمون الفرنسية بطلاقة.

وأذكر أنني واجهت قدراً كبيراً من المعارضة لهذا البرنامج من بعض الزملاء في القوات المسلحة. وسُئِلت غير مرة: «لِمَ نرسل شبابنا إلى الخارج وعندنا كلياتنا العسكرية؟». لكنني أؤمن إيماناً راسخاً أن لا شيء يمكن أن يفيد ضباطنا أكثر من إعطائهم فرصة لاكتساب الخبرة الدولية، فتتسع مداركهم ويتعرفون بالمعايير والمنجزات وأساليب العمل المتبعة في البلدان الأخرى. إذ إن الولايات المتحدة نفسها ترسل ضباطها لحضور دورات تدريبية في الكليات الأجنبية. وأعلم أن هناك مقعداً أو مقعدين مُخصَّصان للضباط الفرنسيين في كلية القادة والأركان العامة المصرية. ولو كان الأمر في يدي لأرسلت طلابنا إلى وست بوينت في الولايات المتحدة، وساندهيرست في بريطانيا، وإلى سان سير أيضاً، فهذه هي الطريقة المُثلى للتعرف عن كثب بالجيوش والأمم الأخرى.

اتخذت الخطوة الحقيقية الأولى نحو جعل الدفاع الجوي «القوة الرابعة»، في عام ١٩٨٢، بعد عودتي من الولايات المتحدة بوقت قصير. وتمت الموافقة حينذاك على تخصيص موازنة منفصلة لنا (أي منفصلة عن موازنة القوات البرية التي كنّا حتى ذلك الحين جزءاً منها) وأن نرتبط مباشرة برئيس هيئة الأركان العامة.

قلت لهم: «لا تطلقوا علينا اسم «قوة» الآن، بل امنحونا فترة سنتين تجريبيتين لنعمل كهيئة مستقلة. أعطونا وقتاً للممارسة والتجريب، فإذا لم نثبت نجاحنا، فلا ضير من أن تلحقونا مرة أخرى بالقوات البرية أو بالقوات الجوية».

وخلال عامي ١٩٨٢ ـ ١٩٨٣ بذلت قصارى جهدي لإنشاء الأجهزة التي تحتاج إليها القوة الرابعة وأهمها، إدارة مالية برئاسة علي إبراهيم الحديثي، وهو من أفضل الرجال في المملكة في هذا المجال ولا يزال يشغل هذا المنصب حتى الآن. وقد استحدث نظاماً للموازنة أثبت فعاليته وحدا بالآخرين على اقتباسه، حتى إن وزارة المالية نفسها بعثت بكتاب إلى القوات الأخرى توصي فيه بالأخذ بهذا النظام. ولا يفوتني أن أذكر أن الحديثي هو أول من أدخل نظام دفع رواتب الأفراد بالشيكات بدلاً من دفعها نقداً. وإنني لأعُدّ الحديثي أحد عَمد «القوة الرابعة» لأن التمويل والموازنة كانا أكبر همومنا. أنشأ الإدارة المالية وانتقى عناصرها بنفسه، وأعتقد أنه سيرتقي إلى مناصب أرفع بفضل مواهبه وقدراته.

وقبل أن تنقضي السنتان التجريبيتان، تبيَّن للأمير سلطان والآخرين أن الدفاع الجوي أصبح أفضل فروع القوات المسلحة تنظيماً.

وإضافة إلى عملي مديراً لقسم تخطيط ومشاريع الدفاع الجوي، تم تعييني في عام ١٩٨٣ مساعداً لقائد الدفاع الجوي، اللواء الركن منير عبدالرحمن العتيبي. وتم التعاون بيننا بقدر كبير من التفاهم والانسجام، مما عزَّز قدرتي على المضيِّ قُدماً في سعيي لتحويل الدفاع الجوي إلى قوة مستقلة كباقي فروع القوات المسلحة.

وباختصار عُيِّنت في شهر يوليه عام ١٩٨٤ نائباً لقائد الدفاع الجوي، وبعد ذلك بفترة وجيزة تحقق الحلم الذي راودني وشغل تفكيري، وأصبح الدفاع الجوي «قوة رابعة» بمقتضى المرسوم الملكي الصادر بالرقم ٨/٢٠٢٦ تاريخ ٢٠/٢١ رمضان ١٤٠٤هـ. تحقق الحلم بعد عشر سنوات من محاولات الإقناع وحشد الآراء المؤيدة. تحقق بالعمل الشاق الذي لا يهدأ، وبالعزم الذي لا يلين.

وعندما أعود بذاكرتي إلى ذلك الكفاح الطويل، أستطيع القول إن الخلاف الحقيقي لم يكن مع القوات البرية، التي لم تكن لتكترث أكان الدفاع الجوي تابعاً لها أم لا، وإنما كان مع القوات الجوية نفسها بقائدها وكبار ضباطها الذين كانوا متمسكين بمبادئ المدرسة الغربية في الدفاع الجوي، يساندهم في ذلك أعضاء البعثة التدريبية الأمريكية. أرادوا كلهم لوحدات دفاعنا الجوي وأجهزته أن تكون

تحت قيادة القوات الجوية، ومنهم ابن عمتي الأمير فهد بن عبدالله رئيس هيئة عمليات القوات الجوية حينذاك، وهو رجل عزيز على نفسي أُكن له ولأفكاره وذكائه كل احترام وتقدير. خضنا معاً مناقشات جادة حول المفاهيم والمبادئ والعقائد العسكرية المختلفة مما حدا بي على تطوير أفكاري وصقل آرائي، كما زادني تصميماً على الكفاح لإقناع مختلف اللجان بجدوى إنشاء «القوة الرابعة».

ومن النتائج التي تمخضت عن تفضيلي للمدرسة الشرقية على المدرسة الغربية في الدفاع الجوي، أن انطلقت شائعات مفادها أنني معادٍ للأمريكيين. ولا صحة لهذا الأمر أبداً، فلست معادياً أو مؤيداً للأمريكيين، بل لست معادياً أو مؤيداً لأي بلد آخر. إنني أؤيد المملكة فقط، بلدي ووطني. وأعتقد أن كل من يحب المملكة عليه أن يدرك تماماً أن من مصلحتنا إقامة علاقات ودية ووثيقة مع الولايات المتحدة، فتلك العلاقة حيوية لكلا الطرفين. كما أضيف، في الوقت نفسه، أن الصديق القوي خير من الصديق الضعيف، وإنني لأود أن تكون المملكة صديقاً قوياً للولايات المتحدة، لا صديقاً يُستخف به.

حددت في ضوء هذا المبدأ أطر تعاملي مع الشركات والحكومة الأمريكية. ولعل من المفيد أن أتطرق في هذا المقام إلى الميزات النسبية للتعاقد على شراء الأسلحة سواء من الشركات الأمريكية مباشرة أو من طريق الحكومة الأمريكية، من خلال ما يسمى بـ«مبيعات الأسلحة إلى الدول الأجنبية» FMS. فهذا الموضوع ذو أهمية قصوى للمسؤولين عن شراء الأسلحة في القوات المسلحة السعودية. ففي أثناء عملي في الدفاع الجوي، كنت أميل إلى تفضيل العقود المباشرة لأنها تتيح لنا قدراً أكبر من السيطرة عليها. وهذه حقيقة لمستها حتى في تعاملنا مع شركات عملاقة مثل ريثيون وليتون. فإذا حدث خلل في تنفيذ بنود العقد، يمكنك أن تطلب من الشركة استبدال ممثلها الإقليمي، أو تؤخر صرف الدفعات المالية المستحقة حتى تتحقق مطالبك، بل يمكنك أيضاً استدعاء رئيس الشركة لمراجعة خطة تنفيذ المشروع ومدى الالتزام بدقة تنفيذها. ولا تتوافر مثل هذه الميزات في العقود مع الحكومة الأمريكية FMS. ومع ذلك، تبين لي من تجربتي، أن المفاضلة بين ميزات التعاقد المباشر مع الشركات والتعاقد مع الحكومة الأمريكية يتوقف، إلى حدٍ بعيد، على نوع المشتريات نفسها، ومدى حداثتها وتقنيتها في ترسانة المخزون الأمريكي من الأسلحة.

كنت أفضل التعاقد مباشرة مع الحكومة الأمريكية، عند الحصول على

معدات ذات تقنية متقدمة. فالجانب الإيجابي في هذا التعاقد هو ما توفره الحكومة لنا من الحصول على أحدث البيانات الفنية، فضلاً عن مشورتها لتحديد المتطلبات الفنية، وإشرافها على إدارة البرنامج. أما الجوانب السلبية فتكمن في فقداننا السيطرة، إلى حدٍّ ما، على الأمور المالية والإدارية، لأن الحكومة الأمريكية تتوّلى بنفسها أمر إدارة البرنامج، وقبول نظُم الأسلحة والمعدات نيابة عنّا. أما عند التعاقد المباشر مع الشركات الأمريكية، فنحن الذين نحدد نوعية المنتجات الفنية المطلوبة، كما نتولى بأنفسنا المسؤوليات الإدارية والمالية، وقبول الأسلحة والمعدات قبل شحنها إلى المملكة. ولكن في مثل هذه الحالات ربما يتعذر علينا الحصول على المعلومات الفنية، وعلى دعم الحكومة الأمريكية. لذلك، كان من الضروري دراسة كل حالة من حالات التعاقد على حدة، وفي ضوء الميزات التي تتوافر لها. مع العلم أن التوصل إلى الاختيار المناسب من الأسلوبَيْن لم يكن أمراً سهلاً على الدوام. وأود أن أضيف أنني لا أعترض، من ناحية المبدأ، على التعاقد مع الحكومة الأمريكية من خلال نظام **FMS** لشراء أحد نظُم التسليح المتقدمة، فأنا أدرك ميزاتها دون أدنى شك.

تخضع عمليات شراء الأسلحة من الولايات المتحدة أحياناً لمقتضيات تمليها سياستها الداخلية. فأثناء الحصول على الموافقة على مشترياتنا من الأسلحة الأمريكية، شعرت بالاستياء الشديد من التجريح الذي يصدر عن الكونجرس الأمريكي في تحدٍّ واضح للمشاعر. ولم أكن لأستسيغ دفع مبالغ طائلة ثمناً لهذه الأسلحة الأمريكية ثم نواجَه بالتجريح، بل علينا أن نقدم الشكر للولايات المتحدة على هذا الكرم. فمن البديهي، احتراماً لأنفسنا، ألاّ نتعرض لمثل هذه المواقف. والأدهى من ذلك كله، اتهامات الصحف الأمريكية والكونجرس لنا، وهي اتهامات لا أزال أقرأها وأسمعها حتى يومنا هذا، أن الولايات المتحدة تمنحنا الأسلحة والمعدات العسكرية. على حين أن المملكة، خلافاً لإسرائيل، تدفع أموالاً طائلة ثمناً للمعدات الأمريكية وللتدريب أيضاً. وليس سراً أن الموقف الأمريكي المتردد في تلبية طلباتنا الدفاعية، هو الذي دفعنا في عام ١٩٨٥ إلى توقيع عقد ضخم مع بريطانيا هو «عقد اليمامة» للحصول على طائرات تورنيدو Tornado من النوعين الدفاعي والهجومي والكثير من طائرات التدريب.

كانت أسلحة الدفاع الجوي هي الوحيدة، باستثناء صواريخ ستينجر، التي وافق عليها الكونجرس الأمريكي دون أن تتعرض المملكة للتجريح. كنت أوجِّه إلى الشركات والحكومة الأمريكية أسئلة ثلاثة: «هل تخدم هذه الصفقة مصالحكم

الوطنية؟ وهل تحقق الأرباح لشركاتكم؟ وهل تساعد على دعم اقتصادكم الوطني؟ فإن كان الجواب بنعم عن هذه الأسئلة فعليكم، عندئذ، إقناع الكونجرس بذلك». وكنت أرى أن مهمة إقناع الكونجرس تقع على عاتق الشركات والحكومة الأمريكية، وليس على عاتقنا نحن. فما كان يروق لي أبداً إضاعة الوقت والجهد في مفاوضات لا تسفر إلاّ عن رفض الكونجرس لها. واعتذت أيضاً على القول لمحاوريّ من الأمريكيين: «لن نتحدث عن شروط العقد وبنوده، إلاّ بعد أن تحصلوا أنتم على موافقة الكونجرس، فهذا واجبكم».

في الثامن والعشرين من شهر مايو عام ١٩٨٦ الموافق للرابع عشر من رمضان ١٤٠٦، صدر قرار تعييني قائداً لقوات الدفاع الجوي الملكي السعودي.

كان وصولي إلى هذا المنصب هو حصاد سبعة عشر عاماً من العمل الدؤوب. درست في أشهَر الكليات العسكرية وأشدها جدية وصرامة، سواء في بريطانيا أو في الولايات المتحدة. بذلت الجهد كُل الجهد، ولم يجاملني أحد. وفي تعاملنا المضني مع الشركات الأجنبية، ناضلت ومعي كثير من زملائي ضباط الدفاع الجوي أعضاء اللجان المختلفة من أجل ضمان حصول المملكة على أفضل الأسلحة والمعدات، وتدريب السعوديين على تشغيلها. كافحنا معاً كي نجعل الدفاع الجوي قوة منفصلة. والآن، وأنا أواجه أعباء قيادة القوات، أردت أن أكون على مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقي، وأن يدرك الجنود أن الأمير يمكن أن يكون، في الوقت نفسه، جندياً محترفاً.

عقب تسلمي مقاليد القيادة أعدْتُ تنظيم شؤون الضباط، ورفعت توصياتي إلى الأمير سلطان من خلال لجنة الضباط العليا. شملت التوصيات إحالة عدد من الضباط إلى التقاعد وترقية آخرين وإرسال عدد غير قليل إلى أوروبا والولايات المتحدة للحصول على درجات علمية أعلى. حرصت، تحقيقاً للمصلحة العليا، على منع أية جهة خارجية من التدخل في إدارتَيْ شؤون الضباط والأفراد. وأصدرت أوامر مشددة بوجوب التقيد باللوائح والقوانين بكل دقة، وأعلنت أنني لن أتهاون أبداً في شأن التدخل الخارجي في أمور ترقية الضباط والأفراد، أو نقلهم من مكان إلى آخر. فكل التماس للنقل يجب أن يرفع إليّ شخصياً. كنت

أهدف من وراء ذلك إلى جعل الدفاع الجوي كياناً محكَماً مستقلاً بذاته، متحرراً من الضغوط الخارجية تحقيقاً للعدل.

أبديتُ تشدداً بالغاً في أمور الانضباط العسكري، إذ كان على الأفراد مخاطبة رؤسائهم بالطريقة اللائقة. ولم أكن لأسمح مطلقاً بالتكاسل أو سوء المظهر أثناء العروض العسكرية. ولكي أرسي دعائم قوة نشيطة وفاعلة، يتميز ضباطها وأفرادها بالجدية والتفاني في العمل وحسن السيرة والسلوك، أعلنت أن العمل الجيد سيُكافأ والعمل السيئ سيُعاقب، وأن الثواب والعقاب سيطبقان على الجميع دون استثناء. أما المشاكل الشخصية لجنودي، فكنت في شأنها متفهماً ومتسامحاً. ونظراً إلى صغر حجم القوة آنذاك، إذ لم يكن عدد منسوبيها يتجاوز ١٠ آلاف رجل، أتيحت لي فرصة التعرف الشخصي بالكثير منهم. وكنت أحب دوماً زيارتهم في الميدان بخاصة أثناء شهر رمضان. وكنت إذا مرض أحدهم وأُدخل المستشفى، سعيت إلى الاطمئنان على صحته، والاتصال هاتفياً بالطبيب المعالج مستفسراً عن مدى تحسنه وتماثله للشفاء. وإذا أُبلغت بشكوى خلال جولاتي التفقدية كنت آمر بالتحقيق فيها ومعاملة الجميع بالعدل والإنصاف، حتى تحظى حقوق الأفراد بالاهتمام الكافي. وكنت أقول: «أعط كل ذي حق حقه». وكان الأمير سلطان، في ذلك كله، مَثَلي الأعلى، فزياراته المتكررة للوحدات، خاصة في الأعياد والمناسبات، واهتمامه البالغ بأمور منسوبيها، ورعايته الدائمة لمصالحهم كانت تجعل القادة، وأنا منهم، يشعرون بالتقصير.

كنت أحلم منذ عام ١٩٧٤ أن يكون لقوات الدفاع الجوي زيّ خاص بها. والحقيقة أنني أحلم بأن يكون لجميع فروع القوات المسلحة زيّ كامل أنيق. فقد تعلمت في ساندهيرست أن على الضابط المحافظة على هندامه وأناقة مظهره المتمثل في زيّ عسكري نظيف وأنيق، وشعر قصير ومهذب. وينطبق ذلك أيضاً على الأفراد، فالهندام اللائق يترك انطباعاً طيباً لدى الآخرين، كما يزرع الفخر والاعتزاز في نَفْس كل من يرتديه. لذلك أسندتُ مهمة ابتكار الزي الجديد لقوتنا الرابعة إلى كلٍّ من محمد الكيال وعلي الشعيبي. وأشرفت على كل شيء بنفسي بدءاً بالقماش ومروراً بالتصميم والألوان وانتهاءً بالملابس الداخلية والجوارب. كنت أميل إلى اللون الأحمر، وفي إحدى المراحل شاهدت أنموذجاً يتكون من سترة حمراء وبنطلون بشريط أحمر على الجانبين، ولكن الألوان كانت زاهية أكثر مما يتناسب ووقار الزي العسكري.

وقع اختياري، في نهاية المطاف، على أربعة أزياء رسمية تشبه أزياء الجيش البريطاني. البدلة رقم ١ للمناسبات الخاصة والرسمية (التشريفات)، والبدلة رقم ٢ لحضور الاستقبالات والعروض العسكرية والزيارات والندوات، أما البدلة رقم ٣ فتُرتدى داخل المكاتب وأثناء الجولات التفقدية والإجازات، والبدلة رقم ٤ هي بدلة الميدان (أُوڤرول) للعمل اليومي في الوحدات والتشكيلات. وصدرت الأوامر بأن يرتدي الضباط البدلة رقم ٢ في منتصف كل شهر، ويرتدي الضباط والأفراد البدلة رقم ٤ (بدلة الميدان) في اليوم الأول من كل شهر، وكان الغرض من ذلك هو التأكد من وجود تلك الملابس في حوزتهم ومن صلاحيتها أيضاً.

كان «يوم مشهود» حين تحدد لنا موعد لمقابلة الأمير سلطان، في جدّة، لعرض الزيّ الجديد عليه والحصول على موافقته. ودخلت مكتبه مع ضباط وأفراد يرتدون الأزياء الأربعة المقترحة، فوافق سموه عليها في الحال.

ولعل من أعظم الإنجازات الفنية التي تحققت أثناء قيادتي لقوات الدفاع الجوي، إقامة شبكة اتصالات من الألياف البصرية لخدمة تلك القوات إضافة إلى قوة الصواريخ الإستراتيجية. حققت تلك الشبكة نجاحاً عظيماً، وتمت توسعتها لكي تخدم جميع فروع قواتنا المسلحة. فأصبحت تربط مدننا العسكرية وقواعدنا الجوية والبحرية وقيادات المناطق في جميع أنحاء المملكة، بوزارة الدفاع في الرياض. وتُعَدّ المملكة، اليوم، ثالث أكثر دولة في العالم، بعد الولايات المتحدة واليابان، استخداماً للألياف البصرية في الاتصالات الداخلية والإستراتيجية على امتداد آلاف الكيلومترات.

كان العميد مهندس داود أحمد البصام مستشاري ومساعدي الأول في هذا المشروع الرائد، وهو رجل يتمتع بمهارة كبيرة في الأمور التقنية وبقدرة فائقة على الإقناع. ويعود الفضل إليه في إقناعي بعدم جدوى الأنظمة الأخرى المتاحة، مثل الأقمار الصناعية والتروپوسكاتر Tropo-Scatter (الموجات الانتشارية) والكابل المحوري والمايكروويف، لأنها عرضة للكشف والتشويش والتدمير، وأن المستقبل للألياف البصرية كأفضل وسائل للاتصالات.

كان طموحي في ذلك كله، بصفتي قائداً لقوات الدفاع الجوي، أن أطبق عملياً ما كنت أؤمن به، من تدريب ولياقة بدنية وانضباط وتفتيش وتقييم ونقل للتقنية واحتراف مهني، من أجل تشكيل قوة جاهزة للقتال. كنت أريد أن يكون تدريب القوات مماثلاً لظروف الحرب الحقيقية. فبدلاً من الانتقال إلى ميدان

الرماية والعودة منه بالعربات أو الطائرات، كان على جميع وحدات الدفاع الجوي أن تنفذ التمارين الميدانية بالرماية التي كانت تشتمل على مراحل عدة: إعداد الأوامر، والاستطلاع والتحرك واحتلال مواقع الإطلاق الرئيسية، وإعداد وتشغيل مركز القيادة ومركز العمليات، وإدارة المعركة الجوية، والانتقال إلى المواقع التبادلية، ثم العودة إلى مناطق التمركز. فالتدريب الواقعي، يجب أن يكون هكذا، وهو الطريق الصحيح إلى الاستعداد القتالي.

كنت أؤمن بضرورة الاستعداد الدائم للقتال ، وكم قلت لضباطي: «يجب ألاّ يغيب عن بالكم أن الحرب قد تنشب في أية لحظة، فلا وقت للاسترخاء، ولا تهاون في العمل، بل يقظة وجدية وتفان في خدمة الدين ثم المليك والوطن».

الفصل العاشر

رياحُ الشرق

طرق سَمْعَ العالم نبأ حصول المملكة على صواريخ إستراتيجية أرض - أرض، متوسطة المدى من جمهورية الصين الشعبية في شهر مارس عام ١٩٨٨. وأرجّح أن صحيفة واشنطن بوست كان لها قصب السبق في نشر الخبر، سرعان ما تبعتها بعد ذلك عدة صحف أخرى شهيرة. كما نشرت الخبر أيضاً بعض المجلات المتخصصة، مثل فلايت إنترناشونال وجينز ديفينس ويكلي. وتعالت صيحات الاحتجاج من كل حدب وصوب، حتى إن تشارلز ردمان Charles E. Redman، المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية الأمريكية، صرّح بأن «حصول المملكة على تلك الصواريخ لا يخدم قضايا السلام والاستقرار في المنطقة». بينما قال كلايبورن پيل Claiborne Pell (ممثل ولاية رود أيلاند Rhode Island عن الحزب الديموقراطي) رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي: «إن الصواريخ تشكل تهديداً لإسرائيل». وفي الواقع، اتَّهمَنا أصدقاء إسرائيل، في الولايات المتحدة، بالحصول على أسلحة هجومية وبقلب ميزان القوى في الشرق الأوسط. ولم يكن الاتهام جديداً، فقد صدر عنهم الاتهام نفسه من قبل في الحملات التي شُنَّت علينا حين حصلنا على طائرات F-15 وطائرات الإنذار المبكر أواكس. وأخذ يوسي بن أهارون Yosi Ben Aharon، أحد مساعدي رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحاق شامير Yitzhak Shamir، يهدد ويتوعد بأن إسرائيل قد تنفذ ضربة وقائية ضد صواريخنا. ويا للعجب إنهم يُحَرِّمون على الآخرين ما يحِلُّون لأنفسهم! فلإسرائيل، وحدها، الحق في امتلاك القدرة على تهديد العالم العربي بأسلحة الدمار الشامل التي تمتلكها! أما نحن، العرب، فليس لنا الحق في امتلاك أي قدرة على الرد أو الردع.

تصاعدت حدة الضجة الدبلوماسية، ونجم عنها استدعاء السفير الأمريكي لدى المملكة إلى واشنطن، بعد ما أثار غضب الملك فهد باحتجاجاته المتكررة المزعجة على صفقة الصواريخ الصينية.

ومع أن الصواريخ الصينية اجتذبت اهتمام وسائل الإعلام في حينه، إلاّ أن تفاصيل القصة ظلّت طيّ الكتمان. ولَمّا كان الموضوع يمس الأمن الوطني، فسيجد القارئ العذر لاكتفائي برواية القصة على نحو مقتضب.

وأجد لزاماً عليّ أن أذكر للحقيقة والتاريخ، أن فكرة الحصول على تلك الصواريخ لم تكن فكرة القادة العسكريين، كما قد يتبادر إلى الذهن، بل هي فكرة الملك فهد نفسه. فهو الذي اتخذ القرار بضرورة الحصول على سلاح قوي لردع أي عدو محتمل تسوّل له نفسه شنّ هجوم على المملكة. وعلى الرغم من عدم وجود علاقات دبلوماسية لنا مع الصين آنذاك، إلاّ أن الملك أوفد أخي بندراً، سفيرنا الناجح لدى واشنطن، إلى پكين حاملاً رسالة إلى المسؤولين الصينيين، يستفسر فيها عن مدى استعدادهم لتزويدنا بصواريخ «رياح الشرق». وبعد فترة قصيرة، أبلغ الصينيون أخي بندراً موافقتهم، من حيث المبدأ، على عقد الصفقة. لقد أتم بندر مهمته بنجاح، ومهد الطريق للمهمة التي كان عليَّ إتمامها.

يُعَدّ الحصول على الصواريخ الإستراتيجية، نقطة تحوّل في الإستراتيجية الدفاعية للمملكة، ويندرج ضمن انتشار أنظمة الصواريخ الذي شهدته المنطقة في السنوات الأخيرة. ويعكس إنشاء هذه القوة، إضافة إلى دعمها للدفاعات السعودية، المسؤوليات المتزايدة التي تضطلع بها المملكة في منطقة الشرق الأوسط، وفي العالم الاسلامي، وعلى الصعيد العالمي بوجه عام.

أرسلت الصين، عقب الاتصالات الأولى، اللواء كاو جانج تشوان Cao Gangchuan، نائب رئيس هيئة الأركان العامة لجيش التحرير الشعبي، إلى المملكة لمناقشة تفاصيل المشروع. وحفاظاً على السرّية، فقد اتُّخِذت الترتيبات ليصل اللواء تشوان والوفد المرافق له إلى إحدى القواعد الجوية، ويعقد اجتماعاته إلى ممثلينا أثناء الليل. لم أكن عضواً في وفد المفاوضات في تلك المرحلة المبكرة. ولكن بعد عدة جولات من المفاوضات المبدئية، أبلغني الأمير سلطان أن الملك وافق على أن يعهد إليَّ بمسؤولية المفاوضات. وبناء على ذلك، تشكلت لجنة مشتركة برئاستي عن الجانب السعودي، ورئاسة اللواء تشوان

عن الجانب الصيني. وبعد أسبوع من المفاوضات المكثفة التي استمرت من ١٦ إلى ٢٣ ديسمبر عام ١٩٨٦، وامتد بعض جلساتها حتى الرابعة صباحاً، وضعنا مسودة للخطوط العريضة للمشروع.

وأعتقد أن الأمير سلطان هو الذي أشار على الملك فهد بتعييني في ذلك الموقع، نظراً إلى ما اكتسبته من خبرات سابقة بالتفاوض في شأن صفقات الأسلحة مع البلدان والشركات الأجنبية، إلى جانب ما لديّ من المعرفة الفنية والمهنية بحكم عملي في قوات الدفاع الجوي ولأن الصواريخ تُعد مجال اختصاصي. اتخذ الملك فهد، بعد ذلك، قراراً آخر بناءً على توصية لجنة الضباط العليا وموافقة الأمير سلطان بأن تسند إليّ قيادة مشروع قوة الصواريخ الإستراتيجية.

كانت توجيهات الملك تقضي بضرورة الحصول على الصواريخ (المعروفة في الصين باسم DF-3A، وفي الغرب باسم CSS-2) في أقرب وقت ممكن، وأن تتم الصفقة بسرِّية تامة. لذلك، لم تكن مهمتي سهلة أو ميسورة، إذ تشمل جوانب متعددة ومسؤوليات مختلفة. منها على سبيل المثال: التفاوض في شأن الصفقة، وإعداد خطة خداع، وانتقاء فريق من الضباط والأفراد السعوديين، واتخاذ الترتيبات اللازمة لتدريبهم في الصين والمملكة، وبناء قواعد الإطلاق ومرافق التخزين في مختلف أنحاء المملكة والدفاع عنها، وترتيب عملية شحن الصواريخ من الصين، والاستعداد التام في كل مرحلة للدفاع عن المشروع ضد أعمال التخريب أو أيّة أعمال عدائية أخرى.

ولأن جدي الملك عبدالعزيز، كان يلقب بـ«صقر الجزيرة»، فقد وقع اختياري على كلمة «صقر» لتكون الاسم السري (الاسم الكودي) لهذا المشروع، الذي أصبح شغلي الشاغل خلال السنوات الأخيرة من الثمانينات. كان المقدم عبدالله محمد السويلم في تلك الفترة ساعدي الأيمن، ومعاوني الذي أثق به منذ أن توليت قيادة قوات الدفاع الجوي. وترجع معرفتي به إلى أيام الطفولة، إذ كان والده أحد رجال الملك فهد. وظل عبدالله السويلم يلازمني في كل رحلاتي التي قمت بها أثناء تنفيذ المشروع الصيني، يدوّن الملاحظات ويكتب التقارير بخط يده، على الرغم من أن بعضاً منها كان يصل إلى مائة صفحة أحياناً.

قمت بأربع رحلات إلى الصين، كانت الأولى في فبراير عام ١٩٨٧. لم أكن أسافر من المملكة إلى الصين مباشرة، بل من طريق بلد آسيوي آخر صرفاً

للأنظار. فعلى سبيل المثال، اتخذتُ الترتيبات في رحلتي الأولى لكي أقوم بزيارة رسمية إلى ماليزيا قبل أن أتوجَّه إلى الصين. وأشار عليّ بعض مرافقيّ بالسفر تحت اسم مستعار، ولكني شعرت بأن من الغباء أن أحاول التخفّي. فلو انكشف أمري، لأثار ذلك المزيد من الشكوك. وقررت أن أدَع الأمور تسير بشكل طبيعي. فسافرت إلى الصين في طائرتي الخاصة، وسَرّبت حول سفري قصة مفادها أنني جئت سعياً وراء إقناع الصينيين بعدم بيع الأسلحة إلى إيران، التي كانت مشتبكة مع العراق في حرب ضروس آنذاك، وأني كذلك في صدد شراء بعض الأسلحة الخفيفة من الصين. كانت خدعة بسيطة ولكنها فعالة في الوقت نفسه، إذ حققت الغرض المرجوّ منها.

وفي الزيارة الثانية، قررت التوقف في هونج كونج. ولكن الأمر اقتضى حصول وفدنا على تأشيرات للدخول من السفارة البريطانية في الرياض. وقبيل مغادرتي المملكة، حضرت مأدبة غداء على شرف وزير بريطاني زائر، وابتسمت، في قرارة نفسي، حين تمنّى لي السفير البريطاني عملية تسوّق جيدة. وكان من الواضح أنه يلمّح إلى سفري إلى الصين.

التقيت في هونج كونج، مصادفة، سمو أمير البحرين، فسألني مستفسراً عن سبب زيارتي، فأجبته بأنني أقضي إجازتي هناك. ولا أعتقد أنه صدَّق ذلك، ولا سيما أنه رأى في رفقتي ذلك العدد الكبير من الضباط السعوديين. وعلى كل حال، فإن لباقته المعهودة حالت دون استرساله في السؤال.

لم تخلُ مفاوضاتنا مع الصينيين من بعض المفارقات، فقد حدث مرة أن حضر مبعوثان من الصين لمقابلتي في هونج كونج، واتفقنا على الاجتماع في جناح الفندق الذي كنت مقيماً فيه. ووصل المبعوثان إلى الفندق بعد أن سلكا طريقاً غير مباشرة. وعلى الرغم من حديثنا الهامس، فإني توخياً للحذر أمرت بتفتيش جميع الغرف خشيةً من وجود أجهزة للتنصت. لكنّ المبعوثَين الصينيَّين ذهبا أبعد من ذلك، إذ لاحظت عند وصولهما الفندق أنهما يحملان مظلتين ثقيلتين، مع أن الجو كان صحواً. واشتدت دهشتي حين فتح أحدهما مظلته فوق رأسي قبل أن أبدأ بقراءة وثيقة سلّمني إياها زميله. كانت المظلة مبطنة بما يشبه رقائق الألومنيوم، والهدف منها حماية الوثيقة من أية عيون «إلكترونية» متلصصة. لكني لم أرغب في الاسترسال معهما في تلك التمثيلية الصامتة، فطويت الوثيقة وقرأتها بعد ذلك في غرفة نومي تحت أغطية السرير.

كنت أحتاج أثناء رحلاتي إلى الاتصال بالأمير سلطان في الرياض بين الحين والآخر. ولكن كيف لذلك أن يتم دون التعرض لخطر التنصت على مكالماتي؟ فاهتديت إلى حيلة بسيطة، فكنت أخرج من الفندق في هونج كونج حيث أقيم، لأتجول قليلاً في المدينة، ثم أدلف مسرعاً إلى فندق آخر فأحجز غرفة فيه، وبعد أن أفرغ من جميع اتصالاتي مع المملكة مستخدماً خطاً مفتوحاً وكلمات مشفَّرة، أُغادر الفندق على الفور.

كان اتصالي المباشر في الصين مع يانج شانج كون Yang Shangkun، عضو المكتب السياسي وأمانة الحزب الشيوعي والنائب الأول لرئيس اللجنة العسكرية المركزية، وهي هيئة عليا يتولى رئاستها دنج سياوبنج Deng Xiaoping نفسه. ويانج شانج كون رجل لا يكفّ عن التدخين، ويتمتع بذاكرة قوية ودقيقة، وكان المسؤول آنذاك عن الإشراف على مبيعات الأسلحة إلى الدول الأجنبية. وقد تولى منصب رئاسة جمهورية الصين عام ١٩٨٨.

بذلنا، في المملكة، قصارى جهدنا للحفاظ على سرية زيارات الوفد الصيني والمفاوضات معه. وكذلك، فعل الصينيون في پكين حين حافظوا على سرّية وجودي هناك. ومع أنهم خصصوا لي مسكناً جميلاً (وهو عبارة عن ڤيلّا، قيل لي إن وزير الخارجية الأمريكي شغلها بعد مغادرتي) إلاّ أنهم لم يسمحوا لي قط بالتجول سيراً على الأقدام. كنت أتنقل في السيارة لحضور كل اجتماعاتي، حتى إن كان المكان على مقربة من السكن. حرص الصينيون، مثلنا على الأقل، على إبقاء المشروع بكامله طي الكتمان.

ومع تقدم محادثاتنا، رتّب لي يانج شانج كون برنامجاً لزيارة إحدى قواعد الصواريخ. كان هدف الزيارة مشاهدة الصاروخ DF-3A المسلح برأس نووي، الذي يندفع بقوة محرك صاروخي يعمل بالوقود السائل، في وضع الاستعداد (العملياتي). وقيل لي إنني أول أجنبي يحظى بهذا التكريم، وهذا ما أثبتته نظرات الدهشة والاستغراب التي ارتسمت على وجوه الضباط والجنود العاملين في تلك القاعدة. ولاحظت أنه إلى جانب الواجبات والمهام العسكرية التي يؤديها الجنود الصينيون على أكمل وجه، كانوا كذلك يزرعون ويحصدون ويربون الماشية. كان ذلك هو أسلوبهم في جميع القواعد العسكرية. وخلاصة القول، إن الجنود يعولون أنفسهم بأنفسهم والوحدات لديها اكتفاء ذاتي.

أتاحت لي تلك الزيارة فرصة التعرف بالصينيين وأسلوبهم في التفاوض.

كانوا قمة في الإخلاص ومثالاً في الوطنية، يبذلون كل جهدهم في سبيل بلدهم. فقبل حضورهم كل جلسة، يُعدّون أنفسهم كلَّ الإعداد للإجابة عن أدق التفاصيل التي قد يُسألون عنها. كانوا لا يدَعون شيئاً للمصادفة. ولا يعرفون الكلل أو الملل، مهْما طالت المحادثات، ويمكنهم المضيّ فيها ساعاتٍ طويلة متواصلة. هذا فضلاً عن تمتعهم بدرجة عالية من الانضباط، فلم يكن أي عضو منهم في فريق المفاوضات ليستطيع أن يتفوه بكلمة قبل أن يسمح رئيس الفريق له بالتحدث. وينحصر حديثه، غالباً، في مجال اختصاصه فقط. والحقيقة أن الصينيين مدربون تدريباً عالياً، فمن الصعب العثور على نقاط ضعف في أسلوب عرضهم، أو الإحساس بالنقاط التي سيُبْدُون مرونة في شأنها. وقد أثبت الصينيون أنهم مفاوضون متمرسون، كانوا لا يسلّمون بأية نقطة أو يتنازلون عنها إلاّ إذا اقتنعوا تماماً بالتزامنا بموقفنا التزاماً كاملاً. وكانت الورقة الرئيسية الرابحة في يدي هي حماستهم الواضحة ليتم الدفع نقداً. واستفدت من هذه الورقة إلى حدٍّ بعيد. وتوصلت إلى نتيجة مفادها أن الصينيين، الذين تعاملت معهم، يتمتعون بالحكمة ويعرفون ما يريدون ويخططون تبعاً لذلك. وأعتقد أن كلاً منّا كسب احترام الآخر وثقته.

كانت الصفقة، التي وقعنا عقدها في نهاية الأمر، تخدم مصلحة الطرفين ومهدت الطريق، كما سأروي بعد ذلك، أمام الاعتراف السياسي المتبادل وإقامة العلاقات الدبلوماسية بين الصين والمملكة. حافظنا، خلال السنوات التالية، على علاقات طيبة مع الصين، وهي علاقات مبنية لدى الطرفين على التقدير الراسخ والواقعي لميزات الطرف الآخر وتراثه. فالصين تتمتع بثروة بشرية هائلة، وتبرز قوةً اقتصادية رئيسية، ونحن بدورنا قوة نفطية ومالية مهمة. وكلانا من الدول الآسيوية التي لها دورها ومكانتها في القارة. فإن كانت الصين تُعد نفسها زعيمة العالم الثالث، فنحن نحتل، بالمثل، مركزاً مهماً في العالم الإسلامي، ونحرص على استخدام نفوذنا لتحقيق الاستقرار في الساحتين العربية والدولية. وكلانا من الدول الموقعة على المبادئ الخمسة الشهيرة للتعايش السلمي، التي انبثقت للمرة الأولى من مؤتمر باندونج عام ١٩٥٥. تلك المبادىء التي تحكم العلاقات بين الدول ذات الأنظمة السياسية والاجتماعية المختلفة. ويمكن تلخيصها في الآتي:

- احترام كل دولة لسياسة الدولة الأخرى وسلامة أراضيها.
- التزام كل دولة بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لدولة أخرى.

- التزام كل دولة بالتعامل مع الدول الأخرى على قدم المساواة.
- التزام كل دولة بالحفاظ على السلام العالمي.
- التزام كل دولة بالتعايش السلمي.

وهذه المبادئ جميعها مبادئ سامية تستحق الإعجاب. ولكنها، وللأسف، تتعرض للانتهاك أكثر مما تحظى بالالتزام.

بعد تقاعدي من القوات المسلحة عقب حرب الخليج، زارني وفد صيني في الرياض. وتأثرت بالغ التأثر عندما قالوا لي: «إننا لنذكرك دوماً. فنحن نكنُّ لك من التقدير مثلما نُكنُّ للدكتور هنري كيسنجر Dr. Henry Kissinger». ومما يذكر، في هذا المقام، أن الدكتور كيسنجر، مستشار الأمن القومي الأمريكي في حكومة الرئيس نيكسون في السبعينات، هو الذي أجرى المفاوضات التي انتهت بإعادة العلاقات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة وجمهورية الصين الشعبية، بعد قطيعة دامت عشرين عاماً. ومع اختلاف الظروف والمخاطر اختلافاً جذرياً في الحالتين، إلاّ أنني أحسست بالسعادة والفخر؛ لأنني أسهمت بدورٍ في تدعيم العلاقات بين بلدي والصين.

ولا بد لي أن أتطرق، في هذا المقام، إلى الحديث عن الدوافع الكامنة وراء قرار الملك فهد بالحصول على الصواريخ الإستراتيجية الصينية. كان الهدف من الصفقة، دون الدخول في التفاصيل، جعْل المملكة قادرة على الرد المضاد عند تعرضها لهجوم من إسرائيل، أو إيران في ذلك الوقت.

ومنذ عام ١٩٧٣، بل منذ حرب عام ١٩٦٧، وإسرائيل تحاول فرض إرادتها على المنطقة بكاملها. فتمارس تارة الضغط الوحشي على الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة، وتارة أخرى تنفذ الاعتداءات على الدول العربية. ومن أبرز هذه الاعتداءات غزو لبنان عامي ١٩٧٨ و ١٩٨٢ ثم الغارات التي شنتها على بيروت وتونس وبغداد. ولا يخفى على أحد أن إسرائيل تمتلك الأسلحة النووية، بالإضافة إلى الطائرات البعيدة المدى والصواريخ الباليستية، مثل صاروخ جيركو، التي يمكنها حمل الرؤوس النووية. كما أنها طورت الأقمار الصناعية العسكرية بهدف زيادة قدرتها على جمع المعلومات وتحديد الأهداف داخل العالم العربي. وعلى الرغم من تفوق إسرائيل العسكري الواضح، فإنها تتباكى وتقيم الدنيا ولا

تقعدها كلما حاولنا تحديث أجهزتنا الدفاعية بالحصول على أسلحة متطورة من الغرب. وفي مثل هذه الأجواء المملوءة بالمتناقضات، فإن المحافظة على أمننا واحترامنا لأنفسنا يفرضان علينا ضرورة اقتناء، الحد الأدنى على الأقل، قوة قادرة على ردْع أيّ عدوان قد نواجهه. وهذا، في تقديري، أحد الأسباب التي دفعت الملك فهداً إلى اتخاذ قراره بالحصول على الصواريخ الصينية.

أما السبب الآخر وراء ذلك القرار، فيرجع إلى التهديد الذي كنا نواجهه من جانب الثورة الإيرانية. فبعد أن أطاح الثوار بالشاه بدأوا في شن حملة إعلامية معادية على المملكة. وحاول قادة الثورة الإيرانية الانتقاص من مكانتنا في العالم الإسلامي، والتقليل من شأننا بصفتنا حماةً للأراضي المقدسة. وصمّوا آذانهم عن مبادرات الملك فهد الرامية إلى إقامة علاقات ودية معهم. واشتدت حدة الخطر، لا سيما بعد اندلاع الحرب بين العراق وإيران عام ١٩٨٠. كان واضحاً، منذ البداية، أن هذه الحرب تحمل في طياتها خطراً يهدد بتورط دول أخرى من دول الخليج في هذا الصراع. ولم تكن المملكة مستثناة من ذلك الخطر.

وخلال السنوات الثماني للحرب، لم يألُ الملك فهد جهداً في محاولاته إقناع العراق وإيران أو حَمْلَهما على الجلوس إلى مائدة المفاوضات، إلاّ أن إيران تجاهلت نداءاته تماماً، إذ كانت واثقة من النصر في النهاية. وأظن أن كثيراً من المحللين والمراقبين يوافقونني على أن إيران أضاعت من يدها فرصة تاريخية لتحقيق السلام عام ١٩٨٢. فخلال مؤتمر القمة العربي الذي عقد في المملكة المغربية في سبتمبر من ذلك العام، اقترح الملك فهد تسوية سلمية للحرب تقوم على انسحاب العراق انسحاباً كاملاً من الأراضي الإيرانية وحصول إيران على تعويضات مالية تدفعها دول الخليج العربي، إلاّ أن إيران رفضت ذلك الاقتراح، في الوقت الذي قَبِل به العراق.

ونعرف، جميعاً، كيف قامت إيران في عام ١٩٨٢ وعام ١٩٨٣ بشن هجمات على العراق مستخدمة الموجات البشرية في محاولة منها للاستيلاء على ميناء البصرة الجنوبي، وقطع الطريق بين البصرة وبغداد ومن ثَم تهديد بغداد نفسها. وقد لقي عشرات الآلاف من الجنود الإيرانيين حتفهم في تلك الهجمات التي باءت بالفشل. وفي شهر فبراير من عام ١٩٨٤، شنّت إيران هجوماً آخر، واستولت، هذه المرة، على جزر مجنون في منطقة الأهوار الجنوبية لنهر الفرات. واقترح العراق، بعد هذا الهجوم، وقف إطلاق النار، لكن إيران رفضت هذا الاقتراح أيضاً.

بدأت إيران، بعد ذلك، بشنّ ما عُرف بـ«بحرب الناقلات». فهاجمت ناقلات النفط السعودية والكويتية في الخليج، مدعية أن تلك الهجمات جاءت رداً على مهاجمة العراق لناقلاتها. وتبعت تلك الهجمات على ناقلاتنا تهديدات شفوية بقصف الموانئ وأنابيب النفط والمنشآت النفطية السعودية، التي تشكل عصب الحياة في المملكة. وكنّا على يقين من أن مصافي النفط وآباره التي تقع على مقربة من منطقة القتال، وكذلك محطات تحلية المياه في المنطقة الشرقية، كانت عرضة للهجمات الجوية الإيرانية، ولم يكن الدفاع عنها أمراً سهلاً.

في الخامس من يونيه عام ١٩٨٤، وقع حادث خطير، حين عبرت طائرة إيرانية من نوع F-4 «خط فهد» (وهو خط تم تحديده عبر الخليج أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية لزيادة زمن رد الفعل السعودي عند أية محاولة لانتهاك مجال المملكة). ويُعَدّ هذا العبور انتهاكاً لمجالنا الجوي. وتجاهلت تلك الطائرة إنذارين بالعودة، على الرغم من أننا أخبرنا الإيرانيين من قبل بأننا سنعترض كل طائرة تعبر «خط فهد». فاشتبكت إحدى طائراتنا من نوع F-15 مع الطائرة الإيرانية وأسقطتها. وفي ذلك الوقت بالتحديد، كنت أحلّق في طائرة عمودية فوق مدينة الجبيل، وسمعت الطيار الإيراني وهو يتحدث مع قاعدته قبل إصابته بثوان. وفي محاولة لاختبار قوة الإرادة، أرسل كل طرف المزيد من طائراته المتحفزة للاشتباك، وبدا كما لو أن معركة جوية كبيرة توشك أن تقع لا محالة. ولكن السلطات الإيرانية، ولحسن الحظ، أمرت جميع طائراتها بالعودة إلى قواعدها قبل أن يستفحل الأمر.

قامت إيران والعراق بعد ذلك بأشهر قليلة، في عام ١٩٨٥، بتوسيع نطاق الحرب بينهما، حين أطلق كل جانب عشرات الصواريخ على المراكز المأهولة بالسكان في الجانب الآخر، وعُرِفَ ذلك القصف بحرب المدن. وفي شهر مايو من تلك السنة، نجا أمير الكويت من الموت بأعجوبة حين تعرّض موكبه في الكويت لهجوم انتحاري بالقنابل شنّته إحدى المجموعات الموالية لإيران. وقد قام الملك فهد، بسبب هذه التطورات، بتجديد مساعيه الدبلوماسية، مرة أخرى، لإحلال السلام. فأرسل الأمير سعود الفيصل، وزير الخارجية، إلى طهران حاملاً عرضاً جديداً من العراق بوقف إطلاق النار. ولكن الإيرانيين رفضوا الاستجابة لهذه المبادرة أيضاً.

أصبح تصعيد الصراع في المنطقة، بما جَدّ من أحداث، يشكل تهديداً حقيقياً

لأمن المملكة. وكان السؤال الذي يفرض نفسه هو: ما هي طبيعة وأسلوب هذا التهديد المنتظر؟ وبعد دراسة دقيقة لقدرات إيران، توصلنا إلى نتيجة استبعدنا فيها أن تشنّ إيران هجوماً برياً على المملكة. فمثل ذلك الهجوم يعني أن تجتاز إيران جنوب العراق والكويت، أو تشنّ هجوماً برمائياً ضخماً عبر الخليج. وهذا أمر يحتاج إلى جهود إدارية جبارة ويعرّض خطوط إمداداتها لخطر محقَّق، فضلاً عن أن إيران ليس لها القدرة على القيام بمثل هذه المغامرة. ولَمّا كانت إيران متورطة في حرب على العراق، أصبح من المستبعد أن تفكر في فتح جبهة ثانية. ومن ناحية أخرى، لم يكن لدى إيران الجرأة على شنّ هجوم على أراضينا، لأنها سوف تسيء بذلك إلى مشاعر العالم الإسلامي قاطبة. وبدا، في ضوء هذه الحقائق، أن الاحتمال الأكثر واقعية هو أن تشنّ إيران حملة استنزاف عسكرية واقتصادية على المملكة. وربما حاولت إلحاق الضرر باقتصادنا بتنفيذ ضربات جوية وبحرية وصاروخية ضد المنشآت الساحلية الحيوية، أو إرهابنا بأعمال تخريبية، من وقت إلى آخر.

وأمام هذه المعطيات التي تمثلت في لجوء إيران إلى العنف والإصرار على مواصلة القتال، قرر الملك فهد، حسب اعتقادي، ضرورة حصولنا على سلاح يرفع الروح المعنوية للقوات المسلحة والشعب السعودي. سلاح رادع لا يستخدم أساساً إلاّ بعد استنفاد ما عداه. وعند استخدامه يكون قادراً على تحطيم معنويات العدو وتوجيه ضربة موجعة وحاسمة ضده. سلاح لا يمكن التشويش عليه أو اعتراضه. سلاح يجعل العدو يفكر غير مرة قبل أن يُقدم على شنّ هجوم علينا. كان التحدي هو العثور على دولة قادرة على تزويدنا بمثل هذا السلاح على عجَل ودون قيد أو شرط. واستقر رأي الملك على الصين، وبموجب ذلك القرار، بدأت رحلاتي إلى پكين بعد ذلك بفترة وجيزة.

بدأ تنفيذ المشروع بسرّية تامّة في المملكة. كنت وضابطاً واحداً، هو المقدم عبدالله السويلم، نعمل في غرفة غير مسموح لأحد بدخولها. وبعد أن وضعنا الخطط المبدئية، انضم إلينا عددٌ آخر من الضباط، تم اختيارهم في تحفظ وتكتم شديدين، للعمل معنا في المشروع. ووقع اختياري على ضباط كنت أعرفهم معرفة شخصية، بحكم عملي معهم من قبل، بعد أن قمنا بإجراء تحريات دقيقة

عن حياتهم العائلية والعسكرية. وفي بداية الأمر، كان العبء الأكبر من العمل يقع على عاتق عدد قليل منهم. وحتى لا تثار الشكوك حولهم، واصل هؤلاء الضباط عملهم المعتاد أثناء ساعات الدوام الرسمي. وكان كل ما يتعلق بمعاملات تعيينهم ونقلهم ومستحقاتهم وما إلى ذلك يتم في قوات الدفاع الجوي، التي كانوا يرتدون زيّها الرسمي. وعندما اتسع نشاط المشروع، اضطر الضباط إلى العمل في ورديات (نوبات) ليلية. وبما أنهم أقسموا على كتمان السر، فلم يكن في وسعهم التحدث عن عملهم الجديد أو عن إسباب تغيبهم ساعات طوالاً، حتى إلى أقرب الناس إليهم. ومن الطريف، أن كثيراً منهم تعرضوا لمتاعب أُسَرِيَّة نتيجة لذلك، فزوجاتهم كنّ على قناعة تامة بأنهم قد أقدموا على زيجات جديدة. ولم أسلم أنا نفسي من هذه الشائعات.

عهِدتُ إلى صفوة من المهندسين العسكريين، برئاسة مهندس كفء هو المقدم عبدالعزيز محمد النملة، بتصميم مواقع الإطلاق وأماكن التخزين، بينما نفذت الشركات السعودية الخاصة معظم الأعمال الإنشائية، بمساعدة الخبراء الفنيين الصينيين. كما اعتمدتُ في عمليات تفريغ الصواريخ والمواد المتفجرة والمعدات الخاصة بهما في موانئنا، على ضابط موثوق به هو الرائد سليمان عبدالله النملة، الذي أثبت براعة أثارت إعجاب الصينيين، فتبنوا طريقته في العمل بعد ذلك. وأسندت إلى المقدم علي الشعيبي مسؤولية تنظيم العمليات المختلفة للمشروع في موانئنا البحرية وتأمينها (قام بعمل مماثل لذلك خلال حرب الخليج كضابط اتصال مختص بالموانئ مع القوات الصديقة). فساعدني على مسح الموانئ واختيار المراسي الصالحة والمستودعات المناسبة ووضع إجراءات الإخفاء والتمويه وابتكار أساليب خداع للتغلب على أية عمليات للمراقبة أو الاستطلاع. وحدث ذات مرة، عندما خشيت من أن تكون إحدى الشحنات هدفاً لعملية تخريب، أن أرسيت السفينة القادمة من الصين جوار ناقلة أمريكية، حتى إذا عنّ لأحد نسفها، كان عليه أن يفكر غير مرة قبل أن يقدم على مثل هذا العمل. وعلى الرغم من المحاولات التي بذلها الشعيبي لإبقائي بعيداً عن الميناء، فقد أمضيت الليل كله ساهراً ذات ليلة على الرصيف أراقب تفريغ الوقود السائل. كانت تلك هي المرة الأولى التي يتداول فيها رجالنا مثل هذه المادة السريعة الاشتعال. وحرصت على أن أكون بينهم لأزرع الثقة في نفوسهم، ولكنني أعترف بأنني لم أكن أقل خوفاً منهم.

لم يكن العمل في مواقع البناء خلواً من المخاطر. فذات مرة، وقع حادث

قُطِعت فيه أُذن أحد العمال الصينيين، فَنُقِل جواً إلى المستشفى غائباً عن الوعي حيث تم إسعافه. لكن أُذنه المقطوعة كانت لا تزال مفقودة. فألحّ الأطباء في البحث عنها. فأرسلت، في تلك الليلة، قافلة من السيارات مضيئة أنوارها الأمامية وكشافاتها القوية لمسح الصحراء حول موقع البناء. وحدثت المعجزة، وعُثر على الأذن المقطوعة قبل أن تغطيها الرمال، ونقلت على جناح السرعة إلى المستشفى حيث أعيدت إلى مكانها بعملية جراحية ناجحة. ولم يمضِ وقت طويل حتى تماثل العامل للشفاء وعاد إلى ممارسة عمله، وكأن شيئاً لم يكن.

اقتضى الأمر إرسال عدد من الضباط والأفراد إلى الصين، للتدريب على استخدام السلاح الجديد. وكان لا بد من مواصلة تدريبهم في المملكة لشهور بل سنين أخرى بعد انتهاء تلك الدورات في الصين. فأنشأنا مركز تدريب في الصحراء بعيداً عن الأنظار، ولم نكن نسمح للمتدربين بمغادرة المركز بعد وصولهم إليه. كنّا نسمح لهم بالاتصال بذويهم وعائلاتهم بين فترة وأخرى، لكن جميع المكالمات كانت تخضع للرقابة الصارمة لمنع تسرب أية معلومات عن أماكن عملهم. انتاب القلق وساورت الشكوك أسر هؤلاء المتدربين الذين اختفوا فجأة ولمدة طويلة. وكانت زوجات الضباط كثيراً ما يتصِلْن بي لمعرفة إن كان أزواجهن قد ذهبوا للقتال في أفغانستان. وذهبت الظنون ببعضهن أن أزواجهن قد لقوا حتفهم، ورجونني أن أُعْلِمَهُنَّ رسمياً بوفاتهم كي يُعْلِنَّ الحداد عليهم بشكل رسمي، وهذا أمر من حقهن وواجبهن بمقتضى الشريعة الإسلامية. فكنت أقسم لهن بأن أزواجهن أحياء يرزقون، ومع هذا كان إقناعهن جدّ عصيب.

وذات يوم، اندفع أحد ضباط الاستخبارات إلى مكتبي، وهو في حالة ذعر شديد، وأخبرني أن أحد الأفراد المتدربين، ويبلغ عمره ثمانية عشر عاماً، كشف لوالده، أثناء مكالمة هاتفية، عن مكان وجوده وعن طبيعة عمله. فأصدرت أوامري إلى الاستخبارات العسكرية باحتجاز الشاب في الحبس الانفرادي وإحضار والده إليّ على جناح السرعة. فلمّا أحضروه صباح الغد، وجدته رجلاً كبير السن وسبق أن خَدَمَ في الدفاع الجوي، وكان سعيداً لأن ابنه يخدم في القوات نفسها. ولَمّا كان الأب مسلماً تقياً، فقد حرص على أن يسلك ولده مسلكاً مستقيماً بعيداً عن رفاق السوء. ولذلك، عندما اتصل ابنه هاتفياً بعد غياب طويل أصرّ الوالد على معرفة مكانه ومعرفة ما يفعله. وأمام إلحاح الوالد، اعترف الشاب بمكان وجوده. وعندئذ استشاط الوالد غضباً، وقال لابنه: «إيّاك والكذب، ليس هناك أية معسكرات أو قواعد في تلك المنطقة. أخبرني بحقيقة أمرك». وهكذا وجد

الشاب نفسه مضطراً إلى أن يشرح لوالده أنه في مهمة سرّيّة تتعلق بالصواريخ. ولمّا تأكد الوالد من صدق ابنه غمرته السعادة لأن ابنه اختير لمثل هذا العمل الحساس. وسألته مَن مِنْ أصدقائه وأقاربه عرفوا السر حتى الآن. فأقسم بأنه لم يخبر أحداً به.

ووقعت في حَيرة من أمري. فلو عاد الرجل إلى قريته، فقد يكشف السر ويبوح به، كما لم يكن في وسعي احتجازه قسراً. لذلك، عَرَضْتُ عليه أن يُعيَّن إماماً لمسجد القاعدة براتب شهري جيد، فوافق على الفور وأرسل في طلب أسرته، وما زال هناك حتى اليوم. وكلما كنت أزور تلك المنطقة كان يهرع إلى استقبالي وتحيتي. وكان كثيراً ما يردد أن المكالمة الهاتفية التي تلقاها من ابنه، هي أسعد حدث مرَّ به في حياته.

من بين الدروس الكثيرة التي تعلمتها من الأمير سلطان أنه عند إقامة أية منشأة أو مؤسسة عسكرية، ينبغي العمل على إفادة البيئة المحلية المحيطة بها. فعلى سبيل المثال، حين أنشأ الأمير سلطان المدن العسكرية، في خميس مشيط في الجنوب وتبوك في الشمال الغربي، بذل المستحيل ليضمن أن الوجود العسكري سيُسهم في رفع مستوى معيشة السكان المحليين. لذلك، عقدت العزم على أن أحذو حذوه عندما بدأنا بإقامة مركز تدريب آخر لقوة الصواريخ في السليّل، التي تبعد نحو ٥٠٠ كيلومتر إلى الجنوب الغربي من الرياض على مشارف الربع الخالي.

كانت السليّل منطقة غير متطورة إلى حدٍّ ما، وتعيش ظروفاً حياتية قاسية. وقد تم تخصيص الاعتمادات المالية لبناء مساكن للضباط والأفراد ولتعبيد الطرق وإقامة مستشفى ومهبط للطائرات. وكان من المتوقع أن تستغرق عملية البناء والتطوير مدة تتراوح بين ثلاث وخمس سنوات. ولكني عملاً بفلسفة الأمير سلطان، أصدرت تعليماتي بألاّ نتعجل البناء، إذ كان في استطاعتنا توفير المال وتحقيق التطوير المنشود باستئجار ما ينوف على مائة مسكن من المساكن المشيدة في المنطقة. وأعطانا هذا الخيار المزيد من الوقت لإنشاء المباني الجديدة دون اللجوء إلى أسلوب بناء سريع باهظ النفقات. ونظراً إلى ما يحتاج إليه الأفراد من ملابس وأحذية ومستلزمات منزلية فضلاً عن الأشياء الأخرى، فقد أقنعت الكثير من التجار في الرياض بأن يشتركوا مع السكان المحليين في فتح متاجر لهم هناك، وقطعت لهم وعداً، في المقابل، بأن نشتري منهم كل ما نحتاج إليه.

وشجع ذلك الأمر فرص الاستثمار في المنطقة، كما وفّر الكثير من فرص العمل. وسررت حين وافق الأمير سلطان على اقتراحي ببناء مطار مدني هناك، كان سكان البلدة يطالبون به منذ عشرين عاماً، فساعد ذلك على إنعاش المنطقة كلها.

كانت هناك مدرسة للتدريب المهني في السليل، تم إنشاؤها قبل بضع سنوات، ولم يستفد منها أحد. فطالبت بها القوات الجوية، التي كانت تنشئ قاعدة لها في المنطقة، ولكنني استطعت الحصول عليها وخصصتها لتدريب الضباط والأفراد، وجعلتها جاهزة للعمل في غضون ثلاثة أشهر.

شُحنت الصواريخ والمعدات اللازمة من الصين إلى المملكة في سرِّيّة تامة، ووُضعَت، في بادئ الأمر، في أماكن مؤقتة. ثم نُقلت، بعد ذلك، إلى أماكنها الدائمة. وكنا دائماً على استعداد تام لمواجهة أي تهديد قد تتعرض له تلك الشحنات، سواء أكانت في عرض البحر أم في الموانئ المختلفة التي كانت ترسو فيها السفن وهي في طريقها إلى المملكة. كنّا قادرين على حماية مواقع الإطلاق ومنشآت التخزين أثناء عمليات البناء في مختلف أنحاء المملكة، وتزويد قوة الصواريخ باتصالات مأمونة (مشفرة)، وتدريب الضباط والأفراد في الصين وفي المملكة في آن واحد على تشغيل الصواريخ وصيانتها. وبفضل عمليات التمويه ونشر المواقع فوق مساحات شاسعة، أصبح من المتعذر على العدو أن يقضي بضربة واحدة على سلاحنا الرادع الجديد.

وبطبيعة الحال، اقتضت ضرورة العمل أن أغيب عن أسرتي في الرياض لفترات طويلة من الزمن دون أن يعرفوا مكان وجودي. أمّا قوات الدفاع الجوي فلم تتأثر بغيابي؛ لأننا بنينا أنظمة متكاملة لإدارة شؤون الضباط والأفراد، والاستخبارات، والعمليات، والإمدادات والتموين، والاستعداد القتالي، والاتصالات الإلكترونية، والتدريب، والتفتيش، والرقابة المالية، وما شابه ذلك. وتستطيع هذه الأنظمة أن تعمل ذاتياً على أكمل وجه.

وسأظل أشعر على الدوام بالامتنان لزوجتي عبير؛ لِمَا أبدته، خلال تلك الفترة العصيبة، من تفهم يفوق الوصف. وعبير هي ابنة عمي الأمير تركي بن عبدالعزيز، وقد تزوجتها عام ١٩٨١، بعد عودتي من دراساتي العليا في الولايات المتحدة، وهي زوجة مثالية وأم نموذجية تتميز بالدقة والذوق الرفيع في تنظيم شؤون المنزل وإدارته. ملأت حياتنا الزوجية بالسعادة والرضى، وأنعم الله علينا بخمسة أطفال هم: هالة ومشاعل وفهد وعبدالله وسلمان. وهؤلاء مع ولديّ،

من زواجي الأول، فيصل وسارة، هم مصدر سعادتي وفخري واعتزازي في الحياة.

كنت أتلقى، أحياناً، مكالمات هاتفية من الضباط في أوقات متأخرة من الليل، وعندما تشعر زوجتي بحساسية المكالمة، تغادر الغرفة على الفور وبلا تردد، وتظل خارجها مدة قد تطول إلى أكثر من نصف ساعة. وفي الواقع، إنها لم تعلم، إلاّ في وقت متأخر جداً، أنني كنت مسؤولاً عن مشروع الصواريخ. وحدث، ذات مرة في اجتماع عائلي، في اليوم الذي نشرت فيه وسائل الإعلام العالمية نبأ الصفقة الصينية، أن التفت إليها عمي الأمير سلمان، أمير منطقة الرياض، وسألها: «كيف حال «أبو» الصواريخ؟».

فأجابت بدهشة وحيرة: «أية صواريخ؟ من تعني بذلك؟».

فقال: «أعني زوجك بالطبع».

تعتمد فاعلية القدرة الرادعة على معرفة طرف بامتلاك الطرف الآخر لها في الوقت المناسب. فعندما أوشكت عملية تجهيز وحدات الصواريخ الإستراتيجية أن تنتهي، رفعتُ تحليلاً إلى القيادة العليا ذكرت فيه أنه إذا لم يُكتشَف أمر صفقة الصواريخ الصينية قبل نوفمبر ١٩٨٨، فإن ذلك يُعَد في مصلحتنا، وإذا لم يُكتشف أمرها قبل فبراير ١٩٨٩، فإن ذلك أيضاً يخدم مصلحتنا إلى درجة أكبر. أما إذا لم يكتشف أمرها بحلول يونيه ١٩٨٩ فعلينا عندئذ أن نسرِّب النبأ بأنفسنا، لأن الهدف من الحصول على السلاح لن يكون قد تحقق. ولحسن الحظ، لم يكن ثمة داع للقيام بذلك، لأن الأمريكيين أذاعوا الخبر قبلنا وفي الوقت المناسب لنا.

لم نعرف، على وجه التحديد، متى اكتُشِف أمر صفقة الصواريخ. وكنت مندهشاً، لأن السر ظل طي الكتمان طوال هذه المدة، ولم يتسرب عنه شيء. وسَرَت شائعات مفادها أن الاستخبارات الأمريكية كانت تعرف بأمر المشروع الصيني في وقت مبكر، لكنها لم تشأ أن تثير ضجة قبل أوانها، وفضَّلت أن تلتزم الصمت حتى أوشك المشروع أن ينتهي.

وتجنباً لخطر الوقوع في متاهات نحن في غنى عنها، فسأكتفي برواية هذه

الحادثة الطريفة. يقال بينما كان قمر صناعي من أقمار التجسس الأمريكية يصور قاعدة صواريخ سرِّية صينية، لاحظ أحد المحللين الأمريكيين البارعين أن بعض الرجال الذين ظهروا في الصورة كانوا ملتحين. واللحية مظهر غير مألوف في الصين. وقُرِعت أجراس الإنذار في واشنطن. فهل هؤلاء الملتحون هم إيرانيون؟ وتبيَّن من عمليات الاستكشاف اللاحقة أنهم سعوديون يتدربون في الصين. وهكذا كُشِفَ النقاب عن السر.

وكما أسلفتُ، أثار الأمريكيون زوبعة كبيرة حول هذه الصفقة. وسرت شائعات مفادها أن خمسة من رجال الاستخبارات المركزية الأمريكية طُردوا من العمل لإخفاقهم في كشف أمر الصفقة. وطَلَبتْ واشنطن السماح لها بتفتيش الصواريخ التي وصلت إلى المملكة، ولكننا رفضنا ذلك. وأكدنا للأمريكيين أن رؤوس الصواريخ هي رؤوس تقليدية فقط. وعلى كلٍّ، ولاعتبارات تتعلق بالسياسة الداخلية الأمريكية، طلبت وزارة الخارجية الأمريكية من هيوم هوران Hume Horan، السفير الأمريكي لدى المملكة آنذاك، أن يقدم احتجاجاً إلى الملك فهد. وهوران هذا متخصص في الشؤون العربية، وأمضى ردحاً طويلاً من الزمن في العالم العربي، كما عمل في المملكة نائباً لرئيس البعثة الأمريكية. ولَمّا كانت الولايات المتحدة قد ساعدتنا من قبل على الحصول على أسلحة دفاعية، فقد شعرتْ بالاستياء، على ما يبدو، من امتلاكنا لِمَا تعدّه، من وجهة نظرها، أسلحة هجومية دون مشورتها.

حضر إلى المملكة لمناقشة هذا الموضوع مبعوث الرئيس الأمريكي، السفير فيليب حبيب Philip Habib، المتمرس بشؤون الشرق الأوسط (لا سيما القضية اللبنانية)، وتوجَّه في صحبة هيوم هوران لمقابلة الملك فهد. وأعتقد أنه خلال الاجتماع سلم هوران ورقة إلى حبيب، ربما ليذكره بأن الوقت قصير، وأن عليه البدء مباشرة بمناقشة الموضوع الذي حضر إلى المملكة من أجله.

طرح حبيب الموضوع بعبارات جافة، حتى إن المترجم السعودي اضطر إلى التخفيف من حدتها إلى درجة كبيرة. لكن هوران الذي يتقن العربية صحَّح ما نقله المترجم، وفسّر رسالة حبيب بدقة أكثر. وهنا، لم يرُق للملك ما عدّه تدخلاً غير مشروع في السياسة الدفاعية للمملكة، كما لم يرُق له إلحاح المبعوثَين الأمريكيين الذي كان يفتقر إلى الدبلوماسية، ورد عليهما بلهجة حادة موجِّهاً توبيخه إلى هوران بشكل خاص؛ لأنه عدّه المحرض الأول على هذا التصرف.

وأظن أن هوران أخبر وزارة خارجيته بما حدث، موضحاً أنه لم يعد في قدرته العمل بكفاءة في المملكة، وهكذا تم استدعاؤه إلى الولايات المتحدة بعد فترة قصيرة.

وبناء على التعليمات الصادرة من الملك وولي العهد، وتحت إشراف الأمير سلطان، اتخذتُ الخطوات التمهيدية لإقامة العلاقات الدبلوماسية بين الصين والمملكة، من خلال محادثات أجريتها مع نائب وزير الخارجية الصيني. فبعد توطيد علاقاتنا الاستراتيجية، لم يعد هناك سبب لتأخير الاعتراف المتبادل أكثر من ذلك. وهذا ما كانت پكين تُلِحّ عليه منذ البداية.

وبعد أن أتممت التفاصيل الخاصة بتطبيع العلاقات مع الصين وفتح السفارتين في عاصمتيْ البلدين، وضع وزيرا الخارجية اللمسات النهائية عليها. ثم توجَّه أخي بندر إلى پكين، مرة أخرى، ليبلغ الصينيين موافقة الملك الرسمية على تلك الترتيبات. وفي وقت لاحق، رفعت إلى الأمير سلطان وإلى الملك توصية أطلب فيها منح الأمير بندر وعدد من كبار الضباط الأوسمة التقديرية تكريماً لهم وإشادة بدورهم، وتم ذلك التكريم بالفعل.

أوصى الأمير سلطان بتعيين الفريق توفيق خالد علمدار ـ يرحمه الله ـ أول سفير لنا لدى الصين، وكان الرجل عسكرياً قبل أن يصبح دبلوماسياً، وشغل منصب سفير المملكة لدى پاكستان. وأكِنُّ له كل احترام وتقدير، وكنت أعرف أنه يدرك أهمية الصفقة، وأنه سيكون الرجل المناسب لو دخلنا في صفقات أخرى مع الصين مستقبلاً. كنت فخوراً ومبتهجاً لهذا الاختيار، لأن الفريق علمدار كان قائد الدفاع الجوي حين التحقت بتلك القوات في بداية خدمتي العسكرية، وقد حضر حفلة تخرجي في ساندهيرست. ويعود الفضل إليه ـ بعد الله ـ في التحاقي بالدفاع الجوي. فبعد أن كنت أميل، في بادئ الأمر، إلى الالتحاق بسلاح المدفعية، وددت الانضمام إلى القوات الخاصة، إلاّ أنه كان حينذاك يبحث عن ضباط شبان يتكلمون الإنجليزية للاستفادة منهم في مشروع صواريخ هوك، التي كانت المملكة قد حصلت عليها للتو. ولذلك، وقع الاختيار عليّ للالتحاق بالدفاع الجوي.

وهكذا، كان ذلك القرار وراء إرسالي إلى پكين بعد ذلك بعشرين عاماً للتعاقد على صفقة صواريخ «رياح الشرق».

الفصل الحادي عشر

قراءة في فكر صدّام

لماذا أقدم صدام حسين على غزو الكويت؟ كيف بنى حساباته؟ وما هي أخطاؤه وسلبياته؟ هل كان مدفوعاً بطموحاته السياسية أم بحاجاته الاقتصادية؟ وهل كانت نية الغزو لديه نية مبيتة أم وليدة نزوة طارئة؟ هل كان ضحية مؤامرة، أم أنه وقع في مصيدة نُصبت له بإحكام؟

مثل هذه التساؤلات، وكثير غيرها، ستظل تشغل فِكر المؤرخين والمحللين لسنوات عدة قادمة. وربما لا توجد لها إجابات شافية أبداً! وربما اضطررنا إلى الانتظار ريثما تكشف الحكومات وثائقها السرية، بما فيها حكومات الولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل، وبداهة، الحكومة العراقية حتى نجد الإجابات الشافية عن تلك التساؤلات. فهل سنعرف في يوم ما ـ مثلاً ـ ما دار بين الولايات المتحدة وبريطانيا، ناهيك بما دار بين الولايات المتحدة والأطراف المعنية الأخرى؟ زد على ذلك أن لا أحد يعرف الكثير مما دار بين صدام والحلقة الداخلية من مستشاريه والمقربين إليه! لذا، فأمام كل هذه الأسرار لا يسعنا إلاّ الاكتفاء بالمعلومات القليلة المتوافرة لدينا. واليوم، وبعد مرور أربع سنوات على الحرب، أعتقد جازماً بأنه لا يزال هناك الكثير من الأسرار المتعلقة بحرب الخليج التي لم يُكشف عنها النقاب بعد.

ربما كان هناك شخص ما، لا نعرفه على وجه التحديد، هو الذي أقنع صداماً بجدوى غزو الكويت. وربما كان مصدر هذا التحريض من داخل العراق نفسه أو من خارجه. ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن عدة خيارات قد طُرحت على صدام، شأنه في ذلك شأن معظم القادة، لكنه هو الذي أخطأ الاختيار في نهاية المطاف. فمسؤولية اتخاذ القرار بغزو الكويت تقع على عاتق صدام وحده،

وليس ثمة شك في ذلك. فنقطة الضعف التي يعانيها كل طاغية، أنه يحيط نفسه دوماً بمستشارين يُسمعونه فقط ما يود أن يسمعه. وكم زاد إعجابي بجدي الملك عبدالعزيز، حين عَلِمت أنه كان حريصاً على انتقاء أفضل المستشارين، ليس من داخل المملكة فحسب، بل من الدول المجاورة أيضاً. كان يشجعهم على الجهر بآرائهم صراحة وألاّ يخشوا في الحق لومة لائم. ولو احتذى به الآخرون، لما كانت الأمة العربية في موقف صعب، لا تُحسد عليه، كالذي تواجهه الآن.

وإذا أردنا أن نفهم حقيقة أزمة الخليج، وهي من أفدح الكوارث التي حلّت بمنطقتنا في التاريخ الحديث، يتعين علينا معرفة دوافع الرئيس العراقي، وفهْم أسلوبه في التفكير لأنه المسؤول المباشر عمّا حدث. لِمَ ارتكب هذا الخطأ الإجرامي، بل الخطيئة الأخلاقية، حين قرر غزو الكويت؟ ولِمَ ارتكب ذلك الخطأ الإستراتيجي الآخر حين رفض الانسحاب، في الوقت المناسب، ليجنّب بلاده الدمار؟

إن ما أسرده هنا لا يتعدى وجهة نظرٍ شخصية، ولا يمكن اعتباره، في حال من الأحوال، تحليلاً شاملاً للأزمة.

إذا أردنا أن نفهم الدوافع وراء غزو صدام الكويت، فلا بد من الانطلاق من نقطة أساسية، هي أن العراق كان معارضاً دائماً لقبول الكويت دولة مستقلة واحترام سيادتها. كما نعرف أن صداماً، شأنه شأن كثير من العراقيين، يعتقد بأن للعراق حقوقاً تاريخية في الكويت، ترتكز إلى أنها كانت جزءاً من ولاية البصرة أثناء الحكم العثماني. ولا يتسع المقام، هنا، للبحث في حقيقة هذا الادعاء، وحسبنا أن نقول إن ثمة خبراء محايدين عكفوا على دراسة هذه القضية، وتوصلوا إلى نتيجة مفادها أن الادعاءات العراقية لا أساس لها من الصحة(*).

بيد أن صداماً خانته الذاكرة أو تناسى، وهو يعيد إحياء ادعاءاته عام ١٩٩٠، أن زميله السابق اللواء أحمد حسن البكر، رئيس الوزراء البعثي الذي أصبح بعد ذلك رئيس الجمهورية العراقية، تخلّى في أكتوبر عام ١٩٦٣ عن ادعاء العراق

(*) For a recent authoritative study of this subject, see David H. Finnie, *Shifting Lines in the Sand: Kuwait's Elusive Frontier with Iraq* (London, 1992).

ملكية الكويت واعترف باستقلالها وسيادتها ووافق على عضويتها في الجامعة العربية والأمم المتحدة. ولا يخفَى على أحد أن مبدأ المطالبة بالأراضي، بناءً على ما كان سائداً أيام الحكم العثماني، مبدأ لا يمكن الأخذ به من الناحية الواقعية في الوقت الحاضر. فلو كان الأمر كذلك، فما الذي يمنع تركيا مثلاً من المطالبة بأجزاء واسعة من العالم العربي، تلك الأجزاء التي كانت خاضعة للسلاطين العثمانيين على مدى قرون من الزمن؟

والسبب الآخر الذي يكمن وراء عداء صدام للكويت، هو ضيق منفذ العراق إلى الخليج. فالحدود العراقية ـ الكويتية التي رسمها البريطانيون في العشرينات، لم تعطِ العراق من الساحلِ سوى شريط قصير لا يتجاوز طوله خمسين كيلومتراً، بينما نالت الكويت شريطاً ساحلياً يبلغ طوله أربعة أمثال ما حصل عليه العراق. إضافة إلى ذلك، ثمة جزيرتان كويتيتان هما وربة وبوبيان تسدّان على العراق طريقه إلى الخليج من ميناء أم قصر العراقي. وظلت الحاجة إلى ضمان منفذ أكثر أمناً، والسيطرة على هاتين الجزيرتين، همّاً شاغلاً لمختلف أنظمة الحكم التي تعاقبت على العراق.

لكن هذا الإجحاف من وجهة نظر العراق، مهْما اعتقد بعض الناس بصحته، لا يبرر في أي حال من الأحوال، غزو صدام الكويت. فلجوء صدام إلى القوة قضى على كل تعاطف مع قضيته، مهْما كان ضئيلاً.

ومن ادعاءات صدام أنه لم يحصل على المكافأة التي يستحقها نظير تصديه لآية الله الخميني! إذ قال إن العراقيين قد بذلوا دماءهم طوال ثمانية أعوام من الحرب على إيران، للدفاع عن البوابة الشرقية للعالم العربي. وإن هذه الدماء التي بذلت، تجعل العراق مستحقاً للمكافأة السياسية والإستراتيجية والمالية من الدول العربية المجاورة. ويزعم صدام أن العراق لم يكن في حربه على إيران يدافع عن أمنه فحسب، بل كان يدافع عن أمن دول الخليج بصفة عامة. ونسي صدام في زعمه هذا، أنه هو الذي مزَّق بتهوره اتفاقية الجزائر التي وقعها مع الشاه عام ١٩٧٥، وشن هجومه على إيران، فَجَرَّ بذلك المنطقة كلها إلى أتون حرب دامت نحو عقدٍ من الزمان. وهي حربٌ عرّضت دول الخليج لخطر داهم، بينما يَعُدُّ صدام تأييدها له ودعمها المالي لاقتصاده من المسلّمات، وأن لا فضل لها فيه ولا منَّة.

وعلى الرغم من ذلك كله، فما أن وضعت الحرب أوزارها، حتى طالب

صدام بالمزيد. أراد من جيرانه العرب الاعتراف بصدارة العراق في الخليج، وأن يحصل على منفذ أكبر إلى الخليج لنشر أسطوله البحري من أجل الدفاع عن الأمن العربي كله، على حد زعمه. كما أراد إعفاءه من الديون التي تراكمت عليه جرّاء الحرب، إضافة إلى منحه قروضاً جديدة. ولم يقف صدام عند ذلك الحد، بل أخذ يلوّح بمطامع أخرى تتجاوز حدود الخليج. كان يطمح أن يصبح الناطق الأول باسم العرب لدى أمريكا، أي أن يكون الرجل الذي تستطيع واشنطن أن تسوي معه مشاكل المنطقة، بما فيها المشكلة الفلسطينية. وبعبارة أخرى، كان يطمح للهيمنة على المنطقة بكاملها والتفوق على الرئيس جمال عبدالناصر الذي كان يتمتع بشعبية كبيرة، قائداً وبطلاً عربياً.

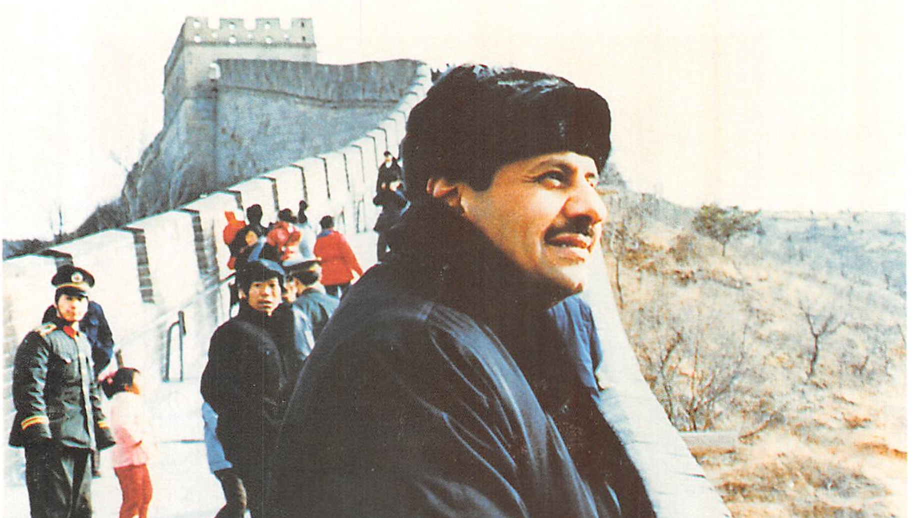
لكن هذه الطموحات والمطالب الصَّدَّامية، لم تكن واقعية ولا مقبولة؛ لأنها تنتهك مصالح الآخرين. وازداد الرفض الخليجي لها حدّة، حين تعنَّت صدام في الإصرار على المطالبة بها مشفوعة بالتهديدات. ولا ننكر أن العالم شعر بشيء من الارتياح إلى مساعدته العراق على احتواء إيران، ولكنه لم يشعر بالرضى عندما بدأ صدام يفصح عن مطامعه. وكلما زاد صدام من حدة ضغوطه وتهديداته وإثارته للقلاقل، تراجع جيرانه أكثر فأكثر عن مجاراة رغباته. ومجمل القول إن صداماً، بأساليبه الوحشية غير المقبولة، خسر التأييد لقضيته، التي لم تكن تستند، على كل حال، إلى أسس قوية.

لم يسافر صدام كثيراً خارج بلاده، ولم يكتسب بصيرة نافذة يعي من خلالها كيف تُعالج الأمور في العالم من طريق المعاملات الشخصية مع رؤساء الدول الأجنبية. فقد حكم العراق في جو من العنف والدسائس. وكما أسلفت، لم يكن أحد ممن يحيطون به يجرؤ على تقديم المشورة الصادقة إليه. (لعل موت شقيق زوجته عدنان خيرالله، وزير الدفاع، في حادث تحطم طائرة عمودية عام ١٩٨٨، حرمه من الرجل الوحيد الذي كانت لديه الجرأة على تقديم المشورة الخالصة إليه).

أدى تصاعد القلق في الغرب عامة ودول الخليج خاصة إزاء مواقف صدام، في السنة التي سبقت غزو الكويت، إلى حدة إحساسه بأنه ظُلِم. ولعله شعر في قرارة نفسه أنه عوقب بدلاً من أن يكافأ، كما كان يتوقع، وأن العالم بات يحاصره من كل الجهات. فضلاً عن خشيته أن تتعرض بلاده لهجوم عسكري إسرائيلي. ويُعزى تفاقم إحساسه بالظلم إلى ديون الحرب التي أثقلت كاهله،



أستعرضُ حرس الشرف أثناء مهمة سرية إلى الصين للحصول على صواريخ إستراتيجية أرض ــ أرض.



أقف كسائح عند سور الصين العظيم.



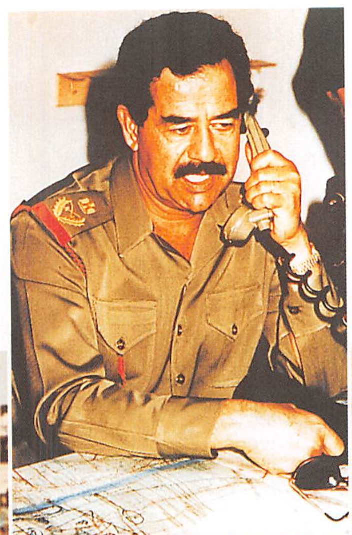
زاو زي يانج الذي شغل منصب رئيس وزراء الصين من عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٨٧، وكان رجلاً ذا نفوذ في الأمور العسكرية. وعندما التقيته أواخر الثمانينات كان يشغل منصب رئيس اللجنة العسكرية في الحزب الشيوعي الصيني ونائب رئيس اللجنة العسكرية المركزية.



قابلت يانج شانج كون، إبَّان محادثات صفقة الصواريخ في پكين عام ١٩٨٧، وهو شخصية قوية في اللجان العسكرية في كل من الدولة والحزب الشيوعي الصيني. ويتميز هذا الرجل بذاكرته القوية التي لا تغيب عنها أدق التفاصيل. تولى رئاسة جمهورية الصين الشعبية من عام ١٩٨٨ حتى عام ١٩٩٣.



مجلس التعاون العربي الذي أُسِّسَ في فبراير عام ١٩٨٩ ولم يدم طويلاً، وجمع كلاً من: (من اليمين الى اليسار) الرئيس المصري محمد حسني مبارك، وعاهل الأردن الملك حسين، والرئيس العراقي صدام حسين، والرئيس اليمني علي عبدالله صالح. كنا في المملكة ننظر إلى ذلك التجمع كتنظيم منافس.



(إلى اليمين) الرئيس العراقي صدام حسين يتحدث عبر الهاتف أثناء الحرب العراقية ـ الايرانية، (أسفل) يخطب في قواته في الكويت بعد غزوها في الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠.





لقاء ديك تشيني، وزير الدفاع الأمريكي، في إحدى زياراته المتكررة إلى الرياض أثناء الإعداد لعملية عاصفة الصحراء.



عملت وشوارتزكوف معاً في «قيادتين متوازيتين».



الفريق تشارلز هورنر، قائد القوات الجوية المتحالفة، مايسترو الحملة الجوية ضد العراق ومخططها.



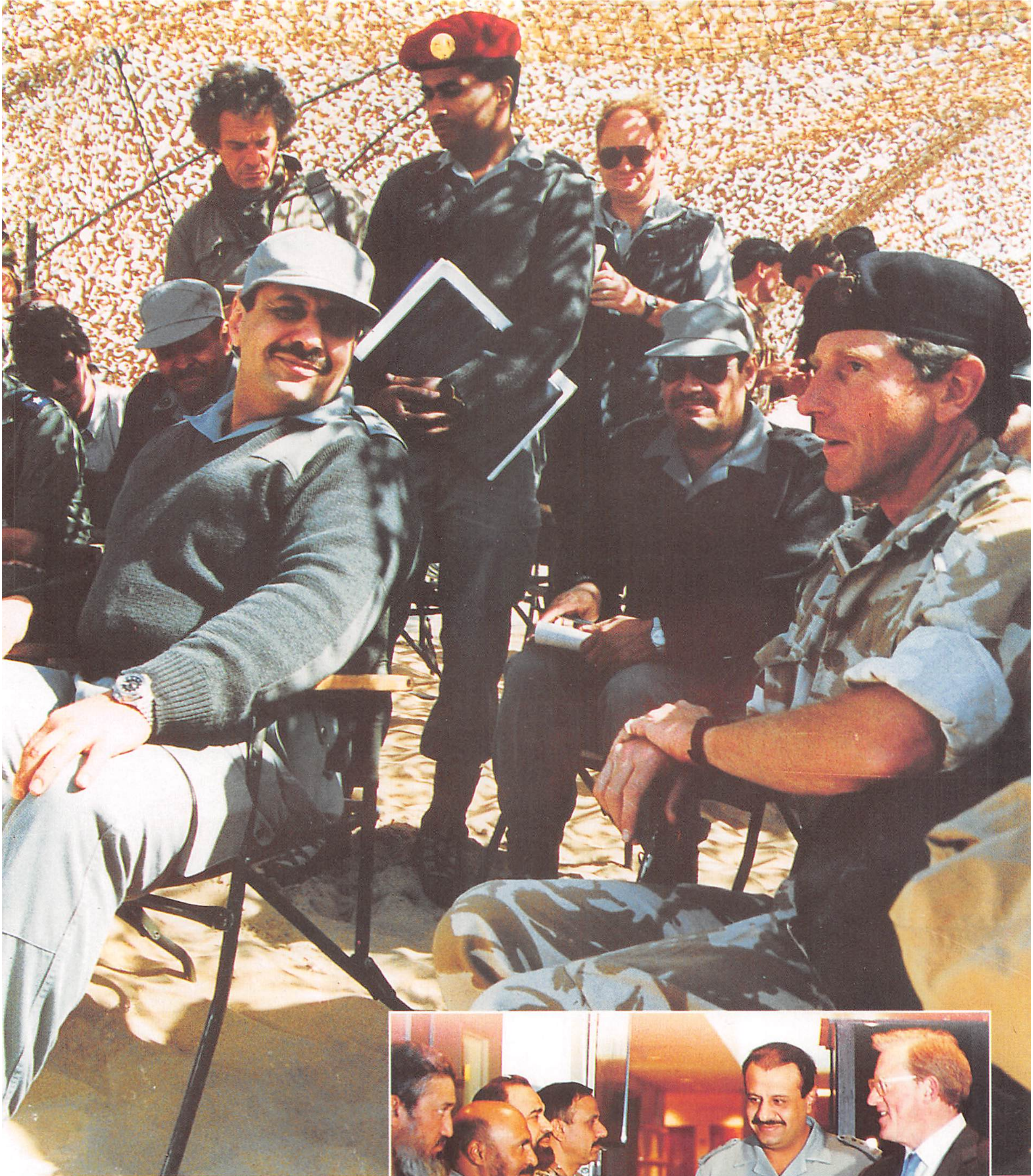
الفريق أول كولين پاول، رئيس هيئة الأركان المشتركة، العقل المدبر والموجه الرئيسي للحملة من الجانب الأمريكي.



الفريق جون يوساك، قائد القوات البرية للقيادة المركزية الأمريكية. وقد عملنا معاً عن قرب في الأسابيع الأولى من الأزمة.

(إلى اليسار) الفريق والتر بومر، قائد قوات مشاة البحرية للقيادة المركزية الأمريكية. اخترقت قواته، جنباً إلى جنب مع القوات المشتركة، أقوى الموانع الدفاعية الكثيفة في الخطوط العراقية.







(إلى اليمين) أُقدم بعض ضباط أركاني إلى وزير الدفاع البريطاني، توم كينج، وهم (من اليمين إلى اليسار): اللواء طلال العتيبي، والعميد فيصل بالي، واللواء عطية الطوري، والعميد سالم عويمر.



أثناء تفقد إحدى الدبابات من نوع تشالنجر مع العميد باتريك كوردنجلي، قائد اللواء السابع المدرع البريطاني المعروف باسم «فئران الصحراء». ويظهر في الخلف اللواء صالح المحيا قائد المنطقة الشرقية.



(أعلى) أثناء تقديم إيجاز (تقرير) في مركز قيادة الفرقة البريطانية في حضور الفريق السير بيتر دي لابلبير والعميد باتريك كوردنجلي. حرص السير بيتر على أن يكون للقوات البريطانية دور رئيسي في الحرب.



أثناء زيارة للقوات المدرعة البريطانية، أتقلد شعار «فأر الصحراء».



في صحبة صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني، في زيارة تفقدية للقوات في الخطوط الأمامية في أغسطس ١٩٩٠.



في صحبة صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن عبد العزيز، النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام، في زيارة تفقدية للقوات في الميدان.

والهجوم الذي كان يتعرض له من وسائل الإعلام الغربية، ومعارضة الدول والشركات تزويده بالأسلحة والتقنية المتقدمة أو منحه قروضاً، كما كان يحدث في السابق. وأرجِّح أن تلك كانت صورة العالم التي رآها صدام، في فترة من عامي ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠.

ويبدو أن صداماً لم يستوعب حقيقة أساسية مؤداها أن مشاعر العداء، التي ظهرت ضده كانت نتيجة طبيعية لتصريحاته ومواقفه. فقد لاحظت، كما لاحظ الكثيرون، تغيراً ملحوظاً في تصرفات صدام ومواقفه خلال مؤتمر القمة العربية، الذي عقد في بغداد في نهاية شهر مايو عام ١٩٩٠. تابعت أحداث المؤتمر على شاشة التليفزيون، وفي الجلسة الافتتاحية بدا واضحاً أن صداماً يتصرف وكأنه السيد، ويخاطب الزعماء العرب وكأنهم مرؤوسون له! كان متعالياً شاعراً بالتفوق، وكان واضحاً أنه لا يعدّ الملوك والرؤساء المجتمعين أنداداً له. قفزت إلى ذهني صورته حين زار جدّة بعد استيلاء الإيرانيين على شبه جزيرة الفاو، في الطرف الجنوبي من العراق، في شهر فبراير عام ١٩٨٦، وهي خطوة إستراتيجية كانت تنذر باحتلال البصرة. بدا صدام، في ذلك اليوم، وهو يسير إلى جانب الملك فهد، مطأطىء الرأس، مقوس الكتفين، كسير النفس. جاء يلتمس المزيد من المساعدات.

لكن مظهره المتغطرس في مؤتمر عام ١٩٩٠ نمَّ على حقيقة شعوره. كان مفعماً بالحقد والخيلاء والتصميم على الانتقام، ويعاني إحساساً عميقاً بالظلم. ويُعدّ عدته، بلا شك، كي يأخذ بالقوة ما يعدّه حقاً من حقوقه المشروعة. ومع أنه لم يكن في استطاعة أحد التنبؤ بما قد يُقْدِم عليه في المستقبل، إلاّ أن سلوكه وتصرفاته في ذلك المؤتمر كانا مدعاة للحذر والقلق، حتى أصبحا محور حديثنا. وقد سببت لنا بالفعل كثيراً من القلق آنذاك. وفي المملكة بدأت مخاوفنا وشكوكنا في نوايا صدام تتبلور منذ انعقاد تلك القمة.

حدثت، وقبل ذلك كله، أمور أخرى تدعو إلى القلق. منها، على سبيل المثال، الإعلان عن تشكيل مجلس التعاون العربي الذي ضمّ كلًّا من العراق والأردن ومصر واليمن الشمالي، كما كان يُطلق عليه آنذاك، في عام ١٩٨٩. وبدا لنا، كما قلت من قبل، أن مجلس التعاون العربي لم يكن سوى رد إستراتيجي على مجلس التعاون لدول الخليج العربية الذي شكلته المملكة بالاشتراك مع جاراتها دول الخليج الخمس في بداية الحرب العراقية ـ الإيرانية، كإجراء للدفاع عن النفس، واستُبعد العراق من الاشتراك فيه.

وقد تأسَّس مجلس التعاون العربي دون أن يستشار الملك فهد في شأنه، أو حتى يُخطر به! وقبل الإعلان عن تشكيل المجلس بيوم واحد، زار الملك حسين الملك فهداً في الظهران، ولم يذكر شيئاً عن الموضوع قبل مواصلة سفره إلى بغداد. وإن كان المجلس قد أُعطي، في بادىء الأمر، صبغة تجمع اقتصادي، إلاّ أننا نعتقد أن ثمة دوافع أخرى كانت وراءه. فنظرة عابرة إلى الخريطة تبيِّن لِمَ بدا لنا ذلك المجلس وكأنه عملية تطويق للمملكة. ولكن، على كلٍّ، كان وجود مصر بين دول المجلس يُشعرنا بالطمأنينة؛ لأننا واثقون أن مصر لن تخطو خطوة من شأنها إلحاق الضرر بمصالحنا. ومع أن اليمن لم يكن في خطته أن يكون عضواً في هذا المجلس، في بادىء الأمر، إلاّ أن الملك حسيناً، كما علمنا بعد ذلك، قام بدور أساسي في إقناعه بالانضمام إليه. وعلى الرغم من كل الشكوك التي ساورتنا آنذاك، فإننا لم نوجِّه أي انتقاد إلى تشكيل المجلس.

إلاّ أن قَلَقنا إزاء مجلس التعاون العربي، ما لبث أن تعاظم عندما علمنا أن العراق يضغط لإعطاء المجلس بُعداً عسكرياً، يجعله يبدو كأنه تطويق معاد للمملكة. وفي اجتماع قادة مجلس التعاون العربي في عمّان في شهر فبراير من عام ١٩٩٠ للاحتفال بالذكرى الأولى لهذا التجمع، انتقد صدام كلًّا من الولايات المتحدة وإسرائيل انتقاداً عنيفاً. وأذكر أنه طالب بصفة خاصة بانسحاب البحرية الأمريكية من الخليج، مع أن تلك السفن الأمريكية كان لها دور حاسم لمصلحته في المراحل الأخيرة من حربه على إيران. (كان للتدمير الذي ألحقته السفن الحربية الأمريكية بمنصتي نفط وببارجة إيرانية وزورق صواريخ في شهر أبريل عام ١٩٨٨ أثر كبير، بلا ريب، في اتخاذ إيران قراراً بقبول وقف إطلاق النار في شهر يوليه من تلك السنة). وفي تقديري أن خطاب صدام ذاك كان فارغاً وغير مقنع وأدى إلى نتائج سياسية سلبية، إذ أثار الرأي العام في الغرب ضد العرب.

كما أشرت سابقاً، ازدادت مخاوفنا نتيجة سلوك صدام في مؤتمر القمة العربي، الذي عقد في بغداد في شهر مايو عام ١٩٩٠. ومن الواضح أنه أراد أن تكون تلك القمة تأكيداً لسيادته الإقليمية. وهي القمة التي رأى، عدوه القديم، الرئيس السوري حافظ الأسد أن من الحكمة أن يبقى بعيداً عنها. ومع أن السبب الرئيسي لانعقاد مؤتمر القمة ذاك هو الاحتجاج على الهجرة الجماعية لليهود السوفيت إلى إسرائيل، إلا أن ثمة موضوعات مختلفة تماماً ظهرت أثناء المؤتمر، وعُدَّت بمثابة مؤشرات، كما تبين فيما بعد، تنبئ بما سيحدث مستقبلاً.

من تلك المؤشرات التي ظهرت أثناء المؤتمر، التهمة التي وجَّهها صدام إلى بعض الدول العربية. اتهم الكويت والإمارات العربية المتحدة صراحة، بأنهما تشنان حرباً اقتصادية على العراق بزيادة إنتاجهما النفطي، مما يؤدي إلى خفض أسعار النفط. وواصل اتهامه قائلاً: «إن العراق خسر مليارات الدولارات نتيجة لذلك». وهذا أول دليل على أن صداماً كان يعاني أزمة اقتصادية حادة. ففي النصف الأول من عام ١٩٩٠، هبط سعر برميل النفط بنسبة ٣٠٪، أي من ٢١ دولاراً في شهر يناير إلى ١٤ دولاراً فقط في نهاية الفترة. وكان صدام في أمسّ الحاجة إلى عائدات النفط ليعيد بناء اقتصاده الذي أرهقته الحرب، كما كان عاجزاً، في الوقت نفسه، عن الحصول على قروض جديدة من الهيئات الدولية، إذ بلغت ديونه المتراكمة ٧٠ مليارا من الدولارات. ولعله، بسبب هذه الضغوط الاقتصادية، رأى في انهيار أسعار النفط مؤامرة حيكت ضده!

في ربيع عام ١٩٩٠، أيقن صدام أنه على حافة الإفلاس. ويعتقد المراقبون أن زيارة رئيس الوزراء اليوغوسلافي إلى بغداد كانت العامل الحاسم في زيادة هذا الإحساس وتعميقه، أو كما يقول المثل كانت بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. فعندما كان طه ياسين رمضان، نائب الرئيس العراقي، في رفقته وهو في طريقه إلى المطار، طلب منه قروضاً مالية جديدة، إلاّ أن رئيس الوزراء اليوغوسلافي لم يبدِ استعداداً لإجابة الطلب. وزاد الأمر سوءاً حين أدلى بتصريح لوكالة الأنباء اليوغوسلافية تانيوج Tanjug، عند وصوله إلى بلاده، ذكر فيه أنه أخبر العراقيين بأن يوغوسلافيا قدمت كل ما تستطيع لمساعدتهم أثناء حربهم على إيران، وأنها الآن في حاجة إلى استيفاء ديونها. ويبدو أن تلك النكسة ركزت انتباه صدام على الأزمة المالية الخانقة التي كان يعانيها العراق، لا سيما أنه عجز عن الحصول على القروض المتوسطة الأجل التي سعى إليها لدى الأوروپيين أو اليابانيين أو بنك الاستيراد والتصدير الأمريكي. كان يفتقر إلى المال اللازم لتنفيذ عدد من المشاريع الملحّة حين بدأ الدائنون يلحُّون في المطالبة بديونهم. ولإنقاذ الموقف، أرسل صدام رئيس وزرائه سعدون حمادي إلى الكويت ليطلب مبلغ ١٠ مليارات من الدولارات فوراً. وحسب علمي، عرض الكويتيون عليه مبلغ ٥٠٠ مليون دولار فقط، مما جعله يَعُد هذا العرض إهانة لا تغتفر.

شكّل تضخم حجم الجيش العراقي، بسبب الحرب على إيران، هاجساً خطيراً آخر لصدام. فتسريح أعداد غفيرة من الجنود قد يؤدي إلى اضطرابات

اجتماعية خطيرة، كالتي حدثت قبل عام في العراق حين لقي مئات العمال المصريين هناك حتفهم على أيدي جنود عراقيين غاضبين، اعتقدوا أن المصريين استولوا على أعمالهم ووظائفهم. وفي مثل تلك الظروف، وجد صدام أن في مصلحته إبقاء جنوده مشغولين في مغامرة خارجية أخرى.

وفي مذكرة رسمية بعث بها صدام إلى الجامعة العربية في منتصف شهر يوليه، أعاد تهديده الكويت ودولة الإمارات العربية المتحدة. كما كرر تلك الاتهامات في خطاب ألقاه في ١٧ يوليه، وهو الخطاب الذي نبّهني إلى المسار الخطير الذي بدأت تسلكه الأحداث. كانت الكويت هي محور هجومه الأول، فاتهمها بإغراق السوق النفطية، وسرقة ما قيمته ٢,٤ مليارات من الدولارات من حقل الرميلة الشمالي، الذي يقع على الحدود العراقية ـ الكويتية. كما اتهمها بالتآمر مع الإمبريالية والصهيونية ضد المنجزات العلمية والتقنية العراقية. وصرح قائلاً: «بدلاً من مكافأة العراق، فإنهم يغمدون خناجرهم المسمومة في ظهورنا». ولعل في هذه العبارة دليلاً قاطعاً على عمق إحساسه بالاضطهاد. كما قرعت كلماته تلك أجراس الإنذار في المملكة.

تسببت تصريحات صدام الحادة ضد جيرانه العرب، والتهديد الذي أطلقه في أبريل عام ١٩٩٠ «بإحراق نصف إسرائيل» إن هي أقدمت على مهاجمة العراق أو أي بلد عربي آخر، بزيادة حدة التوتر في المنطقة. (لكن بعد هذا التهديد العنيف، زار بغداد مسؤول عربي كبير أعرفه معرفة جيدة، فدُهش حين قال له صدام: «أرجو أن تنقل إلى الولايات المتحدة أن التصريح الذي صدر عَنّا هو للاستهلاك المحلي فقط. وليست لدينا النيّة أبداً لإلحاق الضرر بإسرائيل!». وكانت هذه الكلمات كافية لإثبات عدم ترابط أفكاره، وتناقض تصريحاته مع نواياه). لكن العالم الخارجي أخذ تصريحات صدام العنيفة مأخذ الجد. كما وجدت وسائل الإعلام سبباً قوياً لاتهامه بأنه رجل غير متزن وخطير. وانتهزت إسرائيل ومؤيدوها الفرصة لتأليب الرأي العام العالمي ضده. وربما يرى بعض الناس أن جزءاً من الحملة الدعائية التي شُنت على العراق كانت تتعمد استفزاز صدام كي يقدِم على خطوة حمقاء تكون حجة للقضاء عليه. وإلى هذا الحد يمكن القول إنه ربما كانت هناك مؤامرة ضده. ولكن على الرغم من هذه الاستفزازات، كان لصدام الحرية الكاملة في اتخاذ أي إجراء يراه مناسباً. فهو نفسه الذي اتخذ الخطوة القاتلة وغزا الكويت. ومن هذا المنطلق يصعب القول

إن صداماً وقع ضحية مؤامرة دُبرت ضده، كما يعتقد بعض الناس حتى اليوم. لم يكن صدام ضحية أحد! بل ضحية أخطائه الشخصية وتهوره الحاد ومزاجه العنيف.

اتسم موقف صدام من الولايات المتحدة بالتناقض. فمن جهة، كان يطلق التصريحات المعادية لأمريكا، كما فعل حين طالب بانسحاب البحرية الأمريكية من الخليج في فبراير عام ١٩٩٠. ومن جهة أخرى، كان يتوق إلى فتح حوار مع الولايات المتحدة، ويريد من واشنطن أن تعترف بأهميته! ومن الواضح أنه لم يكن يدرك مدى الضرر الذي ألحقه بنفسه وبلاده بسبب أقواله وأفعاله في ذلك الوقت، وكيف أنها ألّبت عليه الرأي العام العالمي.

ما أصعب أن ينسى المرء العلاقات الوثيقة التي كانت تربط العراق بالولايات المتحدة أثناء حربه على إيران! فكم من مرة حصل العراق على أسلحة أمريكية، ومعلومات قيّمة عن التحركات الإيرانية، فضلاً عن الدعم العسكري الأمريكي ضد البحرية الإيرانية! ففي المراحل الأخيرة من الحرب، فتحت الولايات المتحدة بالفعل جبهة ثانية في الخليج ضد إيران. وكانت العلاقات الأمريكية ـ العراقية وثيقة للغاية. وعندما أصاب صاروخ عراقي من نوع إكسوست Exocet خطأً السفينة الحربية الأمريكية ستارك Stark في ١٧ مايو عام ١٩٨٧، وقُتل في الحادث ٣٧ جندياً أمريكياً، تغاضت الولايات المتحدة سريعاً عن الموضوع بعد أن دفع العراق تعويضات مالية قدّرت بمبلغ ٢٧ مليوناً من الدولارات. وكان سفير صدام حسين لدى الولايات المتحدة، نزار حمدون، في ذلك الوقت، السفير المدلل لدى واشنطن، وأقرب المقربين إلى المسؤولين الأمريكيين على أعلى المستويات.

كانت العلاقات الأمريكية ـ العراقية جدّ وثيقة، حتى إن صداماً، على ما يبدو، لم يستطع التأقلم مع التغيّر المفاجئ الذي طرأ على موقف واشنطن منه في الأشهر الأولى من عام ١٩٩٠. وحتى اللحظة الأخيرة، وربما بعد ذلك أيضاً، لم يكن صدام ليصدق أن الولايات المتحدة يمكن أن تتخذ منه موقفاً عدائياً حقيقياً، أو أنها عازمة على شن هجوم عليه. وظن، على ما يبدو، أن نشر قوات التحالف لم يكن سوى خدعة. ومما شجعه على التمادي في ظنه ذاك أن إدارة الرئيس

بوش اتخذت تجاهه موقفاً متناقضاً خلال الفترة التي سبقت نشوء الأزمة. فعلى سبيل المثال، كان للولايات المتحدة دورٌ في إعاقة الشبكات الدولية التي كانت تزوِّده بالأسلحة، وفي الوقت نفسه تجاوبت معه وتساهلت واتخذت جانب اللين لاحتوائه وتهذيب تصرفاته وتوجيهه نحو الاعتدال.

ففي يوم ١٢ أبريل عام ١٩٩٠، اجتمع وفد أمريكي مؤلف من خمسة أعضاء في مجلس الشيوخ، برئاسة زعيم الأقلية روبرت دول Robert Dole وعضوية كل من جيمس ماكلور James McClure، وآلن سيمپسون Alan Simpson وفرانك موركوفسكي Frank Murkowski وهوارد متزنبوم Howard Metzenbaum، إلى صدام حسين لمدة ساعتين في مدينة الموصل، وأكدوا له رغبة الرئيس بوش في تحسين العلاقات معه.

أصدرت وزارة الخارجية الأمريكية تعليماتها إلى أپريل جلاسپي April Glaspie، سفيرة الولايات المتحدة لدى بغداد، بالتودد إلى صدام حسين عَلّها تعيده إلى جادة الصواب. وتدخل الرئيس بوش شخصياً لمساعدة العراق على الحصول على القروض التي طلبها. ولعل هذا كله أقنع صدام حسين بأن واشنطن تتخذ منه موقفاً ودياً. وعندما اتخذ قراره بغزو الكويت، لم يخطر بباله قط أن الولايات المتحدة سوف تتدخل لإحباط مخططاته. وكان ذلك خطأً من جملة الأخطاء الفادحة التي ارتكبها.

يبدو أن صداماً أساء تقدير الظروف الدولية التي كانت تتغير بسرعة كبيرة آنذاك. كان يدرك، بداهة، أن الاتحاد السوڤيتي في طريقه إلى الانهيار، ولعله ظن أن ذلك يخدم مصلحته في تخطيطه لغزو الكويت. ولعله قد بدا للفكر العراقي أن مصلحة الولايات المتحدة في المنطقة تنحصر فقط في الدفاع عن النفط، وضمان أمن إسرائيل، ومنع انتشار النفوذ السوڤيتي أو أي تهديد يصدر عنه. أما النفط، فكان صدام على أتمّ الاستعداد لتقديم ضمانات مؤكدة بأنه لن يتسبب بتعطيل تدفقه (كما أخبر السفيرة جلاسپي بذلك). أما إسرائيل، فلم تكن لديه النيّة لتهديدها. وأما خطر الاتحاد السوڤيتي، فكان آخذاً في الانحسار. وتوصل صدام إلى نتيجة مفادها أنه ليس هناك ما يخشاه من جانب الولايات المتحدة، إذ هو لا يهدد أياً من مصالحها. ولعل أقصى ما يمكن أن يواجهه منها لن يتجاوز المقاومة الشكلية فقط (استنكار وإدانة وشعور بقلق). فنهاية الحرب الباردة لم تقيد حركته أبداً، بل أعطته المزيد من حرية الحركة. وظنّ صدام كذلك أن القوى العظمى

ستنسحب من النزاعات في الشرق الأوسط ـ مثل نزاعه مع الكويت ـ كما كانت تفعل في النزاعات الإقليمية في جميع أنحاء العالم. لذا، توقع أن يُترك له الحبل على الغارب لينفذ مخططاته. لكنه لم يدرك أن وضع الكويت مختلف عن الوضع في أنجولا وكمبوديا، على سبيل المثال. فالدول الغربية لم تكن على استعداد للسماح لصدام بابتلاع الكويت بثرواتها الخارجية التي تقدر بمائة مليار من الدولارات، واحتياطيها الهائل من النفط، ودورها الحيوي في الصناعات الغربية!

وعَليَّ أن أذكر أن الولايات المتحدة لم تحذر صداماً تحذيراً صريحاً من مغبة استخدام القوة في نزاعه مع الكويت. وفي تقديري، أن ذلك كان خطأ دبلوماسياً فادحاً، ربما يرجع إلى انشغال الولايات المتحدة، في ذلك الوقت، بانهيار الشيوعية في أوروبا الشرقية. ومن اللافت للنظر، أن الولايات المتحدة كررت الخطأ نفسه مرات عدة، مما دفع بعض المحللين إلى الاعتقاد بأنها نصبت فخاً لصدام.

فعلى سبيل المثال، حين زار جون كيلي John Kelly، مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الشرق الأدنى، بغداد في شهر فبراير عام ١٩٩٠، أعرب عن عدم مبالاة الولايات المتحدة بنزاع العراق مع الكويت في شأن الحدود. كما أن السفيرة جلاسپي قالت لصدام في اجتماعهما المشؤوم، الذي عُقد في ساعة متأخرة من ليلة الرابع والعشرين من يوليه: «ليس لدينا قط مواقف محددة في شأن النزاعات العربية ـ العربية، مثل نزاعكم الحدودي مع الكويت». ومن الواضح، أنها كانت تنفذ أوامر رسمية، وأن صداماً صدّق كلماتها. وفي الأيام القلائل التي سبقت غزو الكويت، أكدت مارجريت تتويلر Margaret Tutwiler، المتحدثة باسم وزارة الخارجية الأمريكية، في الرابع والعشرين من يوليه، كما أكد جون كيلي نفسه في ٣١ يوليه، أنه ليس لدى الولايات المتحدة اتفاقية دفاع مشترك مع الكويت، وليس بينهما أي التزام دفاعي خاص. وسواء أكانت هذه التصريحات متعمدة أم لا، فإنها تُعَد إشارات دبلوماسية خاطئة شجعت صداماً، بلا ريب، على تنفيذ خطته.

لم تغادر السفيرة جلاسپي بغداد بعد اجتماعها إلى صدام حسين، لقضاء إجازتها كما كان مفترضاً. فقد علمتُ من مصادر موثوقة أن صداماً طلب منها أن تحمل رسالة منه إلى الرئيس بوش، وأن تعود بالرد فوراً إلى بغداد. وكانت فحوى رسالة صدام شيئاً كهذا: «تعلمون أنني انتصرت في حربي على إيران.

ولكن بدلاً من مكافأتي ضَيَّق عليّ الكويتيون والبريطانيون الخناق، أرجو أن تأخذوا في اعتباركم أن سجلي في شأن النفط نظيف تماماً، ولم أتصرّف قط تصرفاً أهوج أو غير مسؤول في مجال النفط، ولن أفعل ذلك أبداً. أريد أن يستمر الحوار بيننا. فأنا الرجل الذي يمكنكم الاعتماد عليه والتعامل معه في المنطقة».

هذه الرسالة، التي أعتقد أنها دقيقة حسبما علمتُ من المصدر الموثوق، تشير إلى أن صداماً كان يتوقع أن استيلاءه على الكويت أمرٌ لن يعرّضه لمساءلة أو عقاب، بل كان يتطلع إلى إجراء مفاوضات وإقامة علاقات في المستقبل مع الولايات المتحدة تؤكد صدارته الإقليمية في المنطقة.

لكن، لم يخطر ببال أحد في العالم، الغربي أو العربي، أن صداماً كان يخطط للاستيلاء على الأراضي الكويتية كلها. فقد ساد الاعتقاد في أوساط الاستخبارات الغربية أن صداماً ربما يحتل جزيرتي وربة وبوبيان المقابلتين لميناء أم قصر على أبعد تقدير، وربما احتل كذلك حقل نفط الرميلة الشمالي الذي يقع على الحدود العراقية ـ الكويتية. ولو أنه فعل ذلك لما استطاعت أية جهة خارجية أن تفعل شيئاً إزاءه!

وإن كان صدام قد أساء تقدير رد فعل المجتمع الدولي فإنه، بالمثل، أساء تقدير رد فعل المملكة إلى حدٍّ بعيد. وهذا خطأ جسيم لا يقل خطورة عن خطئه الأول. ويبدو أنه عوّل على أن المملكة لن تجرؤ على استدعاء قوات أجنبية إلى أراضيها. ولعل تقديره لأسوأ الاحتمالات، في حال الاستدعاء وإذا بلغ الأمر حد النزاع المسلح، هو أن تقوم البحرية الأمريكية بقصف قواته، أو أن تقوم قوات مشاة البحرية الأمريكية بهجوم برمائي، وفي هذه الحالة تستطيع قواته التصدي للهجوم الأمريكي كما فعلت، من قبل ، أثناء مجابهتها للهجمات الإيرانية المتكررة أثناء الحرب. وظن صدام، على ما يبدو، أنه ما من رئيس أمريكي يستطيع المجازفة بإقحام الجنود الأمريكيين في حرب طويلة الأمد في الخليج بعد المآسي التي تعرَّض لها الأمريكيون في ڤيتنام، والنكسة التي حلّت بمشاة البحرية الأمريكية في لبنان في أوائل الثمانينات.

ولو كانت هذه الأفكار هي حقاً ما دار في ذهن صدام، لكانت برهاناً آخر على جهله بعمق الإصلاح والتحديث اللذين أُدخلا على القوات المسلحة الأمريكية في عهد الرئيس ريجان. ويُعَدّ كاسپار واينبرجر، الذي شغل منصب

وزير الدفاع في فترة رئاسة الرئيس ريجان من ١٩٨١ وحتى ١٩٨٨، هو باعث النهضة التي شهدتها العسكرية الأمريكية بعد التقلص الذي عانته عقب حرب فيتنام. وتتلخص الإنجازات التي حققها واينبرجر في ثلاثة تحولات أساسية هي:

أولاً، أدت زيادة المرتّبات والامتيازات لرجال القوات المسلحة إلى جعل التطوع أكثر إغراءً، كما اجتذبت عناصر أفضل من الشباب. فعلى سبيل المثال، علمتُ خلال حرب الخليج أن كل ضباط القوات المسلحة الأمريكية يحملون تقريباً شهادات جامعية، بل إن كثيراً منهم حاصلون على درجتَيْ الماجستير والدكتوراه.

ثانياً، الإسراع في شراء المعدات العسكرية مما نتج منه زيادة عدد الطائرات والسفن والدبابات والمعدات الحربية الأخرى.

ثالثاً، فتح الباب على مصراعيه أمام تمويل التقنيات العسكرية الحديثة، مما أدى إلى إدخال الأسلحة «الذكية» وعدد آخر من الأسلحة الجديدة التي استخدمت للمرة الأولى في حرب الخليج.

ويبدو، كذلك، أن صداماً لم يدرك أن القوات الأمريكية حققت مستوى عالياً من الاستعداد القتالي. كما لم يستوعب مضمون الإشارات الكثيرة التي صدرت عن واشنطن اعتباراً من شهر أغسطس، والتي قد يكون من المفيد ذكر بعضها في الفقرات التالية.

ألقى الرئيس بوش، في مكتبه البيضاوي في الثامن من أغسطس، كلمة جاء فيها:

> «أولاً، نطالب بانسحاب القوات العراقية من الكويت انسحاباً كاملاً وفورياً ودون قيد أو شرط. ثانياً، يجب إعادة الحكومة الكويتية الشرعية إلى السلطة. ودعوني أوضح لكم، أن استقلال المملكة العربية السعودية، بصفتها دولة ذات سيادة، أمر حيوي لمصلحة الولايات المتحدة. وهذا القرار الذي أتفِق في شأنه مع زعماء الكونجرس ينبع من الصداقة القائمة بيننا، منذ زمن بعيد، والعلاقات الأمنية التي تربطنا».

وفي ٨ نوفمبر عام ١٩٩٠، أعلن الرئيس بوش عن تعزيزات ضخمة للقوات الأمريكية في المنطقة لكي يعطي قوات التحالف ما وصفه بـ«الخيار العسكري الهجومي».

وفي ٩ يناير عام ١٩٩١، كتب رسالة إلى صدام، سلّمها جيمس بيكر James Baker إلى طارق عزيز في جنيف، لم تدع مجالاً للشك في النوايا الأمريكية، جاء فيها:

«إذا لم تنسحب من الكويت انسحاباً كاملاً ودون قيد أو شرط فإنك سوف تخسر أكثر من الكويت. إن القضية هنا ليست قضية مستقبل الكويت، فالكويت ستُحرر، بلا شك، وحكومتها ستعود بالتأكيد. إنها قضية مستقبل العراق. والخيار لك. فإذا اندلعت الحرب، فإنها ستكون وبالاً عليك وعلى بلدك».

وأخيراً في ١٢ يناير، وقبل اندلاع الحرب بأربعة أيام، صدر قرار مشترك عن مجلسي الكونجرس يمنح الرئيس بوش صلاحية استخدام القوة في الخليج. اتخذ القرار بأغلبية ٥٢ : ٤٧ صوتاً في مجلس الشيوخ، وبأغلبية ٢٥٠ : ١٨٣ صوتاً في مجلس النواب، إلاّ أن صداماً لم يُعِر هذه الإشارات، وما أكثرها، أي اهتمام!

تنبع أحلام صدام وأوهامه، دون الدخول في تفسير مطول، من دوافع مختلطة، وأمانٍ كثيرة. كان مفلساً ومحتاجاً إلى مساعدات مالية ضخمة دون إبطاء. ولكنه وجد أن الكويت ترفض إلغاء ديونه، التي تراكمت أثناء الحرب، كما ترفض منحه قروضاً جديدة، بل تدفع به نحو الإفلاس حين تُغْرق السوق بالنفط. والأسوأ من ذلك، أن الكويت كانت تحرمه من منفذٍ إلى جزيرتي وربة وبوبيان. لذلك، قرر الحصول على مطالبه بالقوة، ولو أدى ذلك إلى أزمة دولية. وظن بالتأكيد أنه لن يواجَه بتحدٍّ عسكري، سواء أمِنَ العرب كان أم من الغرب، وأنه متى أصبح سيد الخليج، فسوف يتمكن من حلّ صِعَابهِ المالية كلها وستكون واشنطن مجبرة على الاعتراف بدوره المهم الجديد. هذا هو تفسيري الخاص لتقديرات صدام وحساباته الخاطئة.

ثمة لغز محيّر آخر يتعلق بغزو صدام الكويت: هل كان قرار الغزو وليد اللحظة، أم كان نية مبيتة وتخطيطاً مُتقَناً؟

من الواضح أن نقمة صدام على العالم بشكل عام، وعلى الكويتيين بشكل خاص، ظلت تتفاقم على مدى شهور عِدّة. كان يعاني ضغوطاً جسيمة جعلته عصبي المزاج إلى أبعد الحدود ويثور لأتفه الأمور. ونحن لا نعلم في الحقيقة

ما الذي فَجّر الأحداث. وسوف نظل نجهل حقيقة الأمر ما لم يخبرنا بها صدام نفسه! أما من جهتي، ولأنه لا يوجد إلا اليسير من الدلائل التي تشير إلى تخطيط عراقي مُتقَن، فإنني أميل إلى الاعتقاد أن قرار صدام باستخدام القوة أخذ يختمر في ذهنه تدريجياً خلال الأشهر الخمسة أو الستة التي سبقت الغزو، وفي نهاية شهر يوليه لم يعد قادراً على كبح جماح نفسه أكثر من ذلك.

ومن الدلائل اليسيرة التي تُرجِّح وجود نية مبيتة لغزو الكويت، القصة التي رواها أحد المسؤولين في شركة النفط الكويتية، وهي أن العراق، بناء على اتفاقية مع الحكومة الكويتية، أرسل قبل الغزو بنحو ستة أشهر مجموعات عدة من العراقيين إلى الكويت، ولعلَّهم كانوا من رجال الاستخبارات. أرسلهم لدراسة التكنولوجيا المتقدمة في معامل تكرير البترول ومحطات الطاقة والاتصالات والبنوك وما شابه ذلك في المجالات التي ادعت العراق تخلفها فيها نتيجة حربها الطويلة على إيران. انضمت إحدى المجموعات المكوَّنة من أربعة عراقيين إلى شركة النفط، ومكثت ثلاثة أشهر متنقلة بين المرافق البترولية، مكتسبة خبرة تشغيل المعدات ولوحات التوزيع والأجهزة الأخرى. وبعد الغزو بيومين أو ثلاثة أيام، كانت تلك المجموعة نفسها تقتحم مكتب رئيس الشركة، وتدير مرافقها بأوامر من القيادة العسكرية العراقية. فلم تكن زيارتهم التدريبية سوى زيارة تجسسية!

وهناك بعض الشواهد، بالمثل، التي تستبعد وجود تخطيط دقيق مسبق للغزو. من ذلك مثلاً أن صداماً لم يتصل قبل الغزو بأعضاء المعارضة الكويتية، الذين كانوا على خلاف حادّ مع أسرة الصباح. ومما يذكر هنا، أن المعارضة الكويتية كانت تطالب بإعادة مجلس الأمة، الذي عُلِّقت أعماله منذ عام ١٩٨٦ أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية. ونجحت المعارضة الكويتية في استقطاب آلاف المواطنين المؤيدين لمطالبها في الديوانيات الأسبوعية التي كانت تعقد في المنازل. وهذه الديوانيات من التقاليد الاجتماعية الكويتية الفريدة، فالرجال يجتمعون في منزل أحدهم بالتناوب، يحافظون على الصلة بينهم، من جهة، ويتبادلون الآراء، من جهة أخرى. وتكتسب هذه الظاهرة في أيام الأزمات أهمية سياسية خاصة. وقد اعتقل عدد من أعضاء المعارضة السياسية أثناء حضورهم تلك الديوانيات بعد مصادمات مع رجال الشرطة.

ولو كانت لدى صدام خطة مسبقة لغزو الكويت، لوجد بالتأكيد متسعاً من الوقت للاتصال بأعضاء المعارضة، والإعداد لتشكيل حكومة مؤقتة لترأس «المحافظة» الجديدة. فخلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، استبد القلق بصدام من

احتمال قيام إيران بتحريض مؤيديها في جنوب العراق على تشكيل حكومة مؤقتة في البصرة، ومن ثم دعوة الإيرانيين للتدخل. كان ذلك هاجسه الأول في معركة البصرة، فكيف غاب عن فكره هذا الأمر في الكويت إن كان، بالفعل، يُعد للهجوم عليها منذ مدة طويلة؟ فصدام لم يقدم على أي شي من هذا القبيل، على حد علمي، ولم يحاول الحصول على تأييد فئة البعثيين المؤيدين للعراق في الكويت. وعندما احتاج إلى تأسيس «حكومة عميلة» في الكويت، بعد الغزو، لم يجد كويتياً واحداً يقبل التعاون معه.

وربما قال قائل إن صداماً لم يتصل بالمعارضة الكويتية حفاظاً على سرّية خططه، ولأنه توقع أن يكون استيلاؤه على الكويت عملية سهلة يقبلها معظم الكويتيين عن طيب خاطر.

ومن جهة أخرى، يشير موقف صدام من الأمريكيين إلى أنه تصرف بناء على نزوة مفاجئة. وكما أسلفت قبل قليل، كان مقرراً أن تعود السفيرة جلاسپي بردّ الرئيس بوش على رسالة صدام. وفي الوقت نفسه، كان محدداً أن يصل إلى بغداد في ٨ أغسطس ستيفن سولارز Stephen J. Solarz لإجراء محادثات مع صدام. كان سولارز حينذاك نائباً ديموقراطياً من نيويورك، ويتمتع بنفوذ واسع في الكونجرس الأمريكي. أما صدام، فكان تواقاً إلى فتح حوار مع واشنطن، وهذا أمر كان يسعى إليه قبل كل شيء. ولكنه، مع ذلك، لم ينتظر وصول المبعوثين الأمريكيين قبل أن يقدم على خطوته القاتلة. إذ تملّكه الحنق ونفد صبره تماماً. وهذا الموقف أيضاً ينفي وجود خطة مبيتة لتصميم سابق. ولكن، من ناحية أخرى، ربما كان تحديد الموعدين مع المبعوثين الأمريكيين خدعة قَصَد منها صرف انتباه العالم، وتحقيق المفاجأة في غزوه الكويت.

ومجمل القول، كما يبدو لي، أن أكثر التفسيرات احتمالاً هو أن صداماً ظل على مدى أشهر عدة يفكر ملياً في تنفيذ حركته ضد الكويت. لكن أحداث يوليه أعمت بصيرته، وملأته حنقاً وغضباً، فاندفع في غروره بتهور شديد. ولعل «السيناريو» الذي تخيله صدام في ذهنه كان كالآتي: سيقتحم الكويت، ويقضي على الأسرة الحاكمة، ويشجع أحزاب المعارضة على إعلان صداقتها وتأييدها للعراق، ثم ينسحب، تاركاً خلفه حكومة عميلة تأتمر بأوامره. وتصور صدام أن عرضاً شاملاً للقوة سيردع أي تدخل خارجي. وبذلك، يكون قد حقق ما يريد دون قتال!

وكما حدث للرئيس جمال عبدالناصر في مصر عام ١٩٦٧، لم يستطع صدام، هذا الحاكم المتغطرس التنبؤ بأن أعداءه سوف يستغلون الفرصة لتدميره، لمجرد أن يعطي العالم ذريعة لشن حرب عليه، وأنهم لن يدَعوه يفلت، سالماً غانماً، من أيديهم.

وعلى الرغم من اختلاف الظروف، يمكن أن يُقارن صدام بعبدالناصر عام ١٩٦٧. فعندما ارتكب الرئيس المصري خطأه طالباً من الأمم المتحدة سحب قواتها من سيناء، وجدت إسرائيل أمامها فرصة ذهبية لشن هجومها على مصر، مع أن القادة الإسرائيليين كانوا يعرفون جيداً، كما اعترف بعضهم لاحقاً، أن نشر القوات المصرية في سيناء كان دفاعياً وليس هجومياً. ولكنهم ما كانوا ليتركوا عبدالناصر يفلت من المصيدة. ومع أن الرئيس المصري اقترح التفاوض، وكان على وشك أن يوفِد نائبه زكريا محيي الدين إلى واشنطن للشروع في ذلك، إلاّ أن إسرائيل نفذت ضربتها قبل بدء المحادثات. وبعبارة أخرى، فوّتت إسرائيل الفرصة على عبدالناصر للنجاة من خلال المفاوضات.

وحدث الشيء نفسه مرة أخرى في ١٩٩٠ ـ ١٩٩١. فما أن أقدم صدام على غزو الكويت حتى سارع من طالهم تهديده إلى الضغط على الولايات المتحدة لاتخاذ موقف متشدد إزاءه، فلا تراجع عن ضرورة تحطيم آلة صدام العسكرية، ولا ربْط لهذا الأمر بمشاكل الشرق الأوسط الأخرى.

لكن المقارنة بين موقفي صدام وعبدالناصر تُظهر تبايناً كبيراً بين الموقفين. تبايناً يرجِّح كثيراً كفة عبدالناصر على صدام. فموقف عبد الناصر حين نشر جنوده في سيناء، كان دفاعياً ولم يكن تهديداً لأحد. أما صدام فقد دفع قواته في اتجاه الكويت، وكان عمله هجومياً. ثم إن صداماً أُعطي فرصة للانسحاب بعد مفاوضات شارك فيها، تقريباً، كل زعماء العالم، و مددت مهلة الانسحاب إلى ستة أشهر، وكان لديه الخيار في حل سلمي. أما عبدالناصر، فلم تكن لديه تلك الفرصة، مع أنه كان مستعداً للتفاوض ومُرَحّباً به، خلافاً لصدام الذي كان رافضاً للتفاوض في غرور وصلف. لذلك، فالمحصلة النهائية لتباين الموقفين، ولا جدال في شأنها، أن صداماً ابتلع الكويت ومَزّق سيادتها، ودنّس أرضها، أما عبدالناصر، فلموقفه تحليل آخر.

ولو كان صدام مفكراً إستراتيجياً، لما أعطى أعداءه هذه الفرصة، بل لانتهز غير فرصة مواتية للانسحاب والحفاظ على كرامته. لكنّ إصراره على عدم

الانسحاب حمل بعض العرب على الاعتقاد بأنه عميل للغرب. ومن وجهة نظري، فأعتقد أنه ليس سوى طاغية ارتكب سلسلة من الأخطاء الفادحة، التي أحسن أعداؤه استغلالها لإضعافه وإضعاف بلده، وما كانوا ليتركوه يفلت من المصيدة التي نصبها لنفسه بنفسه.

في البداية، رغبت الدول العربية المشتركة في قوات التحالف في احتواء العراق، لا في تدميره. أرادت هذه الدول إعادة الحكومة الشرعية إلى الكويت ودرء الخطر عن أنفسها. فناشدت صداماً العودة إلى جادة الصواب والانسحاب من الكويت. فليس من السهل على أي بلد عربي أن يفكر في تدمير بلد عربي آخر ومعاقبته. ولكن كلما طال بقاء صدام في الكويت ينهب ويشرد ويعذب ويبطش ويتحدى العالم بأسره، زاد التأكد من أن الحرب هي الخيار الوحيد. واستبد القلق بالدول في منطقة الخليج، فحتى لو انسحب صدام من الكويت وبقيت ترسانة أسلحته سليمة لحاول تهديدها من جديد. ومرة أخرى نجد أن المصيدة التي وقع فيها صدام كانت من صنع يديه!

ارتكب صدام، حين هدد المصالح الحيوية لدول كثيرة، خطأً جسيماً وَحّد ضده تحالفاً دولياً هائلاً، يُعَدّ أقوى تحالف شهده العالم منذ الحرب العالمية الثانية. فاستيلاؤه على الكويت شكل تهديداً مباشراً لاستقلال المملكة ودول الخليج المجاورة. وعداوته لحكام دول الخليج الصغيرة لا تخفَى على أحد، ويبدو أنه صمَّم على تقويض أسس ولايتهم الشرعية. وعلى صعيد الشرق الأوسط بكامله، شكلت محاولة صدام فرض هيمنته على المنطقة تحدياً خطيراً لمصر وسوريا وإسرائيل وتركيا بالإضافة إلى إيران، ألدّ أعدائه طوال ثماني سنوات. ويعتبر تحديه الدول الرئيسية في المنطقة تحدياً للمصالح النفطية والإستراتيجية للولايات المتحدة، وهي المصالح التي تعهد الرؤساء الأمريكيون المتعاقبون على السلطة بالدفاع عنها. وبصرف النظر عن الولايات المتحدة، كان موقفه أيضاً تحدياً للعالم الصناعي المتعطش إلى النفط، بما في ذلك القوى الاقتصادية العملاقة مثل اليابان وألمانيا. وقد أثبت صدام جهْله المطبق بطبيعة النُظم السياسية والاقتصادية في الغرب وبكيفية اتخاذ القرارات، لا سيما في الولايات المتحدة. وظن، على ما يبدو، أن في إمكانه التعامل مع الدول الأجنبية كما يتعامل مع شعبه.

نجحت «عبقرية» صدام في توحيد قسم كبير من العالم ضده، بما في ذلك

دول يناصب بعضها بعضاً العداء. فارتكابُ صدام لهذا الخطأ الجسيم في أغسطس عام ١٩٩٠، ثُمَّ رفضه تصحيح ذلك الخطأ في الأشهر التي تلت، يعزز انطباعي بأنه لم يكن سوى طاغية إقليمي يجهل أمور العالم الخارجي، فحالت غطرسته ووحشيته دون أن يخبره أحد ممن حوله بالحقيقة. فالنظام العراقي لا يحتوي أية مؤسسات تحافظ على التوازن وتتولى الرقابة فتحدّ من سلطة صدام المطلقة. ولم يكن ثمة أحد يجرؤ على أن يقول له: «يا سيادة الرئيس، ليست هذه أم المعارك. لقد ارتكبت خطأً جسيماً. وعليك أن تنسحب».

خلال أزمة الخليج والفترة التي أعقبتها، قال بعض المفكرين العرب إن بعض الدول العربية، مثل المملكة العربية السعودية ومصر وسوريا، ارتكبت جريمة في تحالفها مع الولايات المتحدة ضد دولة عربية. وإنها بفعلتها تلك أساءت إلى مبادئ القومية العربية ومزّقت الإجماع العربي. وأضاف هؤلاء أن مصدر الخطر الحقيقي الذي يهدد الأمة العربية ليس صداماً بل الدول الغربية. وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، وصوروا صداماً بطلاً للقومية العربية، عمدت إلى إذلاله مؤامرة غربية أو صهيونية.

تعكس مثل هذه المواقف، بداهة، إحساس العرب بالنقمة على الاستعمار الغربي، الذي تعرض له الوطن العربي في بداية هذا القرن. كما تعكس استياءهم لدور الغرب في خلق إسرائيل في أعقاب الحرب العالمية الثانية، والتأييد المطلق الذي تمنحه الولايات المتحدة لها منذ قيامها، ولو كان ذلك على حساب المصالح الأمريكية نفسها. كما أن كثيراً من العرب ما زالوا يشعرون بالحنين، الرومانسي الحالم، إلى ماضيهم حين لم يكن لحضارتهم مثيل، ولا لقوتهم منافس.

لكن هذه الآراء لا تَمُتّ إلى الواقع بصِلة. فمن المؤسف أن «القومية العربية»، وهي شعار يرفعه معظم العرب، لم تسفر حتى الآن عن عمل سياسي موحَّد، وكان «الإجماع العربي» غائباً أكثر مما كان حاضراً، في معظم الأحداث المهمة التي أثرت في منطقتنا.

وفي اعتقادي، أن صداماً بغزوه الكويت حاول من طريق العنف والإرهاب تعزيز مصالح العراق، وتحقيق طموحاته الشخصية على حساب الدول العربية

الأخرى. ولا علاقة لأهدافه تلك بوحدة الصف العربي، ولا بالقومية العربية، ولا بالقضية الفلسطينية. وقد يقول قائل إن جميع الأنظمة الديكتاتورية العربية، بما فيها نظام صدام، هي نتاج للقضية الفلسطينية. فالعدو الإسرائيلي، دون شك، أسهم في ظهور النزعة العسكرية ووصولها إلى السلطة. ولكن من الحماقة أن يعتقد بعض القائلين، والفلسطينيون منهم، أن الطريق إلى فلسطين يمر عبر الكويت. ومن السخف القول بأن صداماً باحتلاله الكويت كان يسجل انتصاراً للفلسطينيين! وعلى العكس من ذلك يجب أن نسأل أنفسنا:

- هل حاول صدام مرة واحدة أن ينتقم من إسرائيل لهجومها على المفاعل النووي العراقي في عام ١٩٨١؟
- هل قدم السلاح لشعبه للقتال ضد إسرائيل؟
- وهل خاض أية معركة ناجحة ضد إسرائيل؟

وفي حقيقة الأمر، كان كل ما فعله صدام على الصعيدين الداخلي والخارجي منذ جاء إلى سدة الحكم في العراق في مصلحة إسرائيل. ومما لا شك فيه أن غزوه دولة الكويت قد ألحق بالعرب أضراراً بالغةً. ففضلاً عن الخسائر الجسيمة في الأرواح، تسبب كذلك بخسائر مادية بلغت مئات المليارات من الدولارات، كما أرغم مئات الألوف من الناس على النزوح من بيوتهم، وخلق صدْعاً عميقاً في العالم العربي تمثَّل في إذكاء مشاعر الكراهية وبذْر بذور الشك بين الشعوب العربية. ولعلّ هذا الصدْع هو أشد عواقب الأزمة خطراً.

أما نحن في المملكة، فقد اضطررنا إلى قتال صدام. وحاولتُ خلال الأزمة أن أضع نفسي مكانه لأعرف دوافعه. لكني توصلت إلى نتيجة مفادها أن صداماً لم يكن سوى مُعْتدٍ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، مُعْتدٍ على العرب جميعهم. كان من الضروري إيقافه عند حده دفاعاً عن النفس، ودفاعاً عن الحق، وردعاً للباطل. وفي الحقيقة، أننا لم نشغل أنفسنا كثيراً بجنسيات الجنود الذين قدِموا لمساعدتنا في مِحْنتِنا، فلو كان بيتك يحترق فلن تسأل، بداهة، عن جنسية أو هوية من يساعدك على إخماد النيران!

وأعتقد أن من واجب العرب جميعاً، وليس واجب السعوديين أو المصريين أو السوريين أو المغاربة فقط، أن يقاوموا صداماً، وألاّ يتركوا طاغية متهوراً، يداه ملطختان بالدماء يسيطر على العالم العربي. إذ لو حدث ذلك لانتهى الأمر إلى سوآت لا حصر لها في المستقبل، ولألحق العار بالأمة العربية. إنها حقاً حرب فُرِضَتْ علينا ولم نسعَ إليها.

الفصل الثاني عشر

أهداف التحالف الغربي من الحرب

شكّل المحور السعودي ـ المصري ـ السوري عقب غزو الكويت، قلب المعارضة العربية لصدام حسين، وأصبح العمود الفقري للتحالف المضاد للعراق طوال الأشهر الستة التالية. ففي غياب ذلك المحور، لم يكن شنّ حرب لتحرير دولة الكويت الشقيقة ممكناً. ادّعى بعض المعلقين، عرباً وأجانب، أن أطراف المحور الثلاثة لم تجتمع إلاّ إذعاناً لرغبة الولايات المتحدة، أو طمعاً في الحصول على مكافأة من واشنطن، سواء أكانت تلك المكافأة سلاحاً أم مالاً أم تأييداً سياسياً. فمن جملة الادعاءات، مثلاً، أن المملكة دعت القوات الصديقة بناءً على إصرار من الولايات المتحدة. وأن مصر انضمت إلى التحالف طمعاً في إعفائها من ديونها. وأن سوريا شاركت فيه حتى تُطلَق يدها في لبنان، أو لتضمن التأييد الأمريكي في عملية السلام. وفي رأيي، أن كل هذه الأقاويل كانت بعيدة كل البعد عن الحقيقة.

تشكل المحور العربي من الدول الثلاث؛ لأن كلاً منها رأت في حركة صدام تهديداً خطيراً لمصالحها الحيوية. صمَّمت المملكة ومصر وسوريا على إفشال محاولة صدام فرْض هيمنته على المنطقة. إذ لو نجح صدام في محاولته تلك لاستطاع: تهديد أمن المملكة وجعلها عرضة للابتزاز وتهميش دور مصر على الساحة العربية وتعريض نظام الحكم في سوريا لخطر داهم. فلو لم يشكّل صدام خطراً جسيماً على مصالح هذه الدول العربية، لما تشكّل التحالف، ولما شُنّت الحرب. ولعلها لو شُنت في غياب المشاركة العربية، لَغَدَتْ حرباً على نحوٍ مختلفٍ تماماً.

لم يستطع الرأي العام الغربي فهم هذه المبررات العربية؛ لأنه لم يكن يرى

إلى صدام سوى زعيم منشقّ يملك ترسانة هائلة من الأسلحة غير التقليدية يهدد بها مصالح الغرب، وأمن إسرائيل.

يُعَدّ غزو صدام الكويت في شهر أغسطس عام ١٩٩٠، أشد التهديدات خطراً لأمن المملكة، خلال فترة خدمتي العسكرية. كما يُعَدّ أعظم تحدٍّ لقواتنا المسلحة، ولي شخصياً، عندما عينت قائداً للقوات المشتركة. فمنطقتنا الشرقية الحيوية المنتجة للبترول، والمصدر الرئيسي لثرواتنا الوطنية، كانت عرضة لهجوم المعتدي بفِرقه المدرعة والآلية.

لا شك أننا واجهنا من قبل أزمات متعددة في هذه المنطقة المضطربة من العالم، منها مثلاً الحرب الأهلية في اليمن في الستينات، وحرب يونيه عام ١٩٦٧، والإطاحة بشاه إيران عام ١٩٧٩، وغزو إسرائيل لبنان وقصفها الوحشي لمدينة بيروت عام ١٩٨٢. ولكنَّ أياً من تلك الأزمات لا تقارن فداحتها بفداحة هذه الأزمة، التي أدت إلى ابتلاع دولة الكويت، وإلى تشكيل خطر مباشر على المملكة.

وعلى سبيل المثال، عندما تدخَّل الرئيس عبدالناصر في اليمن عام ١٩٦٢، لم يكن يمتلك ترسانة هائلة من الأسلحة، كالتي كان يمتلكها صدام. فضلاً عن أن القوات المصرية كانت ستواجِه مقاومة عنيفة من القبائل المحاربة التي تسكن المناطق الجبلية في اليمن، قبل أن تفكر في المغامرة باقتحام المملكة نفسها. وعلى كُل حال، كان الجيش المصري في اليمن على مسافة جدّ بعيدة عن حقولنا النفطية، تفصله عنها صحراء مكشوفة ومنطقتا عسير ونجران.

لكن الخطر هذه المرة كان على الأبواب. فجيوش صدام موجودة في الخليج نفسه، ولا تبعد عن الظهران إلاّ مسيرة بضعة أيام. لذلك، كان الوضع أكثر تهديداً وأشد خطراً.

أما اعتداءات إسرائيل على العرب، وعلى الأخص عامي ١٩٦٧، ١٩٨٢، فهي محاولات من جانب الدولة اليهودية لفرض إرادتها على الدول العربية بقوة السلاح. وقد أثارت هذه الاعتداءات، لا غرو، قلقنا إلى حدٍّ كبير. فالهجمات الإسرائيلية المتكررة نشرت الدمار والخراب في المنطقة وشَتَّتَتْ السكان، ونجم عنها الاحتلال غير المشروع للأراضي العربية، كما أدت إلى اضطرابات سياسية عميقة في المشرق العربي. ولا تزال آثار الاعتداءات الإسرائيلية ماثلة أمامنا حتى اليوم، ولا تزال مصدر قلق عميق لنا حتى الآن. ولكن في كل تلك الاعتداءات

التي شنتها إسرائيل على الدول العربية، كانت مصر أو سوريا أو الأردن، هي التي تقف على خط المواجهة، وليس المملكة.

ويصدُق ما ذكرته، في شأن اليمن وإسرائيل، على إيران أيضاً. فعندما أطاح الثوار الإيرانيون بالشاه عام ١٩٧٩ وأقاموا جمهوريتهم الإسلامية، واجهْنا تهديداً أمنياً آخر، تهديداً يتمثل في أعمال التخريب والإرهاب وإثارة النعرات الطائفية واحتمال هجوم مسلح من طريق البحر أيضاً. ولم تكن جمهورية إيران الإسلامية، الواقعة على الطرف الآخر من الخليج، جارة يسهل التعايش معها بسلام. وأثناء حرب السنوات الثماني بين العراق و إيران، من ١٩٨٠ إلى ١٩٨٨، كان التهديد الذي تعرَّضنا له تهديداً غير مباشر أكثر منه تهديداً مباشراً. فمع أننا قدّمنا إلى العراق مساعدات هائلة خلال ذلك النزاع، لكن الذي كان يخوض المعارك بشكل مباشر هو العراق، وليس المملكة.

تغير ذلك كلّه في أغسطس ١٩٩٠، عندما أقدم العراق على غزو الكويت. وأصبحت المملكة، هذه المرّة، على خط المواجهة دون وجود منطقة عازلة تفصلها عن المعتدي. ولهذا السبب، كانت الأزمة أشد تهديداً لنا، مقارنة بكل ما سبقها من أزمات.

وحماية لبلدنا وشعبنا، لم يكن لدينا خيار آخر سوى دعوة القوات الصديقة لمساندتنا، لا سيما الولايات المتحدة، القوة الوحيدة التي تملك الإرادة والوسائل لردع العدوان العراقي. ودفاعاً عن استقلالنا وسيادتنا، أصبحت سياستنا الخارجية أكثر حزماً، وتحالُفنا مع الغرب أكثر علانيةً. لم يكن الاعتماد على الغرب لحماية أمننا الوطني في المدى البعيد هدفاً نسعى إليه، بل خلافاً لذلك، كان الأفضل لنا أن نعتمد على تحالف عربي، شريطة أن يكون قادراً على التصدي للمعتدي. ولَمّا كنّا غير قادرين، نحن ودول الخليج العربية المجاورة، على الدفاع عن أنفسنا في وجه طغاة معتدين من أمثال صدام حسين، فإن التحالف مع الغرب، الذي تربطنا به مصالح اقتصادية مشتركة، يُعَد في رأيي، عملاً ضرورياً ومُلِحاً في مثل تلك الظروف.

في ٢٣ يوليه عام ١٩٩٠، أي قبل الغزو بتسعة أيام، عقدت لجنة الضباط العليا اجتماعاً في مقر وزارة الدفاع والطيران برئاسة الفريق أول محمد الحمّاد،

رئيس هيئة الأركان العامة. حضرتُ الاجتماع مع قادة القوات البرية والجوية والبحرية ورئيس هيئة استخبارات وأمن القوات المسلحة، إضافة إلى مدير إدارة شؤون ضباط القوات المسلحة. وكنّا قد تلقينا تقريراً، في الليلة السابقة، من الملحق العسكري السعودي في بغداد، يفيد بتحرك المدرعات العراقية في اتجاه الكويت.

لم تجد اللجنة، حتى ذلك الحين، في ما يحدث حولها ما يدعوها إلى القلق. ولا ننكر أن الخطاب العنيف الذي ألقاه صدام قبل بضعة أيام في ١٧ يوليه مهاجماً فيه الكويت والإمارات العربية المتحدة، قد أشاع جواً من الاضطراب. ولكن، والحق يقال، لم يخطر ببال أحد، في العالم العربي أوالغربي، أن صدام حسين كان يخطط لهجوم فعلي على الكويت وأنه ينوي احتلالها بالكامل! فما كان ذلك الاحتمال ليدور بخلد أحد، مهْما شطح به الخيال. فالعقل البشري يفكر في المألوف ويتوقع المقبول ويستبعد الشاذ وغير المعقول. ولهذا السبب، ينجح المعتدون والثوريون، عادة، في تحقيق عنصر المفاجأة.

وعُدَّت تهديدات صدام نوعاً من الخداع. فقد كانت أساليبه الخرقاء في الابتزاز معروفة تماماً. كان كثيراً ما يحصل من طريق الابتزاز على أموال طائلة من دول الخليج، سواء خلال حربه على إيران أو بعدها. كما أن الاتهامات التي وجَّهها إلى الكويت والإمارات لم تكن سوى محاولة أخرى للابتزاز. وكان المأمول شراء سكوته بالمال ليسود الهدوء مرّة أخرى في المنطقة، إلى أن يواجِه أزمة مالية جديدة.

ولكن ظهرت في الأفق مؤشرات بعينها، أثارت قلقنا ودارت حولها مناقشات في اجتماع لجنة الضباط العليا الذي عقد في ٢٣ يوليه. كانت التهديدات تحيق بالمملكة من كل حدب وصوب: من صدام شمالاً، ومن إيران شرقاً (توفي عدد كبير من الحجاج في حادث مأساوي خلال موسم الحج في ذلك العام، مما أعطى وسائل الإعلام الإيرانية ذريعة لشنّ هجوم علينا أكثر حدّة من ذي قبل)، ومن إسرائيل دولة العدوان في الشمال الغربي، التي بدت مصمِّمة على مهاجمة العراق، مع كل ما يتبع ذلك من انعكاسات سلبية على عملية السلام في المنطقة، ومن اليمن جنوباً حيث تشتعل النزاعات الحدودية بين الحين والآخر.

شعرت اللجنة أن من واجبها البحث عن كيفية مواجهة هذه الأخطار المحيطة بنا، عملياتياً وإستراتيجياً. أخذنا في اعتبارنا أن احتمال تحقيق الصلح بين العراق

وإيران، قد يؤدي إلى اجتماع الدولتين في عدائهما لنا ولسياستنا المعتدلة في ما يخص أسعار النفط. لذا، وجدت اللجنة أن من الضروري تطوير خططنا الدفاعية ورسم إستراتيجيات قصيرة ومتوسطة المدى، لمجابهة هذه الأخطار المحدقة بالمملكة من كل جانب.

أكّدت، آنذاك، أن صداماً أصبح يشكل خطراً؛ لأنه يعتبر نفسه المنتصر في حربه مع إيران ويتطلع إلى زعامة مثل زعامة عبدالناصر، فضلاً عن غروره ووَلَعِهِ بالقتال. ليس هذا فحسب، بل لأنه كان يواجه مصاعب مالية جمّة يبحث لنفسه عن مخرج منها. كانت لديه قوات مسلحة هائلة، دون عدو تقاتله، أو هدف تحققه! لم يكن في وسعه تسريح هذه القوات، خشية تفاقم البطالة المدمِّرة والعواقب الاجتماعية الخطيرة. كان من الواضح، أنه يحتاج إلى أن يُشغل قواته في جبهة أخرى وعدو جديد.

قبيل غزو الكويت، لم يكن العراق يشكّل، في رأيي، تهديداً مباشراً لنا. ولكنني كنت أتوقع ظهوره قوة إقليمية عظمى في المنطقة في غضون ثلاث أو خمس سنوات، وعندئذ سيسبب لنا متاعب لا حصر لها. لذلك، كان علينا أن نستغل هذه الفترة الزمنية المتاحة لإعداد أنفسنا الإعداد اللازم.

وتنفست اللجنة الصُعداء يوم ٢٤يوليه، بعد يوم واحد من اجتماعنا، عندما عاد الرئيس حسني مبارك إلى الكويت قادماً من بغداد بعد زيارة قصيرة، حاملاً معه تأكيدات من صدام أن تحركات قواته ليست سوى مناورات روتينية وأنه على الرغم من انزعاجه الشديد من تصرفات الكويتيين، لا ينوي استخدام القوة ضدهم. هذا ما نقله الرئيس مبارك إلى الملك فهد.

ظل الملك فهد بالاشتراك مع الرئيس مبارك يعملان على نزع فتيل الأزمة. فتارة يناشدان الأطراف المعنية الالتزام بضبط النفس، وتارة أخرى يحاولان التوسط بينهما من وراء الكواليس. اقترح الرئيس المصري، بعد مشاورات مع الملك فهد، أن يعقد الكويتيون والعراقيون اجتماعاً للتصالح في جدّة تحت رعاية الملك فهد. وأظن أن الرئيس حسني مبارك نصح الكويتيين، في الوقت نفسه، باتخاذ جانب اللين والمرونة. وجرت محاولة أخرى لاسترضاء العراق في اجتماع لدول «أوبك OPEC»، عُقِد في جنيف يومي ٢٦ و٢٧ من شهر يوليه، تم فيه الاتفاق على رفع سعر النفط بنسبة ثلاثة دولارات للبرميل ليصل سعره إلى ٢١ دولاراً، وذلك للإسهام في تخفيف الأزمة المالية الخانقة التي كان العراق يعانيها.

وفي يوم ٣٠ يوليه، وصل إلى بغداد الملك حسين، الذي وطد علاقاته مع العراق أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية، لمقابلة صدام، قبل أن يتوجَّه إلى الكويت لِيُطْلِعَ أسرة الصباح على ما لديه من أنباء. وحسب معلوماتي، أن الشيخ سعداً، ولي العهد الكويتي، سأل الملك حسيناً عن رأيه في حالة صدام النفسية.

فقال الملك حسين: «إنه ناقم عليكم أشد نِقْمة».

الشيخ سعد: «ولكن هل هناك تهديد عسكري؟».

الملك حسين: «لا، مطلقاً».

الشيخ سعد: «إذاً، لِمَ حشد قواته على حدودنا؟».

لم يصدّق الملك حسين أن هناك حشوداً عراقية على الحدود الكويتية، حتى إن الشيخ سعداً عرض عليه مرافقته إلى الحدود ليرى بنفسه المواقع العراقية المتقدمة التي كانت، في ذلك الوقت، بادية للعيان.

(وأضيف، أن أمير الكويت شعر بالاستياء الشديد حين قرأ تصريحاً للملك حسين، بعد الغزو، نشرته صحيفة أمريكية يقول فيه، إنه حذّر الكويتيين من التهديد العسكري العراقي، لكن الأمير لم يأبه لذلك، وقال إنه يعتمد على الحماية الأمريكية).

ومجمل القول أن العراق، في الأسبوع الذي سبق الغزو، إثر مساع مكثفة وزيارات متعددة قام بها المسؤولون العرب، كان قد أعطى من التأكيدات والتعهدات ما يكفي للاعتقاد بأن النزاع العراقي ـ الكويتي في طريقه إلى الحل. ولم يتوقع أحد حدوث تصعيد خطير للأزمة. وعلى هذا الأساس، ذهب تشارلز فريمان Charles Freeman، السفير الأمريكي لدى المملكة، إلى بلاده لقضاء إجازته، وكذلك غادر سفراء بريطانيا وفرنسا وروسيا واليابان لدى العراق بغداد عائدين إلى بلادهم لقضاء إجازاتهم. أما في أمريكا، فقد عَلِمتُ بعد ذلك أن ديك تشيني، وزير الدفاع الأمريكي، والفريق أول كولين پاول Colin Powell، رئيس هيئة الأركان المشتركة، كانا على وشك أن يذهبا لقضاء الإجازة الصيفية.

من جهة أخرى، فإن الاجتماع الذي دعا إليه الملك فهد وعُقد في جدّة يوم ٣١ يوليه بين الشيخ سعد، ولي العهد الكويتي، وعزت إبراهيم، نائب رئيس مجلس قيادة الثورة العراقي، عزز اعتقادنا بأن حكمة الملك فهد ومساعيه الحميدة لمعالجة الأمور، قد نجحتا في نزع فتيل النزاع بين العرب.

وخلافاً لِمَا وَرَدَ في بعض الروايات، لم يكن اجتماع جدّة الذي عُقد في اليوم الأول من أغسطس، حافلاً بالمهاترات ولم يشهد أية ثورات من الغضب ولم يحدث خلاله ما يبرر الغزو الذي وقع في الليلة التالية. ومما لا شك فيه، أن عزت إبراهيم، بعد الجهود الدبلوماسية العربية المكثفة طوال الأيام السابقة، توقّع أن يبدي الكويتيون مرونة أكبر، فيوافقون على إلغاء ديون العراق وتقديم معونات جديدة إليه والتخلي عن حقل الرميلة الشمالي. إلاّ أن الكويتيين لم يكونوا مستعدين للتنازل في أي من هذه الأمور، بل صمَّموا على مقاومة ادعاء صدام بأن كل ممتلكات الكويت هي في الواقع مِلْكٌ للعراق. وفي كل حال، فعندما رفض الكويتيون الاستجابة للمطالب العراقية الفورية، بدا عزت إبراهيم وكأنه فَقَدَ اهتمامه بالمحادثات.

بعد افتتاح المؤتمر بتبادل التحية الأخوية المعهودة، غادر الأمير عبدالله، ولي العهد، الاجتماع ليتيح للطرفين فرصة التحدث على انفراد. ثم حضر الطرفان إلى القصر لإبلاغ خادم الحرمين الشريفين بالنتائج. ركب الوفدان سيارة واحدة ترفع العلمين الكويتي والعراقي، ثم تناولا العشاء إلى مائدة الملك فهد. وأثناء ذلك، حافظ الطرفان على مظاهر اللطف واللباقة. جلس الشيخ سعد إلى يمين الملك فهد، بينما جلس عزت إبراهيم إلى يساره. ولم يصدر عن أي منهما ما ينمّ على انقطاع العلاقات بينهما، أو على وصول الاجتماع إلى طريق مسدودة. وكان قد اتُّفِق على استئناف المحادثات في بغداد بعد فترة قصيرة. لكنّ صداماً دخل الكويت بعد ذلك بساعات قليلة.

شعر الملك فهد والرئيس مبارك بصدمة شديدة جرّاء عدوان صدام على الكويت، لا سيما بعد الجهود الجبارة التي بذلها كلاهما لِتهدئة الأوضاع. فبادرا، على الفور، إلى معارضته والوقوف في وجهه. وأصدر مجلس جامعة الدول العربية، بتشجيع منهما في الثالث من أغسطس، قراراً بإدانة العدوان العراقي، وطالب بانسحاب العراق من الكويت فوراً من دون قيد أو شرط. كما اتخذ المجلس الوزاري لدول مجلس التعاون الخليجي الموقف نفسه في السابع من أغسطس. وكما ذكرت في فصل سابق، أدرك الملك فهد، على الفور، خطورة التهديد الذي حاق بالمملكة، وعدم جدوى الاعتماد على ما يسمى بـ«الحل

العربي». فبادر، على الفور، إلى جس نبض الولايات المتحدة وبريطانيا لمعرفة مدى التزام الدولتين بالدفاع عن أمن المملكة، مما أسفر عن زيارة ديك تشيني، وزير الدفاع الأمريكي، للمملكة في السادس من أغسطس، ووصول طلائع القوات الأمريكية بعد ذلك في أقل من ٤٨ ساعة. وعندما ادَّعى صدام أن «حكومة الكويت الحرة المؤقتة» هي التي استدعته وساعدته، تأكدت شكوك الملك فهد أنه لن ينسحب من الكويت حتى يقيم فيها حكومة عميلة له، تسير حسب أهوائه وتنفذ رغباته.

في تلك الأثناء، كانت لدى الرئيس المصري أسباب خاصة جعلته ينقم على سلوك صدام حسين، إذ أدرك أن صداماً لم يَصْدُقه القول حين وعده بعدم اللجوء إلى القوة، وإذا به يلجأ إليها. أحسّ الرئيس مبارك بالحرج والألم لعدم التزام صدام بوعده، لأنه كان قد نقل هذا الوعد إلى الكويتيين والأمريكيين وإلينا أيضاً. قال المتحدث الرسمي العراقي، محاولاً تبرير إخلاف الوعد، إن الوعد الذي قطعه صدام كان ساري المفعول حتى موعد اجتماع جدّة، إلاّ أن ذلك لم يكن ما فهِمه الرئيس المصري، أو ما أَطْلَعَ الآخرين عليه.

وجد الرئيس المصري، أيضاً، أن المصالح المصرية سوف تتعرض للخطر، إذا سُمِح للعراق بالهيمنة على مسرح الشرق الأوسط. ولم يكن الرئيس مبارك مستعداً للمخاطرة وإتاحة الفرصة للعراق لإبعاد مصر عن منطقة الخليج، وهي المنطقة التي عَبّرت مصر دوماً عن اهتمامها الراسخ بها خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، وأسهمت في حمايتها. ومن البديهيات التي يدرسها الضباط في الأكاديميات العسكرية المصرية، أن أمن الخليج جزء لا يتجزأ من أمن مصر.

وهناك سبب آخر يَكْمن وراء استياء الرئيس المصري، هو مساهمة مصر مساهمة ضخمة في المجهود الحربي العراقي، إذ أرسلت مستشارين عسكريين وأسلحة، وما يقرب من مليون ونصف المليون من المصريين للعمل في الحقول، وفي مختلف قطاعات الاقتصاد، مما مكّن العراقيين من الانصراف إلى المجهود الحربي. لكن صداماً لم يعترف علانية بهذه المساعدة أبداً. والأسوأ من ذلك، أنه سمح للعراقيين بإساءة معاملة المصريين إلى أبعد الحدود.

في فترة ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠، وهي الفترة التي سبقت أزمة الخليج، طُرِدَ المصريون من العراق بأعداد كبيرة دون حصولهم على مستحقاتهم المالية، أو السماح لهم باصطحاب ممتلكاتهم الشخصية، وأُجبروا على العودة إلى وطنهم في

ظروف بالغة القسوة. إضافة إلى ذلك، لقي عدد منهم حتفه في ظروف غامضة، على أيدي مجرمين عراقيين مجهولين، وشحنت جثثهم إلى بلدهم مما أثار موجة من الاستياء الشديد في مصر. ومن جملة الأسباب التي أدت إلى هذه الأعمال الوحشية، أن الجنود العراقيين العائدين من جبهة القتال، بدأوا يطردون العمال المصريين من أعمالهم عنوة، اعتقاداً منهم بأن المصريين استولوا على وظائفهم. ولعل الحكومة العراقية وجدت مصلحة لها في إرهاب المصريين وحمْلهم على الهرب من العراق، فأطلقت عليهم زُمراً من جنودها.

أثارت المعاملة السيئة، التي لقيها العمال المصريون على أيدي العراقيين، الرأي العام المصري ضد العراق. وسهلت للرئيس مبارك، من الناحية السياسية، أن يضم مصر إلى التحالف المعادي لصدام.

أما سوريا، فكانت أكثر أعضاء التحالف خشية من سيطرة العراق وعدوانه. كان صدام مصمِّماً على معاقبة منافسه القديم، الرئيس حافظ الأسد، لوقوفه إلى جانب إيران خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية. ولو سُمح لصدام بابتلاع الكويت، لكان النظام السوري هدفه التالي دون تردد. وفي السنة السابقة لغزو الكويت، حاول صدام تقويض وضع سوريا في لبنان، بإرسال الأموال والأسلحة إلى الزعيم الماروني العماد ميشيل عون، وإلى سمير جعْجع، «قائد القوات اللبنانية»، وهما من ألدّ أعداء سوريا. وعلى كل حال، فقد كان الأسد وصدام في معركة مصيرية منذ ربع قرن تقريباً، أي منذ وقوع الانشقاق في حزب البعث عام ١٩٦٦، فكلاهما من أعضائه البارزين. ومع أن اشتراك الأسد في التحالف ضد صدام أثار بعض الدهشة في الدوائر الغربية، إلاّ أنه كان أمراً متوقعاً.

كان اشتراك الأسد في التحالف موضع ترحيب كبير لسببين: أولاً، لأن سمعة الرئيس الأسد، زعيماً يؤمن بالقومية العربية، بذل نفسه لمقاومة الاعتداءات الإسرائيلية على الأراضي العربية، ساعدت على إضفاء صفة الشرعية على التحالف لدى الرأي العام العربي. ثانياً، لأن علاقات الرئيس الأسد الوطيدة مع إيران ساعدت على ضمان حيادها خلال أزمة الخليج. وقد آتت هذه العلاقة ثمارها بعد ذلك، عندما عرض صدام على إيران الصلح في منتصف أغسطس عام ١٩٩٠. وخشينا أن يتحد العراق مع إيران ضدنا، إلاّ أن الأسد حصل على تعهدات من إيران، على ما يبدو، حين زار طهران بين ٢٢ و٢٥ من شهر سپتمبر، بألاّ تُمكِّن صداماً من الاستفادة من هذه الفرصة. وعندما أرسل صدام قسماً كبيراً من قوته

الجوية إلى إيران طلباً للنجاة، احتجزت إيران تلك الطائرات ولم تُعِدْها إلى العراق حتى الآن.

وفي خطابه المشهور في التاسع من أغسطس، وصف الملك فهد غزو الكويت بأنه: «أفظع عدوان عرفته الأمة العربية في تاريخها الحديث». وشرح الجهود التي بذلتها الحكومة السعودية لاحتواء النزاع بين العراق والكويت. وكرر تأكيد مطالب المملكة بإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الغزو العراقي وعودة الأسرة الكويتية الحاكمة. وذكر الأسباب التي أدت إلى دعوة القوات العربية والصديقة لمساندتنا في الدفاع عن أراضينا والحفاظ على مصالحنا الحيوية وتعزيز قدراتنا العسكرية. وشدّد على أن وجود هذه القوات في المملكة إجراء مؤقت، وأنها سوف ترحل دون إبطاء، عندما يطلب منها الرحيل. وكرر القول أن الترتيبات التي اتخذتها المملكة هي ترتيبات دفاعية في المقام الأول، وليست موجَّهة ضد جهة محددة أو شخص معين.

ومن المؤكد أن غزو صدام الكويت أتاح لنا فرصة لمعرفة العدو من الصديق. وسواء أعَلَى خطأ كنّا أم صواب، فقد ساد لدينا الاعتقاد بأن الأردن وفلسطين واليمن وحتى السودان، تآمرت مع صدام للسيطرة على الخليج. ومما زاد في شكوكنا إحجام الملك حسين وياسر عرفات والرئيس علي عبدالله صالح، عن إدانة العدوان العراقي. فالزعماء الذين ظلوا لسنوات خَلَت ينهلون من المساعدات السعودية، ينحازون اليوم إلى جانب المعتدي ويبحثون عن حلول للأزمة تُعدّ، في الحقيقة، مكافأة له على عدوانه! لم يكن مستبعداً، وجيوش صدام على الأبواب، أن يعاود الملك حسيناً حلمه باستعادة الحجاز التي كانت تخضع لحكم جده الأكبر! وأن يحلم الرئيس اليمني، علي عبدالله صالح، بالاستيلاء على منطقتنا الحدودية في عسير! وأن يتخيل الفلسطينيون في الكويت أن في إمكانهم إقامة وطن قومي مؤقت لهم هناك، تحت حماية صدام، ريثما تتم استعادة فلسطين من اليهود! فهل كان هؤلاء الزعماء على علم مسبق بمخططات صدام؟ وهل كانوا يطمحون للاستفادة من عدوانه؟ أم أنهم كانوا يعتمدون عليه اعتماداً تاماً جعلهم يعجزون عن شجْب عدوانه؟ إن الإجابات عن هذه الأسئلة كلها بشكل مؤكد، ما زالت مجهولة حتى الآن.

يشاع أن بعض مؤيدي صدام، ومنهم ياسر عرفات نفسه، حاولوا إقناع الزعيم العراقي بالانسحاب من الكويت قبل فوات الأوان. ولعل بعضهم أراد أن يكون له رأي في سياسة ستعود بالضرر عليهم جميعاً، كما يُستشَف من القصة التالية: علمت أخيراً من مصدر موثوق أن الرئيس العراقي دعا الملك حسيناً وياسر عرفات وعلي سالم البيض، الزعيم الاشتراكي اليمني الجنوبي، لتناول الغداء في بغداد في أوائل يناير ١٩٩١. وبينما هم يناقشون موضوع العاصفة المرتقبة، ولم يبقَ سوى أيام قلائل على انتهاء فترة إنذار الأمم المتحدة المحدد لها الخامس عشر من يناير ١٩٩١، استجمع علي سالم البيض شجاعته وقال: «يبدو أنه لا مفر من الحرب الآن. ولكن على الرغم من أننا جميعاً في قارب واحد، فإنك (أي صدام) تنفرد وحدك بتسيير الأمور. إن الوضع جدّ خطير، ولا يمكن لشخص واحد أن يعالجه بمفرده، وأعتقد أنه يجب استشارتنا في كل مرحلة، وأن تتاح لنا المشاركة في صنع القرارات». انتهت القصة من دون الإشارة إلى رد صدام أو تعليقه.

لا شك في أن الفلسطينيين اعتقدوا أن صداماً بلغ حداً من القوة يستطيع معه مساعدتهم على تحقيق أهدافهم. فقد حاز صدام على تأييد الشارع العربي الذي تشبع بدعاياته في وقت كان يتطلع فيه هذا الشارع إلى زعامة قوية. كما نجح في استقطاب وسائل إعلام في كثير من الدول العربية من خلال مساعدات مادية سرية، إذ أهدى عدداً من سيارات المرسيدس لكثيرين من كبار المسؤولين. كما قام بتمويل عددٍ من الأحزاب السياسية في المنطقة. فضلاً عن تقديمه الأسلحة إلى الحكومات التي كانت تواجِه أزمات مثل موريتانيا والسودان واليمن. وأصبح الاقتصاد الأردني نتيجة الحرب العراقية ـ الإيرانية، يعتمد اعتماداً أساسياً على العراق. كما أن العنصر الفلسطيني الموجود في الأردن، الذي كان يشكل ٦٠٪ من مجموع السكان، أضاف ضغوطاً أخرى على الملك حسين كي يقف إلى جانب صدام.

ومع تقديرنا لمدى اليأس الذي يعانيه الفلسطينيون، بسبب تعرضهم للظلم والاضطهاد، إلاّ أن موقف زعامتهم إبّان أزمة الخليج جعلنا نشعر بالألم وخيبة الأمل. فقد جاء موقف الرئيس الفلسطيني طعنة في الظهر، طعنة غادرة مكافأة للمملكة لكل ما قدمَته إلى الفلسطينيين خلال كفاحهم الطويل ضد الصهيونية. فعندما اجتمع الملك عبدالعزيز مع الرئيس روزفلت Roosevelt عام ١٩٤٥، كانت فلسطين شاغله الأول! ولم يكن الملك فيصل أقل منه اهتماماً بالقضية

الفلسطينية. فما أكثر ما كان يردد أن أمنيته هي الصلاة في المسجد الأقصى بعد تحرير القدس. وكذلك، بذل الملك فهد الكثير من الجهود للتوصل إلى حل عادل للقضية الفلسطينية. فعندما كان ولياً للعهد، كاد أن يعقد اتفاقاً مع الرئيس كارتر ليستقبل ياسر عرفات في البيت الأبيض، إذا اعترف عرفات بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢. وكان عرفات على وشك أن يوافق، لكنه تراجع تحت ضغط الرافضين الفلسطينيين، مما سبب حرجاً شديداً للأمير فهد وقتئذ.

ومن أبرز جهود الملك فهد لحل القضية الفلسطينية، خطته التي طرحها في ٦ أغسطس ١٩٨١، وعُرفت بـ «خطة فهد»، وقد وافق عليها بالإجماع مؤتمر القمة الذي عقد في مدينة فاس المغربية في ٦ سبتمبر عام ١٩٨٢. تقترح الخطة أن تنسحب إسرائيل إلى حدود ما قبل ٥ يونيه ١٩٦٧، وأن تُزيل المستوطنات المقامة في الأراضي المحتلة، وأن يمارس الفلسطينيون حق تقرير مصيرهم بأنفسهم تحت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وأن يقيموا دولتهم في الضفة الغربية وقطاع غزة، وأن تكون القدس الشرقية عاصمة لهم، وأن يكون للاجئين الفلسطينيين حق العودة إلى ديارهم أو الحصول على تعويضات مالية. وتُعَد خطة الملك فهد، التي وافق عليها الزعماء العرب في مؤتمر فاس، اعترافاً ضمنياً بحقوق إسرائيل. فقد جاء فيها عبارة تنص على «أن يضمن مجلس الأمن السلام لجميع دول المنطقة».

كانت تلك هي المبادئ التي التزمت بها المملكة في سياستها الخارجية إزاء القضية الفلسطينية، في الوقت الذي انحازت فيه القيادة الفلسطينية إلى جانب صدام في احتلاله الكويت، مرتكبة، من وجهة نظرنا، خطأً سياسياً جسيماً. إذ كيف يمكن لزعيم أن يُقِرَّ احتلال دولة عربية، بينما يناضل، هو نفسه، من أجل تحرير وطنه؟ إن الذي حدث، أثناء الأزمة وبعدها، أدى إلى القضاء على الجالية الفلسطينية الثرية في الكويت وتشتيتها، وهي جالية كبيرة العدد يقارب عدد أفرادها ٤٠٠ ألف فلسطيني. كما أدى إلى عزل منظمة التحرير الفلسطينية وإفلاسها. ولولا الأخطاء التي ارتكبها الزعماء الفلسطينيون، بتأييدهم احتلال الكويت، لكانت البنود، التي نص عليها اتفاق إعلان المبادئ الذي وقّعه الفلسطينيون مع الإسرائيليين في واشنطن في سبتمبر عام ١٩٩٣، أفضل بكثير مما هي عليه الآن.

وتُمثل القضية الفلسطينية لنا في المملكة قضية جوهرية دائماً. فالفلسطينيون طُردوا من وطنهم، واغتُصبت أراضيهم، وعانوا الأمرّين جرّاء المعاملة الوحشية على يد إسرائيل وراعيتها أمريكا. ولست الوحيد في اعتقادي أن السلام الدائم لن

يتحقق في المنطقة، إلاّ إذا أقام الفلسطينيون دولتهم المستقلة.

وعندما تعرَّضنا للخطر الداهم الذي نشأ عن غزو صدام للكويت، كنّا في حاجة إلى ضمان الإطار السياسي والقانوني للإجراءات العسكرية الضرورية للتصدي لهذا العدوان على الفور. فحركة صدام كانت تهديداً بإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط ضد مصلحتنا إلى درجة خطيرة. فقبل الغزو، كنّا نوصي الكويتيين بالمرونة، شأننا في ذلك شأن مصر. أما بعد الغزو، فلا مرونة ولا تسامح، بل تصميم وتقرير مصير. فالعدوان يجب أن يعاقب، لا أن يكافأ، وإلاّ سادت العالم شريعة الغاب.

أدركت الدبلوماسية السعودية بوضوح، أن مؤتمر القمة العربي الطارئ الذي عقد في القاهرة يوم ٩ أغسطس ١٩٩٠، هو اللحظة الحاسمة. ففي ذلك المؤتمر، ظهر جلياً الصدع الكبير في صفوف الأسْرة العربية بين المعارضين لصدام ومؤيديه وملتمسي العذر له، ذلك الصدع الذي لم يُرأب حتى كتابة هذه السطور! وتخلل المؤتمر بعض المواقف المخجلة من مؤيدي صدام، بما أطلقوه من تهديدات فظة وعبارات نابية.

ففي مؤتمر القمة ذاك، صمَّمت المملكة ومصر وسوريا ودول مجلس التعاون الخليجي على إصدار قرار بالموافقة على نشر القوات العربية في الخليج لمقاومة صدام، وعلى دعوة الغرب لإرسال قواته إلى المملكة للدفاع عنها. أما العراق ومؤيدوه، فكانوا عازمين على عدم إجازة هذا القرار، فأطلقوا الشتائم والتهديدات. وفي نهاية الأمر، صوتت ١٢ دولة من الدول الأعضاء في الجامعة العربية إلى جانب القرار، وهي: المملكة العربية السعودية، دولة الكويت، دولة الإمارات العربية المتحدة، دولة قطر، وسلطنة عُمان، دولة البحرين، المملكة المغربية، جمهورية الصومال، جمهورية جيبوتي، جمهورية مصر العربية، جمهورية لبنان، الجمهورية العربية السورية. ولم يصوّت ضده سوى ثلاث دول هي: العراق، الجماهيرية العربية الليبية، فلسطين. أما الجزائر واليمن، فامتنعتا عن التصويت. بينما أبدى الأردن والسودان وموريتانيا تحفظها عليه. وغابت تونس عن المؤتمر منذ البداية. وكان الامتناع عن التصويت والتحفظ والغياب، في نظرنا، نوعاً من التحيز إلى الباطل، والبعد عن الحق. هذا الموقف الجائر، بداهة، لم يسهم في تهدئة شعورنا بالسخط والمرارة في الوقت العصيب!

لاحظ كل من تابع عن كثب أحداث مؤتمر القمة، أن طه ياسين رمضان، الرجل الثالث في العراق، وممثله في ذلك المؤتمر، حاول جاهداً أن يؤكد لنا أن ضمّ الكويت أو إعادة الفرع إلى الأصل، على حد تعبيره، لا يشكل أي خطر على المملكة، وأنه ليس لدى العراق نوايا عدوانية ضد المملكة. أما من وجهة نظرنا نحن، ولاعتقادنا أن ثمة مؤامرة تدبر ضدنا، فلم يكن لتلك التأكيدات أي معنى. فباحتلاله دولة الكويت، حتى إن لم يتجاوزها، شكّل صدام تهديداً لأمننا، ولا يسعنا أن نقف في مواجهته مكتوفي الأيدي.

ومع ذلك، أثارت تصريحات رمضان لغزاً محيراً حول صدام! هل كان في نيته أن يشن هجوماً على المملكة؟ ولو كانت لديه هذه النية، فَلِم لمْ يشن هجومه في الشهر الأول، والتحالف ما زال قيد التجمع؟ ولِمَ أتاح لأعدائه حشد قواتهم دون أن يبذل أية محاولة لإجهاض تحضيراتهم؟

وكما ذكرت في وقت سابق، كان هاجسي الأول احتمال تقدم قوات صدام إلى المنطقة الشرقية، إذ لم أكن قادراً على إيقافها بما لدي من قوات محدودة. كما خشي الأمريكيون أيضاً من إقدام صدام على استخدام الأسلحة الكيماوية ضد الوحدات الخفيفة التسليح من الفرقة ٨٢ المحمولة جواً، التي بدأت بالوصول منذ أوائل شهر أغسطس. فمثل هذا الاحتمال، لو حدث بالفعل، لأشاع الرعب والشلل، ولأنزل بالتحالف خسائر بشرية فادحة، ولأضعف، في الوقت نفسه، قوة التأييد في الولايات المتحدة للتدخل الأمريكي.

فاجأ صدام العالم في يوم ١٥ أغسطس حين عرض على إيران فرصة لتحقيق السلام! فقد وافق بالكامل على جميع الشروط الإيرانية، بما في ذلك سحب جميع القوات العراقية من الأراضي الإيرانية في اليوم التالي مباشرة، وإطلاق جميع أسرى الحرب الإيرانيين، والتقيد ببنود اتفاقية الجزائر لعام ١٩٧٥، وهي الاتفاقية التي مزّقها في بداية الصراع العراقي ـ الإيراني. وبجرة قلم، بدا وكأن صداماً يعلن للعالم أن الحرب التي شنّها على إيران طوال ثماني سنوات، هي حرب باطلة وكأنها لم تكن، وأن الأهوال والويلات والخسائر الفادحة التي لحقت بالبلدين، ذهبت هباءً منثوراً! وعندما تبين لنا أن القوات العراقية تنتقل من الحدود الإيرانية إلى جبهتنا، أيقنت أن الحرب قادمة لا محالة.

أصبح من الواضح في أوائل سبتمبر، أن صدام حسين، مهْما كانت نواياه، لم يعد قادراً على مهاجمة المملكة. ويصعب التكهن إن كان قد فكر في ذلك من

قبل أم لا، فذاك سؤال تتكفل الأيام بالإجابة عنه. ففي شهر أبريل عام ١٩٨٩، زار الملك فهد بغداد تلبية لدعوة من صدام حسين. وقال الزعيم العراقي، في تلك المناسبة، إن الشعب بكامله يريد أن يعبّر عن شكره وامتنانه للمملكة لمساندة العراق ودعمه في حربه على إيران. وطاف الزعيمان في سيارة مكشوفة شوارع المدينة، وسط تصفيق الجماهير وهتافاتها. وفي تلك الزيارة، طلب صدام إلى الملك توقيع معاهدة عدم اعتداء لكي «نُبَيّن للعالم أنه لا توجد بيننا أية خلافات»، على حدّ تعبيره. ووقّع صدام معاهدة أخرى مماثلة مع البحرين، ولكنه لم يُبْدِ أية رغبة في توقيع مثل هذه المعاهدة مع الكويت، التي كان يعتبر أن لها وضعاً خاصاً.

بعد توقيع المعاهدة وقبل غزو الكويت بشهرين، زار صدام الملك فهداً زيارة ودية في حفر الباطن رداً لزيارة الملك له في بغداد. وعندما ذهبتُ إلى حفر الباطن يوم ١٨ أغسطس أثناء جولتي التفقدية بعد الغزو، علمتُ أن صور صدام التي كانت قد وضعت احتفاءً به، لم تُنزع عن جدران نادي الضباط إلاّ في صباح ذلك اليوم!

في الأيام التي أعقبت الغزو، دهشت من سلوك الجنود العراقيين عندما يضلون الطريق ويدخلون «المنطقة المحايدة» القديمة جنوبي الكويت. كانوا إذا عبروا داخل منطقة من أراضينا، انسحبوا فوراً وأبدوا أسفهم لذلك، مما يدل على أن أوامر مشددة كانت لديهم بعدم انتهاك حرمة الأراضي السعودية، ولو شبراً واحداً. وذكر الأمير محمد بن فهد، أمير المنطقة الشرقية، أنه خلال الأيام الأربعة الأولى التي أعقبت الغزو، كان الجنود العراقيون يعامِلون السعوديين في الكويت باحترام بالغ، ويسمحون بالمرور لكل من يحمل جواز سفر سعودياً، حتى إن عدداً من السيارات التي تحمل لوحات سعودية، دخلت الكويت المحتلة لإنقاذ أقارب بعض الكويتيين الذين لجأوا إلى المملكة.

أمعنتُ التفكير، بعد ذلك، في سبب هذه المعاملة الخاصة للسعوديين، ورجّحتُ أن صداماً ربما كان يأمل في ابتلاع الكويت دون أن يضطر إلى الدفاع عن احتلاله لها أو المضيّ إلى ما هو أبعد من ذلك. ولعله وضع في حسبانه أنه إذا شنّ هجوماً على المملكة فسيواجِه عندئذٍ أعباء جسيمة في الإمداد والتموين، وربما دفع الغرب إلى القيام بعمل عسكري ضده. ولعله فكّر أن مثل ذلك الهجوم لا مبرر له أصلاً، خصوصاً بعد ما وجد أن في إمكانه السيطرة على المنطقة

بكاملها، بما في ذلك المملكة، من خلال استيلائه على الكويت وحدها. ومن ناحية أخرى، ربما أحْجم صدام أيضاً عن مهاجمة المملكة خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى تأليب العالم الإسلامي ضده.

ولو صدق تحليلي هذا، فلا شك أن رد الفعل الدولي كان صدمة قاسية لصدام، فقد جاء سريعاً وحاسماً. فبحلول منتصف شهر سبتمبر كان ما يزيد على ١٠٠ ألف جندي أمريكي قد وصلوا إلى المملكة. كما فَقَدَ صدام زمام المبادأة منذ أن بدأت قواته تتخذ مواقعها الدفاعية في الكويت. وإذا رجعنا بذاكرتنا إلى الوراء، فسوف نجد أن صداماً لم يَسْتَعِد زمام المبادأة بعد ذلك قط. ففي الفترة الفاصلة بين الغزو الذي وقع في أغسطس ١٩٩٠ والحرب التي اندلعت في يناير ١٩٩١، وهي الفترة التي حشد فيها التحالف قواته العسكرية، وكان في استطاعة صدام أن ينسحب من الكويت منقذاً نفسه وبلاده من الدمار، وقف مكتوف اليدين، كما لو كان مسلوب الإرادة.

وثمة سؤال يطرح نفسه هنا حول مدى اتفاق أعضاء التحالف على الأهداف من حرب الخليج. فقد واجه الرئيس بوش ووزير خارجيته جيمس بيكر، بعض الانتقادات من معلقين أمريكيين وأوروبيين، لإعلانهما عن أهداف مختلفة للحرب في أوقات مختلفة. فهل كان الهدف الرئيسي هو الدفاع عن المملكة؟ أم إحباط محاولة صدام ضمّ الكويت؟ أم ضمان استمرار تدفق النفط من الشرق الأوسط إلى الغرب؟ أم تدمير آلة صدام الحربية، لا سيما قدراته الكيماوية والنووية؟ أم كان الهدف معاقبة المعتدي وفرض سلطة الأمم المتحدة وحسب؟ إن التحدث عن هذه الأهداف جميعها في مناسبات مختلفة، فتح الباب على مصراعيه أمام الاتهام، ليس فقط بالتخبط، بل بتعمُّد إخفاء الحقائق أيضاً.

ولتحديد الأهداف، كان على الرئيس بوش ومعاونيه تقديم أسباب مقنِعة يقبلها الشعب الأمريكي ويوافق عليها. وقد أدى ذلك، في الواقع، إلى تغيير مضامين الموضوعات وأسبقياتها. ولكنّ ثمة عاملاً آخر كان خافياً على الرأي العام، آنئذٍ، هو خطة الخداع التي رسمتها دول التحالف. كان لهذه الخطة عنصران بارزان أولهما، إخفاء النوايا الحقيقية والأهداف النهائية للتحالف عن صدام. وثانيهما، المبالغة في تضخيم قوته في التصريحات الرسمية لكي يتكوَّن

لديه إحساس زائف بالأمان. كان ذلك سبباً لترويج الأكذوبة التي تقول: «إننا نتصدى لرابع جيش في العالم»، الجيش الذي وصفه ديك تشيني بأنه جيش «متمرس بالقتال» قوامه مليون ونصف المليون جندي و٥٠٠٠ دبابة و١٠٠٠ طائرة. فلم تكن تلك الأرقام مقبولة من كل القادة العسكريين للتحالف، ولم يكونوا مقتنعين حقيقة بقدرات العراق القتالية. فكل تلك التصريحات لم تكن سوى خدعة حربية، لينعم صدام بالزهو والأمان الزائفين.

مع ذلك كله، لم يعتقد أحد، في تلك المرحلة، أن الانتصار على العراق سيكون أمراً سهل المنال. كان هناك خوف دائم من احتمال لجوء صدام إلى استخدام الأسلحة الكيماوية، أو إلى شن غارات جوية انتحارية على أهداف حيوية، مثل مصافي النفط أو السفن الحربية لقوات التحالف، إذا وجد نفسه في موقف عسكري حرِج. كان يُنظر إلى صدام على أنه عدو متهوّر، لا يمكن التكهّن بخطواته. وأن لديه القدرة على مباغتة قوات التحالف.

ففي بادئ الأمر، عندما كان التحالف رَهْن التكامل، وكان خطر هجوم العراق على المنطقة الشرقية قائماً، رأينا من الحكمة أن يكون هدفنا المعلَن من الحرب هو الدفاع عن المملكة، لا أكثر. وكان الاتجاه حينئذ الإعلان أن إخراج صدام من الكويت يمكن أن تحققه العقوبات الاقتصادية. ولهذا السبب، لم نذكر شيئاً البتة عن دخول الكويت. وبدءاً من شهر أكتوبر، ازداد التحالف قوة. ولَمّا لم يتزحزح صدام عن موقفه، ازدادت لهجتنا حدة. فأعطينا إشارة واضحة فحواها أننا سنحرر الكويت بقوة السلاح، إذا اقتضى الأمر. لكن قوات التحالف لم تصرّح، حتى ذلك الحين، بما يفيد أن تحرير الكويت قد يتضمن مهاجمة العراق نفسه، وقد صدرت هذه الإشارات في مرحلة لاحقة، بعد تعزيز قواتها واستكمال استعدادها.

كانت نظرة العرب إلى الأحداث، في بداية الأمر على الأقل، مختلفة بعض الشيء عن نظرة الأمريكيين إليها. فنحن لا نحمل ضغينة للشعب العراقي، فهم أخوة أشقاء لنا. وكان اضطرارنا إلى اتخاذ القرار بقتالهم أمراً مؤلماً، فلم نكن نتصور أبداً أن القوات العربية يمكن أن تقاتل العراق! كما صرح الملك فهد أن هدف الحرب هو إرغام صدام على الانسحاب إلى حدوده من أجل إعادة الحكومة الشرعية إلى الكويت، وإزالة الخطر الذي يتهدد أمن المملكة. وبُذلت جهود جبارة من جانب جامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي والأمم

المتحدة والدبلوماسيين الفرنسيين والسوفيت ومن القادة العرب الكثيرين ومن الوسطاء الغربيين لإقناع صدام بالانسحاب سلماً وتجنب تعرّضه للهجوم، ولكنه أبى أن يستجيب لتلك المساعي ورفض الانسحاب.

ومع استمرار صدام خَطَراً، ازداد موقفنا صلابةً. كان علينا، في نهاية المطاف، أن نعترف بأنه لا العقوبات الاقتصادية وحدها ولا نداءات المجتمع الدولي ستجعله يثوب إلى رشده. فبعد أن أذاع صدام على الملأ أن الكويت هي المحافظة العراقية التاسعة عشرة، أعلن الجهاد ضدنا، ودعا إلى الإطاحة بالملكية، وهدد بتدمير حقول النفط الكويتية والسعودية، إذا لم تُرفع عنه العقوبات الاقتصادية. وهكذا أجبرنا تهديده وتعنُّته على أن تتوازى أهدافنا مع أهداف الحلفاء الغربيين.

وقد تبين لنا، مع الأسف الشديد، أن صداماً سيبقى تهديداً يتربص بنا في المدى الطويل، إن خرجت آلته الحربية سليمة من هذه الأزمة. وبتوصلنا إلى تلك النتيجة، لم يعد أمامنا خيار سوى التخطيط للحرب وإعداد العدة لها.

الفصل الثالث عشر

القيـادة الموازيـة

عندما وصل الفريق أول نورمان شوارتزكوف إلى المملكة في ٢٦ أغسطس عام ١٩٩٠، ذهبت إلى المطار لاستقباله والترحيب به. فقد قَدِم ليتولّى قيادة القوات الأمريكية التي كانت تتدفق جواً وبحراً إلى المملكة حينذاك. كان مظهره يوحي بالثقة بالنفس والنشاط، وتنطبع على وجهه سمات الود والألفة، مما جعله يبدو قائداً حقاً. ولَمّا كنت أؤمن بالتصرف في أسلوب متميز، فقد ترك مظهره وسلوكه في نفسي انطباعاً حسناً.

هذا الرجل، هو الذي قُدِّر له أن يكون أقرب زميل لي طوال الأشهر السبعة التالية. ومنذ اللحظة التي التقينا فيها، أدركنا أن نجاح العلاقة بيننا سيؤثّر، إلى حدٍّ بعيد، في نجاح المهمة التي أُنيطت بنا، والتي كانت تتمثل في: الدفاع عن المملكة العربية السعودية، وإخراج صدام من الكويت، وإعادة حكومتها الشرعية، والقضاء على التهديد العراقي لدول الخليج. وكنّا معاً نُمَثِّل الجانب التنفيذي للتحالف السعودي ـ الأمريكي الذي صاغه زعيما البلدين الملك فهد والرئيس بوش. أدرك كلانا مدى أهمية تحقيق الوئام والتعاون بيننا. وأصبح هذا الإدراك، في حد ذاته، أساساً لعمل مشترك مثمر فعال فيما بعد. إذ لو نشب خلاف بيننا، لانعكس أثره سلباً في التحالف بكل تأكيد.

وحتى أواخر شهر أغسطس، كان خطر توجيه ضربة عراقية إلى منطقتنا الشرقية لا يزال قائماً، على الرغم من أن ذلك التهديد لم يعد بالحدة نفسها التي كان عليها في بداية الشهر. وعندما ذهبت وشوارتزكوف في ٢٨ أغسطس لزيارة الأمير سلطان في جدّة، قال شوارتزكوف لسموّه: «أؤكد لكم أن صدام حسين سيتكبد أفدح الخسائر في تاريخ الحروب إن أقدم على الهجوم». ونظر إليه الأمير

سلطان نظرة أسى وقال: «ليس هذا ما أريد، فليس لدينا أية رغبة في تدمير العراق. ولكن إذا أصرّ صدام على عناده واستمر عاراً على الإسلام (وتلك هي العبارة التي استخدمها) عندئذ سنبذل قصارى جهدنا لإيقافه عند حده».

وعندما سمعت عبارات والدي المفعمة بالإنسانية، أدركت عمق تعبيرها عن معضلتنا الأساسية. كنّا في حاجة إلى المساعدة الأمريكية لكبح جماح صدام، لكننا، في الوقت نفسه، نشعر بالأسى لاضطرارنا إلى رفع السلاح ضد دولة عربية شقيقة. كانت حيرة استعصى فهْمها على عقول حلفائنا الغربيين، فضلاً عن وسائل إعلامهم التي ظل شغلها الشاغل تصوير العراق ورئيسه وكأنهما من عالم الشياطين، وليسا من عالم البشر. لكن الجانب العربي في التحالف، لم يفقد الأمل حتى اللحظة الأخيرة. ولم يتوقف عن الدعاء أن يثوب صدام إلى رشده، ويتخلى عن مخططاته العدوانية، فينقذ بلده من الدمار، ويعود ليتبوأ مركزه، مرة أخرى، ضمن نظام عربي جديد. ولكن، لسوء الحظ، لم يحدث شيء من هذا بسبب الكبرياء الجوفاء والغرور الزائف لرجلٍ واحدٍ. وأعتقد أن والدي شعر بفداحة الكارثة المقبلة، خلال ذلك الاجتماع معَ القائد الأمريكي، الذي يمثل قوة الولايات المتحدة العسكرية. فالقرار بدعوة القوات الأمريكية لمساندتنا لم يكن قراراً سهلاً على الإطلاق.

بعد مقابلتنا الأمير سلطان، عدت وشوارتزكوف إلى الرياض على متن طائرة خاصة. كنت أشعر بالإرهاق، ووددت لو أخلو إلى نفسي ساعة من الزمن أستجمع فيها أفكاري. فكلمات والدي عن صدام كانت لا تزال ترنّ في أذني «إذا استمر عاراً على الإسلام». وانشغلت عن شوارتزكوف بالتفكير العميق. ولكن كيف اشغله خلال الرحلة دون أن يظن أنني أتجاهله؟ وتصادف أن كنت أحمل معي شريطاً (ڤيديو) مسجَّلاً للخطاب الذي ألقاه الرئيس حسني مبارك أخيراً عن الأزمة. واعتقاداً مني بأن شوارتزكوف قد يجد فيه ما يثير الاهتمام، طلبت من مرافقي العسكري (الركن الشخصي) العقيد أحمد لافي أن يقوم بترجمته له جملة جملة. فجلس الاثنان في مؤخرة الطائرة لأكثر من ساعة، وجهاً لوجه، يقتربان تارة ويبتعدان أخرى. وقد ارتسمت علامات الجدّ والاجتهاد عليهما، اجتهادُ العقيد أحمد لافي في الترجمة كلمة كلمة حسب التعليمات، واجتهاد شوارتزكوف، مجاملة، في السمع والفهم. وعندما حانت التفاتة مني إلى مؤخرة الطائرة، استطعت أن أستشفَّ من ملامح وجهه أنه لم يكن يفيض سعادة بما هو فيه.

كنت أعرف عن شوارتزكوف الكثير حتى قبل وصوله إلى المملكة. فقد تخرج في وست پوينت، وهي أكاديمية عسكرية لا تقل صرامة عن ساندهيرست، ضابطاً في سلاح المشاة، وحصل على الكثير من الأوسمة. كما خدم مرتين في ڤيتنام، وتولى قيادة إحدى الفرق. ثم احتل منصباً رفيعاً في وزارة الدفاع الأمريكية. ومنذ نوڤمبر ١٩٨٨، شغل منصب قائد القيادة المركزية الأمريكية التي تمثل استعداد أمريكا للدفاع عن مصالحها في الخليج بالقوة إذا دعت الضرورة، وذلك من مقرّها في قاعدة ماكديل MacDill الجوية على مقربة من تامپا في ولاية فلوريدا.

ومع أن شوارتزكوف يبدو مهذباً إلى أبعد الحدود، إلا أنه قد يتحول، كما قيل لي، إلى شخص عنيد وينفجر غضباً في بعض الأحيان. وكانت سمعته في تشبثه برأيه وحرصه على الحصول على ما يريد قد سبقته. وهو معروف بين رجاله باسم «الدب».

كان لدي ما يكفي من هذه الخصال. فلست أخشى في الحق لومة لائم، ولا يستطيع أحدٌ أن يخيفني أو يرهبني. وما أسرع ما اكتشفت أننا متشابهان في نواحٍ أخرى. فكل منّا معتدٌّ بنفسه، حساسٌ سريع الغضب، نزّاعٌ إلى السيطرة نوعاً ما. لكننا - والحق يقال - نتصف بالعاطفة ورقة القلب أكثر مما يدل عليه مظهرنا الخارجي. أمّا من الناحية البدنية، فكلانا ممتلئ الجسم وأكثر من ١٨٠ سنتمتراً طولاً، كما أننا أعسران. أما مظاهر الاختلاف بيننا، فأهمها أنه كان في السادسة والخمسين من عمره، بينما كنت في الثانية والأربعين. كان هو برتبة فريق أول، وأنا برتبة فريق. كان في وسعه الاعتماد على مؤسسة عسكرية ضخمة، أما أنا فلم يكن لدي سوى تنظيم في طور التكوين. كانت لديه خبرة حروب كثيرة، أما أنا فكانت هذه خبرتي الأولى. وأدركت فوراً أن عليّ أن أبذل جهوداً جبارة كي أرسي دعائم قيادة توازي قيادته حقاً. ولكني كنت متفوّقاً عليه في جانب ما كان له أن يعوضه وهو أني أمير وما يتبع هذا من ميزات. ولذلك قررت الاستفادة من تلك الميزات إلى أبعد الحدود.

وخلال عملنا على التوازي، ساد الوئام غالباً علاقتي بشوارتزكوف. كنّا نعمل جنباً إلى جنب، نختلف أحياناً، ونضطر أحياناً أخرى إلى التفاوض حتى نصل إلى حل وسط. لم يكن شوارتزكوف رجلاً يسهل التعامل معه، وأنا الآخر، كنت كذلك. فما أكثر الخلافات التي حدثت بيننا من وقت إلى آخر، ولكنها لم تكن

لتدوم طويلاً. وما أن عرف كل منّا الآخر حتى أصبحنا صديقين نتبادل الاحترام والتأييد. ولا ريب أننا أدركنا أهمية ذلك الوئام في علاقتنا لتنفيذ المهمة التي أوكلت إلينا. وفي نهاية المطاف، شعرت أن كلاً منّا يحترم الآخر ويكنُّ له مشاعر الود ويسعد بالعمل معه. لم تَعُد علاقتنا تقف عند ضرورات العمل. وكم تمنى شوارتزكوف لو كان نظيره شخصاً يستطيع السيطرة عليه، لكنه عندما تعرف بي عن كثب، أدرك أن من مصلحته أن يعمل مع شريك في القيادة يتمتع بالصلاحيات الكافية لتسهيل مهمته، حتى يؤدي عمله على خير وجه. كان نجاح مهمته رهناً بقوة المملكة وقدرتها على تقديم الإسناد الضروري، وهنا كان يَكْمن دوري.

ومع أني أدرك تماماً، بطبيعة الحال، احتمال وجود اختلافات كبيرة في تسجيل كلٍّ مِنّا لبعض الأحداث والوقائع التي وردت في هذا الكتاب، إلاّ أن هدفي هو أن أضع عملية التسجيل في نصابها الصحيح كما شاهدتها وعايشتها.

فبادئ ذي بدء، ومنذ أول يوم التقيت فيه شوارتزكوف، اقترحت عليه في أسلوب لبق أن يتصل ضباط أركانه بضباط أركاني لترتيب اجتماعاتنا المقبِلة. وفي الوقت نفسه، أصدرت تعليماتي إلى المرافق العسكري بأن تتم جميع الاجتماعات مع شوارتزكوف في مكتبي دوماً. فبإصراري على مجيئه إلى مكتبي، كنت أرسل رسالة تعني توازي قيادتينا.

في ذلك الوقت، جاء لزيارتي في مكتبي أخي بندر، سفير خادم الحرمين الشريفين لدى واشنطن، الذي كان ولايزال يقوم بدور بارز في إدارة العلاقات السعودية ـ الأمريكية. وبعد أن ناقشنا معاً تطورات الأزمة وعلاقاتنا بالولايات المتحدة، قال لي: «خالد، لِمَ لا تعقد اجتماعاتك مع شوارتزكوف مرّة في مكتبه ومرّة في مكتبك بالتبادل؟». فأجبته فوراً: «مستحيل! يجب أن تُعقد جميع الاجتماعات في مكتبي. وأرجوك ألاّ تتدخل».

حاول بندر بأسلوبه الدبلوماسي أن يساعد على تطوير العلاقة بيننا. لكني كنت أتساءل إن كان الاقتراح من بندرٍ نفسه، أم أن الأمريكيين طلبوا منه التوسط في الأمر! لقد كنت، في الحقيقة، سعيداً لوجود أخ لي في ذلك المنصب الحساس. وأدركت أنه تفهم موقفي وأدرك ما كان يشغَل بالي. فقد عشنا معاً تجارب كثيرة قرَّبت بيننا، منها مثلاً أننا درَسنا معاً في بريطانيا، درَس هو الطيران في كرانويل Cranwell، ودرَست أنا في ساندهيرست.

هكذا سارت الأمور بيني وبين شوارتزكوف على هذا المنوال. فطوال فترة الأزمة، كان يحضر إلى مكتبي الساعة الرابعة من عصر كل يوم، فنجتمع لمدة تتراوح بين ٤٥ دقيقة وساعة لمراجعة استعداداتنا للحرب، ووضع الحلول المناسبة، في حينها، للمشاكل التي تعترضنا. وأثناء حديثنا، كنّا غالباً نتناول الكعك السعودي (الكليجه) الذي كانت تعده لي عمتي الأميرة نوف بنت عبدالعزيز بلطفها المعهود، ونحتسي الكوكاكولا الخالية من السكر، وهي إشارة صغيرة إلى أن كلينا يعاني من زيادة في الوزن. وإذا واجهتْنا مشكلة بارزة اجتمعنا ثانية نحو الحادية عشرة ليلاً لساعة أو ساعتين للمضيّ في مناقشتها. كنّا نحتسي قهوة الكابوتشينو الشهيرة، كما كان يحلو له أن يدعوها، وهي تتميز بشدة تركيزها وقدرتها على طرد النعاس.

ولعل من المناسب، في هذا المقام، أن أتطرق إلى الحديث عن فكرة «القيادة الموازية». فهذا المصطلح لم يُقصد به، ولا يمكن أن يقصد به، أن قيادتي وقيادة شوارتزكوف كانتا متساويتين، إذ لم يكن هناك تكافؤ في القوات، أو الموارد، أو المعدات المتيسرة لكلٍ منّا. ونظراً الى حجم القوات الأمريكية الهائل في التحالف، لم يكن ثمة شك في أن الولايات المتحدة ستكون لها اليد الطولى في اتخاذ القرارات القيادية الجوهرية. فقوات شوارتزكوف البرية تفوق قواتي بثلاثة أمثالها. أما في الجو، فكانت النسبة ٥ : ١ على الأقل. وكذلك الأمر في البحر، إذ كانت قوات الولايات المتحدة تفوق ما سواها بكثير. هذه الحقائق لم تكن ملائمة قط لاقتراح تشكيل قيادة موازية، وهي القيادة التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ العسكري الأمريكي. ففي الحرب العالمية الثانية مثلاً، أو في كوريا أو ڤيتنام، كان هناك دائماً قائد أمريكي أعلى. وعلى الرغم من أن حلفاء أمريكا كان لهم، بالمثل، قادة عسكريون كبارٌ ومتميزون، لكنهم لم يصلوا أبداً إلى مكانة القائد الأعلى الأمريكي. إلاّ أن الوضع كان مختلفاً تماماً في حرب الخليج.

ففي الأسابيع الأولى، حينما كانت مسؤوليات كلٍ منّا الخاصة غير محددة بوضوح، ظهرت تكهنات كثيرة في الصحافة العالمية حول مسألة القيادة والسيطرة، كانت وسائل الإعلام تريد معرفة من الذي يصدر الأوامر. ومن

الواضح، أن فكرة القيادة الموازية استغرق فهمها بعض الوقت. ولا غرابة في ذلك، لأن الفكرة نفسها، قبل كل شيء، كانت فريدة في نوعها. فلم تكن القوات الأمريكية لتقبل أن تعمل تحت القيادة السعودية. وبالمثل، لم تكن القوات السعودية ولا العربية لتقبلا العمل تحت القيادة الأمريكية. لذلك، كان المطلوب صيغة جديدة للقيادة. ومن هنا، جاءت فكرة القيادة الموازية لتذلل بمرونتها هذه العقبات. وعندما سألتني جورجي آن جاير Georgie Anne Geyer من يونيفرسال پرس سنديكيت Universal Press Syndicate عن موضوع القيادة في أوائل أكتوبر، أجبتها، على ما أذكر، قائلاً: «الرجلان الوحيدان اللذان لا يشغلهما هذا الموضوع، هما الفريق أول شوارتزكوف وأنا».

وفي إصراري على مبدأ القيادة الموازية، لم أكن أسعى إلى التنافس مع شوارتزكوف أو التقليل من مكانته؛ لأنني كنت على يقين أن الولايات المتحدة ستتولى بنفسها قيادة قواتها التي ضمت ٥٥٠ ألفاً من القوات المسلحة الأمريكية، رجالاً ونساءً. فقد طغى الوجود العسكري الأمريكي الهائل على القوات السعودية والبريطانية والفرنسية وعلى كل القوات الأخرى في التحالف. ومن الطبيعي أن يكون الدور الأساسي والأول في تخطيط الحرب وإدارتها للفريق أول شوارتزكوف، في الخليج، وللفريق أول كولين پاول، في واشنطن. لكنني أردت أن يدرك شوارتزكوف ضرورة أن نؤكد للرأي العام السعودي والعربي أننا نسيطر على القوات الغربية التي وصلت إلى قلب العالم الإسلامي. ففي غياب سيطرة المملكة يبدو الأمر كأنه غزو مقنّع واحتلال غير مباشر، وانتهاك لقيمنا الإسلامية التي نعتز بها أكثر من أي شيء آخر. ومن هنا، كان ينبغي عليّ أن أبيِّن للجميع أنني جنباً إلى جنب وعلى قدم المساواة، مع القائد الأمريكي في قيادة موازية.

حدد تنظيم «القيادة الموازية» العلاقة بيني، قائداً للقوات المشتركة ومسرح العمليات، وبين شوارتزكوف، قائداً للقوات الأمريكية. كان علينا أن نعمل معاً يداً بيد، وبشكل يومي لكي تكون مشاركتنا مثمرة وفَعّالة. غير أن صلاحياتي كانت تقتصر على نطاق مسؤولية قيادة القوات المشتركة داخل المملكة فقط، إذ لم تكن لي أية علاقة بمسؤوليات القيادة المركزية الأوسع نطاقاً، سواء أفي المنطقة كانت أم داخل العراق أثناء الحرب نفسها.

كنت حلقة الوصل بين سلطات القيادة الوطنية السعودية وبين القوات الشقيقة والصديقة الأخرى، بما في ذلك القوات الأمريكية. وكان لزاماً عليّ، تبعاً لذلك، أن أولي اهتماماً خاصاً لأربعة مجالات من المسؤولية.

كانت مهمتي الرئيسية الأولى ذات طبيعة عسكرية. ففي الأسابيع الأولى من شهر أغسطس ١٩٩٠، كانت قواتي هي القوات الوحيدة في الميدان التي تواجِه الحشود العراقية، إذ كانت القوات الأمريكية منهمكة في النزول من سُفنها وطائراتها والانتقال إلى مواقع دفاعية تبعد نحو ١٠٠ كيلومتر إلى الخلف، لتشكل ما اعتبرناه الحزام الدفاعي الثاني. في تلك المرحلة، كان الإسناد الجوي القريب، هو المساعدة العسكرية الوحيدة التي كنّا نتوقعها من الأمريكيين.

وقبل وصول القيادة المركزية الأمريكية، كنت أُدرك تماماً خطر شن هجوم عراقي وشيك علينا، وأُدرك أيضاً دوري قائداً عسكرياً مسؤولاً عن التصدي لذلك الهجوم. لذلك حشدنا كل ما لدينا على الجبهة في مواجَهة العراقيين، وكان علينا أن نصمد في هذا الوضع. ففي الخطط الدفاعية المختلفة التي عُدّلت ونُقّحت مع مرور الوقت، كانت القوات السعودية دائماً في الخط الأول تساندها القوات المصرية والسورية والقوات الأخرى، بينما تقف الوحدات الأمريكية بعيداً إلى الخلف.

حين واجهْنا الخطر الداهم من صدام خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر أغسطس، لم يكن شوارتزكوف قد وصل إلى المملكة بعد، إذ إنه لم يصل إليها إلاّ في نهاية أغسطس. وبعد ذلك بأسبوعين، أي في منتصف شهر سبتمبر، أخذ الخطر العراقي ينحسر سريعاً، كما اتضح لنا من طريقة نشر صدام قواته. كان شكل احتلال قواته المواقع في مسرح العمليات الكويتي وطبيعته دفاعياً، وليس هجومياً. كان انتحاراً من جانبه، في كل المقاييس العسكرية، وهو يحفر الخنادق ويحتل المواقع الدفاعية.

خلال المرحلة الأولى من الأزمة، وضعنا خططنا الدفاعية وفق المتيسر لدينا من القوات السعودية التي تم تعزيزها بعد فترة قصيرة بوحدات مصرية وسورية ومغربية. ولـمّا بدأت القوات الأمريكية والبريطانية والقوات الصديقة الأخرى الوصول إلى المملكة، وضعنا معاً خطة «درع الصحراء». وتم الاتفاق في صورة مشتركة على فكرة العمليات، واستخدام القوات، ومناطق المسؤولية للوحدات والتشكيلات الشقيقة والصديقة، وقواعد الاشتباك، وبرامج التدريب المشترك، إضافة إلى أمور كثيرة أخرى. وفي نهاية المطاف، كان عليَّ أن أتولى قيادة وحدات وتشكيلات من ٢٥ دولة من الدول التي قَدِمَت لمساندتنا، بينما تولى شوارتزكوف قيادة قوات من ١٢ دولة. ومن الناحية العسكرية، بلغ تعداد

الوحدات التابعة لقيادتي ٢٠٠ ألف رجلٍ تقريباً، ومع أن هذا العدد لا يقارَن بما كان تحت قيادة شوارتزكوف، إلاّ أنه لا يعني أن قيادتها كانت أكثر سهولة. كانت لدي صلاحيات نشر هذه القوات وتخصيص المهام لها، واتخاذ جميع القرارات العسكرية الأخرى اللازمة ضمن نطاق الخطط العسكرية المتفَق عليها بيننا، في شأن عملية درع الصحراء أولاً، ثم عملية عاصفة الصحراء، بعد ذلك.

وعندما حان وقت التخطيط لعملية عاصفة الصحراء، كان اهتمامنا منصبّاً أساساً على تحرير دولة الكويت، هدفنا الرئيسي من الحرب. لكن هذا لم يَحُلْ بيننا وبين مناقشة خطة الحرب الشاملة وتعديلها. إذ أدخلنا عليها بعض التعديلات لضمان ملاءمتها أهدافنا وإمكاناتنا. وكان على مجموعة التخطيط المشتركة أن تضع نصب أعينها احتمال انسحاب صدام فجأة من الكويت انسحاباً غير مشروط قبل بدء الحرب. قمنا بدور رئيسي في التخطيط لتأمين المواقع والمنشآت الحيوية في الكويت وحمايتها، مثل المطارات ومعامل تكرير النفط ومحطات تحلية المياه، قبل تسليمها إلى السلطات الكويتية، وكذلك تحديد التدابير الأمنية الداخلية التي ينبغي اتخاذها.

وإذا كانت مسؤوليتي الأولى ذات صفة عسكرية تكتيكية، فإن مجال مسؤوليتي الثانية كان ينصبّ على الإمداد والتموين، إذ يلزم توفير الاحتياجات لقوات التحالف جميعها، بدءاً من تقديم شطائر الهمبرجر الساخنة إلى القوات الصديقة فور نزولها من الطائرات، إلى طواف أرجاء العالم بحثاً عن ١٠ آلاف شاحنة ثقيلة، وانتهاءً بتجهيز بعض الوحدات الصغيرة الحجم التي وصلت إلى المملكة من بلادها، وليس لديها أكثر من الملابس التي كانت ترتديها.

كان تأمين الإمداد والتموين لقوات التحالف ولقواتنا من أكبر مشاغلي خلال الأشهر الأولى من الأزمة. هذا المجال الحيوي الذي قمنا فيه، بصفتنا الدولة المضيفة، بدور رئيسي وبارز ظل هَمّاً يشغل قيادتي، قيادة القوات المشتركة، إلى أبعد الحدود. وخشية توجيه ضربات وقائية عراقية إلى موانئنا ومطاراتنا في الجبيل والظهران، رَكَّز شوارتزكوف على أن تكون الأسبقية الأولى في الوصول إلى المملكة للوحدات المقاتلة مثل وحدات من الفرقة ٨٢ المحمولة جواً والفرقة ٢٤ مشاة آلية، على أن تصل وحدات إسناد هذه القوات، كأسبقية ثانية. كان ذلك يعني أن علينا، منذ اللحظة الأولى لوصول تلك القوات، تزويدها بالطعام والمياه وأماكن الإيواء وخدمات أخرى كثيرة. إن قرار تحديد أسبقيات نشر القوات ليس قراراً سهلاً، إذ تؤثّر فيه اعتبارات عدة واحتمالات كثيرة.

كانت مهمتي في هذا المجال، إيجاد الحلول للمشاكل فور حدوثها، سواء بالتدخل لدى السلطات المختصة من أجل الإسراع في إصدار القرارات المناسبة أو بتَخَطِّي العقبات البيروقراطية أو بإصدار التعليمات بنفسي. ولكي أتمكن من الاضطلاع بهذا العبء الجسيم، طلبت منحي صلاحيات واسعة، وحصلت عليها بالفعل. وكان لتعاون عدد من الوزارات والأجهزة الحكومية أثره الكبير في تيسير مهمتي. استغرق الأمر، بالطبع، بعض الوقت لأقنع كل مسؤول أنني أنوي ممارسة كل الصلاحيات التي فُوِّضَتْ إليّ. وما أن أدرك الجميع أهمية ذلك حتى أبدوا تعاونهم الكامل واستجابتهم الفورية. وحينئذ فقط، كنت قادراً على إنجاز الكثير من المهام عقب محادثة المسؤول هاتفياً، وهو ما حقق الفائدة والارتياح إلينا وإلى شركائنا في التحالف. وسأذكر، في فصل لاحق، سرداً موجزاً لبعض مصاعب الإمداد والتموين التي كنّا نواجهها.

أما مسؤوليتي الثالثة، فكانت ضمان الانسجام السياسي بين أعضاء التحالف، نظراً إلى ما لها من انعكاسات على العلاقات بين الوحدات والتشكيلات لمختلف الدول التي اجتمعت في المملكة. وزيادة في الإيضاح، فإن عملي لم يكن بناء الصرح السياسي للتحالف، لأن هذا العمل أُنجز في أعلى مستوى من قِبَل الملك فهد والرئيس بوش وزعماء الدول الأخرى المشارِكة في التحالف، بل كان واجبي أن أنفذ، على الطبيعة، كل القرارات السياسية التي اتخذها هؤلاء الزعماء. ونظراً إلى العدد الكبير من الدول التي شاركت في التحالف، فإن الأمور السياسية كانت أكثر أهمية في هذه الحرب منها في أي حرب أخرى منذ الحرب العالمية الثانية. وهذا ينطبق، بصفة خاصة، على الدول العربية المشاركة في التحالف، وعلى فرنسا كما سنرى فيما بعد.

كانت مسؤوليتي الرابعة والأخيرة تتلخص في حماية عقيدتنا وسيادتنا وثقافتنا وتقاليدنا من أن يُستهان بها، أو تنتهك حُرمتها من جانب القوات التي أتت لمساندتنا. كنت مسؤولاً أمام قادتنا وأمام المملكة كلها، أن تتم الأمور في النهاية بالصورة الصحيحة وبالأسلوب الذي يرضينا. لذلك، كان ينبغي عليّ التأكد من أن شوارتزكوف يتفهم الظروف والقيود التي أعمل في إطارها. ولو لم أكن يقظاً تماماً لِما يفعله هو وجنوده، ولو لم أضع حدّاً لِما قد يحدث من تجاوزات، أولاً بأول، لأدت الضغوط الداخلية إلى انهيار العلاقة بين المملكة والولايات المتحدة، وبين المملكة وكل من بريطانيا وفرنسا. كانت لديّ خبرة كافية بالغرب وبالجيوش الغربية، وهذا ما جعلني أُقدّر حاجاتها وأفهم أسلوبها في الحياة.

ولكن في الوقت نفسه، كان من واجبي أن أقيم الحدود التي تفرضها عقيدتنا وتقاليدنا. كانت تلك الحدود بمثابة «خطوط حمراء» لا يمكن تجاوزها في أي حال من الأحوال، للحفاظ على وحدة البلاد وسلامة أراضيها.

في بداية شهر سپتمبر، ناقشت مع شوارتزكوف استكمال الخطة الدفاعية العاجلة التي وضعتها مع الفريق يوساك بعد الغزو مباشرة، وقبل وصول شوارتزكوف إلى المملكة. ففي ذلك الوقت، ومع وصول مزيد من القوات وانحسار خطر الهجوم العراقي، كان من الضروري تحسين تلك الخطة وتطويرها إلى خطة «درع الصحراء». حَرِصت على إشراك شوارتزكوف وضباط أركانه في خطتنا الدفاعية، لأنني أيقنت أن الأمريكيين سيبدأون فوراً التخطيط لعملية هجومية، وأردت أن أكون مشاركاً فيها أيضاً. وبالفعل، كان لنا إسهام كبير فيها، تخطيطاً وتنفيذاً وإدارة.

كما أكدتُ إصراري على ضرورة إجراء تدريبات مشتركة مع القوات الأمريكية. كان شوارتزكوف يُعدُّ جنوده لخوض المعركة، وأردت أن تستفيد قواتي من التدريب معهم. أبدى ضباط أركاني شيئاً من التردد، إذ لم يسبق لنا أن اشتركنا في تدريبات مشتركة مع الولايات المتحدة من قبل، لكني رأيت في ذلك فرصة سانحة ينبغي الاستفادة منها. وفي الواقع، أردت أن تكون التدريبات المشتركة على مستوى الكتيبة واللواء، وليس على مستوى الفصيل أو السرية.

ولكن المشكلة كانت تَكْمن في أن القوات السعودية ومعظم القوات الأخرى تحت قيادتي، لم تكن لها خبرة بالإسناد الجوي القريب. ومع ذلك، أردت أن تكون التدريبات واقعية وأقرب ما تكون إلى ظروف المعركة الحقيقية مع استخدام ذخيرة حية. أردت أن تعتاد القوات على أصوات المعركة الرهيبة. ولكن إذا أردنا للتدريبات أن تكون أكثر واقعية، فعلينا مواجهة احتمال حدوث خسائر في الأرواح. أخبرت شوارتزكوف استعدادي لقبول نسبة ضئيلة من الخسائر في الأرواح، لكنه أصرّ على اتخاذ احتياطات السلامة ١٠٠٪. كان حريصاً على تجنب أية دعاية معادية قد تنشأ جرّاء وقوع خسائر بشرية، سواء أَفي صفوفنا كانت، أم في صفوف القوات الأمريكية، ولعله كان مُحِقّاً في ذلك. في نهاية المطاف، اتفقنا على خطة بسيطة لتقليل المخاطر مع الحفاظ على الواقعية في

الوقت نفسه. تقتضي تلك الخطة أن تعمل أطقم السيطرة الجوية التكتيكية الأمريكية مع وحداتي، وصدرت الأوامر إلى الطيارين بإلقاء قنابلهم على مسافة ٣٠٠ ـ ٤٠٠ متر من الحد الأمامي لقواتنا. وتمّ تنفيذ التدريبات المشتركة بكفاءة، وسارت الأمور على ما يرام.

طَرَحْتُ بعد ذلك سؤالاً على شوارتزكوف أثار دهشته. قلت له: «لِمَ لا نعلن عن تخطيطنا المشترك وتدريباتنا المشتركة لوسائل الإعلام؟». فقال: «أنتم لديكم حساسية تجاه هذه الأمور. أما أنا فلست كذلك».

أجبته قائلاً: «أنا لم أعد حساساً تجاهها». وكما أسلفت، فقد أدركت فوائد التدريب المشترك مع الوحدات الأمريكية ذات الخبرة في هذا المجال، ورحّبت بتلك التدريبات بالفعل.

كانت تقوية العلاقات الدفاعية بالولايات المتحدة إحدى النتائج الحتمية التي نتجت من أزمة الخليج. كانت علاقاتنا بها متحفظة، قبل تلك الأزمة، تجنباً لإثارة الرأي العام العربي، ونحن جزء منه، لأنه يشعر باستياء عميق بسبب الصِّلة الأمريكية الوثيقة بإسرائيل. والجدير بالذكر، فإن الشركات الأمريكية البارزة والمعنية بشؤون الدفاع، وكذلك سلاح المهندسين الأمريكي، قد قاما بدور رئيسي في بناء البِنْية الأساسية الدفاعية للمملكة. وخلال المراحل الأخيرة من الحرب العراقية ـ الإيرانية، لا سيما أثناء أزمة رفع الأعلام الأمريكية على الناقلات الكويتية لحمايتها من الهجمات الإيرانية، تقاربت خططنا الدفاعية مع الولايات المتحدة أكثر فأكثر. ولكن على الرغم من ترحيبنا واستقبالنا عدداً كبيراً من المستشارين العسكريين والفنيين الأمريكيين في المملكة، ظل موقفنا الرسمي حتى ذلك الحين يقضي ببقاء القوة العسكرية الأمريكية بعيدة إلى حد ما، ومن الأفضل أن تظل «وراء الأفق!».

ولكن، بعد تدفق نصف مليون جندي أمريكي إلى المملكة، لم يَعُد من المجدي التمسك بذلك الموقف، أو إضفاء أية مصداقية عليه.

بعد وصول شوارتزكوف وأركان قيادته بوقت قصير، تداولنا الآراء في شأن مواقع نشر القوات الأمريكية التي تصل إلى المملكة. ووضعنا نصب أعيننا الاعتبارات الإستراتيجية، بالإضافة إلى ضرورة تأمين الطعام والإيواء، وشؤون

الإمداد والتموين الأخرى اللازمة لتلك القوات. وفي سياق مناقشاتنا، أبدى شوارتزكوف رغبته في نشر لواءٍ أمريكي في مدينة الرياض نفسها خشية أية مشكلة قد يواجهها.

تبادر إلى ذهني على الفور أن شوارتزكوف يضع في حسبانه مواجَهة «أسوأ الاحتمالات». فتكون مهمة اللواء الأمريكي في الرياض، في هذه الحالة، هي حماية قيادته. قلت في نفسي ليس غريباً ألاّ يشعر بالأمان، فوجوده في بلد غير بلده يحرمه الإحساس بالاطمئنان الذي أشعر به. وفكرت، بعد ذلك، أنني لو كنت مكانه لفعلت الشيء نفسه، ولأردت أن أشعر بالطمأنينة بوجود لواء متمركز بالقرب منّي وتحت تصرفي خشية أي طارئ، لا سيما أن جيوش صدام لا تبعد عني إلا مسيرة بضعة أيام.

ولكي أعطي نفسي فرصة التفكير، قلت لشوارتزكوف: «دعنا نواصل مناقشة الموضوع في اجتماعنا القادم في اليوم التالي». وبعد أن قلّبت الأمر على جميع وجوهه، تذكرت فجأة أن الملك خالداً ـ يرحمه الله ـ كانت له مزرعة تسمى «الثمامة» تبعد عن الرياض مسافة ٦٠ كيلومتراً تقريباً، ثم أصبحت، بعد ذلك، متنزهاً عاماً. وهي تحتوي عدداً من المباني ومدرجاً صغيراً للطائرات. وهكذا، بدت المزرعة أنها المكان المثالي لهذا اللواء. فالمسافة بين شوارتزكوف ورجاله لا تزيد على نصف ساعة في السيارة، ومع ذلك سيكونون بعيدين عن الأنظار. عرضت الفكرة على شوارتزكوف فرحّب بها على الفور. وظل اللواء في المزرعة طوال فترة الأزمة، ورجاله يتمتعون بالراحة التامة حتى عادوا إلى بلادهم دون أن يطلقوا رصاصة واحدة.

ربما كنت مفرطاً في حساسيتي تجاه حماية قيادتي من كل ما يمكن أن يُعَدَّ تدخلاً أمريكياً، مهما كان ضئيلاً. وأذكر ذات مرة أنني تلقيت مكالمة هاتفية علمت خلالها أن شوارتزكوف سيتوجَّه شمالاً في جولة تفقدية للقوات في حفر الباطن. كان ذلك مفاجأة لي، فالقوات الأمريكية الوحيدة هناك لا تزيد على أطقم بعض الطائرات العمودية ووحدة استخبارات! كان لشوارتزكوف مطلق الحرية في زيارتها في أي وقت يريد. لكني علمت، فيما بعد، أنه ينوي زيارة اللواء العشرين التابع لقيادتي. وهنا، استشطّتْ غضباً لأنه لم يخبرني بذلك. فما الذي كان يقصده شوارتزكوف من زيارته تلك؟

أصدرت تعليمات إلى ضباط أركاني ليخبروا ضباط أركانه أني لا أسمح له

بتفقد قواتي. عاد ضباطي ليؤكدوا لي أن شوارتزكوف لم يطرح قط مثل تلك الفكرة، فالذي حدث هو أن قائد المنطقة الشمالية في حفر الباطن، حين سمع بمقدم شوارتزكوف، اتصل بمكتبه لدعوته إلى الغداء في مركز قيادة اللواء وزيارة بعض الوحدات في الميدان. لم يفعل القائد السعودي أكثر من اتباع قواعد الضيافة العسكرية تجاه ضيف كبير. ولكن لو كان الزائر شخصاً آخر، أو كان شوارتزكوف هو نفسه في ظروف عادية، لما اعترضت. ولكنني لن أسمح لشوارتزكوف شخصياً، وفي ذلك الوقت بالذات. فالسماح له بتفقُّد قواتي يعني أنه هو القائد الأعلى. وهذا ما لا أقبله أبداً.

وأصدرت أوامري: «اطلب لي قائد المنطقة بالهاتف فوراً».

فسألني: «ماذا في وسعي أن أفعل؟».

قلت له: «إلغ زيارته للقوات السعودية. دعه يَزُرْ قواته. وادْعُه إلى الغداء في نادي الضباط. وهذا يكفي».

وأضفت أنه إذا رغب شوارتزكوف في أن يتوجّه إلى الحدود الكويتية، مثلما يفعل كل من يزور المنطقة، فيجب أن يذهب أحد في رفقته.

جاء شوارتزكوف لرؤيتي مساء ذلك اليوم. وحَرِصَ على أن يشرح لي أنه لم يتعمد التعدي على قيادتي. ولكن كانت لديه قصة أخرى مثيرة للاهتمام. إذ قال لي: «لم أستطع النوم قبل أن أخبرك بهذه القصة». فبعد تناول طعام الغداء مع قائد المنطقة، توجَّه شوارتزكوف إلى الحدود كي يرى الهيئات الأرضية التي ترسم معالم الحدود، إذ لم يكن قد رآها من قبل. وتوقف في أحد مراكز حرس الحدود.

قال له الملازم، قائد المركز: «انظر هناك. تلك العربة عراقية».

صاح شوارتزكوف وهو يجول ببصره في الأفق: «أين؟».

فقال الملازم، وهو يشير إلى عربة لا تبعد سوى عشرة أمتار: «هنا، في موقعنا». كان في العربة ثلاثة جنود عراقيين جائعين جاءوا يلتمسون طعاماً.

فوجئ القائد الأمريكي بهذا المشهد. كانت رؤية العدو على هذه المسافة القريبة مفاجأة غير متوقعة له. أخبرت شوارتزكوف أنني أشجّع جنودي على مداومة الاتصال بالجنود العراقيين على الحدود. كنت أقصد أن يأتوا إلى مواقعنا لرؤية الطعام الوفير لدى جنودنا. أردتهم أن يتآخوا. فهم إخوة لنا قبل كل شيء. حتى إنني طلبت من جنودي أن يقدّموا إلى الجنود العراقيين صندوقاً من الفاكهة

أو بعض الهدايا الأخرى، من هذا القبيل، قبل عودتهم إلى مواقعهم. ومن المؤكد أن هذا الموقف سينال من معنوياتهم ويضعف عزيمتهم على القتال.

وفي يوم ٢٠ أكتوبر، قمت بأول زيارة للقوات الأمريكية في الميدان، بناء على دعوة من شوارتزكوف الذي أراد أن يطلعني على درجة الاستعداد القتالي لقواته. تقابلنا في الظهران للاستماع إلى إيجاز قدمه قائد الفيلق الثامن عشر. وفي صحبة شوارتزكوف وقائد الفيلق، توجَّهنا شمالاً، لأكثر من ساعة، في طائرة عمودية من نوع بلاك هوك Black Hawk إلى مركز قيادة الفرقة ٢٤ مشاة آلية. كنت أحتفظ لهذه الفرقة بمشاعر خاصة لأنها بدباباتها M1 وعرباتها المدرعة برادلي، كانت من أولى الوحدات الثقيلة التي وصلت إلى الدمام في منتصف سبتمبر، بعد ما قطعت رحلة طويلة على متن سفن النقل السريعة من سافانا في ولاية جورجيا. كان علينا تموينها ريثما تصل وحدات الإسناد الخاصة بها. كانت هذه الفرقة التشكيل الرئيسي في خطة الدفاع المتحرك التي وضعها شوارتزكوف، لأنها مدربة على حرب الصحراء وقادرة على صد أي هجوم عراقي على «طريق التابلاين» أو شن هجوم مضاد على جناح أي قوات عراقية تتقدم على امتداد الساحل الشرقي.

وعندما حان وقت صلاة الظهر، تأثرت كثيراً حين وجدت أن الفرقة أعدت لي ولضباطي المرافقين مكاناً للوضوء وأداء الصلاة. كان هناك جندي أمريكي يحمل في يده إبريقاً من الماء.

تعلمت، بالخبرة، أنه مهما توطدت أواصر الصِّلة بين طرفين متحالفين، فلا بد لهما من التسابق دوماً للتفرد بميزات أكثر. وأن كل طرف لا بد له من الاحتفاظ لنفسه بقدر خاص من المعلومات. وعندما أفكر الآن في الأمر، أرى أن معظم خلافاتي مع شوارتزكوف نشبت في شأن انتزاع المعلومات، وأن يجعلني أشاركه في ما يعرف. إذ اكتفى الأمريكيون باطلاعنا على ما قَدَّروا أنه ضروري لنا، إضافة إلى معلومات هامشية لا تسمن ولا تغني من جوع. ولا ألومهم لذلك، مع أنني كنت أفضّل لو أنهم أشركونا في ما هو أكثر أهمية. لم أطلب من شوارتزكوف أن يكشف لي مصادر معلوماته، ولكني كنت في حاجة إلى معلومات لتقييم الموقف العسكري بالكامل، قبل وضع الخطط وصياغة القرارات. وحتى

أتمكن من قيادة القوات المشتركة، كنت أطالب بأكبر قدر من المعلومات، شريطة أن يزوِّدنا الأمريكيون بمعلومات دقيقة وكاملة، أو لا يقدموا إلينا شيئاً على الإطلاق. فلم أكن راغباً في أن أُخدع بالعموميات التي لا تفيد.

وفي شهر نوفمبر، أي قبل اندلاع الحرب بشهرين، علمت من الإيجاز المسائي اليومي الخاص بقيادة القوات المشتركة، الذي كان يبدأ في الثامنة من كل ليلة، أن الأمريكيين يخططون لتدريب جوي صباح اليوم التالي بطائرات كاملة التسليح. لم يخبرني أحد بذلك من قبل. فأجريت بعض التحريات لكي أتأكد من أن قائد قواتنا الجوية لم يعطِهم تصريحاً بذلك. فتبيَّن أن الأمريكيين خططوا لتدريبهم الجوي دون إخطار السلطات المختصة في المملكة. بدأت الشكوك تساورني. هل كانوا يقومون باختباري؟ أم أن الأمريكيين خططوا لمهاجمة العراق دون إشعارنا بذلك مسبقاً؟ ولَمّا كنت قد أصدرت تعليماتي بعدم تنفيذ أي تدريب رئيسي دون أخذ موافقتنا، لذا فإن هذا التدريب الجوي يشكل انتهاكاً صريحاً لتعليماتي.

قررت أن آخذ زمام المبادرة لإجهاض هذه الترتيبات، فأصدرت أوامري بحظر جميع طلعات الطيران المسلح في صباح اليوم التالي. تحدثت، بعد ذلك، مع شوارتزكوف الذي ألغى، بدوره، ذلك التدريب. وربما لم يقدّر كم كان مهماً أن أعرف بالأمر قبل حدوثه. قدّمتْ القوات الجوية الأمريكية تفسيراً في اليوم التالي، جاء فيه أنها أرادت اختبار إمكانية إقلاع الطائرات وهبوطها وهي بكامل تسليحها. تقدَّم الأمريكيون، بعد ذلك بأيام، بطلب للسماح لهم بإجراء التدريب، ومنحتهم الإذن بذلك. صحيح أن الحادثة أخّرت التدريب خمسة أيام، لكنها كانت نقطة مهمة تم تسجيلها.

أما في ما يتعلق بمصادر المعلومات، فقد أدهشني اعتماد الأمريكيين في جمع معلوماتهم اعتماداً كلياً على التقنية الحديثة، مثل الأقمار الصناعية للمراقبة والتنصت على الرسائل اللاسلكية، وما شابه ذلك، وأنهم لا يعتمدون على المصادر البشرية إلا قليلاً، وكانت تلك نقطة ضعف وقوة في الوقت نفسه. ذات مساء، وأنا جالس مع شوارتزكوف، قدّم إلي تقريراً عمّا قاله صدام أثناء اجتماع له مع كبار قادته.

سألته: «هل أنت متأكد من أن هذه هي كلمات صدام؟ ومن أين لك أن تعرف؟ وما مصدر هذه المعلومات؟».

ردّ شوارتزكوف بهالة من الاعتداد والغموض: «لو أن صداماً تفوَّه بكلمة واحدة فقط لسمعناها».

تساءلت في نفسي هل كان يحاول إثارة إعجابي أو إبهاري، أم أن الولايات المتحدة قادرة بالفعل على وضع صدام تحت المراقبة الدقيقة؟ فكرت في هذا السؤال أكثر من ساعة. وتذكرت أن الأمريكيين، على الرغم من التقدم الهائل الذي حققوه في مجال الإلكترونيات عجزوا، على ما يبدو، عن التنبؤ بغزو صدام الكويت. فلو كان شوارتزكوف صادقاً في كلامه، لاستطاعوا التنصت على اتصالات صدام ومراقبة تحركاته بواسطة الأقمار الصناعية. ولكن لم يكن لديهم ولا لغيرهم، مصدر بشري مقرب من صدام ليحذِّرهم من نواياه. لذلك، فإن اللوم يقع علينا جميعاً، عرباً وغربيين على السواء، في الإخفاق في التنبؤ بالغزو قبل وقوعه.

عندما تسلَّمت مهمة القيادة، كان شغلي الشاغل التأكد من أن قيادتي تشمل كل الجهات على الجانب السعودي. أردت الحصول على تعاون الوزارات والمؤسسات الحكومية التي لها علاقة بعملي، بما في ذلك رئاسة الاستخبارات العامة. اكتشفت أنني في هذا المجال أحسن حالاً، إلى حدٍّ ما، من شوارتزكوف؛ لأنني أدركت أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لم تكن تحت تصرفه.

طَلَبَت وكالة الاستخبارات المركزية، ذات مرّة، من نظيرتها السعودية، رئاسة الاستخبارات العامة، السماح بتحليق طائرتيْ تجسس من قاعدتين من قواعدنا الجوية. ورُفِعَ الطلب إلى الأمير سلطان الذي سألني عن رأيي، كما طلب منِّي أيضاً بحث الأمر مع شوارتزكوف. وكم كانت مفاجأة لي حين أخبرني شوارتزكوف أنه لا علم له بهذا الطلب. ويبدو أن علاقته مع الاستخبارات المركزية الأمريكية لم تكن على ما يرام، وأن المودة بينهما كانت مفقودة تماماً.

في الواقع، تولد لدي شعور قوي بأن شوارتزكوف كان سعيداً لقدرتي على التنسيق مع جهاز استخباراتنا، لأنه يطمع أن يعرف من خلالي ما تخطط له الاستخبارات المركزية. ولست أُلمّح هنا، بالطبع، إلى أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لم تُزوِّد شوارتزكوف بأية معلومات، ولكني أنوِّه فقط بأني كنت، بين الفينة والأخرى، أسدّ بعض الثغرات في معلوماته هنا وهناك. وعلى كلٍّ، قطعت له وعداً باطلاعه على كل ما أحصل عليه من معلومات. كما أكد لي

الأمير سلطان أنه لن يتم أي عمل إلاّ من خلال قيادة القوات المشتركة. ففي الحرب، لا مجال للتصرف وفقاً للأهواء دون عِلم القائد. ولطالما ردد شوارتزكوف أن عليهم توخِّي الحذر كي لا يقعوا في الأخطاء نفسها التي وقعوا فيها في حرب ڤيتنام، وهي الحرب التي لم تحقق نتائجها بسبب إدارتها من أجهزة مستقلة ليس بينها تعاون أو تنسيق، وكذلك بسبب تدخل السياسيين في المسائل العسكرية، فضلاً عن عدم مبالاة غالبية الأمريكيين بمشاعر الشعب الڤيتنامي وتقاليده وعاداته.

وفي الوقت المناسب، وبعد موافقتي، حلَّقت طائرتا التجسس، اللتان سبق لوكالة الاستخبارات المركزية طلب التصريح لهما بالطيران، في أجواء المملكة. لم يبدِ شوارتزكوف اعتراضاً في هذا الصدد. رابطت إحدى هاتين الطائرتين في قاعدة الجبيل، والأخرى في قاعدة الملك فهد الجوية في الطائف. وصلت بعدهما طائرات تجسس أخرى كثيرة، ولكن دائماً بعد مشاورات كاملة مع جميع الأطراف المعنية.

لم يحدُث قط، خلال حياتي العسكرية، أن أبديتُ اهتماماً كبيراً بحمايتي. ففي الرياض، كنت أقود سيارتي بنفسي، أما عندما أسافر خارج المدينة، فكنت أصطحب معي فرداً أو اثنين على الأكثر من أفراد الأمن. لكنّ الخوف من وقوع أعمال إرهابية بتحريض من العراق زاد من احتمال التعرّض للخطر. فأحاط شوارتزكوف نفسه بقدر كبير من احتياطات الأمن الظاهرة للعيان. كانت في صحبته حضيرة (جماعة) من الجنود وعدد من رجال الأمن بالملابس المدنية يرافقونه أينما ذهب وأسلحتهم جاهزة دوماً. كان ينطلق، عند خروجه من وزارة الدفاع، في قافلة من السيارات المملوءة بالرُّماة المَهَرَة. لذلك، شعرت أن عليّ أن أحذو حذوه. إذ لو شاهد أحد شوارتزكوف يسير في فرقته المدججة بالسلاح، ثم رآني مع حارس أو اثنين، لاستنتج فوراً أن شوارتزكوف هو القائد الأعلى، وهذا ما لم أكن لأسمح به أبداً. فمظهري أمام الناس، بصفتي القائد السعودي، يجب ألا يقل عن مظهره هيبةً، حتى في أدق تفاصيله. فإذا كان لديه جنود مسلحون، فينبغي أن يكون لدي أيضاً جنود مسلحون. فشكلتُ جهازاً للحراسة الشخصية يماثل ما لدى شوارتزكوف إن لم يكن يتفوَّق عليه، حتى إنني أرسلت

بعضهم لتلقي التدريب في الخارج. كان هدفي من تقليده هدفاً سياسياً، وليس أمنياً، إذ إن ثقتي بقدرات أجهزة الأمن الداخلي في المملكة لا حدود لها. ولكني في واقع الحال، كنت أحافظ على صورة المملكة وهيبتها.

عندما شاهدني الناس وفي رفقتي تلك القوة المسلحة المتطورة، ظنوا أنني أسعى إلى التباهي والظهور، إذ لم أكن معرّضاً للخطر، خصوصاً أن عملي ومأكلي ونومي كان في وزارة الدفاع. قال بعضهم، وفيهم عدد من ضباط أركاني: «لِمَ يحتاج إلى عشرة رجال، خمسة في المقدمة وخمسة في المؤخرة، وجميعهم مسلحون بالرشاشات، عندما ينزل من مكتبه إلى غرفة العمليات؟». لقد فعلت ذلك لأني قدَّرت ضرورة أن يرى الجميع، بمن فيهم ضباط التحالف وممثلو وسائل الإعلام، أني قائد لا يقل مكانةً عن شوارتزكوف.

عندما أقام شوارتزكوف مركز قيادته في وزارة الدفاع أراد ضباط أركانه أن يضعوا حراساً أمريكيين في أنحاء المبنى في الخارج وفي الداخل وفي المصاعد وفي كل مكان. وأبلغني هذه الرسالة العقيد الأمير تركي بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن، قائد كتيبة الشرطة العسكرية المكلَّفة بحراسة المبنى. أدركت أن الأمريكيين يخشون أن تشنّ القوات الخاصة التابعة لصدام هجوماً على مبنى القيادة، فتقضي علينا جميعاً. فقلت للعقيد تركي أن يعود وحمّلته رسالة تقول إن الحضور الأمريكي المبالغ فيه ليس أفضل السبل لضمان الأمن، وإننا لسنا بلداً محتلاً. فنحن نعرف كيف ندافع عن أنفسنا دون حاجة إلى المظاهر اللافتة للنظر. ووافقت على تكثيف عدد الحراس السعوديين حول المبنى وعلى المداخل كلها، تخفيفاً من مخاوف شوارتزكوف. ولم أسمح للأمريكيين إلاّ بوضع حارس واحد منهم عند البوابة الخلفية ليتعرف بسياراتهم حين اقترابها من المبنى.

في غرفة الحرب، وهي عبارة عن مجمع ضخم منفصل يُعرف بـ «الغرفة الحصينة» على عمق خمسة طوابق تحت سطح الأرض أسفل وزارة الدفاع، كنت مصرّاً على وضع فريق مشترك من الحراس السعوديين والأمريكيين تأكيداً على أننا شركاء في القيادة. وكثيراً ما كنت أضحك من المبالغة في إجراءات تلك الحماية. ففي كل ٢٠ متراً وقف ستة حراس: ثلاثةٌ سعوديون وثلاثةٌ أمريكيون. ولكن حتى في مثل تلك الأمور الصغيرة، كان من الضروري المحافظة على المظاهر.

كنت أعتبر نفسي مسؤولاً عن أمن شوارتزكوف وسلامته. لذا، خصَّصت لحمايته فصيلاً من الشرطة العسكرية، بقيادة الملازم ثامر سبهان السبهان. ولكن،

كان لشوارتزكوف أيضاً حراسه الأمريكيون الذين يحرسون غرفة نومه والجناح الذي يضم مكتبه. وأخبرني ذات صباح قائد كتيبة الشرطة العسكرية أن شوارتزكوف استيقظ بعد منتصف الليل، بين الثانية والثالثة صباحاً، ليتفقد حراسه فوجدهم جميعاً يغطون في نوم عميق! فطار صوابه ووجَّه إليهم أقسى عبارات التأنيب والتوبيخ. التزمت الصمت ولم أُبلغ شوارتزكوف علمي بتلك الواقعة، حتى كتابة هذه السطور. ولكن خلال الليلتين التاليتين، لم أستطع أن أقاوم رغبتي في التسلل في ساعات الصباح الأولى للتأكد من يقظة حراسي. فوجدتهم ساهرين بالفعل يؤدون واجبهم.

كانت غرفة نوم شوارتزكوف صغيرة الحجم بسيطة الأثاث، وتقع جوار مكتبه في الطابق الرابع من الوزارة. سعيت في البداية لأوفر له مسكناً آخر يليق به، تقديراً منّي أنه يحتاج إلى سكن أوسع وأفخم. وكان تحت تصرفي المباشر واحدة من أفضل ڤيلاّت الضيوف في مجمع نادي الضباط، كنت أخصِّصها لاستضافة الضباط الصينيين الزائرين خلال مفاوضاتنا في شأن الصواريخ الإستراتيجية. كنت واثقاً أن الڤيلاّ آمنة؛ لأنني أشرفت على توفير وسائل حمايتها بنفسي خلال السنوات الثلاث الماضية. خصَّصت تلك الڤيلاّ لشوارتزكوف، على الرغم من معارضة بعض أعضاء القيادة العسكرية السعودية العليا الذين أرادوا حجزها لإسكان كبار الزوار المتوقَّع قدومهم.

وعلى الرغم من الجهود التي بذلتُها، لا أعتقد أنه قضى أكثر من بضع ليالٍ في هذه الڤيلاّ طوال فترة الأزمة، إذ كان يكتفي بغرفة نومه الصغيرة في مبنى القيادة التي لا تبعد سوى خطوة واحدة عن مكتبه. فضغْط العمل والحاجة إلى الاتصال هاتفياً برؤسائه في واشنطن، ما كانا يتيحان له وقتاً، ولو قليلاً، ليستمتع بالإقامة في تلك الڤيلاّ الأكثر رحابة والأكثر رفاهية.

انتقلتْ إقامتي، عندما بدأت الحملة الجوية، من الطابق الرابع في وزارة الدفاع، حيث كنت أقيم خلال الأشهر التي مضت، إلى غرفة نوم صغيرة في القبو جوار غرفة الحرب. كان أثاثها مؤلفاً من سرير ضيّق وعدد من الهواتف، وجهاز تليڤزيون وجهاز ڤيديو ودُش حمّام في إحدى الزوايا. عَلّقتُ على جدران هذه الغرفة الصغيرة لوحات رسمها أولادي، تحمل رسومات بدائية لدبابات ومدافع. ولَمّا كان أولادي يُلقون باللوم على صدام لأنه السبب في إبقاء والدهم بعيداً عنهم، فقد كتب أحدهم على لوحة منها عبارة: «أنا لا أحب (صدام)».

وبقيت في تلك الغرفة طوال فترة الحرب، ولم أزُر عائلتي خلالها إلاّ لماماً. لم يكن ضغط العمل هو الدافع الوحيد لاتخاذي ذلك القرار، بل أردت أن أشارك رجالي، ضباطاً وأفراداً، إحساسهم بالبعد عن الأهل والولد.

كانت ساعات الليل أسوأ الأوقات عندي، وخصوصاً ساعات ما بعد منتصف الليل. إذ كان النوم فيها يستعصي عليّ، لانشغال ذهني بمهام متعددة وإجهاد بدني لتحركاتي الدائمة من مكان إلى آخر طوال اليوم. وكم عانيت الوحدة! وكم كانت فكرة امتداد المواجَهة مع صدام إلى أجل طويل كابوساً يقضّ مضجعي!

كانت سعادتي كبيرة لوصول اثنين من أعز أصدقائي من لندن، هما وفيق سعيد والدكتور جون إند. كنت أعرف وفيقاً منذ أيام دراستي في ساندهيرست. أما جون إند، فكان طبيبي الخاص منذ ذلك الحين. وتقديراً منهما لانشغالي بواجباتي ومهامي العسكرية، أرادا أن يكونا إلى جانبي في الرياض، لتلبية ما قد تحتاج إليه أسرتي.

كان من أولى الخطوات التي اتخذتها في الوزارة أن خصَّصتُ غرفة لتكون صالحة لممارسة التمارين الرياضية. ولشدة حاجتي إلى ممارسة الرياضة، جعلت من التمارين الرياضية نظاماً ثابتاً لا أحيد عنه كل يوم. فبعد الانتهاء من أعمالي اليومية، كنت آخذ قسطاً من النوم بين السادسة والسابعة مساء، ثم أمارس تدريبات اللياقة البدنية في الغرفة الرياضية لمدة خمس وأربعين دقيقة. وبعد ذلك، أكون في الثامنة مستعداً للاستماع إلى الإيجاز اليومي من الأركان. وقد دعوت شوارتزكوف للاستفادة من تلك الغرفة، فمارس التمرينات بانتظام إلى حدٍّ ما، وكنّا نتمرن تحت إشراف مدربي المصري القوي البنْية، رشدي محمد حسام الدين.

وبصرف النظر عن الخوف من احتمال التعرّض لهجوم انتحاري يُشنّ على مبنى القيادة، وهذا ما كان يقلق شوارتزكوف إلى حدٍّ كبير، كان هناك دوماً خطر آخر سبب لكلينا قلقاً عميقاً. ذلك الخطر هو قيام رد فعل معادٍ داخل المملكة ضد وجود القوات الأجنبية. وكانت قد وقعت في جدّة حادثة واحدة حين تعرّضت حافلة تنقل جنوداً أمريكيين لوابل من النيران، مما أسفر عن إصابة واحد أو اثنين منهم بجروح طفيفة. أُلقِيَ القبض على الفاعلين الثلاثة، وهم اثنان من اليمن وأردني واحد، وصدرت أحكام بالسجن في حقهم. ولم يشترك في الهجوم أي مواطن سعودي. وباستثناء تلك العملية، لم تقع حوادث أخرى، سوى إنذار أو إنذارين تبين، بعد ذلك، أنهما كاذبان.

أخبرني شوارتزكوف، ذات مرة، قبل الهجوم بوقت قصير، أن اثنين من جنوده جرحا حين أطلقت سيارة مسرعة عيارات نارية عليهما من مسافة قريبة. وادَّعى الجنديان أنهما كانا هدفاً لهجوم إرهابي. وثبت، بعد التحقيق، أن الجنديين هما اللذان أطلقا النار على أنفسهما لتفادي الذهاب إلى الخطوط الأمامية من الجبهة. وحذرت شوارتزكوف لو أن وسائل الإعلام علِمت بالخبر، وبدأت تلمح إلى أن الحادث يُعَدّ أول بادرة لعدم رضى الشعب السعودي عن وجود القوات الأجنبية، فسأعلن على الملأ حقيقة ما حدث! لم أكن أرضى أن يقول أحد إن ثمة إرهابيين موجودون في المملكة. أسدل الأمريكيون الستار على الحادث، ولم يذكروا عنه شيئاً. فالتزمت الصمت، وأصبحت القصة في طي الكتمان.

ومع أن شوارتزكوف رجل عسكري من الطراز الأول إلا أنه، ولشدة دهشتي، لا يملك في شؤون الشرق الأوسط سوى خبرة قليلة. ففي عام ١٩٤٧، وهو في الثانية عشرة من عمره، أمضى عاماً في طهران مع والده الذي كان ضابطاً برتبة لواء ومُكلَّفاً بإعادة تنظيم قوات الشرطة الإيرانية. وفي ١٩٨٩ ـ ١٩٩٠، أي بعد ما تسلم مهامه في القيادة المركزية، أمضى بضعة أيام في الرياض والكويت والقاهرة وعمان وصنعاء. وذلك، حسبما علِمتُ، كل خبرته بالشرق الأوسط. كان مقر قيادة شوارتزكوف في تامبا في ولاية فلوريدا التي تبعد عن منطقتنا مسافة ٦٥٠٠ ميل جواً، و١٠ آلاف ميلٍ بحراً، وتختلف عن الشرق الأوسط أشد الاختلاف.

وعلى الرغم من تلقي شوارتزكوف معلومات مستفيضة عن الجوانب الإستراتيجية والعسكرية المتعلقة بالمنطقة، إلاّ أنه لم يكن لديه الإلمام الكافي بالشخصيات القيادية المؤثرة في السياسات العربية. كما كانت تنقصه معرفة التاريخ واللغة والعائلات والعادات والتقاليد وأسلوب الحياة، بل جميع تعقيدات عالمنا العربي، شأنه في ذلك شأن المواطن الأمريكي العادي. وكانت مهمتي في تزويده بما ينقصه من معارف ومعلومات عن هذه الأمور كلها مهمة صَعبة. وعلى النقيض، كان الفريق هورنر والفريق يوساك، يملكان خبرة واسعة بشؤون الشرق الأوسط. الأول بسبب ارتباطاته السابقة بقواتنا الجوية، والثاني بسبب السنوات

التي قضاها مع الحرس الوطني السعودي. لكن شوارتزكوف، بطبيعته العسكرية، كان قليل الصبر إزاء الأمور التي يجهلها أو التي لا يرى لها علاقة مباشرة بمهمته. وأدى ذلك إلى عدد من حالات سوء التفاهم بيننا.

ولا أظن أن شوارتزكوف كان يفهم تماماً سبب حرصي الشديد على أن تتجنب القوات المتحالفة أية أعمال أو تصرفات من شأنها أن تعرّض بلادنا لخطر ما بعد الحرب. كان من واجبي التأكد من أن تصرفاتنا وتصرفات حلفائنا لن تثير القلق في مجتمعنا المحافظ، وأنها لن تُعْطي العناصر التي تضمِر لنا العداء، ذريعة لبذر بذور الشقاق. كما كان من واجبنا أن نُفَوّت الفرصة على أولئك الذين يسعون إلى زعزعة استقرار مجتمعنا السعودي.

كان علينا التزام اليقظة التامة. لذلك تنبهتُ إلى الخطر فوراً حين جاءني شوارتزكوف ذات يوم، والأزمة ما زالت في بدايتها، ليخبرني أنه تلقى رسالة من الرئيس اليمني، علي عبدالله صالح، يدعوه فيها لزيارة صنعاء. كنت ناقماً على اليمن لوقوفه إلى جانب صدام، وفسّرت دعوة الرئيس اليمني لشوارتزكوف أنها محاولة من اليمنيين للتقرب إلى الأمريكيين وإحداث انشقاق في صفوف التحالف.

وسألت شوارتزكوف: «وماذا تنوي أن تفعل؟ آمل ألا تفكر في الذهاب!».

فوعدني بألاّ يقرر شيئاً قبل التشاور معنا أولاً. وقال: «لست هنا لأقوم بدور سياسي. سأحيطكم علماً بكل تحركاتي. فنحن قيادة واحدة».

فأجبته: «يكفيني هذا».

لكني شعرت أن موقف شوارتزكوف من اليمن مختلف عن موقفي منه بعض الشيء. فقد كان يعتقد أن زيارته ربما تسهم في جذب اليمن إلى صفنا. وكان يردد دوماً أن الرئيس علي عبدالله صالح لا يلتزم جانب الحياد، بل إن له قدماً في كلا المعسكرين، وعلى استعداد للقفز من طرف إلى آخر حسب مقتضيات الظروف. لكن الرئيس اليمني، حسب تقديري، كان أكثر تحيزاً إلى صدام. كنت أستشعر ضرورة أن نوضح لليمنيين بجلاء أنهم لن يستطيعوا التلاعب بأمن شبه الجزيرة العربية.

ونظراً إلى الموقف المعادي الذي اتخذته الحكومة اليمنية، قررت المملكة إنهاء المعاملة التفضيلية التي كان يحظى بها اليمنيون في المملكة، ومعاملتهم معاملة الرعايا العرب الآخرين. وذلك يعني حاجتهم إلى كفيل سعودي إذا أرادوا

العمل في المملكة. وأدى هذا القرار إلى مغادرة مئات الآلاف من اليمنيين المملكة عائدين إلى وطنهم، بينما التزم من بقي منهم بالقواعد الجديدة، ولا يزالون ينعَمون بالعيش في المملكة حتى الآن.

ومما زاد في قلقنا، أن تقارير عدة توالت تفيد بتحركات القوات اليمنية. وكنّا نعتقد أن الرئيس اليمني علي عبدالله صالح والملك حسيناً والرئيس الفلسطيني ياسر عرفات قد شجعوا صدام حسين، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، على غزو الكويت. وأنهم يتحيَّنون الفرصة لاستغلال الأزمة لمصلحتهم الخاصة. ومع أننا لا نملك الدليل القاطع على وجود تلك المؤامرة، إلاّ أن أتفَه الأشياء، في ذلك الجو المحموم الذي كان سائداً آنذاك، كان كافياً لإثارة الارتياب. فبعد الغزو بشهر واحد، طلب الملك حسين من رعاياه، في خطاب ألقاه أمام الجمعية الوطنية الأردنية، أن يطلقوا عليه لقب «الشريف»، وهو لقب تشريفي يختص به من ينتسبون إلى سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم. ولعل هذا الموقف لفت انتباه المملكة إلى أنّ خيال الملك حسين، في حالة حدوث اضطرابات خطيرة في المنطقة، قد تداعبه أحلام بالاستيلاء على الحجاز التي كان يحكمها قديماً جدّه الأكبر الحسين، شريف مكة! فما العمل لو سمح الملك حسين للقوات العراقية بمهاجمتنا عبر أراضيه؟ أما كان متوقعاً أن تُحَرض هذه الخطوة اليمن على مهاجمة مدننا الحدودية الجنوبية مثل نجران وجيزان؟ كان علينا الاستعداد «لأسوأ الاحتمالات».

وكما أسلفت، وجدت أن من واجبي، أو على الأقل أحد واجباتي، للحفاظ على تماسك التحالف، أن أقوم بدور الوسيط الذي يعكس وجهة نظر المملكة. كان عليّ التأكد من أن جميع الشركاء في التحالف يعملون معاً في وفاق داخل الأراضي السعودية وضمن حدود مقبولة للرأي العام السعودي والعربي والإسلامي. عندئذ، سيصبح صانعو السياسة، في واشنطن والرياض ولندن والقاهرة وباريس ودمشق والأمم المتحدة، قادرين على الاتفاق في شأن الخطوط العريضة للحملة. وباختصار، حرِصتُ على أن أكون العروة التي تربط بين أعضاء التحالف ربطاً محكَماً وتوحد بينهم في تفاهم تام. إذ لو أبدت المملكة، لسبب أو لآخر، أي تحفظات أو تراجعت عن موقفها، لتراجعت كذلك كل من مصر

وسوريا والبلاد الإسلامية ولَفَشِل التحالف كله وانهار. وأعتقد أن هذا الرباط هو ما كان يقصده الفريق السير بيتر دي لابلبير Sir Peter de la Billière حين قال مخاطباً أحد أصدقائي: «من دون خالد لم يكن استمرار هذا التحالف ممكناً، ومن دون هذا التحالف لم يكن خوض هذه الحرب ممكناً أيضاً».

كان من واجبي أن أضع التوجيهات الحازمة التي تحدد أوجُه السلوك المقبول وغير المقبول من القوات الأجنبية. لم أكن في هذا الشأن متعصّباً أو مفرطاً في الحماسة أو غير معتدل أو غير منطقي، بل كنت فقط أدافع عن عقيدتنا وتقاليد بلادنا.

كان من أصعب التحديات التي واجَهَتْني، جعْل القوات الأمريكية تبدو مقبولة في البيئة السعودية دون الإساءة إلى مشاعر المواطنين. ولأننا نمثِّل قلب العالم الإسلامي، ما كان في استطاعتنا أن نبدي من المرونة ما تبديه بعض الدول الأخرى في ما يتعلق بالسلوك العام في المجتمع. فعلى سبيل المثال، تحتِّم تقاليدنا ارتداء المرأة الحجاب في الأماكن العامة والالتزام بمظاهر الحشمة والوقار. وليس ثمة مجالات تمارس فيها المرأة السعودية العمل سوى مجاليْ الطب والتعليم وبعض المجالات النسائية الأخرى. أضف إلى ذلك، أنه لا يسمح لهن بقيادة السيارات. فكيف نستطيع إذاً التعامل مع عشرات الألوف من المجندات الأمريكيات اللواتي قَدِمْن مع القوات الأمريكية؟

كانت أولئك المجندات يَعْمَلْنَ في مختلف المجالات: سائقات وفنيات وممرضات ومسؤولات عن أعمال الإمداد والتموين وفي كل النواحي الأخرى، باستثناء المهام القتالية. وأعتقد أنهن حَصَلْنَ عام ١٩٩٣ على ميزة القتال، إن كان القتال ميزة! كانت عربة من كل ثلاث عربات أمريكية تقودها امرأة، فلو حاولت مَنْعَهُنَ من القيادة في الطرقات، كما كنت أرغب، تفادياً للمشاكل المحتملة، لأدّى ذلك إلى شل حركة القوات الأمريكية. ولكن المشكلة الحقيقية ليست في هذا الأمر، بل في قيادة العربات خارج أوقات العمل ودون الزي العسكري. لذلك توصلت مع شوارتزكوف إلى حل وسط، فوافقتُ على قيادة النساء للعربات في زِيِّهِنَّ العسكري وأثناء قيامِهِنَّ بمهام عسكرية فقط، ومَنَعْتُهُنَّ من القيادة بالملابس المدنية وللأغراض غير العسكرية، مثل التسوق وما شابه ذلك. ونجح الاتفاق.

لم تتمرد النساء الأمريكيات ولا زميلاتهن البريطانيات (لم يكن هناك نساء

فرنسيات ضمن القوات الفرنسية) على هذه القيود. وأدهشني أنهن كنّ متحمسات لاحترام تقاليدنا احتراماً فاق في بعض الأحيان احترام بعض النساء العربيات أنفسهن لهذه التقاليد.

أدت الخطوط الثقافية التي وضعتُها إلى مواقف مضحكة أحياناً بسبب سوء الفهم. حدث ذلك في قصة القمصان (تي شيرت) التي ادَّعى شوارتزكوف أنني اعترضت على بيعها إلى الجنود الأمريكيين لأنها تحمل خريطة المملكة مبيَّنة عليها المدن الرئيسية. وينقل عني في كتابه قولي: «إن مواقع مدننا من المعلومات المحظورة». لكن هذه الواقعة محض خيال، ولا أساس لها من الواقع. فالأطالس الجغرافية وخرائط الطرق تملأ المكتبات العامة في الرياض، وهي تبيِّن موقع كل قرية من قرى المملكة، ناهيك من المدن الرئيسية! أما النوع الوحيد من القمصان الذي منعت تداوله، و أظن أن لي كامل الحق في ذلك، فهو الذي يحمل خريطة المملكة وفي وسطها الخطوط والنجوم التي تمثِّل العلم الأمريكي؛ لأن ذلك يشير إلى الولايات المتحدة كقوة احتلال. وهذا ما شعرت بغضب شديد تجاهه، مثلما استاء منه الأمير سلطان.

ولعل السبب في ادعاء شوارتزكوف في كتابه أن الرياض كانت حتى أواخر السبعينات، بل حتى وصوله شخصياً، مدينة مغلقة أمام الأجانب بشكل خاص، يرجع إلى رغبته في وصف الظروف الصعبة التي واجهَته. كتب شوارتزكوف: «عندما تسلمت مهمتي في القيادة المركزية عام ١٩٨٨، كان يسمح للمسؤول عن بعثة التدريب العسكري وهو ضابط برتبة لواء، بدخول الرياض في الأعمال الرسمية، وكان عليه دوماً أن يغادرها عائداً إلى الظهران قبل حلول الظلام». ولكن الواقع الذي لا مراء فيه، أن أعضاء البعثة الأمريكية وأُسَرهم، وكذلك ممثلي الكثير من الشركات الأمريكية، يُقيمون في الرياض منذ الستينات، وهم جزء من ٢٠٠ ألف أمريكي وأوروبي، فضلاً عن مئات الألوف من أقطار العالم الأخرى.

وأعتقد أن من واجبي أن أصحح رواية أخرى لشوارتزكوف في كتابه. فقد أورد أنه حذرني، بعد ما اشتكى إليّ من عدم منح السلطات السعودية الممثلة الأمريكية بروك شيلدز Brooke Shields تأشيرة دخول إلى المملكة، قائلاً: «حَذَّرت خالداً من مغبة تكرار ذلك الخطأ بالنسبة إلى جولة الممثل الأمريكي بوب هوب Bob Hope». ويدّعي أنه ذكّرني بأن السعوديين يغامرون «بإحراز النصر في الحرب وخسارة السلام» مع الولايات المتحدة.

كنت قد أوضحت، منذ البداية، لشوارتزكوف أن الملك حدّد خطوطاً واضحة لا لَبْس فيها ولا غموض تتعلق بالترفيه عن الجنود الأمريكيين، وأنها تحظر على الفنانين الرقص أو الغناء. وأضفت أن الرئيس بوش نفسه لا يستطيع أن يثنينا عن ذلك.

جاءني شوارتزكوف، بعد ذلك بفترة، يخبرني أن الممثل الأمريكي بوب هوپ ينوي زيارة المملكة، وفي صحبته الممثلة الأمريكية بروك شيلدز ومجموعة من المغنِّيات والممثلات والمشجعات من تكساس. فقلت له: «إننا لا نمانع في قدوم بوب هوپ، أما الأخريات فلا. هذا هو جوابي الصريح. ولكن لك أن تحاول مع القنوات الأخرى إن شئت، إما من طريق جيمس بيكر في واشنطن، أو مباشرة من طريق الأمير سلطان. ولكني أؤكد لك أن الجواب سيكون بالنفي».

أثار شوارتزكوف الموضوع مرة أخرى في اليوم التالي. وفي هذه المرة، نسب إلى نفسه فضْل اتخاذ القرار باستبعاد المغنيات والممثلات، وقال: «أبلغت واشنطن أن من السخف محاولة إرسال بروك شيلدز. أعرف أن هذا منافٍ لعاداتكم. صدقني يا خالد لقد أنهيت هذا الأمر». ثم أضاف: «ولكن هل لك أن تسدي إليّ معروفاً؟ إنه في شأن بوب هوپ. لقد رفضوا منح ابنته تأشيرة لدخول المملكة. خالد، دعني أعرض عليك صورتها، إنها في الخمسين من العمر!».

ضحكت قائلاً: «إذا ضمنت لي أنها في الخمسين، ضمنت لك تأشيرة الدخول لها!». وكان هذا موجزاً لما حدث.

ولو تجاوزنا حالات «سوء الفهم» الطارئة تلك بيني وبين شوارتزكوف، فلا بد لي من إنصافه عندما يتعين عليّ الإنصاف، وأن أحفظ للرجل مآثره التي شهدتها له في مناسبات كثيرة.

كانت المشروبات الكحولية، في حرب الخليج، من أولى القضايا وأشدها حساسية والتي أبدى فيها شوارتزكوف تفهماً طيباً. فالمملكة، كما يعرف أكثر الناس، بلد خالٍ من المسكرات، أي يحظر فيها بيع المشروبات الكحولية وتعاطيها. وكما بينت لشوارتزكوف أن الخمر من الأمور التي لا تقبل المناقشة أو الجدل. فلو شُوهد شخص، أذكراً كان أم أنثى، في حالة سُكْر خارج حدود

المعسكر ولو متراً واحداً، أو ارتكب جريمة تحت تأثير المشروبات الكحولية، فإنه يُقَدّم إلى المحاكمة ويعاقب وفق الشريعة الإسلامية.

وسرّني أن شوارتزكوف لم يلتزم بذلك التزاماً كاملاً وحسب، بل مضى إلى ما هو أفضل، حين منع تعاطي المسكرات داخل المعسكرات أيضاً. وعندما طلبتْ الحكومة البريطانية من السير پيتر دي لابلبير أن يقدم علبتين من البيرة إلى كل جندي في القوات البريطانية بمناسبة عيد الميلاد، كان في وسعه رفض ذلك الطلب.

كانت حرب الخليج نتيجة ذلك «حرباً صحّية»، إن جاز لنا أن نصف الحروب بهذا الوصف. وكم كان يحلو لي أن أمازح شوارتزكوف بقولي إن المملكة هي أكبر منتجع صحي في العالم، وعلينا أن نتقاضى أجراً من قواته لاغتنامها هذه الفرصة. ويشهد جميع القادة العسكريين بأن حجم المشاكل التي واجهوها، سواء أكانت جرائم خطيرة أم جنحاً تافهة، أقل بكثير من المشاكل التي واجهوها في أي عملية عسكرية سابقة من الحجم نفسه. وليس هناك وجه للمقارنة بين الصحة والانضباط لدى الجنود الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين في حرب الخليج وبين الانحلال الخلقي الذي شهدته حرب ڤيتنام قبل جيل مضى، حيث انتشرت المسكرات والمخدرات والدعارة وما إلى ذلك، فَهَوَت بالأمريكيين إلى الحضيض، وولدت ضدهم مشاعر البغض لدى السكان المحليين.

القضيةُ الثانية التي أبدى شوارتزكوف في شأنها ترحيباً وتسامحاً بصفة خاصة، هي مسألة اعتناق الجنود الأمريكيين الإسلام. فخلال الأزمة التي دامت شهوراً، اعتنق عدد كبير منهم، رجالاً ونساءً، الدين الإسلامي. وكان ذلك بلا شك نتيجة لاتصالهم بالسكان المدنيين. كان على هؤلاء الجنود التوجُّه إلى السلطات الدينية ليشهروا إسلامهم علناً. وظل شوارتزكوف يأتي إليّ على فترات ويقول: «أصبحوا الآن ١٥٠». وبعد ذلك بفترة قصيرة: «أمسوا الآن ١٧٥». وفي نهاية المطاف ارتفع العدد إلى أكثر من ٢٠٠٠ ممن اعتنقوا الإسلام.

وكان هناك، بطبيعة الحال، مسلمون في الجيش الأمريكي قبل حرب الخليج بوقت طويل. وقد أثار اهتمامي ما قرأته في آرمي تايمز Army Times يوم ٢٥ أكتوبر ١٩٩٣، أن المسلمين يشكلون ٤٪ من مجموع القوات المسلحة الأمريكية العاملة، وأن أول «رجل دين» مسلم التحق بدورة «رجال الدين» في فورت مونموث في ولاية نيوجيرسي في شهر يناير ١٩٩٤.

ولَمّا أضحت المسائل الدينية شديدة الحساسية أثناء أزمة الخليج، استشَرْتُ اللواء عبدالمحسن بن عبدالله آل الشيخ، مدير إدارة الشؤون الدينية في القوات المسلحة السعودية، وهو رجل شديد الورع، وكان خير عون لي في هذا المجال. فرشح العميد فيصل جعفر بالي للعمل في قيادة القوات المشتركة مستشاراً في الشؤون الدينية. وهو رجل هادئ ومتفتح العقل ورعٌ وتقي. وفضلاً عن أنه من ضباط الدفاع الجوي الأكْفاء، فهو حاصل على درجة الماجستير في الشريعة. نظّم العميد فيصل سلسلة من المحاضرات للقوات الصديقة، الهدف منها تفسير معتقدات ديننا الإسلامي وشعائره وتطبيقاته العملية. وسررنا أن اعتنق الدين الإسلامي عدد من رجال القوات المسلحة الأمريكية ونسائها. وعندما سمع بعض الشخصيات الدينية بهذا الأمر كان من رأيهم إذاعة النبأ بهدف استقطاب آخرين. لكني لم أسمح بإذاعة ذلك النبأ تفادياً لرد فعل معادٍ من المسيحية في الغرب. فقد كان من شأن إذاعته أن يثير حفيظة الهيئات التبشيرية المسيحية، ففضّلت إرجاء إعلان اعتناقهم الإسلام حتى تضع الحرب أوزارها. وكما شرحت للعميد فيصل، فتلك الهيئات تفوْقنا عدةً واستعداداً في هذا المجال. فإثارة مشاعر عدائية ضدنا في الغرب، في ذلك الوقت، لم تكن لتخدم مصلحة الحرب.

كان من سياستنا، تنفيذاً لتوجيهات الملك فهد، أن نرسل إلى مكة المكرمة من يرغب من الجنود المسلمين في أداء شعائر العمرة. فكنّا نرسل للعمرة جنوداً من مصر وسوريا والمغرب وپاكستان وبنجلاديش والنيجر والسنغال وغيرهم من البلاد الإسلامية التي هبّت إلى مساندتنا. لذلك أصدرت تعليماتي إلى ضباط أركاني بتسهيل رحلات هؤلاء المعتمرين. ولكن لم يخطر ببالي أن أجمل معهم من اعتنقوا الإسلام حديثاً من الجنود الأمريكيين.

وفي أحد اجتماعاتنا المسائية، قال شوارتزكوف: «أنا منزعج يا خالد، وعندي شكوى لا بد من الإفصاح عنها. سمعت أنك ترسل الجنود المسلمين إلى مكة، وأريد للمسلمين من جنودي أن يعاملوا بالمثل!». فأجبته قائلاً: «أحييك يا نورم، وأشكرك كثيراً». وقدرت له هذه المبادرة وسرّتني فكرته إلى حدٍّ بعيد. وقبل أن ينفضّ الاجتماع أصدرت تعليماتي إلى ضباط الأركان لإدراج الجنود الأمريكيين المسلمين ضمن جداول الرحلات إلى مكة. وعَليّ أن أسجل لشوارتزكوف فضله في تذكيري بأمرهم لإرسالهم لأداء شعائر العمرة.

كم كنت ممتناً لشوارتزكوف لاقتراحه، عندما كنّا نناقش ترتيبات زيارة الرئيس

بوش للقوات الأمريكية بمناسبة عيد الشكر في نوفمبر ١٩٩٠، بإقامة القداس الخاص بتلك المناسبة على ظهر سفينة حربية أمريكية كانت ترسو في المياه الدولية.

وتعبيراً عن تقديرنا لحلفائنا الغربيين، الذين قدموا لمساندتنا في الدفاع عن بلدنا وتحرير دولة شقيقة لنا، ومجاملة لهم في مناسبتهم الدينية التي يحتفلون بها بعيداً عن أهلهم وذويهم، وهم يقفون معنا في خندق واحد معرِّضين أرواحهم للخطر، قلت لشوارتزكوف إنني أرغب في توجيه رسالة تهنئة إلى القوات الأمريكية بهذه المناسبة تنشر في نشرة الأخبار اليومية. فكاد أن يقفز من شدة فرحه، وشكرنى كثيراً، وسألنى إن كنت جاداً في ذلك بالفعل. كتبت رسالة تهنئة قصيرة، ووقعتها باسمي مقروناً بمنصبي «قائد القوات المشتركة ومسرح العمليات» وأرسلتها إلى شوارتزكوف.

جاء شوارتزكوف إلى مكتبي، تبدو عليه علامات الارتباك، ممسكاً الورقة بيده. وقال لي: «يا خالد، أنت تعرف وأنا أعرف أن الجنود الأمريكيين ليسوا تحت إمرتك. وربما أعطاهم هذا اللقب الانطباع بأنهم تابعون لك».

ضحكت ثم قلت له: «اكتب ما بدا لك».

قال: «هل يمكن لنا أن ندعوك «قائد القوات الإسلامية»؟».

فأجبته: «يمكنك لو كان ذلك صحيحاً، ولكن ماذا عن الفرنسيين والپولنديين والتشيكيين والآخرين الذين هم تحت قيادتي أيضاً؟ إنهم ليسوا من المسلمين! في كل حالٍ، ليس في استطاعتي أن أغيّر حرفاً واحداً من اسم منصب منحني إياه مليكي».

قال شوارتزكوف، وقد بدا عليه الحرج: «هل أخبرك الحقيقة . . . ؟».

فقاطعته قائلاً: «دعني أهوّن عليك، لقد كتبت هذه التهنئة مجاملةً، فإن كانت ستسبب لك حرجاً، فما عليك سوى إعادتها إليّ، ولنفترض أنني لم أرسلها إليك».

وهكذا، لم تنشر رسالتي إلى الجنود الأمريكيين. وهذا مثال بسيط للحساسيات المتبادلة بين قائدين يخوضان معاً حرباً مشتركة.

خلال الأشهر التي قضيناها نعمل معاً، لم يكن هناك بد من حدوث بعض النزاعات بيني وبينه بسبب الاختلاف في خلفية كلٍّ منّا ومسؤولياته، والأهم من

هذا وذاك بسبب الاختلاف في المهام المنوطة بكل منّا. وسوف أذكر، فيما بعد، الخلاف الذي نشأ بيني وبينه حول التخطيط لعملية «عاصفة الصحراء». ولكن بصفة عامة، كما ذكرت سابقاً، كان الاحترام المتبادل والتشابه في الطباع إلى حدٍّ ما هو الأساس الذي بُنِيَتْ عليه مشاركتنا الفعالة ضمن الإطار «غير المألوف» للقيادة الموازية.

كنت أواجه مخاطر جمة، لعل شوارتزكوف لم يدرك مدى خطورتها. كان أجلّها ما يتصل بكرامتنا الوطنية، واستقرارنا في مرحلة ما بعد الحرب، وحاجتنا إلى توضيح سياستنا أمام الرأي العام العربي. فمصلحة المملكة تقضي أن لا يظهر الأمريكيون بمظهر قوات احتلال. ولَمّا كنّا حماة للمقدسات الإسلامية، ولا نزال، فقد وجب علينا أن نتوخّى الحرص الشديد كي لا يصدر عن حلفائنا الغربيين ما يسيء إلى مشاعر المسلمين، سواء داخل البلاد أو خارجها. إذ لا يمكن التغاضي عن أي شيء من شأنه الإساءة إلى المبادئ الإسلامية، أو التقاليد الوطنية، أو المعتقدات السائدة، أوالشعائر الدينية. وكان السهر على هذه الأمور وضمان تنفيذها جزءاً مهماً من قراراتي وأوامري وتعليماتي. وآمل أن يسجل التاريخ أنني بإصراري، بتوجيهات من القيادة العليا، على قواعد محددة لسلوك حلفائنا الأمريكيين الأقوياء، ساهمتُ في المحافظة على شرف وكرامة المملكة وقواتها المسلحة على حدٍّ سواء. فلم يحدث أن عُومل السعوديون مرة واحدة كما عُومل الڤيتناميون، خلال حرب ڤيتنام، كمواطنين من الدرجة الثانية على تراب وطنهم. وإني على ثقة أن التاريخ سوف يسجل أن علاقاتنا مع الولايات المتحدة ازدادت عمقاً وقوة بفضل الفهم والاحترام المتبادلين اللذين سادا بين دولتينا، أثناء أزمة الخليج.

الفصل الرابع عشر

إدارة التحالف ـ القسم الأول

كيف كانت طبيعة التحالف الدولي ضد صدام حسين؟ أستطيع، من خبرتي الخاصة، أن أقول إن كثيراً من الغموض لا زال يكتنف طبيعة هذا التحالف. فالشعور السائد لدى معظم الناس أنه تحالف تمّ برعاية الولايات المتحدة، وارتبط أعضاؤه بقرارات اتخذتها الأمم المتحدة، أو بمعاهدة واحدة متعددة الأطراف. لقد أظهر الأمريكيون، حقاً، نشاطاً بارزاً في السعي إلى تجميع قوى التحالف، كما أدت قرارات الأمم المتحدة، لا غرو، دوراً حيوياً في تحديد أهدافه وإعطائها صبغة شرعية. لكن الرابطة الأساسية التي جمعت قوات التحالف تُعزى، من دون شك، إلى المعاهدات الثنائية التي أبرمتها كل دولة من الدول السبع والثلاثين مع المملكة. فلولا المملكة، ما كان للتحالف أن يرى النور، إذ هي الدولة المضيفة له، ومحور ارتكازه، وحلقة الوَصل بين أطرافه. وبفضل الصلاحيات التي منحني إياها الأمير سلطان، واستمدها بدوره من الملك فهد، أصبحت المسؤول عن إبقاء التحالف متماسكاً.

وأبادر فأضيف، أن الملك فهداً شرفني بأن أسند إليَّ مهمة «إدارة شؤون التحالف»، ولم أكن سوى فرد من العائلة المالكة، ولست أعلاها مكانة على الإطلاق. وبفضل من الله، ثم بإشراف الملك وتوجيهاته السديدة، وقفت العائلة المالكة أثناء الأزمة وقفة رجل واحد، وأظهرت مواهب وكفاءات متنوعة. فكبار أعضاء العائلة المالكة، مثل ولي العهد الأمير عبدالله، ووزيري الدفاع والداخلية ونوابهما، وأمير الرياض، ووزير الخارجية، وأعضاء العائلة الآخرين من أمراء المناطق، ورؤساء الهيئات الملكية، والسفراء وأعضاء لجان الأمن الوطني وضباط القوات المسلحة وغيرهم، كل أولئك أدّوا أدواراً مهمة إبّان الأزمة. وأثبتت

العائلة المالكة بذلك مرونتها وفاعليتها. وبمساعدة أعضاء الحكومة الآخرين من غير العائلة المالكة، ومساعدة التجار ورجال الأعمال، وبمساعدة الشعب السعودي الأبيّ بجميع فئاته، الذي صبر وصمد، وترابط وتماسك فكان كالصخر خلف قيادته، وخلف قواته المسلحة، برزت المملكة أكثر صلابة من جيرانها، سواء على الصعيد الدولي أو الإقليمي أو الداخلي. وما أقل البلدان التي تستطيع المباهاة أو الافتخار بحكومة مثل حكومة المملكة! وما سَبب ذلك كله سوى أنّ شعار العائلة المالكة هو التفاني والعمل خدمة للدين ثم الوطن، في صمت دون ضجة أو إعلان.

كان لا بد من الاهتمام بالأمور السياسية التي تمس الدول العربية الأعضاء في التحالف. فلكي أضمن بقاء الجيوش العربية ضمن التحالف بقاءً دائماً قوياً، قضيت ساعات طويلة مع قادة تلك القوات للتأكد من راحة جنودهم، والتأكد أن وحداتهم في مواقع مناسبة، وأن التوجهات السياسية لدولهم، وجنسية القوات المنتشرة إلى يمين مواقعهم أو يسارها تم أخذها في الاعتبار، وأن احتياجاتهم من الإمداد والتموين تم توفيرها، وأن القضايا التي تثير الاحتكاك مع القيادات الأخرى تم تجنُّبها. هذه الأمور كلها كانت تحتاج إلى قدر كبير من الحكمة والانتباه واليقظة. فإصدار الأوامر إلى المصريين أو السوريين أو أية وحدة أخرى من الوحدات التي كانت تعمل تحت قيادتي، يتطلب حساسية خاصة ولباقة سياسية. زِدْ على ذلك، صعوبة إفهام شوارتزكوف كيف يفكر أشقاؤنا العرب.

ويمكن الاستشهاد بمثال واحد لتوضيح الحساسيات السياسية التي كان عَليّ مواجهتها. كان لوجود سوريا أهمية كبرى، لِمَا تضفيه على التحالف من سمات التضامن العربي والقومية العربية. ولكن سوريا أرادت أن تقصر مساهمتها على الدفاع عن المملكة وتحرير الكويت من دون دخول الأراضي العراقية. وكان ذلك الموقف هو موقفنا نحن أيضاً في المملكة، وكذلك موقف مصر وكل الدول العربية الأعضاء في التحالف. كما كانت سوريا حذرة، إلى حد ما، في شأن التعاون العسكري مع الولايات المتحدة. لذا، كان من الضروري مراعاة رغباتها. كنت أفهم هذه المواقف أفضل من شوارتزكوف، الذي أظهر، طوال الأزمة، عدم اهتمام ولا مبالاة تجاه السوريين. وكان موقفه منهم يصل إلى حد العداوة أحياناً. وهذا بلا ريب نتيجة الخلافات السياسية الطويلة الأمد بين الولايات المتحدة وسوريا. ولكن عدم تعاطف شوارتزكوف مع السوريين، أو عدم فهمه لهم، لم

يؤثِّر في موقفي منهم أبداً، إذ كانت مهمتي إبقاءهم في التحالف، والحفاظ على تماسكه.

وكما أسلفت، كانت أشق مرحلة عشتها في حياتي هي فترة الأسابيع الخمسة أو الستة الأولى التي أعقبت الغزو. كان عليّ، في تلك الفترة، أن أقوم بتجهيز مواقع دفاعية عاجلة، وأن أعمل على رفع معنويات القوات. كما كان عليّ أن أقابل الوزراء والمبعوثين من أنحاء العالم، وأن أجري المقابلات الصحافية. والأصعب من ذلك كله، كان عليّ أن أظل مبتسماً وراضياً على الرغم من معرفتي بخطورة الموقف.

أيقنت مع ازدياد عدد المبعوثين الذين قدِموا لمقابلتي، أننا سنستقبل قوات من دول أكثر مما كنت أتصور. كنت أتساءل أَستصبح هذه القوات تحت قيادتي أم تحت قيادة شوارتزكوف؟ وما الميزات والمساوئ لهذا الوضع أو ذاك؟ أحسست، منذ البداية، بأن البريطانيين عقدوا اتفاقاً مع الأمريكيين للقتال معاً تحت القيادة الأمريكية. كانوا، قبل كل شيء، أكثر الحلفاء تقارباً، ولهم خبرة طويلة في العمل العسكري معاً في حلف شمال الأطلسي. وكنت، بالطبع، سأرحِّب بالبريطانيين تحت قيادتي، إلاّ أنني وجدت أن ذلك ربما لا يكون في مصلحتي، إذ كان لديّ من القوات ما يكفي. تركزت آمالي على الفرنسيين: أردت أن يسجل التاريخ أنهم عملوا تحت قيادة سعودية، إذ لم يسبق من قبل لقائد عربي أو مسلم أن تولى قيادة قوة أوروپية. ففرنسا إحدى دول العالم العظمى، وحضارتها محط إعجاب من جميع الشعوب، وهي عضو دائم في مجلس الأمن، وتتمتع قواتها المسلحة بتاريخ عظيم وخبرة قتالية عالية. وشعرت بأن من دواعي الاعتزاز أن ترحِّب المملكة بالقوات الفرنسية على أرضها، وأن أتولى مهمة قيادة بعض وحداتها.

لحسن الحظ، كانت سعادتي لمعارضة الفرنسيين العمل تحت القيادة الأمريكية تماثل رغبتي في أن يعملوا تحت قيادتي. ولم تنتقل الفرقة السادسة الفرنسية من قيادة القوات المشتركة، إلى السيطرة العملياتية للقيادة المركزية الأمريكية إلاّ في شهر يناير عام ١٩٩١، أي قبيل الشروع في عملية عاصفة الصحراء.

علمت، من خلال المناقشات المبدئية، أن القوات المصرية والسورية وعدداً من قوات الدول الإسلامية لن تقبل العمل تحت القيادة الأمريكية. وأدركت أن

هذه القوات ستصبح ضمن قيادتي، مع أنه لم يسبق لقوات مصرية أو سورية أن عملت تحت إمرة قائد سعودي. فالبلدان اكتسبا خبرة نتيجة حروبهما على إسرائيل. أما أنا، فلم يسبق لي أن خضت حرباً من قبل، فضلاً عن أن معرفتي بقواتهما المسلحة كانت محدودة.

وهكذا عكفت، في الأسابيع التي تلت تعييني في أغسطس ١٩٩٠ وقبل وصول معظم القوات الصديقة في سپتمبر وأكتوبر، على العمل بجدٍّ لتهيئة نفسي، فكرياً ونفسياً، لمواجهة الأعباء التي كانت تنتظرني. فتعمقت في دراسة العقائد العسكرية السوڤيتية لعلمي أن مصر وسوريا، وكذلك العراق، تطبق هذه العقائد. كما حاولت استعادة المعلومات التي كنت قد تلقيتها في فورت ليڤنوورث عن التكتيكات السوڤيتية. عدت إلى الدراسة مرة أخرى كي أستوعب أساليب القتال العراقية، وأحدد أفضل السُبل للاستفادة من القوات المصرية والسورية، كما أتفهم إجراءاتهما لتخطيط العمليات وإدارتها.

وإذا فكرنا بهدوء وواقعية، نجد أن التجارب السابقة للقيادات العربية المشتركة لم تكن تجارب ناجحة. ففي نهاية عام ١٩٦٦، وقّعت سوريا ومصر، على الرغم من الشكوك التي كانت تشوب العلاقة بينهما، اتفاقية دفاع مشترك، خوفاً من قيام إسرائيل بشن هجوم عليهما. ومع ازدياد حدة التوتر في المنطقة، وقَّع الأردن اتفاقية دفاع مشترك مع مصر في ٣٠ مايو عام ١٩٦٧ أسندت بموجبها قيادة الجبهة الشرقية العربية إلى قائد مصري، هو اللواء أركان حرب عبد المنعم رياض. وفي اليوم التالي، الأول من يونيه أقام اللواء عبد المنعم رياض مركز قيادته المتقدم في الأردن، لكنه لم يستطع إكمال حشد قواته قبل الخامس من يونيه حين وجهت إسرائيل ضربتها إلى الدول العربية الثلاث كلٍّ على حدة. وأتاح غياب التنسيق بين الدول العربية لإسرائيل فرصة إلحاق الهزيمة بهذه الدول. وفي حرب عام ١٩٧٣، لم يكن حظ القيادة المصرية ـ السورية المشتركة أفضل كثيراً منه في المرة السابقة، فقد سلكت كل دولة طريقاً خاصة بها. وقلت في نفسي إذا كانت دولتان أو ثلاث أخفقت في العمل معاً في أوقات الأزمات القومية الخطيرة من خلال قيادة مشتركة، فكيف لي أن أقنع هذه الدول كلها بالثقة بقيادتي؟ وأدركت أن إخفاقي في القيادة، تخطيطاً وإدارةً وتنفيذاً، سيجعلني ألعوبة في أيدي القادة المصريين والسوريين. فعقدت العزم على أن تحقق قيادتي نصيباً أكبر من النجاح. وأعتقد أن هذا النجاح تحقق فعلاً، لكنه، لسوء الحظ، كان نجاحاً ضد دولة عربية.

علمت بعد نشوب الأزمة بأسابيع عدة، أن ثمة وحدات قادمة لتنضم إلينا من بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر. وهي من الدول الشيوعية التي لم تكن تربطنا بها أية علاقات. عملت تلك الوحدات تحت قيادة القوات المشتركة، مضيفة مسؤوليات أخرى كنت سعيداً للقيام بها، لقناعتي بضرورة أن يظهر للعالم أجمع انضمام وحدات من دول كثيرة تحت قيادة سعودية مساندة لنا، مما يؤكد وحدة المجتمع الدولي ووقوفه صفاً واحداً تأييداً لقضية عادلة.

كانت مهمتي أن أعمل على تكامل قوات من دول مختلفة، تتحدث لغات مختلفة، وتستخدم معدات وأسلحة مختلفة في البر والبحر والجو، كي تشكل قوة قتالية فعالة. وإن كان حلف شمال الأطلسي استطاع أن يحل مشكلة «إجراءات العمل بين القوات المختلفة» من طريق توحيد مواصفات المعدات والتدريب المشترك المتواصل، فعلى التحالف أن يقتدي به في هذا المضمار. كان عليّ أن أحدد الواجبات، أو أخصص المهام المناسبة للوحدات المختلفة، وأتخذ الترتيبات اللازمة لتنفيذ التدريبات المشتركة. كان عليَّ أن أهتم بكل شيء، فلا يقتصر اهتمامي على الإمداد والتموين، وأوضاع القوات، والأسلحة والتكتيكات فحسب، بل يمتد ليشمل الخلافات السياسية والاختلافات الدينية، والعوائق اللغوية، والحزازات الشخصية، وكذلك العادات والتقاليد الموقَّرة عند بعض القوات، وغريبة أو غير مفهومة عند بعضها الآخر.

كان عليّ كذلك أن أزوِّد الملك، قائدي الأعلى، وولي عهده الأمير عبدالله، والنائب الثاني الأمير سلطان بالمعلومات حول التطورات العسكرية، بشكل منتظم. لذلك أُعدّت غرفة إيجاز خاصة يُعرض عليهم فيها آخر التطورات وأحدث القرارات وأدق التقارير. وكنت كلّما تلقيت معلومة جديدة، نقلتها إليهم على الفور. كما كانوا يأمرون، في حالات كثيرة، بتقديم تصور وتحليل للموقف العسكري أعمق وأشمل من التقارير الروتينية. لذا، كنت أقدِّم إلى الأمير سلطان ملخَّصاً كاملاً للتطورات العسكرية في مسرح العمليات، على الأقل مرتين أسبوعياً. وفي مناسبات عدة، عرضت على الملك فهد، القائد الأعلى، تصوراً مستقبلياً عن توقعاتنا خلال الأسابيع والأشهر التالية. وشمل العرض تحليلاً شاملاً وعرضاً للخطط والقرارات الرئيسية. وحضر شوارتزكوف اجتماعين من هذه الاجتماعات.

كانت اجتماعاتي إلى الأمير سلطان أقوى دافع لي إلى العمل والصمود، كما

كانت بلسماً شافياً يرفع روحي المعنوية ويجددها. كانت زاداً أستمد منه الصبر والقوة عندما ألمح في بريق عينيه نظرات الاعتزاز والفخر الأبوي. فما أن أرى ذاك البريق الخاص يشع من عينيه، وأسمع تلك الكلمات الصادقة النابعة من قلبه، يترجمها لسانه، حتى تتلاشى متاعبي وتزول همومي وتتضاءل مشاكلي، فتتجدد حماستي وتقوى عزيمتي. وكم كنت أقصده طلباً للنصيحة أو التوجيه في شأن المشاكل العاجلة! وكلما استشعرت قلقه حول أمرٍ من الأمور ازددت تصميماً على حلّه، مهْما كان حجمه وخطورته.

تُعد مصر من أهم الدول العربية والإسلامية التي أرسلت قواتها إلى المملكة. وفضلاً عن أنها حليفنا التقليدي، فإني، شخصياً، كنت ولا أزال معجباً بها. فقبل غزو صدام الكويت، تعاون الملك فهد والرئيس مبارك في صورة وثيقة لنزع فتيل النزاع العراقي ـ الكويتي. ثم قادا معاً، بعد ذلك، المعارضة العربية ضد عدوان صدام. وفي الحقيقة، كما ذكرت من قبل، كانت المملكة ومصر وسوريا، بعد انضمامها إليهما، العمود الفقري للتحالف. ولولا هذه الدول الثلاث، لأضحت المساندة العسكرية الغربية غير مجدية.

أرسل إلينا المصريون فوراً، وفاءً بالتزامهم، وحدات متقدمة من فوج قوات خاصة. وبوصول هذه الوحدات جواً، أصبحت القوات المصرية من أولى القوات التي وصلت إلى المملكة. ولكن تلك القوات كانت خفيفة التسليح ولم يكن في استطاعتها صد أي هجوم عراقي مدرع. وقدّرت أن أفضل استخدام لها أن تعمل خلف خطوط العدو. وبعد فترة، تبعتها في الوصول إلى المملكة الفرقة الثالثة مشاة آلية ولواء مدفعية ميدان، ثم الفرقة الرابعة المدرعة، وهي من أفضل الفِرق في القوات المسلحة المصرية. وأذكر أنني في ٢٢ سبتمبر ذهبت إلى ميناء ينبع، وهو ميناء جديد على البحر الأحمر، لاستقبال ثلاث سفن سعودية تحمل الطلائع الأولى من فرقة المشاة الآلية المصرية، بما فيها من دبابات، وناقلات جنود مدرعة، ومدفعية، وراجمات صواريخ.

وقبل وصول الفِرق المصرية بأسابيع قليلة، أجريتُ محادثات مكثفة مع عدد من كبار الضباط المصريين الذين قَدِموا لزيارة المملكة. وشَكّلتُ لجنتين، الأولى لإعداد ترتيبات الإمداد والتموين، والأخرى تختص بالعمليات، بما في ذلك

انتقال القوات إلى المملكة. كان اللواء أركان حرب محمد حسين طنطاوي، رئيس هيئة العمليات، على رأس الفريق المصري، وهو رجل ودود ومتعاون إلى أقصى حد. وظل اللواء طنطاوي، خلال الأزمة، حلقة الوصل الرئيسية بيني وبين الفريق صفي الدين أبو شناف، رئيس هيئة أركان حرب القوات المصرية، وهو ضابط قدير قوي الشخصية. كما ظل حلقة الوصل بيني وبين الفريق أول يوسف صبري أبو طالب، وزير الدفاع (وقد تقلد اللواء طنطاوي منصب وزير الدفاع بعد حرب الخليج). وثمة ضابطان مصريان متميزان تعاملت معهما كثيراً، هما اللواء أركان حرب محمد عمر سليمان، مدير إدارة المخابرات الحربية والاستطلاع، الذي كان محط إعجابي وتقديري (واختير، فيما بعد، ليكون رئيساً للمخابرات العامة)، واللواء أركان حرب محمد علي بلال، قائد القوات المصرية في المملكة خلال مرحلة الإعداد لعملية درع الصحراء. ويتمتع اللواء بلال بكفاءة إدارية عالية، وكان يحصل على كل ما يريد بفضل لباقته وحسن تصرفه. وقد أحسن المصريون صنعاً بإرساله في وقت مبكر كي يتخذ كامل الترتيبات الخاصة باستقبال قواتهم. وقد ترك اللواء بلال انطباعاً طيباً لدى الأمير سلطان.

كنت، بطبيعة الحال، مهتماً أشد الاهتمام بمعرفة مدى قبول المصريين للعمل تحت القيادة السعودية. وكم كنت سعيداً عندما كانت إجابتهم بالموافقة دون أدنى تحفظ! أردت أن أعرف أيضاً مدى موافقتهم على التخطيط المشترك مع الأمريكيين، فوجدت أنهم لا يرون مانعاً في ذلك، إذ سبق لهم التدريب مع القوات الأمريكية لسنوات عدة. والأهم من ذلك كله، أردت معرفة عدد القوات التي قرروا إرسالها إلى المملكة، والموعد المتوقع لوصولها.

وعقدت اجتماعاً مغلقاً وفريداً في نوعه إلى حدٍّ ما، للبحث في هذا الموضوع مع اللواء طنطاوي. فالالتزام المصري المعلن هو إرسال فرقة واحدة فقط، لكنني سمعت من الأمير سلطان أن الرئيس مبارك أخبره أنه من الممكن إرسال فرقتين، لا فرقة واحدة، وهذا ما أردت معرفته والتأكد منه. ومع ذلك، لم أتحقق آنذاك إن كان اللواء طنطاوي على علم باقتراح الرئيس مبارك، أو إن كان في وسعي أن أحدثه مباشرة في الموضوع. لذلك اكتفيت، من جانبي، بالتلميح فقط. ولم يشأ، من جانبه، التعليق. ولعله كان يعرف بموضوع الفرقتين وظن أنني أجهله، مما دعاه إلى اتخاذ جانب الحذر للحفاظ على سرِّية الأمر. قضينا نصف ساعة ندور حول هذه النقطة بطريقة جدّ مهذبة، من دون أن يتطرق أحدنا إلى الأمر مباشرة.

قلت له، أخيراً، إننا نود لو أن لنا حرية طلب المزيد من القوات المصرية إذا دعت الحاجة إلى ذلك. فأجاب بأن لديه تعليمات من الرئيس مفادها أن مصر مستعدة لتقديم كل ما في وسعها. كنت أعلم أن مثل هذه الردود تقال عادة في مقام المجاملات، ولا تعني معنىً حقيقياً، لذلك لم أسعد لها تماماً. فما كنت أود معرفته صراحةً هو هل في استطاعتي الاعتماد على وصول فرقتين مصريتين أم لا؟ لأن وصول مثل هاتين الفرقتين يحتاج إلى ترتيبات خاصة لاستقبالهما.

ولمّا عجزت عن انتزاع إجابة صريحة من اللواء طنطاوي، اتصلت هاتفياً بالأمير سلطان أسأله عن اقتراح الرئيس مبارك في شأن القوات تحديداً. فنصحني بالتخطيط لوصول الفرقة المصرية الأخرى، لكنه أضاف: «إننا لا نريد أن نعلن هذا في الوقت الحاضر. وسوف نفعل ذلك في الوقت المناسب». وهذا ما حدث بالفعل. إذ لم يمضِ وقت طويل حتى وصلت الفرقة المصرية الأخرى، وهي الفرقة الرابعة المدرعة.

لم ترسل مصر وحدات جوية في صحبة قواتها البرية، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى خطأ ارتكبتُه من دون قصد. ففي وقت سابق جاءني اللواء أركان حرب صلاح حلبي، الذي تولى قيادة القوات المصرية خلَفاً للواء بلال، وسألني إن كان في وسع مصر أن ترسل سرباً من الطائرات المقاتلة، أعتقد أنها من طراز F-16، فأخبرته بأننا نتوقع وصول أكثر من ١٥٠٠ طائرة مقاتلة من دول أخرى، وأن هذا العدد سَيعقّد مشاكل القيادة والسيطرة. وأوضحت له مخاوفي من احتمال وقوع مصادمات جوية أو حوادث أخرى. ويبدو أن اللواء حلبي فهم ملاحظاتي على أنها تلميح مهذب بألاّ تزيد مصر من أعبائنا بإرسالها مزيداً من الطائرات. وفي الحقيقة، فقد أخبرنا المصريين، بعد ذلك، بأننا على استعداد لاستقبال طائراتهم. واتخذنا الترتيبات اللازمة لإشراكها في التدريبات الجوية التي كانت ستزوِّد الطيارين المصريين بخبرة مفيدة. لكن الطائرات المصرية لم تصل قط، ربما كان ذلك نتيجة لملاحظاتي السابقة التي أسفت عليها.

دهشت حين أخبرني المصريون، والسوريون من بعدهم، أن وحداتهم جاهزة للتحرك، وأنهم ينتظرون منّا أن نرسل لهم وسائل النقل. فاتصلت بشوارتزكوف لأعرف مدى استعداده للمساعدة على عملية النقل، على الرغم من علمي أن الأمريكيين أنفسهم كانوا يعانون نقصاً حاداً في وسائل النقل البحرية، دفعهم إلى استئجار عددٍ كبيرٍ من سفن الشحن من الشركات الأوروبية. ولكني استطعت،

بعد إجراء اتصالات عاجلة، توفير عدد كافٍ من السفن السعودية لإنجاز هذه المهمة.

وقعت حادثة مؤسفة حينئذ لم ينشر، حسب علمي، أي خبر عنها. فقد طلب المصريون والسوريون منّا حماية قواتهم أثناء رحلتها إلى شواطئنا. وأعتقد أنهم كانوا يخشون تعرض السفن التي تنقل قواتهم لهجوم إسرائيلي، أو هجوم عراقي يُشن من الأراضي العراقية أو الأردنية. وفي رأيي الخاص، أنهم حرصاً على سلامة قواتهم، كانوا يسعون لتأمين قدرٍ من الحماية لها أكثر مما يستدعيه الموقف، إذ كان في وسعهم تأمين حمايتها، على الأقل، حتى دخولها مياهنا الإقليمية. كما أعتقد أنهم توقعوا منّي، من خلال قيادة القوات المشتركة، توفير حماية أمريكية لقواتهم. فقد كانت لدى الأمريكيين مجموعتان من حاملات الطائرات في البحر الأحمر، وطائرات مقاتلة تقوم بأعمال الدورية على مدى ٢٤ ساعة كل يوم.

نقلت إلى شوارتزكوف طلب المصريين والسوريين. وبعد مناقشات مستفيضة، تقرر أن تتولى المملكة نقلهم، بينما تتولى الولايات المتحدة حمايتهم. وحصل شوارتزكوف على موافقة حكومته على هذا الاتفاق، ثم أصدر أوامره بذلك. أما نحن، فأجرينا اتصالات مكثفة لتأمين النقل. وأخبرنا الأمريكيين فور إبحار السفن التي تنقل القوات المصرية، ليتولوا حمايتها حتى تصل إلى نقطة تصبح قواتنا البحرية عندها قادرة على الاضطلاع بهذه المهمة.

بدا أن كل شيء يسير طبقاً للخطة، غير أنني تلقيت، بعد يوم أو بعض يوم، مكالمة متوترة من القاهرة. فبعد مضيّ ٢٤ ساعة على إبحار السفن، وهي تحمل لواءً مصرياً، تعرضت لهجوم شنته طائرتان أمريكيتان انطلقتا من حاملات الطائرات في البحر الأحمر. كانت هاتان الطائرتان من الطائرات المكلَّفة بحماية القوات المصرية. ومن الواضح أن الطيارين الأمريكيين فتحا النار على السفن لعدم تمكنهما من تحديد هويتها. أو ربما أطلقا طلقات تحذيرية، جاءت قريبة جداً من السفن وسببت الذعر الشديد الذى جعل المصريين يظنون أنهم يتعرضون لهجوم حقيقي. ولم أصدق ما سمعت! أين موقع هذه السفن الآن؟ علمت أنها غيرت اتجاهها ويمَّمَت عائدة صوب الميناء المصري الذي أبحرت منه. لا شك أن أحد الأمريكيين أفسد الموقف بذلك التصرف.

استدعى الحادث الكثير من البحث والتدقيق، وكلّفني الكثير من الجهد

والوقت، إذ اضطررنا إلى سحب الفريق الذي كان قد أُعد لاستقبال القوات المصرية في ميناء ينبع، وسحب مئات الشاحنات التي استأجرناها لنقلهم إلى مناطق تجمعهم. وأجريت اتصالات هاتفية مكثفة على مدى ٢٤ ساعة. ومع أن شوارتزكوف لم يصدق خبر وقوع الهجوم أول الأمر، لكنه ما لبث أن اعترف به، وقدم اعتذاره. يبدو الأمر الآن مضحكاً، لكنه لم يكن كذلك في حينه. وأخيراً، أبحر المصريون مرة أخرى، ووصلوا ميناء ينبع سالمين، دون حوادث هذه المرة.

وصل الرئيس حسني مبارك إلى المملكة، في ٢٢ أكتوبر، ليتفقد قواته. توجَّه مباشرة من القاهرة إلى مطار القيصومة المدني، وهي مدينة تقع على طريق «التابلاين» على مقربة من حفر الباطن، ومنها انتقل في السيارة للقاء جنوده. وتوجَّهْت جواً من الرياض للانضمام إلى كبار مستقبليه الذين كان بينهم الأمير محمد بن فهد، أمير المنطقة الشرقية، وقائد المنطقة الشمالية، وأمير مدينة حفر الباطن، وعدد من كبار الشخصيات المهمة والرسمية. نُصِبَتْ خيمة كبيرة للمستقبلين، بينما جلس آلاف الجنود المصريين، ومعهم أسلحتهم الشخصية، على بعد أمتار من الرئيس ليستمعوا إلى خطابه.

وبعد أن فرغ الرئيس مبارك من خطابه، سأل الجنود إن كان هناك نقص في احتياجاتهم، أو لديهم طلبات خاصة، ثم دعاهم إلى توجيه أسئلتهم. ولوحظ، في تلك اللحظة، بعض الهرج في الصفوف الخلفية لهذا التجمع. إذ نهض جندي يحمل بندقيته وحاول أن يشق طريقه نحو الرئيس عنوة متخطياً صفوف زملائه الجالسين. ويبدو أن ذكرى اغتيال الرئيس السادات كانت لا تزال عالقة في الأذهان، إذ أسرع حرس الرئيس باعتراضه وشل حركته.

صاح الرئيس مبارك: «دعوه، دعوه يتقدم، دعوه يتكلم!».

قال الجندي: «سمعنا صدام حسين في الإذاعة وهو يقول أشياء سيئة في حق مصر ورئيسها، فما عسانا أن نفعل تجاه ذلك المجنون؟». هذا كل ما أراد الجندي قوله.

فأجاب الرئيس مبارك: «لا تهتم بذلك أبداً. انسَ ما قاله صدام. ولا تلقِ بالاً إلى الشائعات الكاذبة. إن لنا ثقة كاملة بأنفسنا وبعدالة قضيتنا . . .»، إلى آخر تلك الكلمات. ولمست من هدوء أعصاب الرئيس مبارك ورباطة جأشه ما يستحق الإعجاب فعلاً.

من المبادئ التي انتهجتها في إدارة التحالف، ألاّ أُكلف وحدة ما لا طاقة لها به. وكنت أتوخّى الحذر في ما يتعلق بالمناخ السياسي السائد قبل إصدار الأوامر. إذ كانت مهمتي أن أحصل من كل وحدة على أقصى ما في وسعها، دون أن أثير مشاكل أو حساسيات. ولكني أعترف أنني أخطأت مرة في تقدير الموقف.

تلقيت تقريراً استخبارياً يفيد أن العراقيين أرسلوا بعض قواتهم، بينها قوات خاصة لتعزيز مواقعهم المواجِهة لمدينة عرعر الواقعة في الشمال الغربي من المملكة. وكان أميرها، من العائلة المالكة، هو خالي الأمير عبدالله بن مساعد آل جلوي. وكنت أعلم أن أية نكسة أو تراجع في ذلك القطاع سينجم عنه عواقب نفسية وخيمة. فهل كان العراقيون، بإرسالهم تلك القوات، يخططون للهجوم؟ شعرت أنه من الضروري تعزيز قواتي هناك أيضاً، فزدت عدد الدوريات الجوية المقاتلة فوق المنطقة، كما دفعت إليها بلواء من الحرس الوطني السعودي. ومع ذلك، لم أكن راضياً تماماً عن الموقف الدفاعي في تلك المنطقة.

ولكي أضارع القوات الخاصة العراقية، أردت تقوية دفاعاتنا بكتيبة من القوات الخاصة المصرية. وهذا يعني فصل الكتيبة عن الفوج المصري وعن الإشراف المباشر لقائدها. سألت أعضاء فريق التخطيط إن كانوا قد تشاوروا مع القادة المصريين في هذا الشأن، فأكدوا لي أنهم فعلوا ذلك. فأصدرت الأوامر بتحرك الكتيبة. وما هي إلاّ هنيهة حتى تلقيت مكالمة من اللواء صلاح حلبي، سألني فيها بأدب جمّ إن كان ثمة مجال لإعادة النظر في قراري. تبادر إلى ذهني أنه استشار حكومته وأنه ينفذ تعليماتها. ومن حسن الحظ أنه لم يخاطبني بأسلوب يجعلني أُصرّ على ممارسة صلاحياتي، بل على النقيض من ذلك، قال إنه مستعد لإطاعة أوامري بالتحرك فوراً إن كان هذا ما أريده حقاً. ولكنه رجاني أن يوضح لي نقطة أو نقطتين. وأدركت على الفور، بغض النظر عمّا لديه، أن الكتيبة المصرية لن تتحرك.

قلت للواء حلبي: «لا أريد إشعاراً رسمياً باعتراضك، انتظر فقط تعليماتي الجديدة». أعدت النظر في أوامري فوراً، فأبقيت القوات الخاصة المصرية في موقعها بدلاً من أن تتقدم للدفاع عن عرعر. وإذا أردنا أن نحدد من يقع عليه اللوم في هذا الشأن، فإنه دون شك، يقع على المخطِّطين الذين أبلغوني أن المصريين موافقون على التحرك. لذلك، كان جزاؤهم عندي توبيخاً شديداً.

وذات ليلة وفي ساعة متأخرة، وأنا أعاني الأرق في غرفة نومي في وزارة الدفاع، أدرت جهاز التليفزيون فشاهدت مصادفة مقابلة مع سيدة مصرية كان ابنها ضمن جنود في الفرقة المصرية التي قَدِمَتْ إلى المملكة. قالت السيدة إنها فخورة بإرسال ابنها إلى السعودية ليقاتل في سبيل نصرة العدل. لكنها أجهشت، بعدئذ، بالبكاء قائلة: «إنه لم يكتب لنا، ولم نتلقَّ منه أية رسائل». شعرت بالشكر لتلك الأم التي أثارت لهفتها على ابنها مشاعر إنسانية عميقة في نفسي. وكان أول شيء فعلته صباح اليوم التالي، أنني بعثت رسالة في هذا الشأن إلى القائد المصري، الذي حثّ ابنها على أن يبعث لأمه برسالة على جناح السرعة. بعدئذ، بذلت ما في وسعي لتحسين الخدمات البريدية جمعاً وتوزيعاً.

أوفد الرئيس حافظ الأسد، بعد غزو العراق الكويت بوقت قصير، العماد علي أصلان نائب رئيس الأركان السوري، ليناقش معي ما يمكن أن تقدمه سوريا لتعزيز دفاعاتنا (رتبة العماد في سوريا هي رتبة بين اللواء والفريق). كانت تلك هي المرة الأولى التي ألتقي فيها ضابطاً سورياً كبيراً. وقد وجدت العماد علي أصلان يتمتع باللباقة ودماثة الخلق، ويتحدث بصوت هادئ وثقة بالنفس.

قلت للعماد أصلان، محاولاً تخفيف الجو الرسمي المحيط بنا: «إنني أحترم الرئيس الأسد وأقدّره؛ لأنه كان على صواب في موقفه من صدام، بينما أخطأنا نحن التقدير. وكم كان حكيماً لعدم حضوره مؤتمر قمة بغداد!». وكنت أقصد ذلك المؤتمر الذي عقد في شهر مايو ١٩٩٠، وأسبغ على صدام الهيبة التي كان يريدها، وربما شجعه ذلك على غزو الكويت.

كنت صادقاً في إطرائي الرئيس الأسد. فالرئيس السوري يعتبر، حقاً، من أعمق زعماء المنطقة رؤية سياسية. وأردت أن أوضح للعماد أصلان أيضاً أننا في المملكة نقدّر الموقف السوري، وأن في استطاعته الثقة بأن قيادتي للقوات السورية لن تسبب أي حرج سياسي لدمشق.

شعرت، بوجه عام، أن مسؤوليتي قائداً للقوات المشتركة، تملي عليّ أن أحافظ على مصالح كل دولة وضعت قواتها تحت قيادتي. وكنت أدرك أنني مدين بذلك الشرف لزعماء تلك الدول. فموافقتهم على وضع قواتهم تحت إمرة قائد

سعودي، حتّمت عليّ أن أكون أهلاً لثقتهم على أقل تقدير، سواء أَكنت متفقاً مع سياستهم أم غير متفق.

يُعرف عن الرئيس الأسد بغضه الشديد لصدام حسين، أكثر من بغضنا له بكثير. وكما أيقنت أيضاً أنه لم يكن من السهل على سوريا، بصفتها حاملة راية القومية العربية، أن تضم قواتها إلى قوات الولايات المتحدة في شن حرب على دولة عربية أخرى، فضلاً عن أن الصراع الطويل، السياسي والعسكري، بين سوريا وإسرائيل جعل السوريين ينظرون بعين الشك والريبة إلى نوايا الولايات المتحدة حليفة إسرائيل. فعلى الرغم من التحسن الذي طرأ على العلاقات السورية ـ الأمريكية أخيراً، إلاّ أن قدراً من تراكمات المرارة والمشاعر المعادية لا تزال باقية من الماضي. فشوارتزكوف كان ينظر إلى السوريين بعين الحذر، ولم يتصل بهم طوال الأزمة. كما حرص السوريون، بالمثل، على الابتعاد عن العسكريين الأمريكيين خشية أن يقوموا بنقل شيء مما يعرفونه عن السوريين إلى إسرائيل. ولهذه الأسباب مجتمعة، توقعت ظهور بعض المشاكل بين القوات السورية والأمريكية في المملكة.

وفي ضوء هذه المعرفة، كنت مهيأً لما سيقوله العماد أصلان، الذي أوضح بأسلوب لبق ومهذب أن القوات السورية تفضل ألاّ تعمل بالقرب من القوات الأمريكية. فأكدت له أننا سَنُبقي علاقتنا بالولايات المتحدة بعيدة تماماً عن كل ما يتصل بالشؤون السورية، وأن تنظيم القوات السورية وتخطيطها وتكتيكها وتدريبها واحتياجاتها ستظل موضع الكتمان والسرِّية داخل القيادة السعودية.

سألت العماد أصلان: «ماذا لو التقى جنود سوريون جنوداً أمريكيين مصادفة؟». فأجاب: «المهم تجنب الحرج لكل منهما». وعلى كل حال، فقد كانت سوريا حريصة على أداء دورها في الدفاع عن المملكة، وأذكر عبارة العماد أصلان: «لتساعد على القضاء على خطر صدام»، ولكنها، تنفيذاً لهذا الدور، لا تقبل أبداً أن تعمل قواتها تحت إمرة القيادة الأمريكية. فالقوات السورية تقبل العمل تحت إمرة قائد سعودي ولا أحد سواه. وهذا ما كنت أتمناه.

وصلت وحدة من القوات الخاصة السورية إلى المملكة بعد فترة وجيزة. ثم تبعتها، بأسابيع عدة، الفرقة التاسعة المدرعة، بعد أن استكملنا لها تجهيز السفن، وشاحنات النقل، وأماكن الإيواء، والطعام وما شابه ذلك من الاحتياجات الأخرى. وأبحرت السفن التي تحمل القوات السورية تحت الحماية الجوية

الأمريكية. ولفت نظري قدرة دولتين لم تكونا على وفاق من قبل، على التعاون بشكل فعال لمجابهة خطر مشترك. وأذكر أنني توجّهت إلى ميناء ينبع، في الرابع من نوفمبر، لاستقبال طلائع القوات السورية وهي تغادر الباخرة السعودية الضخمة «سعودي قصيم»، فأصبت بخيبة أمل عندما وجدت أن الدبابات التي جاءوا بها كانت من نوع T-62 القديمة، وليست T-72 كما تمنيت. ولكنني كنت أدرك أن لدى السوريين التزامات دفاعية أخرى في الجولان وفي لبنان، وأنهم إلى جانب مجابهة إسرائيل، كان عليهم حشد فرقتين على الحدود العراقية لمواجهة صدام إذا حاول القيام بمغامرة ضدهم. وفي الحقيقة، كنت سأشعر بالرضى حتى لو جاءوا بدباباتهم الأكثر قِدَماً T-34، إذ لم أكن في وضع يجعلني أثقِل على السوريين، فوجودهم معنا في حد ذاته كان أمراً في غاية الأهمية.

وضعتُ الفرقة المدرعة السورية، في بداية الأمر، غرب مشاة البحرية الأمريكية (أي إلى ميسرتهم) التى كانت متمركزة بين قطاعيْ مسؤوليتي الشرقي والشمالي. وما أسرع ما اكتشفت أن الأمريكيين لا يحبذون هذا الوضع. فقد كانت الدبابات السورية السوفيتية الصنع تماثل ما لدى العراق نوعاً وتشكيلاً. وخشيت أن يتفاقم أي حادث قد يقع بين الأمريكيين والسوريين، مهْما كان صغيراً، فيصبح مشكلة كبيرة. لذلك استبدلت فرقة مصرية بالفرقة السورية، فارتاح السوريون إلى هذا القرار، كما شعر الأمريكيون براحة أكبر لمجاورة القوات المصرية ميسرتهم. فقد أجروا تدريبات مشتركة معاً من قبل. وأثناء التخطيط لعملية عاصفة الصحراء، اتضح لي أنه بتحرك الفيلق السابع الأمريكي غرباً، ستصبح الفرقة السورية إلى ميمنته، وتتكرر المشكلة نفسها التي حدثت في درع الصحراء مع مشاة البحرية. لهذا السبب ولأسباب أخرى عملياتية وسياسية، نقلت القوات المصرية إلى قطاع هجومها فى اتجاه الغرب (شرق الفيلق السابع)، وسحبت الفرقة السورية إلى الخلف لتشكّل احتياطي القوات المشتركة في المنطقة الشمالية.

كانت إحدى مسؤولياتي، التأكد من عدم حدوث منازعات خطيرة بين القوات المتحالفة في الميدان، لعلمي أن صدام حسين يُعَوِّل كثيراً على تفكك التحالف وانهياره. ولظنه أنه لو تمكن من زرع بذور الشقاق بين دول التحالف، فلا بد عندئذ من ظهور المشاكل بينها، مشاكل بين سوريا والولايات المتحدة، أو بين الدول العربية التي تؤيد الحرب وتلك التي تعارضها، أو مشاكل دينية بسبب تأثير وجود القوات الأجنبية في المجتمع السعودي، أو أعمال عنف ينفذها الجنود

العرب أو المسلمون بتحريض من العناصر المتطرفة. كان صدام يأمل، دون شك، من أجل إثارة المشاعر التهاباً أن يطلق جنود قوات التحالف النار على ضباطهم. وفي محاولة لصب الزيت على النار، اختلق العراقيون عدداً من الحوادث تناقلتها وسائل الإعلام في الأردن وبعض دول شمال أفريقيا. منها، مثلاً، أن ستة عشر مصرياً وأربعة أمريكيين قتلوا في صِدام وقع بين الجانبين. ولم تكن كل هذه القصص سوى دعايات معادية، الهدف منها تضليل الرأي العام. وكنت على يقين من أنه لو أُطلقت رصاصة واحدة بسبب نزاع ما، لتسببت لنا بأزمة خطيرة.

تركز معظم دعايات صدام ضد التحالف على الناحية الدينية. ولم يكن ذلك مستغرباً منه، فهو رجل جُبل على المكر والخداع. إذ كيف لزعيم حزب علماني أن يرتدي عباءة الإسلام؟! فبعد غزوه الكويت، وزعت أجهزة الإعلام العراقية صورته وهو يؤدي الصلاة في الكويت. ويظهر صدام في الصورة يصلي بمفرده ويحيط به حراسه المسلحون! وكشف تحليل الصورة وتحليل ظلال الأشخاص الظاهرين فيها، أنه لم يكن حتى متوجهاً نحوالقِبْلة! ذلكم هو صدام حسين، المسلم المثالي!

كان من دواعي سروري، ما لمسته من القائد السوري اللواء الركن علي حبيب من حماسة وانضباط واستعداد للتعاون بلا تردد أو تحفظ، فأصبح بعد فترة وجيزة من أقرب قادة القوات إلى نفسي (تمت ترقيته إلى منصب قائد الوحدات الخاصة السورية، المغاوير، في شهر أغسطس ١٩٩٤).

ادعّى بعض المراقبين أن القوات السورية لم تشترك في القتال، بيد أن هذا الادعاء عارٍ تماماً من الصحة. فقد كنت أعلم، منذ البداية، أن السوريين يتحفظون في شأن مهاجمة العراق، مما جعلني أخصص لهم منطقة تجمّع ضمن النطاق الدفاعي للقوات المشتركة في المنطقة الشمالية، على بعد ٥٠ كيلومتراً من خط المواجهة، حيث برزت أهميتهم الكبرى في الدفاع. وكانت قواتهم على درجة عالية من التدريب والكفاءة، ولديها أوامر صريحة بالقتال حال تعرّضها للهجوم. آثرت أن أخصص لها مهمة العمل كاحتياطي للقوات المشتركة في المنطقة الشمالية، خشية ألاّ يصل إليها الأمر بالمشاركة في الهجوم قبل الحرب البرية بوقت كافٍ. لم أكن أرغب في أن أسبب لها حرجاً بجعل هذا الأمر مسألة سياسية. فإذا صدرت إليها الأوامر بالاشتراك في الهجوم فلن تتغير مهمتها،

وستتقدم خلف القوات لتنفيذ مهامها الهجومية. وإذا لم يسمح لها بالاشتراك، أخصص لها مهمة احتلال المواقع الدفاعية التي ستُخلى بتقدم القوات المهاجمة. وعلى أي حال، فقد وصل إليها الأمر في الوقت المناسب، وشارك السوريون في تحرير دولة الكويت. وكان وضع القوات السورية في الاحتياط، أثناء العملية الدفاعية، عملاً عسكرياً ذا أهمية تكتيكية فائقة، إذ كانت مهمتها تعزيز قوات النسق الأول إذا دعت الضرورة، وشن هجوم مضاد إذا نجح العراقيون في اختراق دفاعاتنا، وحماية أجناب ومؤخرة المواقع الدفاعية، وحماية الثغرات (الفواصل) بين الوحدات الأمامية. وكان السوريون على استعداد لأداء تلك المهام.

إضافة إلى ما سبق، وقبل اندلاع الحرب البرية، بذلتُ محاولات عدة، لأسباب سياسية وعسكرية، لتحقيق تكامل القوات المختلفة تحت قيادتي. فعلى سبيل المثال، ألحقتُ كتيبة من المظليين السعوديين على القوات الخاصة المصرية، قبل بدء الحملة الجوية بأسبوعين. وظلت تلك الكتيبة هناك إلى أن تم تحرير الكويت، وقد كلّفتها بعد ذلك بمهام معينة في معسكر رفحا للاجئين العراقيين. فعلت ذلك لأني كنت أدرك أن القوات الخاصة المصرية، المدرَّبة تدريباً أمريكياً، لديها من الخبرة ما يمكن أن يَفيد منه جنودنا. كما ألحقت وحدات من المدفعية السعودية على القيادة السورية في المنطقة الشمالية. ودفعت وحدات سورية من المهندسين العسكريين إلى الأمام تحت قيادة سعودية. وحين اندلعت الحرب، شكل أولئك طليعة الوحدات التي اقتحمت الدفاعات العراقية. ولهذا السبب، عندما يدّعي بعض المراقبين أن السوريين لم يشتركوا في القتال، أجيبهم بأن هذا الادعاء محض افتراء.

لم يُحضر السوريون معهم طائرات، شأنهم في ذلك شأن المصريين. وربما كان ذلك أفضل إذ كان لديّ ما يكفي من مشاكل تكامل أنظمة القوات البرية العربية والإسلامية مع أنظمة القوات الجوية للتحالف. وبرز في هذا الشأن عددٌ من الصعوبات الفنية، التي سأحاول شرحها بلغة ميسرة بعيداً عن تعقيد المصطلحات العسكرية المتخصصة.

أحضر معظم القوات البرية، التي تدفقت إلى المملكة، صواريخ أرض ـ جو ومدافع مضادة للطائرات لتدافع بها عن نفسها ضد أي هجوم جوي عراقي

محتمل. لكن هذه الدفاعات الجوية العضوية، أي الدفاعات الجوية المرتبطة بوحدات برية، كانت تشكل خطراً حقيقياً على القوات الجوية المتحالفة. كان هناك تعارض في المصالح: فالقوات البرية كانت تحتاج إلى أن تدافع عن نفسها، بينما كانت القوات الجوية في حاجة إلى أن تعمل دون التعرض لخطر النيران الصديقة.

كانت تلك معضلة يتحتم عليّ أن أفصل فيها بين القوات الجوية وبين الدفاع الجوي. وانحزت بكل ثقلي إلى جانب القوات الجوية. فبعد الأسابيع القليلة الأولى، وعندما حقق التحالف السيادة الجوية الكاملة، لم تعد القوات الجوية العراقية تشكل أي خطر على قواتنا. ولعل من المفارقات أن تصبح دفاعاتنا الجوية العضوية لقواتنا البرية هي الخطر الحقيقي الذي يهدد طائراتنا! فقد انتشرت في الميدان أعداد كبيرة من أسلحة الدفاع الجوي المختلفة السوڤيتية والفرنسية والأمريكية والسويسرية والمصرية، وكثير غيرها. وأصبحت عملية التنسيق والتكامل بينها وبين آلاف الطائرات، في مجالنا الجوي، كابوساً مخيفاً. فعلى نطاق القوات السعودية، واجهتنا مشكلة التكامل بين قواتنا الجوية وقوات الدفاع الجوي، شأننا شأن قوات الدول الأخرى. لكن حجم المشكلة تضاعف الآن أضعافاً مضاعفة، حتى لم يعد في استطاعة مركز تنسيق العمليات الجوية تقديم الإسناد الجوي القريب إلى أيّ من وحداتي المقاتلة، إلاّ بعد التأكد من عدم تعرّض طائرات التحالف للنيران الصديقة. لذلك، كان من الضروري أن تتولى جهة ما مهمة السيطرة على الدفاعات الأرضية.

وحتى نتوصل إلى حل لمشاكل الدفاع الجوي، وضمان إسناد جوي قريب لقواتي، دعوت إلى اجتماع نستمع فيه إلى إيجاز (تقرير) أعدّته القوات الجوية. وكان بين كبار الضباط الذين حضروا ذلك الاجتماع الفريق هورنر، قائد القوات الجوية المتحالفة، والفريق أحمد بحيري، قائد القوات الجوية السعودية، واللواء ماجد طلحاب العتيبي، قائد قوات الدفاع الجوي بالنيابة (وهو ضابط ذو كفاءة عالية عمل معي عن قرب طوال سنوات عدة، وأعددته لتولي هذا المنصب)، والعميد الركن أحمد مساعد السديري، رئيس هيئة عمليات القوات الجوية والعميد الركن حسين علي حبتر، رئيس هيئة عمليات قوات الدفاع الجوي (وهو ضابط واسع المعرفة ولديه موهبة في التفكير التكتيكي).

كان الفيلق الثامن عشر الأمريكي، حينذاك، في الظهران. وكان مركز

عمليات الإسناد الجوي التابع له مسؤولاً عن توفير الإسناد الجوي القريب للقوات المشتركة، إضافة إلى قوات الفيلق. ومع أني حرصت على تعيين ضابط اتصال سعودي في ذلك المركز، إلاّ أنني لم أكن راضياً تماماً عن العمل، إذ تبين لي أننا ما لم نحقق نظاماً متكاملاً ١٠٠٪ في العمليات، فإن الدفاعات الجوية العضوية التابعة لقواتي يجب أن تبقى «مقيَّدة»، أي ينحصر إطلاق النار فقط في الدفاع عن النفس. لذلك، أصدرت أوامري بألاّ تستخدم الوحدات البرية تحت قيادتي أسلحة دفاعها الجوي، ما لم تتعرض لهجوم مباشر من الطائرات العراقية، وفي هذه الحالة فقط يمكنها الرد دفاعاً عن النفس. وكان خطر إصابة طائرات التحالف بالنيران الصديقة خطراً عظيماً إلى درجة لا يُقبل فيها أي شكل من أشكال التهاون.

لكن المشكلة المستحكمة بقيت دون حل، إذ كيف يمكننا تحقيق التكامل بين الدفاعات الجوية، العضوية منها والإقليمية، ودمْجها في نظام واحد لتحقيق متطلبات العمليات والسلامة معاً؟

دارت خلال التخطيط لعملية درع الصحراء مناقشات مكثفة لحل مشاكل الدفاع الجوي. فبدأ الأمر بربط الدفاعات الجوية العضوية التابعة للوحدات السعودية ولوحدات دول مجلس التعاون الخليجي، بمجموعة الدفاع الجوي في المنطقة الشرقية. لكن هذا الإجراء لم يكن ليتناسب مع تدفق قوات التحالف. لذا، أصدرت توجيهاتي إلى ضباط أركاني، في الأشهر الثلاثة التي سبقت الهجوم الجوي على العراق، بإجراء مسْح شامل لمناطق انتشار القوات المتحالفة، لتحديد متطلبات الدفاع الجوي، ووضْع الخطط لتلبية هذه المتطلبات. ووجدنا أنه من الضروري تأمين الغطاء الكافي لقواتنا المشتركة في المنطقتين الشرقية والشمالية، إضافة إلى تأمين غطاء للمناورة الواسعة تمهيداً للحرب البرية: وهي تحرك فيلقين أمريكيين من الشرق إلى الغرب، للالتفاف حول القوات العراقية الرئيسية، ومهاجمتها من الخلف.

كان علينا، في تلك الأثناء، أن نوسع شبكة دفاعنا الجوي لتأمين الحماية للقوات المتحالفة الضخمة العدد والعدة، وهي توشك أن تدخل الأراضي العراقية والكويتية. ونتيجة عمليات المسْح التي قام بها ضباط الأركان السعوديون والأمريكيون، قررنا إنشاء قطاع فرعي إضافي مستقل للدفاع الجوي في المنطقة الشمالية تحت سيطرة قائد القطاع الشرقي. وكان ذلك يتطلب تجهيز عدد من

المراكز مثل: «مركز التبليغ القتالي» Combat Reporting Center (CRC)، و«مركز معالجة الرسائل» Message Processing Center (MPC) لالتقاط المعلومات المتدفقة من طائرات الإنذار المبكر (أواكس) AWACS وغيرها، و«مركز عمليات الإسناد الجوي» Air Support Operations Center (ASOC). ومعنى ذلك أننا كنّا في حاجة إلى نظام دفاع جوي جديد متنقل ومتكامل. إضافة إلى ذلك، تم توفير المزيد من سرايا صواريخ «هوك»، وصواريخ «پاتريوت» أيضاً للتصدي لصواريخ سكود العراقية. وقدم ضباط أركاني إيجازاً إلى قادة قوات التحالف عن الفكرة العامة الجديدة لنظام الدفاع الجوي. ونال النظام الجديد الموافقة بالإجماع. وبدأ نقل المعدات المطلوبة جواً من الولايات المتحدة في طائرات C-5، وتركيبها في مدينة الملك خالد العسكرية. ومع تدفق المعلومات من الرادارات الأرضية، وطائرات الإنذار المبكر، أصبح في استطاعة «مركز التبليغ القتالي» الجديد التقاط صورة جوية كاملة، ومن ثَم نقل الإنذار المبكر آلياً إلى وحدات صواريخ پاتريوت وهوك في الميدان التي كان يتصل معها بالصوت والبيانات. كما نُقل من جدّة نظام خاص بصواريخ هوك لاستخدامه لتكامل السرايا السعودية مع البطاريات الأمريكية، وهو النظام الذي يسيطر عليه «مركز التبليغ القتالي». ثم وقع الاختيار على عدد من ضباط الدفاع الجوي السعودي الأكْفاء، وممثلين عن الدفاع الجوي من بريطانيا وفرنسا ومصر وسوريا، للعمل مع نظرائهم الأمريكيين في «مركز التبليغ القتالي». وهكذا، تم حل مشكلة التكامل بين مختلف نظم الدفاع الجوي لدول التحالف، التي تتحدث لغات مختلفة، وعلى شبكات اتصال غير متجانسة في أكثر الأحيان، وتطبق عقائد متباينة وإجراءات مختلفة، وتستخدم أسلحة متنوعة.

كان الحل الذي اتخذناه، باختصار، كالآتي:

أ ـ تقييد نيران أسلحة الدفاع الجوي العضوية.

ب ـ التأكد من أن الأسلحة التي تتلقى معلومات الإنذار المبكر، تستطيع تمييز العدو من الصديق.

ج ـ إضافة قدرة دفاع جوي إقليمي في شكل «مركز التبليغ القتالي» الجديد.

واستغرق إنشاء النظام الجديد وتدريب العاملين على تشغيله، ثلاثة أشهر من العمل الدؤوب المكثف، امتدت من شهر نوفمبر ١٩٩٠ حتى يناير ١٩٩١.

وحين بدأت الحملة الجوية على العراق، كان النظام الجديد يعمل بكفاءة واقتدار.

ولاختبار فاعلية النظام الجديد، كنّا نطلق طائراتنا للعمل كأهداف معادية، لتلتقطها طائرات الإنذار المبكر، ثم تُنقل المعلومات إلى مراقب يجلس أمام شاشة في «مركز التبليغ القتالي» الذي يصدر الأوامر إلى وحدات الدفاع الجوي الإقليمي، أو إلى وحدات الدفاع الجوي العضوية مع القوات البرية، أو إلى الطائرات التي تنطلق لاعتراض تلك الأهداف. وكنت أعرف، لخبرتي بالدفاع الجوي، أن هذا الأمر بالغ الصعوبة، حتى وأنت تتعامل مع قوة متجانسة تتحدث لغة واحدة، فكيف تكون الحال إذاً وأنت تتعامل مع قوات من جنسيات متعددة، تتحدث لغات مختلفة!

وفي نهاية المطاف، أصبحت الدفاعات الجوية لقوات التحالف على درجة عالية من الكفاءة. فمن خلال السيطرة الدقيقة، والتدريبات المكثفة، التي دامت قرابة ستة أشهر، لم ترتكب الدفاعات الجوية خطأً واحداً، ولم تُصَب أية طائرة للتحالف بنيران صديقة، سواء كان ذلك أثناء التدريب أم خلال الحرب.

هذا باختصار، ما كان من أمر مشاكل الأرض ـ جو، ولكن ماذا عن مشاكل الجو ـ أرض؟ فقواتي ستشترك في القتال ولا بد لها من الحصول على إسناد جوي قريب. لذا، برزت الحاجة إلى إعداد إجراءات مناسبة تضمن الاتصال بين القوات البرية والقوات الجوية، وتُمكّن قواتي البرية، بوجه خاص، من التحدث مع القوات الجوية الأمريكية. وكان ذلك لغزاً معقداً آخر لا بد من حله قبل خوض الحرب، لأن عدم دقة الضربات الجوية، وغياب التنسيق مع القوات البرية يؤدِّيان حتماً إلى إصابة قواتنا بالنيران الصديقة.

طلبت مساعدة الأمريكيين في هذا المجال، فوافقوا على تزويد قواتنا، حتى مستوى الكتيبة بأطقم «السيطرة الجوية التكتيكية»، التي يتألف كل منها من رجلين أو ثلاثة، مزوَّدين بوسائل الاتصالات الضرورية للاتصال بالقوات الجوية وطلب الإسناد الجوي، إذا اقتضت الضرورة.

لم نُجرِ تدريبات عملية في المملكة، حتى تلك الآونة، على تنفيذ مهام «الإسناد الجوي القريب» الفوري أو العاجل لقواتنا البرية بالمفهوم الصحيح. إذ كانت التمارين المشتركة مقتصرة فقط على تقديم «الإسناد الجوي القريب» المدبَّر، أي المخطط مسبقاً. واقتضى ذلك مجهوداً عاجلاً لرفع قدراتنا في هذا

المجال. وكان هذا يعني تطوير المفهوم الصحيح، وتحديد إجراءات العمل الملائمة، وتشكيل «أطقم سيطرة جوية تكتيكية» سعودية، وتدريبها، لتلبية طلبات القوات البرية «للإسناد الجوي القريب»، بشقّيه العاجل والمخطَّط. لذا، ألحقت ضابطاً أو ضابط صف سعودياً على كل طاقم من أطقم السيطرة الجوية التكتيكية الأمريكية، حتى يتسنى له الإلمام بكيفية أداء العمل. كما اتفقت مع الأمريكيين على أن يتولوا تدريب رجالنا تدريباً منتظماً في مدينة الملك خالد العسكرية. وبالاستفادة من الإمكانات الأمريكية، نجحنا في تطوير أسس أسلوب «الإسناد الجوي القريب» باللغتين العربية والإنجليزية، كي تستخدمه القوات المشتركة. وأصدرت أوامر تقضي بتنفيذ التدريبات وفق هذه الأسس. وما هي إلاّ فترة قصيرة حتى تم إعداد ستة أطقم سيطرة جوية تكتيكية من رجالنا، يتألف كل طاقم منها من ضابطين وأربعة ضباط صف. وبعد أن أكملتْ هذه الأطقم تدريباتها أُلحقت على ألوية القوات المشتركة، وهي أول أطقم «للإسناد الجوي القريب» في المملكة. واستكمالاً لتلك الجهود، بعد ذلك، بدأت القوات الجوية بناء مدرسة خاصة بها في خميس مشيط لتعليم هذا الأنموذج.

وسارت عمليات التنسيق بين أطقم «السيطرة الجوية التكتيكية» الأمريكية والقوات المشتركة على ما يرام، لاسيما القوات المصرية بما لها من خبرة سابقة في التدريبات المشتركة مع الأمريكيين. وكانت العقبة الوحيدة هي أن السوريين لم يتحمسوا كثيراً للعمل مع أطقم أمريكية للسيطرة الجوية التكتيكية. ولست ألومهم على ذلك، إذ لم يسبق لهم قط التعامل مع العسكريين الأمريكيين. كما كانوا أيضاً في حاجة إلى موافقة على ذلك من سلطات أعلى. وتذكرت ما قاله لي العماد علي أصلان في شأن ما يفضله للقوات السورية. آثرتُ أن أترك تلك المشكلة لتُحَل حلاً دبلوماسياً.

تحدثت مع شوارتزكوف أولاً، وقلت له: «نورم، أريد أن أخبرك بشيء عن السوريين قبل أن تسمعه من مصدر آخر. إنهم يترددون في العمل مع أطقم السيطرة الجوية التكتيكية الأمريكية».

بدا الضيق على شوارتزكوف وقال: «أنا لم أفعل سوى ما طلبته مني يا خالد. فإن كانوا لا يريدونها فبها. وسأسحبها فوراً. ولا مانع لديّ من ذلك».

قلت له عندئذ: «لا، لا يا نورم. إننا في حاجة إلى أطقم السيطرة الجوية الأمريكية. وأعتقد أن في استطاعتنا إقناع السوريين بالتعاون معها. أرجوك أن

تطلب من رجالك التحلّي بالصبر، وألاّ ترسلهم إلى السوريين الآن. دعهم ينزلوا في ضيافتنا في حفر الباطن بضعة أيام حتى أجد حلاً».

انتقلت بعد ذلك إلى الطرف السوري من المعادلة. فأرسلت نائبي اللواء الركن عبدالعزيز آل الشيخ، لجسّ نبض السوريين ومعرفة إذا كانت المشكلة محلية فحسب، أم أنهم ينفذون أوامر دمشق. فإذا تبيَّن أن الأوامر من دمشق، كان عليّ أن أحترمها. ولكن اللواء عبدالعزيز ذكر في تقريره عند عودته أنه لا توجد لدى السوريين أية تعليمات رسمية تحظر عليهم التعامل مع الأمريكيين، إلاّ أن اللواء نديم فارس عباس، قائد الفرقة السورية، كان في حيرة من أمره، فآثر الحذر، والتحفظ في تعامله مع هذه الأطقم الأمريكية. كان اللواء نديم ودوداً وجندياً ممتازاً ودوماً يبادرني بالتحية وعلى وجهه ابتسامة ودية.

أدركت أن الوقت قد حان لحل هذه المشكلة مع اللواء علي حبيب، قائد القوات السورية. وحتى لا أعطي الأمر قدراً أكبر من حجمه، وحتى لا يشعر بأني أجبرته على اتخاذ قرار قد يأسف عليه مستقبلاً، قررت الدعوة إلى اجتماع يحضره جميع القادة، القائد المصري والسوري والكويتي والفرنسي وغيرهم، وذلك لمراجعة خطط العمليات. وكان من سياستي تعمُّد إبقاء هؤلاء القادة مع قواتهم في المنطقة الشمالية، بعيداً عن الأجواء السياسية في الرياض التي كانت من صميم عملي. ولو أني سمحت لهم بحضور اجتماعاتنا اليومية منذ البداية، كما أراد شوارتزكوف، لواجهت مشاكل لا تُعد ولا تُحصى، ولأراد كل منهم أن يبدي رأيه في نشر القوات، والاشتراك في وضع خطط العمليات. ولربما حدث تسرُّب للمعلومات، أو تدخُّل من جانب بعض الحكومات، مما سيؤدي، حتماً، إلى زيادة التعقيد في قدرتي على صنع القرار. لذلك، أبقيتهم خارج الرياض لأتفادى المناقشات التي لا فائدة منها ولا طائل. ولم أوافق على حضور قادة القوات المشتركة اجتماعاتنا بصفة دورية، إلاّ عندما أصبحت الحرب البرية قاب قوسين أو أدنى.

ولكن في تلك المناسبة، رأيت أن أتخذ من دعوتهم لمناقشة عامة مطيَّة للاجتماع الذي نويت عقده مع اللواء علي حبيب. وبينما همَّ القادة الآخرون بالانصراف، طلبت منه التريث لحظة.

قلت له: «أرجوك أن تخبرني إن كانت لديكم أوامر تمنعكم من العمل مع أطقم السيطرة الجوية الأمريكية. فأنا أقدر موقفكم، وسأدافع عنه». أجاب:

«أبداً، بل العكس. ليست لدينا أية مشكلة معها. لا بد أن هناك سوء فهْم. إننا نرحب بوجود هذه الأطقم معنا».

إلاّ أن المقدم طيار الركن عايض ثواب الجعيد، مدير قسم القوات الجوية في قيادة القوات المشتركة، أكد لي أن السوريين، في المستويات الدنيا، رفضوا قبول الأطقم الأمريكية من قبل. واستغرقت تسوية المشكلة أياماً عدة.

وافق السوريون، بعد ذلك، على العمل مع الأمريكيين، وبدأوا التدريب معهم تدريجياً. كما أنهم عاملوهم معاملة طيبة وأكرموا وفادتهم. وعندما ذهبت لزيارة القوات السورية، تناولت الغداء مع الضباط السوريين في حضور أعضاء أطقم السيطرة الجوية التكتيكية الأمريكية أيضاً. وهكذا، سارت الأمور بين الجانبين على نحو أفضل مما كنت أتوقع.

وعندما أصبحت معدات الدفاع الجوي جاهزة للعمل في مواقعها، ازداد إحساس الوحدات البرية المتعددة الجنسيات بالثقة والأمان، وبدأت التدريبات الجدية. كنت مضطراً، في كثير من الأحوال، إلى تسوية بعض الخلافات، ضماناً لتحقيق هدفي الأول وهو تماسك التحالف، وقد تحقق ذلك الهدف.

كانت مهمتي الأولى، حين عُينت قائداً للقوات المشتركة ومسرح العمليات، في العاشر من أغسطس، هي تشكيل «فريق عمل» متكامل. فجعلت منهجي في إنجاز هذه المهمة يقوم على المقابلات الشخصية، واختيار الكفاءات في كل مجال، سواء أكانت في القوات البرية، أم الجوية، أم البحرية، أم الدفاع الجوي، أم في الإمداد والتموين، أم الاستخبارات، أم الاتصالات، أم التخطيط، أم الحرب الكيماوية، وما إلى ذلك. ثم فوّضت إلى هؤلاء الرجال سلطة انتقاء معاونيهم. وفي غضون أسبوع واحد، أصبح تحت إمرتي مجموعة ممتازة من ضباط الأركان تعمل ضمن هيكل القيادة الذي وضعت تنظيمه.

كان أول ضابط اخترته هو العقيد الركن عبدالله محمد السويلم، وهو ضابط يتمتع بالذكاء والنشاط والولاء، وكان مديراً لمكتبي في قيادة قوات الدفاع الجوي، كما كان مساعدي المؤتمن في مشروع الصواريخ الإستراتيجية الصينية، فأصبح مديراً لمكتبي في قيادة القوات المشتركة. وفضلاً عن أنه خريج كلية القيادة والأركان السعودية، فهو يحمل شهادة البكالوريوس في العلوم الإدارية من

جامعة أوريجون الأمريكية. ثم انضم إليه النقيب زكي مرزوق السلطان، قائد مجموعة الأمن والحماية، وهو ضابط على مستوى عالٍ من التدريب، أنهى عدداً من الدورات في الولايات المتحدة، وكفاءته لا تقلُّ عن لباقته وأدبه، وحسن تصرفه. كما وقع اختياري على العقيد الركن أحمد لافي العبلاني ليكون الركن الشخصي، إذ كان يتمتع بشخصية قوية وموهبة قيادية. ولمست فيه هاتين السمتين عن قرب عندما كان يعمل معي في الدفاع الجوي. وظل يرافقني أينما ذهبت خلال الأزمة، عاكفاً على تدوين وقائع اجتماعاتي ومقابلاتي وأنشطتي في سلسلة من الدفاتر دوّنها بخط يده.

وكما أسلفت، وقع اختياري على اللواء الركن عبدالعزيز آل الشيخ ليكون نائباً للقائد. وعلى الرغم من صعوبة تقبل صراحته التامة أيام السلم، إلاّ أنه كان ذا فائدة وقت الحرب. كما اخترت اللواء الركن طلال قبلان العتيبي لمنصب رئيس أركان قيادة القوات المشتركة، وهو ضابط متميز من سلاح المدرعات، وكان، عندئذ، قائداً لكلية القيادة والأركان، وأدّى مهامه خير أداء.

أما في الميدان، فكان أهم قائدين هما اللواء الركن صالح المحيا، قائد المنطقة الشرقية، ومقره في مدينة الملك فهد العسكرية في الظهران، واللواء الركن عبدالرحمن العلكمي، قائد المنطقة الشمالية، ومقره في مدينة الملك خالد العسكرية في حفر الباطن. وتبيَّن لي، في وقت لاحق من الأزمة، أن احتمال التحرك السريع لمواجهة العراقيين، قد يجعل هذين القائدين بعيدين كثيراً في الخلف، ومنشغلين بشؤون الإمداد والتموين للقوات السعودية والشقيقة والصديقة في كلا المنطقتين، فيتعذر عليهما ممارسة قيادة الوحدات الأمامية بكفاءة. لذا أنشأت مركَزيْ قيادة متقدمَيْن، هما: مركز القيادة المتقدم لقيادة القوات المشتركة في المنطقة الشرقية، ومركز مماثل في المنطقة الشمالية. وكلاهما يرتبط مباشرة بقيادتي في الرياض. وكان مركز القيادة المتقدم في المنطقة الشرقية، يبعد ٤٠٠ كيلومتر إلى الشمال من الظهران، تحت قيادة اللواء الركن سلطان عادي المطيري الذي قاد القوات العربية التي دخلت الكويت فيما بعد. بينما كان مركز القيادة المتقدم في المنطقة الشمالية تحت قيادة اللواء سليمان الوهيّب. وقد أوكلت إلى قائديْ هذين المركزين المتقدمين مسؤولية السيطرة العملياتية على وحدات المناورة، في حين ظل الإسناد الإداري والتمويني من مسؤولية قائديْ المنطقتين. ومن فوائد هذه التغييرات أنها حررت قائدي المنطقتين من المسؤوليات التكتيكية والعملياتية إلى حد بعيد، كما مكّنتهما من تكريس جهودهما والتفرغ الكامل

لمعالجة المشاكل المهمة للإمداد والتموين، وهي أمور حيوية لفعالية قواتنا، وأساسية كذلك لمسؤولياتنا كدولة مضيفة تجاه الآخرين. وكان الفصل بين المسؤولية العملياتية ومسؤولية الإمداد والتموين فكرة جديدة لم يسبقني أحد إلى تطبيقها. وتم تنفيذها من دون المساس بمبدأ «وحدة القيادة»، على الرغم من توزيع مسؤولياتها. ونجحت الفكرة نجاحاً باهراً.

اخترت اثنين من المتخصصين المتمَيزيْن في شؤون الإمداد والتموين وهما، في رأيي، من أبطال الحرب المجهولين، أولهما العميد مهندس عبدالعزيز محمد الحسين، وكان مدير وحدة المساندة المسؤولة عن إمداد وتموين القوات الغربية. وثانيهما العميد الركن سالم عويمر المطيري، مدير الإمداد والتموين، المسؤول عن إمداد وتموين القوات السعودية والعربية والإسلامية، وهو رجل شديد التدين، أظهر إخلاصاً وتفانياً في عمله، كما أثبت كفاءة نادرة في مجال الإمداد والتموين. ومع آلاف العقود التي كان يجب التفاوض في شأنها على جناح السرعة، كنت، حقاً، في حاجة ماسّة إلى رجل بنزاهته ودقته.

أرسل إليَّ قائد القوات الجوية قائمة بأسماء أربعة ضباط لأختار منهم من يمثلها في قيادة القوات المشتركة ومسرح العمليات. ولكني استبعدت الأربعة، واخترت بنفسي المقدم طيار الركن عايض الجعيد، وهو طيار ومعلم F-15 وإداري ممتاز وواحد من خيرة ضباط القوات الجوية الذين عرفتهم. واستطاع هو وفريق عمله من ضباط القوات الجوية أن يخفِّفوا عني أعباء جسيمة، إذ قاموا بدور مهم في عمليات التنسيق. كان التحالف ينوي نشر ٥٠٠٠ طائرة تقريباً، وكانت تلك عملية ضخمة وبالغة التعقيد وتتطلب أقصى درجات التعاون، إن لم يكن التكامل التام، بين أفراد القوات الجوية الأمريكية والسعودية. ثم انضم إليهم بعد فترة وجيزة، في مركز قيادة القوات الجوية السعودية، ممثلون عن القوات الفرنسية والبريطانية، وكذلك ممثلون عن دول أخرى. وكان جميع تلك الطائرات في حاجة إلى الإسناد بدءاً بالقواعد، وحظائر الطائرات، ومروراً بأبراج المراقبة، والرادارات، والمدارج النظيفة، والكشافات، وورش الصيانة، وأماكن إيواء الطيارين وأطقم الطائرات، والطعام، وانتهاءً بالوقود بشتى أنواعه وكمياته التي يعجز الخيال عن تصورها. وأنجزت القوات الجوية الملكية السعودية، من خلال قيادة القوات المشتركة، الكثير من أعمال الإسناد تلك بصورة مشرفة.

كان الأمر يتطلب نشر تلك الطائرات في أماكن متباعدة لتفادي تعرّضها

للهجوم، إلى أن تصبح الدفاعات الجوية جاهزة لتنفيذ مهامها. وبفضل الصلاحيات التي منحني إياها الأمير سلطان، والتي تسمح لي باستخدام منشآت رئاسة الطيران المدني، استطعت أن أنشر عدداً من تلك الطائرات الحربية في المطارات المدنية. وكانت هناك، بالطبع، لحظات حُبست فيها الأنفاس وسيطر فيها الهلع والذعر. ولكن بجهود المقدم عايض وزملائه، وجهود الكثير من ضباط العمليات الجوية في مراكز القيادة وفي القواعد الجوية المنتشرة في أنحاء البلاد، سارت كل العمليات الجوية بسهولة ودقة وانتظام، ولم تُسَجَّل حادثة تصادم واحدة في الجو، كما يشهد بذلك الجميع.

وإن كان ثمة تقدير خاص يُوجَّه، فعلينا أن نوجِّهه إلى أربعة من الضباط الأكْفاء هم: العميد طيار الركن أحمد السديري، رئيس هيئة عمليات القوات الجوية، الذي أسهم مساهمة فعالة في نجاح الحملة الجوية، وحزنت لوفاته ـ يرحمه الله ـ بعد انتهاء الحرب بوقت قصير. والعميد طيار الركن الأمير تركي ابن ناصر بن عبدالعزيز، قائد قاعدة الملك عبدالعزيز الجوية في الشرقية، وهي أكبر قاعدة من نوعها في الشرق الأوسط، وتقع في أهم المناطق وأكثرها حيوية في المملكة. والعميد طيار الركن الأمير منصور بن بندر بن عبدالعزيز، قائد قاعدة الأمير عبدالله الجوية في الغربية، والعميد طيار الركن الأمير عبدالرحمن بن فهد الفيصل، قائد قاعدة الملك فهد الجوية في الطائف، الذي كانت صفاته العسكرية وقدراته مثار إعجابي وتقديري على مدى سنوات عدة. ومن الجدير بالذكر، أن مهمة تأمين أوثق العلاقات العملياتية مع القوات الجوية لجميع دول التحالف، لا سيما مع الولايات المتحدة، كانت تقع بالدرجة الأولى على كاهل قادة القواعد الجوية السعودية كلهم دون استثناء.

كانت مهمة تأمين الاتصالات الميدانية وتركيب أجهزتها، التي تتطلب في بعض الأحيان معجزات من العمل الفوري، من مسؤولية العميد مهندس داوود البصام، مؤسس إدارة الاتصالات الإلكترونية في قوات الدفاع الجوي ومديرها. وهو نوع من الرجال يهتم بالجوهر أكثر من اهتمامه بالمظهر، فضلاً عن أنه من أكثر الضباط ذكاءً وعبقريةً في مجال تخصصه.

وعلى الرغم من أن القوات البحرية المتحالفة لم تكن في حاجة إلى مساندتنا قدر حاجة القوات الجوية، إلاّ أن الرجل الذي ألحقتْه القوات البحرية السعودية على قيادة القوات المشتركة، وهو العميد بحري الركن شامي محمد الظاهري، أدى واجبه على الوجه الأكمل.

كذلك، كان اللواء صالح محمد الغفيلي (وهو الآن سفير خادم الحرمين الشريفين لدى دولة الإمارات العربية المتحدة) رجلاً حكيماً، اختاره الأمير سلطان رئيساً للجنة الإعلام الحربي المسؤولة عن مراقبة جميع المواد الإعلامية التي تتعلق بالأمور العسكرية، وعن العمل والتنسيق مع وزارة الإعلام أثناء الأزمة. وكان في وسعي الاعتماد عليه في تأمين التصاريح والتفويضات كافة التي تحتاج إليها قيادتي من مكتب الأمير سلطان. ولا يفوتني أن أنوِّه أنني أضفت إلى مهامه مهمة جديدة هي معالجة تجاوزاتي، إذ كنت أتجاوز صلاحياتي أحياناً، فأقوم بأعمال تتعدى حدود سلطاتي، فأترك له أمر تدوين كل شيء كتابة، ووضع الأمور في نصابها.

وكنت في حاجة إلى دبلوماسي محنك يتمتع بالخبرة والكفاءة، لمعاونتي في التفاوض وتوقيع المعاهدات والبروتوكولات ومذكرات التفاهم، والاتفاقيات المبرَمة بين الدولة المضيفة، من جهة، وأكثر من ٣٠ دولة مشتركة في التحالف، من جهة أخرى. فأرسَلَت إليّ وزارة الخارجية، التي على قمتها ويديرها بمقدرة بارعة وكفاءة نادرة صاحب السمو الملكي الأمير سعود الفيصل، أسماء ستة مرشحين. فاخترت منهم الدكتور محمد عمر مدني، وهو سفير سابق ومتخصص في القانون الدولي، الذي سبق أن التقيته المرة الأولى عام ١٩٧٤ في لجنة صواريخ هوك المطوَّر. وأثبت أنه خير ممثلٍ لوزارته. ولتخطي الإجراءات البيروقراطية، والإسراع في عملية تدفق المعلومات، أُنشئت غرفة عمليات خاصة في وزارة الخارجية تصبّ فيها كل المعلومات المتعلقة بأعضاء التحالف، قبل أن تصل إليّ من طريق السفير مدني.

طلبتُ مشورة وزير الداخلية، صاحب السمو الملكي الأمير نايف بن عبدالعزيز، في اختيار ممثلٍ لوزارة الداخلية. فتكرَّم سموه بإرسال أحد كبار ضباطه، وهو اللواء محمد السحيلي، الذي حرص هو ومعاونوه على تزويدي بكل المعلومات المتعلقة بأية حادثة شبه عسكرية، مثل: المناوشات الساحلية، وسقوط صواريخ سكود، والخسائر، والحوادث المهمة، والتهديدات الإرهابية، وما إلى ذلك من أمور ينبغي الإلمام بها لتأثيرها في أنشطة قيادتي. ولا ينكر أحد أن ضباط وأفراد الأمن الداخلي أدّوا دوراً على قدر كبير من الأهمية في مساعدة الشرطة العسكرية على توجيه التحركات العسكرية الهائلة على طرقنا، لا سيما أثناء التحرك الضخم نحو الغرب، عندما انتقلت قوات التحالف من مواقع الدفاع إلى مواقع الهجوم.

كما أسهم عدد من كبار ضباط الأمن، الذين اختارهم الأمير نايف، في تنظيم عملية تدقيق هويات آلاف اللاجئين الذين تدفقوا إلى المملكة من الكويت عبر مركزيْ الخفجي والرقعي. وعقب الفوضى التي سادت خلال الأيام الأولى، أصبحت عملية الفحص الدقيق للاجئين أكثر كفاءة ودقة. وظلت العائلات المشتبه في أنها تؤوي عملاء عراقيين، تحت المراقبة الصارمة لأسابيع عدة. وفي الحقيقة، أرسل العراقيون عدداً من أعوانهم المزوَّدين بالسلاح والمال ليتسللوا عبر الحدود، مُدّعين أنهم لاجئون، ولكن، كما أعلم، تم كشف أمرهم جميعاً. ويعود الفضل في عدم وقوع أي عمل إرهابي خلال الأزمة إلى يقظة أجهزة الأمن السعودية. ولا يسعني في هذا المقام إلاّ أن أنوّه بالجهود الجبارة التي بذلها الأمير نايف وزير الداخلية خلال العشرين عاماً الماضية. فالأمير نايف، في الحقيقة، هو العقل المدبر للأمن الداخلي للمملكة، وموجِّه حركته. وكان له دور رائد في استتباب الأمن في البلاد أثناء الأزمة، مما أزاح عن كاهلنا عبئاً ثقيلاً.

كما تولى فريق الاستخبارات العامة الذي أُلحق على قيادة القوات المشتركة، برئاسة اللواء محمد عيد العتيبي، وهو ضابط جريء مقدام، ويعمل الآن سفير خادم الحرمين الشريفين لدى أفغانستان، إدارة الحرب النفسية ضد العراق. وقد ساعده على هذه المهمة الضابط المصري، اللواء أركان حرب أمين حسني، الذي يُعتبر من أكثر الضباط خبرة في هذا المجال في الوطن العربي، وهو واحد من أربعة ضباط ارتباط مصريين تم إلحاقهم على قيادة القوات المشتركة.

وقع اختياري على مدير إدارة الشؤون المالية والإدارية في قوات الدفاع الجوي علي الحديثي، الذي أثبت كفاءته على مدى السنين، ليرأس فريق الشؤون المالية.

أما منصب مدير إدارة قيادة القوات المشتركة (شؤون الضباط والأفراد) فتولاه العميد الركن غازي مفلح الحربي، وهو ضابط ممتاز، يتحلّى بأعلى درجات الانضباط، ويتفانى في أداء ما يكلَّف به من مهام. كما أنه زميل قديم، ويعمل الآن قائداً لمعهد قوات الدفاع الجوي.

قبل بدء الحرب بشهرين، أصبح من واجبنا أن ندلي ببيانات يومية إلى وسائل الإعلام على غرار ما يفعله الأمريكيون. ولكن من سيكون المتحدث الرسمي؟ كنت في حاجة إلى اختيار شخص مناسب، والتأكد من تزويده بالمعلومات الصحيحة. ووقع اختياري على ضابط برتبة عميد، تَدَرّب في الولايات المتحدة

لسنوات عدة، ويتحدث الإنجليزية بطلاقة. وظننت حينذاك أنه ملائم لمهمته تماماً، فعينته متحدثاً رسمياً دون استشارة أحدٍ. وبعد إدلائه بأول بيانين عن العمليات القتالية، تبيّن أنه لم يحرز النجاح المرجو. كان ضابطاً ممتازاً، ولكن لم تكن لديه موهبة التعامل مع وسائل الإعلام. لذلك، رأيت إعفاءه من تلك المهمة. وفكرت في كيفية إبلاغه ذلك القرار بأسلوب لبق. لكنه أزاح عن كاهلي هذا العبء عندما أخبرته بعزمي على إعفائه من تلك المهمة، إذ هتف قائلاً: «هذا أجمل خبر سمعته في حياتي. هل يمكنني أن أقول لك شيئاً كصديق؟ كنت أشعر بالرهبة أثناء الإدلاء بتلك البيانات، لم أستطع النوم من شدة القلق. أشكرك يا سيدي، شكراً جزيلاً!».

اتصلت بالأمير سلطان معترفاً بخطئي. فاقترح سموه ضابطاً آخر يتقن اللغة الإنجليزية، هو العقيد الركن أحمد محمد الربيعان، الذي قام، بعد تزويده بالمعلومات وتدريبه تدريباً جيداً، بهذه المهمة خير قيام. وظل متحدثاً رسمياً باسم قيادة القوات المشتركة ومسرح العمليات خلال فترة الحرب كلها.

كانت تعليماتي إلى ناطقيْنا الرسمييْن خلال الأزمة هي الالتزام بالحقائق، وتجنُّب المبالغة في منجزاتنا، أو الإقلال منها. كنت حريصاً كل الحرص، على ألاّ نكرر الخطأ الذي ارتكبه العرب في حرب يونيه ١٩٦٧، وألاّ نخفي أية معلومات إلاّ إذا كانت تمسّ أمننا الوطني أو أمن حلفائنا. كما حظرت على الناطقين الرسميين الاتصال بفريق التخطيط، وذلك لمنْعهم من الاطلاع على خططنا المستقبلية، خشية أن تزلّ ألسنتهم أثناء تعاملهم مع وسائل الإعلام.

وتوثيقاً لِمَا مَرّ بنا من أحداث، ومحافظة على ما لدينا من وثائق ومستندات، وتوفيراً لمعين لا ينضب للدراسة والتحليل واستخلاص الدروس المستفادة، وتسجيلاً للخبرات المكتسبة، وفوق ذلك كله، تأريخاً صادقاً لأحداث الأزمة، أنشأت قسماً خاصاً للتوثيق في قيادة القوات المشتركة لجمع وتصنيف الوثائق والمستندات والمراسلات والاتفاقيات. وأَوكَلْت هذه المهمة إلى العقيد أحمد لافي، مع ضابط من الكفاءات الممتازة في قوات الدفاع الجوي، الرائد مزيد سليمان العمرو، لِما يتميز به من نشاط وانضباط وطاقة لا حدود لها.

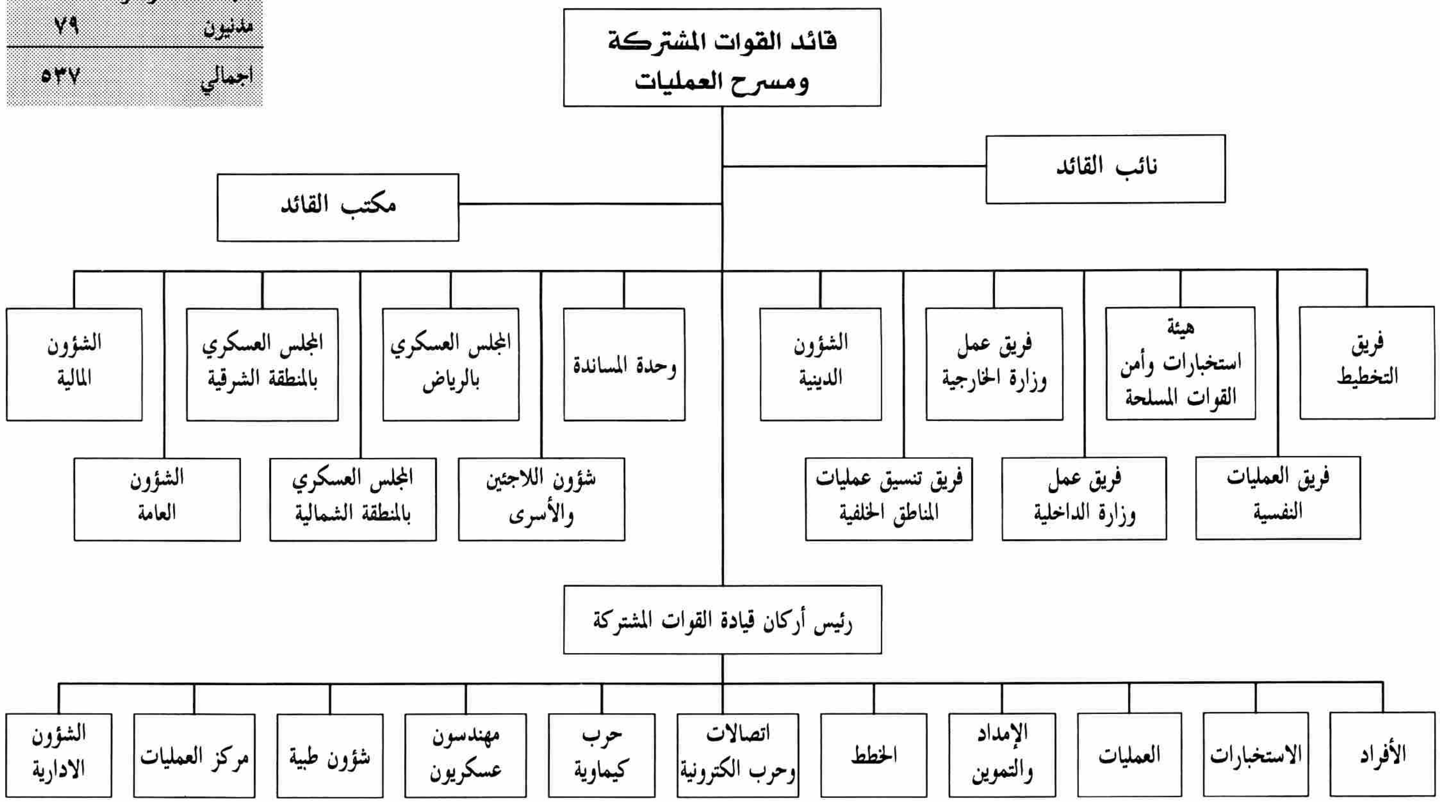
وأخيراً وليس آخراً، وُفِّقْتُ إلى اختيار العقيد شاكر محمد إدريس، مديراً للشؤون العامة في قيادة القوات المشتركة. كان يتعامل مع وسائل الإعلام، ويرتب شؤون تنقلاتي داخل المملكة أو خارجها. كما تولى شؤون البروتوكول،

كأنه دبلوماسي بالفطرة، وأخذ على عاتقه أيضاً الإشراف على أمور كثيرة أخرى، أتقن أداءها على مدى السنوات الست السابقة، التي عمل فيها مديراً لقسم الشؤون العامة في قيادة قوات الدفاع الجوي.

إن ما تحتاج إليه جميع الجيوش، وتفتقر إليه معظم الجيوش العربية، هو نظام سليم ودقيق لتقييم الضباط. ففي كثير من الحالات، تؤثِّر العواطف، والصداقات، و العلاقات الأسرية، في كتابة التقارير السنوية للضباط، حتى يصبح الحصول على تقييم دقيق وصورة صادقة أمراً مستحيلاً. وعندما كنت أحاول تشكيل الفريق الذي سيعمل معي، اخترت عدداً من الضباط من فروع القوات المسلحة المختلفة بناءً على التقارير السنوية التي تمتدحهم وتشيد بكفاءتهم. وكم كانت خيبة ظني عظيمة عندما اكتشفت ساعة الجدّ أن لا أمل يرجى منهم، فاضطررت إلى الاستغناء عنهم! وكنت قد اقترحت قبل الأزمة بستة أشهر على زملائي في لجنة الضباط العليا نظاماً جديداً لتقييم الضباط، لأني أهتم كثيراً بالانضباط العالي والتدريب المستمر، كما أؤمن بأن من العبث أن نحاول مواكبة أحدث المعدات وأعقدها تقنية بعسكريين دون المستوى المطلوب. فلو أردنا الحصول على أقصى فائدة من الرجال أو العتاد، فعلينا أن نتخلص من العادات القديمة، وأن نتوخّى الحذر عند التجديد، وأن ننشد الأفضل عند التطوير. فمعظم الناس جُبِلوا على كراهة التغيير ومقاومته. لذلك، حرصت دوماً، أثناء التغييرات التي أدخلتها في قيادة قوات الدفاع الجوي، على عدم الإساءة إلى أحد. فربما عاقبت شخصاً في الصباح، ثم اشتركت معه في السمر ليلاً، لا لشيء إلا لأني أكره أن يشعر بأنني ضده بصفة شخصية. إنني في مثل هذه الحالة، أكون ضد تصرفه، وكل ما أطلبه منه هو القيام بواجبه على خير وجه. هذه هي المبادئ التي حاولت تطبيقها في قيادة القوات المشتركة.

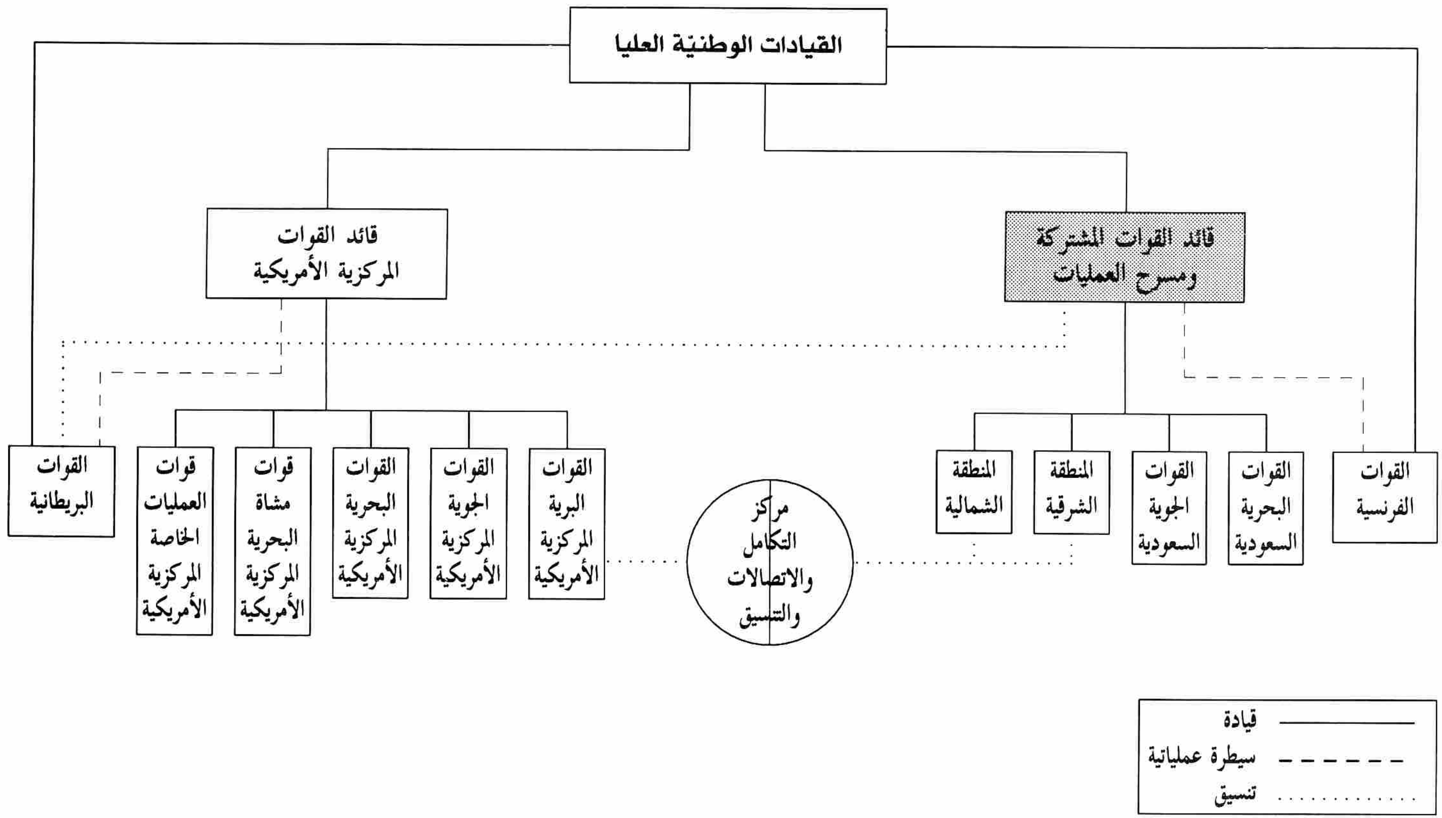
تنظيم قيادة القوات المشتركة ومسرح العمليات
اكتوبر ١٩٩٠

ضباط	١٩٥
ضباط صف وجنود	٢٦٣
مدنيون	٧٩
اجمالي	٥٣٧



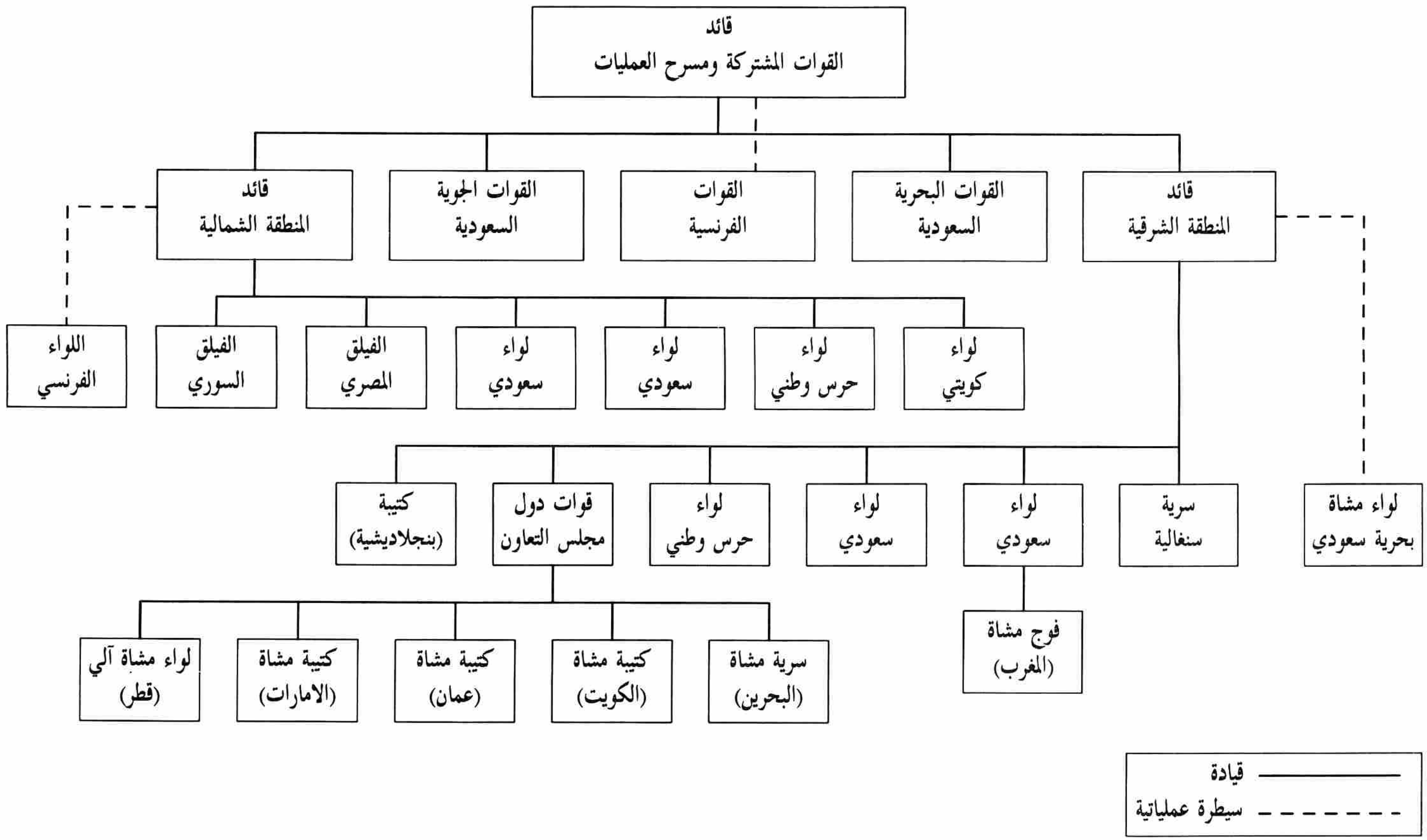
ملحق العلاقات القيادية
خطّة عمليات درع الصحراء

العلاقات القيادية لقوات التحالف
(درع الصحراء)



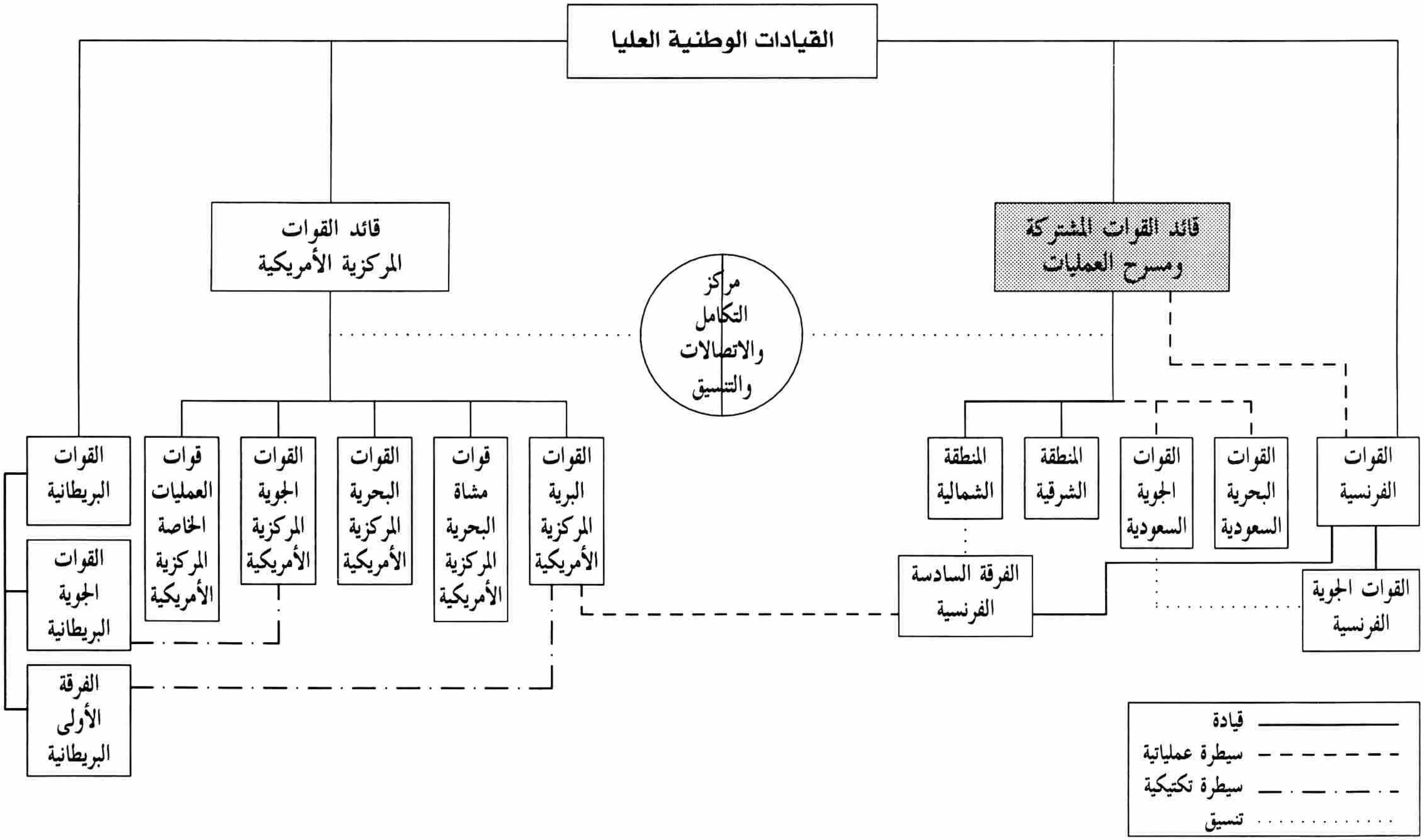
ملحق العلاقات القيادية
خطّة عمليات درع الصحراء

العلاقات القيادية في مسرح العمليات
(درع الصحراء)



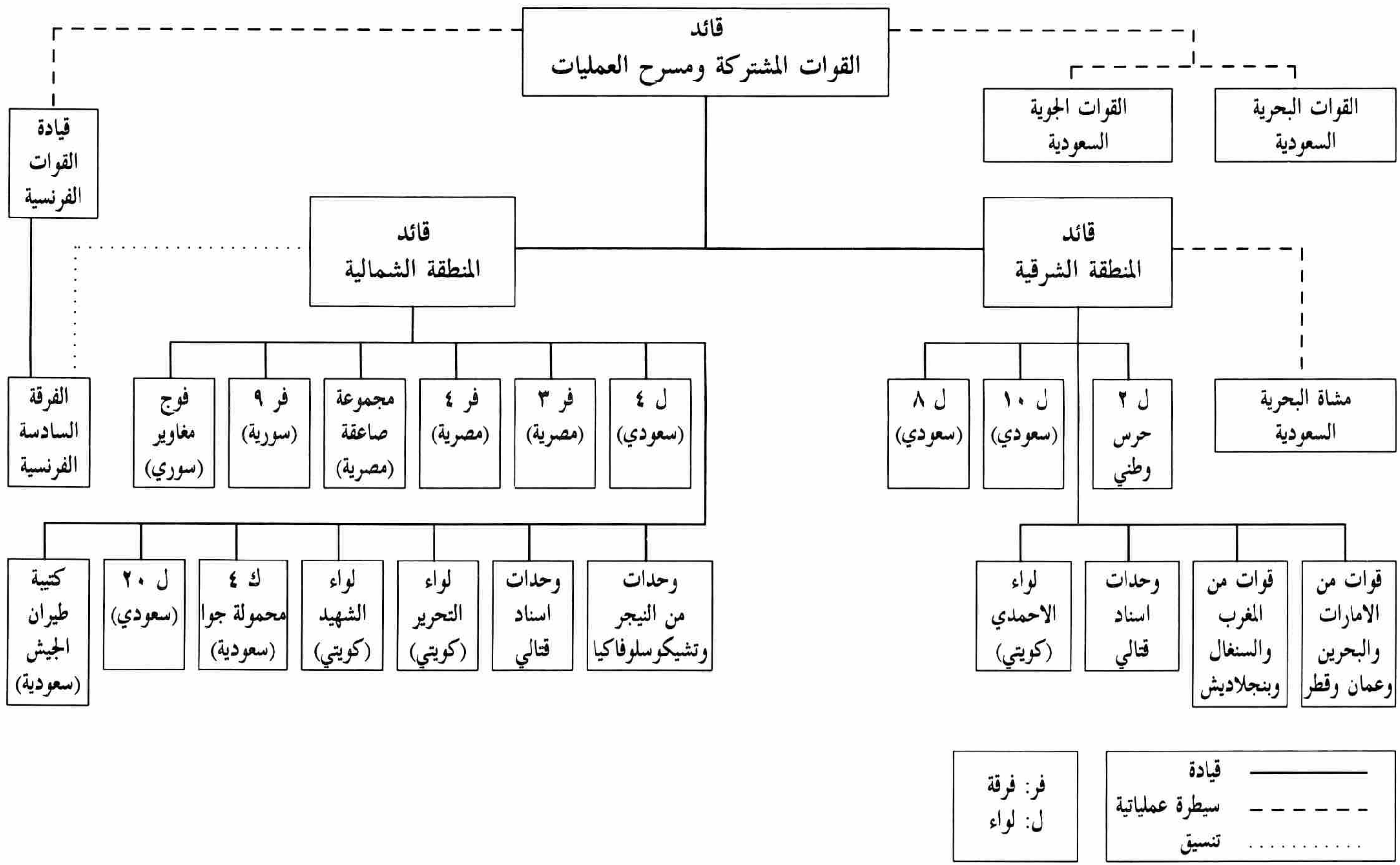
ملحق العلاقات القيادية
خطة عمليات عاصفة الصحراء

العلاقات القيادية لقوات التحالف (عاصفة الصحراء)



ملحق العلاقات القيادية
خطّة عمليات عاصفة الصحراء

العلاقات القيادية في مسرح العمليات (عاصفة الصحراء)



الفصل الخامس عشر

إدارة التحالف ـ القسم الثاني

عندما تعرضنا لتهديد صدام هبَّ إلى مساندتنا حلفاء من مختلف الأمم، وهي مساندة اختلفت عدداً وعدة. فإن كانت الولايات المتحدة قد أرسلت نصف مليون جندي، فإن النيجر أرسلت ٤٨١ جندياً، تلتها السنغال التي أرسلت ٤٩٦ جندياً. كما وصل فريق طبي پولندي، وبضع عشرات من المجاهدين الأفغان وغيرهم، ممن لم يكن لهم شأن كبير من الناحية العسكرية، ولكنهم كانوا في غاية الأهمية من الناحية السياسية. وإذا كان عدد الدول ذات الدور العسكري البارز في التحالف قليلاً، إلاّ أننا كنّا في أمَس الحاجة إلى الدول الأخرى أيضاً. وتركزت مهمتي على جمع هذه القوات ودمْجها في قوة شاملة، والعمل على أن يكون لكل قوة مشاركة في التحالف هدف تسعى إلى تحقيقه. وهذا، في الواقع، هو ما تهدف إليه «حرب التحالف».

تُعَدّ دول مجلس التعاون الخليجي الخمس، الكويت، ضحية عدوان صدام، والإمارات العربية المتحدة والبحرين وعُمان وقطر، من أقرب الحلفاء إلينا جغرافياً وفكرياً. شكّل قادة دول مجلس التعاون، خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، قوة صغيرة مشتركة عُرِفَت باسم «درع الجزيرة» لمواجهة الأخطار التي تهدد منطقة الخليج. واختيرت المملكة مقراً لها، وأُسندت قيادتها إلى قائد سعودي؛ لأن المملكة كانت أكبر المشاركين فيها. وأسهمت المملكة بمجموعة لواء في تلك القوة، بينما أسهم الآخرون بكتيبة أو أقل. ولعل من أول الدروس المُرّة التي تعلمناها خلال الأزمة، أن تلك القوة كانت غير قادرة على التصدي للاقتحام العراقي للكويت.

أصبحت قوة «درع الجزيرة» تابعة لقيادة القوات المشتركة. وعندما قمت

بزيارة تفقدية لها، أدركت على الفور، أن بنْيتها وقوتها لا تلائمان الأزمة الراهنة. وحين بدأ شركاؤنا في مجلس التعاون لدول الخليج العربية مساندتنا بإرسال المزيد من القوات، أصبح من المناسب أن نلحِق وحدات قوة «درع الجزيرة» بوحداتها الأم، أو نلحقها على القوات التي كنت في صدد تشكيلها طبقاً لنوعية تسليحها وقدراتها القتالية، وطبقاً لاحتياجاتنا الدفاعية العاجلة. وهكذا، أصدرت أوامري بإلحاق الكتيبة العُمانية والسرية البحرينية على اللواء الثامن الآلي السعودي، وبإلحاق الكتيبتين الإماراتية والقطَرية على اللواء العاشر الآلي السعودي. واحتل هذان اللواءان، في الأيام الأولى، خط دفاعنا الأمامي، الذي لم يكن ليصمد في مواجهة أي تقدم عراقي محتمل نحو منطقتنا الشرقية.

كما قررتُ إلحاق الضباط الخمسة والعشرين العاملين في قيادة قوة «درع الجزيرة» بوحداتهم الأصلية، إذ لم يعد هناك قوات يقودونها بعد إلحاقها على وحدات أخرى. واستأنف اللواء الركن تركي بن حديجان النفيعي، قائد قوة «درع الجزيرة» سابقاً، مهامه قائداً لمجموعة اللواء السعودي في المنطقة الشمالية.

في بداية الأزمة، أصدر إليّ الأمير سلطان تعليماته بزيارة دول الخليج بهدف إطلاع قادتها على الخطوات التي اتخذناها ونتخذها لمواجهة تهديدات صدام، إذ كان قادة هذه الدول يرغبون في معرفة الدور الذي سيُسند إلى قواتهم. كنت أقدم إليهم التقارير بصفتي قائداً لقواتهم في مسرح العمليات، مثلما أرفعها إلى مليكي، خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد. فعزمت على أن أقدم إلى كل منهم تقريراً عسكرياً واستخبارياً يتضمن معلومات تفصيلية عن: التهديد العراقي، ومواقع نشر قواتنا وفكرة العملية الدفاعية. أراد قادة دول الخليج أن أقوم بتلك الزيارة في سبتمبر، لكني فضّلت إرجاءها حتى أوائل أكتوبر، نظراً إلى انشغالي بتعديل وتطوير الخطة الدفاعية العاجلة التي وضعتها في الأيام الأولى التي أعقبت الغزو. ولم أرغب في الكشف عن تفاصيل عمليات نشر القوات في مواقعها الجديدة قبل استكمالها. إذ تُعَدّ تلك المعلومات سرِّية، وخشيتُ أن يستغلها العراقيون إذا ما كُشِفتْ قبل الأوان.

تقرر، في نهاية الأمر، أن أبدأ جولتي بالطائف في ٨ أكتوبر لزيارة أمير الكويت الشيخ جابر في مقر إقامته في فندق شيراتون، الذي وُضِعَ تحت تصرفه، ومن ثَمّ أزور بقية قادة دول الخليج في الفترة، من ١١ إلى ١٧ أكتوبر.

صادف يوم ذهابي إلى الطائف سفر الشيخ سعد، ولي عهد الكويت، إلى

دبي لتقديم واجب العزاء إلى الشيخ مكتوم لوفاة والده الشيخ راشد، السياسي البارع وباعث النهضة الحديثة في دبي. والتقيت ولي عهد الكويت قبل سفره في المطار. وعلى الرغم من عدم وجود خرائط جاهزة حينذاك، إلاّ أنني تمكنت من أن أعرض عليه الخطوط الرئيسية للاستعدادات العسكرية التي تجري على الحدود.

لفت نظري ما يتحلّى به الشيخ سعد من هدوء وطمأنينة. وقد أعرب عن اعتزازه بأن يتولى القيادة أحد أبناء العرب. ثم شدّ على يدي وهو يصافحني، وقال: «أريدك أن تعِدني بأن يكون الجنود الكويتيون في الخط الأول عندما يحين الوقت لتحرير الكويت». فأجبته أنه شرف لي أن أتولى مهمة قيادة وحدات من بلاده، وأنني سأبذل قصارى جهدي لأسند إليهم دوراً أساسياً.

ثم كانت مقابلتي لسمو الشيخ جابر في الفندق الذي أصبح مقراً لقيادته. وتُعَدّ تلك المقابلة من أعظم اللقاءات أثراً في نفسي خلال الأزمة. قرأت في عينيه سؤالاً ملحّاً صامتاً: «متى ستحررون الكويت؟». ووجدت صعوبة بالغة في أن أشرح له أن بناء القوات وإعدادها يتطلبان وقتاً طويلاً، وأنه على الرغم من الفظائع التي يرتكبها العراقيون في الكويت، فإن علينا التخطيط بحذر وعناية، والتعاون مع الكثير من قوات دول التحالف لطرد العراقيين بأقل قدرٍ من الخسائر. أصغى سموه إليّ بهدوء شديد، وعلامات الحزن والأسى بادية على وجْهه.

وفي زيارة لاحقة، بعد وقت قصير، استطعت أن أشرح إستراتيجيتنا بتفصيل أكثر للشيخ نوّاف، وزير الدفاع الكويتي. وتعقيباً على ما قدمته من شرح، أبلغني تشبيهاً بليغاً من سمو الشيخ جابر ترك عميق الأثر في نفسي، يقول فيه: «قل لابننا خالد: أنت تفصّل وحِنّا نلبس». ذكرتني هذه الكلمات بجسامة المسؤولية الملقاة على كاهلي. فأقسمت له أن يكون تحرير دولة الكويت الشقيقة أسمى اهتماماتي، في كل خطوة أخطوها. وكان ذلك عهداً أعتقد أنني وفّيت به. فنحن، في المملكة، نشعر أن الكويت وطننا الثاني. وأنا شخصياً، وبعد تجربة الأزمة التي عشتها، ستظل للكويت منزلة مرموقة في قلبي على الدوام.

أحسنت دول الخليج، بلا استثناء، استقبالي. وأعرب عدد من قادتها عن فخرهم لوجودي في موقع القيادة. وتركت كلمات التشجيع التي سمعتها منهم أطيب الأثر في نفسي، لأنها صدرت عن رجال عرفوني منذ صباي، مثل سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، وليّ عهد قطر، وسمو الشيخ حمد بن عيسى آل

خليفة، وليّ عهد البحرين، وابن عمه، الشيخ خليفة بن أحمد آل خليفة، وزير الدفاع، الذي شاركني في مشقّات ومسرّات ساندهيرست قبل ٢٥ عاماً.

أَبْلَتْ سرية المشاة البحرينية بلاءً حسناً. وكان من صواب الرأي أن يحتفظ البحرينيون بالجزء الأكبر من جيشهم الصغير داخل البلاد للدفاع عن جزرهم ضد أي هجوم عراقي. وقامت قاعدة الشيخ عيسى الجوية في البحرين بدور مهم في المعارك. وكان ذلك، دون شك، سبب قصف العراقيين لها بثلاثة صواريخ سكود، ولكنها ـ بعناية الله ـ أخطأت القاعدة، ولم تُحدث خسائر أو أضراراً.

كما أسهمت البحرين أيضاً إسهاماً فاعلاً في القضية الكويتية على نحو لا يعرفه الكثيرون. فقد تم تهريب أقراص الحاسب الآلي الكويتي، التي تحتوي معلومات مفصلة عن السكان، من الكويت إلى البحرين حيث تمكن خبراء بحرينيون، بمساعدة فنيين هولنديين وفرنسيين، من فك رموز الحاسب الآلي السرية واستعادة المعلومات، التي سلِّمت بعد ذلك إلى الحكومة الكويتية في المنفى. وعلى الرغم من أن طريقة الحصول على هذه الأقراص بقيت طي الكتمان، إلا أن الإحصاءات السكانية التي تضمنتها أصبحت وثيقة لدى الأمم المتحدة، مكّنت الحكومة الكويتية من الدفاع عن نفسها ضد الادعاءات العراقية.

أبدى سمو الشيخ عيسى، أمير البحرين، حماسةً واندفاعاً بالغَين حين أطلعته على الوضع العسكري. واعتقاداً منه بأن الوقت لم يكن في مصلحتنا، كان من رأيه أن يقوم التحالف بعمل عسكري فوري، يتمثَّل في توجيه ضربة جوية مركّزة لإزاحة صدام عن الكويت. وجدت صعوبة في شرح حاجة التحالف إلى الوقت ليتسنى له بناء القوات وإعدادها، وهو الموقف نفسه الذي واجهته خلال لقائي سمو الشيخ جابراً، أمير الكويت.

كان سفيرنا في البحرين، في ذلك الوقت، الدكتور غازي القصيبي، وهو شاعر وكاتب متميز، شغل في السابق منصب وزير الصناعة والكهرباء، ووزير الصحة، وهو اليوم سفيرخادم الحرمين الشريفين لدى المملكة المتحدة، أعطاني القصيبي مغلفاً صغيراً، وأنا أَهِمُّ بصعود الطائرة بعد زيارتي للبحرين، وقال لي: «أرجوك أن تفتحه وأنت في الطائرة». وجدت داخل المغلف شريطين مسجَّلين لقصائده، ومعهما قلم فاخر من نوع «مون بلان»، وعبارة تقول: «أرسل إليك هذا القلم آملاً أن توقع به أمر تحرير الكويت. ولكن أرجوك أن تُعجل، فما أسرع أن يجف فيه الحبر». وعندما حان الوقت في يناير ١٩٩١ لكي أوقع أنا

وشوارتزكوف خطة عمليات عاصفة الصحراء، تذكرت كلمات القصيبي، واستخدمت قلمه في التوقيع. ومن المؤسف أن القرار لم يأتِ بالسرعة التي كان يرجوها الدكتور القصيبي ومن كنت في ضيافتهم في دولة البحرين.

كنت على يقين من أنني سأحظى باستقبال حار في قطر، إذ إن سمو ولي العهد الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني صديق لي منذ عام ١٩٦٤، أيام الشباب، حين ذهبنا معاً إلى لندن للالتحاق بدورة لتعلّم اللغة الإنجليزية مدتها شهران. وبعد أن أطلعت سمو الشيخ خليفة على الموقف، سرّني قرار قطَر بمضاعفة مساهمتها العسكرية في التحالف لتصبح في مستوى لواء. وقد أدت الدبابات القطَرية دوراً بارزاً في معركة الخفجي.

أما في صلالة، فأسعدني الحظ بالاجتماع إلى السلطان قابوس، سلطان عُمان، وهو رجل شديد الانضباط، متفتح الذهن، يستحوذ على الإعجاب والاحترام. ومما زاد من دفء مشاعري نحوه، أنه أيضاً من خريجي ساندهيرست.

وفي أبو ظبي، استقبلني الشيخ زايد، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، في قصره في حضور عدد كبير من وزرائه. وبعد تبادل عبارات التحية، عبّر سموه عن رغبته في التحدث إليّ على انفراد. ولم يُبقِ إلى جانبه سوى ابنه الشيخ محمد بن زايد، الذي كان يشغل منصب نائب رئيس هيئة الأركان لشؤون العمليات، وهو عسكري محترف مشهود له بالمقدرة والكفاءة (تأكدتا أكثر وأكثر، فيما بعد، عندما أصبح رئيساً لهيئة الأركان لدولة الإمارات العربية المتحدة).

وأثناء مناقشتنا للوضع العسكري، طرح الشيخ زايد فكرة معينة شعرت أن عليّ الإفصاح عن وجهة نظري إزاءها. فقلت له: «يا سيدي، هل تسمح لي بالحديث مع سموكم كما أتحدث مع الملك فهد؟ هل تسمح لي أن أتحدث معك كما لو كنت أتحدث إلى والدٍ؟ فأنا أعتبر نفسي في منزلة ابنكم، محمد، تماماً».

وارتسمت تعابير الجدّ على وجه الشيخ زايد العطوف، وقال: «أنت؟ مثل محمد؟ كلاّ!».

وظننت أنني أسأت التعبير، وهيأت نفسي لأتلقى منه لوماً أو عتاباً، ولكنه قال لي: «في هذه الأزمة، أنت عندي أغلى من محمد نفسه!».

ومن جملة المصاعب التي استحوذت على تفكيري خلال الأزمة، مشكلة الوحدات الصغيرة الحجم لبعض الدول المشاركة في التحالف. وهي وحدات لا يتجاوز عدد أفرادها بضع مئات. فما المهمة التي يمكنني إسنادها إلى تلك الوحدات؟ وكيف يتم نشرها بطريقة فعالة؟ هداني تفكيري إلى فكرة «النقاط الحصينة». فلدينا عدد كبير من الأماكن الحيوية التي تحتاج إلى حماية، مثل المنشآت النفطية في السفانية على مقربة من الحدود الكويتية، وخزانات النفط الرئيسية في رأس تنورة . وهذان مثالان من بين الكثير من الأمثلة الأخرى للمواقع التي لا تقل أهمية عنهما.

واستقر رأيي على الاستفادة من هذه الوحدات الصغيرة الحجم لإقامة نقاط دفاعية حصينة حول تلك الأماكن الحيوية. ومنحتني هذه الفكرة مرونة أكبر، لأنها أغنتني عن بعثرة وحدات رئيسية أو تفتيتها. وتم تجهيز تلك النقاط الدفاعية الحصينة لتكون مكتفية ذاتياً وتتمكن بتحصيناتها القوية من التمسك بمواقعها، وتهديد جنب أي قوات عراقية تتقدم جنوباً. وكان يتعين نشر كل وحدة طبقاً لقدراتها القتالية، كي تستطيع تنفيذ المهمة المُوكلة إليها بكفاءة. لم أشأ، عند تقييم كل وحدة وتخصيص المهام لها، أن أغير من أسلوب استخدامها القتالي، أو أضعها في موقف يؤدي فيه اختلاف اللغات إلى صعوبة الاتصال والتفاهم مع الوحدات المجاورة. أردت أن يشعر الجميع بالارتياح إلى أنهم موضع ترحيب، وقبل كل شيء، أردت تجنُّب حدوث مصادمات بين القوات المختلفة. وحفاظاً على تماسك التحالف، واحتراماً للحساسيات السياسية لدى كل عضو فيه، بذلت ما في وسعي لتحقيق الإنصاف للجميع، وحرصت على تحية كل قائد بنفسي، سواء أكان برتبة لواء أم رائد. فكل قادة قوات الدول المشاركة في التحالف يستحقون معاملة متساوية، مهما كانت رتبهم العسكرية. (ولكن يجب عَليّ أن أعترف أنني أَوْلَيْتُ القوات السورية والمصرية اهتماماً خاصاً، لإدراكي أن المحور «السعودي ـ المصري ـ السوري» حيوي لدوام استقرار التحالف واستقرار المنطقة كلها).

أدى إصراري على إقامة النقاط الدفاعية الحصينة إلى خلاف بسيط في الرأي بيني وبين شوارتزكوف. وأذكر أنه خلال اجتماعنا في ١٣ سبتمبر، ونحن نستعرض خططنا الدفاعية مع هيئة أركاننا، ظهر اختلاف وجهات نظرنا. ففي بادئ الأمر، وعندما لم يكن لدى شوارتزكوف سوى القليل من القوات، اقتصر اهتمامه على الدفاع عن الأماكن المحيطة بالجبيل والظهران، وموانئ المنطقة

الشرقية ومطاراتها. فتلك المنطقة كانت على جانب كبير من الأهمية لحشد القوات الأمريكية ونشْرها. ولكنه، عدا ذلك، كان يفضِّل دفاعاً متحركاً قادراً على الاشتباك مع أية قوات يدفعها العراقيون تجاهنا. ولم يحبِّذ شوارتزكوف فكرة «النقاط الدفاعية الحصينة المتقدمة»، خشية أن تتمكن القوات العراقية المتقدمة من اجتياحها أو الالتفاف حولها. لذلك، أراد استبدال الوقت بالمكان. أما أنا، فكان عليّ أن أنظر إلى الوضع من زاوية سياسية وعسكرية في الوقت نفسه. فبادئ ذي بدء، كما أسلفت، عندما أدركت أن مدينة الخفجي الحدودية تقع في مرمى المدفعية العراقية، وأنه لا يمكن الدفاع عنها، سحبت قواتي إلى الخلف مسافة بضع عشرات من الكيلومترات لكي أنشئ «منطقة قتل». وعزمت على إقامة خط دفاعي آخر شمالي ميناء رأس مشعاب. ومن الجدير بالذكر، أن المنطقتين الأماميتين (الشرقية والشمالية) بمحاذاة الحدود كانتا، آنذاك، ضمن نطاق مسؤوليتي، وليستا ضمن نطاق مسؤولية شوارتزكوف. فالقوات الأمريكية كانت لا تزال بعيدة في الخلف، ولم تكن مستعدة للقتال بعد.

كانت إستراتيجيتي الدفاعية، في حال وقوع هجوم عراقي على المملكة، تتلخص في ما يأتي:

أولاً، استدراج القوات العراقية إلى «منطقة قتل» وتعريض خطوط إمدادها للقصف الجوي.

ثانياً، وفي حالة هجوم العراقيين بقوات متفوقة، وعند الضرورة القصوى، يتم الارتداد إلى الخلف وفي اتجاه الشرق مع تنفيذ عمليات الإعاقة (عمليات قتالية تعطيلية) وتعزيز النقاط الدفاعية الحصينة الساحلية. وسيكون لهذا الحزام الساحلي فوائد عدة بينها، على سبيل المثال، الاستفادة من الإسناد النيراني من سفن قوات التحالف الموجودة في الخليج، فضلاً عن أن تلك النقاط الحصينة ستصبح شوكة في جنب القوات العراقية المهاجمة جنوباً، وهو ما سيجبرها على تحويل جزء من قواتها للتعامل معها.

ومن حسن الحظ أن خلافاتي مع شوارتزكوف في شأن هذه المسائل الدفاعية التي كانت محور مناقشات حامية في الأشهر الأولى، لم تتفاقم كثيراً؛ لأن صدام حسين قرر عدم الهجوم. فلو شنّ هجوماً علينا، لكانت هناك قصة أخرى.

كانت القوة المغربية، وقوامها ١٢٠٠ جندي، من أولى القوات التي وصلت

المملكة. وكان جنودها من أفضل الجنود المتمرِّسين بحرب الصحراء، ولكنها كانت أصغر قوة تأتي إلينا من بلد عربي كبير. خصّصتُ لها نقطة دفاعية حصينة في السفانية، بالقرب من رأس مشعاب، لتسيطر على طرُق الاقتراب إلى حقولنا النفطية القريبة من الساحل. ولمّا كان من واجبي الاهتمام والعناية بشؤون القوات التي هبّت إلى مساندتنا، فقد أرسلت إلى القوات المغربية خياماً وفرشاً ميدانية للنوم، ومطابخ متنقلة، وكميات وفيرة من الإمدادات الغذائية. ولكن، عندما ذهبت لزيارتها، طلب العقيد أحمد بنياس، وهو ضابط هادئ يتميز بالانضباط، أن يتحدث إليّ على انفراد.

وهمستُ في أُذن قائد المنطقة: «يبدو أنني نسيت أن أزوِّدهم بشيء مما يحتاجون إليه». كنت معتاداً، أثناء تفقدي للوحدات الميدانية، على تلقي طلبات المزيد من كل شيء. كانت طلبات قادة القوات لا تكاد تنتهي.

وعلى انفراد، سألت القائد المغربي عما يريد. قال: «إنكم ترسلون إلينا أكثر مما نحتاج إليه من كل شيء. وأخشى أن تُفْسِد هذه الرفاهية جنودي. أرجو أن تقلِّلوا هذه الإمدادات. فلسنا في حاجة إلى كذا وكذا...». وبدأ يسرد عدداً من المواد. فقلت له: «لكم أتمنى أن يكون كل القادة مثلك!». كانت طلبات القوات المغربية، حقاً، تقلّ عن طلبات القوات الأخرى.

بعد وصول القوات المغربية إلى المملكة، كانت أول رسالة تلقيتها من قائدها: «نحن تحت قيادتك، وجاهزون لتنفيذ أوامرك». وتقديراً مني لثقتهم الكاملة تلك، فقد آثرت أن لا أُوْكِل إليهم مهمة تضر مصالح بلادهم، أو تحرج قائدهم الأعلى جلالة الملك الحسن الثاني، الذي أعرفه شخصياً وأُكن لجلالته كل التقدير والإعجاب؛ إذ سعى، منذ بدء الأزمة، إلى التوسط لحل النزاع بين العراق والكويت. وبدلاً من أن يندد بصدام أو يدينه علناً، فقد خاطبه بلهجة معتدلة علّها تقنعه بفداحة الكارثة التي سوف تسفر عنها الحرب. كان الملك الحسن، باتخاذه هذا الموقف، يضع في حسبانه تيار المعارضة القوي في المغرب إزاء حرب تقودها الولايات المتحدة على العراق. كما يضع في تقديره، كذلك، تيار معارضة أقوى لدى جارته الجزائر، وهي عضو في اتحاد دول المغرب العربي، التي كان يسعى إلى توطيد علاقاته معها.

لكل ذلك، رأيت أن من واجبي تجنُّب وضع القوات المغربية في موقف قد يكون سبباً في إحراجه. سألت العقيد أحمد بنياس إن كانت لديه تعليمات من

الملك الحسن، في شأن استعداد قواته للقتال ضد العراق لتحرير الكويت. فأجاب بالنفي. وردد قوله: «أنا تحت قيادتك، وسأفعل ما تأمرني به».

أخبرته أنني حريص على الالتزام برغبة حكومته في هذا الشأن، لكنه قال بصراحة ووضوح: «أنا قائد عسكري تحت إمرتك. والتعليمات الصادرة إليّ أن الأمر يرجع إليك في تقدير أية مهمة تعْهَد بها إلينا».

وعندما أمعنت التفكير في هذا الموضوع، كان أمامي خياران:

إما إحالة الأمر إلى سلطة أعلى، مع المجازفة بأن أكون سبباً في إحداث حرج، أو أن أضطلع بالعبء السياسي بنفسي. وفضّلت الخيار الثاني. فلو تبيَّن، بعد ذلك، أنه قرار غير صائب، فإن اللوم سيوجَّه إليّ وحدي. وعند التخطيط لعملية عاصفة الصحراء قررت نشر بعض القوات في المواقع الدفاعية نفسها التي كانت تتمركز فيها القوات المهاجِمة، بهدف أن تحل هذه القوات محل القوات المهاجِمة عند بدء تقدمها لتحرير دولة الكويت. أسندت هذه المهمة، في البداية، إلى وحدات من الحرس الوطني السعودي وحدها. ثم اتخذت قراراً بإسنادها أيضاً إلى القوات المغربية، حتى لا تضطر إلى دخول الكويت. فاشترك المغاربة بذلك في خطة درع الصحراء بشكل كامل، وكانوا على أتم الاستعداد للرد إذا حاول العراقيون مهاجَمة مواقعهم. ولكني لم أشأ أن أقحِمهم في أعمال هجومية في عاصفة الصحراء.

أرسلت النيجر والسنغال أيضاً وحدتين تتميزان بالانضباط الشديد، بقيادة ضباط مدرَّبين تدريباً عالياً. فعلى الرغم من قلة عدد رجال الوحدتين، إلاّ أن ذلك العدد يُعتبر، نسبياً، عدداً ضخماً إذا قُورِن بحجم جيشيْ البلدين. فهو يمثِّل جهداً جباراً لا ترقى إليه دول أخرى ذات جيوش ضخمة العدد. فالنيجر مثلاً، أرسلت ٤٨١ رجلاً من جيشها الذي يبلغ تعداده ٣٢٠٠ فرد. وعرضت إرسال المزيد. ولكن، بما أنها أرادت أن نزود رجالها بكامل المعدات والمؤن، رأيت الاكتفاء بهذه القوة الرمزية، إذ كان تأمين الإسناد للقوات المصرية والسورية والأمريكية والبريطانية والفرنسية يشكّل ضغطاً هائلاً على الموارد المتاحة. فمع شدة حرصنا على إشراك أكبر عدد ممكن من الدول في التحالف، إلاّ أنني كنت أفضّل الإسهامات الصغيرة. فخصَّصت لقوة النيجر مهمة الدفاع عن «نقطة دفاعية حصينة» بالقرب من مدينة حفر الباطن.

زارني رئيس هيئة الأركان السنغالي، في أوائل شهر سبتمبر، ونقل إليّ، عن

الرئيس عبده ضيوف، التزاماً بالتضامن معنا. والرئيس عبده ضيوف شخصية بارزة، تحظى باحترام بالغ في المملكة. وقد تسلّم زمام الرئاسة عام ١٩٨١ إثر تقاعد الرئيس ليوپولد سيدار سنجور Leopold Sedar Senghor. وحرصت بلاده، ذات الأغلبية المسلِمة، على الاشتراك في الدفاع عن المقدسات الإسلامية. لكن السنغال، آنذاك، كانت منشغلة بصراع دموي مع موريتانيا، جارتها في الشمال، التي كان العراق يدعمها، على ما يبدو. وهذا ما دفع رئيس هيئة الأركان السنغالي إلى أن يعلن أن أمن المملكة جزء لا يتجزأ من أمن السنغال، وأن بلاده على استعداد تام لبذل كل ما لديها في سبيل ذلك. فشكرْته لمساندته، وبادلت مجاملته الرقيقة بمجاملة مماثلة.

وكان رئيس هيئة الأركان السنغالي متشوقاً إلى معرفة المهمة التي سأسندها إلى قواته عند وصولها. فاضطررت إلى أن أشرح له صعوبة تحديد مهمة لقوة بحجم لواء في مسرح عمليات شاسع، ناهيك بوحدة أصغر حجماً. عرض علينا إرسال ١١٠٠ رجل بين ضابط وجندي، أو أكثر من ذلك العدد إذا دعت الضرورة. ولكن عندما سألته إن كانوا سيأتون بمعداتهم وعرباتهم وإمداداتهم، أشار إلى موارد السنغال المحدودة، وإلى صراعها مع موريتانيا. وأضاف أن أسلحتهم وملابسهم ومعداتهم تلائم حرب الغابات أكثر من ملاءمتها حرب الصحراء. وأدركت سريعاً ما كان يرمي إليه. وقلت له إن من الأفضل أن يرسلوا كتيبة واحدة من ٤٠٠ أو ٥٠٠ فرد بأسلحتهم الفردية فقط.

وطلبت من الضيف السنغالي استراحة لمدة ساعة نعود بعدها إلى الاجتماع. ثم اتصلت هاتفياً بمدير الإدارة العامة للأسلحة والمدخرات، محمد إبراهيم الحديثي، الذي سبق أن عرفته خلال مشروع الصواريخ الصينية. ولمست، عن كثب، قدراته الخاصة، التي لا تستعصي عليها مشكلة. تذكرت أننا كنّا في صدد الاستغناء تدريجياً في قواتنا المسلحة عن ٢٠٠ عربة قتال مدرعة فرنسية الصنع پانهارد AML-90، وهي من النوع نفسه الذي يستخدمه السنغاليون.

وسألته: «كم عربة تستطيع تجهيزها للعمل؟».

فأجاب: «العدد الذي تريد».

ـ «إذاً، لا تفرّط بها».

وبعد فترة، سلّمنا هذه العربات إلى السنغاليين وإلى قوات النيجر والمغرب. وفي نهاية الحرب، أمر الأمير سلطان بإهدائهم تلك العربات تقديراً لجهودهم وعرفاناً بجميلهم.

وقلت لرئيس هيئة الأركان السنغالي: «يجب أن أكون صريحاً معك. فَلْتَبْقَ قواتك حيث هي حتى نتخذ الاستعدادات اللازمة لاستقبالها». وفي غضون شهر، أرسلت طائرتين من نوع بوينج ٧٤٧ إلى السنغال لنقل تلك القوات. وكانت هذه أيسر طريقة لنقلها. وخصَّصت لها مهمة التمركز في موقع دفاعي حصين عند ميناء رأس مشعاب، إلى جوار القوات المغربية. فكلتاهما تتكلم الفرنسية، ولذلك لم تعد هناك مشكلة في الاتصال بينهما.

لم أستغرب شعور القائد السنغالي، العقيد محمدو كيتا (وهو الآن رئيس هيئة الأركان) بالقلق من احتمال وقوع خسائر في صفوف قواته. ولأسباب لا أستطيع تفسيرها، أقسمت له أن حياة كل جندي تحت قيادتي، أيّاً كانت الدولة التي قَدِم منها، لا يقل قدرها عن حياة أي جندي سعودي، وأنني سأبذل كل ما في وسعي للتقليل من الخسائر في الأرواح إلى أدنى حد. ولكن للأسف وقعت حادثتان مأساويتان كانتا سبباً في عدم الوفاء بوعدي، وحزنت لهما حزناً عميقاً، لا أستطيع حتى أن أعبّر عنه.

ففي يوم ٢١ فبراير ١٩٩١، وقبل انتهاء الحرب بوقت قصير، أصاب صاروخ عراقي من نوع فْرُوجْ Frog «النقطة الدفاعية الحصينة» للقوة السنغالية، بينما كان أفرادها مصطفين في الصباح لاستلام طعامهم من إحدى الشاحنات. فأصيب ثمانية منهم بجروح. وبعد ذلك بشهر، في ٢١ مارس، تحطمت طائرة نقل C-130 هيركليز، أثناء محاولتها الهبوط في رأس مشعاب، وعلى متنها مجموعة من السنغاليين، في رحلة العودة من مكة المكرمة بعد أداء العُمْرة. وكانت المصيبة في هذه الحادثة أفدح بكثير من الحادثة الأولى، فقد لقي ٩١ سنغالياً حتفهم ـ نسأل الله أن يتقبلهم شهداء ـ أي ما يعادل خُمس القوة، بالإضافة إلى طاقم الطائرة السعودي وعدده ستة. وإذا أخذنا في الاعتبار هذا التناسب، تكون السنغال قد تحملت من الخسائر في حرب الخليج، ما لم تتحمله دولة أخرى في التحالف.

أبدينا استعدادنا لإعادة جثث الضحايا إلى بلدهم، لكن عائلاتهم فضلَت أن يدفنوا في المملكة. فتمت مواراتهم في الثرى في النعيرية، في المنطقة الشرقية، يوم ٢٢ مارس. وأمضيت سحابة يومي هناك، واشتركت في حفر قبورهم، وحمْل جثثهم الملفوفة بالأكفان وإنزالها إلى القبور. وحضر الدفن وزير الدفاع ورئيس هيئة الأركان السنغاليان. وأدينا صلاة الجنازة معاً. كانت تلك اللحظات

من أقسى لحظات الحرب التي مرّت بي ألماً وحزناً، وما زلت، حتى اليوم، أذكرها ببالغ الأسى.

اقترحت على الأمير سلطان أن توجَّه دعوات إلى أسر جميع ضحايا الحرب، من كل البلدان الإسلامية، لأداء فريضة الحج، فوافق على اقتراحي دون تردد. وأعددنا طائرات خاصة لهذا الغرض.

كان من دواعي سروري أن أرحّب بقوات من الدول التي كانت، حتى عهْد قريب، تدور في فلَك الاتحاد السوفيتي. وأعتقد أنني كنت أول من وقّع معاهدة بين المملكة وكل من تشيكوسلوفاكيا والمجر وپولندا. في بداية الأزمة، أعربت هذه الدول الثلاث عن استعدادها لمساندتنا بإرسال معونة طبية أو وحدات أخرى غير مقاتلة. وشعرت بغبطة حين عَلِمت بقدوم وحدات إلى المملكة من تلك الدول. وكانت هذه أول فرصة لنا للعمل المباشر مع دول كانت، من قبل، أعضاء في حلف وارسو. وعندما التقيتهم وجدت حماستهم، رجالاً ونساءً، أمراً يستحق الثناء.

أرْسَلَتْ إلينا تشيكوسلوفاكيا وحدة كيماوية قوامها ١٨٠ رجلاً، فأضافت بذلك قدرة كيماوية دفاعية كنت في أَمَسِّ الحاجة إليها. فما من أحد كان يعلم على وجه اليقين إن كان صدام سيلجأ إلى استخدام أسلحته الكيماوية أم لا. فبعد الأسابيع القلائل الأولى، تبيَّن لنا أن صداماً لن يجرؤ على شن هجوم بالأسلحة التقليدية، إذ كانت قوات التحالف تفوق قواته بكثير، إلاّ أن احتمال لجوئه إلى الأسلحة غير التقليدية ظل همّاً قائماً، حتى وضعت الحرب أوزارها. ولَمّا كان صدام قد استخدم أسلحته الكيماوية، من قبل، ضد الإيرانيين والأكراد، فقد اعتقد كثير من الناس أنه لن يتورّع عن اللجوء إليها مرة أخرى، إن وجد نفسه في مأزق حرج. كنت أعتمد على التشيكوسلوفاكيين، في المنطقة شمالي حفر الباطن، اعتماداً كاملاً في مهام كيماوية متعددة مثل الاستطلاع الكيماوي، ومراقبة احتمال استخدام الغازات الحربية، وإنذار القوات عند استخدام العراقيين هذه الغازات، وتحديد نوع التلوث والمناطق الملوثة، وتطهير الأفراد الذين يتعرضون لخطر تلك الغازات وكذلك المعدات والأرض. وحتى تؤدي الوحدة التشيكوسلوفاكية عملها على الوجه المطلوب، أنشأت مختبراً كيماوياً صغيراً خاصاً بها.

ذهبت لاستقبال الوفد التشيكوسلوفاكي حين وصل إلى جدّة أوائل شهر

نوفمبر ١٩٩٠، وانحصرت مهمتنا في التوصل إلى اتفاق في شأن المجالات التي يمكنهم المشاركة فيها. وحتى ذلك الحين، لم يكن الأمير سلطان قد فوضني بعد صلاحية توقيع اتفاقية معهم. ولَمّا كنت على يقين من أن هذا التفويض في طريقه إليّ، فقد قررت التوقيع على الاتفاقية، حتى لا تفلت من يدي الفرصة في أن أصبح أول سعودي يوقع اتفاقية مع تشيكوسلوڤاكيا.

أما پولندا، فأسهمت بسفينة مستشفى، وسفينة إنقاذ، وفريقٍ طبيٍّ قوامه ١٥٢ طبيباً وممرضة. وكان لفريقها الطبي فائدة عظمى في مستشفى الملك خالد العسكري في حفر الباطن. حضر الفريق الطبي في الوقت المناسب، إذ إن عدداً كبيراً من الممرضات الأجنبيات اللاتي كنَّ يَعْمَلْنَ في المستشفيات المتقدمة على الحدود، رَجَعْنَ إلى بلادهن خوفاً مما سَمِعْنَه عن الأعمال الوحشية التي ارتكبها جنود صدام في حق الممرضات في الكويت. كما أن عدداً ممن كنَّ في الرياض وجدّة حَزَمْنَ حقائبهن ورَحَلْنَ عن البلاد. لذا، شعرنا بالارتياح لمَقْدم الفريق الطبي الپولندي، وكذلك الفريق الطبي المجري الذي كان قوامه ٣٨ شخصاً، بينهم أطباء اختصاصيون مَهَرَة.

ساهمت بنجلاديش مساهمة ممتازة في مجال الإمداد والتموين، حين أرسلت إلينا عدداً من أفضل ما لديها من وحدات الإسناد في هذا المجال. وكنت، في تلك المرحلة، في حاجة ماسة إلى تلك الوحدات أكثر من حاجتي إلى وحدات مقاتلة. ويبدو أن الاضطرابات المعادية للحرب، التي اندلعت في دكّا، فرضت بعض القيود على نوع المساندة التي يمكن لبنجلاديش تقديمها. إنني لأُكِنّ كل الاحترام للفريق محمد نور الدين خان، رئيس أركان جيشها، وهو رجل يتمتع بنفوذ واسع في بنجلاديش، الذي قَدم لزيارتي لوضع الترتيبات اللازمة للمساندة. ولَمّا ذهبت لزيارة بنجلاديش، بعد تقاعدي، تأثرت كثيراً حين حشدت السلطات العسكرية في دكّا لاستقبالي قادة قواتها، وجميع الضباط الذين عملوا تحت قيادتي خلال حرب الخليج. وقد تجشَّم كثير منهم عناء سفر طويل، على الرغم من الفيضانات، وتدفق اللاجئين من بورما، ومصاعب أخرى كان يواجهها ذلك البلد الشجاع.

كانت پاكستان، كذلك، عوناً كبيراً لنا، على الرغم من أن قواتها لم تكن على اتصال مباشر بمسرح العمليات الرئيسي (في المنطقتين الشرقية والشمالية). ومنذ السبعينات، ظلت پاكستان تقدم إلينا المساندة العسكرية. وتمركزت قواتها،

المدرَّبة تدريباً عالياً، في تبوك في الشمال الغربي، وفي خميس مشيط في الجنوب. وعندما انفجرت الأزمة، أرسل الفريق أول محمد الحماد، رئيس هيئة الأركان العامة، لواءً پاكستانياً لتعزيز مواقعنا الدفاعية على حدود اليمن، إذ لم يكن في وسعنا أن نترك حدودنا الجنوبية بلا دفاع، خشية أن يستغل اليمنيون الأزمة فيقدِموا على مغامرة ضد المملكة. لكن المنطقة الجنوبية، على كل حال، لم تكن ضمن مسرح عملياتي. وعندما عَلِمت أن القوات العراقية عززت القوات الخاصة لتكون في حجم لواء، ومن خلفِه فرقة تسانده، مقابل عرعر، وهي مدينة تقع في أقصى الشمال الغربي على طريق الحجاج القادمين من العراق إلى مكة، بادرت إلى حشد اللواء السابع المدرع الپاكستاني تعزيزاً للواء الحرس الوطني السعودي الذي كان متمركزاً هناك من قبل.

على الرغم من أن القوات البريطانية، وقوامها ٤٥ ألف رجل، كانت تحت قيادة شوارتزكوف، إلاّ أنني كثيراً ما اجتمعت إلى قادتها، ليس فقط الفريق السير پيتر دي لابليير قائد القوات البريطانية في مسرح العمليات، ولكن أيضاً المشير الجوي السير پاتريك هاين Sir Patrick Hine من القيادة العامة في المملكة المتحدة، الذي زار المملكة مرات عدة خلال الأزمة، وكانت لي معه أحاديث طويلة ممتعة للغاية. كنا نستمتع باستقراء تنبؤات للأحداث المستقبلية، ويعرضها كلّ منّا على الآخر. وغالباً ما كان السفير البريطاني المتميز، السير آلان مونرو Sir Alan Munro في رفقة السير پيتر دي لابليير والسير پاتريك هاين أثناء زياراتهما لي.

وأجد، وأنا أقلب صفحات مذكراتي، أنني كنت أستقبل، كل أسبوع تقريباً، ممثلاً بريطانياً عالي المستوى. فقابلت السير ديڤيد كريج Sir David Craig، رئيس هيئة أركان الدفاع البريطاني في أواخر أكتوبر، وتوم كينج Tom King، وزير الدفاع في منتصف نوڤمبر. وبينما كان الوزير كينج في طريقه لزيارة القوات البريطانية في الظهران من طريق الرياض، اقترح عقد اجتماع بيننا، لكنني، للأسف، لم أتمكن من رؤيته بسبب إصابتي بأنفلونزا حادة والتهابات في الجيوب الأنفية أثرت في الحبال الصوتية. ولدى عودته اقترح، لطفاً منه، تعديل خط رحلته كي يمر بالرياض مرة ثانية. فأمضينا معاً ساعة من الزمن في المطار، على

الرغم من شدة مرضي آنذاك. وقد أعجبت بإلمامه بالتفاصيل الدقيقة كافة، كما سرّني إصراره على لقائي قبل سفره.

وفي أوائل شهر ديسمبر، قام فريق من الأطباء بتجفيف (بزل) السائل المسبب لالتهاب الجيوب الأنفية، وأجروا تنظيراً للقصبات الرئوية بواسطة منظار ضوئي ذي ألياف بصرية دقيقة، كي يكتشفوا سبب المعاناة. وضم ذلك الفريق الطبي الدكتور رشيد الكحيمي والدكتور سيد أيوب (طبيب والدي منذ أكثر من ربع قرن)، ومعهما عدد من الأطباء البريطانيين، على رأسهم الدكتور ريتشارد ماو Richard Maw، اختصاصي الأنف والأذن والحنجرة من جامعة بريستول البريطانية. وبعد الإفاقة من التخدير العام بنحو ساعتين، توجَّهتُ إلى حضور اجتماع إلى رئيس هيئة الأركان الفرنسي. ولا شك أنه، حين رأى علامات الضعف والإرهاق البادية على مظهري، تساءل عمّا كنت أفعله قبل الاجتماع!

زارت السيدة تاتشر، التي كانت وقت الغزو في زيارة الرئيس جورج بوش في أسپن في ولاية كولورادو، المملكة في الفترة من ١٧ إلى ١٩ سپتمبر ١٩٩١. وكانت، وقتها، قد تركت رئاسة الوزارة، كما كانت الحرب قد وضعت أوزارها، وعادت معظم قوات التحالف إلى أوطانها. قالت السيدة تاتشر للأمير فهد بن سلمان، الذي كان يشغل آنذاك منصب نائب أمير المنطقة الشرقية، في حديث معه: «كان جورج متردداً بعض الشيء». وأضافت قائلة إنه لحسن الحظ استطاعت أن تقوي عزيمته. وروى لي الأمير فهد، بعد ذلك، أن السيدة تاتشر هتفت قائلة وهي تنظر إلى حشد من الدبابات والمدافع في المنطقة الشرقية، يستعد للرحيل: «أكُلّ هذا بسببي أنا!».

كانت بريطانيا وفرنسا، وهما من الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن، من أهم دول التحالف ضد صدام، وذلك بسبب علاقتهما الطويلة بقضايا الشرق الأوسط. ولو كان الأمر في يدي لدعوت الاتحاد السوڤيتي، القائم آنذاك، للمشاركة أيضاً في التحالف. فلم نكن نرغب في أن نكون وحدنا مع الأمريكيين، ولم يكن الأمريكيون راغبين في أن يكونوا وحدهم معنا. وكما كانت المملكة ومصر وسوريا من الأعضاء الأساسيين في الجانب العربي من التحالف، كذلك كانت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا تقوم بأدوارٍ رئيسية في الجانب الغربي منه.

في أحد اجتماعاتنا المبكرة في ٢٥ أغسطس، سألني السير آلان مونرو، السفير البريطاني، إن كنت أرغب في أن تتبادل قواتنا المعلومات عن العراق، فأجبته بالموافقة على الفور. كنت في حاجة إلى كل ما أستطيع الحصول عليه من المعلومات، فتم إلحاق ضابط بريطاني على إدارة استخباراتنا، ليكون بمثابة قناة مزدوجة لتدفق المعلومات. وتبيَّن أن ما قدَّمه البريطانيون إلينا من معلومات يماثل ما حصلنا عليه من الأمريكيين. وعلى كل حال، فإن التزوُّد بالمعلومات من مصدرين مختلفين هو أدعى إلى الاطمئنان إلى صدقيتها في أغلب الأحيان.

أقمت علاقة وطيدة مع السير پيتر دي لابلير، ونشأت بيننا ثقة متبادلة منذ اجتماعنا الأول، حين أخبرني قائلاً: «على الرغم من أنني أعمل تحت إمرة شوارتزكوف، لكن لدي تعليمات من حكومتي بإطلاعك على كل ما نفعله». فشكرته لكلماته وموقف حكومته، ودعوته لمقابلتي في مكتبي كل أسبوع، وهذا ما كان يحرص عليه. وفي واقع الأمر، كنّا نجتمع أحياناً غير مرة في الأسبوع. وتمكنت بذلك من المساعدة على تذليل بعض المصاعب التي واجهَت القوات البريطانية. وبعيداً عن مشاكل العمل اليومية، شعرت أنه كان حريصاً على تدعيم العلاقات السعودية ـ البريطانية.

وفي وقت لاحق خلال الأزمة، عندما أرسل السير پيتر مجموعات من القوات الخاصة البريطانية إلى غرب العراق، للبحث عن منصّات إطلاق صواريخ سكود، لحرمان إسرائيل من أية ذريعة قد تتخذها لدخول الحرب، استطعت أن أُيَسّر عبورها السري إلى الأراضي العراقية عبر حدودنا.

وبفضل خبرته الطويلة بشؤون الشرق الأوسط، كان السير پيتر يتفهم جيداً القيود التي اضطررت إلى فرْضها على القوات الغربية الموجودة في المملكة، تجنُّباً لِمَا قد يسيء إلى العادات أو التقاليد، وقبل كل شيء إلى معتقداتنا الدينية. وكانت إحدى مسؤولياتي الأساسية في إدارة التحالف هي الحرص على أن تكون الأمور على ما يرام في الداخل بعد انتهاء الحرب، وقد تفهَّم السير پيتر هذا الأمر. وكانت قدرتي على التحدث إليه بصراحة تامة وبطريقة مباشرة، مدعاة لارتياحي.

ولعلمه بوجهة نظري، لم يوافق على طلب قيادته في لندن توزيع علبتين من البيرة لكل جندي في قواته خلال احتفالات عيد الميلاد. كان يقدر أسبابي

الخاصة في هذا الشأن. أخبرني، ذات مرة، أنه لو سُمِح للجنود بتعاطي المشروبات الكحولية، لحدَثت مشاجرات داخل الوحدات البريطانية نفسها، وبين البريطانيين والأمريكيين كذلك، فضلاً عن حدوث توترات غير مقبولة مع الشعب السعودي. وقال إنه لو أتيحت له الظروف ثانية لَفَضَّل أن يخوض حرباً صحية كتلك الحرب مرة أخرى.

تفهمت، بدوري، دوافعه ورغبته في أن تشترك قوته الضاربة الرئيسية، الفرقة الأولى المدرعة البريطانية، في الهجوم الرئيسي للتحالف داخل العراق. فقد اقتصر دور القوات البريطانية، في البداية، على الهجوم المساند، الذي كان من المقرر أن تنفذه مع مشاة البحرية الأمريكية شمالاً على طول الساحل الشرقي في اتجاه الكويت. لكن هذا التخطيط لم يرضِ السير پيتر، وكان سبباً، كما علمت، في نشوء خلافات حادة بينه وبين شوارتزكوف.

كان السير پيتر يعتقد أن الشعب البريطاني لن يرضى بأن يُسند إلى قواته دور الهجوم المساند فقط. ففي أكبر حشد للقوات البريطانية خارج الحدود منذ الحرب العالمية الثانية، أراد البريطانيون أن يشاهدوا قواتهم كجزء من قوات الهجوم الرئيسي. فضلاً عن وجود أسباب فنية أخرى منها، مثلاً، أن تشكيلات الدبابات البريطانية كانت قد تدرَّبت على عمليات استطلاع طويلة المدى في أوروپا، فمن أجْل عرض قدرتها على الحركة والمناورة وقوة نيرانها، فإنها كانت في حاجة إلى الاشتراك في هجوم واسع النطاق عميق المدى. وهذا النوع من الهجوم المتجِه شمالاً لا يتلاءم مع الطريق الشمالية على الساحل الشرقي، فقد كانت طريقاً قصيرة غير ملائمة ومكدسة بالعوائق، مثل المنشآت النفطية وخطوط الأنابيب.

وعلى الرغم من الوفاق والعلاقات الحسنة بين البريطانيين ومشاة البحرية الأمريكية، وتدريباتهم الناجحة معاً، فإنني أظن أن السير پيتر كان متردداً في تعريض حياة رجاله للخطر إلى جانب عمليات تنطوي على المخاطرة، سعياً إلى إثبات الذات، وتأكيداً للبطولة والشجاعة المشهورة عن وحدات مشاة البحرية، إذ كان رجال مشاة البحرية متلهفين لإثبات جدارتهم، لينعكس أثرها في المعركة الدائرة في الپنتاجون حول موازنة الفروع الرئيسية للقوات المسلحة. كان السير پيتر يخشى قيام مشاة البحرية بمثل تلك المغامرات، ولم يكن مستعداً للمجازفة بحياة رجاله. على كل حال، كسب السير پيتر معركته مع شوارتزكوف، وتحركت

فرقته المدرعة غرباً، واشتركت، في نهاية المطاف، في الهجوم الرئيسي على الأراضي العراقية تحت السيطرة التكتيكية للفيلق السابع الأمريكي.

كانت عملية إيواء طائرات التحالف، في حد ذاتها، مشكلة بالغة التعقيد. وما كان ممكناً أن تتم هذه العملية، لولا البنْية الأساسية الرائعة لبلادنا، والمهارة الإدارية العالية التي يتمتع بها رجال قواتنا الجوية. فقد عانت قواعدنا الجوية ضغطاً هائلاً، مع وصول آلاف الطائرات إلى المملكة من الدول المتحالفة، عدا الطائرات العمودية والطائرات الرابضة على الحاملات، والقاذفات البعيدة المدى. لذا، صدرت الأوامر إلى القوات الجوية الملكية السعودية برفع درجات الاستعداد لقواعدها إلى الدرجة القصوى. ونظراً إلى أن هذه القواعد لم تكن كافية لاستيعاب هذا الكمِّ الهائل من الطائرات، بدأ ضباط أركاني البحث عن مطارات غير مستخدمة مثل مطار الأحساء، شرقي الرياض، الذي جرى تحديثه بسرعة فائقة، وخُصّص، كما سأروي في الفصل القادم، للقوات الفرنسية. وفي الخرج، جنوبي الرياض، استطعنا استخدام قاعدة جوية جديدة، كانت في طور الإنشاء، لإيواء الطائرات الأمريكية القادمة من عُمان، ومن الولايات المتحدة نفسها. وفي تبوك، انضمت طائرات التورنيدو البريطانية إلى طائرات F-15C الأمريكية، وإلى بعض من طائراتنا. ولم أجِد ما يدعو إلى القلق في هذا الشأن؛ لأن أخي الأمير فهداً، أمير المنطقة، كان يعالج كل المشاكل التي تواجهها القوات الصديقة في منطقته، بطريقة تدعو إلى الإعجاب.

تم استخدام مطارَيْ القصيم وحائل من جانب قواتنا الجوية، ومطار جدّة من قِبَل طائرات التزوُّد بالوقود الأمريكية، والقاذفات B-52. كذلك، كانت الطائرات الأمريكية والفرنسية تستخدم مطار الملك خالد في الرياض. أما قاعدة الرياض الجوية، فَخُصِّصَت للطائرات الأمريكية والبريطانية والفرنسية والسعودية، سواء طائرات التزوُّد بالوقود، أو طائرات الإنذار المبكر (أواكس)، أو طائرات النقل. وفي مدينة الملك خالد العسكرية، كانت هناك الطائرات العمودية الفرنسية، وطائرات الإسناد الجوي القريب، وطائرات التدريب الأمريكية. كذلك، وُضِعت الطائرات الأمريكية صائدة الدبابات من نوع A-10 في مطار القيصومة. وأكثر من ذلك كله، إذ تم إعداد مهابط للطائرات العمودية في مناطق العمليات الأمامية،

كما أجرى ضباط أركاني عمليات مسْح في الصحراء لتحديد الأماكن الصالحة لإنشاء مهابط ترابية لطائرات C-130 لإسناد قواتنا أثناء الحرب البرية.

أراد الفريق هورنر إنشاء قاعدة في السعودية لطائراته B-52، لكن كلاً منّا كان يدرك تماماً الصورة السلبية التي يحملها الناس لهذه القاذفات الضخمة، وهي صورة تعود إلى أيام الحرب الباردة. وكانت هذه الطائرات الأمريكية تنطلق من دييجو جارسيا Diego Garcia في المحيط الهندي، ومن مورون Moron في أسپانيا، ومن قواعدها في المملكة المتحدة. وفي واقع الأمر، فإن أول طائرة اشتركت في حرب الخليج كانت من نوع B-52، إذ أقلعت من لويزيانا ووصلت إلى منطقة القتال في اليوم التالي. وأطلقت تلك الطائرة صواريخ كروز التي كان لها دور كبير في إبطال فاعلية أنظمة الدفاع الجوي العراقية. ولَمّا كانت تلك الطائرات المنطلقة من مثل هذه القواعد البعيدة تستغرق ساعات حتى تصل إلى العراق، فقد أوضح هورنر أن في استطاعته مضاعفة الاستفادة منها لو تم إيواؤها في المملكة. وتوصَّلنا إلى اتفاق يقضي بأنه عقِب أول غارة تقوم بها طائرات B-52 القادمة من قواعدها البعيدة ستهبط في جدّة، حيث تقلِع منها وتهبط طوال الحرب. وفي اليوم التالي لانتهاء الحرب، تعود هذه الطائرات إلى قواعدها. وهذا ما حدث بالفعل. وتم تحرير اتفاقية بهذا المعنى ووقّعنا عليها.

والحق يقال، لم يكن واجبنا فقط خلال الحرب هو إحراز نصر على صدام، فقد كان ذلك أسهل جزء في المهمة، نظراً إلى القوة الساحقة للتحالف. فحرب الخليج من الحروب القليلة في التاريخ التي كانت نتيجتها معروفة سلفاً. (أثار اهتمامي، حقاً، كتاب عن حرب الخليج كتبه فريق من الضباط الأمريكيين، وتولى نشره مكتب رئيس أركان الجيش الأمريكي عام ١٩٩٣، تحت عنوان «نصرٌ مؤكدٌ»).

كان من أكبر التحديات التي واجهتنا، من وجهة نظري، هو التأكد من أن أعضاء التحالف يعملون معاً في تناسق تام دون احتكاك أو نزاع. فقد كان إخفاقنا في ذلك، هو ما يعوِّل عليه صدام. لذا، فكلما نشأت مشكلة كنت أقول: «لا تحاولوا حلّها، بل أخبروني بها فقط». وأعتقد أن دوراً من أهم أدواري في تلك الحرب تمثّل في الإبقاء على جميع تلك الدول داخل إطار التحالف دون حدوث مشاكل حقيقية بينها. وهذا ما أعنيه بـ «إدارة التحالف».

الفصل السادس عشر

مُبارزة مع شيفنمان

تبيَّن لي، مما لاحظته عن الشخصية الفرنسية، أن الفرنسيين يمتازون بخصلتين هما وجهان لعملة واحدة: ذاتية الاستقلال، وكراهية التبعية. وهذا ما يدفعهم إلى محاولة التفوق على الدوام. وهو موقف أتفهمه تماماً وأحترمه. غير أن هذه الشخصية تسببت بعددٍ من المشاكل إبّان أزمة الخليج. وهي، على كل حالٍ، مشاكل متوقَّعة في مثل تلك الظروف.

لم يسلم من الجدال أي أمر من الأمور المتعلقة بالقوات الفرنسية، التي وصلت إلى المملكة تحت اسم (قوات داجيه) Les Forces Daguet، سواء أَتَعلق الأمر بمواقع نشْر القوات البرية والمقاتلات الفرنسية، أم بمن سيتولى السيطرة عليها، أم بمغامرات دورياتها الاستطلاعية، أم بالترفيه عن جنودها، أم بالموقف المتردد من الحرب الذي أبداه في پاريس جان پيير شيڤنمان Jean-Pierre Chevènement وزير الدفاع الفرنسي.

وعلى كل حال، عليّ أن أذكر فى الوقت نفسه، أن القوات الفرنسية بذلت من الجهد في التدريب الشاق المستمر، أكثر مما بذلته القوات الأخرى. وكذلك بذل المورِّدون الفرنسيون جهوداً استثنائية لتزويدنا بقطع الغيار التي كنّا في أَمَسّ الحاجة إليها لأسلحتنا الفرنسية الصنع. فكانوا ينجزون أعمالهم والتزاماتهم بدقة واقتدار، لمجرد أن تتم تسوية خلافاتهم معنا. وتبيَّن لي أن التعامل مع القادة العسكريين الفرنسيين لا يختلف كثيراً عن التعامل مع رجال الصناعة الذين عرفتهم عندما كنت أُجري معهم المفاوضات في شأن عقود الدفاع الجوي. كانوا مفاوضين عنيدين لا يعرفون الهوادة، إلاّ أنهم يلتزمون بتنفيذ بنود العقود بدقة بعد الاتفاق عليها.

أسهمت فرنسا في قوات التحالف بعدد ٥٤ طائرة مقاتلة من نوع جاكوار Jaguar وميراج F-1 وميراج ٢٠٠٠، وبعدد ٦٠ طائرة عمودية هجومية، وبعدد من القطع البحرية، وبفرقة مدرعة خفيفة مجهزة بدبابات AMX-10 RC المدولبة (أي ليست مجنزرة بل تسير على عجلات)، وهي قوة مدرَّبة ذات خفة حركة عالية يفتخر بها كل قائد عسكري. ولم يكن من مهام هذه الفرقة احتلال الدفاعات الثابتة، أو عبور الموانع الكثيفة، أو اختراق المواقع الدفاعية الحصينة المعادية؛ لأنها تتميز بالقدرة على التحرك لمسافات طويلة، وبسرعات عالية، وتُكَلَّف عادة بتوجيه ضربات قوية ومفاجئة إلى أجناب ومؤخرة العدو. ويتلخص شعارها في: «خفة الحركة والمفاجأة». أُسندت قيادة القوات الفرنسية، وقوامها ١٦٥٠٠ جندي في مسرح العمليات، إلى الفريق ميشيل روكجوفر Michel Roquejeoffre، وهو رجل نحيف البنْية، محنك وبالغ الصرامة، حتى إن ضباط أركاني أطلقوا عليه اسم «نابليون الثاني».

شهدتُ، ذات مرة، تدريباً على عملية الاستجابة السريعة، اشتركت فيه عربات مدرعة وطائرات عمودية من أحد ألوية الفرقة الفرنسية، فأُعجبتُ بصلابة الوحدات واستعدادها القتالي كل الإعجاب. وبعد انتهاء التدريب، دُعيتُ إلى تناول وجبة خفيفة مع الضباط الفرنسيين.

وهناك، وسط الغبار وعويل الرياح في الصحراء القاحلة، اصطفَّت لتحيتي ثُلَّة من حرس الشرف بأرديتهم البيضاء وسيوفهم المشرعة، حتى المُضيف، الذي قدم إلينا الشاي، كان يعلق أوسمته الحربية على صدره!

وقبل أن أبدأ سرد بعض التفاصيل عن المصاعب التي وَاجَهْتُها مع الفرنسيين، أعتقد أنه من الضروري إعطاء لمحة عن المواقف السياسية التي اتخذها الفرنسيون إزاء الأزمة. إذ إن تلك المواقف تشكل خلفية للمناقشات التي دارت بيني، من جهة، وبين وزير الدفاع والقادة العسكريين الفرنسيين، من جهة أخرى.

ظلت فرنسا مورد الأسلحة الرئيسي إلى العراق منذ عام ١٩٧٤، وحليفته على مدى ١٦ عاماً قبل غزو الكويت. وكان شيفنمان، وهو عضو يساري متشدد في الحزب الاشتراكي، وعضو قيادي بارز في جمعية الصداقة الفرنسية ـ العراقية، يسعى علناً إلى إسناد دور بارز إلى العراق في الشرق الأوسط. كان يرى في نظام صدام، البعثي العلماني، حاجزاً منيعاً أمام التيار الإسلامي. وليس ثمة ما يدعو

إلى الاستغراب حول العلاقات الفرنسية الوطيدة مع بغداد، إذ أَبْرَمَتْ فرنسا مع العراق عقوداً ضخمة لتزويده بالأسلحة عام ١٩٧٤ ثم في أعوام ١٩٧٧ و ١٩٨٢ و ١٩٨٥ و ١٩٨٧. وعندما وجد العراق نفسه في وضع حرِج أثناء حربه على إيران عام ١٩٨٣، قدّمت فرنسا إلى القوات الجوية العراقية طائرات من نوع Super-Etendard المزوَّدة بصواريخ أكسوست من أسطولها الجوي الخاص. لذلك، كانت العلاقات العراقية ـ الفرنسية الحميمة، التي توطدت على مدى السنين والتي انطوت على عقود بمليارات الدولارات، حقيقة سياسية واضحة في المنطقة. وكانت تلك العلاقة تماثل العلاقات التي تربط بريطانيا بعدد من دول الخليج، أو العلاقة التي تربط المملكة بالولايات المتحدة. وغنيّ عن البيان أننا نرتبط أيضاً مع فرنسا وبريطانيا بعلاقات وثيقة.

ولـمّا كان شيڤنمان متعاطفاً «أيديولوجياً» مع صدام، ومعارضاً للتعاون مع الولايات المتحدة، ولا يُكِنّ محبة كبيرة لقادة دول الخليج، فقد تعذر عليه أن يحذو حذو واشنطن، ويناصب صدام حسين العداء السافر بعد غزوه الكويت. كان ميالاً إلى تبرئة صدام بحجة عدم وجود أدلة كافية ضده. وهذا ما أكده في كتاب له نُشر بعد الأزمة. ذكر في ذلك الكتاب أن الولايات المتحدة ربما تعمدت أن تدفع العراق إلى غزو الكويت بهدف التخلص من صدام حسين؛ لتصورها أنه كان يهدد السوق النفطية، وأمن إسرائيل، واستقرار المنطقة بكاملها. وبعبارة أخرى، كان شيڤنمان يعتقد أن صدام حسين لم يكن معتدياً، بل كان ضحية مؤامرة(*).

ولـمّا كان شيڤنمان مقتنعاً بمثل هذه الآراء، فقد عارض، منذ البداية، القيام بأي عمل هجومي ضد العراق. وظل يضغط من أجْل استمرار المفاوضات مع بغداد حتى اللحظة الأخيرة. وأصرّ على أن يكون الهدف الوحيد من الحرب هو الدفاع عن المملكة. ومع أنه اقتنع، أخيراً، بضرورة تحرير الكويت، إلاّ أنه لم يقبل أن يؤدي ذلك إلى تدمير قدرات العراق العسكرية. وعندما كانت قوات التحالف تضع اللمسات الأخيرة على خطة عمليات عاصفة الصحراء، اعترض شيڤنمان على الحملة الجوية الإستراتيجية المقترحة ضد الأهداف العراقية، وعلى المناورة بالالتفاف من جهة الغرب (المسماة الخطاف الأيسر) التي كانت تهدف

(*) Jean-Pierre Chevènement, *Une certaine idée de la république m'amène à...*, Paris, 1992, p.39.

إلى تطويق فِرَق الحرس الجمهوري العراقي خارج الكويت وتدميرها. وعلى النقيض من ذلك، كان الرئيس الفرنسي ميتران مقتنعاً، منذ البداية، أن الموقف قد يتطلب حلاً عسكرياً. فبعد الغزو بأربعة أيام، كان أول رئيس غربي يعلن أن الأزمة دخلت مرحلة قد تقود إلى حرب «Une logique de guerre» على حد تعبيره. كما أعطى إشارة مماثلة، عندما دفع بحاملة الطائرات كليمنصو Clémenceau إلى المنطقة، وعلى متنها طائرات عمودية هجومية قادرة على إسناد القوات البرية الفرنسية، إذا دعت الضرورة إلى نشرها. كما أن اقتحام العراقيين ونهْبهم مقر إقامة السفير الفرنسي في الكويت في شهر سبتمبر، زادا من تشدُّد موقف الرئيس الفرنسي.

بعد نشْر القوات الفرنسية، ازدادت العلاقة توتراً بين شيفنمان، وزير الدفاع الفرنسي، والرئيس ميتران. كان الوزير حريصاً على ألاّ تتخذ القوات الفرنسية مواقع قريبة من القوات الأمريكية، أو تشترك معها في القواعد الجوية، أو تعتمد عليها. ويُعْزى السبب في ذلك إلى خشيته من أن يتورط الفرنسيون في عمليات هجومية على العراق، من دون موافقة مسبقة من الحكومة الفرنسية. فلم يكن هناك شيء يتعلق بالمشاركة الفرنسية في التحالف يمكن اتخاذه بصورة آلية؛ لأن شيفنمان كان يريد التفاوض تفصيلياً في شأن شروط وبنود كل إجراء مشترك والموافقة عليه مقدماً.

ومنذ بداية الأزمة في شهر أغسطس ١٩٩٠، شَرَعْتُ أجري حواراً طويلاً، صعباً وشاقاً أحياناً، مع كلٍّ من السفير الفرنسي جاك برنيير Jacques Bernière، والملحق العسكري الفرنسي، وضابط برتبة لواء من البعثة العسكرية الفرنسية. وهو الحوار الذي تابعته مع الفريق أول موريس شميت Maurice Schmitt، رئيس هيئة الأركان الفرنسي، ومع الفريق ميشيل روكجوفر لدى وصوله إلى المملكة في ١٩ سبتمبر عام ١٩٩٠ ليتولى قيادة القوات الفرنسية. وبعد ذلك بثلاثة أيام، أي في ٢٢ سبتمبر، التقينا في ينبع، على ساحل البحر الأحمر، لاستقبال طلائع «فرقة داجيه» وبعض أطقم الطائرات العمودية الفرنسية، التي جاءت من حاملة الطائرات كليمنصو، الراسية في البحر الأحمر. [وعلمت، مصادفة، أن كلمة «داجيه» وهو الاسم الكودي (الرمزي) الذي اختير عشوائياً للقوات الفرنسية المشاركة في التحالف، تعني بالفرنسية «الأيِّل» أو «الشادِن» (وهو اسم الغزال الصغير الذي لم تنبت قرونه بعد)].

رافقني الفريق روكجوفر أثناء عودتي جواً إلى الرياض. وحاول، أثناء الرحلة، أن يبرز لي الميزات الخاصة التي تتمتع بها قواته، لا سيما خفة الحركة. كان يعارض أن تحتل قواته مواقع دفاعية ثابتة، ويرغب في أن تُسْتغَل خفة حركتها وقدرتها على المناورة السريعة في توجيه الضربات يميناً ويساراً على جبهة واسعة إلى أي تهديد محتمل. وهي وجهة نظر منطقية؛ لأنها تتفق مع العقائد القتالية لاستخدام الوحدات والتشكيلات المدرعة. كانت فكرته تنطوي على السماح للقوات العراقية، في حال هجومها، بالتقدم إلى داخل المواقع الدفاعية، ثم إيقافها وصدِّها عند خط معين، وتوجيه ضربات مضادة إلى أجنابها ومؤخرتها. وهي أفكار تكتيكية صحيحة، وافقت أفكاري منذ البداية، عندما قررت أن يكون الحد الأمامي للدفاعات عند رأس مشعاب، لجذب القوات العراقية إلى «منطقة قتل»، وتعريضها للقصف الجوي والضربات المضادة.

تركزت المناقشات، التي أجريتها مع الفرنسيين، على عدد من القضايا المتداخلة التي كانت العلاقات القيادية أشدها تعقيداً وأكثرها صعوبة. إذ لم يكن الفرنسيون راغبين في العمل تحت القيادة الأمريكية، خلافاً للبريطانيين. وفي الوقت نفسه، كانوا يعارضون الانضمام إلى المصريين أو السوريين أو المغاربة أو التشيكوسلوڤاكيين أو غيرهم من القوات التي كانت تحت قيادة القوات المشتركة. كانوا يرغبون في إنشاء قيادة مستقلة خاصة بهم على قدم المساواة مع قيادة شوارتزكوف وقيادتي.

أخبرت المبعوثين الفرنسيين أن عليهم الاختيار بين قيادتي أو قيادة شوارتزكوف، مع يقيني أنهم لن يختاروا قيادة شوارتزكوف. وشرحت لهم أننا في حاجة إلى هيكل قيادي واضح لتسيير الأمور في ميدان المعركة وحماية أرواح الجنود. إذ لا يمكننا تعريض حياتهم للخطر بسبب النزاعات حول العلاقات القيادية.

قال لي السفير الفرنسي: «أريدك أن تعرف أن القوات الفرنسية لا تعمل إلاّ تحت سلطة القيادة الوطنية الفرنسية، أي الحكومة الفرنسية». فأجبته قائلاً: «هذا المبدأ ينطبق كذلك على كل القوات الموجودة على أرضنا. على كل حال، ما دامت حكومتكم قد وافقت على مساندة الدفاع عن المملكة، ودخلت قواتكم مسرح العمليات، فقد أصبحتم جزءاً من هيكل القيادة المحلية التي لا شأن لها بالسياسة. وهذا المبدأ لا ينطبق على القوة الفرنسية فحسب، بل على كل القوات التي جاءت لمساندتنا».

ومما زاد الأمر تعقيداً إصرار شيڤنمان على ألاّ تتحرك القوات الفرنسية في المنطقة، من دون الرجوع إليه شخصياً في پاريس. بينما كانت لدى القائد البريطاني السير پيتر دي لابلير الصلاحيات من لندن، ليفوض الأمريكيين السيطرة العملياتية على قواته، إن وجد ذلك ملائماً. أما روكجوفر، فلم يكن يتمتع بمثل تلك الصلاحيات. فكلما طلبنا منه تنفيذ أمر ما، كان عليه الاتصال بقيادته العليا للحصول على موافقتها قبل تلبية طلبنا. وهكذا أخذت الاستفسارات والتعليمات تطير جيئة وذهاباً، مُؤخرةً اتخاذ القرارات.

وبناء على تعليمات من پاريس، أراد روكجوفر أن يضع قيوداً مُحكَمَة على المشاركة الفرنسية. فطلب إلينا أن نُعِدّ ما يشبه العقد ونوقِّعه معاً، محددين فيه مهمة قواته ضمن محددات زمانية ومكانية. وحينئذ فقط، يستطيع أن يضع قواته تحت سيطرتي العملياتية. كما أرادت پاريس أن تحتفظ لنفسها بحق سحب القوة في أي وقت تشاء، إن هي رأت أن العقد قد انتهُك. وبدا كأن الفرنسيين يسعون إلى الاحتفاظ بحقهم في عدم الاشتراك في القتال، فشروطهم هذه توحي بعدم الثقة بنا، فضلاً عن أنها لا تتناسب مع الأحداث الطارئة والسريعة التغير أثناء الحرب. فماذا لو شنّ العراقيون هجوماً علينا؟ فهل يتسع الوقت عندئذ لمناقشة مثل هذه الصغائر الشكلية، والتفاصيل القانونية؟ عند ذلك، اعترضتُ قائلاً: «إنكم تريدون مساندتنا في الدفاع عن أنفسنا، ولكنكم، في الوقت نفسه، غير مستعدين للعمل تحت قيادتنا!».

أخبرت الفريق روكجوفر والسفير الفرنسي أنه لو أصرّ الفرنسيون على أن تكون لهم قيادة مستقلة، فلهم مطلَق الحرية في البقاء خارج مسرح العمليات، وعدم الاشتراك في القتال. لذلك، كانت مسألة القيادة، تابعة أو مستقلة، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمواقع انتشار القوات الفرنسية، داخل مسرح العمليات أو خارجه.

سألني الفرنسيون إن كان في استطاعتهم اتخاذ تبوك قاعدة لفرقتهم، وهي من قواعدنا الرئيسية في الشمال الغربي من المملكة. كانت تبوك، في ذلك الحين، مكتظة؛ لأنني كنت قد خصَّصتها للبريطانيين الذين أبدوا في تلك المرحلة التزاماً بالمشاركة في الصراع أكثر من الفرنسيين. إذ كان البريطانيون يخططون للاشتراك بقوة ضاربة رئيسية من طائرات تورنيدو. وكان الأمريكيون كذلك موجودين في قاعدة الملك فيصل الجوية في المنطقة الشمالية الغربية في تبوك. وأدركت أن المتاعب ستنشأ، لا محالة، إذا انضم الفرنسيون إليهم. وكان في تقديري، أني

إذا وضعتهم بصفة مؤقتة فيها، فإنهم لن يغادروها بسهولة. لذلك، رفضت إرسالهم إلى تبوك. سألوا، بعد ذلك، إن كان في استطاعتهم اتخاذ مدينة «الوجه»، وهي مدينة صغيرة على البحر الأحمر، قاعدة لطائراتهم العمودية، حتى تكون قريبة من حاملة الطائرات كليمنصو. ولكني كنت أرى أنه إذا كانت مهمة هذه الطائرات هي تقديم الإسناد الجوي إلى قواتهم البرية، فمن الأفضل أن تتمركز الطائرات في مواقع أقرب ما تكون إلى جبهة القتال.

كنت أفضّل أن أنشر القوات الفرنسية في منتصف مسرح العمليات، على مقربة من مدينة الملك خالد العسكرية ومن حفر الباطن، حيث وعدتهم بتخصيص منطقة خاصة بهم في قطاع مسؤوليتي، إذا هم وافقوا على العمل تحت قيادتي. لكن رفْضهم لهذا العرض أوصلنا إلى طريق مسدودة.

اقترحت على السفير الفرنسي خلال احتدام المناقشات، على سبيل الدعابة، أن تستخدم القوات الفرنسية ميناء ينبع على البحر الأحمر، وتتخذ منه قاعدة رئيسية لها، إلى أن نتفق فيما بعد على مواقع انتشارهم. ولم يكن لهذا الاقتراح معنى من الناحية العسكرية، فهو مثل قولي لهم: «ابقوا في القاهرة»؛ لأنهم سيكونون بذلك بعيدين عن مسرح العمليات. فما داموا سيبقون خارج هذا المسرح، فإن معضلة التبعية القيادية لن تطفو على السطح.

وكم كانت دهشتي كبيرة حين وافق السفير الفرنسي على اقتراحي، بل تشبَّث به فوراً! ولا عجب في ذلك، فالرجل ليس عسكرياً. وقال: «أجَل، يود الفرنسيون لو اتخذوا من ينبع قاعدة لهم».

وسألته: «هل جئتم لقتال العراقيين، أم جئتم لأسباب سياسية؟».

وطلبت إليه التشاور مع المخططين العسكريين أولاً، إذ سيشرحون له، بالتأكيد، أن القوات الفرنسية لن تستطيع الاشتراك في الحرب وهي متمركزة في ينبع! ولن يكون في الإمكان إسناد أية مهمة قتالية إليها. وفي هذه الحال، سيكون إسهام فرنسا إسهاماً سياسياً فقط. وأكدتُ له أننا، في جميع الأحوال، سنقدم إلى قواته كل ما في وسعنا من مساندة.

أجابني السفير: «إن ما يهمنا الآن هو أن يفهم الآخرون (ولم يحدد من هم أولئك «الآخرون») أن فرنسا ليست بعيدة عن هذه المنطقة، بل لها حضور فيها. فإذا تعرّضت المملكة للهجوم، فسوف نتخذ خطوات أخرى في حينه». قلت له: «أريدك أن تؤكد لحكومتك أنني هنا لتسوية المشاكل، وليس لإثارتها. وأن لديّ

مهمة قتالية محددة يجب إنجازها. فأنا أَعْرِف، وعلى ثقة بأنك تَعْرِف أيضاً، أنه يصعب خوض الحرب بقائدين، فما بالك بثلاثة؟!».

وإزاء هذه المشكلة، ظلت طلائع القوة الفرنسية في ينبع وحدها طوال ستة أسابيع، تنتظر، من دون شك، وصول توجيهات صريحة واضحة من باريس.

حتى شوارتزكوف لم يُخفِ دهشته، وقال: «يا إلهي، لِمَ وافقتَ على تمركزهم في ينبع؟».

فأجبته: «دع الأمر لي، سيكون كل شيء على ما يرام في النهاية».

ومع أن الرأي العام الفرنسي كان يزداد نقمة على العراق، إلاّ أن شيڤنمان لم يكن قد قَرّر بعْد إلى أي مدى ستشارك القوات الفرنسية في الخطط الحربية للتحالف.

استقبلت في ذلك الوقت، أواخر شهر سبتمبر ١٩٩٠، عدداً من أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي برئاسة جان لوكانويه Jean Lecanuet، الذي كان حينذاك رئيساً للجنة الشؤون الخارجية والدفاع والقوات المسلحة في المجلس. وشعرت من أسئلته الدقيقة أنه كان يختبر قدرة المملكة، وقدرتي شخصياً، على قيادة القوات الفرنسية. ونظراً إلى أنني كنت على خلاف مع القائد الفرنسي، فقد بذلت كل ما في وسعي لأكون في غاية الأدب واللباقة مع أعضاء الوفد. وحرصت على تأكيد الأهمية البالغة التي نُعلقها على المشاركة الفرنسية. وأوضحت لهم أن غزو العراق الكويت، لا يهدد المنطقة الشرقية من المملكة وحدها، بل يهدد كذلك جميع دول الخليج، التي يمكن أن تسقط، الواحدة تلو الأخرى، أمام اجتياح صدام.

لم يكن ما ذكرته للوفد الفرنسي عن التهديد العراقي صحيحاً ١٠٠٪، إذ تبيَّن بعد منتصف سپتمبر، أن خطر التعرض لهجوم عراقي، والذي كان شبه مؤكد في البداية، آخذٌ في الانحسار، يوماً بعد يوم، بينما تنمو قوتنا وتزداد صلابة. أكد هذه الحقيقة، علمي أن العراقيين بدأوا زرع الألغام لتحسين دفاعاتهم في الكويت، مما لا يمكن أخذه على أنه من مؤشرات النية على الهجوم. لم أخبر لوكانويه بذلك لئلا يعتقد أن التهديد في طريقه إلى الزوال، وأننا لم نَعُد في حاجة إلى القوات الفرنسية. وعلى كل حال، حتى لو كنّا في مأمن من الهجوم، فإن مشكلة إخراج العراق من الكويت وتحريرها، كانت لا تزال قائمة.

فضلاً عن ذلك، كان سجل صدام حافلاً بالسوابق، إذ اعتاد على مفاجأتنا

بما يصعب التنبؤ به. فعلى الرغم من ازدياد الدلائل على اتخاذه مواقع دفاعية، لم نستبعد قطّ وقوع هجوم مفاجئ علينا، أو تعرّضنا لهجمات انتحارية من جانبه. ففي حربه على إيران، استطاع استعادة شبه جزيرة «الفاو» حين شَنّ هجوماً مباغتاً على القوات الإيرانية. فبعد أن حَصّن مواقعه، وجعل كل شيء يبدو وكأنه استعدادات دفاعية، دفع قوات الحرس الجمهوري، نسقه الثاني، إلى المعركة في خطة مُحكَمة. فتلك سابقة كان علينا أن نَعِيَهَا وألاّ تغيب عن أذهاننا. وهذا ما أوضحته لأعضاء الوفد الفرنسي الزائر.

وما أن غادر أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي، حتى زارني الفريق أول موريس شميت، رئيس الأركان الفرنسي، وهو رجل طويل القامة أشيب الشعر، يتكلم بهدوء وتؤدة. وبدا لي أن المداولات الفرنسية الداخلية قد توصلت إلى حل، إذ أخبرني أن فرنسا مستعدة لوضع فرقتها المدرعة الخفيفة في مكان صحراوي شمال طريق التابلاين، على مسافة ٧٠ كيلومتراً من مدينة الملك خالد العسكرية، في مسرح عمليات قيادة القوات المشتركة، أي تحت قيادتي. وبذلك انتهى النزاع.

وصلتْ إلى ميناء ينبع، بعد فترة من الزمن، بقيةُ الفرقة الفرنسية مع كامل العتاد والمؤن. وانتقَلَتْ مسافة ١٥٠٠ كيلومتر عبر الصحراء إلى موقعها بالقرب من مدينة الملك خالد العسكرية، وكانت تتلقى منّا كل مساندة خلال رحلتها إلى مواقع انتشارها.

كان العثور على مكان يصلح قاعدة للطائرات المقاتلة الفرنسية مشكلة أكثر صعوبة. اقترحنا، أول الأمر، أن ترابط تلك الطائرات في قاعدة الملك عبدالعزيز الجوية في الشرقية، وهي قاعدة مجهزة تجهيزاً حديثاً، وكنّا على استعداد لتخصيص مكانٍ لها إلى جانب الطائرات الأمريكية. وعلمنا أن الرئيس ميتران لم يبدِ معارضة في شأن مرابطة القوات الجوية الفرنسية في الظهران. لكن شيفنمان، وللأسباب التي ذكرتها آنفاً، كان لا يريد وضع الطائرات الفرنسية إلى جوار الطائرات الأمريكية. وبعد بحث طويل، خصَّصنا لها مطاراً مدنياً صغيراً في الأحساء، شرقي الرياض وجنوبي الظهران. كان في المطار برج للمراقبة، لكن المَدْرَج لم يكن بالطول الكافي، كما لم يكن هناك عدد كافٍ من الممرات الجانبية للطائرات، أو أماكن لوقوفها، إلاّ أننا استطعنا، بسرعة فائقة وكلفة باهظة، تحويل المطار إلى قاعدة عسكرية كاملة التجهيز. وكان الفرنسيون قد أحضروا معهم دفاعاتهم الجوية، وأجهزة الرادار، والتجهيزات الأساسية العسكرية

للمطارات التي كانوا في حاجة إليها، إضافة إلى المهندسين والفنيين والذخائر. ودفعنا تكاليف ذلك كله. ولكن الفرنسيين أضحوا سعداء بهذه الترتيبات وبتخصيص هذا المطار لهم وحدهم. وبدأوا بإشراك طائراتهم في «دوريات جوية مقاتلة» مع السعوديين والأمريكيين، وأيضاً في التدريب على الحملة الجوية.

ومما أذكره أن الفرنسيين أرادوا تطبيق قواعد الاشتباك الجوي الخاصة بهم. كما كان مفهومهم عن «الإسناد الجوي القريب» يختلف عن مفهوم الأمريكيين له. وكتبوا إليّ مرتين بصفة رسمية، يطلبون استخدام قواتهم الجوية بصورة مستقلة لإسناد قواتهم والدفاع عنها. وأرسلت الرد مرتين، بصفة رسمية كذلك، إلى الفريق أول شميت، أطالبه باستخدام «قواعد الاشتباك» نفسها ومفهوم «الإسناد الجوي القريب» الذي تستعمله بقية القوات الجوية في التحالف. لكن الفرنسيين لم يرحِّبوا بذلك إذ لم يكونوا معتادين على صيغة «أوامر العمليات اليومية» الأمريكية ATO.

كان علينا أن نوضح للفرنسيين أننا نسعى إلى ضمان السلامة العملياتية، من خلال توحيد إجراءات الدفاع الجوي، لمنع حدوث خسائر بسبب نيران القوات الصديقة، نظراً إلى أن العراق يستخدم النوع نفسه من طائرات ميراج F-1 الفرنسية الصنع. واستغرق ترتيب هذه الأمور أسابيع عدة، إلى أن تم، أخيراً، إلحاق أطقم «سيطرة جوية تكتيكية» أمريكية على الوحدات الفرنسية.

وما أن ذُلِّلَتْ هذه الصعاب كلها، حتى أبدى الفرنسيون استعدادهم الكامل للتعاون معنا. وثبت أن الفريق روكجوفر قائد ممتاز، وكان يزورني دوماً ولا يدَّخر وسعاً في إطلاعي على كل ما يجري بوضوح تام. وهذا ما درجنا عليه في مرحلة درع الصحراء، إلى أن انتقلت الفرقة الفرنسية إلى السيطرة العملياتية لشوارتزكوف استعداداً لعملية عاصفة الصحراء.

سبق لي أن قرأت عن الصعاب التي واجهها وينستون تشرشل Winston Churchill، زعيم بريطانيا، في تعامله مع الجنرال ديجول de Gaulle، زعيم فرنسا الحرة، أثناء الحرب العالمية الثانية. وكنت أدرك وضع فرنسا المستقل داخل منظمة حلف شمال الأطلسي، لكن القراءة عن هذه الأمور أو مشاهدة فيلم سينمائي عنها شيء، وأن تلمسها بنفسك شيء آخر!

فمتاعبي مع الفرنسيين لم تقف عند ذلك الحدّ. إذ وقعت حوادث مزعجة عدة، أخذتْ مني الكثير من الوقت. فذات مرة، تم الإبلاغ عن اختفاء جندي فرنسي في ينبع، وظن الفرنسيون أنه ربما اختطفته عناصر مناهضة للحرب. أمرت بالبحث عنه على الفور، وبعد فترة قصيرة، عُثِر على الجندي المفقود مختبئاً في أحد المستودعات. وتبيَّن أنه من مؤيدي حركة دعاة السلام، ولا يريد القتال، فأُعِيدَ إلى فرنسا ليَمْثُل أمام محكمة عسكرية. ومثل هذه الحوادث مألوفة في معظم الجيوش خلال الحروب.

وقعت حادثة أخرى أكثر خطورة في ٢٩ أكتوبر. إذ ضلّت دورية استطلاع فرنسية، مؤلفة من ضابط واثنين من ضباط الصف، طريقها في الصحراء الشمالية، وعبرت الحدود السعودية ـ العراقية، فألقى العراقيون القبض على أفرادها واقتادوهم إلى بغداد. وفي محاولة من جانب العراقيين لخَطْب ود حلفائهم السابقين، اتصلوا (وفي رواية أن صدام حسين نفسه هو الذي اتصل)، بالسفير الفرنسي لإبلاغه بأنهم يحتجزون ثلاثة من رجالهم. وتصرف صدام بدهاء، إذ كان في مقدوره أن يأمر بإعدامهم، فهو لا يقيم وزناً للمواثيق والأعراف الدولية، لكنه اقترح إعادتهم إلى باريس على أمل أن ينجح في شق صفّ التحالف.

لم يكن الفريق روكجوفر يدري أن ثلاثة من رجاله مفقودون، حتى سمع النبأ، بعد يوم تقريباً، من الفريق أول شميت في فرنسا. حضر روكجوفر إلى مكتبي، وأخبرني أن الفريق أول شميت أمره أن يبلغني بالحادث. وفي الواقع، لقد عرفت، بعد ذلك، أنه تلقى تعليمات بالتزام الصمت يوماً آخر، حتى يتسنى للفرنسيين استجواب رجالهم عن الحادث. وشعرت بالغضب لأنني لم أُبَلّغ بالحادث فور علمهم به. ومما أثار سخطي أيضاً، أن الفرنسيين لم ينفذوا تعليماتي الصادرة من قبل، بعدم إرسالهم دوريات الاستطلاع بعيدة المدى.

كنت منشغل الذهن خلال أسابيع عدة سابقة، بالدوريات البعيدة المدى التي كانت تدفعها الفرقة الفرنسية، بقيادة اللواء جان شارل موسكاردس Jean-Charles Mouscardès، إلى الشمال من مراكز حدودنا. كان الفرنسيون يؤكدون أن دوريات استطلاعهم، المدرَّبة تدريباً عالياً، والتي تضم عناصر من الفوج المظلي الثالث عشر، هي متخصصة في جمع المعلومات خلف خطوط العدو. وأضافوا أن أمن قواتهم الخفيفة الحركة يعتمد على الحصول على معلومات استخبارية

كاملة عن الأنساق الثانية والاحتياطيات المعادية في عمق الدفاعات. ولكني كنت قلقاً من احتمال أن تجرَّنا هذه الدوريات المتكررة إلى الحرب دون قصد إن هي تخطت الحدود السعودية، لذلك فرضت حظراً على دفعها. وضاق صدر اللواء موسكاردس بهذا الحظر.

على الرغم من هذا الحظر، خرجت دورية استطلاع مؤلفة من عربتين، ذهبت كل واحدة منهما في اتجاه معين، بعد الاتفاق على مكان للتجمع ثانية بعد ٢٤ ساعة. ولمّا تخلفت إحدى العربتين عن الموعد المحدد، أبلغت المجموعة الأخرى عن الحادث. لكن الرجال الثلاثة كانوا، آنذاك، محتجزين في بغداد.

كنت مهتماً، بطبيعة الحال، بالكيفية التي سيظهر بها هذا الحادث في وسائل الإعلام، لعلمي أن الصحافة ستلتقط مثل هذه القصة بسرعة البرق. لذا، أردت التأكد من أن أي بيان سيصدر عن الحادث يجب أن يكون مُتفَقاً عليه بصورة مشتركة بيننا وبين الفرنسيين. وثارت ثائرتي حين أخبرني روكجوفر أن الحكومة الفرنسية تنوي إصدار بيان منفرد دون الرجوع إلينا. فطالبته بإطلاعي على البيان أولاً، قبل نشره.

وعندما قرأت البيان، وجدته أسوأ بيان صحافي قرأته، على الإطلاق. كان الفرنسيون عازمين على الادعاء بأن العراقيين فتحوا النار على الفرنسيين الثلاثة وأسروهم داخل الأراضي السعودية!

طار صوابي عندئذ، وقلت لروكجوفر رأيي بصراحة في هذا الأمر. وصحت به قائلاً: «أولاً، هذا البيان، قبل كل شي، يشبه إعلاناً للحرب؛ لأنه يشير إلى أن المعارك بيننا وبين العراقيين بدأت فعلاً. ثانياً، ما تعلنونه ليس صحيحاً بتاتاً، بل هو إهانة لقيادتي. فكيف يمكن للعراقيين التسلل إلى أراضي المملكة، وفتح النار، وأسر عدد من الجنود الخاضعين لقيادتي من دون علمي بالأمر؟ إن من يسمع أو يقرأ هذا البيان يستنتج أننا عاجزون عن الدفاع عن أراضينا، وأن قواتنا الساترة وقوات حرس الحدود لا أثر لها ولا فاعلية. وسنبدو في أعين الجميع ضعفاء ومهزومين. إنني آسف. لا يمكنني قبول هذا البيان، ولا بد من تعديله».

أما في باريس، فقد أصرّ شيفنمان، ربما بدافع صداقته السابقة للعراق، على أن الرجال وقعوا في الأسر داخل الأراضي السعودية. وأمر روكجوفر قائلاً: «دع الأمير خالد يفهم أن هذا ما حدث، وليس أي شيء آخر!».

فأجابه «روكجوفر»: «أجل يا سيادة الوزير، ولكننا في السعودية، ولا نستطيع أن نفرض . . .».

وجد روكجوفر نفسه في وضع لا يُحْسد عليه، حائراً بيننا، من جهة، وبين حكومته، من جهة أخرى. كان الرجل في غاية الحرج والضيق. لكن وزير الدفاع الفرنسي لم يتزحزح عن موقفه قِيدَ أنملة. ولم يكن مستعداً للاعتراف أمام الشعب الفرنسي بأن ثلاثة من جنوده ضلوا طريقهم في الصحراء.

وسألته قائلاً: «ما الخطأ في الاعتراف بذلك؟ فحتى البدو الذين يعيشون في الصحراء يضلون طريقهم أحياناً». ومع أنني كنت أرغب في التصريح بحقيقة الأمر، إلاّ أنني كنت أحرص على الاتفاق مع الفرنسيين على صيغة مشتركة، لا تعطي العراقيين أي كسب إعلامي.

وفي وقت متأخر من الليل، وبحضور روكجوفر، قررت الاتصال هاتفياً بالفريق أول شميت في باريس. وكان شيڤنمان موجوداً إلى جانبه. تحدثنا طويلاً، وشرحت لهما كيف أني أرسلت جنودي إلى المنطقة، وشاهدوا بأنفسهم آثار عجلات عربة الدورية وهي تتجه نحو الحدود، وأن هناك علامات بارزة من الرمال تدل على خط الحدود باستثناء ثغرة عرضها ٤٠ كيلومتراً. وفي اعتقادنا أن أولئك الرجال عبروا تلك الثغرة، ظناً منهم أنهم لا يزالون داخل الأراضي السعودية. ولم يكن لديّ أدنى شك في أنهم ضلوا الطريق. لكن شيڤنمان وشميت أصرّا على نشر روايتهما عن هذا الموضوع.

طلبت من الأمير سلطان التدخل، فاتصل بهما ثانية. كما أرسلنا سفيرنا في باريس جميل الحجيلان، وهو من أفضل سفرائنا ومن أصدقائي المقربين، كي يبحث الأمر مع وزارة الخارجية الفرنسية. ولكنه لم يُوفَّق في إحراز أي نجاح. كانت ليلة رهيبة حقاً.

أمضيت وروكجوفر ساعات طويلة، ليلة الثاني من نوفمبر، نحاول صياغة مسودة لبيان مقبول لكلينا. استمرت محاولاتنا إلى ما بعد منتصف الليل، عندما حضر ضابط فرنسي إلى مكتبي ومعه رسالة سلّمها إلينا، جاء فيها أن شيڤنمان تصرف من طرف واحد وأصدر بيانه للصحافة!

عندئذ، نفد صبري وشعرت بالدم يغلي في عروقي، وطلبت تفسيراً لذلك الموقف. اتصلت بالفريق أول شميت هاتفياً. وصمَّمت على اتخاذ موقف متشدِّد، فقلت له: «اسمح لي يا جنرال أن أسألك سؤالاً. في أي جانب تَقِفون؟

هل أنتم أصدقاؤنا أم أعداؤنا؟ هذا ما أريد منكم توضيحه. لِمَ أصدرتم بياناً يشير إلى عدم ثقتكم بجنودنا، وبقيادة القوات المشتركة؟».

وهكذا استمر الخلاف بيننا، بين أخذ و ردّ، مدى أربعة أيام بلياليها، أطلق عليها روكجوفر، فيما بعد، اسم «حرب الأيام الأربعة!».

صدر البيان الفرنسي، ولم يتضمن أن العراقيين فتحوا النار داخل الأراضي السعودية، لكنه ذكر أن دورية عراقية فاجأت رجالهم وأسَرَتهم. ولم يذكر البيان شيئاً عن مكان وقوع الحادث، وهو محور النزاع. أصدرنا نحن، بدورنا، بياناً بثّته وسائل الإعلام السعودية، أوضحنا فيه بجلاء، أن الفرنسيين ضلوا طريقهم في الصحراء داخل الأراضي العراقية، حيث وقعوا في أيدي العراقيين. وكان هناك اختلاف واضح بين البيانين. وكم كانت دهشتي كبيرة لعدم تعليق الأمريكيين أو البريطانيين، أو حتى وسائل الإعلام الفرنسية كثيراً على الموضوع! وهذا ما كنت أتمناه لحرصي على تسوية الأمر.

بعد هذه الحادثة، وإعراباً عن استيائي مما حدث، أصدرت أمراً خطياً بسحب الفرقة الفرنسية إلى جنوب طريق التابلاين، بعيداً عن منطقة الحدود التي كانت مثاراً للخلاف بيننا. ومن الغريب، أنني علمت بعد ذلك أن شيڤنمان، نفسه، كان يرى أن الموقع السابق لقواته قريبٌ من الحدود أكثر مما ينبغي، وأنه طلب من الفريق أول شميت أن يقترح عليّ تحريك الفرقة إلى موقع أقرب لمدينة الملك خالد العسكرية. وهكذا، توافقت توجيهاتي مع ما كانوا يعتزمون المطالبة به. ومن الناحية التكتيكية، أصبحوا في موقع أفضل، يتيح لهم حرية التدخل لتوجيه الضربات يميناً أو يساراً، وفقاً لما تمليه الظروف.

وفي الوقت نفسه، فرضتُ حظراً على دفع دوريات استطلاعهم شمال طريق التابلاين. فأفقدَهم هذا الحظر قدرتهم الاستطلاعية البعيدة المدى. كنت مصمِّماً على التعبير عن استيائي من التصرفات الفرنسية. لذلك، وعلى الرغم من التماساتهم المتكررة، أبقيت الحظر ساري المفعول طوال أسابيع عدة، لأنني أردت تجنب حوادث أخرى من النوع نفسه. ومع أن قرار الحظر اتخِذَ لحمايتهم، إلاّ أنه أزعجهم إلى حدٍّ بعيد. ولكنهم، والحق يقال، أطاعوا الأوامر. ومنذ ذلك الحين، أصبح انضباطهم أشد إحكاماً، وأداؤهم أكثر تميزاً.

وفي ٦ نوڤمبر، أي بعد انتهاء الخلاف بأيام، أعرب الأمير سلطان عن رغبته في زيارة القوات الجوية الفرنسية في مطار الأحساء. كان الفريق روكجوفر

والسفير الفرنسي في استقبال سموه، كما كنت في شرف استقباله بصفتي قائد القوات المشتركة. ألقى الأمير سلطان، في تلك المناسبة، كلمة أثنى فيها على فرنسا بصفتها دولة صديقة هبت إلى مساندتنا. وقال إن أفضل دليل على ذلك هو الصداقة القائمة بين الفريق روكجوفر والفريق خالد. وكانت مبادرة الأمير سلطان تلك مثالاً حياً على موهبة سموه في التوسط في النزاعات وبراعته في حل الخلافات. وهكذا، تحدث القائد وحسم القضية.

لم أواجِه بعد ذلك متاعب تُذكر مع الفرنسيين سوى حادثة واحدة أخرى.

فقبيل عيد الميلاد (الكريسماس) ١٩٩٠، بوقت قصير، تلقيت مكالمة هاتفية من اللواء عبدالرحمن العلكمي، قائد المنطقة الشمالية، يخبرني فيها أن المغنِّي الفرنسي إيدي ميتشل Eddy Mitchell قد وصل للترفيه عن الجنود الفرنسيين، ومعه فرقته الموسيقية وامرأتان. لم أكن قد سمعت بهذا الخبر من قبل، فأصدرت تعليماتي إليه بأن يبقيهم في مبنى الضيافة العسكرية، حيث يُقيمون، حتى أستفسر عن الأمر.

ادّعى الفريق روكجوفر أنه أعلمنا بمقدِمهم قبل شهر، وأنه تلقّى موافقة من أحد ضباط أركاني، الذي اشترط عليه ألاّ تواكب حضورهم ضجة إعلامية. ولكن الفرنسيين لم يبرزوا أية وثيقة تثبت هذا الادعاء، فلا أثر لطلب خطي من جهتهم، ولا لإشعار بالموافقة من جهتنا! وقالوا إن المرأتَيْن المرافقتين للمغنِّي هما زوجته وخبيرة في التجميل. ولكن الشّك ساورنا بأنهما راقصتان. وبما أن المملكة تمنع دخول المغنيات والراقصات إلى أراضيها، أدركت مدى العواقب الوخيمة التي يمكن أن يُسفر عنها هذا الأمر. كان من السهل الوصول إليّ في أي وقت أو في أي مكان، فَلِمَ لم يطرح الفرنسيون هذا الموضوع عليّ في أحد اجتماعاتنا الأسبوعية؟

وصدرت بيانات متناقضة من جميع الأطراف. ولا أُنكر أنني أردت تجنب توتر آخر في العلاقات مع الفرنسيين، ولم أرغب في أن أجعل من المناسبة مشكلة جديدة. ولكني علمت أن إحدى قنوات التليڤزيون الفرنسي، التي كانت تموِّل رحلة إيدي ميتشل، قد خطَّطت لبث حفلته على الهواء مباشرة، وأن

الدعاية لهذه الحفلة ملأت الصحف الفرنسية. وتعجبتُ لهذا الأمر، فهل هذا ما تعهَّد به الفرنسيون بعدم الإعلان عن هذه الزيارة كما يَدّعون؟!

وجدت نفسي مضطراً إلى إبلاغ الأمر إلى الملك والأمير سلطان. فأثار ذلك استياءهما إلى حدٍّ بعيد، وصمما على أن يقدَّم الضابط السعودي الذي أعطى الإذن للفرنسيين بتلك الحفلة، إلى محكمة عسكرية، إن كان ذلك صحيحاً.

كان السماح بإقامة تلك الحفلة أمراً مستحيلاً. لكن إيدي ميتشل وفرقته كانوا موجودين بالفعل في المملكة. إذ وصلوا يوم ٢١ ديسمبر، بهدف إقامة احتفالات عيد الميلاد «لفرقة داجيه» في الصحراء، وللطيارين في الأحساء، وحتى لضباط أركان القيادة الفرنسية في الرياض.

لعل شيڤنمان، وزير الدفاع الفرنسي، بتحريض من الصحافة الفرنسية، أراد أن يتحدّى نُظُم المملكة وقوانينها. اتصل هاتفياً بالفريق روكجوفر وأصدر إليه أمراً قاطعاً بوجوب إحياء إيدي ميتشل لحفلاته الغنائية. ومرة أخرى، وكما حدث في قصة الجنود المفقودين الثلاثة، وجد روكجوفر نفسه في مأزق. وأخبرني، بعد ذلك، أنه كان أمام خيارين، لا ثالث لهما، وكلاهما يؤدي إلى عزْله من القيادة وإعادته إلى فرنسا. فلو عصى أوامر الوزير، لكان عليه مواجهة استدعائه إلى باريس. ولو أنه أطاع وزيره وخالف أحكام البلاد وقوانينها، لأصبح، عندئذ، شخصاً غير مرغوب فيه في المملكة.

وقرر روكجوفر أن يبحث هذا المأزق مع رئيسه المباشر شميت، في باريس. واتصل شميت، بدوره، بالفريق أول بحري جاك لانكساد Jacques Lanxade (رئيس الأركان الحالي) طلباً للمشورة. وكان يعمل في ذلك الوقت في قصر الأليزيه، بصفته كبير المستشارين العسكريين للرئيس ميتران. وبعد مشاورات مع وزارة الخارجية الفرنسية، وُضِعَ الأمر أمام الرئيس ميتران نفسه.

اتخذ الرئيس ميتران قراراً حكيماً حين ألغى قرار وزير دفاعه، وأصدر تعليماته بألاّ يُقدّم إيدي ميتشل أية حفلات في المملكة، ففرنسا لا ترغب في إثارة الخلافات مع المملكة، وعلى المغنّي أن يعود إلى بلاده. وفي تلك الأثناء، كان شيڤنمان على وشك الوصول إلى الرياض، حيث دعاه الأمير سلطان إلى مأدبة غداء ضمن برنامج زيارته. وطُلب منّي أن أنضم إليهما بعد المأدبة لمراجعة الترتيبات الخاصة بالقوات الفرنسية.

وفي الحقيقة، كان شيفنمان في طريقه جواً إلى الرياض، عندما اتخذ الرئيس ميتران قراره بإلغاء حفلة إيدي ميتشل الغنائية. وأغلب الظن أن تعليمات الرئيس الفرنسي وصلته أثناء الرحلة وهو في الجو. كما اتصل الفريق أول شميت، الموجود في باريس، بالفريق روكجوفر في الرياض، وأصدر إليه التعليمات كي يكون في استقبال شيفنمان حين تحط طائرته في مطار الرياض، ليؤكد له توجيهات الرئيس بعدم إقامة حفلات غنائية. ولا بد أن هذا القرار أثار غضبه، إذ قرر بعد وصوله، وبمبادرة فردية منه، ألاّ يحضر مأدبة الغداء التي دعاه إليها الأمير سلطان!

وهكذا توجه شيفنمان من المطار إلى مركز قيادة روكجوفر، بدلاً من قصر الضيافة. وفي تلك الأثناء، أعلن الأمير سلطان عدم رغبته في استقبال شيفنمان على الإطلاق بسبب تصرفه المنافي للياقة والكياسة.

شنّت الصحافة الفرنسية، في ذلك الوقت، حملة شعواء على إلغاء حفلات إيدي ميتشل. وخشية أن تتفاقم الأمور فتصبح أزمة دبلوماسية قد تؤدي بنا إلى أن نخسر الفرنسيين، اتصلت هاتفياً بالأمير سلطان أسأله السماح لي بزيارة شيفنمان في السفارة الفرنسية، في محاولة لتهدئة الأمور. فسمح لي بذلك على مضض. وهكذا، ابتلعت كبريائي وذهبت.

حاولت بكل لباقة، أن أبين لشيفنمان أن لكلٍ منّا في وطنه رأياً عاماً لا بد من مسايرته ومراعاته. لذلك، فمن الأفضل لنا أن نُغلق ملف هذا الحادث، حتى يصبح من تلقاء نفسه نسياً منسياً.

بدا شيفنمان، حتى ذلك الحين، هادئاً ومهذباً. ولكنه فجأة وبإشارة تنمّ على نفاد الصبر، كما لو كان يقول: «إنني اتخذت قراري، فلا تدخلني في متاهات»، قال في تعجب: «لكن الموسيقى ليست حراماً (قالها باللغة العربية). والغناء ليس حراماً، وأنتم تذيعون الموسيقى على شاشة التليفزيون، والمصريون، وهم مسلمون أيضاً، يسمحون بالموسيقى والغناء».

فأجبته: «سيدي الوزير، لا أستطيع الدخول معك في نقاش في ما هو حرام وما هو حلال. فلو كنت ترغب في مناقشة هذا الموضوع بالتفصيل، فعليك البقاء معنا أياماً عدة. أنا نفسي أستمع إلى الموسيقى وأستمتع بها. لكننا، الآن، نُعَرّض عاداتنا وتقاليدنا الوطنية، وبالتالي أمن البلاد للخطر. ولسنا مستعدين للتهاون أو المساومة في هذه المسألة على الإطلاق. وأقول لك، بكل صراحة، إننا لا نريد

أن نكسب الحرب ضد صدام، إن كان ذلك الكسب سيعرض بلادنا للخطر». وأضفت: «إننا واجهنا المشكلة نفسها مع الأمريكيين، الذين أرادوا إرسال بعض النساء مع بوب هوپ للترفيه عن الجنود، لكنهم قدّروا موقفنا وتصرفوا بحكمة».

وقلت له: «إذا أردتم إرسال أحدٍ للترفيه عن الجنود، فليكن. ولكن لا ترسلوا معه فتيات».

وخلال تلك المقابلة، بدا البرود على شيڤنمان. فبذلتُ كل ما في وسعي لأضفي على الجو شيئاً من الدفء، وقلت له لعل كلاً منّا أخطأ، وأبديت أسفي لما حدث. ثم غادرت السفارة، وأنا في غاية الضيق.

بدأت الحملة الجوية في الساعات الأولى من يوم ١٧ يناير. وعلى النقيض مما جاء في بعض التقارير، فقد اشتركت الطائرات الفرنسية في الحملة منذ اليوم الأول، ولكن ضد أهداف عراقية داخل الكويت فقط. وفي مناقشة عن الأزمة، في الجمعية الوطنية الفرنسية، ليلة السادس عشر من الشهر نفسه، أعلن الرئيس ميتران أنه لن يتخذ أي قرار في شأن المشاركة الفرنسية حتى انتهاء هذه المناقشة. على كل حال، علمت أن الفريق أول شميت اتصل هاتفياً بالفريق روكجوفر ليلة ١٦ـ١٧ يناير، وأخبره أن يمضي قُدماً في المشاركة. وكانت طائرات التزوّد بالوقود الفرنسية، في ذلك الوقت، تحلِّق في الجو مستعدة لتزويد طائراتهم المقاتلة التي انطلقت قبيل الفجر. وشنّ الفرنسيون أولى غاراتهم الجوية نحو السابعة صباحاً بالتوقيت المحلي.

وفي يوم ١٩ يناير، عاد شيڤنمان إلى المملكة لمراجعة الموقف مع السلطات السعودية، واجتمع إلى الأمير سلطان. وطغى صوت الحملة الجوية على أصداء حادثة إيدي ميتشل. وزار الوزير الفرنسي أطقم القوة الجوية الفرنسية، لكنه لم يتمكن من زيارة «فرقة داجيه» بسبب عاصفة رملية شديدة هبت على المنطقة. وكم كنت سعيداً لأنني لم أُجبر على رؤيته قبل عودته إلى فرنسا!

عارض شيڤنمان، منذ البداية، شن عمليات هجومية ضد العراق، اعتقاداً منه بأن الخيارات السياسية والدبلوماسية لم تكن قد استُنفدت بعد. وفي اعتقاده كذلك، أن الأمريكيين هم الذين جرّوا فرنسا جراً إلى الحرب، وأنهم كانوا يسعون إلى شنّ الحرب منذ البداية. لكن أفكاره هذه لم يكن لها أساس من الصحة. ويبدو أن شيڤنمان لم يأخذ في الحسبان الخطر الذي كان سيشكله صدام على المنطقة، وعلى مصالح الكثير من دول العالم في المدى البعيد، إذا ما سُمح

له بالاحتفاظ بالكويت كجزء من العراق. ولَمّا أصبح من المتعذر التوفيق بين آراء شيڤنمان وآراء حلفاء فرنسا وآراء زملائه في الحكومة الفرنسية، آثر شيڤنمان الاستقالة، بعد وقت قصير من بدء الحرب. وبذلك، أُزيلت عقبة رئيسية من طريق التعاون بيننا وبين فرنسا. وبعد عشرة أيام من بداية الحملة الجوية، انضمت الطائرات الفرنسية إلى طائرات التحالف، وقصفت أهدافاً داخل العراق نفسه.

حَلّ پيير جوكس Pierre Joxe، وزير الداخلية الفرنسي، محل شيڤنمان وزيراً للدفاع، وزار المملكة يوم ٤ فبراير. ومنذ ذلك الحين، لم نواجِه مشكلة مع الفرنسيين. ولعل الشيء الوحيد الذي أسفت عليه، هو انتقال فرقتهم المدرعة الخفيفة الحركة إلى السيطرة العملياتية للفريق أول شوارتزكوف. ولمّا كنت وشوارتزكوف نعرف قدرات هذه الفرقة، فقد قررنا بعد مزيد من المناقشات أن تُسند إليها مهمة حماية الجناح الغربي لقوات التحالف، أي الحد الأيسر للفيلق الثامن عشر، والاستيلاء على «السلمان»، وهو ملتقى طرق برية وجوية مهم داخل العراق.

ومن المفارقات، أن النتيجة النهائية كانت مختلفة تماماً، بل على نقيض ما كان يتمناه شيڤنمان، الذي لم يكن راغباً في أن تَشُنّ القوات الفرنسية هجوماً داخل العراق، أو أن تختلط بالقوات الأمريكية. ولكن الذي حدث هو أن الفرنسيين هاجموا إلى اليسار من القوات الأمريكية، وكانت القوات الفرنسية بين قوات التحالف الأولى التي دخلت الأراضي العراقية، بل أكثرها توغلاً في العمق العراقي عند اختراقها.

بعد الحرب، تمّت ترقية الفريق روكجوفر ـ القائد العسكري الممتاز والذي أجبرتني الظروف، للأسف، على التصادم معه في مناسبات عدة ـ وعُهد إليه بقيادة قوات الانتشار السريع الفرنسية FAR. وتتكون هذه القوات من ٤٧ ألف جندي تقريباً. واشتركت وحدات منها في عمليات الانتشار في الصومال وكمبوديا ومناطق مختلفة من أفريقيا وفي أراضي يوغوسلاڤيا السابقة. وتقاعد روكجوفر في ديسمبر ١٩٩٣ بعد خدمة عسكرية متميزة.

سافرتُ إلى الولايات المتحدة، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وانتهزتُ تلك الفرصة لزيارة شوارتزكوف وزوجته، اللذين رحّبا بي أشدّ الترحيب. ودعا ابنه وابنتيه لمقابلة القائد الذي خاض معه الحرب. وحَمّلَني شوارتزكوف وعائلته كثيراً من الهدايا لأولادي. وجرياً على عادة القادة العسكريين، تحدثنا عن بعض

التجارب التي خضناها والخبرات التي اكتسبناها خلال تلك الحرب. وتابعنا حديثنا في السيارة ونحن في طريقنا إلى المطار.

سألته: «كيف وجدت الفرنسيين بعد إلحاقهم على الفيلق الثامن عشر؟ هل كنت على وئام معهم؟».

فأجاب: «نعم، كنّا على وئام تام. فلَمْ أواجِه أية مشكلة في التعامل معهم على الإطلاق».

فأجبته مازحاً: «بالطبع، لأنني تلقيت منهم الطلقات كلها».

ولا أعتقد أن هذا التعليق لاقى قبولاً في نفسه.

وغني عن البيان، أنني لم أقصد الإساءة إلى الفرنسيين، فلا أزال أحمل لشجاعتهم وبسالتهم العسكرية كل إعجاب، على الرغم من كل الخلافات التي نشأت بيننا خلال حرب الخليج.

الفصل السابع عشر

الجيوش تسير على بطونها

معركة الإسناد الإداري

خلال المعارك الطاحنة التي دارت في شمالي أفريقيا، بين رومل ومونتجمري، إبّان الحرب العالمية الثانية، قيل إن الصحراء جنة رجل التكتيك وجحيم رجل الإمداد والتموين. جنة رجل التكتيك لأن الصحراء المفتوحة كانت مثالية لمعارك الدبابات الكبرى، التي نشبت بين الفيلق الأفريقي والجيش الثامن. وجحيم رجل الإمداد والتموين لندرة المياه، والشاحنات التي ابتلعتها الرمال، وأرتال الإمدادات، التي كان عليها قطع المسافات الطويلة تحت التهديد المتواصل للقصف الجوي.

أما حرب الخليج، فكانت جنة لرجال التكتيك من قوات التحالف، ولم تكن جحيماً، على الإطلاق، لرجال الإمداد والتموين، بل كانت أيضاً جنةً لهم. فالإمدادات وفيرة، والتموين سخيّ. فهي، بالتأكيد، الحرب الأولى في التاريخ التي لم يفقد الجنود خلالها وجبة طعام واحدة! أما العدو فقد ثَبت عدم فعاليته، وعدم قدرته على مجابهة قوة التحالف الهائلة، إلى درجة أن الحرب تحولت، في النهاية، كما لو كانت تدريباً عملياً أكثر منها حرباً حقيقية. وثمة صورة نُشِرَت في بعض الصحف تُعَبّر عن هذا المعنى أصدق تعبير، إذ يظهر فيها جندي أمريكي، في غاية السعادة، يصب زجاجة مياه معدنية في جوف بعير يشاركه تلك السعادة أيضاً.

وما كانت الوفرة والدّعة لِتَتَحقَّقا، لولا الجهود الجبارة التي بذلتها الدولة المضيفة، المملكة العربية السعودية، في ميدان الإمداد والتموين. فلم نكتفِ

بتعبئة كل مواردنا من القطاعين العام والخاص فقط، بل قمنا كذلك بسداد قيمة كل ما لم نستطع توفيره بأنفسنا.

كانت نفقات الإعاشة(*) والوقود باهظة. فبناء على تعليمات خادم الحرمين الشريفين الملك فهد، قدّمتْ المملكة، الطعام على نفقتها لأكثر من ٧٥٠ ألف جندي. وكانت القوات الأمريكية، وحدها، تتزوَّد، يومياً، بمليوني جالون من مياه الشرب. كما بلغت كمية الوقود التي استهلكها الفيلقان الأمريكيان، يومياً، نحو ٤,٥ ملايين من الجالونات، أي ما يعادل حمولة ٨٥٠ صهريجاً. ويقول الفريق ويليام جَسْ پاجونيس William Gus Pagonis، رئيس الإمداد والتموين الأمريكي، الذي عَمِلَ بالتعاون مع نظيره السعودي العميد عبدالعزيز الحسين: «كان من الممكن أن نواجِه وضعاً في غاية الصعوبة، لو أن البلد المضيف كان فقيراً، أو معادياً، أو كليهما معاً(**)».

يتميز جَسْ پاجونيس، وهو يوناني الأصل، بطاقة تتفجر حيوية ونشاطاً. وكثيراً ما كنت أروي عنه قصصاً طريفة خلال الأزمة. فإذا ذُكِر اسم الرئيس بوش أو الفريق أول شوارتزكوف أمامي، فإن ذلك كان يعني أن التحالف في أحسن حالاته، وأن جميع الأمور تسير على ما يرام. لكن ذِكْر اسم پاجونيس كان كافياً لإثارة قلقي، لأن اسمه يعني أن ثمة «فاتورة» بملايين الدولارات في طريقها إليّ. ففي كل مرة ورد فيها اسمه، تكلفت المملكة أموالاً طائلة. وإحقاقاً للحق، فإن پاجونيس كان إدارياً موهوباً، وقد تمت ترقيته إلى رتبة فريق، أثناء وجوده في المملكة، تقديراً لكفاءته وجدارته.

ولكن پاجونيس، بدأ أولى خطواته العملية معنا بخطوة غير موفقة. إذ لم يمضِ على وصوله إلى المملكة وقتٌ طويلٌ، حتى أصدر أمراً إلى مرؤوسيه بمصادرة كل ما يرونه مفيداً للمجهود الحربي، بما في ذلك الشاحنات التجارية والسيارات والمعدات وما شابه ذلك. أبلغني اللواء صالح المُحيا، قائد المنطقة الشرقية، بذلك الأمر وأرسل إليّ نسخة منه، وصلتني عندما كنت وشوارتزكوف في غرفة الحرب. فأثَرت الموضوع معه، وأنا في شدة الاستياء من هذا التصرف، وأطلعته على الأمر الذي أصدره پاجونيس. وأخبرته أن هذا الإجراء مرفوض

(*) الإعاشة: هي الصنف الأول من أصناف التموين، وتشمل: الخبز واللحوم والفواكه والخضروات والبيض والأرز والسكر... إلخ من المواد الغذائية الأخرى.

(**) Lieutenant General William G. Pagonis, *Moving Mountains*, Harvard, 1992, p. 205.

تماماً، فالمملكة ليست بلداً محتلاً! وطلبت منه التصرف الفوري. ولكي يهدّئ ثائرتي ويخفّف حدّة غضبي، بادر شوارتزكوف إلى الاتصال بپاجونيس ووبّخه قائلاً: «جَسْ، ترقيتك في الطريق، فلا توقفها»! ألغى پاجونيس الأمر الذي أصدره، وقدّم اعتذاره، على الفور إلى صالح المحيا.

يتقاسم پاجونيس الفضل في نجاح عمليات الإمداد والتموين، مع فريق من المتخصصين، بقيادة العميد عبدالعزيز الحسين، المسؤول عن الإمداد والتموين للقوات الغربية، والعميد سالم عويمر، المسؤول عن تلبية احتياجات القوات السعودية والقوات العربية والإسلامية الأخرى. فالجهود التي بذلها هذان الضابطان السعوديان تستحق كل التقدير. بدأنا بوحدة إسناد قوامها ستة ضباط تحت إدارة العميد سالم عويمر، وانتهينا بهيكل إمداد وتموين قوامه ١٣٠ ضابطاً، تم اختيارهم من جميع فروع القوات المسلحة السعودية. وكم تطلب منهم ضغط العمل مواصلة الليل بالنهار دون أن يهنأوا بقسط من النوم أو الراحة! ولعل الجهد الذي بذلوه في تلك السنة يفوق كل ما بذلوه من جهود طوال خدمتهم العسكرية، وهذا الأمر ينطبق عليّ أنا الآخر بكل تأكيد.

أستطيع القول، بكل تواضع، إنه لولا جهود المملكة، لكانت حرب الخليج أمراً مستحيلاً، أو على الأقل لواجهت صعوبات جَمّة. إذ كان على الحلفاء الغربيين بناء محطات للطاقة، ومحطات لتحلية المياه، وقواعد جوية، وآلاف من المستلزمات الأخرى. فلكي تحصل قوات الحلفاء على احتياجاتها من الوقود، كان عليها تعبئة أساطيل العالم من الناقلات. ولكنها استطاعت بفضل المَرافق الممتازة في موانئنا، في الجبيل وينبع، وفي الدمام وجدّة، تفريغ حمولة خمس عشرة سفينة كل يوم، حَامِلَةً الجنود الأمريكيين وعتادهم، فضلاً عن السفن الكثيرة التي قَدِمت من دول أخرى. وهذا رقم قياسي يعجز عن تحمّله حتى أكثر البلدان الصناعية تقدماً. ولولا الموارد المحلية الهائلة، والبنْية الأساسية الكاملة للمملكة، لكان الأمر جحيماً لرجال الإمداد والتموين، ولَتَعَرّض جنود التحالف للموت عطشاً في الصحراء. ولعله لم يسبق لدولة مضيفة في العالم أن قدَّمت مثل هذه المساندة الهائلة غير المحدودة، لقوات أجنبية حُشِدَت في زمن قياسي، تقاتل على أرضها.

ربما قال بعضهم إن المملكة تحملت العبء الأكبر من نفقات الإمداد والتموين، بدافع من مصلحتها الذاتية؛ لأنه لا توجد دولة أكثر منها حرصاً على نجاح التحالف. وربما كان ذلك صحيحاً، على الرغم من أن كل عضو في

التحالف، بما في ذلك الولايات المتحدة، تصرف بدافع من مصلحته الذاتية. إلاّ أن هذا القول يغفِل أمراً مهمّاً، وهو أن كرم الضيافة من شيم العرب، وهو ما نفخر به.

وما من قائد عسكري إلاّ ويدرك أن الجيش لا يمكن أن يقاتل دون إمدادات تصله بالقدر المناسب، وفي الوقت والمكان المحددين أيضاً. لذلك، فقد أكدت حرب الخليج أهمية الإسناد الإداري، فكانت، حقاً، حرب رجال «الإمداد والتموين»، خاصة إذا عرفنا أن عملية «درع الصحراء» استغرقت ستة أشهر، ودامت الحملة الجوية لعملية «عاصفة الصحراء» ٣٨ يوماً، بينما استغرقت حربها البرية ١٠٠ ساعة. أما عملية «وداع الصحراء»، وهي عملية مغادرة القوات الشقيقة والصديقة للمملكة، فاستغرقت فترة من سبعة إلى ثمانية أشهر. وهكذا، نرى أن بضعة أسابيع من القتال تطلبت جهود سنة ونيف من رجال الإمداد والتموين.

عندما أقلب صفحات مذكرتي، أجد في يوم ٧ سبتمبر ١٩٩٠ أن الفريق يوساك جاء مسرعاً لمقابلتي، إذ كان يتوقع وصول ١٥ ألف جندي خلال ٤٨ ساعة، ويحتاج إلى تأمين أماكن لإيوائهم وتجهيز الخدمات الأخرى لهم. كان علينا إقامة مركز تجمع للقوات القادمة قبل تحركها إلى أماكن انتشارها في الميدان. ولحسن الحظ، كانت لدينا مدينة عسكرية جديدة لم تُشْغل بعد أن تم إنشاؤها في «أم الساهك»، لقوات الدفاع الجوي، في المنطقة الشرقية. فأصدرت تعليماتي على الفور بتأجيل انتقال وحدات الدفاع الجوي إليها، وخصَّصتها لاستيعاب القوات الأمريكية القادمة.

كان من المقرر أيضاً أن يتدفق إلى المملكة، في الستة الأشهر التالية، عبر مطاراتها وموانئها، أكثر من نصف مليون جندي. ولو لم تكن للمملكة خبرة كافية بالتعامل مع أكثر من مليون حاج يؤمونها سنوياً من جميع أصقاع العالم، فضلاً عن مئات الآلاف من السعوديين الذين يؤدون فريضة الحج في الوقت نفسه ـ لَمَا تمكنت من استيعاب مثل هذه الأعداد الغفيرة من القوات بيُسْرٍ وسهولة. فقد أضحت القدرة على إعاشة ونقل وإيواء أعداد هائلة من الزائرين والوافدين، سمة من سمات المملكة تنفرد بها دون سائر دول العالم.

منذ اللحظة التي رست فيها أول سفينة، وهبطت فيها أول طائرة، كان علينا تأمين الإسناد الكامل من إعاشة ومياه ووقود ونقل وإسكان. ولم يقف الأمر عند توفير الموارد فقط، بل تعداه إلى ضرورة وجود الرجال الأكْفاء الذين يديرون هذه الموارد، مثل العقيد خلف مرزوق الشَمّري الذي استقبل الفرقة ٨٢ المحمولة جواً في الظهران، وسهّل مهمتها بشتى الطرق، واستمر في تنسيق تقديم الإسناد اللازم للقوات الأمريكية المتدفقة إلى المنطقة الشرقية خلال الأزمة. وفي الوقت نفسه، كنّا نجاهد لحل مشكلة تأمين السكن لنحو ٣٦٠ ألف كويتي لجأوا إلى المملكة بعد الغزو العراقي. كانت، حقاً، أوقاتاً عصيبة، وكافية لإجهاد موارد أية دولة واستنزافها. ولكن من حسن الحظ، أن في المملكة مجمعات سكنية ضخمة، أنشئت في السبعينات وبداية الثمانينات، ولم تكن قد شُغلت بعد، فتم تخصيصها لإسكان الكويتيين والقوات الأمريكية.

وفي غضون الثلاثة الأشهر الأولى من الأزمة، أي من أغسطس وحتى أكتوبر ١٩٩٠، شَغَلت مهام الإمداد والتموين جزءاً كبيراً من وقتي. وكان من واجبي أن أتابع هذه الأمور عن كثب؛ لأنها واحدة من مسؤولياتي الرئيسية. كنت أطالب بإيجاز (تقرير) عن موقف الإمدادات والتموين مرة كل يوم، وأحياناً مرتين. وقد فَوّض الملكُ فهد الأميرَ سلطان صلاحيات مالية واسعة لشراء كل ما هو ضروري لعملية الإسناد التي التزمنا بها. وفوّضني الأمير سلطان، بدوره، بعضاً من هذه الصلاحيات. لذا، كان لزاماً عَليّ أن أرفع إلى سموه التقارير بانتظام عن الوضع المالي. كما فوضّني صلاحية الرقابة على الأموال التي وُزِّعتْ، من خلال عدد من اللجان، على أكثر من ٦٠٠ متعهد ومقاول رئيسي أو فرعي (من الباطن) كلهم من السعوديين. وأسندتُ رئاسة هذه اللجان إلى مديرِي الإمدادت والتموين. ومن أجْل تحقيق الدقة المتناهية والرقابة الكاملة على صرف هذه الاعتمادات المالية، كَلّفتُ علي الحديثي، المدير العام للإدارة العامة للشؤون المالية والإدارية في قوات الدفاع الجوي، بالإشراف والتدقيق والمراجعة.

ولإحكام الرقابة على تدفق الإمدادات، والمورّدين لها، أنشأنا نظاماً يشمل عمليات الشراء المباشرة، والمناقصات السريعة والفورية، وتقديم العروض، وعمليات استئجار العربات والمعدات، وعمليات أخرى كثيرة. وتوخياً للعدل والإنصاف في إرساء العقود على المتقدمين من جهة، والكفاءة والفاعلية من جهة أخرى، تبنّى العميد عويمر نظاماً يختلف، نوعاً ما، عن نظام المنافسة المألوف في تقديم العروض. فقد سُمح لكل المتقدمين بالجلوس معه ومع ضباط أركانه،

في وقت واحد، ليتمّ فضّ العروض أمامهم جميعاً. ولم يكن إرساء العقد كاملاً، بالضرورة، من نصيب من يتقدم بأدنى سعر للعرض. فلكي تعمّ الفائدة وتجنباً لأي تلاعب أو تقصير، كان العميد عويمر يُجَزّئ العقود بين عدد من المتقدمين، بشرط أن يُبدوا استعدادهم لقبول السعر الأدنى المطروح، مع الالتزام بالمواصفات التي حدّدتها قيادة القوات المشتركة. فإذا رفضوا، أُعْطِيَ العقد، حينئذ، كاملاً لصاحب العرض الأدنى سعراً.

بذل العميد عويمر جهداً فائقاً للتحقق من أن الأسعار المحلية، التي يتقدَّم بها المقاولون والمتعهدون، تتناسب مع الأسعار العالمية. فعلى سبيل المثال، ذهب إلى پاكستان بنفسه لشراء عدد كبير من الخيام التي احتجنا إليها، كما أرسل بعضَ ضباط الإمدادات والتموين إلى الولايات المتحدة لشراء خزانات وقود مطاطية، لأن أسعار هذه السلعة هناك كانت أقل بكثير من أسعارها في المملكة.

وكما أسلفت، فقد كنت أعمل تحت إمرة الملك فهد والأمير سلطان، وأرفع إليهما تقارير منتظمة للحصول على موافقتهما. كنت في مركز يؤهلني للاتصال بأي وزير من الوزراء أو بأي مسؤول في الدولة، للتعجيل في بتّ المسائل المعروضة والالتزامات الطارئة، وللإسراع في التنفيذ. فعُرف عني أسلوبي في اختصار الطرق واتباع أقصرها. فوجدت، مثلاً، أن مكالمة هاتفية مع سلطات الموانئ أو الهيئة الملكية للجبيل وينبع، يمكن أن تصنع المعجزات. وما كنت لأستطيع أن أؤدي مهمتي دون مساندة مختلف الهيئات والمصالح الحكومية وتعاونها.

أيقنت وشوارتزكوف، بصرف النظر عن مشكلة نشْر القوات المقاتلة في الميدان بأسرع وقت ممكن للتصدي لأي هجوم عراقي محتمل، أن التحدي الحقيقي هو القدرة على استمرار تقديم الإسناد إلى هذه القوات خلال مدة الحملة كلها. وهنا كان يَكْمن دور المسؤولين عن الإمداد والتموين. كنت أعلم أن شوارتزكوف يجتمع إلى پاجونيس أكثر بكثير من اجتماعاته إلى بقية قادة التشكيلات الرئيسية الأمريكية. اعتقد شوارتزكوف، في بادئ الأمر، أنه في حاجة إلى إمدادات وتموين تكفي قواته مدة ٣٠ يوماً فقط. ولكن، مع اقتراب موعد الحرب، تضاعفت المدة إلى ٦٠ يوماً. ومن الواضح، أن أحداً لم يتوقع انهيار العراقيين بهذه السرعة. ولم يكن شوارتزكوف، وهو قائد شديد الحذر، راغباً في أن يُفَاجَأ أثناء القتال بنقص في الإمداد والتموين.

عندما أسترجع الوقائع والأحداث الآن، أستطيع أن أقول إن شوارتزكوف اتخذ قرارين تسبَّبا بضغط شديد على مواردنا ونُظُم الإمداد والتموين لدينا. ربما كان لهما مبررات كافية آنذاك، ولكنهما أصبحا محلاً للتساؤل فيما بعد.

أما القرار الأول، فهو الإسراع بإرسال الوحدات الأمريكية إلى المملكة دون وحدات إسناد كافية، مما اضطرنا إلى تأمين الإسناد لها في الأشهر الأولى من الأزمة. ففضلاً عن الإعاشة والمياه والثلج والوقود، كانت هذه القوات في حاجة إلى مأوى ومعدات للطبخ ومَرافق صحية ووحدات تنقية المياه واتصالات هاتفية وحافلات وشاحنات وناقلات ثقيلة ومَرافق تخزين، والمساندة من العمالة المدنية مثل السائقين، وعمال الشحن والتفريغ، وكل ما اعتادوا على وجوده في المعسكرات الدائمة. ولَمّا لم يتقدم صدام على طول الساحل، عقب الأسابيع القليلة الأولى بعد غزوه الكويت، تبيّن بوضوح أنه يفتقر إلى الإرادة أو الوسائل لاستغلال نجاحه الأولي. ففي أواخر أغسطس، كان في قدرة القوات الجوية لدول التحالف أن تلحِق أضراراً بالغة بخطوط إمداداته لو حاول ذلك. وأمام هذه المعطيات، بدا أن قرار شوارتزكوف بإعطاء الأولوية، خلال أسابيع عدة، لنشر الوحدات المقاتلة وتأجيل نشر وحدات الإسناد، هو مفرط في الحذر، ولا شك أنه شكّل ضغطاً هائلاً على ميزانيتنا ومواردنا المادية.

أما قراره الثاني، الذي اتخذه في مرحلة متأخرة من الأزمة حين كانت الاستعدادات للحرب جارية على قدم وساق، فهو تخزين احتياجات تكفي ٦٠ يوماً بدلاً من ٣٠. فهذا القرار أضاف أعباء هائلة على وحدات الإمداد والتموين، وكلّفنا مليارات الدولارات. ومرة أخرى، يشير هذا القرار إلى حذر مفرط نتيجة لخطأ في التقديرات الاستخبارية عن قوة العراق وقدرته على الصمود أمام الحملة الجوية الإستراتيجية.

كان من واجباتي أيضاً، كما ذكرت من قبل، أن أكون حلقة الاتصال الوحيدة بين قوات التحالف والحكومة السعودية. فإذا لم يكن المسؤول معروفاً، ولم تكن الصلاحيات والمسؤوليات واضحة، فإن أي عمل مهْما كان حجمه، لن يؤدي إلى النتيجة المرجوة، ولن يصل إلى المستوى المنشود. كان لزاماً عَليّ أن أضع نظاماً يُمَكِّن ضباط الإمدادات والتموين الأمريكيين النهِمين، أن يعملوا من خلاله مع نظرائهم من الضباط السعوديين بشكل وثيق، لتسهيل إمداد القوات وتموينها والاستفادة من الموارد المتاحة في المملكة. وسارت الأمور على ما يرام، على

الرغم من ظهور بعض التوتر بين حين وآخر، ولا غرابة في ذلك، بالنظر إلى الجهود الجبارة التي بذلت، والمبالغ الهائلة التي أُنفقت.

كنّا نفتقر، في بادئ الأمر، إلى تنظيم للإمداد والتموين يكون قادراً على الاضطلاع بالمتطلبات الضرورية لعملية بهذا الحجم. ولعل عدداً قليلاً من دول العالم كانت تتوافر لديها مثل هذه القدرات! لذلك وجب علينا إقامة هذا التنظيم بدءاً من الصفر. وكم كانت الدول الصديقة عوناً لنا في هذا الصدد! وكم رحّبنا بمساندتها! فَقَدِمَتْ كتيبتان مصريتان، تضم كل منهما ٥٠٠ رجل، لمساندتنا في إدارة نقاط الإمداد والتموين المتقدمة في النعيرية والقيصومة. كانت لهم خبرة وبراعة في نقل الذخائر والوقود وتداولهما، كما حصلنا على خدمات سريتيْ إسناد من بنجلاديش اتخذتا من الدمام مقراً لهما. وتقاضى المصريون والبنجلاديشيون رواتب، كما لو كانوا سعوديين.

أدى اختلاف اللغات بين قوات الدول المتحالفة إلى صعوبات تعوق الاتصال بينها، إذ لم يكن كل سعودي في جهاز الإمداد والتموين يتكلم الإنجليزية، ناهيك من الفرنسية. ومن جهة أخرى، كان الجنود المتمركزون في قلب الصحراء على مسافة مئات الكيلومترات، يتوقعون الحصول على كل ما يريدون في أقصر وقت ممكن، غير مكترثين للمسافات الطويلة التي تقطعها شاحنات التموين للوصول إليهم. فلو طلب أحد ضباط التحالف ألف خيمة، مثلاً، فإنه يتوقع أن تصله في اليوم التالي مباشرة! وعندما طلب أحد ضباط التحالف، في مرحلة لاحقة من الأزمة، المئات من أجهزة الراديو والتليفزيون لقواته، هبّ بعض ضباط أركاني على الفور في حملة للبحث عن هذه الأجهزة في الأسواق المحلية.

تعهَّد الملك فهد، في أوائل شهر سبتمبر ١٩٩٠، للأمريكيين أن تُقَدم المملكة للقوات الأمريكية، على أراضي المملكة، كل ما تحتاج إليه من إعاشة، ووقود، ومياه، وإسكان، ووسائل نقل محلية، وتسهيلات ضرورية أخرى، دون أن تتحمل الولايات المتحدة أية نفقات في هذا الصدد. ولم يرسل الأمريكيون، فريقاً للتباحث معنا حول كيفية صياغة تعهُّد الملك في «اتفاقية مساندة تقدمها الدولة المضيفة» تُبْرَمُ بين المملكة والولايات المتحدة، إلاّ في ١٧ أكتوبر. استمرت المباحثات شهراً، إلى أن تم التوقيع على الاتفاقية في منتصف نوفمبر،

على أن يسري تنفيذها بأثر رجعي من بداية انتشار القوات الأمريكية. أُطلق على الاتفاقية «خطة تنفيذ الإسناد الإداري لقوات الولايات المتحدة المدافعة عن المملكة العربية السعودية».

ومع تقدم المباحثات، ازداد شوارتزكوف ضجراً وجزعاً. كان قلقاً ألاّ يكون لكلمتنا قوة الاتفاق المكتوب. وفي كتابه «It Doesn't Take a Hero» يفتعل ضجة ليس لها ما يبررها، حين يشكو من أنه كان تحت قيادته جنود يجب إطعامهم، وإمدادات يجب نقلها، دون أن يعرف من أين ستأتي الاعتمادات اللازمة لذلك. وينقل ما ذكره اللواء دين ستارلينج Dane Starling، مدير الإمداد والتموين في القوات الأمريكية، حين قال: «للمرة المائة، لم يسدِّد السعوديون الفواتير التي قدمناها إليهم». ويُستشَف من هذه الرواية أن السعوديين أشحاء في دفع الفواتير! ومثل هذا التعليق يثير الدهشة والتعجب، خاصة إذا صدر في حق دولة من أكثر الدول سخاءً في العالم، وعلى لسان قائد عسكري أصبحت مهمته، في حرب الخليج، أيسر وأسهل، إلى أقصى حدٍّ ممكن، بفضل الكرم السعودي الذي عَزّ أن يوجد له مثيل!

ويعزى السبب الرئيسي في تأخير توقيع اتفاقية «مساندة تقدمها الدولة المضيفة» إلى أنّ المبلغ الذي طالبتنا به الولايات المتحدة، وهو ٢,٦ مليارات من الدولارات، كان مُبالَغاً فيه إلى حدٍّ كبير. لذلك، اقترحت أن يشكل الطرفان لجنة مشتركة للبحث في تفاصيله. وتبين، فيما بعد، أن وزارة الدفاع الأمريكية حاولت تضخيم المبلغ بزيادة ١,٩ مليار من الدولارات ليشمل النفقات التي تكبدها «البنتاجون»، الخاصة بنقل الجنود والعتاد جواً وبحراً إلى المملكة، وهذه النفقات لا تدخل، بداهة، ضمن ما تعهَّد به الملك فهد. فالملك وافق على تغطية نفقات النقل الأمريكي، والنفقات الأخرى داخل المملكة فقط. وعلى الرغم من ادعاء شوارتزكوف بأن لا علاقة له بالمسائل المالية، فقد دأب على إرسال ضباطه للمطالبة بهذا المبلغ كل يوم تقريباً. وأذكر، مع ذلك، قوله إنه أشار على وزارة الدفاع بألاّ تضخم «الفاتورة». ولكنه أضاف أن الوزارة رَدّت عليه بما يُفْهم منه: «دعنا نجرب، فإذا نجحنا كان هذا من حظنا، وإلاّ فيمكننا إعادة النظر في المبلغ المطلوب».

وبالفعل، أعادوا النظر في المبلغ المطلوب. وبفضل يقظة ضباط أركاني، تم تصحيح الخطأ، وَوُقّعت الاتفاقية في منتصف نوفمبر. ومنذ ذلك الحين، وافقنا

على تسديد الفواتير الجديدة تباعاً. لكن، من الواضح أن شوارتزكوف ظل على شكوكه وعدم اقتناعه! إذ كتب يقول: «كان اطمئناني أشبه بالاطمئنان الذي يحس به المرء حين تخبره بأن الشيك في طريقه إليه بالبريد(*)».

ومن حسن الحظ، أني تمكنت من التخفيف من قلقه حين سلّمته شيكاً من وزارة المالية بمبلغ ٧٦٠ مليوناً من الدولارات، لتسديد نفقات الحكومة الأمريكية في المملكة خلال المدة من أغسطس إلى أكتوبر ١٩٩٠.

وفي الثلاثة الأشهر الأولى، كانت الحكومة الأمريكية ممثلة في الفريق پاجونيس تنفق الأموال دون حساب، بحجة إعاشة قواتها وتأمين إسكانها وتنقلاتها. ولَمّا كنّا نحن الذين نسدّد الفواتير، كان پاجونيس يطلب كل شيء، ولا يسأل عن سعر أي شيء. وقيل إن پاجونيس كان يطلب دوماً أكثر مما يحتاج إليه، وهذا بلا شك تكتيك جيد في المفاوضات. كان دائماً يريد المزيد من هذا وذاك، لا سيما حين أدرك الوفرة التي تنعم بها المملكة. ويا لسعادة المقاولين والمتعهدين المحليين بتوريد كل طلبات الأمريكيين! كانت لهم ـ أعني المقاولين ـ فرصة العمر التي لا تعوض.

عانينا، في البداية، بعض المتاعب مع پاجونيس، حين أراد التعامل مع المُوَرِّدين السعوديين مباشرة، غير عابئ بالسعر المقدم. لكننا قررنا، بعد ذلك، أن تنحصر مهمته في اختيار ما يريد من السلع، بينما تتولى وحدة المساندة، في قيادة القوات المشتركة، التفاوض مع المقاولين والمتعهدين المحليين، إذ إنها الأكثر قدرة على التفاوض معهم. فنحن نعرف البلد، ونعرف كيف نحرر العقود، ونستطيع الحصول على أسعار أفضل منه بكثير. وفي آخر الأمر، وبعد قليل من المشاورات، تولت وحدة المساندة مسؤولية المفاوضات الخاصة بالعقود وإدارتها، اعتباراً من الأول من نوفمبر ١٩٩٠، واستطعنا تخفيض الأسعار مع الجهات المورِّدة تخفيضاً جوهرياً.

ومنذ ذلك الحين، أصبح الإجراء المتبع هو أن يقدم پاجونيس كشفاً بما يحتاج إليه. ثم يراجع ما يقدمه أصحاب العروض من المقاولين والمتعهدين السعوديين، الذين كان يبلغ عددهم أحياناً أكثر من اثني عشر من المتنافسين، ليختار من بينهم اثنين أو ثلاثة، ممن يرى أن في استطاعتهم تنفيذ المهمة

(*) Norman Schwarzkopf, op. cit., p. 365.

المطلوبة. ثم يتولى ضباط الإمداد والتموين، بعد ذلك، مهمة التفاوض على الأسعار وتحديد المقاول أو المتعهد الذي ترسو عليه المناقصة. وعندئذ فقط، نسدد قيمة «الفاتورة». وكانت قيمة توريد الأغذية، أو نفقات النقل، تدفع إلى المتعهدين على أساس شهري، أما في حالة توريد المعدات فكان الدفع يتم عند الاستلام.

وأذكر هنا، تسجيلاً للحقائق، أن نفقات إسناد القوات العسكرية الصديقة في المملكة، خلال مراحل الأزمة، بلغت نحو عشرة مليارات من الدولارات. إضافة إلى مبلغ ١٤ ملياراً من الدولارات دفعتها وزارة المالية السعودية، في شكل مساهمة مباشرة، إلى وزارة الخزانة الأمريكية، فضلاً عن ثلاثة مليارات ونصف المليار من الدولارات دُفعت مباشرة إلى وزارات المالية لدول أخرى قَدِمت لمساندتنا، مثل بريطانيا وفرنسا ومصر وسوريا والمغرب والسنغال والنيجر وبقية الدول الأخرى. ولا تشمل هذه المبالغ النفقات الإضافية التي دفعتها الوزارات والهيئات الحكومية السعودية الأخرى في ما له علاقة بالمجهود الحربي.

كان أمام المملكة، لتوفير احتياجات قوات التحالف من المؤن، بديلان:

أولهما، اتخاذ خادم الحرمين الشريفين، نظراً إلى أن البلاد كانت تواجه حالة طوارئ وطنية لم يسبق لها مثيل، قراراً بمصادرة المباني، والعربات، والمعدات الهندسية، والمواد الغذائية، وغيرها من الاحتياجات لمصلحة المجهود الحربي، كما فعلت ذلك دول كثيرة حين واجهت ظروفاً مماثلةً.

أما البديل الثاني، فكان إتاحة الفرصة للقطاع الخاص السعودي للاشتراك في توريد متطلبات التحالف على أسس تجارية.

وبإحساس واعٍ وبصيرة مُلهَمة تستحق الإعجاب، اختار الملك فهد البديل الثاني فحقق الانتعاش للاقتصاد السعودي، الذي كان يعاني الركود قبل الحرب. وبذلك، ازدهرت مئات الأعمال التجارية، كما استفاد كثير من المورِّدين الأجانب، لا سيما أولئك الذين كانت لهم علاقات سابقة مع المستوردين السعوديين.

وحرصتُ كل الحرص، على عدم تفضيل أي متعهد أو مقاول على الآخرين. وكنت أرى ضرورة إتاحة الفرصة أمام كل من له القدرة على المساهمة في المجهود الحربي. فكانت العقود الضخمة الخاصة بتوريد أصناف كالملابس العسكرية وشباك التمويه، مثلاً، توزع على الشركات بدلاً من أن تستأثر بها شركة

واحدة أو مورِّد واحد. وكنت أقول لضباط الإمدادات والتموين: «أريد أن أرى في القائمة أسماء متعهدين مختلفين، واسماء شركات مختلفة. لا أريد أن أرى الأشخاص أنفسهم، ولا الشركات نفسها. ينبغي أن نعطي الجميع فرصاً متساوية». وبهذا النهج التعاوني، استطعنا توفير فرص الاستثمار لأكبر عدد من الشركات والمؤسسات. كما كان في وسع حلفائنا الاعتماد على المؤسسات الكبيرة والمميزة المملوكة للقطاع الخاص. ونظراً إلى كثرة عدد المساهمين السعوديين في الشركات العامة، بذلنا جهداً خاصاً لتشغيل تلك الشركات العاملة في ميادين النقل البري والبحري، وفي تأجير العربات وصيانتها.

تمّت تعبئة قطاع الأعمال السعودي كله لمجابهة تلك الظروف الطارئة، واشتركت في هذا المجهود وزارات كثيرة معنية، مثل التجارة والمواصلات والبترول والثروة المعدنية والصحة. . . وغيرها. وقد عمل ممثلون لتلك الوزارات بتعاون وثيق مع فريق الإمداد والتموين.

وقد دُهش الجميع حين اكتشفوا أن القطاع الخاص السعودي كان قادراً على تقديم كل متطلبات المجهود الحربي من شاحنات وحافلات وجرافات ومساكن وأغذية ووقود. فالمملكة اليوم واحدة من أكبر الدول الصناعية في المنطقة، وإن كان الرأي العام، المحلي أو العربي، ما زال يجهل هذه الحقيقة.

اتبعتُ سياسة ذات شقين في إنفاق ميزانية المشتريات، دعم المجهود الحربي من جهة، وضخ الأموال في الاقتصاد السعودي من جهة أخرى. فقبل الأزمة، كان هناك نحو ٤٠٠ شركة سعودية تعاني مصاعب مالية. ولحسن الحظ، جاء قرار خادم الحرمين الشريفين بإسناد كثير من الأعمال إلى الشركات السعودية ليقلب الصورة رأساً على عقب. فحظيت ٥٩٢ شركة سعودية بعقود لمصلحة المجهود الحربي، فضلاً عن آلاف الأفراد من المواطنين السعوديين الذين حققوا مكاسب مادية من تأجير منازلهم وسياراتهم ومعداتهم الأخرى التي كنّا في حاجة إليها. وأبدى الملك حرصه الشديد على إنعاش الاقتصاد، وحشْد الطاقات للمجهود الحربي. ونجحنا في كلتا المهمتين. كان شعاري الحزم والمرونة. ووجدت أن هذا الشعار يحقق الكثير، وخصوصاً عندما كان يتعين عليّ التأكد من تحقيق مصالح الجميع، وأن الكل يعملون معاً يداً واحدة.

أخذ منّا موضوع الإمداد بالمياه كل اهتمام، إذ استخدمنا أكثر من ٣٠٠٠ صهريج لنقل مياه الشرب من محطات تحلية المياه الضخمة في الجبيل والخُبَر ومن أماكن أخرى. وتُعَدّ محطات تحلية المياه في المملكة الأفضل تقنية والأكبر سعة من نوعها في العالم. ففي عام ١٩٧٠، كانت طاقة محطاتنا لا تتجاوز خمسة ملايين جالون في اليوم، وزادت عام ١٩٩٠ إلى أكثر من ٥٠٠ مليون جالون. وتقع أكبر هذه المحطات، والتي تصل طاقتها إلى ٢٤٠ مليون جالون، في الجبيل، وهي مدينة صناعية حديثة على ساحل الخليج. لم يقتصر الأمر على وجود كميات من المياه تكفي احتياجات كل فرد خلال الأزمة فحسب، بل كانت كذلك معبّأة في خزانات مطاطية لتسهيل عملية توزيعها على مئات الآلاف من الجنود في الميدان، كما تحافظ على برودتها لساعات عدة . تعاقدنا كذلك مع مصانع عِدة لتعبئة المياه، وحفرنا عدداً من الآبار في أماكن مختلفة من الصحراء، وأقمنا محطات تحلية صغيرة فوق فوهات الآبار مباشرة. كما زوَّدْنا الكثير من الوحدات في الميدان بمكائن لصناعة الثلج، وخصَّصنا أكثر من عشر شاحنات تبريد لكل وحدة في حجم كتيبة، لضمان إمدادها المستمر بالأطعمة الطازجة والمياه الباردة.

وفي السادس من أغسطس، وقبل تعييني قائداً للقوات المشتركة ومسرح العمليات، اتصل اللواء عبدالعزيز آل الشيخ، نائب قائد القوات البرية وقتئذ بالمؤسسة العربية للتموين والتجارة (أسترا)، وهي من كبرى شركات إنتاج الأغذية في المملكة، وما برحت المورِّد الرئيسي إلى القوات البرية السعودية منذ عام ١٩٦٧ . قال اللواء عبدالعزيز للشركة: «نريد وجبات ساخنة لعدد من الزائرين المتوقَّع وصولهم إلى الظهران خلال ٤٨ ساعة. فهل تستطيعون تجهيزها؟».

قامت أسترا على الفور بتشغيل سلسلة من المطاعم للوجبات السريعة في المنطقة الشرقية، وبدأت بتقديم وجبات الهمبرجر الساخنة إلى جنود الفرقة ٨٢ المحمولة جواً حين نزولهم مباشرة من الطائرة. ونجحت أسترا في عملها نجاحاً كبيراً، حتى إن اللواء عبدالعزيز آل الشيخ أرسى عليها عقداً على نفقة الحكومة السعودية، لتموين القوات الأمريكية القادمة.

كان ذلك هو الوضع الذي وجدته سارياً حين توليت قيادة القوات المشتركة. فقبل نشوب الأزمة، تولت شركة أسترا توريد الإعاشة وتقديم خدمات الطعام إلى القوات البرية، أمّا قوات الدفاع الجوي فتعاقدت مع متعهد آخر لتقديم خدمات

الطعام، أفضل من أسترا، من وجهة نظري. وفي حقيقة الأمر، لم أشعر بالارتياح في البداية، حين علمت أن أسترا ستصبح المتعهد الرئيسي. ولكني وافقت على استمرارها في العمل، لأنها كانت الشركة الوحيدة القادرة على تقديم الكمية المطلوبة من جهة، ولحرصي الشديد على استمرار تدفق المؤن، من جهة أخرى. وعلى الرغم من الشك السابق في قدرتها، فإن أداء أسترا لمهمتها على الوجه المطلوب، جعلني أوصي بمنح رئيس مجلس إدارتها وساماً تقديرياً.

لكنني أصدرت تعليماتي إلى الشركة بتوزيع العمل على أكبر عدد من المتعهدين السعوديين الفرعيين (من الباطن) في جميع أنحاء المملكة. وفي ضوء هذه التعليمات، أعاد مدير الإمداد والتموين التفاوض على العقود مع شركة أسترا. وفي النهاية، اشتركت أكثر من ١٢٥ شركة سعودية في توريد الأغذية إلى قوات التحالف.

تبيَّن لي أن المملكة تنعَم بأعداد كبيرة من مورّدي المواد الغذائية أكثر مما كنت أتوقع. كانت هناك كميات وفيرة من اللحوم والخبز وغيرهما من أصناف الطعام الأخرى، إضافة إلى كميات فائضة من العصير. لم تكن مصانع العصير تنتج في السابق سوى ٢٠٪ من طاقتها، لكنها بعد وصول الجنود، بدأت تعمل بطاقتها الكاملة، وينطبق ذلك أيضاً على مصانع الحليب. وبصورة عامة، كانت التسهيلات هائلة، واستطاع كل متعهد فرعي (من الباطن) أن يفي بالتزاماته.

وتولّت المطابخ المتنقلة كذلك، وهي من صنع «الشركة الوطنية للصناعات المعدنية المحدودة» في المملكة، تقديم الوجبات السريعة إلى الجنود المنتشرين في المواقع النائية المنعزلة. أما الجنود في الخطوط المتقدمة، فكانوا يُعِدّون طعامهم على مئات من المواقد الغازية الضخمة التي أُمّنت لهم. فضلاً عن الكميات الهائلة من الأطعمة الطازجة (الإعاشة الطازجة) التي وُزِّعت على المواقع الأمامية حتى أن معظم الوجبات الجاهزة (الإعاشة المعلّبة) لم تستهلك. كما اشترينا كذلك الملايين من وجبات الطوارئ (إعاشة الطوارئ)، وقمنا بتوزيعها خشية من أن تمنع ظروف الحرب توزيع الأطعمة الطازجة. وقد أُعِدّت وجبات الطوارئ تلك وغُلِّفَتْ محلياً ، وكانت بمثابة قوة دافعة للصناعة الوطنية. وكنّا نحرص على أن تحتوي الوجبة مواد غذائية منتجة محلياً، مثل التمور والبسكويت. ولم يتوقع جنود قوات التحالف كل هذا الاهتمام، ولكن السخاء في رعايتهم بلغ ذلك الحدّ. وهذا ما جعل تلك الحرب من أكثر الحروب ترفاً على الإطلاق.

ظننا، في البداية، أننا سنعاني نقصاً في المواد الغذائية، وأننا سنضطر إلى طلب المساعدة من وزارة التجارة والغرف التجارية. كانت لدينا خطة للطوارئ من أجْل تقنين بعض المواد، ولكننا لم نضطر إلى تطبيقها. فظلت لدينا كميات وفيرة من كل شيء مثل: الدقيق والسكر والأرز والمكرونة واللحوم والخضروات والفواكه الطازجة وقوارير المياه وعصير الفواكه وغير ذلك. وتبيَّن لنا أن قطاع الأعمال السعودي جاهز لمواجهة الطوارئ، وأن طاقته الإنتاجية والاستيرادية فاقت ما كنّا نحتاج إليه. وقام هذا القطاع بتخزين كميات من كل الأصناف تكفي سنة كاملة دون الحاجة إلى التعويض من الخارج. وفي كثير من الحالات، وَجَدَتْ القوات التي جاءت لمساندتنا أن المملكة تنعَم بإمدادات أكثر سخاءً وأكثر وفرة مما في بلادها. وكان هذا الأمر حقيقة ثابتة لبعض المواد حتى عندما تُقارَن مع الولايات المتحدة، ناهيك من دول العالم الثالث. كان الطعام في الميدان أفضل وأشهى بكثير مما يُقدَّم في معظم المطاعم.

ومما ساعد على هذا الأمر، دون شك، أن تدفق العدد الهائل من القوات لم يكن كثيفاً إلاّ في شهري نوڤمبر وديسمبر، مما أتاح للمتعهدين والمقاولين الوقت الكافي لاتخاذ الترتيبات اللازمة. فجاءت العملية سلسة وُزِّعَت فيها إمدادات الخطوط، الأول والثاني والثالث على كافة المناطق دون استثناء. ولم يمضِ يوم واحد دون أن تقدِّم المملكة إلى القوات كل احتياجاتها من الخبز المحلي الطازج والحليب والعصير. وكانت اللحوم وصلصة الطماطم «الكتشاب» من المواد الغذائية الأساسية المستوردة من أستراليا ونيوزيلندا وإيرلندا والبرازيل. ولم تشعر أية قوة من القوات التي جاءت لمساندتنا بالقلق في شأن الإمدادات والتموين، فالمؤن كانت تصل إلى الخطوط الأمامية بسهولة ويسر حتى يتسنى لكل فرد الحصول على ما يريد. كما ألحقنا شاحنات التموين التابعة لنا على مختلف الوحدات، دفعنا بكميات كبيرة من مواد الإعاشة إلى الأمام، حتى إن جزءاً منها أُعيد إلى الخلف ثانيةً، عندما تحررت دولة الكويت، بعد حرب برية قصيرة. وقد خَزّن بعض المورِّدين كميات كبيرة زادت على الحاجة، من مواد بعضها سريع التلف كاللحوم، وُزِّعت بعد ذلك على البلدان التي كانت في حاجة إليها. فالهدْي والأضاحي والنُسك التي تُنحر في موسم الحج أكسبتنا خبرة واسعة بإعداد كميات كبيرة من هذه اللحوم وتوزيعها.

حققت عمليات تموين القوات، أثناء أزمة الخليج، نجاحاً إدارياً باهراً. فبإصرارنا على تجنيد جيش من المتعهدين الفرعيين (من الباطن) نجحنا في توزيع

الأرباح والمسؤوليات. كما استطعنا، في الوقت نفسه، أن نظهر لزوارنا وللمواطنين السعوديين، أنفسهم، مدى التقدم الزراعي والصناعي الذي بَلَغَتْه المملكة في السنوات الأخيرة.

وإلى جانب متعهدِي التموين الذين أدوا واجبهم على الوجه الأكمل، فإننا لا ننسى، أيضاً، فضل المسؤولين عن إدارة وتشغيل الصناعات النفطية في المملكة، بدءاً بمديرِي الإنتاج والتكرير، وانتهاءً بعمال الإنتاج في حقول النفط وسائقي الناقلات (الصهاريج).

كانت المملكة هي المصدر الأول للوقود لقوات التحالف. ولولا الملايين من جالونات الوقود التي وفرتها للقوات، لظلت الكويت ترزح تحت الاحتلال، ولبقيت جيوش التحالف في معسكراتها أو في الموانئ والمطارات التي وصلت إليها، ولظلت الطائرات جاثمة على الأرض. وعلى الرغم من أن القوات الأمريكية شحنت معها بعض الوقود من الولايات المتحدة ومن أماكن أخرى، فالحقيقة التي لا مراء فيها، هي أنه لولا الإسهام الهائل الذي قدمتْه المملكة، لأصبحت هذه الحرب ضرباً من المستحيل، أو على الأقل لَمَا كانت حرباً في هذا المستوى.

إضافة إلى ما ذكرته من قبل، كنت أتلقى إيجازاً يومياً من فريق الإمداد والتموين عن الصورة الكاملة لمسرح العمليات، شمالاً وشرقاً على حدٍّ سواء. وكان يُقَدّم إليّ، في الوقت نفسه، تقرير يومي منفصل عن موقف الوقود. ولَمّا كان الوقود يمثِّل مشكلة كبرى لها أهمية خاصة، أنشأت «مركز عمليات الوقود»، لمراقبة توافر كافة أنواع الوقود، يوماً بيوم وساعة بساعة، ومتابعة خط سير إمدادات النفط عبر البحار، وتوزيع هذه الإمدادات.

ضم «مركز عمليات الوقود» مُمَثِّلينَ للقوات المسلحة السعودية، ووزارة البترول والثروة المعدنية، وشركة أرامكو السعودية (شركة إنتاج النفط السعودية)، وشركة سمارك(*) (شركة تكرير النفط وتسويقه). كما ضم المركز ممثِّلين للقوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية وكان هؤلاء الثلاثة، يقدِّمون إلينا بياناً

(*) انتقلت ملكيتها إلى شركة الزيت العربية السعودية في يوليه ١٩٩٣.

باحتياجاتهم اليومية من الوقود، فنقارنها بما هو متوافر لدينا. وكانت خطة عملنا تقوم على تحديد مخزوننا من الوقود، والكمية التي استهلكت في اليوم السابق، والكمية المطلوبة في اليوم التالي، والكمية التي سنحتاج إليها على مدى الأسبوع، والخمسة الأسابيع، والعشرة الأسابيع، والخمسة عشر أسبوعاً التالية.

طرحتُ على المخطِّطين «سيناريو» متشائماً، افترضت فيه أن العدو هاجم اثنتين من مصافينا النفطية الأربع، وألحَق بهما أضراراً بالغة أوقفتهما عن العمل، أو أنهما تعرضتا لأعمال إرهابية، فكيف نتصرف عندئذ؟ صحيح أن قوات الدفاع الجوي تتولى حماية مصافي النفط وجميع المنشآت الحيوية من الهجمات الجوية، وقوات الحرس الوطني السعودي تحميها من العمليات الإرهابية، لكن يجب علينا أن نُدخل في حسابنا احتمال تعرضها للهجوم وإصابتها بأضرار (فخلال الحملة الجوية الإستراتيجية، أطلق العراقيون صواريخ فْرُوجْ Frog على مصافي النفط السعودية، ولكنها لم تُلحِق بها أية أضرار). وبدراسة مثل هذا «السيناريو» المتشائم، واجهتنا مفارقة واضحة مؤداها أن المملكة الغنية بالنفط، قد تُضطر إلى شراء وقود من الخارج! وأن توفير إمكانات احتياطية منه يكلفنا مبالغ طائلة، ولكنه إجراء وقائي كان علينا أن نتخذه لمواجهة أسوأ الاحتمالات. وبالفعل، اشترينا منتجات بترولية ـ وقوداً للمحركات النفاثة على وجه التحديد ـ بما قيمته ٧٠٠ مليون من الدولارات، وقمنا بتخزينه في البحر، فضلاً عن زيادة الطاقة الإنتاجية لمصافينا من الأنواع المختلفة من الوقود. كنّا قلقين أيضاً من أنه إذا طال أمد الحرب، فقد تصبح المملكة غير قادرة على الوفاء باحتياجات قوات التحالف من الوقود. كنت أنتقد شوارتزكوف لمبالغته في تقدير احتياجات قواته، ولكني ربما ارتكبت الخطأ نفسه.

ولمّا كان استمرار تزويد قوات التحالف بالوقود من مسؤوليتنا، ولكي نضمن التدفق المستمر للوقود إلى مستودعات التخزين، تعاقدنا مع شركات أمريكية لمد خط أنابيب بطول ٢٠٠ كيلومتر من مصفاة السفانية إلى مطار الملك فهد بن عبدالعزيز في شمالي الظهران، وخط أنابيب آخر من السفانية إلى المستودعات في القيصومة بطول يزيد على ٥٠٠ كيلومتر. كما كانت أساطيل من الصهاريج (أكثر من ٢٥٠٠ صهريج)، تنقل الوقود يومياً من مصافينا في رأس تنورة والرياض وجدّة وينبع والجبيل، إلى نقاط الوقود المتقدمة، والموزعة على طول طرق الإمداد، حيث أُقيمت خزانات تتراوح سعتها بين ١٠ آلاف و ٢٥٠ ألف جالون.

أما نقل الوقود إلى الوحدات الأمامية في مختلف مناطق القتال، فكان من مسؤولية الوحدات المختلفة لقوات التحالف. ولم يتطلب الأمر من السائقين أكثر من ملء خزاناتهم بالوقود ثم الانطلاق عائدين إلى وحداتهم. أنشأنا، إضافة إلى ذلك، حقولاً من خزانات الوقود يحتوي كل منها ٢٠٠ ـ ٣٠٠ خزان، لتزويد الوحدات بما تحتاج إليه من الوقود. وبلغت النفقات الإجمالية للوقود الذي زوَّدنا به قوات التحالف ١,٩ ملياراً من الدولارات!

ولا أريد أن أُطيل على القارئ بسرد المنجزات التي حققتها المملكة في إقامة بنْية أساسية حديثة، فمن دون هذه المَرافق من مطارات وموانئ وطرق واتصالات وما شابه ذلك، لواجهت التحالفَ مصاعب جسيمة، ربما كان التغلب عليها مستحيلاً. أدت مطاراتنا الرئيسية الواحد والعشرون دوراً أساسياً لا غنىً عنه في استقبال آلاف الطائرات التابعة لقوات التحالف. كما أنشئ عدد كبير من المهابط الإضافية في المنطقة الشرقية، وفي مدينة الملك خالد العسكرية، وفي أماكن أخرى. كما أضيفت مدارج جديدة، وعُدّلت أطوال بعض المدارج القديمة في المطارات، لتصبح صالحة لاستقبال طائرات النقل العملاقة C-5. كما أدت موانئنا السبعة الرئيسية دوراً حيوياً منذ بدء الغزو حتى مغادرة القوات. ولا بد من توجيه الشكر إلى المقدم علي الشعيبي، ضابط الارتباط في الموانئ، لتفانيه في عمله وإخلاصه طوال الأزمة.

شحن الأمريكيون الكثير من عتادهم إلى ميناء الملك عبدالعزيز في الدمام، وهو من أحدث الموانئ في العالم تقنية وتجهيزاً، فَشَغَلُوا ثلاثة أرباع مراسيه التسعة والثلاثين، ولم يتركوا من المراسي سوى العشرة الأولى منها للحركة التجارية! وبلغ عدد السفن التي كانت تصل كل يوم محملة بالعربات والعتاد الحربي ١٥ سفينة. أما الجنود، فكان يتم نقلهم جواً إلى قاعدة الملك عبدالعزيز الجوية في الشرقية أو مطار الملك فهد، الذي تم استكمال بنائه، بمنشآته الرائعة الممتازة، شمالي الظهران. ثم ينقلون من المطارات إلى الموانئ، بالعربات لاستلام عتادهم ومعداتهم. وكانوا يقضون هناك نحو يومين قبل التحرك إلى مناطق انتشارهم. وفي بادئ الأمر، كانت القوات الأمريكية القادمة تضطر إلى النوم في مخازن البضائع، ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، إذ تسلّمت بعد

فترة قصيرة مجمعاً سكنياً جديداً في الدمام، كان قد أُعد لإيواء ٣٥٠٠ من عمال تحميل السفن وتفريغها.

أحضر الأمريكيون معهم بعض معدات التحميل والتفريغ، لتوقعهم حدوث بعض الصعاب في عملية تفريغ إمداداتهم، ولكنهم لم يُضطروا إلى استخدامها قط. وقد تم تفريغ ٢٨ ألف حاوية خلال الأزمة بكل يسر وسهولة، يضاف إليها ١١٤ ألف عربة ذات عجلات، و١٢ ألف دبابة وعربة مجنزرة (ناقلات جنود مدرعة)، و١٥٠٠ طائرة عمودية و٣٦٠ ألف طن من الذخيرة. وتم تعيين ضابط سعودي في الدمام بصورة مستديمة، ليتولى تنسيق إجراءات الإفراج الجمركي عن العتاد والمعدات من الميناء. وكانت القوافل تغادر الميناء بمعدل قافلة كل خمس عشرة دقيقة، وكان في وسع من ينظر من طائرة عمودية أن يرى خطوطاً طويلة من الشاحنات لا نهاية لها على مدى البصر. كذلك، استخدم الخط الحديدي بين الظهران والرياض لنقل القوات والمعدات للتخفيف من الضغط على الطرقات المتجهة شمالاً.

وفي البداية، وصل مشاة البحرية الأمريكية إلى ميناء الجبيل التجاري، وعلى مضض منهم شاركتهم الميناء الفرقة المدرعة البريطانية عند وصولها بعد ذلك (اضطررنا إلى التدخل لدى الفريق والتر بومر Walter Boomer، قائد مشاة البحرية، لكي يفسح المجال أمام البريطانيين لإنزال دباباتهم وعرباتهم المدرعة). وتم تسليم البريطانيين ثمانية أو تسعة مبانٍ سكنية جديدة لإيواء جنودهم القادمين إلى المملكة. كما أُغلق ميناء الجبيل التجاري تماماً أمام الحركة التجارية. أما ميناء الجبيل الصناعي، الذي يحتوي شبكة معقدة من الأنابيب المخصَّصة لنقل المواد البتروكيماوية، فقد افتُرض أنه غير صالح للاستخدام العسكري.

وفي الطرف الآخر من الجزيرة على ساحل البحر الأحمر، وصل الفرنسيون إلى ميناء ينبع الصناعي، بينما وصل المصريون والسوريون إلى ميناء ينبع التجاري. واستخدمنا ميناء القضيمة، وهو ميناء عسكري صغير بالقرب من جدّة، ربما لا يعرفه الكثيرون، مَرْفِقاً احتياطياً. كانت موانئ البحر الأحمر تحت سيطرتي أثناء مشروع الصواريخ الصينية، حين لجأنا إلى الخداع تفادياً لاكتشاف سلاحنا الجديد. وفي تلك الفترة، أُتيحت لي فرصة التعرف بهذه الموانئ وبالمسؤولين عنها، وأفادتني هذه المعرفة كثيراً خلال أزمة الخليج.

وعند التخطيط لإنشاء هذه الموانئ في جدّة والدمام والجبيل وينبع، حَرِصَتْ المملكة على توفير الأموال والأماكن، وكذلك سُبل الحصول على التقنية الحديثة اللازمة لبناء مرافق في المستوى العالمي. وسوف تبقى هذه المرافق صالحة حتى القرن القادم؛ لأنها موانئ ضخمة وجيدة التصميم، ولن تصل إلى حد التشبع، مهْما تضاعفت حركة التجارة والشركات، ولن تصبح عتيقة الطراز لعقود عدة قادمة. وقد أثبتت هذه الموانئ فائدتها العظمى خلال الأزمة.

ولعل أكبر عقبة واجهتنا في إسناد قوات التحالف، تمثلت في نقص وسائل النقل. إذ لم يجلب أي طرف من أطراف التحالف معه ما يكفي من العربات، حتى إن بعض القوات لم تحضِر معها عربة واحدة. ومن دون إمكانات المملكة ومساندتها، لتعذَّر نقل الرجال والعتاد بالسرعة الكافية لمسافات طويلة تمتد من الموانئ والمطارات إلى المواقع المتقدمة. أفرغت الولايات المتحدة وحدها حمولة ٦٠٠ سفينة من المعدات وحمولة أكثر من ١٠ آلاف طائرة. وهذان الكمُّ والحجم من العتاد يعكسان دلالة التحدي الضخم الذي واجهناه في النقل من قِبَل القوات الأمريكية وحدها. ولمّا كانت إمكانات النقل في قواتنا المسلحة محدودة، فقد وجدنا الحل في استئجار العربات التجارية التي يملكها القطاع الخاص السعودي. وأعتقد أن وحدة المساندة بقيادة القوات المشتركة تعاقدت على ما لا يقل عن ٢٢ ألف عربة، ومع أكثر من ٤٠٠٠ سائق مدني.

ضمَّت هذه العربات كل نوع يمكن تصوُّره من ناقلات ثقيلة عملاقة لنقل الدبابات، وشاحنات مبردة لنقل الثلج وتوزيعه على القوات التي كانت تعاني القيظ في الصحراء، وصهاريج المياه والبترول، وشاحنات مسطحة، وجرافات، ومقطورات، وحافلات، وعربات مجهزة متنقلة لضباط هيئة القيادة، وعربات الجيب، وسيارات عادية، وآلاف الشاحنات المتعددة الأغراض. وخطرت لي فكرة أظنها كشفت لي عن عدد العربات والشاحنات التجارية الموجودة في المملكة كلها. إذ أعلنتُ لأصحاب العربات الخاصة، وليس الشركات، أننا سندفع قيمة عربة جديدة لكل عربة مستعملة يقبل مالكها بيعها لنا، فلم يكن هناك متسع من الوقت للمساومة. وما أسرع ما تدفقت، من جميع أنحاء المملكة عروض العربات والشاحنات على إمدادات وتموين قيادة القوات المشتركة.



(الى اليسار) قبل أسابيع قليلة من المعركة وصل الرئيس محمد حسني مبارك ليتفقد القوات المصرية في الخطوط الأمامية من مسرح العمليات. كنت وصاحب السمو الملكي الأمير محمد بن فهد، أمير المنطقة الشرقية، في استقبال فخامته.

(إلى اليمين) في زيارة إلى مركز قيادة القوات المصرية مع قائدها اللواء أركان حرب صلاح حلبي.



كانت مساهمة المصريين والسوريين ذات أهمية عسكرية وضرورة سياسية.

(أسفل) في زيارة للقوات السورية مع قائدها اللواء الركن علي حبيب.





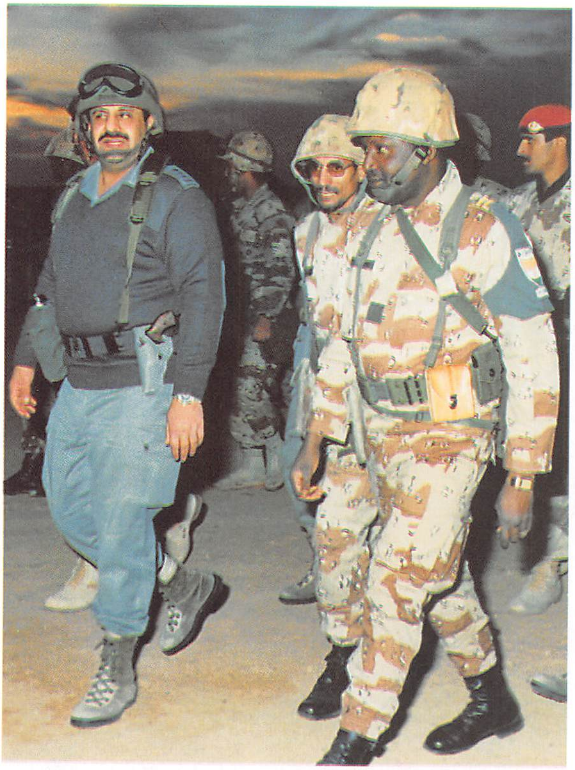
مع وزير الدفاع البحريني، الفريق الشيخ خليفة بن أحمد آل خليفة، زميل الدراسة في ساندهيرست وأحد أصدقائي المقربين.



في زيارة إلى النقطة الدفاعية الحصينة للقوات السنغالية مع قائدها العقيد محمدو كيتا الذي يشغل الآن منصب رئيس هيئة الأركان.



في خيمة في الصحراء التقيت العقيد أحمد بنياس، قائد القوات الخاصة المغربية، التي أثبتت تميّزها.



قبيل الغروب، وبعد يوم شاق، التقيت العقيد أمادو سيني، قائد قوات النيجر، في موقعها الدفاعي الحصين.

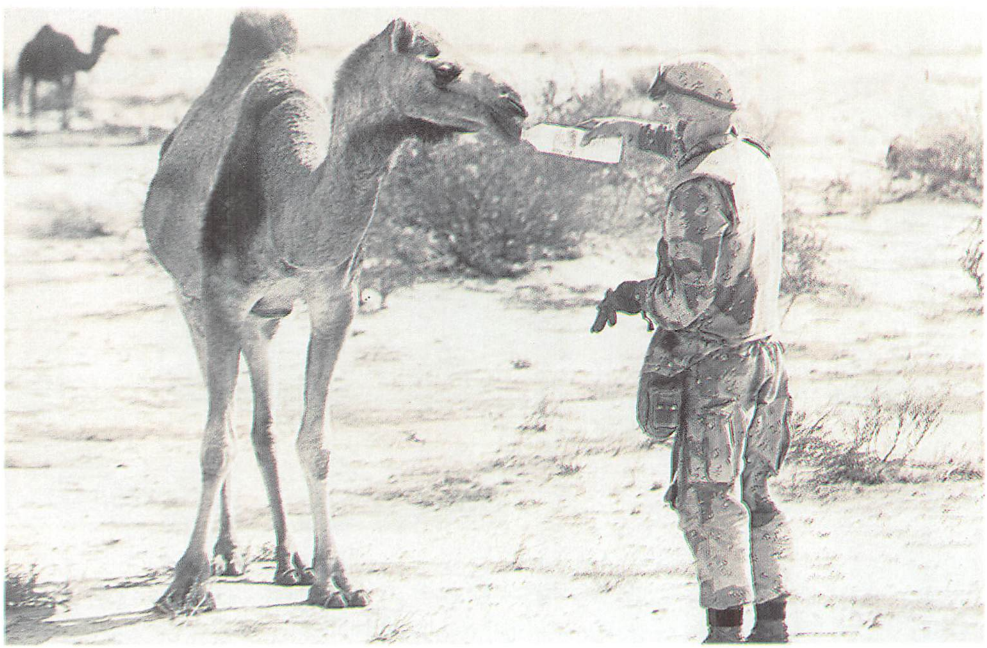


في وداع الوحدة الكيماوية التشيكوسلوفاكية التي ضمت ١٨٠ فرداً ونفذت عمليات الاستطلاع الكيماوي خلال الحرب خشية استخدام العراق للأسلحة الكيماوية.



كـان لخلافـاتي مـع وزيـر الـدفـاع الفرنسي، جان بيير شيڤنمان (أسفل) أثرها في جعل مهمة الفريق ميشيل روكـجـوفـر، القـائـد الـفـرنـسـي في الميدان، أكثر صعوبة. يُعَدّ روكجوفر رجلاً عسكرياً من الطراز الأول. ويظهر في الصورة إلى يساري يشير بإحدى يديه.





ظلّت إمدادات المياه في الصحراء وفيرة، حتى كان لهذا الجمل نصيب منها.



النقيب طيار عايض الشمراني، من القوات الجوية الملكية السعودية، أسقط طائرتين عراقيتين من نوع ميراج F-1 في طلعة واحدة: أصاب هدفين في أقل من دقيقة.





نؤدي الصلاة جماعة في الصحراء. إلى يميني العقيد أحمد لافي، الركن الشخصي، والعقيد عبدالله السويلم، مدير مكتبي في قيادة القوات المشتركة. وإلى يساري اللواء عبدالرحمن العلكمي، قائد المنطقة الشمالية، واللواء سليمان الوهيب، قائد مركز القيادة المتقدم في المنطقة الشمالية.



أدير معركة الخفجي، إحدى المعارك الأساسية في حرب الخليج، من مركز القيادة المتقدم، ويظهر في الصورة العميد سهيل بن عبدالظاهر أبو السمح، وهو يتحدث عبر الهاتف.

المشاة السعوديون في الخفجي، بعد طرد الغزاة العراقيين.







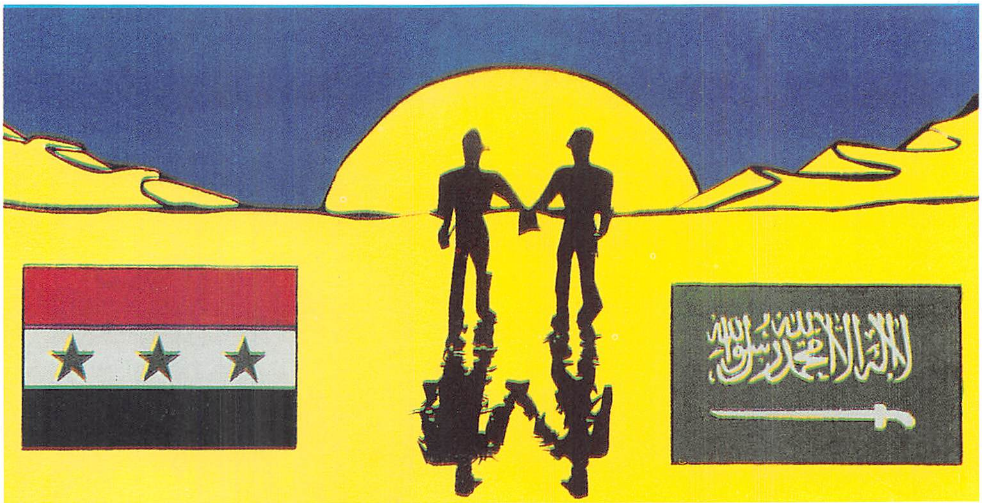
نؤدي صلاة الجنازة على ٩١ من الجنود السنغاليين الذين لقوا حتفهم عندما تحطمت طائرة النقل التي كانت تقلهم أثناء رحلة العودة من مكة المكرمة (نسأل الله أن يتقبلهم شهداء). كان مشهداً حزيناً حقاً.

(إلى اليسار) زرت السنغال بعد الحرب لأنقل شكر المملكة إلى الرئيس عبده ضيوف، وهو شخصية متميزة ويحظى بكل الاحترام في المملكة.



(إلى اليمين) حطام واحد من ٤٣ صاروخ سكود أطلقها العراق على المملكة أثناء الحرب. سقط حطام أحد هذه الصواريخ على مدرسة في الرياض يدرس فيها أحد أبنائي، بينما قتل صاروخ آخر ٢٨ من الجنود الأمريكيين في الدمام. وكانت تلك أخطر ضربة نجح صدام في تسديدها إلى قوات التحالف طوال فترة الحرب.







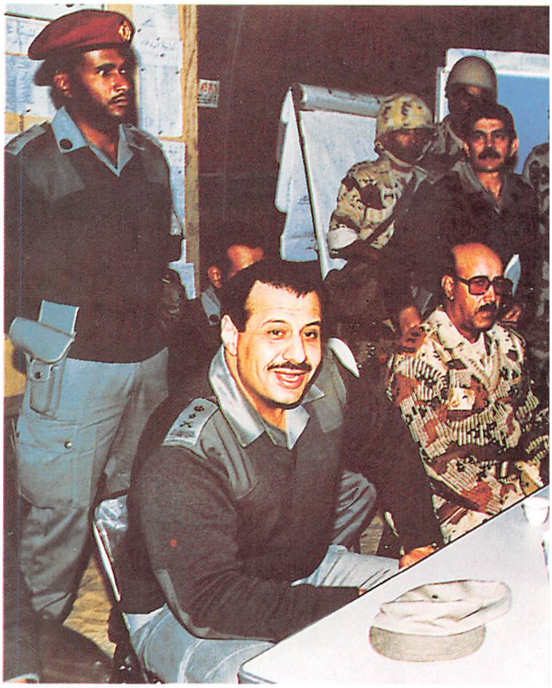
(أعلى) تم إسقاط ملايين المنشورات فوق الخطوط العراقية في إطار عملية حرب نفسية واسعة النطاق، وكان من أشدها تأثيراً منشور في شكل تصريح مرور عليه توقيعي يَعِدُ حامله بكرم الضيافة في المملكة. وقد عبَر آلاف الجنود العراقيين إلى المملكة وهم يلوّحون بهذا التصريح.

(في الوسط) كان المنشور المفضل لديّ، منشوراً يظهر جندياً عراقياً وآخر سعودياً وقد تشابكت أيديهما في ود وأخوّة.

(إلى اليسار) منشور في شكل قنبلة كتبت عليها رسالة تحذيرية بهدف الحدّ من الخسائر البشرية العراقية.



لحظة وصولنا إلى الكويت، بعد تحريرها مباشرة، ومعي اللواء صالح المحيا، قائد المنطقة الشرقية (وهو الآن قائد القوات البرية) الذي يظهر في الصورة خلف كتفي اليمنى. كما يظهر إلى يساري الأمير العقيد تركي بن عبدالله، قائد كتيبة الشرطة العسكرية.



في مركز القيادة مع اللواء الركن سلطان المطيري، قائد مركز القيادة المتقدم في المنطقة الشرقية. ويقف خلفنا العقيد شاكر إدريس، مدير الشؤون العامة، والنقيب زكي السلطان، قائد فصيل الأمن والحماية.



أطفال الكويت يحتفلون بتحرير بلدهم.

وبهذا، استطعنا الحصول على مئات الشاحنات. وكنّا نشترط ونصرّ على أن تكون جميعها في حالة جيدة ومزوَّدة بكامل لوازمها.

قَدِمَت القوات المصرية والسورية على جناح السرعة، ولم تصطحب معها الكثير من العتاد سوى أسلحتها وذخيرتها وعدد قليل من العربات. لذلك كنّا في حاجة إلى ٣٠٠٠ شاحنة على الفور، لتصبح هذه القوات قادرة على التحرك. وبدأنا برنامجاً ضخماً للمشتريات في جميع أنحاء العالم، لإسناد الفرق المصرية السورية. ولم يقتصر البرنامج على شراء الشاحنات فحسب، بل شمل كذلك شراء الخيام والمولدات والجرارات والمطابخ الميدانية المتنقلة والمواد الغذائية ودورات المياه ووحدات الاستحمام والمعدات الهندسية وآلاف المواد الأخرى اللازمة. واحتاجت تلك المشتريات إلى أموال طائلة، كما استغرق تأمينها وقتاً طويلاً. زوَّدنا السوريين بنحو ٢٨٠٠ عربة. ولمّا كانت القوات المصرية ضعف السورية، فقد احتاج المصريون إلى عدد أكبر من العربات. كنت أريد أن يدرك القادة المصريون والسوريون أن لهم عندي الأولوية القصوى، حتى لو استدعى الأمر تحويل جزء من إسناد قواتي للوفاء باحتياجاتهم. وتقديراً من المملكة لدورهم ووقوفهم معنا في خندق واحد، أصدر الأمير سلطان تعليماته أن يصطحب المصريون والسوريون، عند عودتهم، آلاف العربات والأنواع المختلفة من المعدات.

كان لقوات التحالف، التي وفدت لمساندتنا، طلبات كثيرة مختلفة. فعلى سبيل المثال، اعتمدت الوحدات الأمريكية الأولى، التي وصلت المملكة، علينا اعتماداً كاملاً في النقل والإسكان والمياه، اعتماداً دام طوال مراحل الأزمة، وفي كل المتطلبات الأخرى تقريباً (بما في ذلك العباءات السوداء التي كانت المجندات يرتدينها خارج أوقات العمل، كي يصبح وجودهن أكثر قبولاً لدى مواطنينا وتماشياً مع عاداتنا وتقاليدنا). وبعد ذلك بفترة، تولى الأمريكيون شؤون إمداد وتموين قواتهم، مع أن حاجتهم إلى التزوُّد بالوقود ووسائل النقل بكميات هائلة ظلّت قائمة، شأنهم في ذلك شأن البريطانيين والفرنسيين.

كذلك، اعتمد بعض القوات في التحالف علينا اعتماداً تاماً في تأمين كل متطلباتها، تقريباً، خلال الأزمة. فكان علينا إطعامها منذ أن وطئت أقدام أفرادها أرض المملكة. فبعض تلك القوات جاءت دون إمكانات على الإطلاق، مما اضطرنا، في بعض الحالات، إلى تزويد رجالها بالأسلحة الشخصية.

واجهتنا مشكلة صعبة في توفير الناقلات الثقيلة العملاقة، فالأمريكيون أنفسهم كانوا يعانون نقصاً فيها، إذ لم يحضروا معهم سوى ٥٠٠ ناقلة، في حين أنهم كانوا في حاجة إلى ثلاثة أمثال هذا العدد. واستطاعت المملكة تزويدهم بأكثر من ١٠٠٠ ناقلة من هذا النوع، استأجرناها من شركات النفط والبناء في المملكة، كما أحضرنا المزيد منها من أوروبا. تفاوض البنتاجون في معظم الصفقات خارج المملكة، ولكننا، نحن، الذين كنّا ندفع الثمن. كذلك، زوَّدنا البريطانيين بـ ٢٥٠ ناقلة ثقيلة، كما زوَّدنا المصريين والسوريين بـ ٥٠٠ ناقلة أيضاً. ويذكر أن الحافلات التي نقلت الجنود إلى مواقع انتشارهم قامت بما ينوف على ٣٠٠٠ رحلة.

عملت على مد مرافق الصيانة إلى شرقي البلاد وشماليها، لمواجهة متطلبات ذلك العدد الهائل من العربات. واتخذت الترتيبات لكي يساهم ٢٠٠ ميكانيكي وعامل صيانة مصري في تعزيز قدراتنا الفنية، في مدينة الملك خالد العسكرية وفي الطائف. وأدت كثافة الحركة على الطرق المتجهة شمالاً إلى اختناقها بشاحنات الإمداد التي كانت تسير ولا يفصل بينها سوى ثوان معدودة. أخبرني الفريق پاجونيس أنه ذهب مرة ليتفقد «نقطة السيطرة على التحركات» على الطريق الشمالية، حيث كانت الشاحنات تمر بمعدل ١٨ شاحنة في الدقيقة، وأنه لم يتمكن، لكثافة الحركة، من عبور الطريق إلى الجانب الآخر إلاّ بطائرته العمودية!

لقي عدد غير قليل من السائقين حتفهم في حوادث مرورية، لا سيما على طريق «التاپلاين» الضيقة التي ليس لها كتف صلبة على جانبها، فمن مجموع الخسائر الأمريكية في الأرواح الذي بلغ ٢٩٣ قتيلاً (في المعارك أو في غيرها)، لقي عشرات منهم حتفهم في حوادث المرور.

وخلال عمليات الاستعداد للحرب البرية، تحرك تشكيلان أمريكيان هائلان، هما الفيلق السابع والفيلق الثامن عشر، مسافة ٥٠٠ كيلومتر، و٨٠٠ كيلومتر على الترتيب، لكي يتخذا مواقعهما الهجومية، استعداداً لتنفيذ عملية عاصفة الصحراء. شملت التحركات الأمريكية هذه، مع تحركات قوات التحالف الأخرى انتقال ٣٠٠ ألف جندي، و ٦٠ ألف عربة ذات عجلات، و٦٠٠٠ دبابة وعربة مدرعة مجنزرة، وأكثر من ٢٠ ألف حاوية. لذلك، بذلنا جهوداً جبارة لتأمين الإسناد الضروري لتحرك القوات الأمريكية والقوات الأخرى. وتطلب الأمر أن ننقل جزءاً كبيراً من نقاط وقواعد الإمداد والتموين من الشمال والشرق إلى الغرب، وأن ننشئ قواعد إسناد ونقاط توزيع جديدة.

وعلى الرغم من الإسهام الهائل الذي قدَّمته المملكة إلى قوات التحالف، والعمل الدؤوب والجهد العظيم الذي بذله ضباط الإمداد والتموين، فمن المؤسف حقاً ألاّ يعترف كثير من الكتابات الغربية التي قرأتها عن الحرب بتلك الحقيقة. ولا أبالغ إذا قلت إن الولايات المتحدة لم تلقَ في تاريخها العسكري كله من المساندة ما لقيته من المملكة خلال حرب الخليج، كما اعترف بذلك شريكي في القيادة، الفريق أول شوارتزكوف، أثناء الاحتفال البسيط الذي أُقيم في الرياض، وتبادلنا فيه الأوسمة بعد انتهاء الحرب. إذ قال آنذاك:

«منذ أن وطئت قدم أول جندي أمريكي أرض المملكة، بدأنا بتلقي المساندة ١٠٠٪ من السعوديين. كنّا نحصل منهم على طعامنا ومياهنا ووقودنا ووسائل انتقالنا وجميع متطلباتنا الأخرى. ولْيعلم الجميع أن ما حققناه معاً يعتبر إنجازاً عسكرياً ضخماً، ما كان ليتحقق لولا التعاون الكامل من قِبَل المملكة العربية السعودية.

فالموانئ التي نزلت فيها معداتنا هي موانئ سعودية، والمطارات التي انطلقت منها غاراتنا الجوية كانت في معظمها مطارات سعودية.

إن ما لقيناه من مساندة الدولة المضيفة هنا، لا يمكن أن نحظى به في أي مكان آخر، ولولا هذه المساندة من الدولة المضيفة، لاستغرق تنفيذ أية عملية هجومية شهوراً طويلة، إن لم يكن سنوات. لذلك، أعتقد أن هذا هو الوقت المناسب لكي نعترف بإسهام المملكة العربية السعودية في هذا النصر المؤزَّر».

ومع أنني أقدِّر لشوارتزكوف عرفانه بالجميل على الصعيد الخاص، فكم كنت أتمنى لو أنه ذكره علانية في كتابه!

عقِب انتهاء العمليات العسكرية، اتضح أنه كان لدينا أكثر بكثير مما كنّا نحتاج إليه لتنفيذ المهمة المطلوبة، ليس فقط من الإمدادات والتموين، بل من القوات المقاتلة والدبابات والطائرات أيضاً. ولَكَنْ دهشت من المبالغة التي صاحبت العملية! لقد بالغت القيادة الأمريكية في قدرة صدام، وادعت أن جيشه هو «رابع أكبر جيش في العالم»، وكان الهدف من تلك الدعوى، دون شك، هو خداع صدام وجعله يركن إلى إحساس زائف بالأمان. لكن القيادة الأمريكية، في نهاية الأمر، بدأت هي نفسها تصدق ادعاءاتها. ولا غرو، أن قوات التحالف احتاجت إلى فترة من الوقت قبل أن تدرك مدى الضعف في بنْية كثير من فِرَق

صدام. فإذا نظرنا إلى عدد الفِرق في حد ذاته، وجدنا أننا أمام جيش هائل! ولكن إذا تحققنا بشكل دقيق من التعداد الصحيح لكل فرقة، يتلاشى على الفور جزء كبير من هذا الجيش.

في إحدى المراحل قرر شوارتزكوف، بناء على المعلومات الواردة من الاستخبارات حول قوة العراق، أن دباباته M1 غير قادرة على مواجهة دبابات صدام T-72. لذلك، قرر أن يستبدل بها أحدث الدبابات الأمريكية إبرامز M1A1، بعد تعديلها. فوصلت هذه الدبابات من ألمانيا خضراء اللون، وكان لا بد من إعادة طلائها بألوان الصحراء، وتزويدها بدرع إضافية. لذلك قَدّمنا إلى الأمريكيين المستودعات اللازمة لإجراء هذه التعديلات. وأُرسلت الدبابات الجديدة إلى جميع الوحدات المدرعة، وأعيدت الدبابات الأولى من نوع M1. وتجمَّع في وقت واحد أكثر من ٧٠٠ دبابة M1 في الميناء، وهي في أتم حالات الاستعداد. كذلك استبدلت قذائف من عيار ١٢٠ مم التي تستخدمها دبابات M1A1 بقذائف دبابات M1 من عيار ١٠٥مم. وعلمت، فيما بعد، أنه تم نقل ٢٢٠ ألف قذيفة من عيار ١٢٠ مم إلى أرض المعركة، أطلقت منها ٣٦٠٠ فقط، كانت كافية لإنزال الهزيمة «برابع أكبر جيش في العالم»! فهل كان هذا القرار الباهظ التكاليف بإحضار الدبابات الجديدة القوية، وتلك الكميات الهائلة من الذخيرة مبنياً على تقديرات خاطئة لقوة العراق؟ أم كان ناجماً عن فشل أجهزة الاستخبارات؟ أم كان، مرة أخرى، بسبب إفراط شوارتزكوف في الحذر؟

في شهر ديسمبر ١٩٩٠، أصدرت توجيهاً بأن تكون البنْية الأساسية للإمداد والتموين بكاملها جاهزة في أماكنها يوم ١٥ يناير (وهو آخر موعد حدده قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم ٦٧٨ الصادر بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٩٠، والذي يجيز استخدام «كل الوسائل الضرورية» ضد العراق، إن لم يمتثل لإرادة المجتمع الدولي حتى ذلك الموعد). ولكن مركز الاهتمام، في ذلك الوقت، كان قد تحول إلى خيار الحرب. واكتسب التخطيط لها الأولوية قبل وقت غير قصير. وواصل ضباط الإمداد والتموين عملهم البطولي في الإعداد لهذه الحرب.

الفصل الثامن عشر

التخطيط للحرب بالاشتراك مع قوة عظمى

إن لم يكن هناك بد من خوض حرب، فالأفضل أن يكون حليفك فيها قوة عظمى. فوجود مثل تلك القوة الجبارة إلى جانبك أمرٌ يبعث على الثقة والاطمئنان. بيد أن تحالفاً على هذا النمط لا يخلو من السلبيات المزعجة، فبسبب عدم التكافؤ في حجم القوات تصبح العلاقة، داخل إطار التحالف، غير متكافئة أيضاً. ولا مناص من أن تحاول القوة العظمى أن تستأثِر بالقيادة، وتُصرّ على أن تجعل الآخرين تابعين لها، فتتخذ القرارات بمفردها وتحتكر المعلومات الاستخبارية التي تتوافر لديها، ولا ترضى إلاّ بالسيطرة التامة، من دون تدخل من أحد، على دبلوماسيتها وإستراتيجيتها وأسلحتها ذات التقنية العالية. وكلما اقتربت نُذُر الحرب، ظهرت تلك الجوانب السلبية أكثر جلاءً، فيجد الحليف الأصغر نفسه مضطراً إلى مدِّ الخُطَى، بكل ما أُوتِيَ من قوة، كي لا يتخلّف عن رَكْب حليفه الأقوى.

وإن كنت أمثِّل الحليف الأصغر إبّان أزمة الخليج، لكنني لم أكن أرضى بالتخلّف عن الركب، ولا بالموافقة على كل رغبات حليفنا الأقوى وقراراته وخياراته الإستراتيجية دون نقاش. كانت المملكة، بصفتها البلد المضيف، في غاية الأهمية للتحالف. فلولاها وما قدمته من تسهيلات ودعم مالي وسياسي ما كان لتلك الحرب أن تُشن. لذلك، كان لنا بعض جوانب القوة التي حرِصنا على توظيفها لمصلحتنا. فتم الاتفاق على أحقِّيتنا في المشاركة في التخطيط للحملة، وألاّ تتم أية عمليات عسكرية دون موافقتنا المسْبقة. ولكن النظرية شيء والواقع شيء آخر. لذا، كانت إحدى مهامي الصعبة هي العمل على وضع تلك الاتفاقية موضع التنفيذ.

كان الطابع المميز لعلاقتي بشوارتزكوف هو سعيي الدؤوب لأنتزع منه المعلومات الوثيقة الصلة بمهمتي. ولجأتُ إلى أساليب شتى لأجعله يبوح بما لديه، فكنت أفاجئه بمعلومات من عندي حتى أستدرجه إلى تفنيدها ومناقشتها، وأحياناً أتساءل عن تصرفاته حتى يشرحها ويبررها. وفي أحيان أخرى، أطلب منه مباشرة أن يحيطني علماً بمجريات الأمور. كنّا نقضي الساعات الطوال معاً في الأخذ والرد في جو من الصداقة والود. وبطريقة أو بأخرى، كنت حريصاً كل الحرص، على أن ألمّ بكل جوانب تفكير حليفنا القوي حتى أتمكن من تحقيق مصالح بلدي وحماية استقلاله.

لم يكن شوارتزكوف، هو الآخر، حرّاً في ما يفعل. كان عليه أن يرفع التقارير إلى قيادته السياسية والعسكرية، ويتلقى منهما التعليمات والتوجيهات. إذ لم يكن، في حال من الأحوال، صانع القرار الأوحد في الجانب الأمريكي، مما زاد من تعقيد مهمتي في استقصاء المعلومات. كانت لرؤسائه في واشنطن اليد الطولى في كل أمر من أمور الحملة العسكرية. فالتخطيط الإستراتيجي، والخطة العامة، والجداول الزمنية، كانت تُصاغ وتُعَد في الپنتاجون من قِبَل الفريق أول كولين پاول وهيئة أركانه القوية البالغ عددها ١٦٠٠ ضابط، بمشاركة ديك تشيني، وزير الدفاع، وبرينت سكوكروفت Brent Scowcroft مستشار الأمن القومي، وأركانه. وبطبيعة الحال، كان الرئيس الأمريكي يتولى رسم الأهداف العامة ويعتمد الخطط في شكلها النهائي. ومن بين هؤلاء جميعاً كان للفريق أول كولين پاول دوره البارز في سير الأحداث.

وقد ذكر أكثر من مراقب عسكري أن من أبرز سمات حرب الخليج، تلك الصلاحيات التي مارسها الفريق أول كولين پاول بصفته رئيس هيئة الأركان المشتركة الأمريكية. وترجع تلك الصلاحيات إلى التعديلات والإصلاحات التي نص عليها قانون «جولدووتر ـ نيكولاس لإعادة تنظيم شؤون الدفاع» الذي صدر عام ١٩٨٦ . وبمقتضى ذلك القانون، تمت أكبر عملية لإعادة التنظيم في الپنتاجون منذ الحرب العالمية الثانية، فتم تنظيم التسلسل القيادي، وقُلّصت صلاحيات رؤساء أركان الفروع الرئيسية للقوات المسلحة الأمريكية، ومُنِح رئيس هيئة الأركان المشتركة صلاحيات أوسع. فأصبحت له السلطة الكاملة، للمرة الأولى، على الجهاز العسكري برمَّته، فاختفت الضغوط التي كان يمارسها الكونجرس أو تقلّصت إلى حدٍّ كبير، كما اختفت كذلك المساومات بين الفروع

المختلفة التي كانت من قَبْلُ، حجر عثرة في طريق قرارات رئيس هيئة الأركان المشتركة.

نجح پاول، وهو سياسي مخضرم، في الاستفادة من صلاحياته إلى أبعد الحدود. فبمقتضى ذلك القانون المشار إليه آنفاً، كان پاول هو المستشار العسكري الوحيد للرئيس الأمريكي، وأصبح ضباط هيئة أركانه جميعهم مسؤولين أمامه فقط. وكانت لديه الصلاحية في أن يتخطى رؤساء أركان الفروع المختلفة ويصدر توجيهاته بمعزل عنهم. وقد أشارت جميع التقارير الصادرة عن الولايات المتحدة إلى أن الرئيس بوش وتشيني وپاول كانوا يعملون معاً في فريق متفاهم. وهنا أدركت أن الإستراتيجية العامة كانت تتحدد في واشنطن، بينما توضع الخطط التنفيذية في الرياض. وكان لهذا التقسيم دوره في الحدّ من المعلومات التي كنت أحاول الحصول عليها، كما حَدّ من مساهمتي في عملية التخطيط الأولي للحرب، وقَلّص، في الوقت نفسه، من دور شوارتزكوف وجعله قائداً ميدانياً وحسب.

ولا يخفَى على أحد الدور الكبير الذي تؤديه الاستخبارات في أي صراع. ففي غياب المعلومات الاستخبارية، يسير المرء على غير هدى، فلا يَسْتَبِين مدى قدرات عدوه ولا حقيقة نواياه وهي الأهم. وإن كانت الخطط الحربية بداهة، لا تُبنى إلاّ على المعلومات الاستخبارية، فإن معظم هذه المعلومات، في حرب الخليج، كان يَرِد من مصادر الاستخبارات الأمريكية. وكان لديّ بعض مصادري المستقلة متمثّلة في رئاسة الاستخبارات العامة السعودية، وهيئة استخبارات وأمن القوات المسلحة ووزارة الداخلية. ومن التقارير الكثيرة التي وصلتني من تلك المصادر، اتضح أن عدداً قليلاً منها كان وهمياً، ولذلك لم يؤخذ في الحسبان. كان ثمة كمٌّ هائل من التقارير يرد إليّ يومياً، حتى إنني عهدت إلى أحد أركاني بفرزها ودراستها، ليرفع إليّ ملخَّصاً لما فيها مرفقاً به أهم هذه التقارير وأطرفها. وما أذكره من تلك التقارير الطريفة، أن صداماً كان ينوي تحميل قوافل من الجمال بالمتفجرات وإرسالها إلى صفوف قواتنا. وأذكر أنني نقلت هذه المعلومة الاستخبارية النفيسة إلى شوارتزكوف، على سبيل المزاح.

وعلى الرغم من نجاح بعض عملائنا، الذين أرسلناهم إلى داخل الأراضي العراقية والكويتية، في الحصول على معلومات قيّمة، إلاّ أنني كنت أعتمد بشكل كبير على ما يجمعه الأمريكيون من معلومات عن قدرات العراق ونواياه. وكانت

تلك المعلومات مستقاة من واقع صوَر الأقمار الصناعية، وطائرات التجسس، ومحلِّلي الشيفرة، والقوات الخاصة. واستمر الوضع على هذا المنوال حتى حصلنا على معلومات تفصيلية، نتيجة لاستجواب الأعداد الكبيرة من الفارين وأسرى الحرب العراقيين.

أبدى الحلفاء الغربيون استياءهم لأنني لم أسمح لهم باستجواب أسرى الحرب العراقيين الذين أَسَرَتهم القوات العربية. كان لمسلكي هذا ما يبرره؛ إذ يمثّل هؤلاء الأسرى مصدراً من أهم وأغنى مصادر المعلومات. لذا، كنت حريصاً على أن يكون هذا المصدر ورقة رابحة في يدي. والأهم من ذلك أنني لم أشأ أن أضع مَنْ أَسَرَتْهُم قواتنا في أيدٍ غير سعودية على ترابنا الوطني؛ إذ من شأن ذلك أن يوحي للقوات السعودية وللعراقيين أيضاً، أننا أصبحنا تحت السيطرة الكاملة للحلفاء الغربيين. كما كنت أخشى أن يتحول الأسرى العراقيون إلى أعداء دائمين للمملكة، بسبب الاستجوابات الفظّة التي قد يتعرضون لها على أيدٍ غير سعودية. على كل حال، يجب أن أكون واقعياً، إذ كنت أعرف جيداً أن من يأسر الجنود العراقيين، سواء أكان من الأمريكيين أم البريطانيين أم الفرنسيين أم المصريين، سيبادر على الفور إلى استجوابهم للحصول منهم على أكبر قدر من المعلومات. لذلك، كنت أُصرُّ على تسليم الأسرى إلينا خلال أيام قليلة جداً من وقوعهم في الأسر، أياً ما كانت القوات التي أَسَرتهم. وأبدى الأمريكيون رغبة في حضور عمليات الاستجواب التي كنّا نقوم بها، لكنني رفضت ذلك أيضاً.

كنت أشعر بالأسف لعدم وجود وحدات من القوات الخاصة السعودية، تضارع وحدات القوات الخاصة الأمريكية والبريطانية، التي أُرسلت لجمع المعلومات خلف الخطوط العراقية. وفكرت مراراً في إرسال رجال من فوج القوات الخاصة المصرية إلى العراق، ومن الناحية العملية المثالية، لم يكن هناك ما يمنع استخدامي لهم لتنفيذ هذه المهمة، فلم يكن تدريبهم إلاّ لمثل هذه المهام. ولكني أَحْجَمْتُ عن ذلك لأسباب سياسية. إذ لم أشأ أن أكلِّفهم بمهمة قد تلاقي بعض التحفظ من اللواء صلاح حلبي، قائد القوات المصرية، أو تضطره إلى الرجوع إلى قيادته العسكرية والسياسية. أردت أن أجنِّب المصريين الحرج، وأن نتجنَّبه نحن أيضاً، وألاّ أتخذ أية خطوة ربما تسيء إلى التعاون السياسي بيننا.

فلو تردد قائد القوات المصرية في إرسال جنوده، ولم يكن ذلك أمراً

مستبعداً، لأثار ذلك استيائي. ولو قَبِلَ تنفيذ مثل تلك المهمة الخطيرة والحساسة دون الرجوع إلى قيادته العسكرية والسياسية، ربما أغضب تلك القيادة. كنت أريد تجنب اللَّوم بأني أُعَرِّض حياة المصريين للخطر بدلاً من السعوديين. كنت بين أمرين أحلاهما مُرّ، لذا آثرت ألاّ أُصدر مثل ذلك الأمر.

لم نَكُن نوجِّه، قبل الأزمة، جهداً كبيراً في المملكة إلى جمع المعلومات عن العراق؛ فما كنّا نتوقع أن يصبح مصدر تهديد لنا، وخاصة في الثمانينات عندما كان مشغولاً بحربه على إيران. فكيف لنا أن نعلم أن صديق اليوم سيصبح عدو الغد! لذا، كان علينا أن ندفع ثمن ضَعْفِ معلوماتنا عن العراق، فلقد حَرَمَنَا الاعتماد على الأمريكيين في هذا الصدد، من أن تكون لنا يد أطول في التخطيط للحرب.

أدركت، طوال فترة الأزمة، أن هناك تناقضاً واضحاً في موقف استخبارات التحالف. فقد نشرت القوات الأمريكية وحلفاؤها معدات وأجهزة استخبارية لم يسبق لها مثيل، فضلاً عن ميزة المراقبة من الجو، فكان في وسع الأقمار الصناعية للحلفاء وطائراتهم مراقبة العمق العراقي، باستثناء تلك الأيام التي كانت تسوء فيها الرؤية نتيجة العواصف الرملية أو السحب المنخفضة. وثمة معدات إلكترونية باهرة بحق، مثل أنظمة الاستطلاع المصورة التي كانت تسمح بالتوجيه الدقيق لصواريخ كروز، كما شكَّلت الصحراء مسرحاً مثالياً للقصف الجوي، فكان في وسع الأسلحة الجوية والأرضية مهاجمة أهدافها في أقصى مدى.

كانت هناك أعداد كبيرة من أركان الاستخبارات وقد انكبوا على العمل في مراكز متعددة، مثل مركز الاستخبارات المشتركة في القيادة المركزية، ومركز التقدير القتالي، ومركز الاستطلاع المشترك الذي يقوم بالاستطلاع الجوي. وكانت طائرات الاستطلاع التصويري (الفوتوغرافي) السعودية تجوب الحدود الكويتية والعراقية.

ولكن، على الرغم من كل تلك الجهود والميزات الضخمة، ظلت قوات التحالف تجهل الكثير عن العراق. ولا أزال أعتقد أن المعلومات الاستخبارية عن العراق، كانت من أبرز نقاط الضعف لدى التحالف. فقد فشلت أجهزة المراقبة الفضائية الأمريكية، على ما يبدو، في التنبؤ بغزو العراق الكويت حتى قبل وقوعه بساعات، فضلاً عن النقص في المعلومات بعد الغزو. فظلت تدور تساؤلات كثيرة مثل: هل كان صدام يعزز قواته في الكويت، كما كان يدّعي؟ وما مدى قوة

الحرس الجمهوري العراقي التي ما فتئ صدام يفاخر بها؟ وكيف سيستخدمها؟ وكيف سيكون أداء قواته الجوية في المعركة؟ كان من المفترض أن يكون أداء هذه القوات في مستوى جيد، علماً بأنها لم تثبِت جدارتها أثناء الحرب على إيران. ما مدى تقدم برنامج العراق النووي والبيولوجي والكيماوي؟ هل كان صدام ينوي استخدام أسلحته غير التقليدية؟ وهل يجرؤ على استخدامها؟ هل سيستخدم القنابل الهوائية؟ هل سيستخدم صواريخ فُرُوغ Frog وصواريخ سكود والصواريخ الأخرى القصيرة المدى؟ هل في وسعه أن يشنَّ هجمات إرهابية ضدنا؟ كانت ثمة شكوك وتخمينات وتوقعات لا حصر لها، وفوق ذلك كله ظلت الشكوك حول نوايا صدام هاجساً مؤرقاً طوال الوقت.

وإذا افترضنا أن الولايات المتحدة كانت على علم بالإجابة عن تلك الأسئلة، إلاّ أنها لم تطلِعنا عليها! إمّا لأن المعلومات التي توافرت لدى الأمريكيين، في ذلك الصدد، هزيلة وغير كافية، أو لأنهم خطَّطوا لإطلاعنا على قدر قليل من المعلومات يضمن تعاوننا معهم، ولكن ليس بالقدر الذي يكشف لنا عن مصادرهم. ويبدو أن مفاتح الأمر كانت في يد واشنطن أكثر مما كانت في يد الأمريكيين الموجودين في الرياض. إذ علمت من بعض كبار الضباط الأمريكيين، أن المعلومات كانت تُحجَب، في بعض الحالات، عن القوات الأمريكية في المملكة؛ لأن واشنطن تدرك أن الأمريكيين في الرياض ينتهجون مبدأ الأمانة والمصارحة مع حلفائهم.

غير أنني أعتقد أن الولايات المتحدة كانت، في معظم الأحوال، تفتقر إلى المعلومات افتقارنا إليها. فقد أورد ديك تشيني، نفسه، في تقريره إلى الكونجرس عن سير الحرب: «لقد كانت نوايا القادة والقوات العراقية ومعنوياتها أمراً غامضاً بالنسبة إلينا». وهكذا، كان يوجد تناقض غريب، فالتحالف يسمع ويرى ما يجري في العراق، لكنه يجهل حقيقة الأمور إلى حدٍّ بعيد.

كنا والأمريكيين، على حدٍّ سواء، نفتقر إلى «الاستخبارات البشرية» أي العملاء المتمركزين داخل الجهاز السياسي والعسكري في العراق. أما على صعيد مسرح العمليات، فكانت أحسن نتائج «الاستخبارات البشرية» تأتي من رجال المقاومة السرّية الكويتية البواسل، الذين كانوا يوافوننا بالمعلومات عن القوات العراقية، وأماكن اجتماعات القادة العراقيين، والأماكن التي كان يتم فيها تعذيب المعتقلين الكويتيين. أما خارج مسرح العمليات، فكانت أكثر المعلومات أهمية

عن الصناعات العسكرية العراقية، بما في ذلك المنشآت النووية، تأتي من طريق الشركات الغربية التي أسهمتْ في إنشائها.

كنت أرى أن الصورة، التي رسمتها الولايات المتحدة عن قوة العراق، مبالغاً فيها إلى حدٍّ بعيد. وكان يشاركني تلك النظرة جل المحلّلين العرب من ذوي الرأي والبصيرة. ففي السنوات العصيبة من الحرب العراقية ـ الإيرانية، عندما كان أمننا معرضاً للخطر، بات واضحاً ألاّ قِبَلَ للعراق بالتصدي لإيران، على الرغم من إمدادات الأسلحة الحديثة التي كانت تنهال عليه بسخاء من الشرق والغرب، على حدٍّ سواء، بينما حُرِم الإيرانيون من ذلك كله. فمع أن العراق استطاع، عند غزو الكويت، دفْع أعداد كبيرة من الجنود إلى ساحة المعركة، إلاّ أنهم، باستثناء بعض وحدات الصفوة، كانوا يفتقرون إلى خفة الحركة، وروح القتال، وبدا ذلك واضحاً في هروب ما يزيد على ١٠٠ من العسكريين إلى صفوف قواتنا، حتى قبل أن تبدأ الحملة الجوية التي حوّلت الجدول الصغير إلى سيل عرم. ولم تنطلِ عليَّ ادعاءات صدام أنَّه تمكن من تعبئة ١٩ فرقة إضافية خلال شهر واحد! فلربما استطاع أن يوفر لكل رجل بندقية، ولكن هذا الإجراء أبعد ما يكون عن إعداد قوة قتالية فعالة! فإن كان الجيش العراقي هو «رابع أكبر جيش في العالم» عدداً، فلعله الجيش العشرون كفاءة واستعداداً قتالياً.

لا أقصد أبداً أن أصور العراق، في عهد صدام حسين، وكأنه «نمرٌ من ورق»، فقد حشد فعلاً آلة عسكرية ضخمة لا يُستهان بها. ولكن التقديرات الغربية بالغت كثيراً في قدرة العراق القتالية، مما دعا إلى التخطيط لحملة جوية قوية. فهل أدى تبجُّح صدام ووعيده إلى اعتقاد عدد كبير من المراقبين الأجانب أن قوة العراق وقدرته على مقاومة قوات التحالف أضخم من قدرها الحقيقي؟ وأرجِّح أن الخوف من أسلحة العراق الكيماوية، التي ظلت كمياتها مجهولة حتى نهاية الحرب، كان عاملاً دفع كثيراً من قادة التحالف إلى الاعتقاد بأن العراق عدوّ لا يُستهان به، بل ينبغي أن يحسب له ألف حساب. وعلى كل حال، فالهزيمة النكراء التي مُنِيَ بها الجيش العراقي في حرب برية استغرقت ١٠٠ ساعة فقط، دليلٌ، لا ريب فيه، على أن التحالف قد بالغ كثيراً في تقدير قوة العراق، كما أساء تقدير التأثير الذي حقَّقَته الحملة الجوية الطويلة التي سبقت الحرب البرية.

كان للأمريكيين أسبابهم التي جعلتهم يحرصون على نشر عتاد عسكري هائل ضد العراق، الذي لم يكن سوى قوة متوسطة الحجم من بين دول العالم الثالث. وتُعْزَى هذه الأسباب إلى تجربتهم المُرّة في ڤيتنام. فبعد تلك التجربة، كما

علمت، كان ثمة رفض تام بين العسكريين الأمريكيين لفكرة «التصعيد التدريجي» أو «البناء التدريجي» للقوة الأمريكية في مواجهة العدو. وكان كل من كولين پاول وتشارلز هورنر وجون يوساك زملاء في كلية الحرب الوطنية، دفعة عام ١٩٧٦. وقد تركت حرب ڤيتنام بصماتها عليهم جميعاً، بل على شوارتزكوف نفسه. قال لي هورنر ذات مرة:

> «إن المشكلة الأساسية في حرب ڤيتنام أنها استمرت طويلاً. كنّا نعتقد أن في وسعنا مزج الدبلوماسية بالقتال، وهذا أمر مستحيل. ولعلنا استخدمنا تلك القوة الضخمة في حرب الخليج؛ لأننا كنا نحسب حساباً للفشل. وقد تأثرنا قبل بداية الحرب، في الخليج، بوصف الصحافة لنا بأننا غير أكْفاء! قالوا إن معداتنا لا تعمل، ورجالنا لا خير فيهم، وقادتنا العسكريين أغبياء. فكان علينا أن نثبت لهم أنهم مخطئون!».

نصّت العقائد العسكرية الأمريكية على ضمان النصر بحشد قوة قتالية هائلة ضد العدو، في البر والبحر ـ والجو، في الليل والنهار، حتى لا يجد العدو الفرصة لالتقاط أنفاسه. كان مبدأ المعركة «البرية الجوية» AirLand الذي طوَّرته القوات المسلحة الأمريكية في الثمانينات، يقضي بنشر قوات برية وجوية متكاملة وخفيفة الحركة وبالغة التأثير، تستطيع أن تنتزع زمام المبادأة وتحتفظ به. وتستطيع كذلك، أن تملي شروطها على العدو بضربه في عمق أراضيه وخلف خطوطه. ومن هذا المنظور، أثبتت حرب الخليج أنها حملة مثالية لتطبيق تلك العقائد، حتى لو استطاع العدو الصمود فيها.

في هذا الصدد يقول الفريق هورنر: «إن الواقع الجديد للحرب يقضي باستخدام قوة متفوقة، لتحقيق الهدف في أقصر وقت ممكن».

ويشير معظم الدراسات التي نشرت عن حرب الخليج، وما أكثرها، إلى أن أحداثها تنقسم إلى مرحلتين منفصلتين: الأولى، مرحلة دفاعية استمرت من أغسطس حتى نوڤمبر ١٩٩٠، عندما كان الاهتمام منصبّاً على الدفاع عن المملكة. والثانية، مرحلة هجومية لتحرير الكويت، بدأت بإعلان الرئيس بوش في الثامن من نوڤمبر أنه سيضاعف عدد القوات الأمريكية في الخليج.

إن مثل هذا التصنيف يجانب الصواب إلى حدٍّ بعيد، إذ ليس هناك خط واضح يفصل بين الدفاع والهجوم في الحرب، فالمراحل تتداخل تخطيطاً وتنفيذاً. وتشير التقارير إلى أنه منذ غزو صدام الكويت، واتخاذ خادم الحرمين الشريفين قراره التاريخي استدعاء القوات الشقيقة والصديقة، عكف المخطِّطون العسكريون في الپنتاجون وفي القيادة المركزية، على إعداد إستراتيجية هجومية. واشتملت هذه الإستراتيجية، منذ البداية، على استخدام القوة الجوية الساحقة، ليس ضد القوات العراقية في الكويت فحسب، بل داخل العراق كذلك. وأن يشمل القصف مراكز القيادة السياسية والعسكرية في بغداد، ومراكز القيادة والسيطرة والاتصالات، والدفاعات الجوية، وقوات الحرس الجمهوري المتميزة، والصناعات العسكرية، وشبكات الطاقة، ومصافي البترول، والطرق البرية، والجسور، والسكك الحديدية، ومرافق النقل الأخرى، أي تدمير «مراكز الثقل» في العراق، وهو تعبير عسكري شاع استخدامه في ذلك الوقت.

لم نشترك في إعداد تلك الخطة، ولم نُخطَر بها رسمياً، ولم تتضح معالمها إلاّ في شهر سپتمبر. ولم يمضِ وقت طويل حتى أدرك العالم حقيقة التفكير الأمريكي، عندما صرح الفريقَ أول مايكل دوجان Michael J. Dugan، رئيس أركان القوات الجوية الأمريكية، للصحفيين في طريق عودته جواً من الرياض، في منتصف سپتمبر، أن هدف الحملة الجوية سيكون شل القيادة العراقية في بغداد. ولم تؤدِّ إقالته من منصبه، بسبب زلة لسانه، إلاّ إلى تأكيد صدق مقولته.

اتسم إعداد الولايات المتحدة لخطة هجومية ضد العراق، منذ البداية، بقدرٍ من الحذر الزائد، وهو أمرٌ صائبٌ من الوجهة العسكرية التي تفرض ضرورة إعداد خطط عمليات لمواجهة أسوأ الاحتمالات. ولكن إعداد هذه الخطة لا يعني، في حال من الأحوال، أن الولايات المتحدة كانت تسعى إلى الحرب منذ المراحل الأولى للأزمة. ويعزو بعض المسؤولين العسكريين سبب الحفاظ على سرِّية الخطة الهجومية وإقالة دوجان، إلى أن الولايات المتحدة كانت تأمل في التوصل إلى تسوية سياسية للأزمة، ولم تشأ أن تفسِد الجهود الدبلوماسية بالإفصاح عن التخطيط الهجومي.

وعلى كل حال، فإن نظرتنا إلى الأمور في المملكة، كانت مختلفة إلى حدٍّ ما. ففي أول الغزو، عندما كان احتمال هجوم عراقي ضدنا قائماً، انصرف جلّ اهتمامنا إلى الدفاع عن أنفسنا، وبالتالي كانت أوضاع قواتنا وانتشارها دفاعية صرفة. وأوضحت في فصل سابق، كيف كنّا معرضين للهجوم من قوات متفوقة عدداً وعدة، والإجراءات التي اتخذناها على عجل لحماية أنفسنا. كانت القوات

الجوية الملكية، قبل وصول القوات الأمريكية، هي السلاح الوحيد الفعّال لدينا. وعلى الرغم من أنها لم تتدرب على مواجهة العراق، إلاّ أنها وضِعَتْ في حالة تأهب قصوى. كانت طائراتنا من نوع تورنيدو و F-5 و F-15 مسلحةً وجاهزة للإقلاع. وكانت طائرات التزوُّد بالوقود تنتظر في قواعدها، وطائرات الإنذار المبكر (أواكس) تحلِّق في الجو على مدار الساعة. فعقِب ساعات قليلة من الغزو، أصبحت قواتنا الجوية جاهزة للتصدي لأي تهديد من جانب صدام. ولكن، هل كان في وسعنا أن ندحر هجوماً عراقياً؟ ذاك سؤال يصعب التكهن بالإجابة عنه، لكننا كنّا، دون شك، سنبلي بلاءً حسناً، ونجعل صداماً يدفع ثمناً غالياً لعدوانه.

كان أول تحدٍّ تواجهه قواتنا الجوية، فضلاً عن ترقب الهجوم العراقي، هو الوصول المفاجئ للطائرات الكويتية. إذ نجح جزء من تلك الطائرات في الفرار من القاعدة الجوية الشمالية في الكويت في اليوم الأول للغزو، بينما وصل أكثرها في اليوم الثاني من القاعدة الجنوبية. ويدل وصول هذه الطائرات على أن العراق كان بطيئاً في فرض سيطرته الكاملة على الكويت. استقبلنا معظم تلك الطائرات في قاعدة الملك عبدالعزيز الجوية في الشرقية أولاً، ثم نقلناها إلى قاعدة الملك فهد الجوية في الطائف وقاعدة الملك خالد الجوية في الجنوبية، نظراً إلى حاجتنا إلى استخدام قاعدة الملك عبدالعزيز الجوية في الشرقية. كما نجح بعض الطائرات العمودية الكويتية في الهبوط بسلام في المطارات السعودية القريبة، كرأس مشعاب، بينما تحطم البعض الآخر أو فُقِدَ في الصحراء، إثر الفوضى والارتباك في عملية الخروج من الكويت.

لعل سردي هذه التفاصيل يوضح الفرق بين موقفنا وموقف الولايات المتحدة في تلك الفترة نفسها. فبينما نحن نسابق الزمن لترتيب دفاعاتنا، واستقبال بقايا القوات المسلحة الكويتية، إضافة إلى سيل عرم من اللاجئين المدنيين، كانت الولايات المتحدة قد أكملت، بحلول يوم ٢٥ أغسطس، التخطيط لحملة هجومية على أربع مراحل، شملت: حملة جوية إستراتيجية ضد العراق، وحملة جوية ضد القوات العراقية في الكويت، والقضاء على قوات الحرس الجمهوري وعزل ميدان المعركة في الكويت، وأخيراً شنّ هجوم بري لطرد القوات العراقية من الكويت. وكانت هذه الخطة المبدئية هي نفسها التي تبنّاها التحالف في النهاية(*).

(*) U.S. Department of Defense, *Conduct of the Persian Gulf War*, Final Report to Congress, p. 84.

كان الفرق بين موقفنا وموقف الأمريكيين، في تلك الأسابيع الأولى من الأزمة، كما يبدو لي من استقراء الأحداث، يعكس اختلافاً في وجهتيْ نظرنا إلى أهداف الحرب. فأهدافنا المباشرة، التي كان يشاركنا فيها حلفاؤنا العرب، هي التصدي للعدوان العراقي، وإزالة المخاطر التي تهدِّد أمْننا، واعادة الأوضاع في دولة الكويت ومنطقة الخليج إلى ما كانت عليه قبل عدوان صدام. وما من شك في أننا كنّا نرحِّب بالإطاحة بصدام بعد أن اتضحت خطورته، ولكننا لم نكن نرغب في تدمير العراق شعباً ودولة. فعلى الرغم من نزاعنا مع قائده، إلاّ أننا نَعُدّه بلداً شقيقاً قدمنا إليه مساعدات جمة خلال حربه على إيران، كما أننا لا ننكر أن له دوراً بارزاً في المنطقة، كثقل موازن لكل من إيران وإسرائيل.

أمّا أهداف الولايات المتحدة من الحرب، فبدت لنا على النقيض من ذلك. كان هدفها ضمان تدفق البترول العربي، الذي يُعد مورداً إستراتيجياً وحيوياً للغرب، وحماية أمن إسرائيل، والقضاء على تهديد صدام للوضع السياسي القائم في الخليج، وأخيراً تأكيد السيادة الأمريكية العالمية. والحق يقال، كان الرئيس بوش والشعب الأمريكي يشعرون بالظلم الذي وقع على الكويت جرَّاء الغزو العراقي، ومن ثَم كان توجُّههم واضحاً إلى نصرة ما اعتبروه «قضية عادلة».

وإن تداخلت أهدافنا وأهداف الولايات المتحدة من الحرب، إلاّ أنها لم تكن متطابقة تماماً. ففي بداية الأمر، كنّا نرغب في احتواء العراق وحل الأزمة دبلوماسياً، بينما كانت الولايات المتحدة ترغب في تدمير قوته العسكرية. ولكننا اقتنعنا تدريجياً بأهمية الحدّ من قدرة العراق على شنّ الحرب، بعد أن ازدادت حدّة تهديدات صدام للمملكة، وبعد أن تأكد لنا أنه لم يكن ينوي الخروج من الكويت بطريقة سلمية.

كانت منشآت الأسلحة النووية والبيولوجية والكيماوية العراقية، وكذلك منشآت إنتاج الصواريخ الباليستية من أُوْلى الأهداف التي تم التخطيط لتدميرها، بمعنى تدمير قدرة العراق على صنع أسلحة الدمار الشامل واستخدامها. وكانت إسرائيل، منذ مدة، تُلِح على حليفتها، الولايات المتحدة، في تدمير تلك المنشآت العراقية، وتُهدد بأنها ستقوم بتدميرها بنفسها إذا تقاعست الولايات المتحدة عن ذلك. لقد نجحت الدبلوماسية الإسرائيلية في إقناع الولايات المتحدة، ومعظم دول العالم الغربي، بأن قنابل إسرائيل النووية وأسلحتها الكيماوية وصواريخها البعيدة المدى التي ظلت سيفاً مصلتاً على رقاب العرب

عشرات السنين، ليست سوى أسلحة مشروعة للدفاع عن النفس، بينما تُوصَم أية محاولة عربية بدائية لتحقيق أدنى قَدْر من الردع بأنها تهديد «للعالم المتحضر»! وبدا واضحاً من إصرار الولايات المتحدة على تدمير منشآت الأسلحة النووية والبيولوجية والكيماوية لدى العراق والضجة التي أثيرت حول البرنامج النووي العراقي، أن واشنطن، وبدافع الرغبة في الحفاظ على مصالحها كقوة عظمى، كانت حريصة على نزع الفتيل من منطقة سريعة الاشتعال بمنع انتشار أسلحة الدمار الشامل.

ولا مراء أننا كنّا، بالمثل، نتطلع إلى تدمير المنشآت النووية والبيولوجية والكيماوية العراقية، بعد أن أقدَم صدام على غزو الكويت، وتكشفت لنا نواياه العدوانية التوسعية. إذ أصبح برنامجه النووي تهديداً مباشراً لنا أيضاً. وكنَّا معرضين للخطر تماماً، إذ لم تكن لدينا وسائل ردْع فعالة، وثروتنا الاقتصادية مُجَمّعة في المنطقة الشرقية، ومعظم سكان المملكة يتمركزون في تجمعات سكانية معدودة. إنه ليحزنني ويحز في نفسي، بصفتي عربياً، أن أعترف بأن عدوان صدام على الكويت، وتصريحاته وأحاديثه التي كانت تقطُر حقداً وعدواناً، جعلتنا نَعُدّه خطراً، لا يقل شَرّه عن إسرائيل، وأن الحرب هيأت لنا فرصة سانحة للتخلص من خطره وتهديده. ذلك كان الخيار المؤلم الذي أجْبَرَنا عليه طيش صدام وحماقته.

والحق يقال، كان الآخرون أسبق منّا إلى إدراك الخطر الذي يجسِّده صدام. فقد علمت، فيما بعد، أنه في أواخر صيف عام ١٩٨٩، بعد سنة تقريباً من نهاية الحرب العراقية ـ الإيرانية، توصل المحلِّلون في وزارة الدفاع الأمريكية إلى نتيجة مفادها أن خطر صدام على استقرار المنطقة أكبر من خطر المتشدِّدين في إيران. فما أن تخلت إيران عن الصراع مع العراق، ووافقت على وقف إطلاق النار، حتى شرع القائد العراقي دون إبطاء يمارس الضغوط على جيرانه ويطالبهم بقروض جديدة، وبإسقاط ديون الحرب، إضافة إلى تنازلات كثيرة أخرى.

أدى تزايد القلق من آلة صدام الحربية إلى نشاط دؤوب في البنتاجون في واشنطن، وفي القيادة المركزية الأمريكية في تامبا في ولاية فلوريدا. إذ بدأ مخططو الدفاع تحويل الاهتمام وخطط الطوارئ من إيران إلى العراق. وتمخضت

هذه الأنشطة عن خطة سرِّية وضعتها القيادة المركزية، في منتصف عام ١٩٩٠ لمجابهة أي اعتداء عراقي على المملكة أو الخليج. وكان عنوان تلك الخطة «الدفاع عن شبه الجزيرة العربية»، وتُعرف بـ«خطة العمليات ١٠٠٢ ـ ٩٠». أجرت القيادة المركزية، في شهر يوليه ١٩٩٠، قبل غزو صدام الكويت بشهر واحد «مباراة حربية» أسمتها «نظرة داخلية»، وُضِعَت على أساس افتراضات معينة وتصور لتسلسل أحداث محددة. وتبين، فيما بعد، أنها تشبه الأحداث التي وقعت في الخليج فعلاً، إلى حدٍّ يثير التعجب! (ومن المدهش حقاً أن شوارتزكوف قال لي في بداية الأزمة إن قواته خسرت الجولة الأولى في أول تجربة في «المباراة الحربية»، ولعل هذا هو السبب في الأعداد الكبيرة من القوات التي نشرتها الولايات المتحدة عندما جاءت لتواجه الموقف الحقيقي).

عندما أقدم صدام على غزو الكويت، أعطت خطة الطوارئ تلك، التي أُعدت قبل الحرب، القيادة المركزية الأمريكية دفعة كبيرة إلى الأمام (كما ذكر وزير الدفاع ديك تشيني في تقريره إلى الكونجرس فيما بعد)، وأسهمت في سرعة وصول القوات الأمريكية، من أسراب جوية وقوات برية وحاملات طائرات، إلى مسرح الأحداث.

كنّا نطوِّر الخطط الدفاعية التي وضعناها في الأسابيع العصيبة الأولى، يوماً بيوم، طبقاً للمتطلبات الدفاعية، ولموقف القوات السعودية، وما يصل إلى المملكة من قوات شقيقة وصديقة. ونُقِّحت تلك الخطط، بعد ذلك، بالتعاون مع حلفائنا، لتصبح خطة دفاعية شاملة عُرِفَت باسم درع الصحراء. وفي واقع الأمر، كانت خطة درع الصحراء جهداً مشتركاً، خصوصاً ما يتعلق بالعمليات البرية، مع الفريق يوساك. إذ كنت وإياه أُوْلى العقول المدبرة لتلك الخطة. وعندما وصل شوارتزكوف إلى مسرح الأحداث في أواخر شهر أغسطس، كانت جميع الوحدات في مواقعها الرئيسية المحددة.

وكما سبق أن ذكرت، أنشأت ويوساك «مركز التنسيق والاتصالات والتكامل لقوات التحالف» ليكون أداة فاعلة لتحقيق التكامل بين قواتنا البرية، والتناسق في خططنا الدفاعية. كان المركز هو التنظيم الذي ربط بين القوات الإسلامية والعربية وبين نظيرتها الغربية. وفي تلك الأثناء، كان الفريق هورنر وأركانه يضعون خطة الحملة الجوية الإستراتيجية على العراق، في إطار من السرِّية والتكتم، وكانت خطة الحملة البرية منفصلة تماماً ولم تتبلور بعد. ومما تنبغي الإشارة إليه أنه

خلال مرحلة التخطيط كلها، حافظ الأمريكيون على السرِّية القصوى، وكانوا حريصين على ألاّ تنكشف أوراقهم. ولم نشترك معهم، بشكل كامل، إلاّ في أواخر نوفمبر بعد صدور قرار مجلس الأمن رقم ٦٧٨ الذي أجاز للدول الأعضاء المتعاونة مع حكومة الكويت «أن تستخدم جميع الوسائل اللازمة». عندئذ، تم تشكيل «فريق تخطيط مشترك» في الرياض، ضَم ممثلين للمشاركين الرئيسيين في التحالف. مَثّل اللواء الركن يوسف محمد مدني، الجانب السعودي في هذا الفريق، وكان يعمل نائباً لي إبّان مشروع الصواريخ الصينية. وهو ضابط متمرس وطموح وذو طبيعة حادّة لا تقل عن حِدّة نظيره الأمريكي، اللواء البحري جرانت شارب Grant Sharp. وفي الوقت الذي اكتمل فيه تشكيل الفريق، كان الأمريكيون قد فرغوا من تحديد الخطوط العريضة لعملية عاصفة الصحراء.

وكما اتضح بعد ذلك، فإن الخطة اشتملت على حملة من أربع مراحل منفصلة، ولكنها متداخلة في الوقت نفسه:

المرحلة الأولى: شنّ حملة جوية وصاروخية إستراتيجية على العمق العراقي بهدف شل القيادة العراقية وتدمير «مراكز الثقل».

المرحلة الثانية: تحقيق السيادة الجوية فوق مسرح العمليات الكويتي، وذلك بتدمير الدفاعات الجوية، وأنظمة القيادة والسيطرة العراقية.

المرحلة الثالثة: إضعاف القدرة القتالية للقوات البرية العراقية ووحدات الصواريخ والمدفعية المساندة بنسبة ٥٠٪ على الأقل، وقطع خطوط إمدادها، وتدمير أنظمة القيادة والسيطرة والاتصالات بواسطة النيران الكثيفة من الجو والبحر.

المرحلة الرابعة: تحرير الكويت بشنّ هجوم بري.

أدخلنا تغييرات عدة على الخطة، بعد أخذٍ و ردٍّ بيني وبين الجانب الأمريكي، وعلى الأخص في المرحلتين الأخيرتين (الثالثة والرابعة). كنت حريصاً على تحقيق نسبة خسائر في القوات العراقية بالقدر الكافي قبل شنّ الهجوم البري. وثمة نقطة مهمة أخرى، حظيتْ باهتمامي الشديد، هي تحديد طرق الإمداد للوحدات تحت قيادتي. فالخطة الأصلية كانت تقضي بأن تستخدم القوات الأمريكية الطرق الرئيسية، بينما تضطر أرتالنا إلى السير في خطوط متعرجة ذهاباً وإياباً. لذلك، صمَّمتُ أن يكون لكل قطاع من القطاعات طرق الإمداد الخاصة به. كنت حريصاً على حماية خطوط إمدادي بالتأكد من أنها لا

تتقاطع مع خطوط الإمداد الأمريكية، ومن ثَمّ لا تقع تحت سيطرة الأمريكيين في أي جزء من أجزاء الطريق. وبعد مناقشات مستفيضة، تم الاتفاق على تنظيم الطرق المؤدِّية إلى جميع قطاعاتنا بما يضمن عدم تقاطعها مع طرق الإمداد الأمريكية. واستطعنا أيضاً تحديد قطاعات المسؤولية تحديداً دقيقاً، لكل وحدة من القوات المختلفة التي كانت تعمل تحت قيادتي. كما حدَّدنا أماكن اقتحام وعبور قواتي الخطوط الدفاعية العراقية حول الكويت. وكنت حريصاً كل الحرص على أن تقود القواتُ السعودية القوات المهاجِمة.

وعلى الرغم من أننا لم نشترك في عملية التخطيط للهجوم في مراحلها الأولى، إلاّ أنني كنت أعلم بوجود جدل كبير ظل دائراً في المعسكر الأمريكي، طوال شهر أكتوبر ١٩٩٠، للتوصل إلى أفضل أسلوب لمهاجمة المواقع العراقية. فقد عرض رئيس أركان القيادة المركزية في بداية شهر أكتوبر، في البنتاجون، خطة شوارتزكوف الأساسية للهجوم البري، على تشيني، وزير الدفاع، وبول ولفوفيتز، كما عرضها، في البيت الأبيض، على الرئيس بوش ونائبه دان كويل وروبرت جيتس، رئيس الاستخبارات المركزية الأمريكية، وبرنت سكوكروفت، مستشار الأمن القومي. وكانت تلك الخطة تقضي بالهجوم بالمواجهة ليلاً على المواقع العراقية بواسطة فيلق واحد، بهدف احتلال الأراضي المرتفعة الواقعة شمال ـ غرب مدينة الكويت. ومن الواضح أن هذه الخطة رُفِضَتْ، لأنها تؤدي إلى حدوث خسائر عالية نتيجة اتِّباع الهجوم بالمواجهة، مع احتمال قيام العراقيين بشنّ هجوم مضادّ، أو بتنفيذ ضربة إجهاض، مما يفقد التحالف توازنه. ويقال إن سكوكروفت سأل ممثلي القيادة المركزية: «لِمَ الإصرار على الهجوم بالمواجهة والاختراق من الوسط؟ لِمَ لا تتبعون أسلوب الالتفاف؟». و«الالتفاف» أسلوب قديم قِدَم الحروب نفسها.

أصدر تشيني، نتيجة لتلك الاعتراضات، أوامر إلى المخطِّطين بدراسة وتطوير البديل الآخر للهجوم وهو «الالتفاف على القوات العراقية وتطويقها عبر الصحراء الغربية للعراق». وهي المناورة التي تم تنفيذها وحقَّقَت نجاحاً باهراً. كما تم الاتفاق في ذلك الوقت، على أن تطبيق هذه الإستراتيجية يستلزم أكثر من فيلق أمريكي. لذلك، حضر الفريق أول كولين پاول إلى الرياض في ٢١ ـ ٢٢ أكتوبر، ليتناقش مع شوارتزكوف في شأن حجم القوات الأمريكية اللازمة لتنفيذ المهمة بنجاح. عندئذ، أقنعه شوارتزكوف بحاجته إلى إشراك فيلقين في تلك العملية. وفي ٣١ أكتوبر، وافق الرئيس بوش على الانتشار الجديد للقوات

الأمريكية. وأعلن في مؤتمر صحافي عقده في الثامن من نوفمبر عن قراره إرسال هذه التعزيزات الجديدة الضخمة. فأوضح بذلك أن الولايات المتحدة جادة في دخول الحرب. وجاء في إعلانه: «بعد مشاورات مع الملك فهد وحلفائنا الآخرين، أصدرت توجيهاتي اليوم إلى وزير الدفاع بزيادة حجم القوات الأمريكية المشاركة في عملية درع الصحراء، لتكون للتحالف القدرة على اختيار «البديل الهجومي»، إذا ما دعت الضرورة، لتحقيق أهدافنا المشتركة». كانت تلك إشارة واضحة، في نظر بعض المراقبين، لكن صداماً أَصَمَّ أذنيه عنها. وثمة رأي معارض، مؤدّاه أن الرئيس العراقي كان يعلم يقيناً أن الحرب ستقع لا محالة، إلاّ أنه رأى أن انسحابه من الكويت، في تلك المرحلة، سوف يزعزع موقفه، وهذا يعني أنه آثر التضحية ببلده إنقاذاً لنفسه.

كانت التعزيزات العسكرية الأمريكية هائلة حقاً؛ إذ شملت الفيلق السابع بكامله، حيث نقل من أوروبا إلى الخليج، وأُنيطت به مهمة القيام بالهجوم الرئيسي على عمق الدفاعات العراقية وتدمير قوات الحرس الجمهوري. بالإضافة إلى ذلك، شملت التعزيزات الأمريكية الفرقة الأولى مشاة، وفرقة أخرى من مشاة البحرية، وثلاث حاملات طائرات إضافية، و ٤٠٠ طائرة مقاتلة.

قال لي شوارتزكوف: «لا أكاد أصدق! إنهم يعطونني أكثر مما طلبت».

وهكذا أصبحت القوات البرية التي حُشِدَت لمواجهة صدام تضم فيلقين أمريكيين كاملين (الفيلق الثامن عشر المحمول جواً والفيلق السابع)، وفيلقاً من مشاة البحرية الأمريكية، وفرقة مدرعة بريطانية وفرقة فرنسية خفيفة. إضافة إلى نحو فيلقين عربيين يتكونان من فيلق مصري، وفرقة سورية، وعدد من الألوية السعودية والخليجية. ولو أن هناك قوة عسكرية لا تقهر، لكانت هي هذه القوة.

كان الحذر الزائد والتردُّد في قبول المخاطرة مسيطراً على فكر شوارتزكوف عندما اشترك في التخطيط المبدئي للعمليات، فلم يتخلَّ حتى النهاية عن الاعتقاد، بل الإعلان أن العراق قوة هائلة لا يُستهان بها. كما بدا قلِقاً من فرق الحرس الجمهوري المدرعة. ولهذا، كان يطلب المزيد من القوات والإمدادات ودبابات إبرامز M1A1 التي كانت الوحيدة، في تقديره، القادرة على مجابهة الدبابات العراقية T-72.

نصت العقائد القتالية للحرب البرية، مثلما نصت في الحملة الجوية، على استخدام القوة الهائلة المتفوِّقة لتحقيق النصر السريع. فبعد الدمار الذي أحدثته

الحملة الجوية، وهي أضخم حملة جوية لتحضير ميدان المعركة تُنفذ منذ الحرب العالمية الثانية، ثبت أن العراق أصبح ضعيفاً هشّاً، ولا شك أن المؤرخين العسكريين سوف يقررون إن كانت مخاوف شوارتزكوف في محلها أم مبالغاً فيها!

وأذكر أن ديك تشيني والفريق أول كولين پاول، قاما بزيارة إلى الرياض في ١٩ و٢٠ ديسمبر للمراجعة النهائية لخطة عاصفة الصحراء. وأذكر أنني ذهبت لمقابلتهما في قاعدة الرياض الجوية مع شوارتزكوف، والسفير الأمريكي تشارلز فريمان. كانت لحظة حاسمة، إذ كان كل منّا يدرك ألاّ رجعة في القرار. كانت آلة التحالف الحربية توشك أن تدور لترسم بنيرانها مستقبل الأحداث.

على الرغم من أن الخطة العسكرية كانت غاية في التعقيد، إلاّ أن مفهومها الأساسي كان غاية في البساطة، وتناولته كتابات عدة. تتركز الخطة على إيهام العراق بأن الهجوم الرئيسي سيُشَنّ من الشرق، بينما يأتيه ذلك الهجوم من الغرب، وهو الجنب الذي تركه العراق دون حماية تقريباً. كان من شأن عمليات الخداع والهجمات الخداعية أن تُجبِر القوات العراقية على البقاء متمركزة في جنوب شرقي الكويت، خشية هجوم برمائي تشنه قوات مشاة البحرية على ساحل الكويت. وهذا ما نجح الأمريكيون في ترويجه، عندما نفذوا تدريبات تجريبية على الإنزال البحري في عُمان، وصوَّرته شبكة CNN التليڤزيونية. وتم تسريب خطط هذا الإنزال البحري إلى اليابان، على أمل أن يلتقطها السفير العراقي في طوكيو.

كانت الخطة تقضي بأن تنطلق قوات التحالف البرية إلى مواقعها الهجومية تحت غطاء الحملة الجوية الإستراتيجية. ويكلَّف الفيلق السابع الأمريكي، الذي كان يضم أقوى الوحدات المدرعة في العالم، بالاشتراك مع الفرقة الأولى المدرعة البريطانية في الهجوم الرئيسي، مع هجمة مساندة إلى الغرب، وثلاث هجمات مساندة إلى الشرق. يُنَفّذ الفيلق الثامن عشر المحمول جواً بالاشتراك مع الفرقة المدرعة الفرنسية الهجوم المساند غرب الفيلق السابع، بهدف الالتفاف لمحاصرة القوات العراقية في مسرح العمليات الكويتي. أمّا الهجمات الثلاث المساندة إلى الشرق فتتم كالآتي: الهجوم المساند الأول. في أقصى الشرق، تنفذه القوات المشتركة في المنطقة الشرقية، وإلى الغرب منها تقوم مشاة البحرية الأمريكية بالهجوم المساند الثاني. أما الهجوم المساند الثالث، فتقوم به القوات المشتركة في المنطقة الشمالية إلى الغرب من مشاة البحرية الأمريكية. والغرض

من هذه الهجمات الثلاث اختراق الدفاعات الحصينة، وتدمير القوات العراقية، ومنع انسحابها. وأسنَدتْ الخطة مهمة استعادة مدينة الكويت إلى قواتي في المنطقتين الشرقية والشمالية.

لم أكن راضياً عن تلك الترتيبات، لسبب واحد، هو أن استخدام التشكيلات الأمريكية الضاربة الرئيسية لتنفيذ عملية الالتفاف (المسماة بـ«الخطاف الأيسر») عبر الصحراء الغربية العراقية، يؤدِّي إلى تحمُّل القوات المشتركة، في المنطقتين الشرقية والشمالية، العبء الأصعب في اقتحام الدفاعات العراقية الحصينة في الكويت. كنت حريصاً، منذ بداية التخطيط، على أن تكون القوات العربية التابعة لقيادتي في الطليعة عند تحرير الكويت. وبعد تحقُّق هذه الغاية في خطة «عاصفة الصحراء»، أصبحت أكثر حرصاً على تنفيذ مهمتي بأقل خسائر ممكنة في الأرواح والمعدات، وذلك بضمان حصول قواتي على الإسناد الجوي اللازم والإسناد النيراني القوي من المدفعية على السواء. كنت متأكداً أن المدفعية العراقية متفوِّقة على ما لدينا في القوات المشتركة من مدفعية وراجمات صواريخ وهاونات من جميع الأعيرة. كما كنت أعتبر مدفعيتهم أقوى سلاح لديهم؛ لِما اكتسبته من خبرة خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية، ولاتِّباعها مبادئ المدرسة السوفيتية، التي تقضي بحشد أعداد هائلة ومتفوقة من قطع المدفعية. لذا، كان من المحتم أن تُسكَت هذه المدفعية، أو تُدمَّر قبل بدء الهجوم.

وعلى وجه التحديد، ولضمان تحقيق نسبة التفوُّق المطلوبة لمصلحة القوات المهاجِمة على القوات المدافعة، كنت أريد التأكد من أن الوحدات المدرعة ووحدات المدفعية العراقية المواجهة لقطاعيْ مسؤولية القوات المشتركة، الشرقي والشمالي، قد تكبَّدت خسائر بنسبة ٥٠٪ على الأقل. وقد أوضحت لشوارتزكوف أن قواتي لن تتقدم شبراً واحداً قبل أن تحقِّق الحملة الجوية هذه النسبة. وكان الجدل على أشدِّه بين قادة قوات التحالف في شأن كيفية التثبُّت من تحقيق نسبة الخسائر المطلوبة، وتحديد أنسب قطاع مسؤولية لكل قوة.

وكان ثمة أمر مهم شغل تفكيري، هو احتمال قيام صدام بمهاجمة قواتي أثناء تحرك القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية إلى الغرب لاتخاذ مواقعها الهجومية. وقتئذٍ، سيكون مئات الآلاف من الرجال يتحركون من الشرق إلى

الغرب ومعهم عشرات الآلاف من العربات والدبابات وقِطع المدفعية والدفاع الجوي وغيرها من العتاد. كانت تلك في نظري، لحظة من اللحظات التي يمكِن أن يستغلها صدام للإفلات من مناورة «الخطاف الأيسر». كما كانت الخطة تقضي ببقاء فرقة مشاة أمريكية واحدة فقط كاحتياطي المسرح (في قطاعيْ الفيلقين السابع والثامن عشر). ولم أكن متأكداً من أن تلك القوة ستكون كافية إذا نشأ تهديد للمنطقة الخلفية. بيد أنه في مواجهة السيادة الجوية الكاملة التي كان يتمتع بها التحالف، لم يكن في وسع صدام أن يفعل شيئاً ذا بال.

كانت عملية استعادة دولة الكويت معضلة في حد ذاتها؛ إذ قام العراقيون إثر الغزو بنشر عوائق كثيرة وكثيفة، تجعل مهمة القوات التي تحاول طردْهم أو زحزحتهم عنها صعبة للغاية، إن لم تكن مستحيلة. كانت هناك خنادق مضادّة للدبابات، وتحصينات ميدانية، وحقول ألغام مختلطة مضادة للأفراد ومضادّة للدبابات، وخنادق مملوءة بالبترول. وكانت الشواطئ على طول الساحل الكويتي مزروعة بالألغام، ومحمية بالنيران. كما شَكّلت المباني، وخطوط الأنابيب الممدودة فوق سطح الأرض، والبنْية الأساسية الصناعية، عوائق إضافية أمام تقدُّم القوات المهاجِمة، فضلاً عن السكان الموجودين داخل الكويت حتى ذلك الحين. لم يكن هناك سوى الحد الأدنى للحماية من النيران المباشرة وغير المباشرة. كما كنت أرى، أن استعادة مدينة الكويت مشكلة أكثر تعقيداً. فإذا قرر العراقيون الصمود والقتال، فلن تتحرر المدينة إلاّ بقتال متلاحم، من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت. لذا، أعددت خطة طوارئ تقضي، في حالة حدوث هذا الاحتمال، بمحاصرة القوات العراقية داخل المدينة لأسابيع عدة بدلاً من اقتحامها، تجنباً لآلاف الخسائر التي يمكِن أن تقع في الأرواح بين العسكريين والمدنيين على حدٍّ سواء.

وعندما حان الوقت، كانت استعادة مدينة الكويت أمراً سهلاً، بعد أن انسحب العراقيون منها. وكان عدد الخسائر الناجمة عن قتال العدو أقل بكثير من تلك الناجمة عن الحوادث العارضة، وهو ما لم يتوقعه حتى أكثرنا تفاؤلاً.

وكان الإمداد والتموين هاجساً آخر شغل تفكيري، خاصة بعد مضاعفة عدد القوات وإصرار شوارتزكوف على تدبير احتياطي يكفي لستين يوماً بدلاً من ثلاثين. أصبح نظام الإمداد والتموين بكامله تحت ضغوط هائلة لا يحسد عليها، فضلاً عن زيادة النفقات عدة مليارات من الدولارات. ولا أرى أننا في حاجة إلى

إعادة تناول موضوع الإمداد والتموين مرة أخرى، إذ تناولناه بشكل مفصل في الفصل السابق.

أمّا المصدر الثالث للقلَق، فيُعزَى إلى أن قوات التحالف لم تكن مستعدة لخوض المعركة البرية قبل شهر فبراير ١٩٩١. وكنت أعرف أن وحداتي لن تكون جاهزة للقتال قبل نهاية شهر يناير، إلا أن كل تأخير في الموعد كان يزيدني قلَقاً. فشهر رمضان من ذلك العام، الذي وافق حينذاك منتصف شهر مارس، كان على الأبواب، وكانت المواجهة بين التحالف والعراق قد أثارت مشاعر التعاطف في كثير من البلدان العربية والإسلامية، مما ينذر بحدوث أحد احتمالين:

الأول، أن تندلع المظاهرات العنيفة في عدد من البلدان، إذا استمرت الأزمة فترة طويلة، وقد تؤدي إلى شلل في بعض المدن. فكان من المتوقَّع مثلاً أن تقع اضطرابات في السودان وپاكستان وبنجلاديش وماليزيا وإندونيسيا وفي شمال أفريقيا (ففي تلك المنطقة البعيدة عن بؤرة الصراع، كان هناك اتجاه إلى مساندة صدام، إذ كانوا ينظرون إليه كضحية للاستعمار الغربي). ففي الحرب، يجب على المرء أن يُعد العدة لمواجهة أسوأ الاحتمالات، ويحسب لها كل حساب.

الاحتمال الثاني، إذا استمرت الأزمة لمدة سنة، وتمكَّن العراقيون من الصمود، فإن ذلك قد يفتح علينا جبهات أخرى، مما يضع التحالف أمام تحديات خطيرة. فربما يفكر اليمنيون في اغتنام الفرصة، ويحاولون اختراق حدودنا الجنوبية. وربما استغل الأردن الموقف لمصلحته، ويحاول الملك حسين تحقيق أحلامه في المطالبة بالحجاز.

كان عليَّ أيضاً أن آخذ في الاعتبار أن غزو الكويت قد يكون جزءاً من حملة جيدة التخطيط، طويلة المدى، وأن صداماً قد زرع بالفعل عملاء له داخل المملكة، إذ تلقيت تقريراً يشير إلى أن العراق جنّد رجالاً من الوحدات المصرية والسورية وأسند إليهم مهمة اغتيالي. ومن المؤكد أن ذلك التقرير كان مبنياً على معلومات خاطئة من شأنها أن تضعف من تماسك التحالف، ولكنه كان يثير قضية حساسة. لم أكن راغباً في أن تتولد لدى السعوديين شكوك حول القوات العربية التي جاءت لمساندتنا، ولم أكن راغباً في إثارة حفيظة المصريين والسوريين إذا ما تناهى إلى أسماعهم مثل هذا التقرير. كان من شأن هذه الأمور أن توجِد حالة من عدم الثقة. ولكي أثبت عدم اكتراثي لذلك التقرير وللذين يروِّجون له، عمدتُ إلى زيارة القوات المصرية في الميدان، وخاطبت الضباط والجنود وهم ملتفون حولي على

شكل نصف دائرة، ثم تجاهلت طاقم حراستي، واندفعت وسط الجنود لأصافحهم. أثلجتْ صدري الابتسامات التي ارتسمت على وجوههم، والحرارة التي طبعت استقبالهم. غطت وسائل الإعلام الغربية والعربية ذلك الحدث بشكل مكثف، ونجحت بذلك في وأد الفتنة في مهْدها.

ولكن حتى إن لم تكن كل هذه المخاوف سوى أوهام، فإنني لا أنكِر أن وجود ما يقرب من٧٥٠ ألف جندي، بينهم نحو نصف مليون أمريكي، كان قضية تدعو للاهتمام والقلق. فلم أكن أعرف بالتحديد تأثير وجود هذا الحشد المتباين من الأعراق واللغات والثقافات والعادات والتقاليد والمعتقدات في الشعب السعودي نفسه، ولهذا كنت أودُّ أن تُحسم الأزمة في أسرع وقت ممكن.

أدى النقاش حول خطة عاصفة الصحراء إلى أحد الخلافات الخطيرة بيني وبين شوارتزكوف. كان من عادتنا أن نلتقي كل مساء لمعالجة المشاكل التي تبرز خلال اليوم. وذات مرة، وبدلاً من الانتظار حتى موعد لقائنا اليومي، كتبت بعض النقاط وأرسلتها إليه حتى تكون لديه الفرصة للتفكير فيها. وكان عنوان المذكرة، التي أرسلتها إليه باللغة العربية، «نقاط للمناقشة في شأن عملية عاصفة الصحراء»، وهذا يعني أنها لم تكن أكثر من نقاط مطلوبة مناقشتها.

ضمَّنتُ تلك المذكرة عدة مسائل، كانت تشغل تفكيري في الأسابيع السابقة، ولم تكن قد نالت حظها من النقاش أثناء اجتماعاتنا اليومية. كنت أسعى، في واقع الأمر، إلى الحصول على معلومات بشتى الطرق. فقد كنت أتعامل مع قوة عظمى، ولم يكن هناك سبيل سهل للإحاطة بكل ما لديها من معلومات تفصيلية. كان السبيل الوحيد أمامي للوصول إلى بعض الحقائق هو المبادرة إلى المناقشة أو إثارة مسائل جدلية مع شوارتزكوف. كنت أخشى، في قرارة نفسي، أن تكون الخطة التي اشتركنا في وضْعها مع الجانب الأمريكي خطة وهمية، تختلف تماماً عن النوايا العملياتية الحقيقية.

أوردت في مذكرتي عدة نقاط، تناولت إحداها أسبقية قصف الأهداف خلال الحملة الجوية الإستراتيجية. كنت أريد أن أعرف أيّ الأهداف سيتم تدميرها أو إسكاتها أولاً. (كنت قد طلبت إيجازاً كاملاً عن الحملة الجوية قدَّمه في غرفة العمليات الفريق هورنر وعاونَتْه باقتدار امرأة برتبة رائد من استخبارات القوات

الجوية للقيادة المركزية، إلاّ أن المعلومات التي قُدمت لي لم تكن وافية). فبمراجعة المسودة الأولى لخطة العمليات المشتركة، اتضح لي أن بعض المهام كانت غامضة، وأن الأسبقيات لم تكن واضحة. وأدركت أن الحملة الجوية أصبحت حكراً على الولايات المتحدة إلى حدٍّ كبير، وعلى الرغم من ذلك، كان من الضروري أن أعرف ما سيتم تنفيذه من مهام أثناء الحملة. ولكي أحصل على المعلومات التفصيلية، كان عليّ أن أُظهِر أنني مُلِمٌّ بالتفاصيل ومهتم بها.

كان اهتمامي الأول، هو التأكد من إعطاء الأسبقية القصوى لتدمير صواريخ سكود العراقية عند بدء الحملة الجوية، وذلك لما له من تأثير نفسي بالغ في المدنيين في المملكة. وكنت أخشى أن تسبب هذه الصواريخ حالة من الذعر إذا أصابت مدننا، إذ لم يكن لسكانها سابق عهد بالحروب. كما أن هجوماً على إسرائيل بصواريخ سكود، كان من شأنه أن يرفع شعبية صدام، ليس في العالم العربي فحسب، بل في العالم الإسلامي أيضاً، وهذا ما حدث بالفعل، على الرغم من ضعف التأثير العسكري لتلك الصواريخ.

ولهذا السبب، ضمَّنت مذكرتي قائمة بأسبقية الأهداف التي يجب تدميرها، تبدأ بصورايخ أرض ـ أرض، ثم القوات الجوية العراقية بمطاراتها ومنشآتها الجوية، ثم مراكز القيادة والسيطرة والاتصالات ومراكز المراقبة والتشويش الإلكترونية، ثم نظام الدفاع الجوي، فمدفعية الميدان وراجمات الصواريخ قرب حدودنا، ثم مستودعات الذخيرة ونقاط إمداد الوقود في الكويت وجنوب البصرة. وأوضحت أن تلك الأهداف جميعها تشكل تهديداً مباشراً لقواتي، وأن تدميرها ضروري لضمان نجاح الهجوم البري.

وثمة مسألة أخرى أَثَرْتها في مذكرتي تتعلق بدور القوات الخاصة. ففي كثير من الحملات الحربية التي درستها، كانت المعلومات التي تجمعها القوات الخاصة خلف خطوط العدو تؤدي إلى تغييرات جوهرية في خطط العمليات. وتساءلت عن الحكمة من الاعتماد كلية على القوة الجوية في المرحلتين، الأولى والثانية من الحملة. أَلَمْ يكن من الأوْفق أن يكلِّف التحالف القوات الخاصة بشنّ غارات خلف خطوط العدو حتى قبل بدء الحملة الجوية؟ كان في قدرة مثل هذه القوات جمع المعلومات، وخطْف الأسرى، وإثارة حالة من الذعر والفوضى بمهاجمة المواقع المنعزلة. ولمّا كان ذلك موضوعاً حساساً، لم أشأ أن أمارس ضغطاً كبيراً للحصول على معلومات في شأنه، ولكني كنت أرغب في أن أُحاط

علماً بمجريات الأمور بشكل عام. كنت أريد أن أعرف، مثلاً، ما إذا كان في وسعنا الاستعانة بالقوات الخاصة الأمريكية إذا حدث أن أُسقط أحد طيارينا فوق الأراضي العراقية؟ كما كان في وسعي أن أساعد تلك القوات الخاصة إذا عرفت، على وجه التحديد، القطاع الذي تعمل فيه. ولكنني علمت، بعد ذلك، أن القوات الخاصة الأمريكية كانت قد دخلت العراق قبل أسبوع تقريباً من بداية الحملة الجوية. وعلى العكس من الأمريكيين، كان البريطانيون أكثر ثقة بنا، إذ عَبَرَتْ قواتهم الخاصة SAS خلال قطاع مسؤوليتي إلى الأراضي العراقية، قبل ذلك بأسابيع عدة، وبذلنا لهم كل مساعدة ممكنة.

وتساءلت أيضاً في المذكرة عن موضوع مختلف تماماً، محوره إلى أي مدى أفادت خطة عملية عاصفة الصحراء من الإمكانات والقدرات الفريدة للفرقة ٨٢ المحمولة جواً، والفرقة ١٠١ اقتحام جوي؟ فالفرقتان تتميزان بالسرعة، وخفة الحركة، والقدرة على الاستيلاء على الأهداف الحيوية خلْف خطوط العدو. لقد بدا لي أن شوارتزكوف كان ينوي استخدام هاتين الفرقتين مع ما تتمتعان به من قدرة قتالية متفوِّقة، كأنهما من فرق المشاة العادية. وأوضحت في المذكرة أن استخدامهما داخل عمق العراق، من شأنه أن يخلق حالة من الفوضى والذعر، ربما تؤدي في النهاية إلى انهيار الجبهة العراقية بكاملها. كان السبب في استفساري عن استخدام هاتين الفرقتين بالتحديد هو خشيتي أن تكون تفاصيل الخطة قد حُجِبَت عني، وزاد من شكوكي ما اعتبرته استخداماً غير صحيح لهاتين الفرقتين. كنت أعلم أن أسئلتي ستثير استياء شوارتزكوف، ولكني كنت أعتقد أن ردود فعله سوف تكشف لي إن كانت الخطة التي عُرضت عليّ، هي الخطة الحقيقية أم لا!

أما عن القطاعين الشرقي والشمالي، اللذين يقعان تحت قيادتي، فقد استفسرت عن المهام التفصيلية التي كُلِّفتْ بها وحداتي، وإن كان فريق التخطيط المشترك قد أدخل في حساباته قوة العدو الذي ستواجهه تلك الوحدات، وقطاع الاختراق لها، والأهداف المطلوب تحقيقها، وهل من الأفضل أن تكون هناك وقفة تكتيكية في نهاية كل يوم من أيام القتال. كنت أشعر أن الخطة حددت مهمة القوات المشتركة بصفة عامة، ولم توضح: ماذا؟ ومن؟ وأين؟ ومتى؟ ولماذا؟ خمسة أسئلة تجب الإجابة عنها لتحديد مهمة كل وحدة بوضوح وبعبارات محددة لا لَبْس فيها. كانت وحداتي في حاجة إلى معرفة الدور الذي ستؤديه بشكل

واضح، فضلاً عن أن الخطة لم تحدد الوحدات التي ستبقى في المواقع الدفاعية، بعد مغادرة القوات المهاجِمة لها.

كما عَبّرتُ في مذكرتي عن اهتمامي في شأن اليمن والأردن والسودان وإيران. واقترحت ضرورة زيادة عمليات الاستطلاع والمراقبة لهذه الدول، فلو شُنّت علينا هجمات صاروخية مفاجئة، لتعذر علينا، ونحن في خضم المعركة، أن نحدد مصدر الهجوم.

بيد أن أكثر النقاط إثارة للخلاف في مذكرتي كانت تتعلق بتركيا. إذ تساءلتُ: أَلَيس من الحكمة أن نضع خطة طوارئ لشنّ هجوم رئيسي على العراق من تركيا؟ كنت أقصد، بطبيعة الحال، الهجوم الجوي (كما سأوضح في الفصل القادم) الذي يهدف إلى إصابة العراق بالشلل. وقد يدفع ذلك صداماً إلى الاعتقاد بأن الهجوم البري سيأتي من الاتجاه نفسه. كانت ميزات هذا الاقتراح كثيرة. فاذا استطعنا فتْح جبهة ثانية في الشمال، فإن ذلك سيجعلنا نهاجم جناحاً ضعيفاً في دفاعات صدام، ونربِك خطوط إمداده بإجباره على إرسال الرجال والإمدادات على وجه السرعة إلى الشمال. وهذه المباغتة ستضطره إلى تشتيت قواته وبعثرة قدراته، وقد تجبره على الاستسلام من طريق التلويح باحتمال تقسيم العراق. وأوضحت أن النجاح على الجبهة الشمالية من شأنه أن يرفع الروح المعنوية لقوات التحالف.

كنت قد أثَرْت مع شوارتزكوف، من قبل، وفي مناسبات عدة، فكرة فتْح جبهة ثانية من تركيا. وكان الرد، في كل مرة، أن الأمر ما زال محل نقاش مع الأتراك. وبإثارتي هذا الموضوع مرة أخرى في مذكرتي، أردته أن يعلم أن هذا الأمر لا يزال محل اهتمامي. وعلى الرغم من أن خطة عاصفة الصحراء لم تتطرق إلى شنّ هجوم من الأراضي التركية، إلاّ أن الحملة الجوية أوضحت، بجلاء، أنه سوف يتم استخدام القواعد الجوية المجاورة التابعة لحلف شمال الأطلسي، بما في ذلك بلا شك القاعدة الجوية التركية في إنجرليك Incirlik. فما هي حقيقة الوضع؟

لم يكن خافياً، وقتئذٍ، أن الرأي العام التركي كان منقسماً على نفسه في شأن مشاركة تركيا في الحرب. أعطى الرئيس أوزال Ozal تأييده المطلق للتحالف، إلاّ أن غالبية مواطنيه كانت تفضل التزام الحياد. ولعل الخوف من قيام العراق بتوجيه ضربة مضادّة إلى تركيا، هو الذي دفع القادة العسكريين الأتراك إلى معارضة

إرسال قوات برية إلى المملكة. ولحسن الحظ، لم نكن في حاجة إلى تلك القوات. أدت هذه القضية إلى استقالة وزير الدفاع التركي صافات جيراي Safat Giray في شهر نوفمبر، وتبِعه بعد ذلك الفريق أول نجيب طورمطاي Necip Torumtay، رئيس الأركان القوي. ولكننا والأمريكيين كنّا نأمل أن ترسل إلينا تركيا قوة، ولو رمزية.

وقبل بدء الحملة الجوية بأسابيع عدة، وفي محاولة لإقناع الأتراك بالاشتراك في التحالف، طلبت منّا القيادة المركزية الأمريكية في الرياض السماح لها بدعوة بعض كبار الضباط الأتراك إلى المملكة لإطلاعهم على الموقف. فأجبت على الفور بأن الدعوة يجب أن تصدر عنّا نحن. وهكذا أُرسلت الدعوة، ووصل الوفد التركي. فقدّمنا إلى أعضائه شرحاً موجزاً للخطة ورتبنا لهم زيارة إلى غرفة الحرب.

اجتمعتُ، مرات عدة، إلى السفير التركي الذي أكد أن بلاده تَعُدّ نفسها شريكاً في الصراع، وأنها ترتبط بعلاقات تاريخية وثيقة مع المملكة. ولكنه أوضح أن ثمة قيوداً على الخطوات التي يمكن أن تتخذها تركيا. وأشار إلى أن بلاده أثارت حفيظة العراق بالفعل بإغلاقها خط الأنابيب، الذي يحمل النفط العراقي عبر أراضيها.

كانت الإشارة إلى موضوع تركيا، في مذكرتي، هي القشة التي قَصَمَت ظهر البعير بالنسبة إلى شوارتزكوف! فقد لامَسَتْ وتراً حساساً نظراً إلى حساسية الظروف السياسية التي تحيط بذلك الموضوع. كنت في اجتماع إلى لجنة كبار الضباط عندما أخبرني العقيد أحمد لافي، الركن الشخصي، أن شوارتزكوف يرغب في مقابلتي في مكتبي في أقرب وقت. فأرسلت إلى شوارتزكوف أخبره بأنني سأمرّ بمكتبه في طريق عودتي بعد أن أفرغ من ذاك الاجتماع. وكان ذلك يخالف النظام المتَّبَع في اجتماعاتنا.

من لحظة دخولي إلى مكتبه، أحسست أن شيئاً ما قد حدث. بدا الرجل على غير عادته! لم يخرج لاستقبالي كما تقتضي قواعد اللياقة، ولم يدعُني للجلوس، بل ظل واقفاً، ووجْهه يتفصَّد غضباً، مما جعل الدم يغلي في عروقي أنا الآخر.

لَوّح لي بورقة كانت في يده وقال، بنبرة حادة لم ترُق لي:

«أتعترض على خططي للهجوم؟ وما هذا الذي تقوله عن تركيا؟ إن الملك فهداً، نفسه، وافق على شَنّ الهجوم من الأراضي السعودية».

أجبته غاضباً: «هل قرأت مذكرتي؟». فقال: «لم يحدث قط أن تدخلت في شؤون قواتك، فَلِمَ تسأل عن قوّاتي؟».

وكما توقعت، لم يرحِّب شوارتزكوف بملاحظاتي على أسلوب استخدامه للفرقة ٨٢ المحمولة جواً والفرقة ١٠١ اقتحام جوي.

أضاف شوارتزكوف بانفعال: «إن تشيني والرئيس بوش قد علِما بمذكرتك هذه». وبدا لي أنه قام بنقل مذكرتي بالتسلسل القيادي إلى قيادته العليا، إلى رئيس هيئة الأركان المشتركة، فالوزير تشيني، فالرئيس بوش نفسه.

قلت له: «هذه ورقة مناقشة ليس إلاَّ. ومن المؤكد أن مترجمك أخطأ الترجمة».

لم يغير ذلك شيئاً في الموقف، وشعرت بأن صِداماً سيقع بيننا لا محالة.

أردف يقول: «وماذا عن السوريين؟ سمعت شائعات تقول أنهم لا يريدون القتال».

فأجبته: «ولكننا لم نتلقَّ إجابتهم بعد».

فصاح قائلاً: «يا إلهي! ماذا تعني؟».

كنّا قد سألنا السوريين من قبل عن موقفهم، فأجابوا بأن مهمتهم تقتصر على الدفاع عن المملكة، ولم نكن نعرف، حتى ذلك الوقت، إن كانوا سيشاركون في العمليات البرية لتحرير دولة الكويت أم لا.

قلت له: «هذه مشكلتي أنا. ولا دخْل لك فيها. لقد توجَّه وزير خارجيتنا الأمير سعود الفيصل إلى دمشق لمقابلة الرئيس الأسد. وستتضح لنا الأمور بعد عودته».

لم يلقِ شوارتزكوف بالاً إلى الشرح الذي أوضحته، وتفوه بكلمات غير لائقة عن موقف السوريين. ثم انتقل مرة أخرى إلى موضوع المذكرة. ويبدو أنه ظنَّني أتحدى سلطاته.

صاح بحدة تزداد شيئاً فشيئاً: «هل هذا هو موقفك النهائي؟ نريد أن نعرف! هل تصرُّ على خطة بعينها؟».

عند هذا الحد بدأت أصواتنا ترتفع، فصرخت به: «لا ترفع صوتك، ولنتوقف عند هذا الحد قبل أن يزداد الأمر بيننا سوءاً!». وخرجت من الغرفة على إثر هذه العبارة.

بعد تلك المشادة الكلامية بيننا، لزم كل منّا مكتبه. ولم يعلم بالأمر إلاّ المقرّبون من أركاننا. كنت حريصاً على تجنُّب مقابلته، فلم أحضُر اجتماع «الاستماع إلى التقارير» تلك الليلة، ولم يحضُره هو الآخر.

اتصل بي الأمير سلطان تلك الليلة هاتفياً، وأبلغني رغبته في أنْ أبحث إحدى المشاكل مع شوارتزكوف. فوجدت نفسي مضطراً إلى أن أخبره أننا لسنا على وفاق ولا يكلِّم أحدنا الآخر، وأن من الأفضل تأجيل بحث ذلك الأمر يوماً أو يومين.

أبدى سمو الأمير اهتماماً بالأمر وقال: «هل في وسعي أن أفعل شيئاً؟ لا مفر من التعامل معه . . . لا يمكنك . . .».

قلت له: «أرجوك يا سيدي وأتوسل إليك أن تترك لي هذا الأمر. فإذا شعرت أننا قد وصلنا إلى طريق مسدود، فسوف أحيط سموكم عِلماً بذلك. إن الأمر، الآن، لا يعدو أن يكون مشاحنة بين قائدين فقدا صوابهما».

اتصل بي الأمير سلطان مرة أخرى يسألني: «هل أستدعيكما إلى مكتبي؟». لم أوافق على ذلك، كنت أريد أن يأتي إليّ شوارتزكوف من تلقاء نفسه.

لم أرَ شوارتزكوف في اليوم التالي، وعقدت اجتماعاتي كالمعتاد. ولكني أرسلت الركن الشخصي، بعد ظهر ذلك اليوم، ليخبر ركنه الشخصي بأن اجتماعنا المسائي سيتم في موعده المعتاد. وهكذا، حضر شوارتزكوف، وبدت عليه علامات التوتر والترقب. وعلى غير عادتي، لم أذهب لاستقباله عند باب مكتبي.

بادرته قائلاً: «يا جنرال، إنني أدعوك للجلوس، وهو الأمر الذي فاتك أن تفعله عندما كنت أنا في مكتبك آخر مرة!».

تبادلنا الاعتذارات بعد أن أوضحت له أنني لم أكن أقصد أن أملي عليه إستراتيجية معينة.

قال: «لقد أمضيت يوماً عصيباً».

فأجبته: «بالمناسبة، عندما أذهب إلى مكتبك في المرة القادمة، تذكر أن عليك أن تخرج لاستقبالي وأن تدعوني للجلوس».

فصاح قائلاً: «هل جرحت شعورك؟».

فقلت: «طبعاً». وضحكنا من هذا الموقف.

زال سوء الفهم بيننا. وعادت علاقتنا، في لحظات قليلة، إلى ما كانت عليه من ودّ واحترام.

قال شوارتزكوف، وهو يهم بالانصراف من مكتبي: «خالد، هل رأيت وجهك وأنت غاضب؟ إنه يصبح أسود». ثم أردف يقول: «لا أدري كيف أتعامل معك يا خالد . . هل أتعامل معك بصفتك قائداً عسكرياً أم بصفتك أميراً؟».

فأجبته: «كلاهما».

وانتهى أمر تلك المذكرة عند ذلك الحد، على الأقل من جانبي.

ومن الجدير بالذكر أن رواية شوارتزكوف عن الحادثة في كتابه It Doesn't Take a Hero، تنقصها الدقة. إذ ادَّعى أنني «قلت على الملأ إن أفضل طريقة للحرب هي شنّ هجوم من الأراضي التركية». وهذا قولٌ غير صحيح، فلم يحدث أن تحدثت في هذا الموضوع على الملأ، فالذي حدث هو أنني نقلت وجهة نظري فقط إلى شوارتزكوف في رسالة خاصة. ولو أنني أعلنت على الملأ أن يكون الهجوم من الأراضي التركية بدلاً من المملكة، لتَصَدّر هذا الإعلان الصفحات الأولى من صحف العالم بأسره. والأدهى من ذلك والأمرّ، أنه كتب يقول إنني كنت «أتحدث عن أننا في المملكة لا نميل إلى مهاجمة إخواننا العرب». يريد أن يوحي بذلك أنني اقترحت تركيا لمعارضتي شنّ الهجوم من الأراضي السعودية. وهذا زعمٌ أقل ما يوصف به أنه يجافي الحقيقة.

عندما اقترحت مهاجمة العراق من الأراضي التركية والأراضي السعودية، كنت أتوقع الذي حدث بالفعل. إذ هاجمت الطائرات الأمريكية العراق من «أنجرليك» يوم ١٨ يناير. وكنت باقتراحي لذاك الهجوم في مذكرتي، أريد أن أبيِّن لشوارتزكوف أنني على حدسٍ بأن الأمر سيتم بتلك الطريقة. وكما هي الحال في جميع اتصالاتي مع شوارتزكوف، لم تكن مذكرتي، تلك إلاّ استدراجاً لجعلِه يطلعني على المعلومات الكاملة لديه. كنت مُصِرّاً على حقي في أن أعرف كل شيء، ولم أكن أتوقع أن يصل أمر مذكرتي إلى ما وصل إليه. ولكن ربما كانت لحظة الغضب تلك، انعكاساً للتوتر الذي يعتمل داخلنا. فما أن طفا التوتر على السطح حتى انتهى كل شيء بسلام.

في أوائل يناير، والاستعداد لبدء الحرب يجري على قدم وساق، أبدى الملك فهد رغبته في زيارة القوات في الميدان. فقدّرت أن توقيت الزيارة غير مناسب في تلك الفترة، فالحملة الجوية توشك أن تبدأ، وأخشى على سلامته.

ورجوت الأمير سلطان أن يقنعه بتأجيل زيارته إلى ما بعد الحرب. لكن الملك لم يوافق على ذلك، إذ كان يرغب في أن يكون قريباً من جنوده. وأراد أن يزور الميدان يوم السادس من يناير، وتم له ما أراد. واتضح، بعد ذلك، أن الملك كان مُحِقّاً، فقد أسهمت زيارته تلك في رفع روحنا المعنوية جميعاً، إلى حدٍّ تعجز عن وصفه الكلمات.

أصدرت أوامري، على الفور، بمظلة جوية كثيفة بالطائرات المقاتلة استعداداً لزيارة الملك. كانت مظلة كتلك التي أقمناها عند زيارة الرئيس بوش للقوات الأمريكية في الميدان في شهر نوفمبر بمناسبة عيد الشكر. ولكنني أردت أن يحظى مليكي بما هو أكثر. ففكرت في إقامة عرض عسكري ضخم، تمثلُ فيه وحدات من الدول المختلفة المشاركة في التحالف.

قلت لشوارتزكوف إن الملك يرغب في استعراض تشكيلات من القوات، وإنني أفضّل أن تكون القوات الأمريكية ممثَّلة في ذلك العرض. فقال إنه يشرّفه ذلك. وتخيلت جميع القوات المتحالفة السعودية والأمريكية والبريطانية والفرنسية والمصرية والسورية والمغربية والسنغالية وغيرها، وقد اصطفَّت جميعاً استعداداً للتفتيش من قبل خادم الحرمين الشريفين.

ولكن شوارتزكوف عاد فقال: «مهلاً، دعني أفكر في الأمر. إذا وضعتُ القوات الأمريكية ضمن القوات التي تحت قيادتك، وقام الملك باستعراضها معك، فسوف يوحي ذلك بأن رجالي يعملون تحت قيادتك أيضاً. ولن يقبل الشعب الأمريكي بهذا أبداً، فالقوات الأمريكية لا تعمل تحت قيادة دول أخرى، لأن ذلك مخالف للقانون».

اعترضت على ذلك قائلاً: «هذا ليس موضوع قيادة».

لكنه قال: «آسف جداً، إنك إذا رافقت الملك في سيارة مكشوفة بين صفوف قواتي في جولة تفقدية، فإن ذلك لا يعني سوى شيء واحد هو أن تلك القوات تعمل تحت قيادتك. إنني أكنّ للملك كل الاحترام، ولكن لا يسعني أن أوافق على ذلك».

بدا وكأن الأمر سيتحول إلى مشكلة بروتوكولات دبلوماسية. أجهدت وشوارتزكوف أذهاننا للخروج من ذلك المأزق. وأخيراً، توصلنا إلى حلٍّ يقضي بأن يقوم الجنود الأمريكيون بالعرض مستقلِّين. فأرافقُ الملك حتى موقع القوات الأمريكية، حيث يحل شوارتزكوف مكاني، فيرافقُ الملك في جولته التفقدية، ثم

يعود معه إلى مكاني، لأرافقه في استعراض وحدات الدول الأخرى. وقال شوارتزكوف تعليقاً على هذا الحل: «لست في حاجة حتى إلى الرجوع إلى واشنطن في هذا الأمر. إنني واثق أن كل شيء سيكون على ما يرام».

اتفقنا على أن نمضي في التخطيط على هذا الأساس. وكنت أشعر بالسعادة لأننا توصلنا إلى حل لتلك المشكلة. وكنت واثقاً من أن القوات التي تحت قيادتي لن تعترض على هذا الأسلوب. وعندما شرحت الأمر للسير بيتر دي لابلير، قال إن القوات البريطانية يشرّفها أن تشترك معي في ذلك العرض. ولم يبدِ الفرنسيون بدورهم أي اعتراض في هذا الشأن.

اتُّفِقَ على أن يتم العرض في حفر الباطن، حيث يتم نقل آلاف القوات في الطائرات من مختلف المناطق. وكنت حريصاً على أن نُقَدّم إلى الملك أروع عرض يمكن تخيُّله، وأن أجعل من ذلك مناسبة لم يسبق لها مثيل. لم يكن أمامنا سوى أقل من أسبوع لتنظيم العرض، لكننا وصلنا الليل بالنهار عملاً دون توقف.

وبينما كنت أفكر في الأمر، بعد أن أَوَيْتُ إلى فراشي، تذكرت شيئاً أقلقني كثيراً. كان اتفاقنا أن يتم عرض القوات الأمريكية في المطار، وذلك يعني أنها ستكون أول قوات يستعرضها الملك.

كيف لي أن أتصور مليكي يستعرض القوات الأمريكية قبل أن يستعرض قواته السعودية، وكادت هذه الفكرة تفقدني صوابي.

استدعيت ضباط أركاني في صباح اليوم التالي، وقلت لهم: «لن أسمح بأن يستعرض خادم الحرمين الشريفين قوات شوارتزكوف قبل قواتي، مهما كلَّف الأمر، ولا تبرحوا هذه الغرفة قبل أن تجدوا حلاً مناسباً».

طُرِحَ عددٌ من البدائل غير الملائمة، إلى أن قال أحدهم: «لِمَ لا نضع مجموعة من حرس الشرف السعودي ليقوم الملك باستعراضها عند هبوطه من الطائرة؟». كانت تلك هي الفكرة الصائبة. وتذكرت أن القوات البرية لديها جناح من الطائرات العمودية، وهكذا قررت أن تصطفّ تلك الطائرات على أرض المطار وأصطحب الملك في عربة مكشوفة لاستعراضها. وبعد أن ينتهي من ذلك الاستعراض، يأتي دور شوارتزكوف. ثم بعد أن يفرغ الملك من استعراض القوات الأمريكية، أذهب إليه وأرافقه إلى مكان استعراضنا نحن. كنت أشعر بسعادة غامرة بعد أن توصلنا إلى حلٍّ لتلك المشكلة.

ويبدو أن بعض الأمريكيين قد شعروا بما عزمت عليه، كما لاحظت بالمثل أن ضباط أركاني فهِموا ذلك أيضاً. كان الأمر في حقيقته يعني أننا قد أعددنا للمليك ثلاثة عروض عسكرية. كنت أشعر، في قرارة نفسي، بأنني مدين له بالكثير الكثير، ولا بد أن يكون قائد قواته أول من يحظى بشرف استقباله. ولا غرو، فقد كانت تلك المرة الأولى في التاريخ الإسلامي التي يستعرض فيها قائد عربي مسلم قوات أكثر من ٢٤ دولة. كانت مناسبة ملأت جوانح نفسي سروراً وزهواً.

قدّم الملك في خطاب هزّ المشاعر شرحاً موجزاً لتاريخ الأزمة وجهوده المتكررة للتوصل إلى حلٍّ سلمي. وبيّن كيف سعى إلى استضافة الاجتماع الذي تم عقده في جدّة في الأول من أغسطس بين الشيخ سعد ولي عهد الكويت، وعزت إبراهيم نائب الرئيس العراقي، وكيف أن الرجلين اتفقا على استئناف المفاوضات في بغداد بعد ثلاثة أيام، يعقبها اجتماع آخر في الكويت. وكيف أنه فوجئ بل صُدِم عندما علم بغزو العراق الكويت بعد سبع ساعات من اجتماع جدّة.

وأعلن الملك، في ذلك المقام، أنه لن يكون هناك حلٌّ سلمي للأزمة إلاّ بانسحاب العراق من الكويت دون قيد أو شرط، وعودة الحكومة الشرعية.

وتساءل الملك عن الباغي، فأجاب أن الباغي هو من تحدّى العالم بأسره. ومضى في قوله أنه يعتقد أننا قد وصلنا إلى طريق مسدودة، وأن الباب لحلٍّ هذه المأساة يمكِن أن يُفتَح إمّا بالطرق السلمية أو بالطرق الأخرى. وأننا حريصون على انتهاج الطرق السلمية، وأكد أن الدفاع عن النفس حقٌّ مشروعٌ لا يسع أحداً أن ينكِره علينا.

كان فيضاً من المشاعر الجياشة اهتزت له أفئدة القوات التي جاءت من شتى الدول وقد اصطفت، جنباً إلى جنب، كي يستعرضها الملك.

الفصل التاسع عشر

الحرب الجويّة وَصواريخ سكود

كان تدمير قوة العراق العسكرية، بفعل الحملة الجوية الإستراتيجية للتحالف في يناير وفبراير ١٩٩١، أحد الأحداث المثيرة والرهيبة التي شهدها العقد الأخير من القرن العشرين.

إن المعجزات التقنية التي قامت عليها تلك الحرب، التي تُعَدّ حقيقة «الحرب الأولى في عصر الفضاء»، أمر شغل فكري وأثار إعجابي. ولكن قلبي كان ينزف دماً إزاء ما حل بشعب العراق الشقيق جرّاء طيش قائده وإجرامه. كانت مشكلة محيرة بالنسبة إليّ! كنت أدرك، دون أدنى شك، منذ نوفمبر ١٩٩٠، أنه إن لم ينسحب صدام من الكويت، دون قيد أو شرط، فالحرب واقعة لا محالة، ولا مفرَّ من تدمير آلة صدام الحربية. فقد بات من الضروري إزالة الخطر الذي كان يشكله على أمن المنطقة. كما أن سلوكه المَقِيت في الكويت، من تعذيب المدنيين، وقتل الأطفال أمام ذويهم، جعل الحرب ضده أمراً ليس ضرورياً فحسب، بل واجباً مشروعاً أيضاً.

تسبب صدام بغزوه الكويت ثم رفْضه الانسحاب منها، وهما خطآن لا يقل أحدهما فداحة عن الآخر، بسلسلة من الأحداث المتلاحقة عادت بالدمار على بلده، كما غَيَّرت أنماط الحياة وأساليب التفكير لدى عدد كبير من الناس في منطقة الشرق الأوسط. ففضلاً عن الدمار الذي أحدثته الحرب، وإخراج مئات الآلاف من ديارهم وسلب أموالهم، تسببت الأزمة بصدْع كبير داخل الوطن العربي، كما ألْقت بظلال من الشك على أحد المبادئ الراسخة في السياسة العربية منذ الحرب العالمية الثانية. وهو أن العرب أمة واحدة، مهما كانت خلافاتهم، تحدوهم الأفكار القومية نفسها، وتجمعهم وحدة الآمال والآلام،

ويتطلعون دائماً إلى التكاتف والتضامن وقت المِحن، بل إلى الوحدة السياسية الكاملة. ولكن تلك المبادئ جميعها ذهبت أدراج الرياح بفعل صدام، إذ تسبب ببذْر بذور العداء وعدم الثقة في العلاقات العربية بشكل لم يسبق له مثيلٌ.

وثمة بُعد آخر للأزمة، يهّم أمثالي من العسكريين. إذ فتَّح ذلك الصراع أعيننا على الثورة الهائلة في فنون الحرب وعلومها، وسلَّطَ الأضواء على الفجوة المتعاظمة بين قدراتنا وقدرات الدول المتقدمة، على الرغم من الجهود الحثيثة التي ما فَتِئْنا نبذلها للَّحاق بالركب.

أدت تلك الحرب، ضمن ما أدت إليه من سلبيات، إلى تَفَرّق العرب سياسياً وضعفهم عسكرياً. وهي آثار ما زلنا، بعد أربع سنوات من الأزمة، نجاهد للتغلب عليها، ورأب الصدْع الذي أحدثته.

خضعت حرب الخليج لقدر غير قليل من النقاش والتحليل، ولكن، قلّ من فهِم حقيقة أبعادها! فحتى الذين عايشوها يوماً بيوم، أخفقوا في استيعاب حقيقة أن الحرب على صدام في بدايتها على الأقل، كانت حرباً جوية محضة. وكانت من مقتضيات الخطة، استخدام القوة الجوية بشكل جديد ومكثَّف، لِشَلِّ قدرة القيادة العراقية على السيطرة والتحكم في قواتها، سواء في الهجوم أو في الدفاع. وبعد أن يصاب صدام وقيادته العليا بالعمى والشلل، يتم إضعاف القوة العسكرية التقليدية للعراق، وكذلك ما تمتلكه من أسلحة الدمار الشامل، بفعل أضخم وأشرس حملة جوية عرفها التاريخ.

كان صدام ينوي أن يحارب حرباً تقليدية، بطيئة الحركة، عتيقة الأسلوب، على غرار حربه على إيران، حيث تلتحم الجيوش البرية في اشتباكات بالسلاح الأبيض تستمر شهوراً، إن لم يكن سنين. ولا شك أنه كان يأمل في إيقاع أكبر قدْر من الخسائر في صفوف التحالف، كي يصرف الغرب عن الاستمرار في تأييده لتلك الحرب، ويُحرِز بذلك نصراً سياسياً، على الأقل، إذا لم يتسنَّ له نصر عسكري. لكن التحالف كان مصمِّماً على خوض معركة سريعة الحركة، عصرية الأسلوب، فائقة التقنية، تُدَار من بُعْد، وتُشَكِّل أسلحة القوات الجوية فيها عنصراً أساسياً وفعَّالاً. ويصبح هدف المعركة، في ساعاتها الأولى الحاسمة، هو تحقيق السيادة الجوية. وبتحقُّق السيادة الجوية للتحالف، يَضْحَى العراق تحت رحمته، ومن ثَمّ تُستخدم الأسلحة الحديثة ذات الدقة الفائقة، لتدمير قدرة صدام على الاستمرار في الحرب.

أدرك التحالف، بطبيعة الحال، أن القوة الجوية وحدها لا تستطيع تحقيق النصر في الحرب. فكان من الضروري خوض معركة برية لتحرير الكويت، وهو هدفنا الرئيسي من الحرب، واستكمال عملية الاستنزاف الرامية إلى تجريد صدام من قدْرته على تهديد أمن المنطقة واستقرارها في المستقبل. كانت قوات التحالف البرية، المشاة والدبابات والمدفعية، في غاية الأهمية لتنفيذ المرحلة الأخيرة من خطة الحرب. كما كانت صمام الأمان في حالة إخفاق الحملة الجوية في تحقيق الأهداف المرجوّة منها.

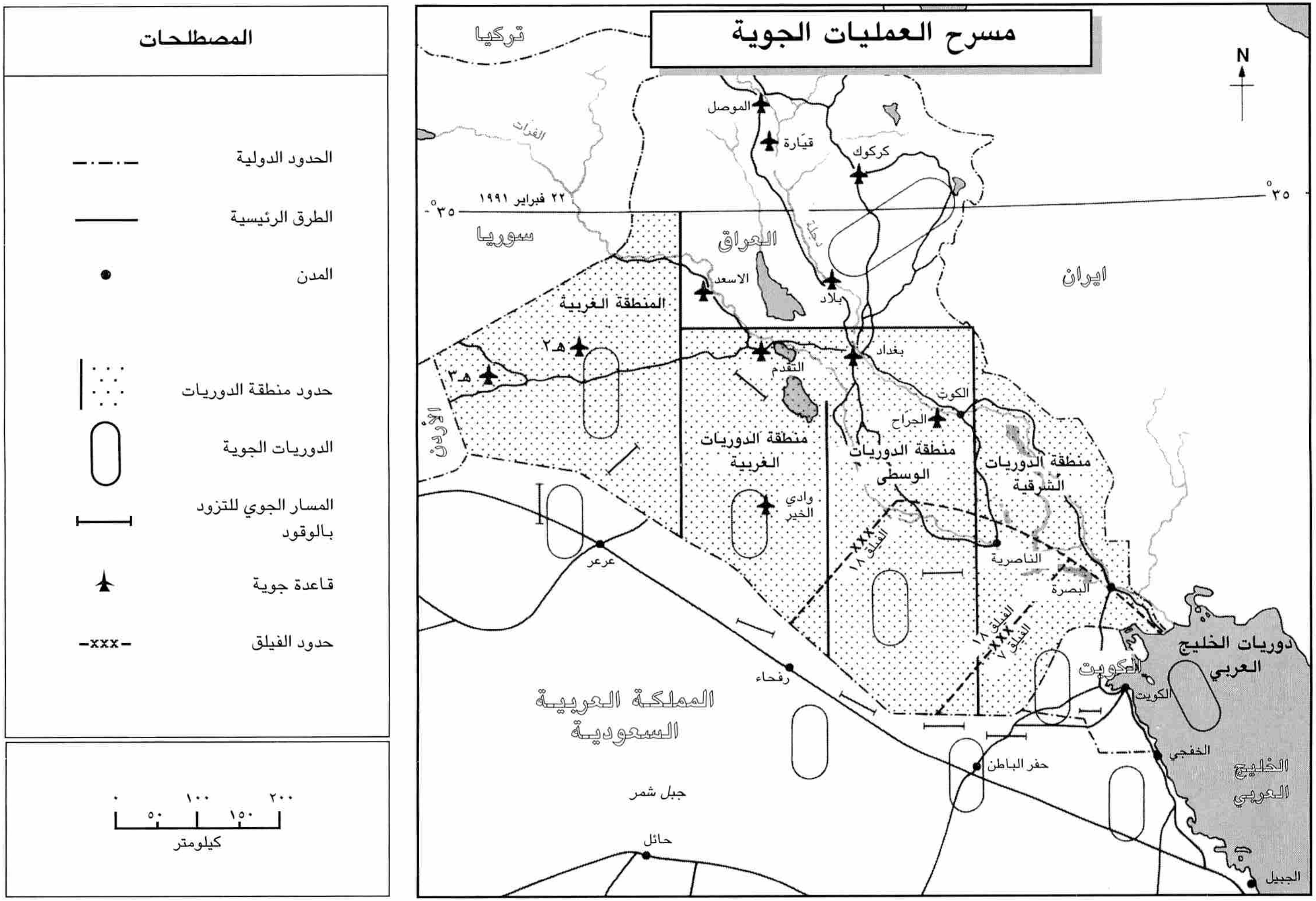
وقرب نهاية شهر أغسطس، شرعت مجموعة تخطيط خاصة تُعِدُّ لـ «الحملة الجوية». وبدأت مراحل عملها في الطابق الأسفل لمبنى قيادة القوات الجوية الملكية السعودية في الرياض. ونظراً إلى السرّية التامة لعمل تلك المجموعة، فقد خضع الطابق كله لحراسة مشددة، وأُطلق على الغرفة التي تعمل فيها اسم «الثقب الأسود Black Hole». وكان العمل المنوط بالمجموعة هو جمع وتصنيف كل المعلومات المتوافرة عن القدرة العسكرية للعراق، ثم وضْع خطة لاستخدام القوة الجوية لِشَلِّ قدْرته على القتال في الساعات الثماني والأربعين الأولى من الحرب. وَوُضِعَت تحت تصرف مجموعة التخطيط، أنواع رهيبة من الأسلحة، كان بعضها يستخدم للمرة الأولى.

كان من الضروري اتخاذ إجراءات أمن صارمة لكي يتحقَّق عنصر المفاجأة. يضاف إلى ذلك، أن الولايات المتحدة كانت تُصِرّ على السرية التامة، لأنها كانت ستضطَّلِع بتنفيذ الجزء الأعظم من المهام الجوية. فمن بين الطلعات الجوية التي تمَّت أثناء عاصفة الصحراء وعددها ١٠٨٠٤٣ طلعة، كانت نسبة ٨٣,٦٪ من نصيب القوات الأمريكية الجوية والبحرية ومشاة البحرية، بينما كانت نسبة ٦,٥٪ من نصيب القوات الجوية الملكية السعودية، و٥,١٪ للقوات الجوية الملكية البريطانية، و٢,١٪ للقوات الجوية الفرنسية، وقد أسهمت دولٌ أخرى في تلك الحملة بطريقة أو بأخرى، منها بلجيكا وألمانيا والنرويج وعُمان. واستطاعت القوات الجوية الملكية السعودية أن تشارك بكفاءة، وتتكامل بسهولة مع قوات التحالف الجوية الرئيسية. ويُعزَى ذلك إلى أن عقائدها العسكرية وتدريبها وتسليحها ودرجة استعدادها لا تقل عن مثيلاتها في الولايات المتحدة أو بريطانيا.

وهناك سبب آخر للسرّية، وهو أن الولايات المتحدة كانت تخطِّط لاستخدام أحدث ما في ترسانتها من تقنية حربية مثل: المقاتلة F-117 ستيلث Stealth

أعداد وأنواع الطائرات والمهام الجوية المنفذة خلال الحملة الجوية حتى ٢٨ فبراير ١٩٩١

الدول المشاركة في الحملة الجوية	طائرات جو/جو	طائرات جو/أرض	طائرات متعددة المهام	طائرات عمودية	طائرات مساندة	إجمالي عدد الطائرات	المهام الجوية المنفذة
الولايات المتحدة الأمريكية	١٩٥	٥٠٠	٤٢٣	٣٨٥	٢ ١٣٤	٣ ٦٣٧	٩٠ ٣١٢
المملكة العربية السعودية	١٠٦	٥٤	٨٧	٩	١٨٧	٤٤٣	٧ ٠١٨
المملكة المتحدة	١٨	٤٨	٠	٠	٣١	٩٧	٥ ٥٤٦
فرنسا	١٢	٢٤	١٨	٦٠	٨٣	١٩٧	٢ ٣٢٦
كندا	٠	٠	٢٤	٠	٠	٢٤	١ ٣٠٨
الكويت	٠	٢٤	١٥	١٢	١٦	٦٧	٨٠٢
البحرين	٠	٠	٢٤	٠	١٦	٤٠	٢٩٤
ايطاليا	٠	٠	٩	٠	٠	٩	٢٤٠
الإمارات العربية المتحدة	١٤	٥١	٢٥	٠	٩٧	١٨٧	١٠٢
قطر	٠	٩	١٢	٠	٢٩	٥٠	٦٣
نيوزيلندا	٠	٠	٠	٠	٢	٢	٣٢
الإجمالي	٣٤٥	٧١٠	٦٣٧	٤٦٦	٢ ٥٩٥	٤ ٧٥٣	١٠٨ ٠٤٣



مسرح العمليات الجوية
المصطلحات
الحدود الدولية
الطرق الرئيسية
المدن
حدود منطقة الدوريات
الدوريات الجوية
المسار الجوي للتزود بالوقود
قاعدة جوية
حدود الفيلق
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ ٢٠٠
كيلومتر
N
تركيا
سوريا
العراق
ايران
الأردن
الفرات
٢٢ فبراير ١٩٩١
٣٥°
الموصل
قيارة
كركوك
الاسعد
بلاد
بغداد
التقدم
الكوت
الجراح
المنطقة الغربية
هـ٢
هـ٣
منطقة الدوريات الغربية
منطقة الدوريات الوسطى
منطقة الدوريات الشرقية
وادي الخير
الناصرية
البصرة
الفيلق ١٨
الفيلق ٧
الكويت
دوريات الخليج العربي
الخفجي
الخليج العربي
الجبيل
عرعر
رفحاء
المملكة العربية السعودية
حفر الباطن
جبل شمر
حائل

(المتسلِّلة أو الشبح كما يُطلَق عليها) التي لا يكتشفها الرادار، إضافة إلى الذخيرة الدقيقة التوجيه (PGMs)، مثل الصواريخ من نوع كروز توماهوك Tomahawk Cruise، والأنواع الكثيرة الأخرى من القنابل والصواريخ الموجَّهة تليڤزيونياً أو بأشعة الليزر، وكذلك أجهزة الرؤية الليلية التي تعتمد على الأشعة تحت الحمراء، وعدد كبير من أنظمة إلكترونية أخرى للاتصالات والمراقبة والقتال، بهدف التشويش على رادارات صدام، وقطع خطوط اتصالاته، وشلِّ دفاعاته بوجه عام.

كانت المعلومات التي ترد من الأقمار الصناعية جزءاً لا يتجزّأ من الاستعدادات للحملة الجوية وإدارتها الفعلية. فقد زوَّدَت الأقمار الصناعية قوات التحالف بالمعلومات اللازمة عن الأهداف العراقية، ومعلومات عن حالة الطقس، والإنذار بوقوع هجمات صواريخ سكود، ووفرت لها إمكانات هائلة للاتصالات، ونفذت الكثير من المهام الضرورية الأخرى. كما كانت الأقمار تُشَكِّل أساس عمل «نظام تحديد المواقع» (GPS)، وهو جهاز صغير مَكَّنِ القوات البرية من الملاحة في الصحراء المستوية، الخالية من الهيئات الأرضية، أو عبْر حقول الألغام العراقية بقدْر فائق من الدقة.

كانت الأنظمة الأمريكية العالية التقنية، بمثابة «مُضَاعفَات» لقدرة التحالف القتالية. فوضعت التحالف في عالم آخر غير عالم العراق. ومن الوجهة العسكرية المحضة، كانت أفدح أخطاء صدام أنه لم يدرك الهُوَّة السحيقة بين قواته المسلحة والترسانة المتقدمة العالية التقنية لقوة عظمى. ولعله كان يدرك، إلاّ أن غروره وصَلَفَهُ أعميا بصيرته.

كان أمراً طبيعياً أن يسيطر الأمريكيون على قيادة الحملة الجوية. لذا، وافق أعضاء التحالف على أن يتولى الفريق هورنر السيطرة على توجيه العمليات لجميع طائرات التحالف، لتحقيق أكبر قدْر من التجانس في إدارة العمليات الجوية. فكان بذلك «رئيس القوات الجوية» الأوحد، ولُقِّب بقائد القوات الجوية المشتركة Joint Force Air Component Commander (JFACC). واتضح، أثناء تنفيذ الحملة، أن هورنر واجَه بعض التحديات لصلاحياته من جانب القوات البحرية وقوات مشاة البحرية الأمريكية، إذ أراد كلٌّ منهما الاحتفاظ ببعض الوحدات الجوية للإسناد الجوي لعملياتها.

أُنيطت بالعميد بستر جلوسون Buster Glosson مدير الخطط الجوية، مهمة صعبة هي الإشراف على إعداد «أمر العمليات الجوي اليومي» (ATO). وهو وثيقة

بحجم دليل الهاتف يشتمل على كثير من التفاصيل، مثل تحديد إشارات الاستدعاء الجوي، والترددات اللاسلكية، ووقت الإقلاع، وتعليمات التزوُّد بالوقود في الجو، والأهداف الأولية والتبادلية المطلوبة مهاجمتها، والذخيرة المناسبة لكل مهمة، وذلك لأكثر من ١٠٠٠ طلعة يومياً، كانت تصل أحياناً أثناء الحملة البرية إلى ٣٠٠٠ طلعة. كان من المستحيل إنجاز هذا العمل الجبار دون استخدام أجهزة الحاسب القوية.

ولعل من أخطاء صدام المتعددة، أنه أعطى الفريق هورنر وزملاءه فرصة ستة أشهر تقريباً لتدريب قواتهم، واستكمال كل دقائق الحملة الجوية، وجلب الطائرات المناسبة المتخصِّصة لتنفيذ مهام محددة.

كانت الحملة الجوية التي تمّت في يناير وفبراير ١٩٩١، حدثاً رهيباً ومحزناً بحق. إذ أخذت القوة العظمى الأمريكية تستعرض عضلاتها، بمزج رهيب لتقنية عصر الفضاء في الإرادة السياسية لاستخدام القوة الهائلة المتفوقة. وبدافع من الرغبة في التخلص من شبح ڤيتنام، كان القادة العسكريون الأمريكيون حريصين كل الحرص، على أن يعرِضوا أمام العالم أجمع الأسلحة والمهارات التي اكتسبوها خلال الثمانينات (عقد التحديث والتطوير). كان صدام يشك في عزم أمريكا واستعدادها للقتال، وكان هورنر وفريقه مصمِّمين على أن يثبِتوا له مدى خطئه.

وعلى الرغم من القوة الهائلة للتحالف، كانت ثمة لحظات معينة بدت فيها هذه القوة موضع شك. ومن هذه اللحظات ما حدث قبل الحملة الجوية، وشغل تفكيرنا لمدة يومين كاملين، إذ تلقينا تقريراً من الاستخبارات الأمريكية مؤدّاه أن عدة طائرات عمودية اكتُشفت وهي تعبر المجال الجوي السعودي. وأوقعني ذلك في حرج شديد من ناحيتين: أولاً، بصفتي قائداً لقوات الدفاع الجوي، وثانياً، لأن رجالي لم يتمكنوا من اكتشاف تلك الطائرات. أمضينا ٢٤ ساعة في بحث دؤوب عن تلك الطائرات العمودية الغامضة. ثم تلقيت معلومات تفيد بأنها طائرات عراقية، وأن الأمريكيين تمكنوا من احتجازها على متن إحدى حاملات الطائرات الأمريكية دون أن يخبرونا بذلك! لهذا قرَّرتُ أن أواجِه شوارتزكوف بهذه الحقيقة.

قلت له: «نورم، ماذا فعلتم بتلك الطائرات العمودية؟ لقد قالت مصادر استخباراتكم إنها دخلت مجالنا الجوي. أين هي الآن؟ نريد أن نعرف».

نظر إليَّ نظرة ذات مغزى وقال: «لقد تلقيت تقريراً يفيد أن رجالكم أخفوا الطائرات في الخفجي».

كان كلٌ منّا يعتقد أن الآخر يخدعه. وأمضينا أكثر من خمس عشرة دقيقة في اللوم والعتاب:

- «أين خبأتم الطائرات؟».
- «لا، بل أين خبّأتموها أنتم؟».

وبعد البحث والتحري، اتضح لنا أن إحدى شاشات الرادار كان فيها خلل فني، وأن تلك الطائرات العمودية الغامضة لم تكن سوى أوهام!

وفي يوم ١٣ يناير ١٩٩١، أي قبل بدء الحرب الجوية بأربعة أيام، أردت التوجه جواً إلى رأس مشعاب لتفقد اللواء العاشر السعودي، الذي نُشر في الصحراء على بعد ٤٠ كيلومتراً من ساحل الخليج. توجّهتُ إلى قاعدة الرياض الجوية، حيث صعدت إلى طائرة قائد الدفاع الجوي من نوع Gulfstream G-4، واصطحبت معي جون سويني John Sweeny، مراسل شبكة CNN التليفزيونية، والذي كان يتحرّق شوقاً إلى زيارة الجبهة.

وصلنا إلى رأس مشعاب، وقُمْنا بالدوران حول المدرج، وهبطنا بصعوبة، إذ لا يوجد هناك برج مراقبة أو توجيه من الأرض. وتوَّجهنا في العربات، بعد ذلك، عبْر طريق موحِلة إلى مقر قيادة اللواء العاشر. فعقدت سلسلة من الاجتماعات وتفقدتُ بعض الوحدات، ثم تناولت طعام الغداء مع الجنود هناك. وعدت إلى الطائرة في الثامنة مساءً، بعد حلول الظلام، وجون سويني لا يزال يلازمني كظلّي.

كان مقرراً أن أحضر اجتماعاً تلك الليلة في وزارة الدفاع في الرياض. ولكن قائد الطائرة بدا متردداً في الإقلاع، إذ لم تكن هناك أضواء للمدرج. سألته: «ألا يمكنك الإقلاع دون أضواء؟». فأجاب: «تلك مجازفة خطيرة».

كانت في رفقتنا ست عربات من الشرطة العسكرية البحرية، فأرسلتها إلى المدرج المظلِم وطلبت من السائقين إضاءة الأنوار الأمامية. وبمساعدة أضواء العربات، استطاع الطيار أن يقلع بسلام.

كان الطقس سيِّئاً للغاية، عواصف رملية، سحب منخفضة، رَعْد وبرْق. كان

أشبه بالطقس الذي أدى، بعد ذلك، إلى تعطيل بعض الطلعات أثناء الحرب الجوية. ولم يتوقف سويني عن ملاحقتي بالأسئلة طوال تلك الرحلة الوَعِرَة المزعجة. كان حريصاً على أن يعرف إن كان السوريون سيشاركون في الحرب أم لا. وربما كان يطمع في أن تؤدِّي الأحوال الجوية الرديئة إلى إضعاف مقاومتي، فيَزِلَّ لساني وأبوح ببعض الأسرار. ومع أن سويني بدا شاحب الوجه، لكنه كان يحاول أن يتظاهر برباطة الجأش وأنه لا يعبأ باضطراب الطائرة. واستمر الحوار الودي بيننا طوال الرحلة، والطائرة تترجَّح بنا صعوداً وهبوطاً، إلى أن وصلنا الرياض في الوقت المناسب لحضور الاجتماع.

بعد مرور أكثر من ٢٤ ساعة على انتهاء مهلة الأمم المتحدة للعراق، التي تحددت بنهاية يوم ١٥ يناير ١٩٩١، انطلقت الحملة الجوية في الساعات الأولى من صباح يوم ١٧ يناير، وحُدِّدتْ ساعة الصفر (سعت س) لتكون الساعة (٠٣٠٠). ولكن الطلقة الأولى، في واقع الأمر، أُطلقت قبل ساعة الصفر بـ ٢١ دقيقة، أي سعت (٠٢٣٩) بالتحديد، عندما قامت ثلاث طائرات عمودية من نوع AH-64 Apache، وهي طائرات قوية تعمل في كل الأجواء ومسلحة بصواريخ Hellfire وصواريخ Hydra، بتدمير محطتين للإنذار المبكر على الحدود العراقية، فأحدثتْ بذلك فجوة في الدفاعات الجوية العراقية نَفَذَتْ منها، بعد ذلك، طائرات التحالف من نوع F-15E Eagles، وF-14 Tomcats.

وفي الدقائق الخمس والعشرين التالية، انطلقت موجات من طائرات F-117 Night Hawk، من إنتاج شركة «لوكهيد Lockheed». وهي طائرات لا يكتشفها الرادار، ومزودة بقنابل موجهة بالليزر. وكانت مهمتها مهاجَمة القصر الرئاسي لصدام، بالإضافة إلى الملاجئ الحصينة لمقر قيادة القوات الجوية والدفاع الجوي، ومقَاسِم الهاتف، وأبراج المايكروويف، ومحطات تقوية الإرسال وخطوط البثّ، ورادارات الدفاع الجوي، وكذلك مراكز الدفاع الجوي، في أماكن مختلفة من العراق. واستطاعت طائرات F-117 ستيلث أن تفاجئ الدفاعات العراقية وتخترقها متى شاءت، وأن تلقي بقنابلها على الأهداف الحيوية بدقة متناهية. ولم تُصَبْ طائرة واحدة من هذه الطائرات بالنيران العراقية طوال فترة الحرب.

لم تنجح الرادارات العراقية في اكتشاف طائرات F-117 ستيلث، وهي في الطريق إليها. ولم يدرك العراقيون أن الحرب قد بدأت، إلاّ بعد أن تساقطت القنابل على عاصمتهم، تدمر مباني القيادات وشبكات القيادة والسيطرة. وما من شك أن الصدمة المباغتة والفوضى والدمار كانت بلا حدود. وعلى الرغم من أن العراقيين لم تكن لديهم أية دفاعات ضد تلك الأسلحة المتقدمة، إلاّ أن المعركة من أجل تحقيق السيادة الجوية كانت معركة ضارية في الدقائق الأولى.

وبعد أن أدت طائرات F-117 ستيلث مهمتها، جاء دور صواريخ توماهوك، وهي صواريخ طوافة، تضرب العمق، وتُطلَق من مسافات بعيدة، فتصيب أهدافها في المناطق ذات الدفاعات الكثيفة بدقة تامة. كانت تلك الصواريخ تُطلَق من ١٦ سفينة للبحرية الأمريكية، إضافة إلى غواصتين، على مجمع الأسلحة الكيماوية في التاجي، ومقر قيادة حزب البعث، وقصر الرئاسة، ومحطات توليد الطاقة الكهربائية، مما أسفر عن قطع التيار الرئيسي بشكل عام في أنحاء البلاد. كما أصابت ستة من صواريخ توماهوك وزارة الدفاع العراقية بين سعت ١٠١٠ وسعت ١٠١٧ في اليوم الأول للحرب، من بين ١٨٠ صاروخاً أُطلِقت خلال الساعات الثماني والأربعين الأولى على أهداف حيوية عراقية.

جرت بعد ذلك خدعة تُعَدّ من أكبر عمليات الخداع في الحملة الجوية، إذ أدت الموجة الأولى من هجمات التحالف إلى تأهُب ما تبقى من أسلحة الدفاع الجوي العراقي. فعندما اكتشف مشغلو الرادارات العراقية أعداداً كبيرة من الأهداف تنطلق نحوهم مرة أخرى، اعتقدوا أنها موجة أخرى من طائرات التحالف. وفي محاولة يائسة لتحديد مواقع تلك الأهداف لكي تتعامل معها صواريخهم أرض ـ جو، قام العراقيون بتشغيل راداراتهم بأقصى طاقتها، فكشفوا بذلك عن مواقعها. ولكن الموجة الثانية لم تكن طائرات على الإطلاق، بل كانت طائرات بدون طيار أو أهدافاً وهمية، تظهر على شاشات الرادار كأنها هجوم جوي وشيك. وبعد موجة الطائرات بدون طيار والأهداف الوهمية، جاءت طائرات F-4G Wild Weasels، وطائرات F-18 Hornets، وتركزت مهمتها الأساسية على إسكات الدفاعات الجوية العراقية، وما أن بدأ تشغيل الرادارات العراقية حتى انقضّت تشكيلات من تلك الطائرات لتدمّر العشرات من مواقع الدفاع الجوي باستخدام الصواريخ العالية السرعة، والمضادة للإشعاع، المعروفة باسم «هارم» HARM. وتكرر النمط التدميري نفسه تلك الليلة، حول البصرة والكويت.

بدا واضحاً أن نظام الدفاع الجوي العراقي، الذي اتَّصف بعدم المرونة وبالمركزية الشديدة، قد فاجأتْه طائرات ستيلث الخفية، وأربكتْه الحرب الإلكترونية، وأسكتتْه الهجمات الجوية.

حاول العراقيون دفْع بعض المقاتلات من نوع MIG-29، وميراج F-1، لاعتراض مقاتلات التحالف، ولكنها لم تحتمل المواجَهة. إذ لم تكن قادرة على الاتصال بمراكز عملياتها على الأرض، فما لبثت أن أُسقطت بصواريخ جو - جو، أو هَوَت مرتطمة بالأرض. كانت القوات الجوية العراقية كثيرة العدد، قوية على الورق فقط، متخلفة أمام قوة التحالف وتقنيته، ولذلك تجنَّبت المواجَهة منذ البداية. ففي الأيام الثلاثة الأولى من الحرب، كانت طلعات الطائرات العراقية أقل من ١٠٠ طلعة جوية في اليوم.

لم تكن لدى العراق فرصة لالتقاط الأنفاس منذ صباح اليوم الأول من الحرب، إذ وصلت القاذفات B-52 العابرة القارات إلى أجواء المملكة، بعد رحلة استغرقت ١٧ ساعة من لويزيانا، وأطلقت ٣٥ من صواريخ كروز على محطات الطاقة، والمطارات المتقدمة، والأهداف الحيوية الأخرى في العراق.

حدث خلاف بين شوارتزكوف وهورنر، كما علمت، في ما يتعلق باستخدام طائرات B-52 الضخمة. كان خلافاً يعكس وجهة النظر الإستراتيجية لكل منهما. كان شوارتزكوف مهتمّاً بشكل رئيسي بالحرب البرية المقبِلة، وكان يحسب حساباً لفِرق الحرس الجمهوري العراقية، لذا كان يرغب في إنزال أكبر الخسائر بها منذ البداية بطائرات B-52. أما هورنر فكان مهتمّاً بتحقيق السيادة الجوية، وقصْف وتدمير الأهداف الحيوية للقيادة العراقية. كان يرى أن فِرق الحرس الجمهوري يمكن التعامل معها في مرحلة لاحقة.

وفي الليلة التي سبقت الحرب الجوية، ذهب شوارتزكوف إلى مركز قيادة هورنر في الطابق الأسفل لمبنى قيادة القوات الجوية السعودية. وعندما رأى أن طلعات طائرات B-52، التي ستتم على فِرق الحرس الجمهوري العراقي، لم تكن بالكثافة أو القوة التي كان يتوقعها، استشاط غضباً وهدد بإيقاف هورنر عن العمل. و ردّ عليه هورنر بأن يفعل ذلك إن أراد. لم ينفعل هورنر لأن ثورات شوارتزكوف لم تكن أمراً غريباً عنه.

وأخيراً صَعَدَ الرجلان إلى مكتب هورنر، حيث قَدّم بستر جلوسون، مدير الخطط، إيجازه المعتاد إلى شوارتزكوف. أوضح فيه عدم إجراء أي تعديل على

عدد الطلعات السابق تخطيطها لطائرات B-52. فاعتذر شوارتزكوف، وسارت الحرب طبقاً لإستراتيجية هورنر.

من بين مختلف الأنظمة التي نشرها التحالف، يُعَد نظام الإنذار المبكر أواكس AWACS أهمها على الإطلاق. وهذا النظام عبارة عن مِنَصَّة لإدارة المعركة، كانت تزوِّد قادة التحالف بصورة جوية شاملة بعيدة المدى. يضاف إلى ذلك طائرات F-16 المتعددة الأغراض، التي كانت بمثابة العمود الفقري للقوات الجوية الأمريكية. وبلغ عدد الطائرات التي اشتركت منها في عاصفة الصحراء ٢٥١ طائرة، كُلِّفَت بمهمة مهاجمة مصافي البترول ومستودعاته، ومرافق النقل والمواصلات، ومواقع إطلاق صواريخ أرض ـ جو، وصواريخ سكود، والمطارات وملاجئ الطائرات، إضافة إلى فِرق الحرس الجمهوري، وأهدافٍ أخرى كثيرة. وكانت أكبر غارة لطائرات التحالف هي تلك الغارة التي نفّذتها ٥٦ طائرة F-16 على مركز البحوث النووية في بغداد يوم ١٩ يناير.

كانت هناك عدة عوامل إيجابية لمصلحة القوات المهاجمة، لعل من أهمها طبيعة الصحراء المنبسطة، وقدرة طائرات ستيلث على اختراق الدفاعات العراقية، وقدرة الطائرات الحديثة على تنفيذ خمس طلعات جوية للطائرة الواحدة في اليوم الواحد، واستخدام الذخائر الدقيقة التوجيه لتدمير آلاف الدبابات، وقِطع المدفعية، والدُشم، وملاجئ الطائرات المحصَّنة، والجسور، وكثير من الأهداف الأخرى. وفاق عدد الطلعات الجوية، التي كانت تنفِّذها قوات التحالف، في اليوم الواحد كل ما شاهده صدام خلال الثماني سنوات من حربه على إيران. لم يكن صدام يدري من أين تأتيه الضربات! ففي اليوم الأول من الحملة الجوية، وليس في الساعة الأولى كما يرى بعض المراقبين، كانت قدرة العراق على شنّ الحرب قد تحطمت إلى حدٍّ بعيد.

أدى القصف إلى انقطاع التيار الكهربي عن معظم أحياء بغداد. كما هُوجم الكثير من «مراكز الثقل» ودُمِّرت تدميراً تاماً. كذلك دُمِّر الكثير من مواقع الرادارات وصواريخ أرض ـ جو، ولم يبقَ إلاّ أجزاء منفصلة من نظام الدفاع الجوي، الشديد المركزية، ظلت تعمل بشكل مستقل، وكان لها تأثيرها الفَعّال في بعض الأحيان. ولم يمضِ وقت طويل حتى تحقَّقَت للتحالف السيادة الجوية الكاملة، بما يسمح لطائراته بالتجول في سماء العراق للبحث عن الأهداف الإستراتيجية، والبنْية الأساسية العسكرية والمدنية لتدميرها. وبلغ عدد الطلعات

الهجومية التي نُفِّذت ضد العراق ٢٠٠ طلعة في الساعة الأولى، و ٩٠٠ طلعة في اليوم الأول، و ٤٠٠٠ طلعة في الأسبوع الأول. واستمرت عمليات القصف الجوي هذه طوال ٣٨ يوماً، حتى تحطمت إرادة العراق على القتال بشكل تام.

كنت بصفتي قائداً لقوات الدفاع الجوي، أراقب تطور الدفاع الجوي العراقي، في السنوات السابقة، بمشاعر يمتزج فيها كثير من الإعجاب والغِبْطَة! إذ استطاع العراقيون، بمساعدة السوڤيت والفرنسيين، بناء شبكة دفاع جوي كثيفة. وكان ينظر إليها بعض الخبراء على أنها أقوى من دفاعات حلف وارسو Warsaw في أوروپا الشرقية. كان الدفاع الجوي العراقي، حقاً، واحداً من أقوى الدفاعات في منطقة الشرق الأوسط. ويقال إنه كان يضم ١٦ألف صاروخ أرض ـ جو، و١٠ آلاف مدفع مضادٍ للطائرات، و ٧٠٠ طائرة مقاتلة. وقام الفرنسيون، الذين أدوا دوراً رئيسياً في بناء قوة العراق العسكرية، بربط شبكة الدفاع الجوي للعراق بنظام حديث للقيادة والسيطرة يسمى «كاري» Kari. وقبل بداية الحملة الجوية، قامت استخبارات القوات الجوية والبحرية الأمريكية، بدراسة مفصَّلة لنظام «كاري»، وحددت مراكز الإنذار المبكر ومراكز السيطرة الرئيسية فيه. وكانت تلك هي أُوْلى الأهداف التي قُصِفَت، إذ اتُّفق على أن تدمير نظام «كاري» أمر حيوي لنجاح التحالف.

كان العراق، قبل الحرب، قوياً بكل المعايير، ولكن معظم دفاعاته الجوية، تحطم خلال دقائق. وتبقَّى جزء من أسلحة الدفاع الجوي، المزوَّدة بأجهزة تسديد بصرية، والتي تعمل ضد الأهداف التي تحلِّق على ارتفاعات منخفضة، لأنها لم تتأثر بالحرب الإلكترونية الأمريكية. وحقَّقَت هذه الأسلحة بعض الإصابات الناجحة بالفعل، إذ أَسقَطَت ست طائرات تورنيدو تابعة لسلاح الجو الملكي البريطاني، عندما كانت تنفذ عمليات هجومية على ارتفاعات منخفضة، مستخدمة قنابل JP233 المضادة للمطارات ضد القواعد الجوية العراقية ذات الدفاعات الكثيفة، ولكن نظام الدفاع الجوي العراقي، بصفته نظاماً متكاملاً، لم يلبث أن انهار تماماً. ففي الأيام الأولى من الحرب، أدت ٨٠٠ طلعة جوية إلى تدمير ٢٩ مركزاً من مراكز الدفاع الجوي، وكانت تلك ضربة قَصَمَت ظهر نظام «كاري».

ولم أجد بداً من أن أصرف تفكيري إلى مضمون الحملة الجوية لقوات

التحالف، وما يمكن استخلاصه من أهمية القوات الجوية وما يمكن أن تؤديه من دور حيوي لأمننا الوطني، وتأثيرها أيضاً في إستراتيجيتي في بناء القوة الرابعة طوال السنوات الماضية. فكما ذكرت في فصل سابق، كانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ مصدر إلهام لي، إذ أَبْلَتْ الصواريخ المصرية أرض - جو بلاءً حسناً في مواجَهة القوات الجوية الإسرائيلية في عملية عبور القناة واقتحام خط بارليڤ، فكان كل منهما نِدّاً للآخر، بل إن الصواريخ المصرية تفوَّقت على القوات الجوية الإسرائيلية قليلاً ونجحت في تحجيمها إلى حدٍّ كبير. عند ذلك، شعرت بأن حرب أكتوبر قد مَحَتْ عار حرب يونيه ١٩٦٧. ودفعني إعجابي بالدروس المستفادة من حرب أكتوبر إلى تطوير الدفاع الجوي السعودي وتنظيمه ليصبح «قوة رابعة». ونَجَحْتُ في تحقيق ذلك الهدف بعد سنوات من الجهد والعمل الدؤوب. ولكن العلاقة الآن بين الطائرة والسلاح المضاد لها، عادت إلى ما كانت عليه قبل عام ١٩٧٣.

يُمَثِّل انتصار القوة الجوية، من وجهة نظري، درساً من أهم دروس حرب الخليج. ولا أعني بذلك الطائرات الحديثة فقط، بل نُظُم الحرب الإلكترونية، والأنظمة الفضائية، التي تعتبر «مُضاعِفات هائلة للقدرة القتالية» لأنظمة القوات الجوية. وبتفوُّق القوة الجوية، بدأ دور الدفاع الجوي ينحسر مرة أخرى.

فَقَدَتْ الدفاعات الجوية الثابتة جدواها وفاعليتها أمام طائرات F-117 ستيلث، وصواريخ كروز والذخائر الموجَّهة العالية الدقة، ونُظُم الإنذار المبكر (أواكس)، وبقيَّة ترسانة عصر الفضاء الأمريكية. كانت النُظُم المتكاملة عرضة للخطر بشكل كبير، إذ إن تدمير مراكز عمليات القطاع ومراكز عمليات الدفاع الجوي يؤدِّي بسهولة إلى انهيار النظام بكامله. وخير مثال على ذلك، ما شاهدته في سماء العراق من نيران كثيفة غير مؤثِّرة تُشْبِه الألعاب النارية في الاحتفالات الوطنية. كما برزت بشكل واضح، لم يسبق له مثيل في التاريخ العسكري الحديث، الأهميةُ القصوى للسيطرة الجوية، فمن دونها كان القتال فى حرب الخليج ضرباً من المستحيل.

كانت تلك المسائل تدور في رأسي، وأنا أشاهد مجريات الحرب الجوية جنباً إلى جنب مع شوارتزكوف، في غرفة الحرب الصغيرة، تحت سطح الأرض في الطابق الأسفل لمبنىٍ وزارة الدفاع. وفي الطابق الأعلى مباشرة، توجد غرفة إيجاز القادة، التي تُـمَكِّن نوافذها، ذات الزجاج المائل، القادة من النظر إلى

«مركز التنسيق والاتصالات والتكامل لقوات التحالف» في الطابق الأسفل، ويعمل في هذا المركز مئات الضباط السعوديين والأمريكيين وغيرهم من ضباط التحالف، وينسِّقون جهودهم على خرائط جدارية كبيرة. كنت حريصاً على أن تكون جميع الجهات ذات العلاقة العسكرية والأمنية مثل الحرس الوطني والقوات البرية والقوات الجوية والقوات البحرية وقوات الدفاع الجوي ووزارة الداخلية والاستخبارات العامة . . . إلخ ـ مُمَثَّلَة في هذا المركز، فتعمل بالتوازي مع الأمريكيين.

وفي الأسبوعين الأول والثاني من الحرب، كانت جميع المقاعد في غرفة الحرب متماثِلة في الحجم. وفي أحد الأيام، وعلى نحو مفاجئ، تم تغيير مقاعد الغرفة. فأصبح مقعد شوارتزكوف أكبر حجماً وأعلى موضعاً من بقية المقاعد بقَدَم أو أكثر، بينما ظلّ المقعد الذي خُصِّص لي في مستوى مقاعد ضباط أركانه ولا يختلف عنها. وبدا كأن شوارتزكوف يريد أن ينظر إلينا جميعاً من عَلٍ، طوال أيام الحرب! لم أكن أرغب في مقعد مثل مقعد شوارتزكوف، بل أردت أن يكون مقعدي مختلفاً عن مقاعد ضباطه. وخطرت لي فكرة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أستفيد فيها من آلام الظهر التي أعانيها. قلت متعجباً، وأنا أنظر إلى المقعد الذي خُصِّص لي: «لا يمكن أن أجلس على هذا المقعد، إنه سيزيد من آلام ظهري!».

طلبتُ مجموعة من المقاعد لأختار منها ما يناسبني. فجربتها الواحد تلو الآخر، وأنا أتنقل بينها جيئة وذهاباً، حتى وقع اختياري في نهاية الأمر على مقعد ضخم يختلف عن كل المقاعد الموجودة في الغرفة. ولم أهتم بأثر تصرفي هذا في شوارتزكوف، إذ كان من الضروري أن أكون على قدم المساواة معه في غرفة الحرب هذه. ومع ذلك لم أثقل عليه بالبقاء في الغرفة اكثر مما يجب. كنت أعلم أنه يعقد اجتماعات خاصة ويستمع إلى تقارير أركانه كل يوم، لذا كنت أترك الغرفة قبل موعد تلك الاجتماعات. كان في حاجة إلى الانفراد بأركانه، كما أنفرد أنا بأركاني. وفي نهاية الأمر، جلسنا جنباً إلى جنب في غرفة الحرب الصغيرة، وسارت الأمور كما ينبغي.

كانت صواريخ سكود هي السلاح الوحيد، في ترسانة صدام، التي سبّبت

إزعاجاً كبيراً لقوات التحالف. وهي صواريخ باليستية أرض ـ أرض، سوفيتية الصنع، تُستخدَم أساساً ضد الأهداف المساحية (أهداف ذات مساحة واسعة). ومن المفارقات الغريبة لتلك الحرب، أن أسلحة التحالف السحرية ذات التقنية المتقدمة، لم تفلِح في التصدي لذلك السلاح ذي التقنية العتيقة.

يبلغ مدى صواريخ سكود الأساسية ٣٠٠ كيلومتر تقريباً، غير أن المهندسين العسكريين العراقيين أدخلوا تعديلات عليها، إبّان الحرب العراقية ـ الإيرانية. فأنتجوا منها نوعين محلِّيين أبعد مدى، هما الحسين والعباس، بلغ مداهما ٦٠٠ و ٨٦٠ كيلومتراً على التوالي. وتمكَّن المهندسون من زيادة المدى، بزيادة وزن الوقود الصاروخي وتقليل وزن الرأس الحربي، مما خَفَّض من فعاليته، وقَلّل من دقته. إذ بلغ «الخطأ المحتَمَل في المسافة» (منطقة الانتشار) ٣٠٠٠ متر. لذا، فإن هذه الصواريخ لم تكن من الناحية الفعلية سوى أسلحة إرهابية، تُستخدَم ضد المراكز السكانية أكثر من استخدامها ضد الأهداف العسكرية.

أطلق صدام نحو ٢٠٠ صاروخ، من نوع الحسين، على المدن الإيرانية أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية. وتسبب هذا القصف بهجرة أعداد كبيرة من سكان طهران إلى الريف. وأطلقت إيران، بدورها، صواريخ سكود على بغداد، ولكن أعدادها كانت أقل، وكذلك مداها. وكان العالم العربي يراقب «حرب المدن» تلك، التي جرت في المرحلة الأخيرة من الحرب العراقية ـ الإيرانية، بقدْر كبير من الخوف والقلق. وكنت أتساءل: كيف سيكون رد فعل سكاننا، الذين لم يمرّوا بتجربة حرب قط، تجاه هجمات عشوائية مماثِلة بالصواريخ؟

زرت، عام ١٩٦٧، مصنع ريثيون في الولايات المتحدة، حيث كانت صواريخ SAM-D، وهي الأنموذج الأول لصواريخ پاتريوت، قيد التصنيع والتطوير للتعامل مع الطائرات التي تحلِّق على ارتفاعات متوسطة وعالية، وللتصدي للصواريخ الباليستية، مثل سكود. وبعد أكثر من عشر سنوات، وأثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية، اتصلنا بشركة ريثيون مرة ثانية لكي نعرف المزيد عن تطوير نظام پاتريوت. ولكن المملكة لم تُزوَّد بهذا النظام إلاّ عندما أَقدم صدام على غزو الكويت، إذ سارعت الولايات المتحدة إلى إرسال بطاريات پاتريوت إلى المملكة في الفترة ما بين شهر أغسطس وشهر ديسمبر عام ١٩٩٠ بهدف حماية منشآتنا الحيوية، مثل مصافي البترول والمطارات والموانئ ومراكز القيادة.

لم أكن شديد القلق في شأن صواريخ سكود، إذ كنت أعرف أنها لا تسبب

خسائر مادية كبيرة، لعدم دقتها، ولأن رؤوسها تحمل مواد متفجرة خفيفة الوزن. كما كنت أُدرك أن صداماً لن يجرؤ على استخدام هذه الصواريخ برؤوس حربية كيماوية أو بيولوجية، خشية أن يُعَرِّض نفسه لانتقام لا قِبَلَ له به. فاستخدام الأسلحة الكيماوية ضد الأكراد العزَّل شيء، واستخدامها ضد القوات الأمريكية شيء آخر مختلف تماماً.

كان ما يشغلني، حقيقة، هو احتمال أن يسعى صدام، عندما تبدأ الحرب، إلى استخدام صواريخ سكود ضد إسرائيل (وهو سلاحه الوحيد الذي يمكِنه اختراق الدفاعات الجوية الإسرائيلية). ويكون هدفه من ذلك تحويل الأنظار عن عدوانه على جارته العربية إلى حرب عربية ـ إسرائيلية شاملة. ولَمّا كانت هذه الإستراتيجية واضحة ومحتَمَلة، فقد أَوْلَيْناها قدْراً كبيراً من الاهتمام والدراسة. وكان علينا أن نُعِدّ أنفسنا لمواجَهة أسوأ الاحتمالات. ومن جانب المملكة، تم اتخاذ قرار بأَلاَّ ندَع أياً من أفعال صدام يثنينا عن عزمنا على تحرير الكويت، فتحرير الكويت كان هدفنا الأساسي من الحرب. فإذا حاول صدام تشتيت الانتباه بمهاجمة إسرائيل، فإنّنا سنمضي في حملتنا كما خُطِّط لها؛ إذ الحرب ليست جهازاً يُفْتح ويُغْلق حسب أهوائنا، فإذا بَدَأْتَ فلا خيار أمامك إلاّ أن تستمر فيها حتى نهايتها، لأنك إن توقفتَ عَرّضتَ نفسك لهلاك محقَّق.

أطلق العراق، في الساعات الأولى من يوم ١٨ يناير ١٩٩١، وهو اليوم الثاني للحرب، سبعة صواريخ سكود على تل أبيب وحيفا، جُرح جراءها سبعة أشخاص جروحاً طفيفة. وفي اليوم التالي، سقطت أربعة صواريخ سكود أخرى، أُطلِقت من غربي العراق، على تل أبيب أو بالقرب منها. ثم جاء، بعد ذلك، دور المملكة، فأطلق ٢٠ صاروخ سكود على الرياض والظهران، من جنوبي العراق في الأيام ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣ من يناير. كما تلت ذلك هجمات عراقية على كل من المملكة وإسرائيل، ولكن حدَّة تلك الهجمات أخذت تنحَسِر تدريجياً، وكان آخر الهجمات يوم ٢٦ فبراير. وبلغ إجمالي صواريخ سكود التي أطلقها العراق أثناء الحرب ٨٨ صاروخاً، منها ٤٢ على إسرائيل و٤٣ على المملكة وثلاثة على البحرين.

وعلى الرغم من أن هجمات سكود كانت أمراً متوقعاً، إلا أن تأثيرها النفسي لم يكن في الحسبان. فصواريخ سكود سلاح قديم، ظهر للمرة الأولى في الشرق الأوسط عام ١٩٧٣، حين زَوّد السوفيت مصر بها قبل بداية حرب أكتوبر

١٩٧٣. وعلى كل حال، لم يكن لهذا السلاح دور في تلك الحرب، سوى أنه ذُكِرَ في هامش التاريخ العسكري. ففي اللحظة التي أعلن فيها الرئيس السادات وقف إطلاق النار، كانت ثلاثة من صواريخ سكود مُعَدّة للإطلاق، ولم يكن في المستطاع وقف عملية إطلاقها. سقطت الصواريخ الثلاثة على المواقع الإسرائيلية في منطقة الدفرسوار، غرب قناة السويس، بعد خمس دقائق من بدء سريان وقف إطلاق النار.

شَنّت إسرائيل عبر تاريخها العدواني غارات عدة بالقنابل والقذائف على عدد كبير من المدن والقرى العربية في مصر وسوريا والأردن ولبنان، وكذلك في تونس والعراق وما تبقَّى من فلسطين. وباستثناء بعض صواريخ كاتيوشا التي كانت تُطلَق على المستوطنات الحدودية الإسرائيلية، لم تتعرض مراكز إسرائيل السكانية لأي هجوم من قَبْل. وأظهرت هجمات سكود العراقية أن إسرائيل لا تمتلك دفاعات فعالة ضد الصواريخ الباليستية. إذ هُرِع سكانها إلى المخابئ المعزولة خوفاً من أن تكون تلك الصواريخ مسلحة برؤوس كيماوية (غازات سامة). كان قادة إسرائيل العسكريون يتحرَّقون رغبة في الانتقام من العراق لإطلاق صواريخهم، ولكن الضغط الأمريكي مَنَعَهم من ذلك.

مارست إسرائيل ضغطاً كبيراً على واشنطن كي توقف خطر صواريخ سكود، مما دفع واشنطن بدورها إلى الضغط على شوارتزكوف وهورنر لاتخاذ التدابير اللازمة. وهكذا، بدأ تحويل جزء من الطلعات الجوية، نحو ٢٥ ـ ٣٠٪ من إجمالي الطلعات، لاصطياد صواريخ سكود في غربي العراق، مما أربك خطط هورنر للحملة الجوية الإستراتيجية. وكانت عملية اصطياد صواريخ سكود أقلّ العمليات نجاحاً، وأكثرها إحباطاً.

وأصبحت بذلك مجموعة من الصواريخ البدائية، التي لم تكن تهديداً بقدْر ما كانت إزعاجاً، مثار أزمة سياسية وعسكرية، وسبباً لكثير من التوتر بين واشنطن والقادة العسكريين الأمريكيين في الميدان. فحتى ذلك الحين، وخلافاً لما حدث في حرب ڤيتنام، تبنَّى القادة السياسيون الأمريكيون سياسة «عدم التدخل» في مجريات الحرب، تاركين للقادة العسكريين مهمة اتخاذ القرارات العملياتية وتنفيذها. لكن واشنطن، بدأت تُصِرّ على إعطاء عملية اصطياد صواريخ سكود الأولوية القصوى، متخطية تقديرات هورنر، الذي لم يرَ في هذه الصواريخ سوى أنها «مصدر إزعاج» فقط.

كنت، بدوري، أرغب في أن يُعطي التحالف الأولوية للتعامل مع صواريخ سكود العراقية، ليس بسبب آثارها العسكرية، بل لتأثيرها السلبي المحتمل في الروح المعنوية للمواطنين. ولكن تصميم واشنطن على تخصيص القدْر الأكبر من الحملة الجوية لاصطياد صواريخ سكود كان لسبب آخر. فلم أكن الوحيد الذي يشك في أن موقف واشنطن لم يكن سوى رد فعل لتهديدات إسرائيل باستخدام سلاحها النووي ضد العراق، إذا لم تُوقَف الهجمات الصاروخية عليها.

ومن هنا، كانت صواريخ سكود، في رأيي، هي السبب الذي دفع إسرائيل إلى التحدث صراحةً عن قنبلتها النووية، وإخراجها من القمقم واستخدامها أداة للضغط على حليفها القوي. كما فعلت إسرائيل ذلك من قبل، عندما اجتاح المصريون والسوريون دفاعاتها منذ ٢٠ عاماً في بداية حرب أكتوبر ١٩٧٣. ويتبيَّن بجلاء، أن الأسلحة النووية تصلح أداة للضغط على الأصدقاء قدْر صلاحها أداة لإرهاب الأعداء.

وقبل بدء عملية عاصفة الصحراء، كانت المملكة والولايات المتحدة الأمريكية قد بذلتا جهوداً كبيرة في اتخاذ التدابير المكثفة للدفاع عن المملكة. فتم نشر ٢١ بطارية باتريوت، تتكون مما لا يقل عن ١٣٢ قاعدة إطلاق في المواقع الحيوية. وكان أول اختبار فعلي لنظام باتريوت في الليالي الأربع المتتالية من ٢٠ حتى ٢٣ يناير، حين أُطلق ٢٠ صاروخاً في اتجاهنا، كما سبق أن ذكرت.

ولا غرابة في أن تلك الهجمات حركت فينا دوافع الرّد، فوضعنا قوة صواريخنا الإستراتيجية في وضع الاستعداد وتم توجيهها نحو المواقع العراقية الرئيسية. وكان نائبي العميد الركن إبراهيم دخيل العتيبي مكلفاً بقيادة تلك القوة، في هذه الفترة، وهو يتميز بالانضباط العالي والتفاني في العمل. فكانت تلك هي اللحظة المناسبة لاستخدام صواريخنا الإستراتيجية أرض ـ أرض، الصينية الصنع. كنا نشعر بضرورة الرد بقوة، دفاعاً عن النفس، وردعاً لصدام عن تنفيذ أية هجمات أخرى بصواريخ سكود. وهكذا، أصدرت أوامري بتجميع عناصر الصواريخ المختلفة في المواقع المناسبة، وتنفيذ جميع مراحل التجهيز للإطلاق، عدا ملء الصاروخ بالوقود السائل. فهذا الوقود لا يُضخ إلاّ في المرحلة الأخيرة، إذ لا يمكِن بعد ضخِّه إيقاف عملية الإطلاق بسهولة. انتظرت من سمو الأمير سلطان أن ينقل لي أمر الملك بالإطلاق. ولكن بعد ساعات من الترقب، قرر الملك ألاّ يُصعِّد الصراع. وكان قراره حكيماً، إذ أصبح في وسعنا الاحتفاظ

بالصواريخ في جعبتنا كآخر حلٍّ نلجأ إليه. وتجلَّت حكمة الملك وتقديره للمسؤولية في هذا الأمر، إذ لم يشأ أن يسبب خسائر في الأرواح بين المواطنين العراقيين الأبرياء، ولا شك أنه اعتبر حملة التحالف الجوية، التي كانت قائمة على قدم وساق، رداً كافياً ضد العراق.

ولا أدَّعي أن السعوديين كانوا يتعاملون مع هجمات سكود بهدوء مثالي، ولكني سُررت عندما لاحظت أن دوافع الفضول لديهم تغلَّبَت على غريزة الخوف بعد الهجمات القليلة الأولى. إذ أخذ كثير من المواطنين السعوديين والمقيمين يستمتعون بمشاهدة مباريات الصواريخ بين پاتريوت وسكود. وكان فندق «حياة ريجينسي»، المقابل لمبنى وزارة الدفاع، هو مقر مراسلي وسائل الإعلام العالمية أثناء الأزمة. وفوق سطحه، أمضى عدد كبير من المراسلين والمصورين الليل، حيث كان في وسعهم رؤية المطار القديم بوضوح، وهو المكان الذي كانت تنطلق منه صواريخ پاتريوت. وقد قيل لي إنه في المرة الأولى التي انطلقت فيها صفارات الإنذار، أسرع المراسلون إلى ارتداء الملابس الواقية، وهرِعُوا يتدافعون إلى الطابق الأسفل من المبنى. إذ لم يكن أحد يعرف هل كانت صواريخ سكود تحمل رؤوساً شديدة الانفجار أم رؤوساً كيماوية أم بيولوجية أم حتى رؤوساً نووية؟ ولكن ما أسرع ما عاد الجميع إلى السطح ليراقبوا المباراة الصاخبة المتعددة الألوان بين صواريخ پاتريوت وسكود، بعد ظهور حقيقة صواريخ سكود، وأنها لم تكن تحمل سوى رؤوس متفجرة ضعيفة التأثير.

صُمّم صاروخ پاتريوت، في بداية انتاجه، ليكون نظاماً مضادّاً للطائرات. ثم أُضيفت إليه، بعد ذلك، قدرة اعتراض الصواريخ الباليستية، وكان جاهزاً للاختبار في الوقت الذي أقدم فيه صدام على غزو الكويت. وفي ذلك الوقت، لم يكن لدى الولايات المتحدة سوى عدد قليل من صواريخ پاتريوت PAC-2 أُنتجت لغرض الاختبار. ولكن شركة ريثيون انكبَّت على إنتاج الصاروخ على مدار الساعة في الفترة ما بين غزو الكويت وبدء الحرب.

وعلى الرغم من أن نظام پاتريوت كان سلاحاً جديداً، ويعاني عدداً غير قليل من الصعوبات، إلاّ أن أداءه العام في المملكة يُعَدّ ناجحاً. كانت المشكلة غير المتوَّقعة التي واجهها النظام هي التعامل مع صواريخ «سكود» المعدَّلة، التي قام العراقيون بتعديلها لزيادة مداها. إذ كانت تلك الصواريخ التي تنقصها الدقة، تطير في مسارات غير منتظمة (لم تتوقعها أجهزة الحاسب لنظام پاتريوت)، وتتفكك

أحياناً في الجو مما يجعل اعتراضها أمراً صعباً. وكان سقوط الحطام من هذه الصواريخ، يخدع صواريخ باتريوت التي تنطلق آلياً نحو أجزاء الحطام وتصطدم بها. وبلغ عدد صواريخ باتريوت التي أُطلِقت في الليلة الأولى في مدينة الرياض ٣٣ صاروخاً. ومن المفارقات، أن صواريخ باتريوت كان يمكِنها التعامل بدقة مع صواريخ سكود الأصلية، السوڤيتية الصنع، أفضل من تعاملها مع صواريخ سكود المعدَّلة. وحدث أن أفلَتَ أحد هذه الصواريخ، أو جزء من حطامه، من وابل صواريخ باتريوت وسقط فوق مدرسة تبعد بضع مئات من الأمتار عن فندق شيراتون بالرياض، وهي المدرسة التي يدرس فيها ابني. ولحسن الحظ، أن الهجوم وقع ليلاً، ولم يسفر عن خسائر في الأرواح.

بانتهاء الحرب، جرت مناقشات عدة لتقييم أداء صواريخ باتريوت، وتحديد نسبة نجاحها في اعتراض صواريخ «سكود». فلم يكن أداء نظام باتريوت في إسرائيل مُرْضياً، إذ ظهر دان شمرون، رئيس الأركان الإسرائيلي، على شاشة التليڤزيون أثناء الحرب، وذهب إلى حد القول أن نجاح نظام باتريوت ليس سوى «أكذوبة». ويبدو لي أن هذا النظام لم ينجح في إسرائيل؛ لأن الإسرائيليين كانوا مصمِّمين على أن تكون لهم اليد العليا في استخدامه. كانوا يريدون توجيه البطاريات بأنفسهم، وتشغيل النظام يدوياً. وربما كان الأفضل لو تركوا النظام يعمل آلياً، تحت سيطرة أفراد الأطقم الأمريكية المدرَّبين الذين أرسلتهم واشنطن.

وثمة سبب آخر لفشل نظام باتريوت في إسرائيل، هو أن ذلك النظام لم يكن مصمَّماً لحماية المناطق السكانية الكبيرة (دفاع منطقة)، بل كان مصمَّماً للدفاع عن نقاط محددة (دفاع نقطة)، مثل القواعد الجوية والمنشآت البترولية ومراكز القيادة. وقد استخدمناه في المملكة على هذا الأساس. ولو كانت صواريخ سكود تلك تحمل رؤوساً كيماوية لشَكّلت مشكلة خطيرة لنا، إذ إن اعتراضها كان سيتسبب بانتشار الغازات السامة فوق مساحات شاسعة. وعلى كل حال، فإن إسقاط صاروخ سكود أو سقوط جزء منه فوق منطقة سكنية، ربما أوقع أضراراً بالغةً. ولكن الفريق هورنر أظهر ثقة بالغة بنظام باتريوت، عندما ترك أسراب طائرات الإنذار المبكر الثمينة في قاعدة الرياض الجوية، في مرمى صواريخ سكود العراقية، بينما كان من الممكن أن ينقلها جنوباً حيث تكون في أمان تام.

إلاّ أن ثمة حادثة أليمة وقعت، والحرب تقترب من نهايتها، أظهرت بجلاء خطر صواريخ سكود. ففي يوم ٢٥ فبراير، أصاب صاروخ عراقي ثكنة للجنود

الأمريكيين في الظهران، فقُتل ٢٨ فرداً، وجُرح مائة آخرون. وكانت تلك أكبر ضربة تمكّن العراق من توجيهها إلى التحالف خلال الحرب كلها. كان القتلى ٢٦ رجلاً وامرأتين يعملون ضمن وحدات احتياطية للإمداد والتموين، تم استدعاؤهم لإدارة وحدات تحلية المياه. ووصلوا إلى المملكة قبل ذلك بأسبوع واحد، وكان مقرراً أن يدخلوا العراق خلْف قوات التحالف لحفْر الآبار وتنقية المياه. ولمّا كانت الشاحنات التي تحمل قوارير المياه كافية للإيفاء بحاجة قوات التحالف إلى المياه، فإنه لم تعد هناك حاجة إلى وحدات تنقية المياه. ومن المصادفات أن يكون الضحايا الثماني والعشرون، من مدن صغيرة في ولاية پنسلڤانيا Pennsylvania قرب مدينة تشارلروي Charleroi، مسقط رأس الفريق پاجونيس رئيس الإمداد والتموين للقوات الأمريكية.

وعلى الرغم من ذلك الحدث الأليم، كان وجود نظام پاتريوت في المملكة مبعث اطمئنان للمدنيين والعسكريين على السواء. فبالإضافة إلى قدْرته على إسقاط صواريخ سكود، كانت له آثار نفسية تُضارع آثاره العسكرية. كان سكود سلاح رعب وإرهاب وپاتريوت سلاح أمن وطمأنينة.

ومنذ بداية هجمات سكود، أدركنا أن السبيل إلى وقف تلك الهجمات ليس تدمير الصاروخ في الجو، بل تدمير مِنصات إطلاقه (قواذفه) على الأرض. ولكن المشكلة تمثَّلت في تحديد أماكن تلك المنصات. كان ثمة قمران صناعيان أمريكيان للإنذار ضد الصواريخ في وسعهما اكتشاف الوَمِيض الناتج من إطلاق سكود وإرسال المعلومات عن مكان القاذف خلال دقيقتين من الإطلاق. ولكن القواذف المتحركة كانت تنطلق بأقصى سرعتها بعد الإطلاق لتختبئ في أماكن جُهزت لذلك الغرض. فإذا أخفقت طائرات التحالف في الوصول إلى موقع الإطلاق بالسرعة المطلوبة، فإن القواذف ستتمكن من الهرب والاختباء.

سببت هذه المشكلة للتحالف إحباطاً وضيقاً شديدين، أكثر مما سببته كل حماقات صدام الأخرى. كانت مئات الطلعات الجوية للقاذفات المقاتلة تتحول إلى غربي العراق للبحث عن مواقع الإطلاق والقواذف المتحركة. وكانت أسراب كاملة من الطائرات المزوَّدة بأحدث أنظمة الرؤية الليلية، تدور في السماء

للانقضاض عليها. وعلى الرغم من الادعاءات المبالغ فيها، لم ينجح التحالف في تدمير قواذف سكود إلا نادراً.

وفي يوم ١٨ يناير، أعلن شوارتزكوف، بثقة تامة، في أول مؤتمر صحافي له أثناء الحرب أن:

«اكتشفت القوات الجوية الأمريكية، هذا الصباح، ثلاثة قواذف متحركة وعليها صواريخ داخل الأراضي العراقية، وقد تم تدميرها. وفي الوقت نفسه، اكتشفنا ثمانية قواذف متحركة أخرى في الموقع عينه، ونقوم الآن بمهاجمتها، وقد تأكد لنا تدمير ثلاثة منها، وما زلنا ماضين في مهاجَمة القواذف المتبقية. . .».

أرسل إليّ أحد ضباط أركاني، ممن لديهم خبرة واسعة بصواريخ سكود، تقريراً يُعَبّر فيه عن شكه في صحة ما أدلى به شوارتزكوف. وجاء في تقرير الضابط، أنه من غير المحتمل أن يحرِّك العراقيون قواذفهم في وضح النهار معرضين سلاحهم الثمين للضربات الجوية. وكان يرى أن الطيار الأمريكي ربما دمر أهدافاً هيكلية، وليس قواذف حقيقية. وإذا لم تكن أهدافاً هيكلية، فربما كانت شاحنات طويلة تستخدم في نقل الصواريخ (وهي تشبه القواذف من ناحية الشكل). وفي اعتقاده، أن تصريح شوارتزكوف ربما قُصد به طَمْأنة إسرائيل إلى أن الولايات المتحدة تبذل كل ما في وسعها لوقف هجمات سكود. وخلص التقرير إلى أن هناك احتمالاً نسبته واحد في الألف أن يكون الطيار قد دمَّر قواذف حقيقية، وإلاّ فإن العراقيين يكونون قد فقدوا صوابهم.

ناقشت ذلك التقرير مع شوارتزكوف، ولكنه أكد لي أن طيار القوات الجوية الأمريكية دمَّر القواذف المتحركة بالفعل، كما سبق أن أعلن، وأن الاستخبارات الأمريكية أكدت ذلك. ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى اعترف الجميع بأن الأهداف التي تمّ تدميرها لم تكن إلاّ أهدافاً هيكلية فعلاً.

لذلك، تعجبت عندما قرأت في كتاب شوارتزكوف ادعاءه بأن «قاذفاتنا نجحت في سحْق جميع مواقع سكود المعروفة في غربي العراق»، إذ دمرت ٣٦ من القواذف الثابتة و١٠ من القواذف المتحركة. وهذا ادعاءٌ غير صحيح ويعكس خلطاً في التفكير. فبادئ ذي بدءٍ، ليس هناك ما يسمى «قواذف ثابتة». فكل قواذف صواريخ سكود متحركة، إذ توضع على عربات ذات هيكل طويل. وتستطيع القواذف إطلاق صواريخها من على الطرق، أو من الأراضي المفتوحة

(مواقع غير مجهَّزة) ثم تسارع إلى الاختباء بعد الإطلاق. كما تستطيع أن تُطلِقَ صواريخها أيضاً من مواقع إطلاق مجهزة ومحصَّنة بأكياس الرمل ومزوَّدة بملاجئ منيعة لأطقم القواعد ولقائد البطارية. وقد هُوْجِم الكثير من تلك المواقع المجهَّزة، من قِبَل التحالف في الأيام القليلة الأولى من الحرب، ولكن القواذف المتحركة تمكنت من الهرب وأخذت تلعب مع التحالف لعبة القط والفأر حتى نهاية الحرب. وخلُص بعض المحلِّلين بعد انتهاء الحرب، خلافاً للادعاءات التي صدرت أثناء الحرب، إلى أن القوات الأمريكية لم تنجح في تدمير قاذف متحرك واحد(*).

وفي عمليات «الاصطياد الكبير» لصواريخ سكود، انهزم التحالف بفعل ذكاء الأطقم العراقية لصواريخ سكود وسعة حيلتها، بالإضافة إلى الظروف الجوية. كان العراقيون يطلقون صواريخ سكود في الأحوال الجوية الرديئة فقط، عندما يكون سقف السحاب عند ارتفاع ٣٠٠٠ قدم أو أقل. ولاحظنا الارتباط الشديد بين هجمات سكود والظروف الجوية السيئة في مواقع الإطلاق. ورأى كثير من الطيارين صواريخ سكود تخرج من حُجُب السحاب أثناء قيامهم بالدوريات الجوية. ولَمّا كانت أنظمة الأقمار الصناعية الأمريكية، التي تُستخدم في الإنذار ضد الهجمات الصاروخية، أنظمة صُمِّمت لفترة الحرب الباردة، لتمنع أية هجمات مفاجئة تشنُّها الصواريخ السوفيتية العابرة القارات على الولايات المتحدة الأمريكية، فإنها كانت تفتقر إلى الدقة المطلوبة لتكتشف بالتحديد مواقع الإطلاق من خلال حُجُب السحاب، ثم تنقل تلك المعلومات، بدورها، إلى الطيارين الذين ينتظرون في الجو.

بُذِلَت محاولات عدة لمعالجة جوانب القصور تلك، وعلى وجه التحديد، من قِبَل مجموعات صغيرة من القوات الخاصة البريطانية، المعروفة باسم SAS، التي كانت تجوب مناطق غربي العراق. فأغارت على مواقع عدة للإطلاق، ودمَّرت بعض القواذف، وأجبرت بعضاً آخر على الانسحاب إلى العمق العراقي.

وما أسرع ما تبين لنا أن تحديد مواقع القواذف المتحركة لصواريخ سكود، أصعب بكثير مما كنّا نتوقع، وأننا قلَّلنا من شأن تلك القواذف إلى حدٍّ بعيد. فعلى الرغم من أن القوات الأمريكية كانت تعرف خصائص ذلك السلاح، إلاّ أنها

(*) See Mark Crispin Miller, «Desert Scam: Not One Mobile Scud Launcher Was Destroyed», *International Herald Tribune*, January 25, 1992.

لم يكن لها سابق خبرة عملية به. فلم يكن الأمريكيون يعرفون أسلوب استخدامه، ولا يمكن معرفة نقاط القوة والضعف لصواريخ سكود، إلاّ بالاستخدام العملي لوحداتها.

حاول أحد مستشاريَّ، وقد عمل من قَبْل قائداً لوحدة صواريخ سكود لمدة سنتين، من طريق الاستنتاج المنطقي، أن يوضح الأسلوب الصحيح لتحديد مواقع إطلاق صواريخ سكود، ومن ثم تدمير القواذف في الدقائق القليلة التي تفْصِل بين إطلاق الصاروخ وإخلاء موقع الإطلاق. وفي ما يلي إيجاز مُجمَل لحساباته:

١ ـ على افتراض أن العراقيين يحاولون ضرب أهداف في الرياض، رسَم شكل توضيحي تظهر فيه المدينة في مركز قوس نصف قطره يساوي أقصى مدى لصاروخ سكود المعدل، سواء أكان الحسين أم العباس.

٢ ـ وبالدراسة الدقيقة لخريطة المنطقة المحيطة بمحيط القوس، تمكن من تحديد مواقع الإطلاق المحتملة مع الأخذ في الاعتبار عوامل القرب من الطرق الصالحة للتحرك والأماكن الصالحة للاختباء.

٣ ـ ونظراً إلى أن العراقيين لا يحركون القواذف المتحركة «الثمينة» في وَضَح النهار، خلص إلى أن الوقت المحتمل للإطلاق سوف يقع بين حلول الليل (سعت ١٨٠٠) وأول ضوء (سعت ٠٦٠٠). فإذا أخذنا في الاعتبار الوقت المطلوب لتحريك القواذف وصواريخها تحت جنح الظلام من مكان اختبائها إلى موقع الإطلاق ثم الإعداد لعملية الإطلاق، والوقت المطلوب لإخلاء موقع الإطلاق وتحرك القواذف إلى مكان اختبائها مرة أخرى، أمكنه أن يستنتج أن الوقت المتوقَّع للإطلاق سوف يكون بين سعت (١٩١٠) وسعت (٠٥٢٠). وحقيقة، لم يطلَق صاروخ واحد خلال الحرب خارج هذين التوقيتين.

٤ ـ كان يعلم، من واقع خبرته، أن القواذف المتحركة يلزمها من ٧ إلى ١٠ دقائق لإخلاء موقع الإطلاق، بينما يحتاج قمر الإنذار الأمريكي المداري إلى دقيقتين لإرسال بيانات الإطلاق. وهذا يعني أن لدى التحالف ٥ ـ ٨ دقائق لقصف مواقع الإطلاق قبل مغادرة القواذف لها.

٥ ـ وهذا، بدوره، يعني أن القاذفات المقاتلة للتحالف لا بد أن تكون في الجو على بعد لا يزيد على ٥٠ ـ ١٠٠ كيلومتر من مواقع الإطلاق، التي تم

تحديدها، انتظاراً لإشارة الإنذار حتى تكون أمامها فرصة كافية للوصول إلى مواقع الإطلاق لتمييز القواذف وتدميرها قبل هروبها إلى مخابئها.

أَعطيتُ هذه الحسابات الدقيقة المنطقية لشوارتزكوف، واعترف الأمريكيون بأهميتها وفائدتها. كانت الحسابات مفيدة في تحديد المواقع المناسبة «للدوريات الجوية المقاتلة». ولكن تلك الجهود جميعها لم تُمَكِّنا من التغلب على قصور الأقمار الصناعية في تحديد مواقع الإطلاق بشكل دقيق، فضلاً عن الحماية الطبيعية التي كانت تتحقَّق لأطقم الصواريخ العراقية بفعل الظروف الجوية.

ومن المفارقات العجيبة في عملية عاصفة الصحراء، أن صاروخ سكود، الذي عفاه الزمن، أصبح مَبْعَثاً لإعادة النظر في طبيعة الحرب، كما أبرز الحاجة إلى السلام في منطقة الشرق الأوسط. لقد حدا ذلك الموقف بالولايات المتحدة أن تبذل جهوداً حثيثة لوقف انتشار الصواريخ، كما شجَعها على تطوير الدفاعات المضادة لها. ولعله ساعد أيضاً في إقناع بعض الإسرائيليين بأن أمنهم، في المدى البعيد، لا يتمثَّل في حيازة قدر أكبر من السلاح، بل في السعي نحو السلام مع جيرانهم واستعدادهم لدفع ثمن هذا السلام، وهو إعادة الأراضي العربية التي احتلت عام ١٩٦٧.

وإلى جانب صواريخ سكود، كانت هناك مفاجأة أخرى أخرجها صدام من جعبته في مواجَهة التحالف، وهي وصول ١٣٥ من طائراته إلى إيران. فقد هربت أول مجموعة منها يوم ٢٦ يناير والأيام الثلاثة التي تلت ذلك، وكانت تضم ٨٠ طائرة. ثم حدث هروب جماعي أيضاً في الفترة ما بين ٦ إلى١٠ فبراير. وكان بين الطائرات التي هربت مقاتلات جديدة من نوع MIG-29، وقاذفات من نوع Fencer للارتفاعات المنخفضة، وهي قاذفة سوفْيتية تُضارع طائرة التورنيدو والطائرة F-111، إضافة إلى بعض طائرات النقل وعدد كبير من طائرات ميج MIG القديمة. وعلى كل حال، كانت تلك إضافة كبيرة إلى قوة إيران الجوية، إذ أعلنت طهران بوضوح، بعد انتهاء الحرب، أنها لا تنوي إعادة تلك الطائرات.

توقفت القوات الجوية العراقية عن الطيران تقريباً، بعد الأيام الثلاثة الأولى من الحملة الجوية، إذ أُسقطَت الطائرات القليلة التي غامرت بالإقلاع. وعندما أدركَ صدام ألاَّ قِبَل لقواته الجوية بطائرات التحالف، وربما لرغبته في الحفاظ

على قواته الجوية للقيام بموجة شاملة (ضربة مركَّزة) من الهجوم الجوي في وقت لاحق من الحرب، أبقى طائراته قابعة في مخابئها المحصنة التي تبلغ ٦٠٠ مخبأ، اشتهر بعضها بأنه من أقوى الملاجئ في العالم قاطبة. وقصفت طائرات التحالف، فيما بعد، تلك الملاجئ باستخدام القنابل زِنَة ٢٠٠٠ رطل الموجهة بأشعة الليزر، فدَمّرت ١٥٠ ملجأً منها.

اعتقد هورنر، وهو يشاهد هذه التطورات على شاشات مركز قيادته، أن ما تبقّى من القوات الجوية العراقية سيحاول الفرار إلى دولة أخرى. وظن أن تلك الطائرات ستتوجّه إلى الأردن، نظراً إلى العلاقة الوطيدة بين صدام والملك حسين. ولهذا السبب، عَمَدَ إلى زيادة الدوريات الجوية من المقاتلات الاعتراضية الأمريكية والبريطانية والسعودية في جنوب وغرب بغداد. ولكنه أخطأ التقدير، إذ لاذَتْ الطائرات العراقية بالفرار عبْر الحدود إلى إيران، حيث الأمان.

كان أول ما تبادر إلى فكري هو أن هؤلاء الطيارين لجأوا إلى إيران فراراً من ديكتاتورية صدام. وقد وافقني شوارتزكوف أيضاً هذا الرأي، بل ذهب إلى اقتراح وجوب حماية تلك الطائرات. وتوقَّعنا أن نسمع بإعدام طيارين آخرين في العراق فشلوا في الفرار بطائراتهم. ولكن حدثت موجة هروب جماعية أخرى إلى إيران. وهنا بدا واضحاً أن صداماً عقد صفقة مع طهران لتوفر لطائراته ملاذاً آمناً لديها. وفي تلك الأثناء، نقل هورنر «الدوريات الجوية» إلى الشرق من بغداد، ونجحتْ في إسقاط بعض الطائرات العراقية، إلاّ أن أعداداً كبيرة منها تمكنت من الوصول إلى إيران سالمة.

دُهشت، هذه المرة، لعدم قدرة التحالف، أو عدم رغبته في منع ذلك الهروب الجماعي للطائرات العراقية. كانت التحركات الجوية في المنطقة كلها، من الخليج إلى البحر الأحمر ومن المملكة حتى تركيا، تخضع للمراقبة على جميع الارتفاعات، من طريق طائرات الأواكس وطائرات البحرية الأمريكية من نوع E-2C Hawkeyes، والمِنصات الأخرى، فضلاً عن الرادارات السطحية على متن حاملات الطائرات. وكانت تلك المصادر كلها مرتبطة ببعضها البعض من طريق الاتصالات وربط البيانات بالأقمار الصناعية، لتعطي «صورة جوية» آنية (في زمن يقترب من الزمن الحقيقي). فكان كل تحرك للطائرات المعادية يُنقَل في الحال إلى «الدوريات الجوية المقاتلة» للتحالف في الجو، سواء المنطلِقة من القواعد الجوية الأرضية أو من حاملات الطائرات. ولم يكن في استطاعة طائرة

واحدة في المنطقة كلها أن تقلِع دون أن تُكتشف. وكانت كل طائرة تخضع للمتابعة من اللحظة التي تحلِّق فيها.

طلبت من ضباط أركاني أن يبحثوا في أسباب نجاح الطائرات العراقية في التسلُّل عبر شبكة الدفاع الجوي. وتوصلوا إلى ثلاثة أسباب محتَمَلة: أولاً، تَوقّع التحالف كما سبق أن ذكرت، لجوء الطائرات العراقية إلى الأردن، وليس إيران، مما حدا «بالدوريات الجوية المقاتلة» على ترقُّبها جنوب بغداد وغربها. وثانياً، قِصَر المسافة بين المطارات العراقية والحدود الإيرانية، جعل اعتراض الطائرات الهاربة متعذراً دون انتهاك المجال الجوي الإيراني. ثالثاً، كانت الطائرات العراقية تطير على ارتفاع جدّ منخفض. ولكي تتمكن طائرات التحالف من إسقاطها، كان لا بد من أن تطير، مثلها، على الارتفاع نفسه، وذلك يجعلها عُرْضَة للنيران الأرضية. ولكنني لم أقتنع بكل تلك التفسيرات، وظل موضوع الفرار الجماعي للطائرات العراقية، وهو من أغرب أحداث الحرب، لغزاً شاذاً محيراً حتى يومنا هذا. كما كنت أيضاً أتساءل عن مصير الطيارين العراقيين الذين فرّوا إلى إيران؛ إذ اختفوا وكأن الأرض انشقت وابتلعتهم.

جعلتني تلك الأحداث أتساءل أيضاً، إن كان في قدرة العراقيين أن يخترقوا مجالنا الجوي، إذا توافرت لديهم الجرأة. هل كانت تلك الحادثة دليلاً على وجود ثغرة في قدرات التحالف؟ وإذا كان العراقيون قادرين على الطيران إلى إيران دون أن يعترض سبيلهم أحد، أَلَمْ يكن في إمكانهم التوغُّل داخل المملكة، ولو لمسافة قصيرة؟ ومن الحقائق الغريبة، في هذه الحرب، أن صداماً، على الرغم من كل زَبَده وضجيجه، لم يستخدم قواته الجوية بشكل فعال، كما لم يستخدم مدفعيته البعيدة المدى كما ينبغي، ولا ترسانته الكيماوية كما كان متوقعاً. لقد دعا التحالف للنزال، ولكنه لم يبرز إلى القتال.

حاولت القوات الجوية العراقية، مرة واحدة، الهجوم علينا. ففي يوم ٢٤ يناير، وفي عملية معقَّدة تم تنفيذها بشكل جيد، أقلعت طائرتان عراقيتان من نوع ميراج F-1 في اتجاه الجنوب. وكان هناك عدد كبير من الطائرات في الجو في ذلك الوقت، طائرات عراقية تطير في اتجاه الشمال بمحاذاة الحدود الإيرانية، تطاردها دوريات القوات الجوية الأمريكية، كما كانت طائرات التحالف الأخرى عائدة من فوق الخليج بعد أداء مهامها فوق البصرة. وربما كانت الطائرتان

العراقيتان تطمعان في ألاّ يكتشفهما الرادار وسط ذلك الزحام. وبدا كأن المقاتلتين العراقيتين تتجهان صوب ميناء الجبيل.

وعلى الرغم من مناورتهما الماهرة تحت الطائرات الأخرى، إلاّ أن مراقب البحرية الأمريكية على متن طائرة أواكس التقطهما لحظة تحليقهما في الجو. فاتصل أولاً بطائرة F-18 تابعة للبحرية الأمريكية، كانت تحلِّق فوق الخليج في مهمة حماية سفينة حربية أمريكية، ولكن قائد تلك السفينة رفض التخلي عن الطائرة، وذلك مثال على تحديه للقيادة الجوية المشتركة. بعد ذلك، اتصل مراقب الـ«أواكس» بدورية جوية قتالية سعودية، كانت تحلِّق جنوب الكويت. وعلى الفور، انطلق النقيب عايض صالح الشمراني، الذي كان يقود طائرة F-15C تابعة للسرب الثالث عشر للقوات الجوية الملكية السعودية، خلْف طائرتيْ الميراج العراقيتين.

وجاءت تعليمات المراقب الجوي على متن الـ «أواكس»: «عندما تكون جاهزاً، دمِّر».

في تلك اللحظة رأى النقيب الشمراني وَمِيضاً تحت إحدى الطائرتين العراقيتين. فقد ألقى الطيار العراقي بحمولته لكي يتمكن من المناورة بشكل أفضل، وربما كان يأمل في أن تصيب الشظايا التي تسقط منها أية طائرة مهاجِمة. وانحرف شمالاً ثم انحرف يميناً بشكل حادّ. ولكن الشمراني، بقرار اتخذه في جزء من الثانية، عاجَلَه بصاروخ أسرع من الصوت AIM-9 Sidewinder. وبعد لحظة، رأى الطائرة الأولى تنفجر، والتقط راداره الطائرة العراقية الثانية، وهي تتَّجه نحوه، فأطلَق عليها صاروخاً آخر من النوع نفسه فدمَّرها. كانت تلك إصابة ثنائية، في أقل من دقيقة، وفيها من المهارة الفائقة ما يثير الإعجاب حقاً.

حرصتُ على أن أقلِّد النقيب الشمراني وساماً بعد وقت قصير من عمله البطولي، وكنت على وشك أن أذهب إلى الظهران لهذا الغرض، حين علمت أن القوات العراقية في الثلاثين من يناير تسلَّلت إلى مدينة الخفجي الحدودية الخالية من القوات. وهكذا، توجَّهت إلى الشمال حيث كان في انتظاري اختبار صارم في القيادة.

الفصل العشرون

معركة الخفجي

إن الانتصار في أية معركة لا يتحقق بالسلاح والمعدات والإمدادات وعدد الرجال فحسب، بل إن ثمة عاملاً حاسماً، وإن لم يكن مادياً كالعوامل السابقة، إلاّ أن دوره يفوقها جميعاً، ذلك هو الروح المعنوية التي تختلج في صدر كل جندي، فهي تمنحه الإحساس بالثقة من النصر، أو تبثُّ فيه الإحساس بالإحباط والهزيمة، وهذا ما يدركه كل قائد عسكري. وقد وردت في رواية ليو تولستوي Leo Tolstoy «الحرب والسلام»، عبارة مشهورة يقول فيها: «تكمن قوة كل جيش في روحه المعنوية».

ويحكي تولستوي، في روايته الشهيرة، كيف نجح نابليون Napoleon في الاستيلاء على موسكو، عام ١٨١٢، بجيشه الإمبراطوري الضخم الذي كان قوامه ٦٠٠ ألف جندي. ولكن بعد انقلاب الموازين، فرَّت فلول ذلك الجيش العظيم، عبر قِفَار روسيا التي تغطيها الثلوج، منسحبة إلى بلادها. كتب تولستوي يقول: «إن نجاح أي عمل عسكري لا يعتمد على القائد الذي يدير دفة المعركة، بل على الجنود الذين تخرج صيحة النصر أو الهزيمة من حناجرهم، فإذا صادفت صيحات الاستبشار بالنصر قائداً شجاعاً مِقْداماً، أصبح الفَرْقُ في عدد الجنود غير ذي بال، فيُبلي خمسة الآلاف رجل بلاء الثلاثين ألفاً».

كان التحالف ضد صدام حسين واثقاً من النصر، فالتفوُّق في العدد والعدة والإمكانات والتكنولوجيا كفيلٌ بتحقيق الانتصار، إلا أن الأمر لم يخلُ من بعض المخاوف والشكوك: ما أثر الحملة الجوية في قدرة العراق على مواصلة القتال؟ هل سيستخدم صدام الأسلحة الكيماوية؟ هل سيكون في مقدرته جرُّ التحالف إلى حرب برية في الوقت الذي يختاره؟ هل سيكون في قدرته تكبيد التحالف خسائر

جسيمة تُحَوّل هزيمة العراق العسكرية إلى نصر سياسي، كما فعل الرئيس عبدالناصر في حرب السويس عام ١٩٥٦؟ لم يكن في وسع أحد أن يعطي إجابات شافية عن تلك التساؤلات. (وقد انعكس خوف التحالف من تكبُّد خسائر عالية، بل وتوقُّعه إياها، في تجهيز ١٨ ألف سرير علاجي).

أزالت معركة الخفجي بعض الغموض، وقدَّمت الإجابات عن بعض التساؤلات السابقة. وإن نجحت المعركة في إلقاء الضوء على الوضع الحقيقي للجيش العراقي، إلا أن دورها الأهم، من وجهة نظري، يتلخص في أثرها في الروح المعنوية لقواتنا وللقوات العراقية على حدٍّ سواء. كانت قواتنا تطلِق صيحات النصر، بينما قوات صدام تطلق صيحات الهَلَع والذعر والهزيمة. أضحى كل واحد من رجالنا، بعد معركة الخفجي، واثقاً أن النصر حليفه. وعلى العكس من ذلك، كان كل رجل على الجانب الآخر موقناً بالهزيمة لا محالة.

وفي كل صراع، يأتي منعطف يبدو للمرء فيه أن الموازين انقلبت، ومعركة الخفجي كانت ذلك المنعطف.

عبرت مجموعة قتال عراقية ليلة ٢٩ ـ ٣٠ يناير الحدود السعودية ـ الكويتية، وتحركت بمحاذاة الساحل واحتلت مدينة الخفجي. ولم يكن في الخفجي، التي تبعد نحو عشرة كيلومترات داخل الحدود السعودية، أية دفاعات في ذلك الوقت. كان أمر احتلالها سهلاً للغاية، إذ لم يكن في الخفجي وجود عسكري للتحالف في أي شكل من الأشكال. ولكن إذاعة بغداد، ومعها وسائل إعلام دولتين أو ثلاث متعاطفة مع العراق، سارعت إلى تصوير احتلال الخفجي على أنه نصر مبين. ولا جدال في أن صداماً حَقّق باحتلال الخفجي مفاجأة تكتيكية. وهي المرة الثانية خلال الحرب التي يكون زمام المبادرة فيها في يد صدام، فالمرة الأولى كانت عند استخدامه صواريخ سكود.

يُمَثّل توقيت الهجوم على مدينة الخفجي أمراً له مغزاه. فالحملة الجوية كانت لا تزال قائمة، على قدم وساق، يستعر أُوَارها منذ ١٢ يوماً، وما فتئت تثير مناقشات حامية داخل التحالف في شأن عدد من القضايا المتصلة بها، مثل: إلى متى يجب أن تستمر هذه الحملة الجوية؟ وكيف يتسنى لنا تقدير الخسائر الناجمة عنها؟ هل انصرف اهتمام مخطِّطي الحملة الجوية إلى تدمير الأهداف الإستراتيجية

داخل العراق أكثر مما انصرف إلى إضعاف القوات العراقية التي تواجِهنا على الجبهة؟ وكان رأيي أن تُعطى الأولوية في الضربات الجوية للأهداف العسكرية القريبة من حدودنا، لا للبنْية الأساسية في العراق. وكنت قلقاً، بوجه خاص، من حشود المدفعية العراقية التي ظهرت فعاليتها في الحرب العراقية ـ الإيرانية.

وبينما تدور هذه المناقشات، كانت الاستعدادات للحرب البرية تمضي قُدماً. انتقل مئات الآلاف من جنود الفيلقين الأمريكيين السابع والثامن عشر إلى مواقع هجومية تحت غطاء الحملة الجوية. وكانت حركة الشاحنات على طريق التابلاين شرق ـ غرب لا تتوقف على مدار الساعة، ولا تكاد تُرى مسافة بين شاحنة وأخرى. وكانت الفرقة السادسة المدرعة الخفيفة الفرنسية تتحرك إلى أقصى الغرب من الجبهة، مع الإبقاء على خطوط إمدادها مفتوحة من ينبع. وإلى الغرب من مواقع القوات المشتركة في المنطقة الشرقية، تقدَّمتْ فرقتان من مشاة البحرية الأمريكية بالتبادل وأعادتا تمركز نقاط إمدادهما من ساحل الخليج إلى قواعد جديدة على بعد ١٠٠ كيلومتر إلى الداخل، في منطقتي الكبريت والخنجر. وكانت طائرات C-130 الضخمة تحلِّق بلا توقف، ليلاً نهاراً، لنقل الجنود والإمدادات إلى مهابط ترابية أُعِدَّت على عجل في قلب الصحراء.

بدا واضحاً أن العراقيين كانوا آخر من يعلم عن الآلة الحربية الضخمة التي كان يجري إعدادها لتدميرهم. كان التحالف يستعد لتوجيه الضربة القاضية التي باتت قاب قوسين أو أدنى.

وضمن هذا الإطار الزمني، حدث الهجوم العراقي على الخفجي، كسهم مارق في الظلام. هجوم يهدد بتعطيل استعداداتنا، كما يثير المخاوف لدينا، حتى قبيل ساعة الصفر، من أن صداماً قد ينجح في إفساد خططنا.

ما الهدف الذي كان يسعى صدام إلى تحقيقه من وراء ذلك الهجوم؟ رأى بعض المحلِّلين العسكريين في قوات التحالف، أن الهجوم لم يكن سوى مقدمة لهجوم واسع النطاق ينوي صدام شنّه عبْر وادي الباطن (الوادي الجاف الواسع الموازي للحدود الغربية للكويت مع العراق)، إلاَّ أن غياب الغطاء الجوي لدى صدام جعل ذلك أمراً مستبعَداً. وتوقَّع المتشائمون أن صداماً سيحاول التوغل بمحاذاة الساحل حتى يصل إلى الجبيل، كي يحدث صدمة نفسية تنهار على أثرها المملكة داخلياً. هل كان صدام يسعى إلى إبهار الرأي العام العربي والعالمي، من طريق إضعاف الثقة بالجيوش والأنظمة العربية؟

تتمتع الطريق الساحلية التي تمر بالخفجي بأهمية إستراتيجية بالغة. فهي تربط الكويت بالمملكة والبحرين (من طريق الجسر الذي يربط الدمّام بجزيرة البحرين) وقطَر ودولة الإمارات العربية المتحدة ثم عُمان. كما أن السهل الساحلي والمياه الإقليمية المتاخمة له، بما فيها من آبار للنفط وأنابيب وموانئ شحن وموانئ رئيسية، تُعَدّ المنطقة التي تستمد منها منطقة الخليج ثرواتها. وباحتلال الخفجي، امتد تهديد صدام إلى تلك المنطقة الساحلية بأسْرها، مما أشاع شعوراً بالقلق في الرياض وفي العواصم الخليجية الأخرى.

وثمة تفسير آخر لاحتلال الخفجي أقل إثارة للقلق، وهو اعتباره محاولة يائسة من صدام للإمساك بزمام المبادأة وإجبار التحالف على الرد عليه. وقد أظهرت استجوابات الأسرى، بعد ذلك، أن العراقيين كانوا حريصين على أَسْر أكبر عدد من الجنود، لاستخدامهم في الضغط على التحالف ومساومته فيما بعد. كان أمل صدام الوحيد إحداث قدْر كبير من الخسائر في صفوف قوات التحالف، يدّعي على إثره تحقيق نصر سياسي، وذلك باستدراجها إلى الدخول في معركة برية قبل أن تتضرر دفاعاته حول الكويت. فلو انتظر حتى يتم تدمير دفاعاته بشكل كامل، فسوف يُحرَم من حرية المناورة، ولن يكون أمامه وقتئذٍ خيار سوى الاستسلام. وفي ضوء هذا الاستقراء، لم يكن الهجوم على الخفجي سوى محاولة لجَرّ التحالف إلى الهجوم البري، ومن ثم استدراج قوات التحالف إلى مناطق القتل العراقية حول الكويت، وهو أسلوب أتقَنه العراق خلال حربه الطويلة على إيران. وعلى الرغم من أن هذا التفسير الأخير يبدو معقولاً إلى حدٍّ بعيد، إلاّ أن أحداً لا يستطيع أن يجزم بما كان يدور في خَلَد صدام حتى يومنا هذا.

وفي صباح يوم ٣٠ يناير، توجَّهتُ في الطائرة من الرياض إلى قاعدة الملك عبدالعزيز البحرية في الجبيل، لأقلد الرائد بحري سامي صالح شاهين وعدداً من الضباط والأفراد، الذين نجحوا في إغراق أكبر سفينة حربية في البحرية العراقية، الأوسمة التي مُنِحت لهم. وفي الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم، تلقَّيت تقريراً بحدوث غارة في اتجاه الخفجي قامت بها القوات العراقية أثناء الليل. وكان رد فعلي أننا قادرون على التعامل معها. فإذا تهوَّر العراقيون إلى حدّ المغامرة باختراق الحدود، ثم المنطقة الخالية من الدفاعات، فسيتِم تدميرهم من الجو.

وقبل أن يبدأ احتفال تقليد الأوسمة في القاعدة البحرية، الذي كان مقرراً أن يَتْبَعه مؤتمر صحافي، تلقَّيت تقريراً آخر أكثر خطورة، مفاده أن العراقيين قد عبَروا حدودنا بقوات كبيرة. شعرت بقلق عميق، وحاولت أن أفرغ مما كنت فيه في أقصر وقت لأتعامل مع تلك المشكلة. مرّت الدقائق بطيئة متثاقلة كأنها ساعات طوال. ولكنني، لم أشأ أن أقطع برنامج الاحتفال كي لا أنبّه وسائل الإعلام العالمية والمحلية إلى ما يجري، فعقدت المؤتمر الصحافي في موعده المقرَّر، وأجبرت نفسي على الابتسام على الرغم من القلق الذي كنت أشعر به.

كان مقرَّراً أن أنتقل إلى الظهران، في الطائرة العمودية، لتكريم النقيب طيار عايض الشمراني، بالقوات الجوية السعودية، الذي تمكّن في طلعة جوية واحدة من إسقاط طائرتين عراقيتين من نوع ميراج F-1. ولكن الأخبار التي تلقّيتها أثبتَت، بما لا يدَع مجالاً للشك، أن الغارة العراقية لم تكن ضرباً من الكرّ والفرّ، وأنها تطورت إلى شيء أكبر من ذلك وأخطر. إذ دخلت قوة عراقية كبيرة إلى مدينة الخفجي، وكانت تعزيزات عراقية قوية، تُقدَّر بنحو فرقتين، تتحرك على الجانب العراقي من الحدود. وعلى أثر ذلك، قررت على الفور أن أطير شمالاً لأتعامل مع الموقف عن كثب.

توجَّهْتُ إلى ريش المنجور، حيث مركز القيادة المتقدِّم لقيادة القوات المشتركة في المنطقة الشرقية. وكان مركز القيادة مجهَّزاً تحت الأرض ومحاطاً بأكياس الرمل بالإضافة إلى بعض الخيام. ويقع على مسافة ٤٠ كيلومتراً من مدينة الخفجي، و٢٥ كيلومتراً من المنشآت البترولية الساحلية في السفانية، ويتولى قيادته اللواء سلطان المطيري، وهو عسكري من الطراز الأول، إلاَّ أنني وجدت مركز قيادته في حالة من الاضطراب! فإزاء توغل العراقيين داخل أراضي المملكة، طَلَب اللواء سلطان مراراً من فيلق مشاة البحرية الأمريكية تنفيذ ضربات جوية لإيقافهم. وكان المركز على اتصال وثيق بمشاة البحرية الأمريكية، فهُم يشتركون معنا في منطقة واحدة هي المنطقة الشرقية، ويقومون بتدريبات مشتركة، وثمة ضابط اتصال أمريكي مُلْحقٌ على المركز. ولكن على الرغم من نداءات اللواء المطيري المتكررة، لم تنفذ أية ضربات جوية، ولم تتحرك طائرات التحالف! كان عدم الاستجابة الفورية بتنفيذ الطلعات الجوية يهدد نجاح إستراتيجيتي في ترْك المناطق الحدودية بلا دفاعات، إذ لا يحقق الهدف المنشود من جعلها مناطق قتل للقوات المعتدية.

أَمضَى اللواء سلطان معظم الليلة السابقة في عملية استطلاع، ووصل حتى مشارف الخفجي، ورأى بنفسه انتشار القوات العراقية. وبناء على المعلومات التي تلقَّيتها، أَيْقَنْتُ أن الموقف أخطر مما تصوَّرتُ في بادئ الأمر.

ومن الجدير بالذكر أنني أعلنت الخفجي مدينة ميتة، عند أول زيارة تفقُّدية قمت بها إلى الميدان، في ١٦ أغسطس في بداية أزمة الخليج. وتم إعداد خطة لإجلاء كل سكان المدينة، البالغ عددهم نحو ١٥ ألف نسمة، في حالة تحرُّك العراقيين نحو الجنوب. ولكننا آثرنا إرجاء تطبيق تلك الخطة حتى لا تنشأ حالة من الفوضى والذعر بين السكان. ولم يكن مقرَّراً القيام بإخلاء جماعي للسكان. كما لم يصدر أي أمر يجبرهم على الخروج من المدينة. ولكن بحلول شهر ديسمبر ١٩٩٠، كان معظم سكان المدينة قد نزحوا عنها إلى أماكن أكثر أمناً داخل البلاد، بينما انتظر بعضهم حلول العطلة الدراسية ليغادروا المدينة. ولم يبقَ فيها سوى بعض الموظفين الحكوميين، وسرية من مشاة البحرية السعودية لحماية المنشآت الحيوية وممتلكات السكان. وهكذا، كانت المدينة مهجورة في واقع الأمر، بعد أن رحل عنها معظم سكانها، وتم إجلاء الباقين منهم مع بدء الحملة الجوية في ١٧ يناير.

كان قرار إجلاء السكان عن الخفجي قراراً حكيماً، إذ ظلت المدينة تتعرض منذ بدء الحملة الجوية للقصف بالمدفعية والصواريخ كل يوم تقريباً. وكان الخوف من إقدام صدام على استخدام الأسلحة الكيماوية هاجساً يشغل بال الناس جميعاً. كانت مخازن البترول القائمة في الضواحي الجنوبية من المدينة قد أصيبت، وارتفعت على أثر ذلك سُحُب كثيفة من الدخان إلى عنان السماء. أمّا محطة التحلية، التي كان يعتمد عليها السكان بشكل رئيسي للحصول على مياه الشرب، فتقع شمالي المدينة على بعد ستة كيلومترات فقط من الحدود الكويتية وفي مرمى المدفعية العراقية. وهكذا، أصبحت الخفجي «مدينة أشباح» حقاً.

أوضحتُ في فصل سابق، أنني كنت قد سحبت القوات الأساسية إلى مسافة ٤٠ كيلومتراً من الحدود الكويتية إلى خط دفاعي غرب رأس مشعاب، وتركتُ قوة ساترة فقط بالقرب من مدينة الخفجي، على بعد نحو خمسة كيلومترات من الحدود. بالإضافة إلى ذلك، تمركزتْ سرية من مشاة البحرية السعودية على جانبي الطريق الساحلية شمالي المدينة، وكان يوجد إلى أقصى الشمال مركز حرس سواحل سعودي لا يبعد سوى ٨٠٠ متر عن المواقع العراقية. وأثناء

الأشهر الحَرِجَة الأولى من الأزمة وقبل بدء الحملة الجوية، كان الجنود العراقيون يستحِمُّون في مياه الخليج على مرأى من أفراد حرس السواحل السعوديين.

كانت المهمة التي أسندتُها إلى تلك القوات الساترة، هي مراقبة تحركات القوات العراقية، والتبليغ عن اقتراب الأرتال المعتدية. كان عليهم ألاّ يشتبكوا مع العراقيين وأن يتفادَوا الوقوع في الأسْر. لم أشأ أن أترك صداماً يظفر بنصر دعائي. فإذا عبر العراقيون الحدود، كان على القوات الساترة الانضمام فوراً إلى القوات الرئيسية في الجنوب. وكانت خطتي تهدف إلى حماية المناطق الحدودية بالقوة النيرانية، لا بالقوة البشرية. فإذا أقدَم العراقيون على الهجوم تصدَّينا لهم بالقوة الجوية وبأسلحتنا المساندة.

أرسل الأمريكيون كذلك دوريات استطلاع من مشاة البحرية، ودوريات البحرية المشتركة (من الفروع الرئيسية: البرية والجوية والبحرية) لمراقبة الطريق الساحلية، التي تشكل طريق الاقتراب الرئيسية إلى المملكة. ومن حين إلى آخر، كان فيلق مشاة البحرية أو البحرية الأمريكية، ترسل طائرة بدون طيار (UAV) لاستطلاع التحركات القائمة على الجانب الكويتي من الحدود.

وأرى أن عليّ الخروج عن الموضوع قليلاً، لأتحدث عن ادعاء شوارتزكوف بأن إستراتيجية سحب القوات من الخفجي كانت فكرته، وليست فكرتي. إذ يقول في كتابه: «. . . وفي المراحل الأولى لعملية درع الصحراء أوضحت لخالد أنه يصعب الدفاع عن مدينة الخفجي، ففي وسع العدو أن يقصف مواقعك من الجانب الآخر للحدود في أي وقت يشاء . . ولكن خالداً كان يماري في ذلك، إذ كانت التعليمات الصادرة إليه من الملك فهد تقضي بالدفاع عن كل شبر من المملكة. ولكنه وافق أخيراً وسحب قواته من هناك(*)». والحقيقة، خِلافاً لِمَا ذكره شوارتزكوف، أنني اتخذت القرار بسحب القوات من الخفجي يوم ١٨ أغسطس، أي قبل وصوله يوم ٢٦ أغسطس، بثمانية أيام وقبل أن يجري بيننا أي اتصال.

بعد أن درستُ خريطة الموقف في مركز القيادة المتقدِّم بعد ظهر يوم ٣٠

(*) Schwarzkopf, op. cit., p. 424.

يناير، واطلعتُ على آخر تقارير الاستخبارات، هالني ما سمعت من أن اللواء المطيري لم يحصل، حتى ذلك الوقت، على المساندة الجوية التي طلبها. كان عليَّ أن أعالِج تلك المشكلة فوراً، ولكن قبل كل شيء، كان عليّ أن أقدِّر الموقف بناءً على ما تيسَّر من معلومات.

وكانت الصورة التي ارتسمت في ذهني، بناء على التقارير التي تلقَّيتها تعكس الواقع التالي: لم يكن هناك نشاط قَطّ على الجبهة لأشهر عدة. ولكن منذ بداية الحملة الجوية، أي منذ ١٢ يوماً، بدأت تقع بعض المناوشات الصغيرة وتبادُل للقصف بنيران المدفعية والصواريخ ليلاً بين القوات العراقية والقوات السعودية. وسَأَلَتْ قيادةُ مشاة البحرية الأمريكية اللواء سلطان إن كان في استطاعة مدفعيتها من الهاوتزر عيار ١٥٥مم المشاركة في القصف. لذا، كانت مدفعية مشاة البحرية، لعدة أيام، تندفع إلى الأمام عند منتصف الليل لتطلِق نيرانها على الجانب العراقي ثم تُخلي مواقعها بأسرع ما يمكن، وتسمَّى هذه العمليات «اضرب واهرب». وقبل ذلك بأسبوع، أخبرنا أحد الفارين العراقيين أن رتلاً من الآليات قوامه أكثر من ١٠٠ آلية كان يتحرك في اتجاه الحدود بين حقول ألغامهم. وعندما قصفت راجمات الصواريخ السعودية الرتل، أصابت الآلية الأولى، وأجبرته على التوقف. ومن ثم تدخلت طائرات التحالف فدمَّرت معظم آلياته.

تلقَّى اللواء سلطان بعد ظهر يوم ٢٩ يناير، أي اليوم السابق على وصولي، تقارير تشير إلى تحركات عراقية مدرعة على نطاق واسع على طول الحدود داخل الكويت. وفي وقت متأخر من تلك الليلة، أخبره ضابط الاتصال الأمريكي، الملحَق على مركز القيادة المتقدِّم أن القوات العراقية، تساندها الدبابات والعربات المدرعة، شنَّت غارات عدة، كل منها بقوة كتيبة، إلى الغرب، في مواجهة المواقع الدفاعية لمشاة البحرية في الوفرة والزبير وبين الرغوة والرافعية، وأنه يجري التعامل بنيران المدفعية والصواريخ المضادة للدبابات والضربات الجوية. كما تمّ تدمير آليات عراقية عدة، وأن الاشتباكات الضارية لا تزال قائمة. وعلمت بعد ذلك أن سبعة من مشاة البحرية قُتلوا في أحد تلك الاشتباكات عندما أطلقت عربة مدرعة أمريكية النار على عربة مدرعة أخرى من طريق الخطأ. وهذا أمر وارد عندما يحمَى الوطيس ويختلط الحابل بالنابل.

علم اللواء سلطان قبل منتصف ليل التاسع والعشرين، من مركز ملاحظة

متقدِّم على الحدود، أن القوات العراقية الآلية تتحرك في اتجاه الخفجي. فطلب تدخلاً جوياً لإيقاف تقدمها فوراً، وتلقَّى تأكيدات من مشاة البحرية الأمريكية بأن الطائرات العمودية من نوع كوبرا Cobra في الطريق إلى أهدافها. ولكنه علم، بعد مضي ١٥ دقيقة، أنه لم يحدُث أي هجوم جوي ضد القوات العراقية المتقدمة، وأن ١٧ عربة مدرعة عراقية عبرت الحدود فعلاً. كرَّر اللواء سلطان طلبه للضربات الجوية العاجلة، ولكن الأمريكيين لم يحركوا ساكناً. بعد ذلك، تلقّى تقريراً بأن ٥٧ مدرعة عراقية، بما في ذلك دبابات T-55، تتحرك في اتجاه محطة تحلية المياه على المشارف الشمالية لمدينة الخفجي.

ومرة ثالثة، طلب اللواء سلطان تدخلاً جوياً لمنْع العراقيين من تعزيز مواقعهم. وفي هذه المرة، أجاب مشاة البحرية الأمريكية بأنهم لن يتمكنوا من تلبية ذلك الطلب، إلاّ إذا انسحبت القوة السعودية الساترة الموجودة غربي الخفجي لمسافة كيلومترين على الأقل. فالجانب الأيمن من تلك القوة قريب من العراقيين، ومحاولة الاشتباك الجوي معهم تُعرِّض الجنود السعوديين لخطر النيران الأمريكية من الجو. تعجَّب اللواء سلطان من أن مشاة البحرية لم يثيروا هذه القضية من قبل. وقام بسحْب تلك القوة إلى الخلف. وكرّر طلب التدخل الجوي للمرة الرابعة.

وفي تلك الأثناء، كانت سرية مشاة البحرية السعودية لا تزال في الخفجي، ولكن لم يكُن في وسع أسلحتها المضادة للدبابات القصيرة المدى التصدي للدبابات العراقية بمدافعها ذات المدى الأطول. وظل اللواء سلطان على اتصال دائم بأولئك الرجال من طريق الهاتف الخطي واللاسلكي أيضاً. ولكن عندما اشتد هجوم العراقيين عليهم بعد منتصف الليل، أمرهم بالانسحاب. وبانسحابهم انقطعت المعلومات الواردة عن الجبهة.

كان اللواء سلطان يشعر بمرارة شديدة إزاء عبور كتيبتين عراقيتين (علمنا فيما بعد أنهما من اللواء الخامس عشر للفرقة الخامسة مشاة آلية) للحدود السعودية في تشكيل قتالي وتقدُّمِهما لمسافة عشرة كيلومترات نحو الخفجي من دون أن يتِم تحديدهما أو اعتراضهما من الجو. أثار ذلك التقرير الذي قدمه اللواء سلطان دهشتي وحَنَقي إزاء تقاعس الأمريكيين في توفير الإسناد الجوي لقواتنا. تقاعسٌ امتد من منتصف ليل يوم ٢٩ يناير حتى بعد ظهر اليوم التالي! وسوف أُورد كيف بادرتُ إلى الاتصال بمركز العمليات الجوية في الرياض لآمر بالتدخل الجوي. وهذا ما تم بالفعل.

تعلّلتْ قيادة مشاة البحرية الأمريكية بأسباب عدة لتفسير عدم استجابة جناح الطيران لطلب اللواء سلطان بالتدخل الجوي بالسرعة المرجوّة. وكان بين تلك الأسباب، أن الخوف من إصابة قواتنا حال دون التدخل. وكان الأمريكيون يرغبون في معرفة مواقع انتشار القوات الصديقة وطبيعة عملها قبل أن يُسقطوا قنابلهم. وأشارت قيادة مشاة البحرية الأمريكية أيضاً إلى أن دخول المدرعات العراقية بين المباني في مدينة الخفجي جعل اكتشافها أمراً صعباً. وقالوا، كذلك، إن مشاة البحرية الأمريكية مدرَّبة على القتال كفريق بري - جوي متكامل، لذلك تتردد قيادتها في استخدام قوتها الجوية دون وحداتها البرية. وفي واقع الأمر، كان لديّ شعور، حتى قبل ذلك الموقف، أن مشاة البحرية الأمريكية أُرغِموا على وضع طائراتهم تحت القيادة المركزية للفريق هورنر.

لم أقتنع بتلك الأسباب، وكنت أُفضل لو كان لديّ علم مسبق بها حتى يتسنى لي تدبير «الإسناد الجوي» من مصدر آخر. فمهمة جناح الطيران لمشاة البحرية هي توفير «الإسناد الجوي القريب» للقوات المشتركة عند الضرورة. ولكن عندما حانت هذه الضرورة، وَجَدَتْ مشاة البحرية صعوبة في تنفيذ مهمتها. أما القوات الجوية السعودية، فكانت منهمكة في تنفيذ مهام جوية مخطَّطة أخرى (تحددت سلفاً) لمصلحة التحالف، ولم تكن متفرِّغة لإسنادنا في ذلك الوقت.

أعتقد أن السبب الرئيسي في تأخُّر مشاة البحرية في تقديم «الإسناد الجوي» إلينا كان إنشغال تلك القوات بمعاركها الخاصة إلى الغرب من المنطقة الشرقية. وكانت تلك المعارك في تقديرها، أكثر أهمية وأشد خطورة من الأزمة التي كنّا في صددها. كنّا في الخفجي نتعامل مع وحدات من اللواء ١٥ مشاة آلية من الفرقة الخامسة مشاة. أما في الغرب، فكانت قوات مشاة البحرية الأمريكية تصدّ وحدات من اللواء ٢٠ مشاة آلية، واللواء ٢٦ المدرع التي كانت تحاول، هي الأخرى، عبور الحدود.

كانت قوات مشاة البحرية الأمريكية قد أنشأت قاعدة إمدادات وتموين رئيسية في الكبريت، على بعد نحو ١٠٠ كيلومتر غرب رأس مشعاب، حيث كدّست كل ما تحتاج إليه من إمدادات استعداداً لهجومها المرتَقَب على الكويت. وانصرف جل اهتمام الفريق والتر بومر قائد مشاة البحرية، الذي أقام مقر قيادته جهة الغرب في الصحراء، إلى حماية قاعدة الإمدادات تلك. كان يخشى حال فشله في صد الهجوم العراقي في الوقت المناسب، أن يتمكن العراقيون من الاختراق العميق وقطْع خطوط إمداد قواته. كان ذلك شغله الشاغل تلك الليلة واليوم الذي تلاها.

ولا شك أن الفريق بومر قَدّر أن انصراف جناح الطيران إلى إسناد القوات في الخفجي من شأنه أن يضعف موقف قواته، إذ من الممكن أن يلتفّ العراقيون على جانبها ويتقدَّموا من جهة الغرب، وتلك كانت نقطة الضعف لدى قوات مشاة البحرية. كان ذلك هو استقرائي للموقف. ولكن، في المحصلة النهائية، كان حصْر مهمة جناح الطيران لمشاة البحرية في المعارك التي تدور في قطاعهم فقط، سبباً لحِرماننا من المساندة الجوية التي كنّا نحتاج إليها ونتوقع الحصول عليها.

لم يؤثِّر تقييمي لتلك الأحداث، في إعجابي الشخصي بالفريق بومر. إذ على الرغم من تشدُّده، فهو قائد ميداني من الطراز الأول، ولا يَعِيبه اهتمامه الزائد بسلامة قواته وتنفيذ مهامه. وأَعُده حقاً من أفضل القادة العسكريين الأمريكيين الذين عرفتهم.

وإزاء انقطاع المعلومات وعدم توافر «الإسناد الجوي»، لم يجد اللواء سلطان بداً من التوجه بنفسه إلى الخفجي ليستطلع الموقف عن كثب. فانطلق في الثالثة صباحاً وتوجَّه أولاً إلى مركز حرس السواحل في الزرقاني جنوبي الخفجي. كان القمر بدراً والسماء صافية والرؤية واضحة.

وأودُ قبل أن أسترسل في وصف عملية الاستطلاع التي قام بها اللواء سلطان، أن أتحدث لزيادة الإيضاح، باختصار شديد، عن القوات التي كانت مكلَّفة بالدفاع عن منطقتنا. كانت تلك القوات تتشكَّل أساساً من ثلاثة ألوية سعودية، بالإضافة إلى وحدات من دول مجلس التعاون الخليجي.

نُظّمت هذه القوات في أربع مجموعات قتال «قوة واجب Task Force»، ثلاث منها تسمّى بأسماء الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ أبي بكر وعمر وعثمان والرابعة باسم القائد طارق بن زياد، فضلاً عن قوة احتياطية. وجاء تنظيم القوات من الشرق إلى الغرب على النحو التالي:

- «قوة واجب» أبي بكر: تتكون من اللواء الثاني مشاة آلية من الحرس الوطني، وكتيبة مشاة آلية من قَطر.
- «قوة واجب» عثمان: تتكون من اللواء الثامن مشاة آلية من القوات البرية السعودية، وسرية مشاة من البحرين، وسرية مشاة من الكويت.

- «قوة واجب» عمر: تتكون من اللواء العاشر مشاة آلية من القوات البرية السعودية، وكتيبة مشاة من عُمان.
- «قوة واجب» طارق: تتكون من كتيبتين من مشاة البحرية السعودية، وفوج مشاة من المغرب، وكتيبة مشاة (ناقص سرية) من السنغال.
- في الاحتياط: كتيبة مشاة آلية من قطَر، وكتيبة مشاة من الإمارات العربية المتحدة.

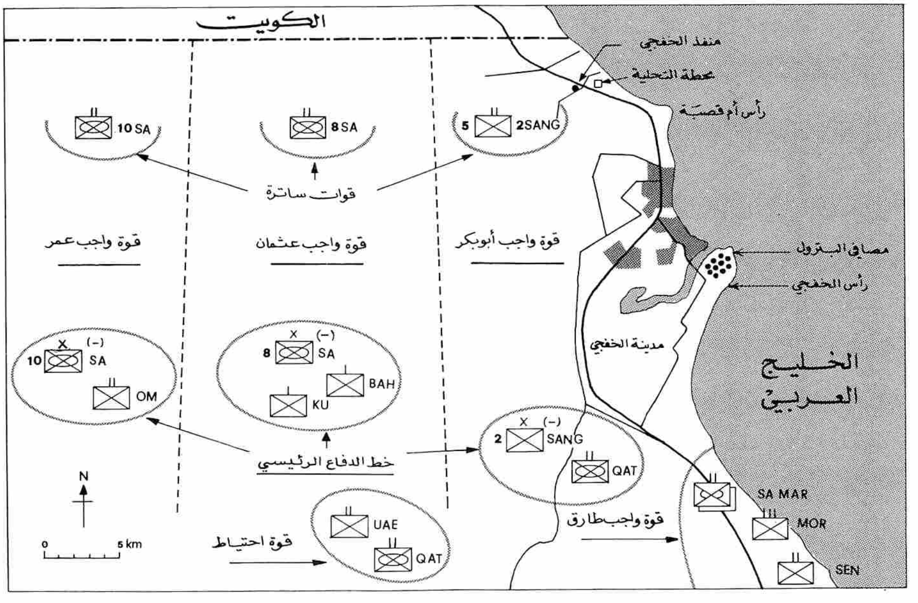
وقبل معركة الخفجي أُسندت إلى مجموعة طارق مهمة الدفاع عن ساحل الخليج، من رأس مشعاب شمالاً حتى رأس السفانية جنوباً، مع تمركز سرية مشاة بحرية سعودية في مدينة الخفجي نفسها، واحتلت الوحدات السنغالية والمغربية نقاطاً دفاعية حصينة لحماية منطقة السفانية. ومما يذكر أن بعض عمال النفط اليابانيين العاملين في المنشآت البترولية التابعة لشركة النفط العربية، وهي شركة سعودية ـ يابانية، لم يبرَحوا مواقعهم في الخفجي إلاّ بعد ١٦ يناير، أي حتى الليلة السابقة على الحملة الجوية، بعد أن تم إقناعهم بالانتقال إلى مواقع آمنة في الجنوب.

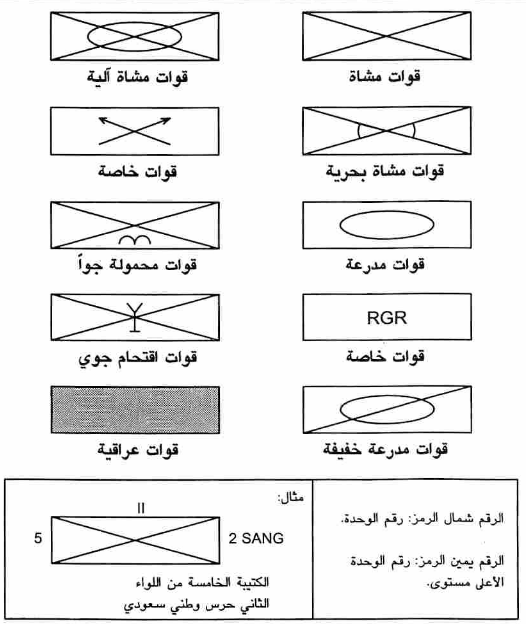
وكما أسلفتُ، تمركزت القوات الرئيسية، أبو بكر وعثمان وعمر، في مواقع دفاعية من الشرق إلى الغرب على مسافة ٤٠ كيلومتراً جنوب الحدود الكويتية. ودفعت كل «قوة واجب» بعناصر استطلاع وكتيبة إلى الأمام على مسافة خمسة كيلومترات من الحدود للعمل كقوة ساترة.

وقبل أن يشرع اللواء سلطان في مهمته الاستطلاعية في وقت مبكر صباح ٣٠ يناير، أصدر التعليمات إلى سريتين من الدبابات، إحداهما من اللواء الثامن مشاة آلية والأخرى من الكتيبة القطَرية، ويساند كل سرية منهما فصيل صواريخ مضادة للدبابات، بالتجمع ومقابلته عند نقطة حدّدها على مسافة ستة كيلومترات غربي الخفجي.

تحرك اللواء سلطان ومجموعة من ضباط أركانه في الخامسة صباحاً في اتجاه الخفجي من الجهة الغربية. ثم تركوا عرباتهم وتقدَّموا سيراً على الأقدام لمسافة ٥٠٠ متر، حتى تمكنوا من رؤية المواقع العراقية بواسطة مناظير الميدان. فاكتشفوا وجود ١٢ دبابة وعربة مدرعة في الطرف الغربي من المدينة، وكانت القوة العراقية الرئيسية، آنذاك، داخل المدينة.

الأوضـاع الدفـاعيـة للقوات المشتركـة في المنطقة الشرقيـة قبل معركـة الخفجي





المصطلحات:

BAH	البحرين
EG	مصر
FR	فرنسا
GCC	قوات دول مجلس التعاون الخليجي
JFC	قوات القيادة المشتركة
KU	الكويت
MEF	قوات مشاة البحرية الأمريكية
MOR	المغرب
OM	عُمان
QAT	قطر
Res	احتياط
RG	حرس جمهوري
SA	المملكة العربية السعودية
SA MAR	مشاة بحرية سعودية
SANG	قوات الحرس الوطني السعودي
SEN	السنغال
SY	سوريا
UAE	الامارات العربية المتحدة
UK	المملكة المتحدة

علامات الوحدات:

XXX	فيلق
XX	فرقة
X	لواء
III	فوج
II	كتيبة
I	سرية

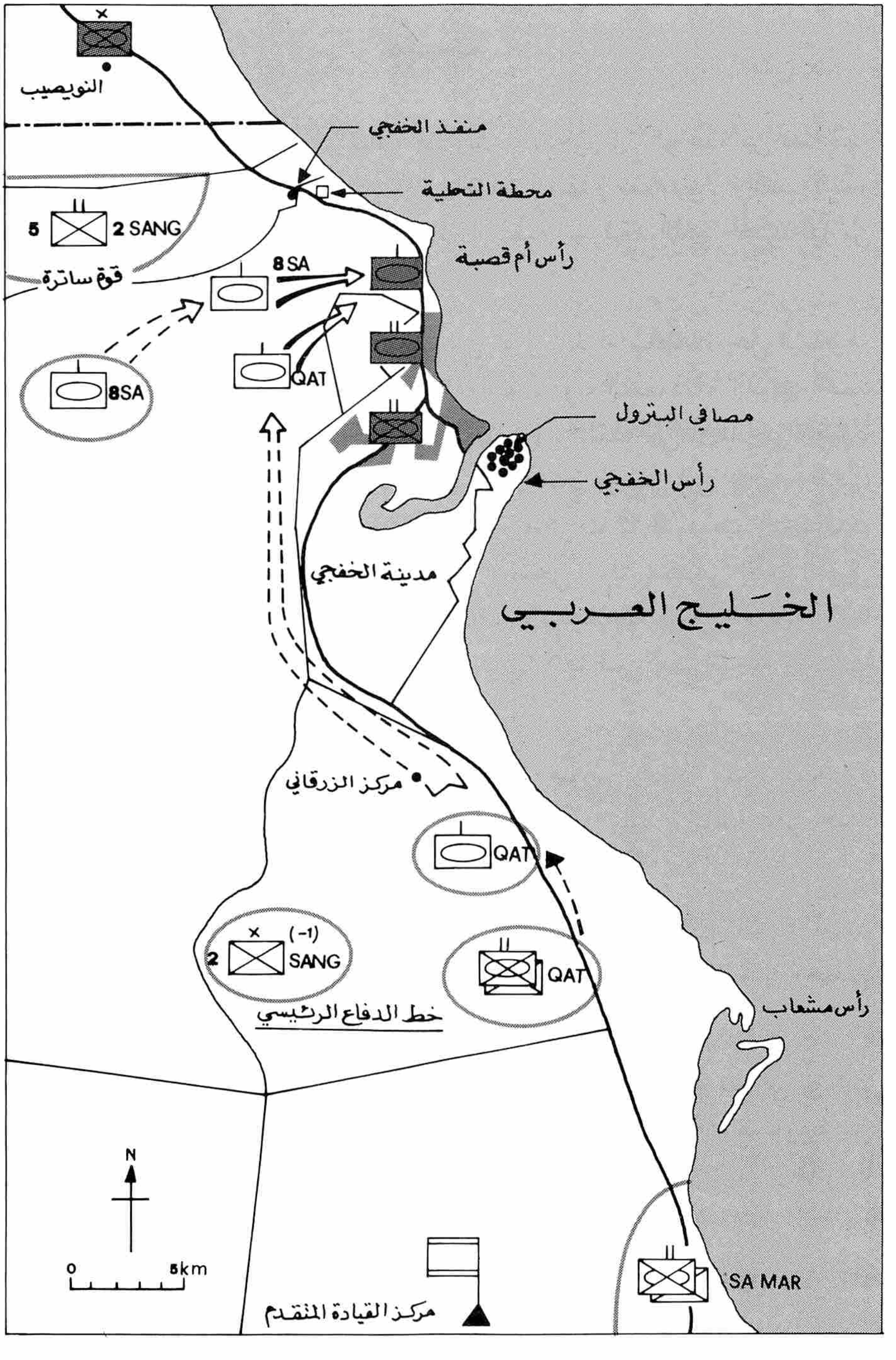
كان اللواء سلطان قد تلقَّى قبل رحلته الاستطلاعية تقارير عدة متضاربة عن الموقف العسكري، لكنه الآن تأكد بنفسه من وجود العراقيين داخل المدينة وعلى مشارفها الغربية. وبينما هو يستطلع المواقع العراقية، تلقَّى رسالة لاسلكية من مركز القيادة المتقدِّم تفيد بأن الطائرات الأمريكية تقصف العراقيين في مدينة الخفجي. أجاب اللواء سلطان: «أنا الآن في الخفجي، ولا يوجد أي نشاط جوي على الإطلاق». ثم تحرك من موقعه ليلتقي سريتي الدبابات في المكان المحدد، ثم تقدم مع سرية الدبابات القطَرية المدعمة بفصيل صواريخ Hot، لأنها كانت الأقرب، بعد أن أصدر أوامره إليها بالاشتباك مع رتل من الدبابات العراقية، كان يتحرك على الطريق شمالي الخفجي، والفرصة سانحة لتدميره. نجح القطَريون، بعد ست دقائق من تبادل أطلاق النار، في تحقيق إصابات مباشرة، إذ قفز على أثرها ملازم عراقي وعشرون فرداً من دباباتهم وعرباتهم المدرعة ـ عددها بالتحديد خمس دبابات وست عربات مدرعة ـ وتقدَّموا مسرعين وأيديهم فوق رؤوسهم معلنين استسلامهم.

كان اللواء سلطان يخطِّط للتقدم والاشتباك مع العراقيين داخل المدينة نفسها، لكنه تردد في تنفيذ تلك الخطة، عندما علم من الأسرى أن لدى العراقيين كتيبتان، أي نحو ١٥٠٠ جندي، داخل الخفجي. فبهذا العدد تصبح كَفَّتُهم أرجح. فترك سرية الدبابات السعودية، من اللواء الثامن، لتسيطر على الطريق المتجِهة شمالاً، وحرك السرية القطَرية إلى موقعها الأصلي عند مركز الزرقاني جنوب الخفجي.

وبينما اللواء سلطان يسرع بالعودة من ضواحي مدينة الخفجي، التقى مجموعة صغيرة من الجنود العراقيين، فظن أنهم يريدون الاستسلام. ولكن ما أن اقترب منهم حتى انبطحوا أرضاً وفتحوا نيرانهم. استطاعت عربته أن تراوغ بأقصى سرعتها ولم تُصَبْ بأذى، وعاد إلى مقر قيادته من طريق أخرى.

علم اللواء سلطان، بعد ذلك، أن عدداً من السعوديين كانوا أسرى تلك المجموعة العراقية. وكان من ضمن أولئك الأسرى ضابط من الدفاع المدني السعودي عاد إلى الخفجي بعد نقله إلى الدمام ليأخذ بعض متعلقاته التي خلّفها وراءه. وظناً منه أن المدينة مهجورة، لم يلتفت إلى محاولات إيقاف عربته عند أحد المتاريس، فاجتازه مسرعاً مع مجموعة من رفاقه ليجدوا أنفسهم في أيدي العراقيين. روى هذا الضابط، بعد انتهاء الحرب، للواء سلطان أنه رأى عرباته

الاشتباك الاول : استطلاع قائد مركز القيادة المتقدم وقطع الطريق الى منفذ الخفجي
(سعت ٢٠٠٠ - ١٣٠٠ يوم ٣٠ يناير ١٩٩١)



تقترب من العراقيين وأراد أن يصرخ محذراً، لكنه لم يستطع تحذيره؛ لأن العراقيين هددوه بالقتل إن فعل ذلك.

عاد اللواء سلطان إلى مركز قيادته في ريش المنجور في الواحدة من بعد ظهر يوم ٣٠ يناير، أي قبل وصولي إلى مركز القيادة المتقدِّم بساعتين. وانضم إلينا، بعد وقت قصير، اللواء صالح المُحيا، قائد المنطقة الشرقية، الذي حضر جواً من مقر قيادته في الظهران.

كان أول واجباتي، بعد أن استمعت إلى تقرير اللواء سلطان، حلّ المعضلة الشائكة للإسناد الجوي. اتصلت بقائد القوات الجوية السعودية، الفريق أحمد بحيري، في مركز العمليات الجوية في الرياض، وأبلغته أني أريد إجراءً فورياً الآن. فأعطى سماعة الهاتف للفريق هورنر الذي كان يجلس إلى جانبه، فقلت له: «أريد إسناداً جوياً، وكذلك ضربات جوية بطائرات B-52 لتدمير التجمعات العراقية ومنع وصول أي تعزيزات أخرى إلى الخفجي، ولو استدعى الأمر تحويل المجهود الجوي للحملة الجوية على الأهداف الإستراتيجية داخل العراق». كما شدَّدت عليه أن يقلِّل عدد الغارات الجوية على الأهداف الإستراتيجية ويكثِّفها على منطقة الخفجي.

ولا أدري، حتى اليوم، ما دار بين الفريق هورنر وقيادة مشاة البحرية الأمريكية، لأنني شعرت من إجابته أنه لم يكن مسيطراً سيطرة كاملة على جناح الطيران لمشاة البحرية.

وانقضت ساعة كأنها دهر، ولم تنفِّذ أية طلعة جوية. فاتصلت بالعميد أحمد السديري، رئيس هيئة العمليات الجوية. كان الدم يغلي في عروقي، إذ وصلني تقريرٌ يفيد بأن رتلاً عراقياً مدرعاً طوله ١٥ كيلومتراً يتقدَّم نحونا.

صحت قائلاً: «انسَ موضوع القوات الجوية المتحالفة. إذا لم تتدخل القوات الجوية الأمريكية أو طيران مشاة البحرية فوراً فاسحب كل الطائرات السعودية من المجهود الحربي للتحالف وأرسلها إليّ فوراً. أريد طائرات التورنيدو وطائرات F-5 وكل ما لديك».

كان ذلك بمثابة إنذار، لم يلبث أن آتى ثماره. فلم تمضِ دقائق حتى قام

هورنر بتحويل جزء كبير من القوة الجوية للتحالف من أماكن مختلفة إلى طرق الاقتراب إلى مدينة الخفجي. وبدأ سيْل من طائرات التحالف يقصف القوات العراقية المتقدِّمة، باستخدام الأسلحة الدقيقة التصويب والقنابل العنقودية. وفي غارة واحدة لثلاث طائرات B-52، تم تدمير ٨٠ آلية عراقية، فتصاعدت منها نيران أضاءت كبد السماء. وظلت طائرات التحالف تقصف التجمعات العراقية ليلة ٣٠ ـ ٣١ يناير مستفيدة من قدْرتها على القتال الليلي. ونجحت في دحر فرقتين عراقيتين من الفيلق الثالث اكتُشِفَتا وهما تتجمعان داخل الكويت وتستعدان للهجوم على الخفجي، استغلالاً للنجاح الذي حقَّقَته بعض وحدات اللواء ١٥ مشاة آلية. كما اشتركت مدافع البحرية في الخليج في تلك المهمة.

أثبتت الطائرات الأمريكية من نوع AC-130 Specter فعالية كبرى ضد التجمعات المعادية؛ إذ إنها مسلحة بمدفعيْ هاوتزر عيار ١٠٥ مم على جانبيها. ولكن هذا النوع من الطائرات كان عُرضة للإصابة من أسلحة الدفاع الجوي الأرضية الموجَّهة بَصرياً، ومن ثَم اقتصرت مهامها على الطلعات الليلية فقط. وقبيل فجر ٣١ يناير، تلقى أحد طياري AC-130 إنذاراً من مركز الإنذار المبكر ـ أواكس ـ بالعودة إلى قاعدته فوراً لأن ضوء النهار بدأ ينتشر. فأجاب قائلاً: «لا أستطيع . . أمامي أهداف كثيرة»، وبعد دقائق أُسقطت طائرته بصاروخ مضاد للطائرات محمول على الكتف موجه بالأشعة تحت الحمراء، وقُتِلَ أربعة عشر رجلاً كانوا في الطائرة، ولم تُسْتَعَدْ جثثهم إلاّ بعد انتهاء الحرب.

تمكّن بعض الدبابات وعربات نقل الجند المدرعة العراقية من اجتياز حائط النيران، ولكن عبور الفرقتين العراقيتين للحدود بشكل منظَّم كان من شأنه، من دون شك، أن يجعل العراقيين متفوّقين على قواتنا في العدد بما يمكّنهم من إيقاع قدر كبير من الخسائر في صفوفنا، وربما أدّى ذلك إلى اندلاع الحرب البرية الشاملة قبل أوانها، وهذا ما كان صدام يصبو إليه.

كانت لتلك الهجمات الجوية على الأنساق الثانية والاحتياطيات العراقية، فعالية لا شك فيها، لكنها ما كانت لتؤدّي إلى طرد العراقيين الذين دخلوا إلى الخفجي! تلك كانت مهمتنا نحن. فمهمتي العاجلة في ريش المنجور، حيث كان يساعدني باقتدار اللواء سلطان المطيري، تتلخص في تحليل الموقف الراهن بتطوراته السريعة، ووضع خطة للهجوم المضاد، وتخصيص القوات التي سيُوكَل إليها تنفيذ مهمة استرداد الخفجي. وكان ذلك تحدِّياً بالغ الصعوبة.

إن استرجاع تلك الأحداث، في هدوء، بعد أن مرَّت وفَتَرَ تأثيرها يجردها من القلق والاضطراب والضغوط النفسية التي صاحبتها. ولا يَسَع أي قائد عسكري إلاّ أن يؤكد أنه في وقت الحرب لا يمكِن للمرء أن يعرف بالتحديد، زماناً ومكاناً، ما يفعله جنوده هو، ناهيك من جنود عدوه. فمهْما بلغت كفاءة القيادة والسيطرة والاتصالات، لا بد من وجود ثغرات في المعلومات المتوافرة لدى القائد. فإصدار الأوامر سهلٌ، ولكن الصعبَ هو التأكد من سرعة إطاعتها ودقة تنفيذها. كانت تلك هي المرة الأولى التي تُخْتَبر فيها القوات السعودية في معركة حقيقية في هذا الحجم.

وأجد لِزاماً عليّ الاعتراف بأنني، بالمثل، لم تكن لديّ خبرة سابقة بالحروب. كنت قائداً لم يسبق له أن خاض غمار معركة فعلية. ولم أكن أدري كيف سيكون تصرفي حين البأس. اكتشفت أن الرجال في الحرب نوعان: نوع يُصاب بالذعر والهَلَع وتعتريه حالة من الهياج الشديد، ويبدو غير قادر على ممارسة ضبط النفس. ومن الأفضل أن يُستبعَد أمثال هؤلاء الرجال من مواقع المسؤولية على الفور، إذ إن رد فعلهم هذا قد ينتقل إلى سواهم. أما النوع الثاني فينتابه الخوف لِبِضْع دقائق، وهذا ما يحدث للناس عامة، لكنه لا يلبث أن يهدأ ويتصرف على نحو مألوف. ولا يبدو أن ثمة فريقاً وسطاً بين النوعين.

كان التحالف يَزْخَر بعدد من القادة ذوي الخبرة الواسعة، بينهم شوارتزكوف ودي لابلبير وروكجوفر، إضافة إلى القادة المصريين والسوريين الذين عَرَكَتْهم حروبهم مع إسرائيل، وكذلك القائد المغربي الذي اكتسب خبرته في القتال ضد البوليساريو في الصحراء الغربية. كنت على يقين أن أدائي سيكون موضع ملاحظة هؤلاء القادة جميعاً.

لعل أكثر ما كان يشغلني هو كيف أُطمئن قيادتي العليا بأنني قابضٌ على زمام الأمور. كان خادم الحرمين الشريفين، القائد الأعلى للقوات المسلحة السعودية، يرغب في أن يرى نتائج سريعة وحاسمة، وله كل الحق في ذلك. كان يرغب في طرْد قوات المعتدي في الحال. ولا يريد لصدام أن يستقر في الخفجي لحظة واحدة، كي لا يظهر للعالم أن في وسعه غزو المملكة والإفلات دون عقاب. لذلك اتصل الملك بي مرات عدة آمراً باتخاذ الإجراءات الفورية. وتلقَّيت تعليمات بهذا المعنى من الأمير سلطان أيضاً. كانت تلك أول قيادة لي في حرب حقيقية، وكانت الأزمة بالغة الأهمية. لكنني شعرت بالارتياح عندما علمت بأن

الأمير سلطان قال بالحرف الواحد: «إن الأمر الآن في يد خالد، ولا بد أن نتركه يؤدِّي مهمته دون تدخل».

ظلت تعليمات الملك تتردد في مسامعي. كان يرغب في أن أسترد الخفجي بأقصى سرعة ممكنة، وأن أحسم الأمر مهْما كان الثمن. هانت عليّ حياتي في تلك اللحظة. فاستوى عندي النجاة والموت. لم يكن الملك يحاول أن يُمْلِي عليّ مساراً معيناً لمعالجة الأزمة. ولكن بدا لي أنه كان في غاية الحرص على استرداد قطعة عزيزة من ترابنا الوطني.

رَجوْته مُلِحّاً ألاّ يهتم بالأمر. كنت واثقاً من نتائج المعركة القادمة. ولكنني كنت، في الوقت نفسه، حريصاً على حقن الدماء. وحاولت أن أوضح رغبتي في إنجاز المهمة بأقل قدْر ممكِن من الخسائر في الأرواح. كنت متأكداً من أن الاشتباك في معركة بالسلاح الأبيض داخل المدينة أثناء الليل، سيقضي على قواتي التي لم تكُن مدرَّبة تدريباً جيداً على القتال في المناطق المبنية. كنت أريد أن أَتَرَيَّث وأبدأ الهجوم مع أول خيط من النهار. ولم يكُن في وسعي أن أُظهِر للملك نتائج فورية. والحمد لله أنني لم أُعزل في تلك الليلة!

وفي تلك الأثناء، أخذت محطات الإذاعة في بغداد وعمّان وصنعاء تصف الغارة العراقية وكأنها نصر مبين. ويقال إن صداماً زار قواته الأمامية في الكويت وادّعى أنه هو الذي أدار المعركة بنفسه. كنت أعلنت في وقت سابق، قبل أسابيع قليلة، أثناء التجهيز للحملة الجوية، في كلمة لي خلال إحدى جولاتي التفقُّدية، أنه إذا لم ينسحب صدام من الكويت، فسوف نُلَقِّنُه «درساً لن ينساه». وكان عليّ أن أُثبِت أنني لست ممن يقولون ما لا يفعلون.

وبينما كنّا نضع اللمسات الأخيرة على خطة الهجوم المضاد لتحرير الخفجي، جاءني ضابط الاتصال الأمريكي بنبأ جعلني أُعيد النظر في توقيت تنفيذ تلك الخطة. إذ أخبرني أن طاقمين (يضم أَحَدُهما ستة أفراد والآخر خمسة) من أطقم الإسناد النيراني لمشاة البحرية الأمريكية محاصَران فوق سطح أحد المنازل في الأطراف الجنوبية لمدينة الخفجي. فقرَّرتُ أن نعمل على إنقاذهما.

كانت مهمة أطقم الإسناد النيراني التي تُعرف بـ «أطقم أنجليكو» ANGLICO

(كلمة مكوَّنة من الأحرف الأولى لسرايا إدارة النيران الجوية البحرية)، هي تحديد الأهداف المعادية ومن ثَم توجيه النيران إليها من الطائرات أو مدفعية القوات البحرية أو البرية. وكنت قد وافقت، في الأسابيع التي سبقت الغارة العراقية وقبل أن تتوقف حركة المرور من المدينة وإليها، لمشاة البحرية أن تُرسل أطقم استطلاعها داخل المدينة وحتى الحدود لرصْد التحركات العراقية. كانوا يتجولون حول المدينة بعرباتهم لاستطلاع كل ما يجري، ثم يبحثون عن موقع مناسب يُمكّنهم من رصْد القوات المعادية. وكانت لديهم القدرة على طلب النيران. وكانت الأطقم مزوّدة بالمناظير الميدانية، وأجهزة الرؤية الليلية والاتصالات اللاسلكية المأمونة مع قيادتها، وتستغرق مهمتها الاستطلاعية عادة يومين في كل مرة. وكانت عربتهم تنسحب بعد تمركزهم في موقع المهمة لتعود لالتقاطهم. فَلَمْ تكن ثمة وسيلة لعودتهم بعد انتهاء مهمتهم غير ذلك. ومن الواضح، أن أحداً لم يتوقع دخول العراقيين مدينة الخفجي. ولكن بعد انسحاب وحدات القوات الخاصة، وسرية مشاة البحرية السعودية، قطع التقدم العراقي السريع الطريق على طاقميْ أنجليكو. أو ربما فَضّلا البقاء في مكانهما. علمت آنذاك، أنهما زرعا الألغام حول مكان اختبائهما، وكانا على استعداد للقتال حال اكتشاف أمرهما.

وما أن سمعت الخبر حتى قلت للواء سلطان: «يجب أن نأخذ في الاعتبار الآن أولوية إنقاذ طاقميْ مشاة البحرية، في إطار خطتنا لتحرير الخفجي».

كنت مصمِّماً على إنقاذ هذين الطاقمين لسببين رئيسيين. أولهما، أن الأولوية الرئيسية للقائد هي إنجاز مهمته بأقل قدْر من الخسائر في الأرواح. كانت لدينا الإمكانات لطرْد العراقيين من الخفجي دون التضحية بأرواح جنودنا أو جنود حلفائنا، فَلِمَ لا أفعل ذلك؟ لم تكن القضية بالنسبة إلي قضية جنسية الجنود، سعوديين أو أمريكيين. كانت معركتنا واحدة، ولمّا كان الجنود الأمريكيون يؤدّون مهامهم داخل قطاعي فقد أصبحت مسؤولاً عن سلامتهم. وثانيهما، وعليّ أن أعترف أنه السبب الأكثر أهمية، هو أنني كنت أخشى أن يُقْدِم شوارتزكوف على استخدام القوات الأمريكية، سواء أكانت من قوات مشاة البحرية لتنفيذ هجوم برمائي أم وحدة من الجيش الأمريكي المحمولة جواً، لتحرير المدينة التي تقع في قطاع مسؤوليتي. كان من شأن ذلك أن يكون وصمة عار لا يمحوها الدهر، ولا يمكنني تحمّلها. كنت أخشى أن يضطر شوارتزكوف أو بومر، تحت ضغط تحرير مشاة البحرية المحاصرين، إلى اتخاذ إجراء أمريكي. فاتصلت بنائبي اللواء

عبدالعزيز آل الشيخ وقلت له: «إلزم شوارتزكوف ولا تَدَع أحداً يتخذ أي إجراء. إنها معركتي ولن يقودها غيري». تأكدت كذلك أن مشاة البحرية الأمريكية أدركت ما كنت أقصده من أن إنقاذ زملائهم يأتي في مقدمة أولوياتي.

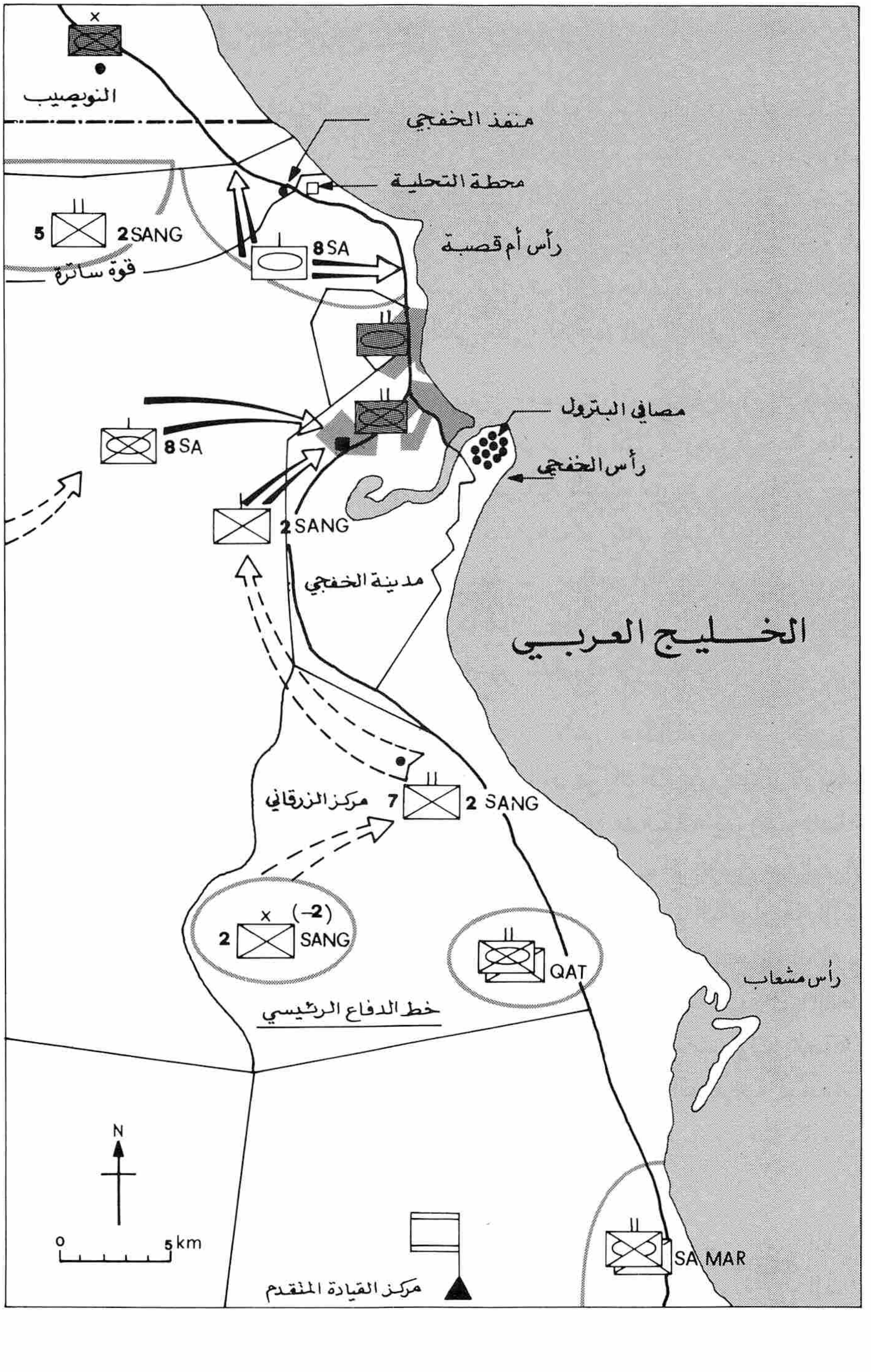
في ضوء هذا الموقف الجديد، طلبت من اللواء سلطان أن يُعِد خطتين لعمليتين منفصلتين. الأولى، شنّ غارة، في تلك الليلة نفسها، على الأطراف الجنوبية لمدينة الخفجي بهدف عزل المبنى الذي يختبئ فيه مشاة البحرية المحاصَرون، وإرغام القوات العراقية في المناطق المجاورة على التراجع أو التعرض للتدمير، ما يضمن تحرير الطاقَمين ومن ثم الانسحاب. أما العملية الثانية فهي هجوم شامل يُشَنّ في صباح اليوم التالي على القوات العراقية في الخفجي.

قرَّرنا في تشكيلنا لـ«قوات الواجب» لهاتين العمليتين أن يكون الدور الأساسي فيهما لقوات من اللواء الثاني مشاة آلية من الحرس الوطني، وهي وحدة عالية الفعالية مجهَّزة بخمسمائة عربة مدرعة خفيفة أمريكية الصنع من نوع كاديلاك جيج Cadillac Gage وصواريخ TOW المضادة للدبابات. وكان هذا اللواء قد هُرِع مباشرة، بعد غزو صدام الكويت، إلى الجبهة من مواقعه أيام السلم بالقرب من الدمام في المنطقة الشرقية. ومعظم جنوده من رجال القبائل المتمرِّسين بحياة البيئة الصحراوية وبالقتال فيها وأمضَوا عدة أشهر يتدرّبون في قطاعي.

كان الملك فيصل قد عَهِد إلى ولي العهد، الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، برئاسة الحرس الوطني في أوائل الستينات. وكان الحرس الوطني، وقتها، لا يعدو أن يكون مجموعة من المجنّدين غير النظاميين بأسلحة ضعيفة، يعوزهم النظام والانضباط، ولم يكن لهم زِيّ رسمي. ومن هذه الخامة استطاع الأمير عبدالله أن يبني قوة مقاتلة حديثة جيدة التدريب، تتكون من لواءي مشاة آلية وأربعة ألوية مشاة. وكان للواءين الآليين دور إستراتيجي خفيف الحركة للاستجابة الفورية للطوارئ الداخلية. أما ألوية المشاة فمهمتها تأمين المنشآت الحيوية في أنحاء البلاد المختلفة، مثل المنشآت البترولية ومحطات التحلية ومحطات توليد الطاقة. وعندما اندلعت أزمة الخليج نقل سمو الأمير عبدالله السيطرة العملياتية لوحدات الحرس الوطني من المشاة الآلية إلى القوات البرية السعودية، ومن هنا كان لي شرف قيادة تلك الوحدات.

أُسنِدَت مهمة تحرير جنود مشاة البحرية المحاصَرين إلى سرية من اللواء الثاني من الحرس الوطني السعودي، تساندها في الاحتياط، سرية من اللواء

الاشتباك الثاني : عملية الإغارة (سعت ١٣٠٠ - ١٨٠٠ يوم ٣٠ يناير ١٩٩١)



الثامن من القوات البرية السعودية. ولسوء الحظ، لم ينجح الهجوم المباغت الذي قاموا به عند الشفق (آخر ضوء) يوم ٣٠ يناير على الأطراف الجنوبية لمدينة الخفجي. فالشوارع العريضة لمدينة الخفجي لم توفّر لهم ساتراً جيداً، بينما احتلت القوات العراقية المباني المحيطة بالموقع الذي يختبئ فيه المحاصَرون من مشاة البحرية الأمريكية. وكان مقر القيادة العراقية في فندق على مقربة من ذلك المبنى. وعندما اندفعت عربات الحرس الوطني الخفيفة (المدولبة) إلى المنطقة، بادر القناصة العراقيون إلى إطلاق النار على إطاراتها المطاطية، ونجحوا في إعطاب عشر منها. فقرّرنا في محاولة الهجوم الثانية دَفع العربات المجنزرة من السرية الاحتياطية من اللواء الثامن، فتكلّلت المحاولة بالنجاح. ونجحت سرية اللواء الثامن، بعد معركة شرسة، في إجبار العراقيين على التراجع، حتى تمكّنا أخيراً من تحرير جنود مشاة البحرية الأمريكية. جُرِحَ أحدهم جرحاً طفيفاً بإحدى الشظايا المتطايرة. ولم تحدث خسائر في الأرواح في صفوف قواتنا، ولكننا أُرغِمنا على ترك بعض العربات الخفيفة المعطوبة، التي لم يكن من الصواب إشراكها في العملية بادئ ذي بدء.

سعدت لذلك، إذ تبددت كل مخاوفي في شأن التدخل الأمريكي. وأعاد اللواء سلطان، بعد ذلك، تجميع القوات جنوبي الخفجي، وأَمْضَتْ ليلتها تلك في تبادل القصف المدفعي مع العراقيين.

وفي ذلك الوقت، كانت استعداداتنا للهجوم الرئيسي قد اكتملت، وقواتنا اتخذت مواقعها في منطقة التجمع جنوب الخفجي، وكانت تتكون من:

- الكتيبتين، السابعة والثامنة من اللواء الثاني مشاة آلية من الحرس الوطني السعودي (سُحبت من «قوة واجب» أبي بكر).
- قوة قطَرية مكوَّنة من سرية دبابات AMX، وسرية مشاة آلية، وفصيل صواريخ HOT المضادة للدبابات (سُحِبَتْ هي الأخرى من «قوة واجب» أبي بكر).
- كتيبة مشاة آلية من اللواء الثامن من القوات البرية السعودية لتعمل كقوة احتياطية (سُحِبَتْ من «قوة واجب» عثمان).

ولإحكام الحصار حول العراقيين داخل المدينة قرَرنا ما يأتي:

- زيادة حجم سرية الدبابات من اللواء الثامن مشاة آلية، المتمركزة جهة الشمال الغربي على مقربة من الطريق المتجهة جنوباً، لتصل

إلى قوة كتيبة دبابات، إضافة إلى فصيل صواريخ موجَّهة مضادة للدبابات TOW. وكانت مهمة هذه الكتيبة قطع الطريق الرئيسية المتجهة جنوباً من الكويت إلى المملكة أمام التعزيزات العراقية.

- دفع كتيبة من مشاة البحرية السعودية شمالاً على الطريق الساحلية في اتجاه الخفجي، لتحتل جسراً إستراتيجياً، وتمنع أي تحرُّك عراقي جنوباً في اتجاه مصافي البترول.

خطَّطتُ، في البداية، للهجوم مع شروق شمس يوم ٣١ يناير. ولكني علمتُ من اللواء سلطان أن الجنود العراقيين يستيقظون مبكرين ويمارسون أعمالهم لساعة أو نحوها، تعقبها فترة راحة في الثامنة. لذا، قرَّرتُ أن يبدأ الهجوم الثامنة صباحاً.

كنت واثقاً أن النصر ـ بعون من الله ـ سيكون حليفنا. فقد عنينا بكل شيء: بالخطط، وقوات الواجب، وتلقين القادة. كانت قواتنا متأهبة، ومعنوياتها مرتفعة.

قلت للواء سلطان: «الآن أترك الأمر لك ولن أتدخل، وإذا احتجْتَ إلى مساعدتي فستجدني إلى جانبك». ويطيب لي أن أشيد بتنفيذه الدقيق للخطط في الساعات الأربع والعشرين التي تلت ذلك.

كانت قواتي مستعدة في مواقعها، وطائرات التحالف تقصف التعزيزات العراقية طوال الليل، و«الإسناد الجوي القريب» في صباح الغد قادمٌ لا محالة. عند ذلك، أحسست بقدْر كبير من الراحة، وقررت أن أختلس قسطاً من النوم. كنت في الرياض لا أنام أكثر من ثلاث ساعات متواصلة، إذ كانت غرفة نومي في الطابق الأسفل في وزارة الدفاع مجاورة لغرفة مكتبي، وكنت أستيقظ لتلقِّي المكالمات ومراجعة الخرائط وما إلى ذلك من مهام أخرى. ولكنني، في ريش المنجور، اقتنصت تلك الليلة ست ساعات كاملة من النوم المتواصل. ففي ليلة أول معركة لي، استمتعت بأكبر قسط من النوم.

شتان ما بين المعارك الحقيقية وتلك التي تُرسَم على طاولات الرمل في كليات القيادة والأركان. ففي المعارك الحقيقية لا بد من معايشة لحظات من الارتباك والخوف، ولا يسلم الأمر من بعض الأخطاء الخطيرة. ولم تكن معركة الخفجي استثناءً من تلك القاعدة. كانت المساندة النيرانية من المدفعية والقوات

الجوية الصديقة أمراً حيوياً ومحموداً، ولكن تلك المساعدة كانت تُقدّم إلى الرجال في أرض المعركة متأخِرة في التوقيت أحياناً، أو قريبة في المكان أحياناً أخرى، مهدِّدة أرواحهم في كلتا الحالتين. وعلى سبيل المثال، حدث صباح ذلك اليوم أن دمرت طائرة عمودية أمريكية دبابة عراقية T-55، ثم أطلقت النار بطريق الخطأ على عربة مدرعة تابعة للحرس الوطني السعودي، فقتلت سائقها وجرحت بعض أفراد طاقمها جروحاً خطيرة. وعلى الرغم من أن المراقبين الجويين الأماميين الأمريكيين، الذين ألحقوا على الوحدات السعودية قد أدَّوا واجبهم خير أداء، إلاّ أن عربات الحرس الوطني لم تكن مميزة لكثير من الطيارين، مما أشاع بعض الارتباك في تحديد هوية تلك العربات.

لم تكن قواتنا، بالمثل، معصومة من الخطأ. فحتى قبل أن تبدأ المعركة، ومع تحرك الوحدات في تلك الليلة في اتجاه منطقة التجمع، فتحت الدبابات القطَرية النار على العربات المدرعة التابعة للحرس الوطني، ظناً منها أنها آليات معادية. ولحسن الحظ، لم تقع خسائر جرّاء ذلك الحادث، الذي أوضح أن الأمر كان يستوجب إجراء بعض الترتيبات الضرورية في اللحظات الأخيرة. وفي تلك الليلة أيضاً، وفي فوضى المعركة، ضلَّت إحدى شاحنات الإمداد الأمريكية طريقها ووقعت في أيدي العراقيين. كان مقرَّراً أن تلتقي الشاحنة مجموعة استطلاع من مشاة البحرية الأمريكية تتحرك جنوبي الخفجي. وعندما واصلت الشاحنة سيْرها نحو مدينة الخفجي أجبرتها النيران العراقية على التوقف ووقع سائقاها الأمريكيان، رجل وامرأة، في الأسْر. وأخذ راديو بغداد يَنْعَق شماتة وابتهاجاً بتلك الحادثة. والهدف من ذِكر تلك الأمثلة، التي اخترتُها عشوائياً، هو أن أُبيِّن أن القائد وهو يسعى إلى تحديد الإطار العام للمعركة، لا يمكن أن يتحكم في مئات القرارات التي تصدُر عن الأفراد. فبعض تلك القرارات يكون شجاعاً وبعضها جباناً، بعضها حكيماً وبعضها متهوراً، ويتراكم ذلك كله ليشكّل المحصلة النهائية للمعركة.

كانت معركة الخفجي قصيرة، ولكنها شرسة كل الشراسة. فقد دارت أنشطتها القتالية متزامنة، إلى حدٍّ ما، في مواقع مختلفة وبأساليب مختلفة. بدأ الهجوم، بعد الثامنة صباحاً بقليل، يوم ٣١ يناير على محورين. المحور الأيمن، نفّذته الكتيبة الثامنة مشاة آلية من لواء الحرس الوطني مدعمة بسرية مشاة آلية قطَرية. والمحور الأيسر، نفّذته الكتيبة السابعة مشاة آلية من لواء الحرس الوطني مدعمة بسرية دبابات قطَرية وفصيل صواريخ مضادة للدبابات HOT من قطَر

أيضاً. كان الهدف من الهجوم، التوغل إلى عمق المدينة وتدمير التجمعات العراقية الرئيسية فيها، بينما تتحرك، في الوقت نفسه، كتيبة مشاة بحرية سعودية على الطريق الساحلية بهدف منع أية تحركات عراقية في اتجاه الجنوب.

وحين اقتربت العربات المدرعة للحرس الوطني من مدخل المدينة، تصدّى لها العراقيون بكثافة نيرانية من الدبابات والصواريخ. وكانت القوات العراقية متحصِّنة حيث اختبأت إلى جوار الأبنية أو في الخنادق المحصنة. كما تصدى القناصة كذلك لكل محاولات التقدم. وفي أول اشتباك عنيف كانت خسائر وحدات الحرس الوطني قليلة جداً، شهيداً واحداً وأربعة جرحى. وفي العاشرة أعيد تجميع تلك الوحدات وتحصّنت في الطرف الجنوبي للخفجي.

كان السؤال المهم الذي واجه قواتنا وهي تستعد لاستئناف القتال هو، هل يمكِن للقوات العراقية المحاصَرة الحصول على تعزيزات؟ أَوْلَيْتُ الأمر كل اهتمامي آنذاك عندما تلقّيت تقريراً بأن لواءَ عراقياً مدرعاً (رُصِدَ أكثر من ١٠٠ دبابة وناقلة جند مدرعة) يتحرك بسرعة عالية من الكويت، في اتجاه الحدود ومدينة الخفجي. كان اللواء العراقي في تشكيل قتالي يمتد لأكثر من ثلاثة كيلومترات، ولم تكُن تجري أية محاولة جادة من الجو لإيقافه. كانت تلك اللحظة من أحرج اللحظات بالنسبة إلينا. كنّا ندرك أن قواتنا المهاجِمة ستصبح في خطر مُحدِق إذا وصل ذلك الرتل العراقي المدرع إلى المدينة، إذ كان من شأن ذلك أن يُرَجِّح كفة القوات العراقية.

لذا، كان لا بد من إيقاف هذا اللواء. فصدرت الأوامر إلى كتيبة الدبابات من اللواء الثامن الآلي، التي أُسندت إليها مهمة قطع طريق التعزيزات إلى الخفجي، بالاشتباك مع العدو. وأَبْلَتْ تلك القوات بلاءَ حسناً. فبعد معركة استغرقت ثلاثين دقيقة ،أبلغ قائد الكتيبة أنه نجح في تدمير ١٢ آلية عراقية، وأن العراقيين بدأوا الانسحاب ليقوموا بعملية إعادة تجميع خلْف الحدود. ولكن طائرات التحالف كانت لهم بالمرصاد في هذه المرة، فتكبّد العراقيون خسائر جسيمة، مما أجبر بقية قواتهم على التقهقر السريع. وعندما رأى أحد ضباطنا، برتبة ملازم، العراقيين يُوَلّون الأدبار، انطلق في أثرهم ومعه عربتان أو ثلاث. ولسوء حظه، دخل منطقة للنيران الحرة كانت تُقْصف آنذاك من الجو بشدة. واستطاع أن ينجو بنفسه ولكن قُتل اثنان من رجاله بنيران صديقة من الجو. كان تصرفاً فردياً متهوراً، إذ لم يكن عليه أن يتقدم ولكنه تقدم، وتلك مخاطر الحرب التي يصعب التنبّؤ بها.

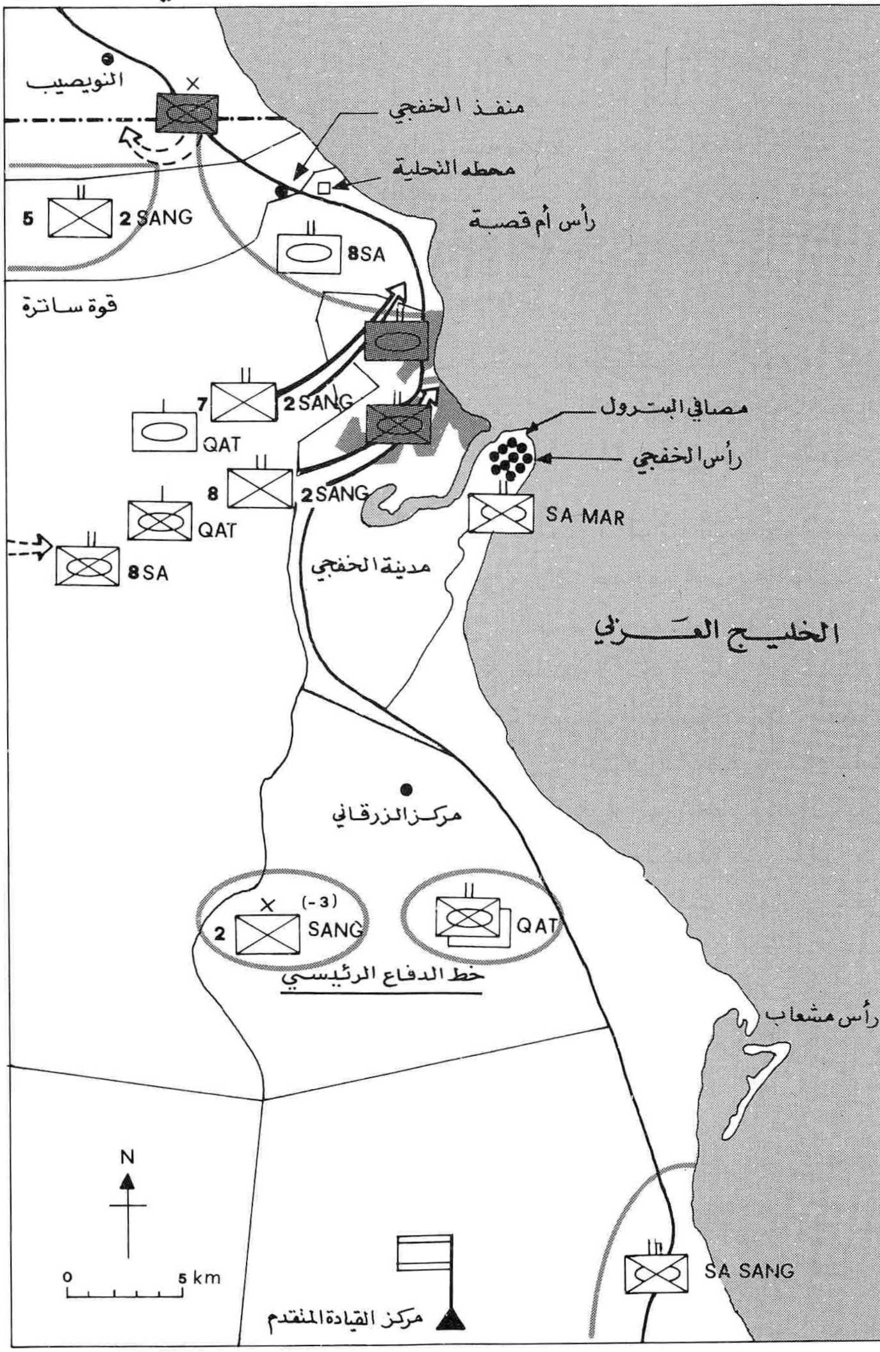
بعد أن أُجْهِضَت محاولة التعزيز العراقية الضخمة، تقدمت إلى المدينة الكتيبتان السابعة والثامنة مشاة آلية التابعتان للحرس الوطني، تساندهما سريتان قطَريتان، إحداهما سرية دبابات والأخرى سرية مشاة آلية مدعمة بفصيل صواريخ مضادة للدبابات HOT. فانهالت عليها نيران القناصة العراقيين إلى جانب نيران الدبابات والرشاشات الثقيلة، كما عرقلت تقدمها أيضاً نيران المدفعية العراقية التي كانت تطلَق من شمال المدينة. خاضت قواتنا، ذاك الصباح كله، عدداً من الاشتباكات مع العراقيين من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت، تأخذ الأسرى وتكبّد العراقيين المدافعين خسائر فادحة.

وقرب الظهر، عندما استدعت قوات الحرس الوطني سيارات الإسعاف لكي تخلي الشهداء والجرحى في صفوفها، شنّت الدبابات العراقية هجوماً مضاداً عنيفاً، فدمرت سيارتي إسعاف وأمطرت قافلة الإغاثة بوابل من نيران الرشاشات.

وفي الساعة (١٣٣٠)، سَعِدْتُ عندما عَلِمْتُ أن قواتنا المهاجمة شقّت طريقها إلى الجانب الآخر من مدينة الخفجي، وأن المقاومة العراقية انهارت أو تكاد. ويجب ألاّ ننسى هنا أن القتالَ داخل المدن قتالٌ صعب وخطِر بلا شك، إذ ظلت بعض جيوب المقاومة هنا وهناك، بعضها لا يجرؤ على الاستسلام، وبعضها الآخر عازم على مواصلة القتال. كانت أصوات الطلقات لا تكاد تنقطع. واستمر العراقيون، أثناء انسحابهم، في توجيه نيران مدافعهم وراجمات صواريخهم إلى المدينة. وحاول بعض العراقيين الفرار في اتجاه الشمال على إحدى الطرق الساحلية الوعرة بعد أن أيْقَنوا بالهزيمة، ولكنهم لم يَسلموا من الهجمات الجوية وفقدوا ١٢ دبابة أخرى في محاولة الفرار تلك. كما أن بعض الآليات تُركت سليمة بعد أن غادرتها أطقمها. لم تكن القوات العراقية على الأرض تتمتع بأية مساندة جوية، فغدت بذلك عرضة لهجمات التحالف الجوية، أما المدافع السوفيتية الصنع المضادة للطائرات من عيار ٥٧مم التي كانت بحوزة العراقيين، فلم تُسْتخدم بشكل فعال.

وخلاصة القول، أن المعركة كانت شرسة حقاً، وخاضها العراقيون بشجاعة وأبدَوا مقاومة عنيدة إلى أن انهارت معنوياتهم. وذَكر اللواء سلطان في تقريره الذي رفعه إليّ أن ٣٢ جندياً عراقياً قُتلوا وجُرح ٣٥ وتم أسْر ٤٦٣ آخرين. وكانت خسائر الجانب العراقي في المعدات تدمير ١١ دبابة T-55، إضافة إلى ٥١ ناقلة جند مدرعة، كما تم الاستيلاء على ١٩ عربة مدرعة أخرى. أما الخسائر في

الاشتباك الثالث: العملية الهجومية لتدمير القوات العراقية وتحرير مدينة الخفجي



الجانب السعودي، في نهاية اليوم، فكانت استشهاد ١٨ وجرح ٣٢ آخرين إضافة إلى فَقْد ١١ عادوا جميعهم بعد ذلك من دون أن يلحق بهم أي أذى. ولم تكن هناك خسائر في الجانب القطَري. أما الخسائر في المعدات، فكانت ثلاث دبابات وراجمة صواريخ واحدة وسيارتي إسعاف. وهكذا انتهت المعركة، وكتب الله لنا فيها النصر المبين.

وبكل الفخر والاعتزاز، اتصلت هاتفياً بخادم الحرمين الشريفين، القائد الأعلى للقوات المسلحة لأزفّ إليه الخبر:

«مولاي . . حرّرنا الخفجي وطهّرنا تراب الوطن من دنس المعتدي. والخسائر كانت كذا وكذا وأعداد الأسرى كذا وكذا . . .».

سعد الملك بهذا الخبر كل السعادة. كان يدري أن المعركة لم تكن سهلة على الإطلاق، وأنها قد «عركتني عرك الرّحى بثفالها». ضحك وقال: «قد أكون أغلظت لك القول في اليومين الماضيين، لكنني كنت واثقاً بأنك أهلٌ لتنفيذ المهمة». وهزّتني تلك الكلمات من الأعماق.

أردف يسألني: «وماذا ستفعل الآن؟». قلت إننا سوف نبدأ استجواب الأسرى، أريد أن أسمع منهم وقائع الأحداث. كنّا نستعد لبدء الحرب البرية لتحرير الكويت، بين عشية وضحاها، ولا بد أن يتوافر لنا أكبر قدر من المعلومات عن حالة الجنود العراقيين.

كانت توجيهات الملك في ذلك الشأن واضحة ومحددة، إذ قال لي: «لا تنسَ أن هؤلاء الأسرى أُجبروا على قتالنا، فَقَبْل أن تشرع في استجوابهم تأكد أنهم استراحوا واغتسلوا وأُلبسوا ملابس نظيفة وقُدّم إليهم الطعام ولا تستجوبهم قبل ذلك». نفذت تعليماته بكل دقة.

ذهبت للقاء أول دفعة من الأسرى، فإذا بأسير منهم يرمي بنفسه عند قدمي ويحاول أن يُقَبِّل حذائي، وهو يلهج بطلب الرحمة. ثم قال وهو ينتحب إن لديه خمسة أطفال وهو عائلهم الوحيد، ولم يأتِ إلى القتال إلاّ مرغَماً. فأمرته بالوقوف فوراً وطمأنته أنه لن يتعرض لأذى. تأثرت بذلك المنظر كثيراً حتى إنني قرّرت ألاّ أُجري أي اتصال مباشر مع الأسرى العراقيين، إذ رقّ قلبي لحالهم.

بعد ساعات من انتهاء المعركة، أمرني الملك أن أقابل مندوبي وكالات الأنباء في الخفجي، لأعلن للعالم أجمع أن الخفجي قد عادت إلى السيادة السعودية. توجَّهت إلى الخفجي مع ضباط أركان قيادتي المتقدمة، يغمرني شعور بالعزة والفخار. أطفأنا أضواء العربات حتى لا نلفت الانتباه. كانت القنابل العراقية المضيئة تحيل ظلام الليل نهاراً. وكانت تلك محاولة من جانبهم لاستبانة تحركات قواتنا ليوجهوا إليها نيرانهم. كانت أصوات انفجار قذائف المدفعية لا تزال تُسمع مدوية، بينما فلول القوة العراقية تحاول الانسحاب وراء الحدود.

وعند مدخل الخفجي، استوقفتنا نقطة تفتيش يقوم عليها مشاة البحرية السعودية. ورجاني العقيد عمَّار محمد القحطاني، قائد الكتيبة، ألاَّ أدخل المدينة، وقال إن الوضع لا يزال خطيراً. كنت أعرف عماراً منذ الطفولة، وأعرف شجاعته ورباطة جأشه. لم تكن عملية تطهير المدينة من جيوب المقاومة الصغيرة قد انتهت بعد، وكان القناصة لا يزالون مختبئين داخل الأبنية، جثث القتلى لا تزال متناثرة. انفجرت، في تلك اللحظة، قذائف عراقية على مقربة مِنّا، بينما كانت طائرات B-52 تقصف القوات العراقية المنسحبة فتضيء قنابلها ظُلمة الليل. صاح العقيد عمار، وكأنما انتابته حالة من الهستيريا: «فلْتحاكمني عسكرياً إن شئت، لكنني لن أدَعَك تمر من هنا»، وفتح ذراعيه وتسمّر أمام عربتي محاولاً أن يسد الطريق. ولكنه ما أن رأى تصميمي على التقدم، حتى أسرع إلى العربة، وفوجئت به يقبل رأسي وكأنما يدعو لي بالسلامة.

وصلنا إلى شارع المدينة الرئيسي، قبل أن يصل مراسلو الصحافة والتليفزيون ووكالات الأنباء. وكانت هناك دبابة عراقية لا تزال النيران مشتعلة فيها، وقد تناثرت على مقربة منها خمس جثث عراقية. نشرت خرائطي على مقدمة عربة مدرعة عراقية معطوبة، ووقفت أنتظر المراسلين.

وفجأة، دوّى صوت انفجار إلى جانبنا، حين حَرّك أحد الضباط برتبة نقيب، ممن يقفون إلى جواري شيئاً بحذائه. ولم أرَ في حياتي رجلاً يقفز هكذا. لا بد أن حاسة سادسة نبهته فقفز عالياً في الهواء قبل أن يحدث الانفجار ولحسن حظه لم يصَب بأذى، ويبدو أنه كان شرَكاً خداعياً لكن الصوت أشبه ما يكون بانفجار قذيفة من عيار كبير. وفي لحظة الانفجار، انقض عليّ خمسة من حراسي المتحمسين وحملوني حملاً في الاتجاه الآخر، وروَّعني هجوم حراسي أكثر مما روَّعني الانفجار نفسه. وحاولت، دون جدوى، أن أتملّص منهم وأقف على قدمي، ولكنهم لم يتركوني إلاّ بعد أن انطلقوا بي مسافة لا تقلّ عن خمسين متراً.

وصل بعد ظهر ذلك اليوم نحو ٤٠ من مراسلي الصحافة والتليفزيون ووكالات الأنباء جواً من الرياض إلى رأس مشعاب، ومن «مركز معلومات الإعلام» في الظهران. ثم نُقلوا في حافلة إلى الخفجي، لكنهم تحركوا ببطء وحلّ عليهم الظلام فجأة وهم لا يزالون على الطريق. لم يجرؤ سائق الحافلة على إضاءة أنوارها خوفاً من أن يستجلب النيران العراقية، وفَضّل أن يتحرك ببطء حتى لا ينحرف عن الطريق. كان المطر المدرار سبباً في جعل أرض الصحراء زَلِقة كما لو كانت مغطاة بالثلوج.

وعندما وصل المراسلون أعطيتهم وصفاً أولياً للمعركة التي ولجتْ باب التاريخ. كانت أكبر معركة تدور رحاها على الأراضي السعودية في العصر الحديث. وأول معركة تدور داخل المناطق المبنية، وأول اختبار للكفاءة القتالية للقوات السعودية والقطَرية. كما كانت أول معركة في هذه الحرب يقودها أمير سعودي. وهذا يعني الكثير لي شخصياً.

وعلى الرغم من أنني كنت أرحب بالحديث إلى المراسلين الأجانب، إلاّ أن تلك المؤتمرات الإعلامية التي تتم في الميدان لا تسير دائماً على ما يرام. إذ كان المراسلون ومصوِّرو التليفزيون يتدافعون بالمناكب ليحصلوا على مكان مناسب، وهم يدفعون بمكروفوناتهم في وجهي. كما سُلطت عليّ الأضواء الكاشفة التي جعلتني هدفاً سهلاً من مسافة كيلومترات عدة، لمن يريدون اغتيالي. وعلمت في اليوم التالي أن ٢٠ من الجنود العراقيين المسلحين كانوا يختبئون في مبنى لا يبعد سوى ٣٠٠ متر من المكان الذي كنت أتحدث فيه، وكنت في مرمى أسلحتهم. وعندما سلّموا أنفسهم طلبوا أن يعامَلوا كلاجئين عسكريين، وليس كأسرى حرب، مكافأة لهم على عدم إطلاقهم النار عليّ!

وبعد المؤتمر الصحافي، أمضيت ليلة أخرى في مركز القيادة المتقدم، وفي صباح يوم الجمعة عدت جواً إلى الظهران لأقلِّد النقيب الشمراني الوسام الذي يستحقه، كما كان مقرّراً قبل أن يستحوذ احتلال الخفجي على اهتمامي كله.

تعد معركة الخفجي، من وجهة نظري، حجر الزاوية في حرب الخليج، ونقطة تحول لا تقلّ أهمية عن معركة التحالف من أجل تحقيق السيادة الجوية في الدقائق الأولى من الحملة الجوية. كان التحالف، قبل تلك المعركة، يعيش جواً

كئيباً. إذ كان الجيش العراقي لا يزال قوياً من ناحية العدد وقوة النيران، ولم يكن للقوات السعودية سابق عهْد بالحروب، ولم تكن القوات القطَرية قد خرجت من ديارها حتى لغرض التدريب ناهيك من الحرب. ولو أن معركة الخفجي انتهت إلى غير ما انتهت إليه، لكانت صدمة قاسية تهبط بمعنوياتنا إلى الحضيض. ولكن النصر ـ بتوفيق الله ـ رفع الروح المعنوية لدى ضباطنا وأفرادنا إلى حد مذهل، إذ تهيأت لهم الفرصة لإثبات الذات فأَبْلَوا أحسن البلاء. نجحوا نجاحاً فائقاً في تنفيذ هجوم مضاد رئيسي ضد قوة معتدية لا يُستهان بها. كان الناس يلوِّحون بإشارات النصر في كل مكان، وينظرون إلى الجنود، الذين خاضوا المعركة وحازوا النصر، على أنهم أبطال يستحقون التقدير كله.

وعلى النقيض من ذلك، جردت تلك المعركة العراقيين من «إرادة القتال» بعد أن أدركوا أن صدام حسين كان يُسْلمهم إلى الرّدَى. وترددت تلك المقولة على لسان جميع الأسرى العراقيين، الذين بلغ عددهم ٤٦٣ أسيراً في أقلّ من ست ساعات. ونقتبس مرة أخرى من تولستوي قوله: «تكمن قوة الجيش في روحه المعنوية».

وثمة دروس استخبارية مهمة ينبغي أن نلفت إليها الانتباه. إذ علمتنا الغارات الثلاث أو الأربع التي شنّتها القوات العراقية عبر حدودنا في الأيام الأخيرة من شهر يناير ١٩٩١، أن العراقيين كانت لديهم القدرة على الحركة، ولكن تنقصهم المهارة لتنسيق هجماتهم. كانت القوات العراقية تفتقر إلى الحافز على القتال وإلى الحماية الجوية، ومن هنا انعدمت لدى العراقيين الرغبة في أن يقفوا صفاً واحداً ويقارعونا في ميدان القتال. وهذا هو السبب في استسلامهم بأعداد كبيرة. كما أصبح واضحاً لنا أن جمْع الأسرى ونقْلهم خلال الحرب البرية القادمة سوف يستقطب جزءاً كبيراً من جهدنا. وحتى لا تتسبب تلك العملية بعرقلة تقدمنا، كان علينا أن نُعِد الترتيبات اللازمة وعلى نطاق واسع للتعامل مع أسرى الحرب ونقْلهم إلى معسكرات في المناطق الخلفية لمسرح العمليات.

كانت تلك المعركة اختباراً صعباً اجتازته الوحدات السعودية والقطَرية والقوات الجوية للتحالف. كان تماسك التحالف وفاعليته القتالية العالية أمراً لا تخطئه العين. وغدت قواتنا جزءاً له وزنه في التحالف. وتقف موقف الند للند مع قوات حلفائنا الآخرين، وأضحت على أتم الاستعداد لإنجاز ما يُوْكَل إليها من مهام في أية معركة قادمة، لا سيما معركة تحرير الكويت.

حرب تحرير الكويت

خلال فترة الحرب، كان العقيد شاكر إدريس، مدير الشؤون العامة في قيادة القوات المشتركة، يصدِر صحيفة يومية من أربع صفحات تسمّى «نشرة صوت المعركة»، تُوَزَّع مجاناً في كل أنحاء المملكة.

سألت العقيد شاكر: «متى تمْثل صحيفتك للطبع؟».

فأجاب: «في الواحدة صباحاً».

قلت له: «أَرْجِئ طبع الصحيفة هذه الليلة واحضر إلى مكتبي في الرابعة وخمس دقائق، فقد يكون لدي خبر مهم للنشر».

وفي الرابعة وخمس دقائق تماماً، يوم ٢٤ فبراير ١٩٩١، حضر العقيد شاكر إلى غرفة الحرب فأخبرته أن الحرب البرية بدأت قبل خمس دقائق.

نشر العقيد شاكر الخبر في صدْر الصحيفة، مغطياً الصفحة الأولى بكاملها. واستأذنني في تغيير اسم الصحيفة إلى «النصر»، فوافقْت على الفور ووقَّعْت أمراً بذلك.

تم تحديد يوم ٢٤ فبراير تاريخاً لبدء الحرب البرية بناءً على عدة عوامل، من أهمها أن بيانات الأرصاد كانت تشير إلى ملاءمة الأحوال الجوية في تلك الفترة لتنفيذ أعمال قتالية. وثمة عامل مهم آخر، هو الحاجة إلى استكمال نقل التعزيزات الأمريكية من المسرح الأوروبي (إذ لم يصل بعضها إلى المملكة إلاّ في

منتصف شهر فبراير). كما كانت المملكة حريصة على إنهاء القتال قبل بداية شهر رمضان، الذي كان يوافق ١٧ مارس من ذلك العام، فالمسلم يتأثر بشهر الصيام قلباً وقالباً، لا سيما في المملكة، مهْد الإسلام. يضاف إلى ذلك، أن تأجيل بدء الحرب إلى ما بعد شهر رمضان كان يعني أن يدور القتال في وهج الصيف القائظ، فالصيف يلقي مراسيه في المملكة في غضون شهر أبريل. في ضوء هذه العوامل جميعها، كان النصف الأخير من شهر فبراير هو أكثر الأوقات ملاءمة لشنّ الحرب البرية.

وثمة عامل مهم آخر أسهم في تحديد بدء العمليات البرية، هو عدم التأكد من نسبة التدمير الذي أحدثته الحملة الجوية على القدرات القتالية العراقية. إذ لم يتوقع بعض المراقبين أن تستمر الحملة الجوية أكثر من أسبوع أو أسبوعين، ولكنها استمرت ما يقرب من ستة أسابيع. فلم نكن نريد شَنّ الحرب البرية قبل التأكد من أن القدرة القتالية لقوات صدام قد انخفضت بنسبة ٥٠٪ على أقلّ تقدير. وكنت أُثير هذا الأمر دائماً في حواري مع شوارتزكوف. وكما سبق أن ذكرت، كنت أشعر أن اهتمام مُخَطِّطِي الحملة الجوية كان مُنْصباً على تدمير الأهداف داخل العراق أكثر منه على إضعاف القوات العراقية في الخطوط الأمامية. كانت قواتي، في المنطقتين الشرقية والشمالية، تستعد لتنفيذ المهمة الأصعب، وهي اختراق الدفاعات العراقية حول الكويت. لذلك، أعلنتها صريحة أننا لن نتحرك حتى نتأكد من تحقيق نسبة الخسائر المطلوبة في القوات العراقية.

يستخدم العسكريون مصطَلَح «تجهيز ميدان المعركة» لوصف الإجراءات التي تُتَّخَذ لإضعاف قدرة العدو قبل الاشتباك معه. وفي حرب الخليج، تمت عملية التجهيز لميدان المعركة بكفاءة عالية، إذ اشتملت على العناصر الأساسية التالية:

- حملة جوية، استمرت ٣٨ يوماً، استهدفت شلّ قدرات العراق على شَنّ الحرب.
- عمليات نفسية، استهدفت تحطيم الروح المعنوية للجنود العراقيين وتثبيط عزيمتهم على القتال.
- عمليات خداعية، استهدفت إخفاء استعدادات التحالف لعملية «الخطاف الأيسر»، وإقناع العراقيين بأن الهجوم الرئيسي سوف يُشَن بمحاذاة الساحل وفي اتجاه الكويت مباشرة، يسانده هجوم برمائي من الخليج تنفذه مشاة البحرية الأمريكية.

- إعادة تمركز قوات التحالف قبل عملية الالتفاف العميق من جهة الغرب. وكان هذا هو لب إستراتيجية التحالف.

وإن كنت، في فصل سابق، قد قدَّمتُ وصفاً مفصلاً للحملة الجوية، فلا بأس هنا من أن أذكّر فقط بضخامة حجمها. تم تنفيذ أكثر من ١٠٠ ألف طلعة جوية، مقاتلة ومساندة، أُطلق خلالها ٢٨٨ صاروخاً من نوع كروز توماهوك على أهداف حيوية في كلٍّ من العراق والكويت.

بات واضحاً أن قوة العراق قد استُنْزِفَت، وقواته المسلحة قد أُنهكت، بفعل القصف الجوي الذي لم يسبق له مثيل. وتوافرت لدينا الدلائل القوية أن القادة العراقيين في المستويات كلها، بمن فيهم صدام نفسه، كانوا يجِدون صعوبة بالغة في الاتصال بالوحدات الأمامية. فغارات التحالف أجهزت على شبكات القيادة والسيطرة والاتصالات، وأصبحت القوات العراقية في الميدان معزولة مذعورة، مرتبكة وجائعة، ولم يكن لديها معلومات واضحة عن مواقع وحداتها، ناهيك من مواقع وحدات التحالف. كما دمَّر القصف الجوي أكداساً هائلة من المعدات والمؤن العراقية، وأدى الضرر الذي لَحِق بالجسور والطرق والسكك الحديدية إلى قطع المواصلات بين بغداد وجبهة القتال، فضعُف سيل الإمدادات والمؤن حتى انقطع أو كاد.

لم يكن تردِّي حالة القوات العراقية في الجبهة خافياً على أحد. إذ أَبْلَغَنا عددٌ من الفارّين أن الروح المعنوية للجنود كانت في الحضيض، وما منع الأعداد الكبيرة منهم من الفرار إلى جانب قوات التحالف، إلا فِرَق الإعدام التي كانت تتجول بين الصفوف. كنت أُطلق عليها «كتائب الإعدام» في حديثي إلى وسائل الإعلام، وكان ذلك أمراً لا يصدِّقه بعض المراسلين، حتى اللواء نيل Neal، المتحدث العسكري الأمريكي، رفض تأكيد وجود مثل تلك الكتائب عندما سُئِلَ عنها. ولكن اتضح، بعد الحرب، أن وجودها حقيقة لا مراء فيها.

كان التحالف يدرك أن العراقيين خارَتْ قواهم وضعُفت عزائمهم على القتال، إلاَّ أن بعض الجوانب العسكرية كان لا يزال يكتنفها الغموض. أعدَّت مصادر استخباراتنا إحصائيات مطولة بعدد الدبابات والعربات المدرعة وقِطع المدفعية التي تم تدميرها، ولكن التباين في الآراء كان كبيراً في شأن تلك الإحصائيات. فعلى الرغم من انتصارنا في الخفجي، وما أظهرته تلك المعركة من تَدَنّي الروح المعنوية للعراقيين، إلاّ أننا كنّا نشعر بعدم وضوح الرؤية إلى الموقف الذي سنواجهه.

ومع اقتراب موعد المعركة البرية، بدأ السؤال الذي كان يشغلنا منذ البداية، يصبح أكثر إلحاحاً وأهمية: «هل يُقْدم صدام على استخدام الأسلحة الكيماوية؟». كنت أرى أنه لن يجرؤ على ذلك، إذ كان يدرك، دون شك، أنه إذا استخدم الأسلحة الكيماوية فسيثير الولايات المتحدة ويدفعها إلى تدميره نهائياً. وهذا ما أوضَحه جيمس بيكر، وزير الخارجية الأمريكي، لطارق عزيز، وزير الخارجية العراقي، أثناء لقائهما المقتضب في جنيف في التاسع من يناير. ولمّا كان صدام حريصاً على حياته أكثر من أي شيء آخر، فقد بدا لي أنه لن يُقدِم على استخدام مثل تلك الأسلحة.

ومع ذلك كله، لم يكن في وسعنا أن نجزم بأنه لن يستخدمها. إذ كنّا نعلم أن العراق، بداية عام ١٩٩٠، أصبح يمتلك القدرة على إنتاج آلاف الأطنان من المواد الكيماوية سنوياً، ولديه الوسائل اللازمة لحمْلها وإطلاقها بواسطة قنابل الطائرات وقذائف المدفعية. كما سبق للعراق أن استخدم غاز الأعصاب والغازات الحارقة في آخر أعماله الهجومية على إيران عام ١٩٨٨. فهل يسلك صدام مسلكاً انتحارياً، ويرمي إلينا بمفاجأة التحدي الكيماوي كآخر سهْم في جعبته؟ كان علينا أن نأخذ التهديد باستخدام الأسلحة الكيماوية مأخذ الجد. لذا، بادرنا إلى تزويد قواتنا بالألبسة الواقية وحُقَن «أوتروبين» المضادة لغازات الأعصاب.

ومبْلغ علمي أن القوات العراقية لم يكن لديها مخزون من الأسلحة الكيماوية في أرض المعركة. ولم تكتشِف وحدة التطهير التشيكوسلوفاكية أية آثار لغاز الأعصاب أو غاز الخردل. ولكن بعد انتهاء الحرب بعدة شهور، اشتكى كثير من الجنود الأمريكيين الذين شهدوا الحرب، من صداع وطفح جلدي وكحة وإسهال وغير ذلك من الأمراض الغريبة، التي يُعتقد أن مردها إلى الحرب. حتى إن هذه الأعراض المَرَضية يُطلَق عليها، أحياناً، «أعراض حرب الخليج».

ليس ثمة دليل قاطع، حتى الآن، على أن تلك الأعراض سببُها حرب الخليج، إلاّ أن إدارة الرئيس كلينتون Clinton أعلنت في يونيه ١٩٩٤ مساندتها لتشريع يقضي بتعويض العسكريين الأمريكيين الذين يعانون تلك الأعراض. أما في بريطانيا، فقد نفى السير پيتر بيل Sir Peter Beale، كبير الأطباء في الجيش البريطاني، وجود مثل تلك الظاهرة. وكتب في خطاب أرسله إلى المجلة الطبية البريطانية يقول: «لم يتوافر لدينا أي دليل يشير إلى أن هناك ظواهر مَرَضية تقتصر على أولئك الذين خدموا في حرب الخليج». وعلى الرغم من ذلك، تردد في

نوفمبر ١٩٩٤ أن أكثر من ٤٠٠ من العسكريين البريطانيين كانوا يخطِّطون لمقاضاة وزارة الدفاع البريطانية بدعوى اعتلال صحتهم جرّاء حرب الخليج.

ومن الأرجح أن تكون تلك الأعراض ناجمة عن الأقراص والحُقَن التي أُجبرت القوات الأمريكية والبريطانية على تعاطيها، خشية أي هجوم بالأسلحة الكيماوية أو البيولوجية. بينما لم تتعاطَ القوات التي كانت تحت قيادتي أية عقاقير أو أمصال من ذلك النوع، ولم تظهر عليها أعراض من تلك التي يُدّعى أنها ظهرت على الآخرين، على الرغم من أنها دخلت الكويت، وكان يمكن أن يعرِّضها ذلك للغازات الكيماوية أو المواد البيولوجية العراقية، إن وُجِدَت. وكنت قد طَلَبتُ من حلفائنا الأمريكيين، قبل بداية الحرب، أن يزوِّدونا بالأمصال اللازمة لقواتنا، ولحسن الحظ، لم تكن لديهم جرعات كافية منها.

وإزاء احتمال استخدام صدام الأسلحة الكيماوية والبيولوجية، كان على قوات التحالف اتخاذ التدابير اللازمة. ففي الأسبوع السابق للحرب البرية، تركَّز الانتباه على مدفعية صدام، إذ تُعَدّ الوسيلة الوحيدة المحتَمَلة لإطلاق الأسلحة الكيماوية بعد أن شُلَّتْ قدراته الجوية، ومن ثَم تم قصف منطقة الاقتحام حول الكويت، وبوجه خاص مواقع المدفعية العراقية، بـ ١١ ألف قذيفة مدفعية وبنيران كثيفة من مصادر أخرى، مما أسفر عن تدمير مئات المدافع العراقية.

وعلى الرغم من أننا لم نتعرض لهجمات كيماوية، إلاَّ أن الملابس الواقية التي زُوِّدت بها قواتنا لهذا الغرض، كانت لها منافع كثيرة، وعلى نحو لم نكن نتوقعه، إذ كانت خير واقٍ لنا من البرد، فالطقس في شتاء عام ١٩٩١ كان بارداً ورطباً بشكل غير مألوف. ليس هذا فحسب، بل أعانتنا على الوقاية من التلوُّث والدخان الذي كان يتصاعد من آبار البترول الكويتية المحترقة. فالبدلة الواقية تشتمل أيضاً على حذاء وقفازين وغطاء للرأس يمكِن إحكامه، فكانت حقاً بدلة واقية مُحْكَمة ضد عوامل الطبيعة المحيطة. ولو اضطر الإنسان إلى ارتدائها في قيظ أغسطس، لما استطاع تحمُّلها، لكنها في برد يناير وفبراير من ذلك العام كانت وسيلة لتوفير الدفء المنشود.

كنت أرى ألاَّ نستفز صداماً أو نسخر منه في الأسابيع الأولى من الأزمة، بأي شكل من الأشكال. ورأيت أن تكون لهجتنا، خلال بناء قدرتنا الدفاعية، معتدلة في الحديث عنه أو الإشارة إليه، ونؤكد أننا ندافع عن بلدنا لا أكثر، وأننا لن نهاجمه ما لم يبادر إلى الاعتداء علينا. ولكن بحلول أكتوبر، أصبحت دفاعاتنا

قوية، وفي نوفمبر كنت أتمنَّى أن يبادرنا صدام بالهجوم، إذ كنّا سنجعله يدفع الثمن غالياً. ومنذ ذلك التاريخ، بدأت لهجتي تتغير. وأصبحت أستخدم عبارات أكثر حدَّة عندما أشير إليه.

بدأت أَهتَم بالعمليات النفسية لتحطيم الروح المعنوية للعراقيين، قادة وجنوداً، وتشجيعهم على الاستسلام. وكان لتلك الحرب النفسية سببان بارزان: أحدهما عسكري، والآخر إنساني لِحَقْن دماء العراقيين. فلم يكن هدفنا، في حال من الأحوال، تنفيذ مذبحة جماعية للإخوة العراقيين. لم يكن للمملكة سابق عهْد بالعمليات النفسية، لذا شكّلنا فريقاً مشتركاً من الخبراء السعوديين والأمريكيين والمصريين برئاسة اللواء محمد عيد العتيبي. اجتمعت إلى الفريق مرات عدة وأُعجبت كثيراً بذكاء أعضائه. بيد أن الحرب البرية انتهت سريعاً، مما جعل ثمار جهودهم لا تكاد تبين. فعلى سبيل المثال، قررنا تزويد كل وحدة من الوحدات الأمامية التي تعمل تحت قيادتي، بمكبرات الصوت لتُذَاع من خلالها نداءات تحضُّ العراقيين على الاستسلام قبل أن يتعرضوا للهجوم. وكانت تلك محاولة من جانبنا لتقليل الخسائر في الأرواح في الجانب العراقي. اشترينا فعلاً عدداً كبيراً من تلك الأجهزة وتم توزيعها على القوات، ولكنها لم تُستخدَم على نطاق واسع، إذ تمت الحملة البرية في أسرع مما توقعنا.

وفي محاولة أخرى أكثر طموحاً، أنشأنا عدداً من المحطات الإذاعية تُدار بواسطة جماعات المعارضة العراقية، وتُشْرِف عليها الاستخبارات السعودية من وراء الكواليس. واكتسبت إحدى تلك المحطات، التي كانت تبثّ إرسالها من الرياض، شهرة شعبية واسعة. وحصلنا على موافقة السوريين على إقامة محطة تقوية في أراضيهم. كما أنشئت محطات تقوية في أماكن أخرى حول العراق، في البحرين وتركيا وعلى الساحل شمالي الجبيل. وأَبْلَتْ استخباراتنا بلاءً حسناً في بثّ تلك الإذاعات لتصل إلى العراقيين، إلاّ أنه كان يخامرني شك في وجود أجهزة الراديو لدى القوات العراقية لتتمكّن من التقاط تلك الإذاعات. وجال بخاطري أن نقوم بإسقاط أعداد من أجهزة الراديو الصغيرة الحجم فوق المواقع العراقية، ولكن الوقت لم يسعفنا لنضع تلك الفكرة موضع التنفيذ.

بيد أن أفضل أساليب العمليات النفسية التي استخدمناها، كانت المنشورات التي أسقطناها بالملايين فوق العراق والكويت. كان بعضها يحدد للجنود العراقيين المواقع التي ينوي التحالف قصْفها، ويطلب منهم الفرار. وكان بعضها الآخر

يطلب منهم الابتعاد عن معداتهم المُزْمَع تدميرها. وكانت المنشورات كلها تحضُهم على الاستسلام. أَعَدّ الأمريكيون، في البداية، بعض المنشورات من تلقاء أنفسهم دون الرجوع إلينا، لكن الأعضاء العرب ضمن فريق العمليات النفسية انتقدوا تلك المنشورات؛ إذ كانت تنطوي على قدر كبير من التهديد، ولا تنسجم لهْجتها مع النخوة والعاطفة العربيتين. فكان للمنشورات الأمريكية آثار سلبية. ومن ثم أصدرتُ توجيهاتي بأن تركِّز المنشورات على الترحيب الحار الذي سيحظى به إخواننا العراقيون القادمون إلى المملكة عند استسلامهم. ونظراً إلى الجحيم الذي كانت تعيش فيه القوات العراقية، لم تكن مفاجأة لنا أن تستجيب أعداد كبيرة منهم لِمَا وعدناهم به من طعام وماء ورعاية صحية. واستعنّا برسام الكاريكاتير السعودي الموهوب، إبراهيم الوهيبي، لإعداد الرسوم التي تبيِّن فحوى رسائلنا. وكان من أعظم المنشورات أثراً وأكثرها شعبية منشورٌ يحمل توقيعي، صُمِّمَ في شكل تصريح يَعِد بالملاذ الآمن وسلامة المرور، وعندما بدأت الحرب البرية، اندفع آلاف العراقيين لتسليم أنفسهم، وهم يلوِّحون عالياً بذلك التصريح.

أما عمليات الخداع التي استهدفت توجيه أنظار العراقيين ليركزوا على طرق الاقتراب الجنوبية والشرقية للكويت، بدلاً من الصحراء الممتدة في الجهة الغربية التي تُرِكَتْ دون دفاعات، فكانت من تدبير الأمريكيين إلى حدٍّ بعيد. وكانت عمليات فعالة إلى أقصى حد، إذ اشتملت على قيام قوات خاصة بتحركات خداعية في وادي الباطن، وهو الوادي الواسع الذي يسير بمحاذاة حدود الكويت الغربية مع العراق. كما أُذيعت تسجيلات لضوضاء تحرك الدبابات من منطقة الطريق الساحلية للإيهام بأن فِرق مشاة البحرية لا تزال متمركزة هناك، بالإضافة إلى القصف البحري لساحل الكويت ونشاطات مساندة تهدد البصرة. وفوق ذلك كله، كانت هناك حشود استعراضية لمشاة البحرية الأمريكية في عرض البحر، بما يوحي أن هجوماً برمائياً يوشك أن يقع.

كانت الدفاعات العراقية ثابتة ومحصّنة بشكل واضح في اتجاه الجنوب والشرق. وبدا واضحاً اقتناع العراقيين أن التحالف سيهاجم في اتجاه الطريق الساحلية ووادي الباطن، بالإضافة إلى الهجوم من اتجاه الخليج. وكان تثبيتهم في هذه المواقع أحد الأهداف التي كنّا نسعى إلى تحقيقها ضماناً لنجاح الخطة. فمن مجموع ٤٣ فرقة عراقية في مسرح العمليات الكويتي، كانت ستّ فِرق تتولى الدفاع عن المخرج الشمالي للوادي، وعدد آخر مماثل للدفاع عن طرق الاقتراب

المؤدية إلى الطريق الساحلية. واتخذت ١٢ فرقة أخرى مواقع دفاعية حصينة في مواجهة البحر، بينما تمركزت الفِرق المدرعة الاحتياطية في العمق خلْف الخطوط الدفاعية الحصينة، مستعدة لتنفيذ هجمات مضادة في اتجاه تلك المواقع.

أَسهمتُ في خطة الخداع تلك، عندما أعلنت في وقت مبكر أن المعركة الأساسية سوف تكون على الأرض الكويتية، لا العراقية. ولم يكن الهدف من تلك التصريحات خداع العراقيين فحسب، بل طمأنة القوات العربية تحت قيادتي إلى أنها لن تتحول إلى جيش احتلال للأراضي العراقية. إذ أخبرني السوريون، بكل وضوح، والمصريون، بكلِ لباقة، أنه لن يكون في وسعهم دخول العراق. وكذلك كان شأن القوات العربية كلها، بما فيها القوات السعودية نفسها.

كانت المرحلة الأخيرة في تجهيز أرض المعركة هي إعادة تمركز قوات التحالف البرية. وتم ذلك، كما ذكرت، تحت ستار الحملة الجوية. فانتقل أكثر من ٢٥٠ ألفاً من الجنود الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين، ومعهم نحو ٦٠ ألفاً من الآليات المجنزرة والمدولبة، مع كل ما يلزمهم من الإمدادات، إلى مواقع هجومية في الغرب بعيداً عن الخطوط الدفاعية العراقية الحصينة على الحدود الكويتية ـ السعودية.

نُشِرَت تلك القوات في مواقعها الهجومية على جبهة التحالف، التي بلغ طولها نحو ٥٠٠ كيلومتر من اليسار إلى اليمين، على النحو الآتي:

- في أقصى الجناح الأيسر، تمركزت الفرقة السادسة المدرعة الخفيفة الفرنسية، التي تميزت بخفة الحركة والمرونة، وكما ظهر ذلك جلياً حين كانت هذه الفرقة تحت قيادتي في عملية درع الصحراء. وقد انتقلت قبل الهجوم البري لتصبح تحت السيطرة العملياتية للفيلق الثامن عشر الأمريكي المحمول جواً. كانت إحدى مهام تلك الفرقة حماية الجانب الأيسر للفيلق ١٨، الذي كانت قوته الضاربة الرئيسية تتكون من: الفرقة ٨٢ الخفيفة الحركة المحمولة جواً، والفرقة ١٠١ اقتحام جوي، بالإضافة إلى الفرقة ٢٤ مشاة آلية ذات القدرة القتالية الفائقة، والتي كانت ملحقة عليه. كلِّف الفيلق بمهمة التوغل في عمق الأراضي العراقية من الغرب، بهدف السيطرة على خطوط المواصلات العراقية بمحاذاة نهر الفرات، وعلى وجه الخصوص الطريق السريعة رقم ٨، ومحاصرة القوات العراقية في مسرح العمليات الكويتي. وكان من شأن هذا الحصار أن يجعل تلك القوات تحت رحمة التحالف، إذ تصبح عاجزة عن الانسحاب في

وقت حُرِمَت فيه من جميع التعزيزات والإمدادات. كان هذا ما خطَّطناه، لكن الأحداث سارت خلافاً لما خُطِّط لها، كما سنرى فيما بعد.

- وفي وسط الجبهة، تمركزت الفِرق المدرعة وفِرق المشاة الآلية التابعة للفيلق السابع الأمريكي، تدعمها الفرقة الأولى المدرعة البريطانية. وبلغ مجموع الدبابات في تلك الفِرق نحو ١٣٠٠ دبابة، وهو أكبر تجمع للمدرعات في تاريخ الحروب. وكان مقرراً أن تندفع تلك القبضة الحديدية شمالاً في اتجاه العراق، ثم تستدير في اتجاه الشرق في شكل خطّاف لتطوِّق قوات الحرس الجمهوري العراقي الذائعة الصيت، وتدمرها.
- استفاد الفيلقان، السابع والثامن عشر، من «نظام تحديد المواقع GPS» للملاحة عبر الصحراء الخالية من المعالم والهيئات الأرضية تقريباً. وهذا النظام عبارة عن جهاز صغير يمكِنه تحديد المواقع، ليلاً ونهاراً، بدقة فائقة من طريق المعلومات التي يتلقاها من الأقمار الصناعية.
- وفي الجانب الأيمن من مسرح العمليات، وإلى الجنوب والجنوب الغربي مباشرة من الكويت، تمركزت قواتي في المنطقتين الشرقية والشمالية على الترتيب، كما كانت فرقتان من مشاة البحرية الأمريكية مدعمتان بلواء مدرع تتمركزان بين المنطقتين. وكانت القوات المشتركة في المنطقة الشمالية تتكون من فيلق مصري وفرقة سورية ووحداتهما من القوات الخاصة، ولواءين من القوات البرية السعودية، يساندهما لواء كويتي. أما القوات المشتركة في المنطقة الشرقية، فكانت تتكون من لواء من الحرس الوطني السعودي، ولواءين من القوات البرية السعودية، ووحدات من قطَر وعُمان والبحرين والإمارات العربية المتحدة والكويت.

كانت مهمة القوات المشتركة في المنطقتين، ومعها مشاة البحرية الأمريكية، اقتحام الخطوط الدفاعية العراقية وتدميرها، وتحرير مدينة الكويت. وعلى الرغم من أن دَورنا كان يوصف بأنه دَور مساند يستهدف تثبيت القوات العراقية في أماكنها، وصَرْف الانتباه عن الهجوم الرئيسي الذي سيَشُنُّه الفيلق السابع، إلاّ أننا، حقيقة، تحملنا مسؤولية مهاجمة القوات العراقية في المكان نفسه الذي كانت تتوقعه، مواجهين أقوى التحصينات الدفاعية.

كانت التحصينات مُصَمَّمة على غرار تلك التي أنشأها العراق في حربه على إيران وأفاد منها إلى حدٍّ بعيد. كان يواجهنا على طول الحدود حزامان دفاعيان،

أحدهما بعمق ٥ ـ ١٠ كيلومترات داخل الكويت، والآخر على بعد نحو ٢٠ كيلومتراً. كان كل حزام يتكون من نقاط دفاعية حصينة خلْف موانع قوية من الأسلاك الشائكة، والخنادق المضادة للدبابات والخنادق المملوءة بالبترول وحقول الألغام التي يتراوح عمقها من ١٠٠ إلى ٢٠٠ متر. اعتمدت الإستراتيجية العراقية، وهو ما انتهجتْه خلال حربها على إيران، على استدراج القوات المهاجمة إلى مناطق قتْل بين الحزامين الدفاعيين، في الوقت الذي تكون فيه القوات المدرعة الاحتياطية جاهزة لشنّ الهجمات المضادة على تلك القوات التي تنجح في اختراق الحزام الدفاعي الأول، ويتِم إيقافها وصدها أمام الحزام الثاني.

بدا واضحاً أن العراقيين لم تكن لديهم أية معلومات عن كيفية وطبيعة انتشار قوات التحالف. ففي غياب قوتها الجوية، فقدت القوات العراقية عيونها التي تبصر بها، حتى إنها لم تكتشف التحركات الهائلة في اتجاه الغرب على طريق التابلاين، التي لا تبعد سوى بضعة كيلومترات عن الحدود العراقية. ففي بداية الأزمة، حاول العراقيون إرسال عملاء لهم إلى داخل المملكة ضمن طوفان اللاجئين الكويتيين، لكن معْظمهم، إن لم يكن جميعهم، سقط في أيدي قوى الأمن السعودية. كما ظلّ العميد محمد جاسم الحبش، الملحق العسكري العراقي، في الرياض، يمارس مهامه حتى أواخر أغسطس ١٩٩٠، شأنه شأن الملحقَين العسكريَّين الأردني واليمني. وكان الملحق العسكري العراقي ماكراً جداً. ولكني تلقيت تقريراً استخبارياً (مستمَداً بالتأكيد من قراءة مراسلاته) يفيد بأنه نصح بغداد بألاّ تطلِق الرهائن الغربيين، أي الأعداد الكبيرة من الأجانب الذين كان يحتجزهم صدام في العراق، وبأن توزعهم على المواقع الإستراتيجية في البلاد. ولو أن صداماً أصغى إلى هذه النصيحة، لتغير مجرى أحداث الحرب، لأنه كان، من المؤكد، سيجعل شنّ الحملة الجوية الإستراتيجية أمراً صعباً من الناحية السياسية، في الوقت الذي كانت تلك الحملة هي الورقة الرابحة في تحقيق النصر للتحالف. وكنت دائماً أتساءل لِمَ اختار صدام ضابطاً ذا رتبة عالية ملحقاً عسكرياً في المملكة؟ هل كان ذلك الاختيار مؤشراً إلى أنه كان يخطط لغزو الكويت، منذ وقت طويل؟

شَقّ على الملحق العسكري العراقي التجول بحرية تامة، إذ كان يخضع

لمراقبة لصيقة. ولكنني تلقيت تقريراً بأن زميله الملحق الأردني ظَلّ نشِطاً بشكل ملحوظ. كان يتحرك من مكان إلى آخر يسأل ويجمع المعلومات عن مواقع قوات التحالف ومراكز قيادتها. وساوَرَتْنا الشكوك في أن الأردن ربما كان ينقل هذه المعلومات إلى العراق. لذلك، اقترحت على الأمير سلطان أن نُبعد هذين الملحقَين. ولكنه، بحكمته المعهودة، صرف اهتمامه أولاً إلى إعادة الملحق العسكري السعودي وأسْرته من بغداد سالمين. وبعد ذلك، قررتْ الحكومة السعودية إبعاد الملحق العسكري العراقي، على أن يكون الإبعاد إنذاراً للملحق الأردني، لأننا لم نكن نريد الاختلاف مع الأردن على الملأ في تلك المرحلة من الصراع. ولكن عندما ثَبت لدينا أن الملحق العسكري الأردني ماضٍ في أعمال التجسس، كرَّرتُ توصيتي بإبعاده. تشاور الأمير سلطان مع الملك فهد في ذلك الشأن، ولم تمضِ ٢٤ ساعة حتى كان الملحق العسكري الأردني خارج البلاد.

وفي مناسبة أخرى، وقبل بدء الحملة الجوية بوقت قصير، ألقَينا القبض على عميل عراقي من القوات الخاصة في منطقة حفر الباطن، تظاهر بأنه لاجئ من الكويت. ووجدنا معه جهاز إرسال يستخدمه في بثّ الرسائل إلى بغداد. حاولنا استخدامه لمصلحتنا ضد العراقيين، فأصدرنا إليه تعليماتنا بأن يستمر في بثّ رسائله تحت إشرافنا. وأخذنا ننقله من مكان إلى مكان داخل البلاد ونزوِّده بالمعلومات الرسمية المضلِّلة ليبثّها إلى العراق. ولكنه كان حصيفاً ومدرباً تدريباً عالياً. فبعد وقت قصير من إلقاء القبض عليه، نجح في الإفلات من حراسه، وألقى بنفسه في مياه الخليج محاولاً الهرب. وعندما رآه أحد الحراس يسبح مبتعداً عن الشاطئ، أطلق عليه النار فأرداه قتيلاً.

وبوجه عام، كنّا نعرف عن قوات صدام أكثر مما يعرف هو عن قواتنا، إلاّ أن بعض الجوانب كانت لا تزال غامضة. فعلى سبيل المثال، لم يكن هناك اتفاق في تقدير التحالف لعدد القوات العراقية الموجودة في مسرح العمليات في الكويت. وكان ذلك مَثَار خلاف ونقاش حتى بعد انتهاء الحرب. قدَّرت مصادر الاستخبارات ذلك العدد بـ ٥٤٧ ألفاً. ويبدو لي أن تلك المصادر حصلت على هذا الرقم بحاصل ضرب عدد الفِرق العراقية التي كانت موجودة في مسرح الكويت في عدد الأفراد المفترَض أن تضمهم كل فرقة، أو في العدد الذي كان موجوداً في كل فرقة أثناء الحرب على إيران. ولكن الأبحاث والدراسات التي تَلَت الحرب، أشارت إلى أن تلك التقديرات كانت مبالغاً فيها إلى درجة كبيرة،

وأن عدد القوات العراقية عند بداية الحرب البرية لم يكن يزيد على ١٨٣ ألفاً(*).

ولأننا لم نكن نعرف بوجه اليقين عدد العراقيين في مسرح العمليات الكويتي، فقد توقَّعنا معركة شرسة. وكانت فكرة اختراق الدفاعات العراقية، ثم محاولة استرداد مدينة الكويت، في قتال من بيت إلى بيت، من الأمور المقلِقة حقاً.

كان اللواء سلطان المطيري، قائد مركز القيادة المتقدم في المنطقة الشرقية (الذي أبلى بلاءً حسناً في معركة الخفجي) قلِقاً، وهو مُحقّ، بعد أن درس حقول الألغام والخنادق ومصائد الدبابات التي كان على قواتنا مواجهتها. كنّا نعاني نقصاً شديداً في معدات إزالة الألغام وفتْح الثغرات، بينما كانت قوات مشاة البحرية الأمريكية إلى يسارنا أكثر تجهيزاً منّا في هذا المجال. واستفسر اللواء سلطان في أحد اجتماعاته إلى الفريق والتر بومر، قائد مشاة البحرية الأمريكية، عن نسبة الخسائر التي يتوقعها أثناء عملية اختراق الخطوط الدفاعية العراقية. وكان رد بومر متشائماً، إذ قال إنه بناءً على تقارير مهندسِيْه، من المحتمل أن تكون نسبة الخسائر مرتفعة. واستبد القلق باللواء سلطان حين علم أن مشاة البحرية الأمريكية لن يكون في وسعهم الاستغناء عن أي من معداتهم الخاصة بإزالة الألغام وتفجيرها.

كان شوارتزكوف قد عرض عليّ، قبل ذلك، مساعدة قادة وحدات مشاة البحرية. وكان اقتراحه، بسبب نقص معدات الاقتحام لدينا ولتقليل الخسائر، أن تتقدم مشاة البحرية أولاً فتفتح الممرات في الدفاعات العراقية، ثم تتْبعها قواتي بعد ذلك. ولكني رفضت ذلك العرض رفضاً باتاً، وصمَّمت أن تكون القوات

(*) See Les Aspin and William Dickenson of the U.S. House of Representatives Committee on Armed Services, *Defense for a New Era: Lessons of the Gulf War*, U.S. Government Printing Office, Washington DC, 1992, p. 33.

توصل ليس أسپن (الذي شغل منصب وزير الدفاع لفترة قصيرة في حكومة بيل كلينتون) ووليام ديكينسون إلى هذا الرقم (١٨٣,٠٠٠)، بالطرح من الرقم ٥٤٧,٠٠٠ الأرقام التالية:

- ١٨٥,٠٠٠ انخفاض العدد في الوحدات العراقية قياساً على الأعداد القياسية.
- ١٥٣,٠٠٠ حالة فرار من صفوف القوات العراقية.
- ١٧,٠٠٠ جريح جراء الحرب الجوية.
- ٩,٠٠٠ قتيل جراء الحرب الجوية.

ولما كانت الأرقام أعلاه تعتمد، هي الأخرى، على التخمين، فربما كانت القوات العراقية في مسرح عمليات الكويت أقل من ١٨٣,٠٠٠.

السعودية في الطليعة وأن تتولى بنفسها عملية فتْح الثغرات وتجهيز الممرات. ولا مانع بعد ذلك أن تتبعنا قوات مشاة البحرية الأمريكية، إن أرادوا!

خصَّصنا لهذه المهمة المنتظرة، كتيبتين سعوديتين من المهندسين العسكريين. أمضَت الكتيبتان أسابيع طويلة، في الصحراء، في التدريب تحت ظروف واقعية أقرب ما تكون إلى الظروف الحقيقية، بما في ذلك التعامل مع الألغام الحية والشِّراك الخداعية. وتم بناء الموانع على غرار تلك التي يتحصن خلْفها العراقيون، وأجْرت قواتي تدريبات على عبور تلك الموانع مرتين أثناء النهار ومرة أثناء الليل. ولتدعيم فريق فتْح الثغرات، ألحقتُ كتيبة مهندسين سورية على القوات السعودية. وأصدرت تعليماتي للبحث في كل مكان عن المعدات اللازمة للاقتحام. واستطعنا أن نشتري من مصر وتركيا أعداداً لا بأس بها من تلك المعدات الضرورية.

قبل أيام من بدء الحرب البرية، تحركت قوات مشاة البحرية الأمريكية، في اتجاه الغرب قليلاً، واتخذت مواقع هجومية أقرب إلى قاعدة أحمد الجابر الجوية في الكويت، إذ كانت هذه القاعدة الجوية من أوْلى الأهداف المخصَّصة لها. ونتج من هذا التحرك وجود ثغرة عرضها ٤٠ كيلومتراً بين الجانب الأيمن لقوات مشاة البحرية والجانب الأيسر للقوات المشتركة في المنطقة الشرقية. وكان اللواء سلطان يخشى أن ينتهز العراقيون تلك الفرصة، إن كانت لا تزال لديهم العزيمة على القتال، فيشنّون هجوماً عبر تلك الثغرة، ويلتفون على جانبنا الأيسر. وعندما أثار اللواء سلطان هذه المخاوف مع الفريق بومر، أخبره أن مشاة البحرية ليس لديها القوات الكافية أو القوة الجوية اللازمة للدفاع عن تلك المنطقة، وأنها، بالمثل، لا تستطيع تقديم «الإسناد الجوي القريب» إلى وحداتنا أثناء تقدُّمها على الساحل نحو الكويت. وبدا الموقف مشابهاً تماماً للموقف الذي واجهناه في بداية معركة الخفجي. واضطررت إلى التدخل ومناقشة هذا الأمر مع شوارتزكوف وهورنر، لكي أتأكد من تأمين «الإسناد الجوي القريب» اللازم، وأن التنفيذ يسير طبقاً للخطط التي وقَّعناها من قبل.

ولعل الهدف من كل هذه التفاصيل التي ذكرتها، أن أوضح أنه على الرغم من حصول الاستخبارات الأمريكية على معلومات عن الفعالية القتالية للقوات العراقية قبل الحرب البرية، إلاّ أن هذه المعلومات لم تصل بالسرعة الكافية إلى من هم في حاجة إليها. فلم تتوافر لدى قادة الوحدات في الخطوط الأمامية

معلومات كاملة ودقيقة عن آثار الحملة الجوية على القوات العراقية المواجِهة لهم، ولذا فإنهم كانوا يتوقعون أسوأ الاحتمالات. وكان مجرد التفكير في إرسال رجالنا لِيَلقوا حتفهم في حقول الألغام أمراً جدّ مؤرقٍ، شغلني واللواء سلطان كثيراً. كنت أتوقع أن أفقد أكثر من مائتين من رجالي. وكما سبق أن ذكرت، كانت مهمتنا أخطر بكثير من مهمة الفيلق الثامن عشر أو الفيلق السابع، المزوَّدَين بالطائرات العمودية والدبابات. فالأمر لم يكن يتطلب منهما سوى أن يشقّا طريقهما في صحراء مكشوفة، تكاد تخلو من أية دفاعات.

ولما كانت التقارير المتوافرة لدينا عن حالة الدفاعات العراقية متضاربة، فقد قرَّرنا، قبل بدء الهجوم البري بأربعة أيام، دفْع دورية قتال قوية من الدبابات والمدفعية والقوات الخاصة والمهندسين العسكريين إلى المواقع العراقية. اصطدمتْ الدورية بحقول ألغام ومصائد دبابات على بعد ١٢ كيلومتراً داخل الكويت. وعلى الرغم من أن تلك القوة تعرضت لنيران المدفعية، فقد تمكَّن أحد مهندسينا العسكريين، ومعه فصيل من ٣٠ فرداً، من رفْع الألغام يدوياً، ونجحوا في فتْح ثغرة عرضها ٣٠ متراً بعمق ١٥٠ متراً تقريباً. والتقطت تلك القوة «فِيْلْماً» للموقع قبل عودتها ومعها ٧٠ لغماً، مما أثار دهشة ضباط الارتباط الأمريكيين الملحقين على قواتنا. وفي اليوم التالي، تمكَّنتْ دورية استطلاعية أخرى من فتْح ثلاث ثغرات وعادت إلى مواقعها ومعها ٦٠٠ لغم! ثبت أن رفْع الألغام يدوياً أكثر فعالية من إرسال طائرات B-52 مثلاً، لقصف حقول الألغام بالقنابل، إذ اكتشفنا أن القصف كان يؤدي إما إلى قَلْقَلَة الألغام أو دفْنها أو إظهارها، ولكنه لا يُفَجرها في كل الحالات.

كان لتلك العمليات الجريئة، التي استهدفت رفع الألغام في الليلة السابقة على الحرب البرية، دورها الكبير في بثّ الثقة في النفوس ورفْع الروح المعنوية إلى أبعد الحدود.

وفي تلك الأثناء، نجحت إحدى وحداتنا، أثناء تنفيذها عملية «الاستطلاع بقوة»، في الاستيلاء على «النويصيب»، وهو مركز حدودي كويتي مقابل الخفجي. وكانت تلك أول أرض كويتية تتحرر من الاحتلال العراقي. سألني اللواء جابر خالد الصباح، القائد الكويتي، مجاملة منه، إن كان في إمكانه رفْع العلمَين الكويتي والسعودي على النويصيب. ولكنني صمَّمت ألاّ يرتفع فوق أرض الكويت إلاّ العلم الكويتي وحده. وأرسلت فرقة موسيقى عسكرية سعودية

للاشتراك في مراسم الاحتفال برفْع العلم الكويتي وصمَّمت، مرة أخرى، ألاَّ تعزف تلك الفرقة سوى السلام الوطني الكويتي وحده، وليس السلامين الوطنيين الكويتي والسعودي، كما اقترح ذلك اللواء جابر في أدب جم.

لم تعبُر قوات التحالف إلى الأراضي الكويتية المحتلة في تزامن واحد، إذ تمَّت الحرب البرية على مراحل متتابعة. ففي الرابعة صباحاً من يوم ٢٤ فبراير، وهو «اليوم الأول للقتال»، بدأت قوات مشاة البحرية الأمريكية، إلى الغرب من قواتنا، فتْح الثغرات في الدفاعات العراقية. وفي الوقت نفسه، تمكنتْ القوات المشتركة في المنطقة الشرقية من فتْح ستة ممرات في الدفاعات العراقية أيضاً جنوبي الكويت، بينما تقدم اللواء الثاني من الحرس الوطني السعودي بقيادة العقيد تركي عبدالمحسن الفرم على الطريق الساحلية إلى الخفجي بمهمة الدفاع عن المدينة. وكانت كتيبة من مشاة البحرية السعودية، بقيادة العقيد عمار القحطاني، تتولى حماية الجانب الأيمن لقواتنا (المواجِه للخليج). وعلى بعد نحو ٥٠٠ كيلومتر، في الجناح الغربي من الجبهة، اندفعت الفرقة السادسة المدرعة الخفيفة الفرنسية، والفرقة ٨٢ المحمولة جواً، والفرقة ١٠١ اقتحام جوي، إلى الأمام في حركة التفاف لتقطع خطوط المواصلات على نهر الفرات وتقطع طريق الهرب على العراقيين.

كان مقرَّراً أن يبدأ الهجوم الرئيسي في وسط الجبهة بالفيلق السابع الأمريكي والفرقة الأولى المدرعة البريطانية، بعد ٢٤ ساعة من بدء الهجوم البري، أي في «اليوم الثاني للقتال»، متزامناً مع هجوم القوات المشتركة في المنطقة الشمالية، وهي القوات المصرية والسورية والسعودية والكويتية.

اخترقت القوات المشتركة في المنطقة الشرقية، ومشاة البحرية الأمريكية إلى الغرب منها، خط الدفاع العراقي الأول بسرعة كبيرة دون أن تواجهها مقاومة تُذكر. وفي ضحى يوم ٢٤ فبراير، وجدت تلك القوات نفسها محصورة بين خطَّيْ الموانع الأول والثاني، وكانت تخشى أن تصبح هدفاً للمدفعية العراقية، أو أن يبادرها العراقيون بهجوم مضاد من الشرق أو من الغرب. وكان السؤال الذي طرح نفسه، هل تواصل القوات تقدمها وتهاجم خط الموانع الثاني؟ كانت الإجابة عن هذا السؤال تعتمد بشكل رئيسي على مدى توافر المساندة الجوية. كما كان

على تلك القوات التأكد من أن العراقيين لا يقومون بالتجمع استعداداً لشنّ هجوم مضاد.

وفي مثل ذلك الوقت من السنة، تُهب الرياح عادة من الشمال الغربي في اتجاه الجنوب الشرقي وتكون السماء صافية. لكنّ المطر انهمر بغزارة يوم الهجوم، وتلبَّدت السماء بالغيوم. يضاف إلى ذلك، أن سُحُب الدخان السوداء التي كانت تتصاعد من آبار النفط الكويتية حَدّت من مدى الرؤية الأفقية إلى ١٠٠ متر فقط. وكان على قواتي وقوات مشاة البحرية الأمريكية أن تتريث قليلاً وتتخذ الاحتياطات اللازمة، قبل الهجوم على عدو متفوِّق عدداً وفي ظروف جوية رديئة ورؤية محدودة. وكانت تقارير الاستخبارات الأمريكية تشير إلى أننا سنواجِه ما بين ٩ إلى ١١ فرقة عراقية. كانت تلك هي الظروف التي تحيط بالقرار السريع الذي كان علينا أن نتخذه ذلك الصباح، هل تهاجم القوات خط الموانع الثاني أم لا؟

وفجأة، تَغَيّر اتجاه الريح، وبدأت تهُب من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. وتحسنت الرؤية الأفقية بشكل ملحوظ خلال ساعة واحدة. وبدأت طائرات التحالف تشنّ هجمات مكثَّفة على المواقع العراقية. أدّى هذا التغيُّر في الظروف الجوية إلى إبعاد الدخان الكثيف والأبخرة السامة. المتصاعدة من النفط المشتعل والغازات الخانقة الأخرى، من فوق خطوطنا. وأيقنت أنه حتى إن أقدم صدام على استخدام الأسلحة الكيماوية، فإن التغير في اتجاه الرياح سيجعل قواتي في منجّى منها ويوقِع قوات صدام في مغبَّة أعماله. وشعرت في تلك اللحظة بأن الله معنا وناصرنا ونزلت على قلبي سكينة وراحة بدّدتا كل مخاوفي. ولولا أن أدركتنا رحمة الله في تغير اتجاه الرياح صبيحة ذلك اليوم، لوجدتْ قواتي وقوات مشاة البحرية الأمريكية نفسها في وضع لا تحسد عليه.

لا شك أن وَقْع ضربات التحالف الجوية كان عنيفاً من الناحيتين النفسية والمادية. فالقوات العراقية كانت تواجِه مأزقاً حرجاً منذ بداية الحرب، كأنما يأتيها الموت من كل مكان. فهي هالكة إذا ظلّت في حصونها، هالكة إذا غادرتها، هالكة إذا فتحت نيران مدفعيتها الثقيلة. أمّا إذا حاولت الفرار في اتجاهنا، فكانت كتائب الإعدام الصدّامية تقف لها بالمرصاد.

تقدمت قواتنا ونجحت في اقتحام خط الموانع الثاني، قبل حلول ظلام يوم ٢٤ فبراير، ومع أنها تعرضت لنيران المدفعية، إلاّ أن جنود المشاة العراقيين كانوا

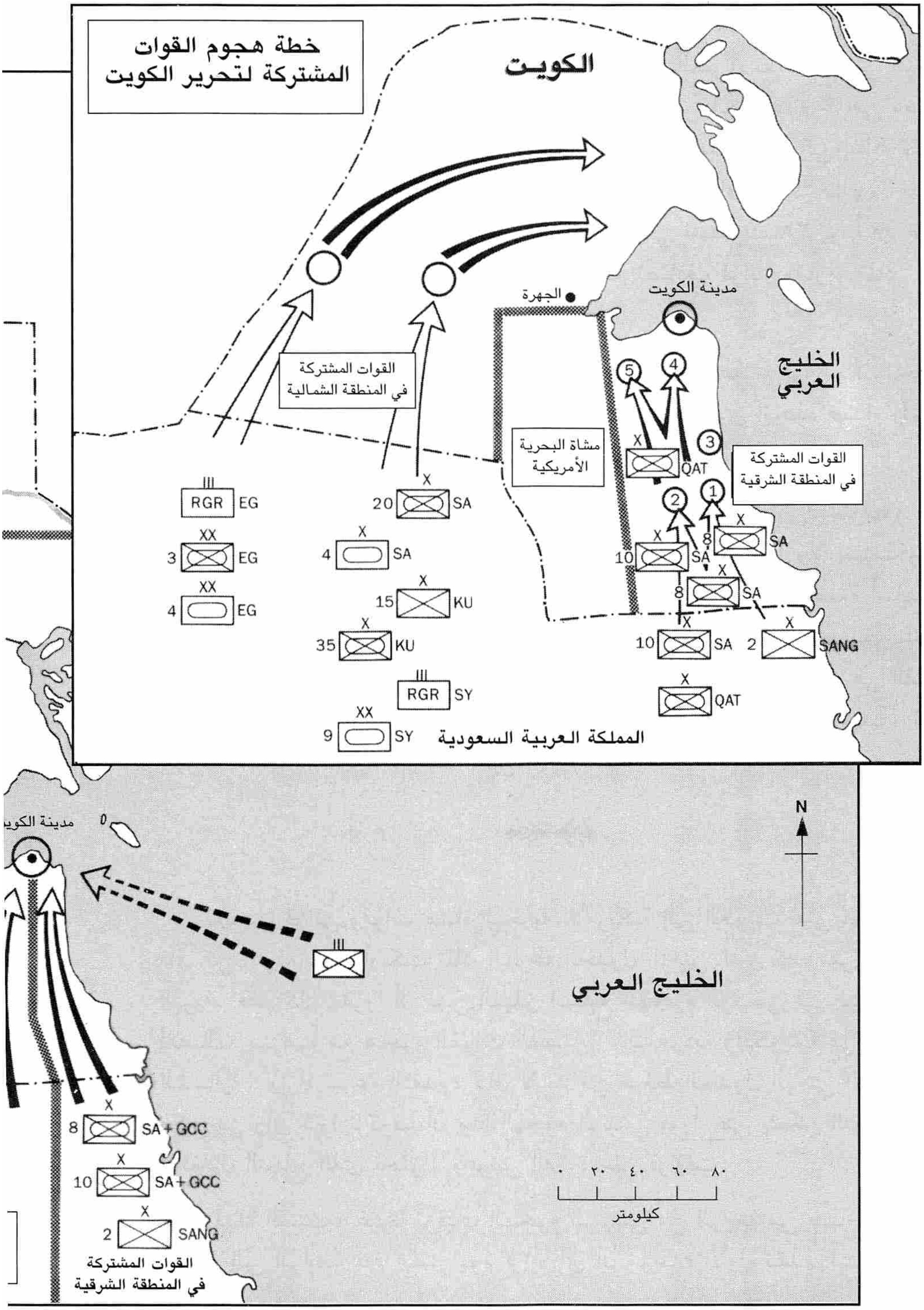
يسارعون إلى الاستسلام، سوى نفر قليل منهم، عندما تقترب قواتنا من مواقعهم. وسارت الأحداث، في اليوم التالي، على المنوال نفسه. وعلى الرغم من حدوث بعض المعارك المحدودة، إلاّ أن التوجُّس من هجوم عراقي مضاد تبخر ولم يعد له وجود. أصبحت المشكلة التي تواجهنا وأدَّت إلى إبطاء تقدم قواتنا، هي التعامل مع الأعداد الكبيرة من الأسرى العراقيين وترحيلهم خلْف خطوط القتال. بدا واضحاً أن الحملة الجوية التي استمرت ٣٨ يوماً قد آتت ثمارها وأحدثت تدميراً فاقَ كل تقديراتنا. فلم تصادف قواتنا مقاومة تذكر من الفِرق العراقية التي أدركت أن الحرب قد انتهت.

في منتصف ليلة الخامس والعشرين من فبراير، أمر صدام قواته بالانسحاب من الكويت. وكان هذا هو القرار الوحيد الصائب الذي اتخذه صدام طوال الأزمة، ولكن قواته في ذاك الوقت كانت تلُوْذ بالفرار.

يقال دائماً إن أكثر الناس بُغضاً للحرب هم العسكريون الذين يشنّونها، ولا يعرف مَثَالِب الحرب إلاّ من عاشها وعايشها واكتوَى بنارها، ولا ينبئك مثل خبير. لمست بنفسي قسوة الحرب ووجْهها القبيح عقب نهايتها ببضعة أسابيع، أثناء زيارتي إلى مستشفى يعالج فيه ضباط وجنود تعرّضوا لحروق شديدة، بينهم الرقيب يحيي أحمد محمد البارقي، من سلاح المهندسين، الذي فَقَدَ في القتال كلتا عينيه ويديه. ظهر لي جلياً، في تلك الزيارة، شبح الحرب المخيف، كما ظهرت الشجاعة النادرة لأولئك الذين خاضوا غمارها.

تقدمت قواتي وقوات مشاة البحرية الأمريكية إلى الكويت على نحو سريع فاقَ كل التوقعات. فأربكتْ تلك السرعة الجدول الزمني الذي كان مقرّراً للحملة البرية. فقد كان مقرّراً أن يشنّ الفيلق السابع الهجوم الرئيسي في اليوم الثاني للقتال، متزامناً مع هجوم القوات المصرية والسعودية والكويتية في المنطقة الشمالية. وإزاء سرعة التقدم، كان لا بد من ضغط الجدول الزمني الأساسي. وكان من رأي شوارتزكوف أن يبدأ الهجوم الرئيسي فوراً حتى يتمكن التحالف من استغلال النجاح الذي تحقَّق. وعرض الفكرة عليّ فوافقت.

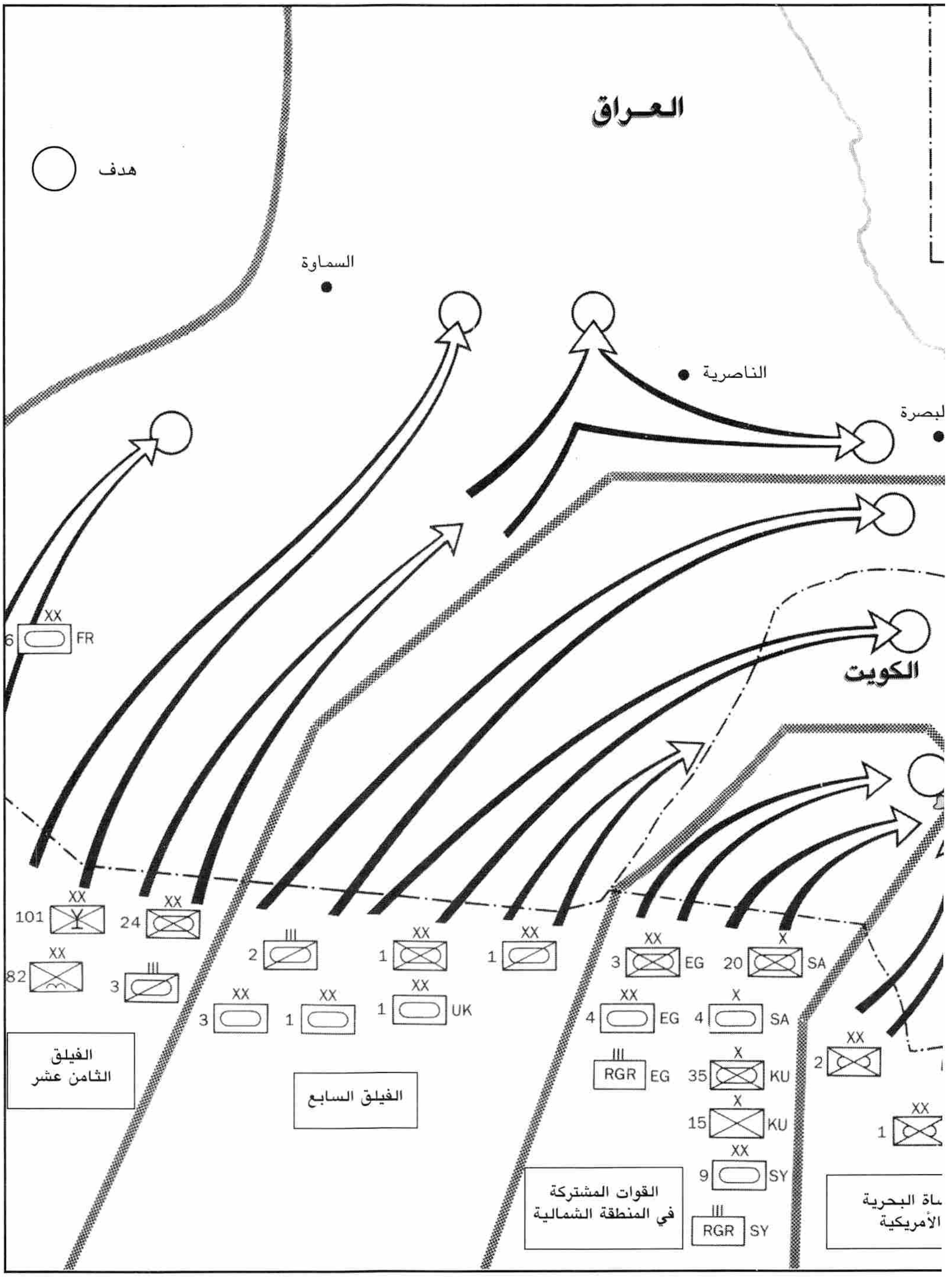
لهذا السبب، غيّرنا توقيت الهجوم الرئيسي من الرابعة من صباح يوم ٢٥ فبراير إلى الرابعة من عصر يوم ٢٤، أي أن موعده الأول تقدَّم اثنتي عشرة



خطة هجوم القوات
المشتركة لتحرير الكويت
الكويت
الجهرة
مدينة الكويت
الخليج العربي
القوات المشتركة في المنطقة الشمالية
مشاة البحرية الأمريكية
القوات المشتركة في المنطقة الشرقية
RGR EG
3 EG
4 EG
20 SA
4 SA
15 KU
35 KU
RGR SY
9 SY
QAT
10 SA
8 SA
8 SA
10 SA
2 SANG
QAT
المملكة العربية السعودية
N
الخليج العربي
8 SA + GCC
10 SA + GCC
2 SANG
القوات المشتركة
في المنطقة الشرقية
٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠
كيلومتر

عاصفة الصحراء

العمليات البرية من ٢٤ - ٢٨ فبراير ١٩٩١



ساعة. أصدرت وشوارتزكوف الأوامر اللازمة، كلٌ إلى قواته، وانتظرنا التنفيذ. لكن شيئاً لم يحدث. ظل كل شيء ساكناً. وبدت لنا، على أرض الواقع، صعوبة تغيير الجدول الزمني على نحو مفاجىء لقوة مقاتلة بهذه الضخامة.

يقتضي تحرك قوة رئيسية في وقت معين، يطلق عليه في الاصطلاح العسكري «سعت - س»، التأكد من تنفيذ مجموعة خطوات كثيرة ومتسلسلة، يتِم بعضها بالتوالي والآخر بالتوازي، بدءاً بإرسال دوريات الاستطلاع إلى تجهيز الإمدادات، من الطعام والوقود والذخيرة، وانتهاءً بالتثبُت من الاستعداد البدَني للقوات مثل منحها راحة إجبارية قبل الهجوم. ومن الصعوبة بمكان على أي جيش في العالم أن يختصر تلك القائمة الطويلة من الخطوات الأساسية الضرورية.

كان عليّ أن أتعامل مع اللواء صلاح حلبي، قائد الفيلق المصري، وعلى شوارتزكوف أن يتعامل مع اللواء فْرِيدْ فرانكس Fred Franks، قائد الفيلق السابع. وكانت المصاعب التي واجهتنا متشابهة إلى حدٌ كبير.

كنت أعلم، أن شوارتزكوف لم يكن على وفاق مع فْرِيدْ فرانكس. كان الرجلان مختلفين في كل شيء، بل قُلْ إن شئت على طرفي نقيض. كان شوارتزكوف ضخماً، ومنفتحاً على الآخرين (منبسطاً)، سريع الغضب. بينما كان فرانكس هادئاً وأكاديمياً ومفكراً. خدم طويلاً ضمن القوات الأمريكية المتمركزة في أوروپا، إذ كان مدرباً على قتال جيوش الاتحاد السوفيتي الضخمة. كان فرانكس يحرِص على التأكد، قبل التحرك، من أن جميع أصناف الإمدادات والتموين في مكانها، وأن العدو لن يستطيع تنفيذ هجمات مضادة. ولكن قتال العراقيين يتطلب السرعة والإقدام أكثر مما يستدعي الحيطة والحذر. إذ كان جل همِّهم النجاة بأرواحهم، وليس التصدي لأعدائهم.

بعد تخطيط عمليات درع الصحراء وتنفيذها، حلَّ اللواء صلاح حلبي محل اللواء محمد بلال، الذي كان يتميز بالحنكة السياسية، قائداً للقوات المصرية. كان اللواء حلبي قائداً ذا كفاءة عالية، إذ قاد الجيش الثالث الميداني في مصر الذي يتألف من أربع أو خمس فِرق. وكان متفهماً تماماً لطبيعة مهمته في المملكة، فدرّب قواته بكل عناية واقتدار، وحرِص على تأدية عمله بكل مهارة وإصرار.

كان اللواء صلاح حلبي قلِقاً للموانع التي ستواجهها قواته، لا سيما الخنادق

المملوءة بالنفط بعد أن يضرم العراقيون فيها النار. كان حريصاً على تقليل الخسائر، ويحسب حساباً للهجمات المضادة العراقية المحتملة، لذا تحرك ببطء.

وفي تلك الساعات العصيبة من بعد ظهر يوم ٢٤ فبراير، أخبرني شوارتزكوف أنه قد يرسل بعض القوات من الفيلق السابع إلى القطاع الذي تتمركز فيه قواتي في المنطقة الشمالية، لحماية الجانب الأيسر لقوات مشاة البحرية الأمريكية. لم آخذ عرضه ذاك مأخذ الجد، لاعتقادي أنه يدرك أننا سنتولى تصحيح الوضع بأنفسنا. كنت أعرف أن تغيير الجدول الزمني قد أَرْبَك خطط اللواء صلاح، لكنني طلبت منه أن يبدأ التحرك على الفور. فلم أشأ أن يسجل التاريخ أن القوات المصرية، التي يشهد لها القاصي والداني بالكفاءة و«الاحترافية»، تأخرتْ في اختراق الدفاعات العراقية.

في تلك الأثناء، كان ما تبقّى من الفيلق الثالث العراقي قد تراجع إلى مدينة الكويت بشكل فوضوي، واشترك مع قوات الاحتلال الموجودة بالمدينة في عمليات السلب والنهب، فاستولى الجنود العراقيون على كل ما وصلت إليه أيديهم، بما في ذلك العربات العسكرية والمدنية، وتفرقوا أشتاتاً يتسابقون إلى الخروج من مدينة الكويت على الطريق السريعة الشمالية. وتوقفت حركة المرور التي كانت تسودها الفوضى والذعر بفعل الضربات الجوية التي وقَعتْ بعد ظهر يوم ٢٦، ثم القصف العنيف في صباح يوم ٢٧، حتى أُطلق على تلك الطريق تسمية «طريق الموت»، وكانت تلك هي النهاية المأساوية الدامية لمغامرة صدام في الكويت.

تمكنَت فرقة مشاة البحرية الأمريكية، قبل فجر يوم ٢٧ فبراير، من السيطرة على مطار الكويت بعد معركة حامية، تُعَد من الاشتباكات القليلة الضارية في ذلك القطاع، ثم تحركت لتأمين منطقة المطلاع التي تشرِف على الطرق المؤدية إلى خارج الكويت. وفي وقت متأخر من صباح ذلك اليوم، وبعد أن خَلتْ مدينة الكويت من الجيش العراقي المتقهقر، دخلت القوات المشتركة في المنطقة الشمالية مدينة الكويت من جهة الغرب، دون أن تعترضها أية مقاومة، ثم التحمت بالقوات المشتركة في المنطقة الشرقية، التي حقَّقَتْ أهدافها جنوب المدينة. وكانت المقاومة العراقية في تلك المنطقة شبه معدومة. تفرقت القوات العراقية بين فارٍّ وقتيلٍ وجريح، وأسيرٍ في قوافل الأسرى الطويلة التي اتجهت جنوباً. وكان مجموع الأسرى الذين أخذتهم قواتي وحدها نحو ٢٥ ألف أسير، ومجموع الأسرى الذين أخذتهم قوات التحالف ٩٠ ألف أسير تقريباً.

وعلى الجانب الأيسر من الجبهة، نفّذ الفرنسيون والأمريكيون والبريطانيون هجوماً تحول، في حقيقة أمره، إلى تمرين واسع النطاق ضد الجيش العراقي المتهالِك الذي فقد قدراً كبيراً من كفاءته القتالية، إن لم يكن قد فقدها كلها. فعلى سبيل المثال، اندفعت الفرقة ١٠١ اقتحام جوي، وتسمّى «النسور الصارخة»، نحو نهر الفرات وقامت بأكبر عملية نقل جوي بالطائرات العمودية يشهدها التاريخ، لكنها كانت ضد عدو يائس مستسلم. وفي المرات القليلة التي حاول العراقيون فيها الصمود والتصدي، انهالت عليهم نيران أسلحة التحالف الحديثة العالية التقنية من حيث لم يحتسبوا فقضَت عليهم، حتى إنهم لم يتمكنوا من رؤية أعدائهم. وكان القائد الفرنسي الفريق روكجوفر أول قائد ميداني في العصور الحديثة، على حدّ علمي، يأخذ الأسرى بنفسه! فعندما كان عائداً من إحدى جولاته الاستطلاعية في طائرة عمودية، رأى مجموعة من الجنود العراقيين فهبط بطائرته وقَبِلَ استسلامهم وأخذهم أسرى.

كنت متردداً وشوارتزكوف في بدء الحرب البرية، قبل أن يتأكد لنا أن القوات العراقية قد استُنْزِفت بالقدر الكافي بفعل الحملة الجوية. وفجأة، تغيرت الحال، بعد أن بات واضحاً أن العراقيين قد خارَتْ قواهم، فأردنا التعجيل بالعمليات البرية. كانت هناك صيحة يتردد صداها في أرجاء مركز العمليات: «تقدم، طارد، استغل النجاح». أصبحت المهمة الأساسية للحملة البرية هي أَخْذ الأسرى ودفْن الموتى. لذا، أَلْحقت، قبل الحرب البرية، على كل لواء أو كتيبة أمريكية أو بريطانية أو فرنسية حضيرة (جماعة) من الجنود السعوديين قوامها ١٢ فرداً، مهمتهم دفْن القتلى العراقيين حسبما تقتضي الشريعة الإسلامية.

عندما وصلت القوات المشتركة، في المنطقتين الشرقية والشمالية، إلى مشارف مدينة الكويت أصدرتُ الأوامر إلى كلٍّ من اللواء سلطان المطيري، قائد مركز القيادة المتقدِّم في المنطقة الشرقية، واللواء سليمان الوهيب، قائد مركز القيادة المتقدِّم في المنطقة الشمالية، في شأن ثلاثة أمور عسكرية ذات مغزى سياسي:

الأمر الأول وهو أهمها، أن يشكل اللواء سلطان «قوة واجب» تضم وحدات ممثِّلة للمملكة وباقي دول مجلس التعاون الخليجي، ويشكل اللواء سليمان ،هو الآخر، «قوة واجب» تضم وحدات ممثِّلة لمصر وسوريا والكويت والمملكة. وكانت مهمة «قوتَيْ الواجب» هاتين دخول مدينة الكويت من الجنوب والغرب حيث تتقابلان

في مكان محدَّد سلفاً بالقرب من وسط المدينة. والهدف من هذا الأمر هو التأكد من وجود وحدات ممثِّلة لكل القوات العربية التي اشتركت في عملية التحرير. كنت أرغب في أن تحظى كل الدول، بالتساوي، بشرَف مهمة تحرير مدينة الكويت. فلا تَدّعي دولة، فيما بعد، أنها هي التي قامت بالمهمة منفردة، أو أنها كانت الأسبق إلى دخول المدينة قبل غيرها من الدول.

الأمر الثاني، منْع القوات السعودية من التمركز في منطقة الجهرة، وهي منطقة غربي مدينة الكويت شهدت مناوشة عام ١٩٢٠ بين الكويتيين والإخوان(*) الذين كانوا يتبعون الملك عبدالعزيز. وحتى لا أُثير الذكريات القديمة من مكامِنها أسندت إلى القوات المصرية مهمة دخول ذلك القطاع.

أمّا الأمر الثالث، فمنعت بموجبه قِطَع البحرية السعودية من الاقتراب من بعض الجزر القريبة من الشاطئ، حيث كانت السيادة عليها لا تزال محل تفاوض بين المملكة والكويت. ولم أشأ أن يعتقد أحد أننا نستغل الموقف لمصلحتنا.

أصدرت تلك الأوامر الثلاثة من موقع مسؤوليتي قائداً للقوات المشتركة، ولكنها في جوهرها كانت أبعد معنًى وأعمق مغزًى، مما يصدره القادة في الحروب عادة من أوامر أو قرارت. كانت ترجمة صادقة لتبعة الثقة الكاملة التي أولاَني إياها صاحب السمو الشيخ جابر أمير الكويت، ولا يزال صداها يتردد في أذني «أنت تفصل، وحِنّا نلبس». كما كانت، قبل ذلك، تأكيداً لثقة مليكي بقيادتي وبأني لن أزُجَّ بالمملكة في حساسيات، كنّا في غنىً عنها في تلك الظروف. كانت الأوامر الثلاثة، في معناها ومبناها، تجسيداً للأمانة التي أنوء بحمْلها مجاهداً ألاّ أكون إزاءها ظلوماً أو جهولاً.

(*) الإخوان، اسم يُطلق على رجال القبائل البدوية الذين تركوا حياة الترحال واستقروا، بتشجيع من الملك عبدالعزيز، في مستوطنات سمُّوْها «هِجَر»، ومفردها «هجرة» إشارة إلى هجرهم نمط حياتهم الأولى. وتسمّوا بالإخوان، إشارة إلى أخوتهم الدينية بدلاً من العصبية القبلية التي درجوا على التمسك بها. والأمر الذي دفعهم إلى تغيير نمط حياتهم تلك، هو اقتناعهم بأن حياة البادية لا تتماشى مع حرصهم على التفقُّه في الدين وإقامة شعائره على الوجه الصحيح. أسهم الإخوان مع الملك عبدالعزيز في جهاده لتوحيد المملكة، وكانوا عاملاً حاسماً في ترجيح كفته على كفة خصومه. ومن أبرز زعمائهم، فيصل الدويش، شيخ قبيلة مطير الذي استقر في هجرة الأرطاوية، وسلطان بن بجاد بن حميد، أحد شيوخ قبيلة عتيبة، الذي استقر في هجرة الغطغط. غير أن بعض فئات الإخوان جنحت في آخر المطاف إلى الغُلوّ، وعانت البلاد تشدّدها، إلاّ أن الملك عبدالعزيز تمكّن، بحزمه وحنكته، من السيطرة على الموقف. ويُعَد توطين الإخوان من أولى الخطوات التي خطتها المملكة نحو توطين البادية.

دخلت القوات المشتركة مدينة الكويت، تصاحبها قوات المقاومة الوطنية الكويتية، التي ظهرت علناً على مسرح الأحداث بعد رحيل العراقيين، وسط هتافات وتصفيق وتهليل الجموع المبتهجة من السكان الذين مروا بمِحْنَة قاسية تعجز عن وصفها الكلمات.

دُهشتُ حين أخبرني شوارتزكوف، صباح يوم ٢٥ فبراير، أنه من المحتمل أن يتلقّى، بعد قليل، أمراً من الرئيس بوش بوقْف الحرب. صحيح أن القوات العراقية، في ذلك الوقت، كانت تلُوْذُ بالفرار من الكويت، ولكن معارك التحالف مع فِرق الحرس الجمهوري العراقية إلى أقصى الغرب، لا تزال حامية الوطيس، كما كان جزء كبير من آلة صدام العسكرية لا يزال سليماً لم يلحَق به أذى. وفي ذلك الوقت، تسبَّب سقوط صاروخ سكود عراقي على الثكنات الأمريكية في الظهران، بشكل غير مباشر، بتأجيل إعلان وقْف إطلاق النار لبضعة أيام. ولم يصدر قرار الرئيس بوش بوقْف العمليات العسكرية إلاّ في الثامنة من صباح يوم ٢٨ فبراير، وحتى ذلك الوقت كان هناك من يرى أن إطالة أَمَد الحرب ٢٤ ساعة أخرى كان من شأنه إتمام نصر التحالف وإبرازه.

كانت الحرب البرية أسهل بكثير مما تخيلنا. فلم يكن ثمة وجه للمقارنة بين القوات على الجانبين. كان في الجانب العراقي جنود مجنَّدون تجنيداً إلزامياً، وغير مدربين، ويتقوقعون في مواقع دفاعية ثابتة دون غطاء جوي، انقطعت بهم السبُلُ، حتى قبل أن تبدأ الحرب البرية، حين تعرّضوا للتدمير بسبب أعنف حملة جوية في تاريخ الحروب. أمّا في جانبنا فكان هناك، فضلاً عن الجيوش الأخرى، الجيش الأمريكي الذي بُني ليحارب السوفيت ويهزمهم، والذي أُعِيدَ تشكيله بل تحديثه على نحو جذري، بعد حرب ڤيتنام، سواء بالعقائد القتالية الجديدة، أو بأحدث تشكيلة من أنظمة الأسلحة والمعدات المتقدمة، مثل طائرات أواكس وقاذفات ستيلث، وطائرات Wild Weasels وصواريخ توماهوك وعربات القتال برادلي ودبابات M1A1 ونظام تحديد المواقع GPS، وغير ذلك الكثير.

غدت خطوط الإمداد على الجانب العراقي مقطوعة، وأضحت البنْية الأساسية للاقتصاد العراقي محطّمة. أما في جانب التحالف، فلم تتأثر عمليات نشْر القوات والإمدادات بأية عمليات عدائية. كانت عمليات التفريغ في الموانئ تتم بيُسْرٍ وسهولة بفضل المعدات الحديثة المتوافرة فيها، وحتى مخازن الإمدادات الأمامية نفسها، لم تكن في حاجة إلى حماية.

وربما كان الفرق الرئيسي بين الجانبين يكمُن في القيادة نفسها. ففي العراق زعيم بات واضحاً، منذ بداية الأزمة، أن نظرته إلى الأمور برُمَّتها كانت خاطئة كل الخطأ. ويبدو أن صداماً كان يعتقد أننا لم نكن جادين في أمر الحرب، وأن التحالف لن يُقدِم على مهاجمته، وأن في وسعه أن يجتاز الأزمة، بل يخرج منها بكسب سياسي. وإلاّ فكيف نجد تفسيراً آخَرَ للعجز الكامل الذي حلَّ به بعد غزوه الكويت؟ فما أن احتلها حتى شرع يتخندق ويتخذ مواقع دفاعية! فشل في استغلال لحظات الضعف التي مرت بالتحالف، سواء في بداية الأزمة، قبل النشر الكثيف للقوات الجوية والبرية، أو قرب نهاية شهر يناير، حينما كانت قوات التحالف تتحرك إلى مواقعها الهجومية التي ستنطلق منها لشنّ الحرب البرية. وفي جانب التحالف، كان القادة السياسيون، مثل الملك فهد والرئيس بوش، مصمِّمين على إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل الغزو، في منطقة الخليج الحيوية، ومصمّمين كذلك على القضاء على الأخطار التي يمثلها العراق، في عهد صدام، على أمن المنطقة كلها. كانوا على أتم استعداد للتضحية في سبيل إنجاز تلك المهمة بكل مرتخَص وغالٍ.

ومع ذلك ، فعندما توقف القتال لم يكن الانتصار كاملاً. فعلى الرغم من أن الفيلق الثامن عشر تحرك مسرعاً، إلاّ أنه لم يتحرك بالسرعة الكافية. كما أن الفيلق السابع لم ينجح في استكمال تدمير الحرس الجمهوري. لذا أفلت صدام من الخِناق. ونجح ١٠٠ ألف جندي من القوات العراقية، وبينهم وحدات كاملة من الحرس الجمهوري، في الفرار إلى البصرة، ومن ثَم من طريق شط العرب إلى القرنة، بينما هرب بعض القوات عبر هور الحمّار. واختفت فِرق عراقية كاملة في الركن الشمالي ـ الشرقي من المسرح. كنّا نعتمد في معرفة مثل هذه الأحداث، بصورة كبيرة، على المعلومات التي تزودنا بها الاستخبارات الأمريكية. ولكن لم يصدر بيان رسمي، يوثَق به، في أمر تقدير الخسائر، وعَمِيَتْ علينا الأنباء. وفي حقيقة الأمر، لم تتوافر لدينا معلومات دقيقة عما حدث في الجناح الأيسر من الحملة البرية. وساد شعور، عند نهاية الأزمة، بأن الولايات المتحدة لم تكن صريحة في شأن المعلومات، وأنها كانت تحتفظ بقدر كبير منها لنفسها. وربما كان ذلك الأسلوب هو النهج المتوقَّع في التعامل مع قوة عظمى.

رأيت، فور علمي بفرار العراقيين من الكويت، أنه من الأفضل تنفيذ خطة أمنية كنت أعددتها من قَبْل لمدينة الكويت. كانت خطة طموحة تقوم على محاصرة المدينة وعزلها، ثم تقسيمها إلى أربعة قطاعات. وبعد أن تُخلى القطاعات من سكانها واحداً بعد الآخر، نرسل القوات لجمع الأسلحة، وإزالة الألغام، والشِّراك الخداعية والموانع الأخرى التي تركها العراقيون، إضافة إلى جمع مخلَّفات الحرب. كما تتم، خلال ذلك، مساعدة السلطات الكويتية على استعادة الخدمات الأساسية كالمياه والكهرباء والصرف الصحي والإمداد بالمواد الغذائية. وقدّرتُ أن مثل تلك العملية يمكِن أن تتم خلال ثلاثة أشهر. ولتوفير مساكن مؤقتة للسكان الذين سيتم إخلاؤهم من منازلهم في كل قطاع من قطاعات مدينة الكويت، أَقَمتُ مدينة من المخيمات في الوفرة شمال غربي الخفجي تتسع لإيواء عدد يتراوح بين ٥٠ و١٠٠ ألف شخص. واستفدنا في إقامة هذه المخيمات من الخيام التي كنّا نحتفظ بها في المخازن لاستخدامها في موسم الحج. سمعنا أحاديث مروّعة عن عمليات التعذيب والتخريب التي ارتكبها العراقيون في الكويت، لذا كنت أشعر أن مساعداتنا ضرورية وستسهم في تضميد الجراح. وكان متوقَّعاً أن تنشأ حالة من الفوضى بسبب الفراغ السياسي بعد تلك الشهور من الاحتلال البغيض. وكنت أتوقع أن تكون هناك كميات هائلة من الأسلحة مخبّأة في الكويت، يمكِن أن تسبب، فيما بعد، مشكلة كبيرة للحكومة الشرعية. وقبل أن أضع خطتي موضع التنفيذ، أردت معرفة الموقف في الكويت، على الطبيعة، من قادة قواتي في الخطوط الأمامية.

قرّرتُ أن أطير إلى مدينة الكويت يوم ٢٨ فبراير، على الرغم من معارضة عدد كبير من أركاني الذين رأوا أن زيارتي إلى الكويت ينبغي أن تتأجل بضعة أيام. وكانت حجتهم أن الوضع في الكويت، عقب تلك الفترة القصيرة من تحريرها، لم يستقر بعد ولا يزال خطيراً. وقبل أن أغادر الرياض متجِهاً إلى رأس مشعاب، حيث كان مقرَّراً أن أقابل وفداً صحافياً هناك، ومن ثَم أنتقل شمالاً في طائرة عمودية، علمت من الأمير سلطان أن الحكومة الكويتية أعلنت حالة الطوارئ وأن الشيخ سعداً ولي العهد عُيِّن حاكماً عسكرياً. وفي ضوء هذا الوضع الجديد، أضحت خطتي الأمنية لمدينة الكويت لا لزوم لها، إذ كان عليّ الآن أن أُسلِّم أمر المدينة إلى أهلها، وهم أدرى بشعابها، وأن أسحب قواتي دون إبطاء.

كان دخولي إلى الكويت خالياً من مظاهر التباهي أو الزهو. وكان من عادتي، خلال المراحل التمهيدية للحرب، أن أصطحب معي مجموعات من

الصحفيين في جولات ميدانية على مسرح العمليات. وكنت أستخدم في تنقلاتي أربع طائرات عمودية أو خمساً، واحدة لي وللقادة المرؤوسين، والثانية لضباط أركاني، والثالثة لطاقم الحراسة، أمّا الرابعة أو الخامسة فللصحفيين حسب عددهم. ولرفْع الروح المعنوية، وتنويع أسلوب تنقلي لأسباب أمنية، كنت لا أستخدم طائرة بعينها في كل رحلة. فإذا رأيت طياراً شاباً، حديث التخرج، يجلس في مقصورة القيادة كنت أقول له: «سأذهب معك!». وكان ذلك ما فعلته يوم ذهابي إلى الكويت. كانت ثلاث طائرات عمودية من نوع سوبر پوما من القوات البحرية السعودية تنتظرني في رأس مشعاب. وكان طاقم الحراسة وبعض من ضباط القيادة قد سبقوني من طريق البر، إذ كان عليهم إقامة شبكة اتصالاتي في الكويت، إلى جانب الترتيبات الأخرى اللازمة. وكان عليّ أن ألحَق بهم في الطائرة العمودية، مع اللواء صالح المُحيا، قائد المنطقة الشرقية، وباقي ضباط أركاني.

وبعد مضي ١٠ ـ ١٥ دقيقة على إقلاعنا، أبلغنا قائد الطائرة التي كانت تسبقنا أنه دخل في سُحُب كثيفة من الدخان المتصاعد من آبار النفط المشتعلة. وكان العراقيون قد فجّروا جميع رؤوس الآبار في برقان وفي حقول البترول الغربية، وطالتنا آثار ذلك العمل الأحمق، إذ أصبحت طائرتنا، هي الأخرى، تسبح وسط دخان كثيف، كأنه قطعة من الليل المظلم. وسمعت عبر سماعات الأذن أن قائد الطائرة التي تسبقنا يتقدم بصعوبة، إذ كان يطير على هدْيٍ من الأجهزة المِلاحية فقط لانعدام الرؤية تماماً، لذا قَرّر العودة إلى رأس مشعاب.

بدا الارتباك على الطيار الشاب الذي كان يقود طائرتنا.

سألته عبر ناقل الصوت (الأنتركوم): «هل كل شيء على ما يرام؟».

فأجاب بصوت متحشرج: «ليس لي أية خبرة سابقة بالقيادة الليلية، ولم أمرّ بتجربة كهذه من قبل». وفي محاولة منه ليرى طريقه من خلال الدخان المشبع بالنفط، قام ببعض المناورات العصبية فاضطربت الطائرة. وأيقنتُ أن الحكمة تقضي بأن نهبط نحن أيضاً بأسرع ما يمكن. أخذت الأفكار تتزاحم في رأسي: أأُقتل في حادث كهذا، بعد أن عشت الحرب ومخاطرها؟».

قلت للطيار: «انظر، لِمَ لا تتجه شرقاً صوب الساحل وتهبط جانب الطريق؟».

ولكن أين نهبط؟ كنت أعرف أن هناك حقول ألغام غير محدَّدة المعالم. وما

هي إلاَّ لحظات حتى ظهرت طريق الكويت ـ الخفجي، والدبابات والشاحنات تسير في كلا الاتجاهين، لذا لم يكن في وسعنا أن نهبط على الطريق نفسها.

فوجَّهت الطيار أن يستمر في التحليق حتى نعثر على موقع مناسب للهبوط خالٍ من الألغام. وجدنا موقعاً على بعد ٥٠ متراً من الطريق. وهبطنا بسلام. كنت أَهم بالنزول من الطائرة عندما قفز العقيد الأمير تركي بن عبدالله، قائد كتيبة الشرطة العسكرية، الذي سبقني ورفض رفضاً قاطعاً أن أطأ الأرض بقدمي. وصمَّم أن يتجول في المكان ليتثبت من عدم وجود أية ألغام. وكانت تلك لمسة مؤثِّرة من الشجاعة والإيثار تركت أثراً عميقاً في نفسي. ولَمّا كنّا قد هبطنا نحو الساعة ١٢ ٣٠ فقد وجدت أن خير ما نفعله أن نبادر إلى صلاة الظهر جماعة.

وبعد أن كنّا نركب طائرة تزاحم الفضاء، كان علينا أن نستوقف سيارة لنطلب «توصيلة»! ذهب العقيد أحمد لافي، مرافقي العسكري، والعقيد عبدالله السويلم، مدير مكتبي، إلى الطريق الرئيسية ليستوقفا إحدى العربات. كانا يرتديان بدلة الميدان لقوات الدفاع الجوي الخضراء الدكناء وهو لون الزي العسكري نفسه للعراقيين. كانا يلوِّحان بأيديهما على جانبي الطريق دون أن يستجيب لهما أحد، إذ كان السائقون يعتقدون أنهما من الجنود العراقيين الفارِّين، فتزيد العربات من سرعتها وتمر بجوارهما كالريح المرسلة. جلستُ واللواء صالح المُحيا ننتظر النتيجة، ولم يكن في وسعنا أن نفعل غير ذلك. لم تكن لديّ أية وسيلة للاتصال بمركز القيادة أو بقادة قواتي الأمامية. . . فقدت السيطرة تماماً!

وبعد مضي ساعة كاملة، توقفت عربة «جيب»، فيها مقدَّم من مشاة البحرية السعودية من قاعدة رأس مشعاب البحرية ومقدَّم أمريكي يعمل مستشاراً في مشاة البحرية السعودية.

«يا إلهي!». كانت تلك أول كلمة تفوّه بها المقدَّم الأمريكي عندما رآني، وأردف متسائلاً: «هل هذا هو الفريق خالد؟»، واسترسل لعدة دقائق حتى بدا أنه لن يسكت: «هذه من أسعد المصادفات في حياتي . . سأخبر أسرتي عنها حتماً. . .». كان فَرِحاً بذلك اللقاء حتى إنني وعدته بإرسال تذكار إليه لتلك المناسبة.

أوقفْنا بعد ذلك عدداً آخر من العربات، وتوجهنا شمالاً، مستدلِّين باللوحات الإرشادية، في طريقنا إلى الكويت. كان الجو مظلماً والرياح نشِطة والرطوبة عالية والهواء ثقيل النفس، كريه الرائحة من أثر البترول المحترق. وتوقفنا أخيراً عند

إحدى نقاط التفتيش، وكان يتولاها مسلحون من المقاومة الوطنية الكويتية الذين بدت عليهم مظاهر البؤس، إذ كانت ملابسهم رثّة بعد أن مارسوا لوقت غير قصير «لعبة القط والفأر» مع الغزاة العراقيين. كنت آمل أن يرشدونا إلى حيث ينتظرني قادة قواتي. ولكنهم أرشدونا إلى المطار الدولي. وبعد أن شقَقْنا طريقنا خلال الحطام، لم نجد أحداً سوى عدد من مشاة البحرية الأمريكية المنهوكين وقد لجأوا إلى صالة المطار الرئيسية يتقون فيها البرد والمطر.

وفي طريق عودتنا إلى مدينة الكويت، صادفتنا وحدة من القوات القطَرية بالقرب من أحد الجسور. ومما يُذكر هنا أنه عندما جاءت القوات القطَرية إلى المملكة، أرسل صديقي الشيخ حمد، ولي العهد، ابنه الأكبر مع تلك القوات ليصبح أصغر ضابط في القوة سنّاً. وكنت أرغب في دعوته لتناول الطعام معي في الرياض، ولكن وعدي الذي قطعته على نفسي للشيخ حمد ألاّ أُوْلي ابنه عناية خاصة، منعني من ذلك. لقد قال لي الشيخ حمد: «أريده أن يتعلم ليصبح جندياً محترفاً، ولا بد أن تعدني، بصفتك صديقاً حميماً، أنك ستعامل ابني كأي ضابط آخر من صغار الضباط. لا أريدك حتى أن تحدثه».

لفرْط دهشتي، كان الضابط الذي تقدَّم لتحيتي، عندما توقفت عند الوحدة القطَرية، هو ابن الشيخ حمد نفسه. سررت لرؤيته، لكنني تذكرت الوعد الذي قطعتُه على نفسي أمام أبيه، فلم أشأ أن أبالغ في الاهتمام به.

بعد أن أمضيت ساعتين في حديث شائق مع القوات القطَرية، حضر اللواء سلطان ليصحبني إلى مقر القيادة المتقدمة في مدينة الكويت. وعاد النظام يدبّ في حياتي مرة أخرى، بعد فوضى المغامرة التي عشتها. وخطر لي خاطر أقلقني وأنا في طريقي إلى مقر القيادة. كان موعدي مع الصحافة العالمية في الواحدة من بعد الظهر، وكانت الساعة وقتئذ الخامسة. تُرى ما القصص التي سينشرونها؟ هل سيقولون إن قائد القوات المشتركة خرج ولم يعد؟ بدأت أتصبَّب عَرَقاً. ولكن ما أسرع ما اكتشفت أن مخاوفي لم يكن لها ما يبررها. فقد تبيَّن لي أن الصحفيين أُخذوا إلى مكان آخر من طريق الخطأ، ولم تكن لديهم أية معلومات عن المغامرة التي عشتها. وللمرة الأولى، سعدت بأن مكتب الشؤون العامة في قيادتي أخطأ، إذ أنقذني خطؤه من ورطة محقّقة!

اتخذ اللواء سلطان من مبنى إحدى المدارس، في حي من أحياء الكويت يسمَّى «أم الهيمان» قرب مطار الشعيبة، مقراً للقيادة المتقدمة. واجتمعت هناك

إلى القادة أجمعين، القائد المصري والقائد السوري وقادة قوات دول مجلس التعاون الخليجي ومعهم اللواء المطيري واللواء الوهيب. واستمعت في هذا الاجتماع للمرة الأولى إلى تقارير مفصّلة عن سير العمليات العسكرية في الأيام الأربعة السابقة. وبعد مناقشات مستفيضة أمضينا ليلة باردة في ذلك المكان. لم أكن أعرف أن الإعاشة المعلَّبة، من التمر والجبن والبسكويت، يمكن أن تكون طعاماً شهياً. ولسوء الحظ، كان العراقيون الذين سبقونا إلى ذلك المكان، قد جرَّدوه من المصابيح ومفاتيح الكهرباء وانتزعوا الأسلاك وحطموا النوافذ والأثاث، بل قضوا حاجاتهم داخل المكان، بأسلوب غير متحضر. أعطاني اللواء سلطان أفضل غرفة في المبنى، غرفة مدير المدرسة، ولكن يد التخريب العراقية كانت طالتها هي الأخرى. وعلمت في الصباح أن عبدالله ناصر الشهري، أحد الصحفيين السعوديين المغامرين الموهوبين، تسلَّل إلى إحدى الطائرات العمودية الرابضة على مقربة من المبنى، وأمضى ليلة دافئة هانئة تحت سبع بطانيات.

أدركت، بعد معاينة الواقع، أن بقاء قواتي في الكويت لفترة أطول مما ينبغي، سيسفِر عن مشاكل سياسية محرِجة. كان المسلحون الكويتيون منتشرين في كل مكان، ينضحون شوقاً وتحفزاً لاستعادة السيطرة الكاملة على بلادهم. كانوا يطوفون شوارع المدينة في قوافل صاخبة، ويطلقون النار ابتهاجاً بالمناسبة. وجُرِح كثيرون جرّاء الرصاصات الطائشة. وكادت رصاصة من رصاصات الابتهاج تلك أن تصيبني. كانت هناك حالة خطيرة من الفوضى. وكنت أخشى أن يُتَّهم أحد رجالي بارتكاب المخالفات. كان السوريون في منطقة يحيط بها الفلسطينيون، وكنت أخشى أن تقع صدامات بينهم، أو يحدث احتكاك بين قواتي النظامية والقوات الكويتية المحلية غير النظامية.

صحيحٌ أن سمو أمير الكويت أعلن حالة الطوارئ، لكن أين هي تلك القوة التي تستطيع أن تحمي القانون وتفرض النظام؟ فكل القوات الكويتية النظامية في المدينة كانت تحت قيادتي. لذلك، رأيت أنه من الأفضل إعطاء الكويتيين قيادتهم المستقلة، قبل أن تفرض ذلك تطورات الأحداث. وليكن الأمر، إذاً، بيدي لا بيد عمرو.

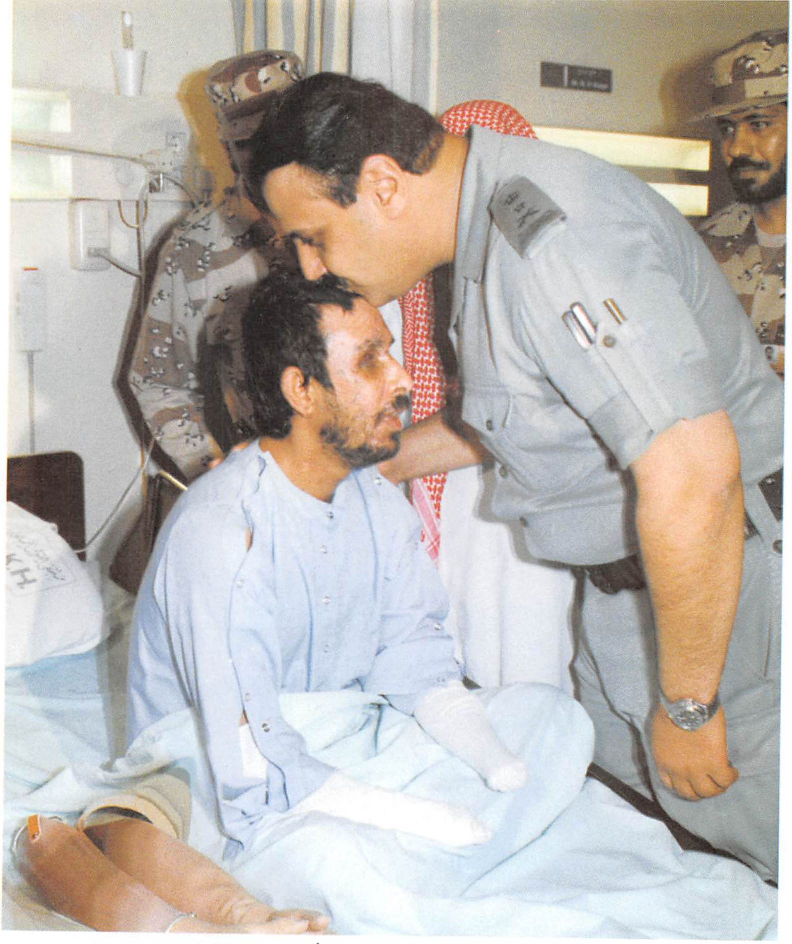
أصدرتُ، في تلك الليلة، أمراً شفهياً، أَتبعتُه بكتاب رسمي في اليوم التالي، بتحويل قيادة الوحدات الكويتية من قيادة القوات المشتركة إلى قيادة كويتية مستقلة. وأمضت قواتي الأيام الثلاثة التالية في إخلاء القطاعات التي كانت تتمركز



بعد وقف إطلاق النار، اجتمعت وشوارتزكوف مع القائدين العراقيين داخل خيمة في صفوان. ولكن، للأسف، لم تكن هناك مراسم استسلام. كان حدثاً إعلامياً أكثر منه اجتماعاً ذا مغزى سياسي أو عسكري. يظهر في الصورة العقيد أحمد لافي، وهو يسجل الملاحظات. ويقف خلفي ضابطا الحراسة الشخصية، النقيب زكي السلطان والملازم أول سلطان الصالح.



المؤتمر الصحافي الذي تلا محادثات صفوان، وقاطعني خلاله شوارتزكوف أمام الملأ هامساً بتعليقاته التي لم ألقِ إليها بالاً، ولكنها سبّبت لكلٍّ منّا شيئاً من الحرج. وفي أقصى اليمين يظهر اللواء جابر الصباح، مشبكاً ذراعيه.

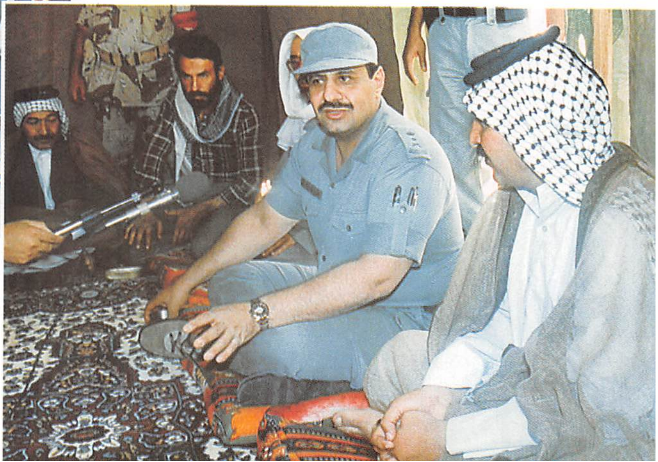


الوجه الكئيب والمروّع للحرب. الرقيب يحيى أحمد محمد البارقي، من سلاح المهندسين الملكي السعودي، بعد أن فقد كلتا عينيه ويديه في المعركة.



الترحيب بأسرى الحرب من قوات التحالف بعد ما أطلقهم العراقيون.

(أسفل) مخيم رفحا النموذجي، الذي أعددناه شمالي المملكة لاستيعاب ٢٥ ألفاً من اللاجئين المدنيين العراقيين. وتبين هذه الصورة لقاءً تم بيني وبين الشيخ حسين علي الشعلان، إحدى الشخصيات البارزة في المعسكر.





في احتفال بسيط، ولكنه مؤثر، قلّدني الفريق أول شوارتزكوف «وسام الاستحقاق من درجة قائد»، كما سلّمني خطاباً شخصياً من الرئيس بوش، بينما قلّدته «وسام الملك عبدالعزيز من الطبقة الأولى»، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يُقَدّم فيها هذا الوسام الرفيع إلى ضابط غير سعودي.



عناق الوداع لنورمان شوارتزكوف عند مغادرته المملكة في أبريل ١٩٩١.





مع صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح، أمير دولة الكويت.



مع صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني، أمير دولة قطر.



مع صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة، أمير دولة البحرين.

بعد تحرير الكويت زرت دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية للاحتفال بالنصر، وتقديم الشكر إلى قادتها لإسهاماتهم خلال الأزمة.



مع صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة.



مع صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد، سلطان عُمان.



لقاء الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني ولي عهد قطر.



ولقاء الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة ولي عهد البحرين.

وكلاهما من أصدقاء الطفولة.





(إلى اليمين ـ أعلى) خلال زيارتي إلى القاهرة لأقدم شكر المملكة إلى الرئيس محمد حسني مبارك لإرساله الفيلق المصري لمساندتنا. (إلى اليسار ـ أعلى) خلال زيارتي إلى دمشق لأقدم شكر المملكة إلى الرئيس حافظ الأسد لإرساله الفرقة السورية. (أخذت هذه الصورة من شريط ڤيديو سُجل فيه اللقاء). كان لانضمام مصر وسوريا إلى التحالف منذ البداية أثرٌ بالغٌ في تقوية دعائمه وإضفاء الشرعية عليه.

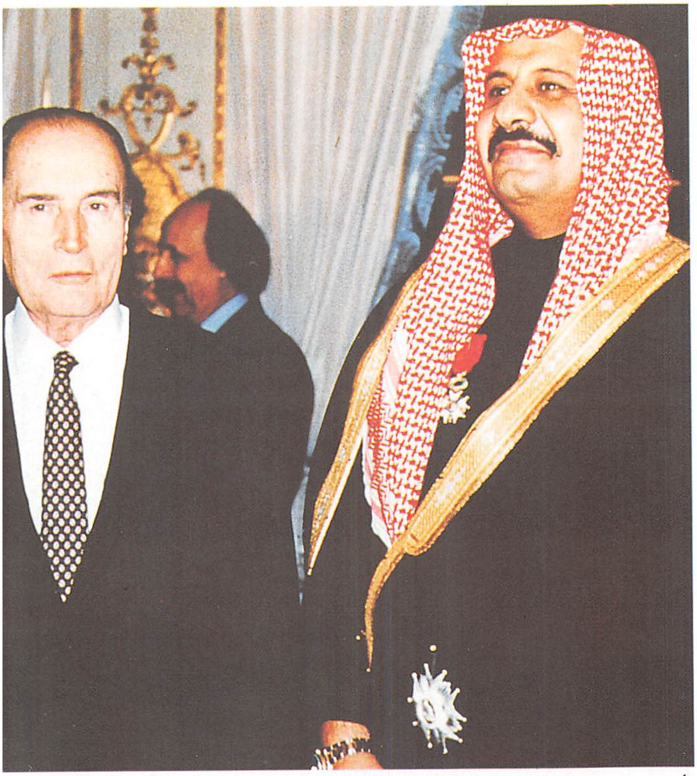


(أعلى) قلّدني رئيس النيجر العقيد علي سايبو «الوسام الوطني من درجة ضابط عظيم»، كما أهداني رمح المحارب خلال زيارة قمت بها لأقدم الشكر إلى النيجر لمساندتها المملكة أثناء الأزمة. كان مترجمي في هذا اللقاء هو الملازم أول أحمد حسن عسيري، من خريجي سان سير ويتحدث الفرنسية بطلاقة.



(إلى اليمين) الملك الحسن الثاني، أحد قادة العرب الذين أكنّ لهم كل الاحترام، في قصر جلالته في الرباط مع ابنيه، ولي العهد، سيدي محمد، والأمير مولاي رشيد. كانت القوات الخاصة المغربية التي صقلتها حرب الصحراء من أولى القوات التي هبّت إلى مساندتنا.





(أعلى) استقبلني الرئيس ميتران في قصر الأليزيه في پاريس، وقلّدني فخامته «الوسام الوطني لجوقة الشرف من درجة ضابط عظيم».

(إلى اليمين) اصطحبني الفريق أول السير پيتر دي لابليير إلى قصر باكنجهام حيث شرفتني جلالة الملكة إليزابيث بمنحي «وسام القائد الفارس الشرفي».





(إلى اليسار) التقطت هذه الصورة في مركز قيادة القوات المشتركة يوم ٣ يونيه ١٩٩١ قبل نصف ساعة من مغادرتي القيادة للمرة الأخيرة. ويظهر معي من اليمين إلى اليسار: نائبي اللواء عبدالعزيز آل الشيخ، ومدير التخطيط اللواء يوسف مدني.



مع أخي فهد في صورة التقطت لنا عام ١٩٧٩، وبيننا أكبر أولادي، فيصل وسارة.



أصغر خمسة من أولادي، من اليمين إلى اليسار: عبدالله، مشاعل، سلمان، فهد، هالة.



أحمل ابني الأصغر، سلمان.

فيها قبل تسليمها إلى الكويتيين. أصدرت إلى قواتي الأوامر بعدم التدخل، بأي شكل من الأشكال، في شؤون الكويتيين. ولكن سمو الشيخ سعداً، ولي العهد، طلب مني أن أنشر القوات السعودية لحماية الحدود الغربية للكويت، ففعلت وبقيت تلك القوات هناك لمدة سبعة أشهر. كما طلب مني أن أقوم بحماية بعض المنشآت الكويتية الحيوية، مثل مطار الشعيبة ومحطة التحلية الرئيسية ومحطة الطاقة الكهربائية الرئيسية أثناء شهر رمضان فخصصت لها الحماية اللازمة (بدأ شهر رمضان في ذلك العام بعد انتهاء الحرب بأيام قليلة). وعرضت على الكويتيين، بالإضافة إلى ذلك، مساعدتهم بتخصيص كتيبة مهندسين للمعاونة في إزالة الألغام والقذائف التي لم تنفجر، وجلْب الوقود لتموين السيارات التي كانت تنتظر في صفوف طويلة عند محطات الوقود. وفي ذلك الوقت، لم يكن هناك تيار كهربائي في المدينة، ولم تكن هناك محلات، أو أسواق مفتوحة. حتى شبكة تمديدات المياه لم تسلم من التدمير الذي أحدَثه العراقيون. فأرسلت المملكة هدية عينية شملت أكثر من ٣٠٠ شاحنة محمّلة باللحوم والخضراوات والأرز وزيت الطعام والمستلزمات الأخرى لتسيير حركة الحياة في المدينة.

ربما كان من الأفضل أن خطتي لإعادة الحياة الطبيعية الآمنة إلى مدينة الكويت لم توضع موضع التنفيذ. لأن تنفيذها كان يقتضي وضع زمام الأمور كلها في يد قائد عسكري واحد. وكان ذلك الإجراء، آنذاك، منطقياً من الناحية العسكرية، لكنه من الناحية السياسية، كان أشبه بحقل ألغام لا داعي للخوض فيه، إذ لم يكن الكويتيون يرغبون في استبدال احتلال باحتلال آخر، مهْما كان حَسن النية وحميداً وقصيرَ الأمَد، وكنت أرى أنهم مُحِقُّون، في ذلك، كلَّ الحق.

انتهت حرب الخليج بانتهاء الحملة البرية التي استغرقت ١٠٠ ساعة، وظهرت خلالها قوة التحالف العسكرية. وبهذه الحرب، قضى أعضاء التحالف على الاحتلال العراقي للكويت، وأكدوا التزامهم بالحفاظ على النظام السائد في منطقة الخليج. ويرى بعض النقاد أننا تركنا الساحة قبل أن نُكمل المهمة. ولكن ما من شك أن تلك الحرب آتت أُكُلَها من المنظُورين السياسي والعسكري. فمن الناحية السياسية، نجحت في القضاء على أحلام صدام في فرض سيطرته على

المنطقة. ومن الناحية العسكرية، قلّمت أظفاره وأفقدته القدرة على تهديد جيرانه عسكرياً في المستقبل المنظور. وهكذا، انتهت محاولة تخريب الخليج وتغيير طبيعته، بتدمير فاعلها وإذلاله. وتحقّقت كل أهداف الحرب: تحررت الكويت، وعادت حكومتها، كما تلاشت الضغوط الخارجية على المملكة العربية السعودية وحلفائها الخليجيين. وهذا أمر حيوي لا بد منه لتحقيق الاستقلال الوطني الصحيح.

كان هناك حدّ ينبغي أن نتوقف عنده. إذ أعلن الملك فهد بوضوح، أننا بصفتنا الدولة العربية التي استضافت قوات التحالف، لم تكن لدينا نية لتدمير اقتصاد العراق أو زيادة معاناة شعبه، ناهيك من احتلال أراضيه. وكانت لدى قواتي أوامر صريحة بألاّ يطأوا بأقدامهم أرض العراق. حاربنا العراق بقدر ما استدعت الحرب تحرير الكويت وحماية استقلالنا. لم يكن فتْح منافذ للعداء الدائم بين المملكة والعراق هو رغبتنا أو في مصلحتنا. فالعراق، على كل حال، جارٌ لنا وبلد عربي شقيق، له دوره المهم في منطقة الشرق الأوسط وتوازن القوى فيها، مهْما بلغ حُمْق قائده وجنونه!

كان صدام هو البادئ بالعدوان، ولم يكن أمامنا بدٌ من محاربته. وما دام في سدّة الحكم فلن يكون هناك سلام دائم بين العراق وجيرانه. فقد سبق له أن ارتكب أخطاءً لا تغتفر، وتفوَّه بكثير من الترّهات والأباطيل، وشوَّه علاقتنا بالحقد والكراهية، ولطّخها بالعنف والدماء. وآمل أن يتفهم الشعب العراقي الهدف الذي حاربنا من أجْله. وإنني لعلى ثقة من أن الشعب العراقي سوف يدرك، حال اختفاء صدام، أننا كنّا نؤدي واجبنا نحو بلدنا، ليس إلا، وأننا كنّا بين أمرين أحلاهما مرٌّ، وأننا لا نضمِر للعراقيين أي حقد أو كراهية.

الدول المشاركة في درع الصحراء / عاصفة الصحراء
(نوعية القوات، القيادة، الخسائر)

م	الدولة	قوات جوية	قوات برية	قوات بحرية	قيادة القوات المشتركة	القيادة المركزية الأمريكية	قتلى وشهداء	جرحى
١	أفغانستان		*		٣٠٨			
٢	الارجنتين			*		٤٥٠		
٣	استراليا			*		١ ٦٢٢		
٤	البحرين	*	*		٢٢٣			٢
٥	بنجلاديش		*		٢ ٢٣١			
٦	بلجيكا			*		٦٠٠		
٧	كندا	*		*		٢ ٢٧٥		
٨	تشيكوسلوفاكيا		*		١٩٨			
٩	الدنمارك			*		١٠٠		
١٠	جمهورية مصر العربية		*		٣٣ ٦٧٧		١١	٨٤
١١	فرنسا	*	*	*	١٤٦٠٠		٢	٣٤
١٢	اليونان			*		٢٠٠		
١٣	المجر (طب)		*		٣٨			
١٤	ايطاليا	*		*		١ ٩٥٠		
١٥	الكويت	*	*		٩ ٦٤٣		١	٧
١٦	المملكة المغربية		*		١ ٣٢٧			
١٧	هولندا			*		١٣٢		
١٨	نيوزيلندا	*				١٠٦		
١٩	النيجر		*		٤٨١			١
٢٠	النرويج			*	٢٢٧			
٢١	عمان	*	*		٩٥٧			١
٢٢	باكستان		*		٦ ٤٠٦			
٢٣	الفيليبين (طب)		*		١٥٦			
٢٤	بولندا (طب)		*	*	٤٨٨			
٢٥	قطر	*	*		١ ٥٨١			٢
٢٦	رومانيا (طب)		*		٣٨٤			
٢٧	المملكة العربية السعودية	*	*	*	٩٥ ٤٠٠		٣٨	١٧٥
٢٨	السنغال		*		٤٩٦			٨
٢٩	سيراليون		*		٢٤			
٣٠	سنغافورة (طب)		*		٣٠			
٣١	كوريا الجنوبية		*		١٥٤			
٣٢	أسبانيا			*		١ ٩٥٦		
٣٣	السويد (طب)		*		٥٢٥			
٣٤	الجمهورية السورية		*		١٤ ٣٠٠		٣	
٣٥	الامارات العربية المتحدة	*	*		١ ٤٩٧		٥	
٣٦	المملكة المتحدة	*	*	*		٤٥ ٣٠٠	١٧	٤٥
٣٧	الولايات المتحدة الامريكية	*	*	*		٥٤٠ ٣٣١	١٤٦	٣٣٨
	المجموع	١٢	٢٦	١٥	١٨٥ ٣٥١	٥٩٥ ٠٢٢	٢٢٣	٦٩٧

(طب): وحدات طبية (عسكرية و/أو مدنية)

الفصل الثاني والعشرون

الفشل في صَفوان

لم تكن نهاية حرب الخليج، من وجهة نظري، تتناسب مع الأسلوب الذي شُنّت به. فبقدر ما كانت العمليات العسكرية حاسمة وبارعة، كانت ترتيبات السلام غامضة وملتبسة. ولعل هذه الترتيبات هي المسؤولة، إلى حدٍّ ما، عن بقاء صدام في سدّة الحكم بعد انتهاء الصراع. فبعد أربعة أعوام من غزو الكويت ـ وقت كتابة هذه السطور ـ لا يزال الرئيس العراقي يُذِيق شعبه سوء العذاب، كما يقف حجر عثرة، بوجوده على رأس السلطة في بغداد، أمام «بناء صرح أمني متماسك» لمنطقة الخليج، ليس هذا فحسب، بل عقبة في إعادة العلاقات إلى طبيعتها بين الدول العربية.

كانت خاتمة حرب الخليج غير مُرْضِية، لغياب الاتفاق بين أعضاء التحالف، أو حتى المناقشة الصريحة، حول كيفية إنهائها. ويكمن جزء من هذه المشكلة، في تقديري، في مباحثات صفوان، أي في ذلك الاجتماع الذي عُقد على عَجَل وجاءت نتائجه غير حاسمة، حين اجتمعت وشوارتزكوف، يوم الثالث من مارس ١٩٩١، إلى اثنين من القادة العسكريين العراقيين برتبة فريق، في مهبط للطائرات على بعد نحو خمسة كيلومترات شمال الحدود الكويتية. وأعتقد أن تلك المباحثات لها من الأهمية ما يجعلها تستحق تحليلاً أعمق ومعالجة أشمل، أكثر مما حظيت به حتى الآن.

قبل ثلاثة أيام من اجتماع صفوان، وبالتحديد ليلة ٢٨ فبراير ١٩٩١، كنت

في غرفة مدير إحدى المدارس الكويتية التي تعرّضت للنهب، والتي أصبحت، فيما بعد، مركز القيادة المتقدِّم. وخارج المدرسة، كانت الطلقات النارية المتتابعة تدوِّي، وضوضاء آلات التنبيه تنبعث عالية صاخبة، إذ كان الكويتيون يطيرون فرحاً وابتهاجاً باستعادة حريتهم واستقالهم. وكنت قد وصلت إلى الكويت صباح ذلك اليوم وذهني لا يزال مشغولاً بالمشاكل التي يمكِن أن يفجرها الموقف الحالي عقب استعادة الكويت. فقد لاذ العراقيون بالفرار ولم يعُد لهم وجود، ولكنني كنت أخشى، نتيجة الفراغ السياسي، أن تقع مصادمات بين قواتي وأفراد المقاومة الكويتية الذين كانوا آنذاك يسيطرون على الشوارع مسلحين بالبنادق وضجيج احتفالاتهم يصم الآذان، أو بين تلك المقاومة والجالية الفلسطينية المضطربة التي وُجِّهت إليها اتهامات، مبالغ فيها في بعض الأحيان، بتعاطفها مع الغزاة العراقيين، وساءت علاقاتها بالكويتيين تبعاً لذلك. وإزاء الفوضى السائدة، أصدرت تعليماتي إلى القادة المرؤوسين بتوخِّي أقصى درجات الحيطة والحذر. كان مقرراً أن أقوم بجولة في المدينة في اليوم التالي، ولم أكن قد فقدتُ الأمل بإمكان تطبيق الخطة الأمنية التي أعددْتها من قبل لإحلال الأمن في المدينة. تلقيت مكالمة هاتفية من شوارتزكوف في الرياض عبْر الخط المأمون من طريق الأقمار الصناعية.

قال شوارتزكوف: «تلقيت رسالة مهمة من الرئيس. يريدنا أن نجتمع إلى العراقيين في أسرع وقت ممكن. لذا، لا بد أن أجتمع إليك ونخطط لذلك».

أصدر الرئيس بوش أوامره بوقف العمليات العسكرية كافة صباح ذلك اليوم، وبالتحديد، في الثامنة من صباح يوم ٢٨ فبراير بتوقيت الرياض (منتصف ليل ٢٧ فبراير بتوقيت شرقي الولايات المتحدة). وكان ذلك إيذاناً بنهاية رسمية للعمليات العسكرية في حرب الخليج. وتوقعت أن الرئيس الأمريكي كان يريد ترتيب لقاء يعلن فيه العراقيون استسلامهم الرسمي لقوات التحالف. وتصورْت مشهداً مَهِيباً كالذي حدث في «خليج طوكيو» في سبتمبر ١٩٤٥، حينما قَبِلَ الجنرال ماك آرثر استسلام اليابانيين.

لكني لم أتلقَّ، حتى ذلك الحين، أية تعليمات من رؤسائي في هذا الشأن. سألت شوارتزكوف: «هل تحدث الرئيس بوش مع حكومتي عن الموضوع؟». وأردفت قائلاً: «لا يسعني أن أناقش ذلك الاجتماع أو أخطِّط له إلاّ إذا تلقيتُ تعليمات رسمية بذلك».

قال شوارتزكوف: «لا أدري إن كان قد حدث اتصال بين القيادتين في هذا الشأن أم لا».

فأجبته: «إذا لم أتلقَّ أوامر من الملك أو الأمير سلطان بالعودة فوراً إلى الرياض، فسأُمضي يوم غد في الكويت، حسب البرنامج المخطَّط من قبل».

وكان ذلك ما فعلته، إذ لم أعُد إلى الرياض إلاَّ مساء اليوم الأول من مارس. وعلمت، بعد وقت قصير من وصولي، أن الاجتماع المقترَح إلى العراقيين سيتم في اليوم التالي، يوم ٢ مارس، وأن عليّ أن أتعاون مع شوارتزكوف لإنجاح تلك المهمة.

اجتمعت وشوارتزكوف في الحادية عشرة ليلاً، في غرفة العمليات الرئيسية. بادرته قائلاً: «في وسعي الآن أن أتحدث عن موضوع الاجتماع بالتفصيل، ولكنْ لديّ سؤالان مبدئيان: إلى من سنجتمع؟ وأين سيكون الاجتماع؟».

رد شوارتزكوف: «فلْنتحدث عن المكان أولاً. ما رأيك في حاملة طائرات أمريكية؟ هل تقبل بذلك؟».

رَدَدت بكل حزم: «لا. هذا أمر غير وارد على الإطلاق». كنت أرى أن عقد اجتماع إلى العراقيين على متن حاملة طائرات أمريكية سيجعله مشهداً أمريكياً صرفاً.

قال شوارتزكوف: «إن كان هذا رأيك، فلْنجتمع في الرياض إن شئت، أو في أيّ مكان آخر».

أجبته: «لا مانع مطلقاً من أن نجتمع في الرياض، أو في جنيف مثلاً».

فعاد يسأل: «ما رأيك في مكان داخل الكويت، أو العراق نفسها؟».

قلت له: «لا مانع من ذلك أيضاً».

عندئذ، طرح شوارتزكوف عليّ فكرة عقد المباحثات في صفوان، مشيراً إلى أن ذلك المكان يتمتع بميزات عدة. فهو قريب من الكويت، إذ يقع شمال الكويت مباشرة، وفيه مهبط للطائرات، ويمكن لجميع قادة التحالف الوصول إليه بسهولة كاملة وأمان تام. والأهم من ذلك، أنها أرض عراقية، مما يؤكد للعالم أجمع وللشعب العراقي هزيمة صدام وانتصار قوات التحالف.

وعندما انتقلنا إلى الحديث عن أعضاء الوفد العراقي، قال شوارتزكوف إنه لا يعرف أسماءهم حتى ذلك الحين. فاعترضت قائلاً: «كيف نُعِد لاجتماعٍ دون أن نعرف إلى من سنجتمع؟».

أجاب شوارتزكوف: «يبدو أنه حتى حكومتي لا تعرف من الذين سيرسلهم صدام».

لم يكن ذلك الوضع يرضيني أبداً. أبلغت شوارتزكوف ضرورة إصرارنا على أن يرسل العراقيون إلى المباحثات أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة، ليكون رمزاً سياسياً يؤكد حقيقة هزيمة صدام. لقد كسبنا الحرب، ومن حقنا الاجتماع إلى مسؤولين عراقيين أعلى منّا مرتبة، لا أدنى، لكي نكسر شوكة صدام، ونرغم أنفه، ونساعد على إسقاطه.

قال: «هذه فكرة صائبة».

في تلك اللحظة، وأنا جالس إلى جواره، اتصل شوارتزكوف بالفريق أول كولين پاول في الپنتاجون لينقل إليه وجهة نظري.

وبعد أن أنهى المكالمة، قال لي: «كلّنا متَّفِق معك في الرأي».

فسألته: «من تقصد بـ «كلّنا»؟».

أجاب: «پاول وتشيني وأنا».

أسعدني أن تكون وجهة نظري قد لاقت تفهماً وقبولاً، وأنني نجحت في تأخير عقد المباحثات، مما يعطينا المزيد من الوقت لاتخاذ الترتيبات اللازمة. وطبقاً لما افترضت أنه موقف حكومتي، رفضت عقد الاجتماع على ظهر حاملة طائرات أمريكية، وصمَّمت على معرفة أسماء أعضاء الوفد العراقي قبل الذهاب إلى المباحثات، كما شدَّدت على أن يكون ذلك الوفد ذا مستوى عالٍ ومن مرتبة أعلى.

وبعد ظهر اليوم الثاني من مارس، جرى مزيد من التشاور بين الرياض وواشنطن في شأن الاجتماع المرتقَب. وتلقيت وشوارتزكوف، إثر ذلك، تعليمات رسمية بحضور الاجتماع يوم ٣ مارس. فاجتمعنا ثانية في غرفة العمليات لمناقشة تفاصيله ووضع اللمسات النهائية عليه.

وعلى الرغم من أن المباحثات كانت ستبدأ صبيحة اليوم التالي، إلاّ أن شوارتزكوف لم يكن يعرف، حتى تلك اللحظة، أسماء أعضاء الوفد العراقي. ولم أحبِّذ الذهاب في ظل هذا الوضع الغامض. واقترحت أنه من الأفضل، في ظل تلك الظروف، أن نرسل نائبينا، لا سيما إذا تبيَّن لنا أن أعضاء الوفد دوننا رتبة.

وفي تلك اللحظة، جاء ضابط استخبارات من القيادة المركزية الأمريكية مسرعاً ومعه اسمان من كبار الضباط العراقيين. أخذتنا الدهشة ونحن نقرأ اسمَيْ الضابطين العراقيين، كان الاسم الأول هو الفريق سلطان هاشم أحمد، والاسم الثاني هو الفريق صالح عبود محمود. ولكن الاسمين لم يعنيا شيئاً بالنسبة إلينا. فلم نكن نعرف شيئاً عن هذين الرجلين ولا عن موقعهما في التسلسل القيادي للقوات المسلحة العراقية. توجّه شوارتزكوف بالسؤال إلى ضابط الاستخبارات لعله يجد الإجابة لديه، لكنه، هو الآخر، لم يكن يعرف عنهما شيئاً. ولا أكاد أصدِّق، حتى الآن، أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن تعرف هوية ضابطين عراقيين كلاهما برتبة فريق.

لم نحصل على معلومات عنهما إلاّ بعد أن أصدرت تعليماتي إلى اللواء ناصر العرفج، رئيس هيئة استخبارات وأمن القوات المسلحة السعودية، لتزويدنا بالمعلومات المتوافرة عن الرجلين. فتبيّن لنا أن الفريق سلطان يشغل منصِب نائب رئيس الأركان، بينما الفريق صالح هو قائد الفيلق الثالث، أو بالأحرى ما تبقّى من الفيلق الثالث بعد التدمير الذي لَحِق به جرّاء الحملتين الجوية والبرية لقوات التحالف.

كانت وجهة نظري ألاّ تكون مباحثاتنا مع ضابطين عراقيين ليسا في المستوى القيادي المطلوب. ولكنني لم أشأ أن أستمر في الاعتراض، خشية أن يُحْدِثَ ذلك صَدْعاً في صف التحالف في أيامه الأخيرة.

قلت لشوارتزكوف: «إن حضور الاجتماع أمرٌ لا يروق لي أبداً، وأرى أن حضورنا سيكون غلطة كبيرة. ولكن لا بديل أمامي سوى الحضور».

وعندما أعيدُ النظر في ذلك الأمر، أراني ما زلت على اعتقادي أنه لو أَصَرّ التحالف على حضور أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة المباحثات، مثلما اقترحت، ولو استمر الضغط على صدام مدة أطول، لَرَضخ ولَتَغير وجه العراق ومنطقة الخليج إلى ما هو أفضل.

لكن بات واضحاً أن الولايات المتحدة لا تريد أن تمارس المزيد من الضغط في هذا الاتجاه. كان لديّ شعور قوي أن الإدارة الأمريكية، مثلما حدَّدتْ توقيت إيقاف العملية العسكرية بما يمكِّنها من إطلاق العبارة الطنانة «حرب المائة ساعة»، فإن هدفها من اجتماع صفوان كان الدعاية، لا أكثر ولا أقلّ. أراد الأمريكيون له أن يكون حدثاً إعلامياً دون مردود سياسي أو عسكري. وبدلاً من مناقشة

إجراءات الاستسلام الرسمية، أو الاعتراف العلني بأن صداماً قد خسر الحرب، طُلب منّا أن «نناقش» مع الجانب العراقي بعض القضايا الفنية كإطلاق الأسرى، وجمْع جثث القتلى، وتحديد مواقع حقول الألغام، والفصل بين القوات. قضايا كان يمكن لضباط أركاننا مناقشتها على نحو أكثر تفصيلاً.

تولد لديّ شعور بأن الولايات المتحدة لم تكن تسعى إلى الحصول على استسلام عراقي رسمي، أو كانت ترى أن ذلك أمر غير مناسب. لذا، لا يسعني سوى تخمين أسباب هذا التوجه. فلعل من هذه الأسباب ترجيح الإدارة الأمريكية أن صداماً لن يبقى في الحكم بعد أن تعرّض لكل تلك المهانة والعقاب، وأن شعبه سيطيح به لا محالة. وربما دفع هذا الاعتقاد الرئيس بوش ومستشاريه إلى العمل على التئام جراح الحرب بما يتفق والنظام العالمي الجديد الذي كانت واشنطن تأمل أن يتمخَّض عنه ذلك الصراع. وربما ارتأت الإدارة الأمريكية أيضاً أن تُبقي على العراق كقوة يمكنها الدفاع عن نفسها، ويكون لها ثِقَل إقليمي موازن لإيران.

من جهة أخرى، قد يكون هناك تفسير أبسط لذلك المسلك الأمريكي، هو أن الحرب قد وضعت أوزارها ولم يعد هناك حماسة لمواصلة القتال. إذ بعد هزيمة العراقيين وفرارهم، فإن مواصلة قتالهم ستثير الرأي العام العالمي الذي سيستنكر، دون شك، الاستمرار في إراقة الدماء في معركة أصبح من الواضح أنها غير متكافئة. فضلاً عن أن خسائر التحالف لا تكاد تُذْكَر، وكأن لسان حال الأمريكيين والبريطانيين يقول: «يكفي ما حدث، ولا ضرورة لخسائر أكثر، فلْنجمع شتات الأمر، ونسرع بالرحيل».

ربما كانت تلك بعض الأسباب التي دعت إلى وضع الترتيبات لمباحثات صفوان على عَجَل، دون تقدير للآثار والعواقب التي قد تنجُم عنها في المدى البعيد.

وأجد لزاماً عليّ أن أضيف، إحقاقاً للحق، أن دَورنا في هذه الترتيبات كان محدوداً. فبعد أن تحررت الكويت، ابتعدنا وشركاءنا العرب في التحالف عن الصراع عملياً، بعد أن انتقلت العمليات إلى المسرح العراقي، ولم يَعُد لي شخصياً أي دَور فيه. فلم تشتبك القوات المشتركة في أية عمليات على الأراضي العراقية. كانت المعارك جارية بين القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية، من جهة، والقوات العراقية، من جهة أخرى. وكانت مسؤوليتي العملياتية مقتصرة

على الكويت فقط. وفي الأيام القليلة الأخيرة من الصراع، كنت أحاول تتبع المعارك الدائرة جنوبي العراق، ولكن المعلومات الاستخبارية التي كانت تتوافر لدينا لم تكن كافية في حال من الأحوال ولا تعكس حقيقة الأحداث. وكما سبق أن ذكرت، لم تكن الولايات المتحدة مستعدة للتصريح بأحداث عملية «الخطاف الأيسر» ونتائجها.

كنت أعلم أن التقدم إلى بغداد لم يكن أمراً وارداً على الإطلاق، ولم يُطرح مثل هذا الموضوع للنقاش البتة. وغنيّ عن البيان أن هذا الأمر كان مرفوضاً من كل الدول العربية في التحالف، وهو بالتأكيد أمرٌ غير قابل للنقاش من جانب المملكة، ويلقى المعارضة كل المعارضة.

كنا حريصين على تهيئة المناخ الملائم أمام الشعب العراقي، دون أن نتدخل بشكل مباشر، ليتخلص بنفسه من صدام الذي ألحَق به العار والهزيمة. فالعراق، قبل كل شيء، جارٌ عربي، قاتلناه مكرهين. وعلينا، الآن ومستقبلاً، أن نتعايش معه في وئام. وفي تلك المرحلة (مرحلة ما بعد العمليات العسكرية) لم يكن أحدٌ يتوقع حدوث التمرد ضد صدام سواء في جنوبي البلاد أو شماليها، وبالمثل لم يكن أحدٌ ليتصور الأسلوب الوحشي الذي تم به إخماد ذلك التمرد.

كان لهذه الاعتبارات جميعها دور في تشكيل نظرتي إلى اجتماع صفوان. وكما أسلفت، كان عدم وجود وثيقة رسمية للاستسلام أمراً مخيباً للآمال. فقد كان من شأن تلك الوثيقة أن تساعد على الإطاحة بصدام. وبينما كنت أناقش مع شوارتزكوف جدول الأعمال المقتضَب لاجتماع صفوان، في وقت متأخر من يوم ٢ مارس، حاولت أن أضع خطّاً واضحاً يحدد مسؤولية كل منّا. فأبلغته أنني سأتناول الموضوعات التي تقع في نطاق سلطاتي، مثل موضوع إعادة الأسرى المدنيين الكويتيين الذين أُخذوا إلى العراق رغماً عنهم، وسأترك له الموضوعات التي تقع في نطاق سلطاته، بما في ذلك موضوع أسرى الحرب والفصل بين القوات. لم أكن أريد التدخل في موضوع «الفصل بين القوات»، لأنه لا يعنيني، فالقوات الأمريكية، وليس قواتي، هي التي كانت تحتل جزءاً كبيراً من الأراضي العراقية، وهي التي لا تزال تواجِه العراقيين وجهاً لوجه، بل تقاتلهم أيضاً. لم يكن بيننا وبين القوات العراقية اتصال مباشر، بعد أن تمركزت القوات الأمريكية بيننا وبينها.

لم يمنع قرار «وقف الأعمال العدائية» الذي أعلنه الرئيس بوش في ٢٨

فبراير، حدوث بعض الاشتباكات، والتي كان أخطرها على الإطلاق ما حدث صباح يوم ٢ مارس نفسه، عندما هاجمت وحدات من الفرقة ٢٤ مشاة آلية الأمريكية رتَلاً عراقياً بالقرب من حقول بترول الرميلة، ودمرت أعداداً كبيرة من العربات المدرعة وقِطع المدفعية العراقية. وثمة مواجَهة أخرى كادت أن تقع في صفوان نفسها، عقب اختيارها مكاناً للمباحثات. كان شوارتزكوف يظن أن تلك المنطقة تقع تحت سيطرة الفرقة الأولى مشاة من الفيلق السابع. ولكن عندما شرع الأمريكيون يُعِدُّون الترتيبات، تبيّن لهم أن مهبط الطائرات في صفوان كان لا يزال تحت سيطرة إحدى الوحدات العراقية، وكانت على ما يبدو، على استعداد للقتال! وبعد نقاش حاد بين قائد الفيلق السابع وشوارتزكوف، الذي شعر بأن هذا القائد قد أبلَغه معلومات غير صحيحة عن حقيقة الوضع على الطبيعة، اتصل بي قائلاً: «إننا نواجه مشكلة. إن قرار وقف إطلاق النار يمنعنا من تنفيذ عمليات هجومية لطرْد العراقيين، ولكننا أحطنا الصحافة علماً بأن الاجتماع سيُعقد في صفوان، فما العمل؟». وللخروج من هذا المأزق، أمر شوارتزكوف قوة أمريكية كبيرة أن تحاصر المنطقة، ثم تُعطَى مهلة للعراقيين للانسحاب وإلاّ تعرّضوا للتدمير! وتصرّف العراقيون كما ينبغي، إذ آثروا السلامة وانسحبوا بطريقة منظمة واصطحبوا معهم دباباتهم ومعداتهم كاملة.

أدهشتني تلك الأحداث التي وقعت بين القوات الأمريكية والقوات العراقية في صفوان إلى أبعد الحدود، لأنها كانت تخالف ما توصلتُ إليه من تفاهم مع شوارتزكوف. فبعد أن أدركنا المشاكل التي واجهتْ التحالف حين أخذ عشرات الآلاف من الأسرى، وصعوبة تأمين المعيشة لأعداد إضافية منهم، اتفقنا على نزْع سلاح الوحدات العراقية التي نأسرها، وإعادة أفرادها إلى العراق بالشاحنات أو سيراً على الأقدام دون أسلحتهم ومعداتهم الثقيلة، إلاّ أن تلك الوحدة العراقية سُمِح لها بالانسحاب بأسلحتها كاملة، والانضمام إلى باقي وحدات الحرس الجمهوري التي نجحت، بطريقة أو بأخرى، في الإفلات من المصيدة الأمريكية.

كان مقرّراً أن أتوجّه إلى صفوان في طائرة عمودية في صباح يوم ٣ مارس، ولَمّا كان الاجتماع سيأخذ طابعاً إعلامياً في المقام الأول، فقد أصدرتُ تعليماتي إلى اللواء يوسف مدني، مدير التخطيط في قيادة القوات المشتركة، بالذهاب

ومعه بعض من ضباط أركاني، إلى صفوان الرابعة صباحاً، أي قبل موعد وصولي بوقت كافٍ، للتأكد من سلامة الترتيبات التي كان يجري إعدادها. وكان يعنيني أن يتأكد ـ بوجه خاص ـ أن وضعي وشوارتزكوف سيكون على قدم المساواة من جميع الوجوه، صغيرها قبل كبيرها ، وأن أيّاً منّا لن يتصدر طاولة المفاوضات. ومن المفارقات الطريفة أن اللواء يوسف عندما وصل إلى «مسرح» الاجتماع في صفوان، وجد رجال شوارتزكوف قد سبقوه إلى هناك لتنفيذ المهمة نفسها!

وحدث صراع خفيّ مردّه إلى اعتداد كلٍّ منّا بذاته اعتداداً مبالغاً فيه، عندما هبطت طائرتي في صفوان قبل الحادية عشرة بقليل، إذ كان مقرَّراً أن تبدأ المباحثات في الحادية عشرة والنصف. ولاحظت عند وصولي أن أرض الصحراء المغبرة بدأت تكسوها الأعشاب والحشائش المتناثرة، وفي الأفق الجنوبي كانت ثمة سحابة كثيفة من الدخان المتصاعد من آبار النفط الكويتي المحترقة. وعندما فُتِح باب الطائرة الملكية العمودية أخبرني المقدم طيار عايض الجعيد، مدير قسم القوات الجوية في قيادة القوات المشتركة، أن مجموعة الخيام التي سيُعقد فيها الاجتماع تقع على مسافة بعيدة في نهاية المدرج، وأن ضابطاً أمريكياً برتبة مقدَّم ينتظرني في سيارة جيب ليرافقني إلى مكان الاجتماع.

سألت المقدم عايض: «أين هبطت طائرة شوارتزكوف؟».

فأجاب أنها تقف بالقرب من الخيام.

فقلت له: «إذاً، لا بد أن تتحرك طائرتي حتى هناك، وإلاّ فسوف أعود إلى الرياض على الفور».

كنت أعلم أن مراسلي وكالات الأنباء العالمية ووسائل الإعلام المختلفة يحتشدون هناك وسيشهدون وصولي. فقرَّرتُ الإصرار على موقفي.

وبعد فترة قصيرة، سُمِح للطائرة بالتحرك والوقوف بالقرب من موقع الخيام. وكان الفريق پاجونيس في استقبالي، ورافقني إلى مكان الاجتماع. وكانت تلك آخر محاولة من محاولاتي للتعبير علناً عن معنى «القيادة الموازية!».

استُقبل الوفد العراقي على بعد نحو ثلاثة كيلومترات خارج صفوان، وجِيْءَ به إلى مكان الاجتماع في عربات عسكرية مدولبة (HUMVEES) ترفع علم جمعية الهلال الأحمر، وتحت حراسة أمريكية مشددة. تزأر، إلى جانب عرباتهم، عربتا قتال مدرعتان Bradley ودبابتان M1A1، بينما تحلّق فوق رؤوسهم طائرتان عموديتان من نوع Apache.

كنت وشوارتزكوف قلِقَين في شأن الأسلحة التي قد يُحضرها الضباط العراقيون معهم. فلم يكن مستبعداً أن يكون أولئك الضباط فريقَ اغتيال في مهمة انتحارية. ولكي نخضعهم للتفتيش، دون أن نعرّضهم لإهانة لا داعي لها، اتفقنا أن نَخْضع جميعنا للتفتيش، من قِبَل حراسنا بطبيعة الحال. خضع شوارتزكوف للتفتيش أولاً، ثم سَلّمت مسدّسي إلى النقيب زكي، قائد مجموعة الأمن والحماية الخاصة، وتم تفتيشي أمام العراقيين. ثم وافق أعضاء الوفد العراقي، على مضض، على تفتيشهم، كما كان عليهم أن يسيروا بين صفَّين من الكلاب المدربة على كشف المتفجرات. ودَلَفْنا واحداً تلو الآخر إلى خيمة الاجتماعات التي كانت تحيط بها الدبابات وعربات القتال المدرعة وصفوف من الجنود الأمريكيين بلباس الميدان الكامل، وأخذنا أماكننا حول طاولة من الخشب الأحمر. لم يُسمح بدخول أي سلاح إلى خيمة الاجتماع سوى السلاح الشخصي الذي كان يحمله النقيب زكي ومساعده الملازم أول سلطان أحمد الصالح، واثنان من حرس شوارتزكوف.

جلست وشوارتزكوف جنباً إلى جنب، وإلى يمينه جلس مترجمه. وجلس أمامنا، على الطرف الآخر من الطاولة، الضابطان العراقيان ومترجمهما بالزي العسكري الشتوي الأخضر الأدكن. وخلْف العراقيين، أُعد عدد من المقاعد المعدنية القابلة للطيّ لجلوس بقية أعضاء الوفد العراقي. أوضح الفريق سلطان هاشم أحمد أن التدمير الذي لَحِق بالطرق والجسور حال دون حضور أعضاء الوفد الآخرين. وكان يجلس خلفي وشوارتزكوف جميع قادة قوات التحالف وكبار الضباط الأمريكيين. الفريق السير بيتر دي لابلبير من بريطانيا، والفريق مايكل روكجوفر من فرنسا، واللواء صلاح حلبي من مصر، واللواء علي حبيب من سوريا، واللواء جابر الصباح من الكويت، وقادة آخرون من إيطاليا وكندا ودول مجلس التعاون الخليجي وبلدان أخرى. وكان الجو حارّاً خانقاً في تلك الخيمة المكتظة بالحضور.

أمضى پاجونيس الليلة كاملة، يعاونه فريق من الضباط والأفراد الأمريكيين، في تجهيز المكان ونصْب الخيام. وبدت علامات الإرهاق واضحة عليه بعد ذلك الجهد كله. وما أن بدأت المناقشات تأخذ مسارها مع العراقيين، حتى نال منه الحرّ الخانق واستبد به الإرهاق الشديد، فما لبث أن راح في إغفاءة سقط على أثرها من كرسيه وارتطم بالأرض. ولحسن حظه، كان المصوِّرون الذين سجلوا

الدقائق الأولى لافتتاح الاجتماع قد غادروا الخيمة، فمضت سقطته تلك دون أن تُسجَّل.

بدا واضحاً، منذ البداية، أن الوفد العراقي كانت لديه تعليمات بأن يكون ليّن الجانب، إذ كان صدام حريصاً على التخلص من الضغط العسكري لقوات التحالف بأسرع وقت ممكِن. ورداً على ملاحظات شوارتزكوف التي افتتح بها الاجتماع، قال الفريق سلطان، الذي برز على الفور كمتحدث رئيسي، أو قُلْ إن شئتَ المتحدث الأوحد باسم العراقيين، إنه مُخَوّل العمل على جعل الاجتماع «ناجحاً يسوده جو من التعاون».

جرت المباحثات وَفق وثيقتين. شملت الوثيقة الأولى البنود المبدئية للاجتماع، وقد أُبلغت بها الحكومة العراقية من طريق الأمريكيين في الأول من مارس. أمّا الوثيقة الثانية فهي قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٦ نفسه الذي صدر مساء الثاني من مارس، قبل اجتماعنا بساعات قليلة، بأغلبية أحد عشر صوتاً مقابل صوت واحد هو كوبا، وامتناع ثلاثة أعضاء عن التصويت، هم الصين والهند واليمن. وكان القرار يُلزم العراق بأمور عدة من بينها ما يلي:

- وقف الأعمال العدوانية أو الاستفزازية من جانب قواته، بما في ذلك هجمات الصواريخ وتحليق الطائرات المقاتلة.
- تسمية قادة عسكريين لكي يجتمعوا إلى نظرائهم من قوات التحالف... لاتخاذ الترتيبات العسكرية لوقف الأعمال العدوانية في أسرع وقت ممكِن.
- اتخاذ الترتيبات اللازمة لوصول اللجنة الدولية للصليب الأحمر إلى جميع أسرى الحرب فوراً وإطلاقهم تحت رعايتها، إضافة إلى إعادة جثث القتلى.

وفي ضوء الخطوط العريضة لهاتين الوثيقتين، كان مسار المباحثات معروفاً ومتوقَّعاً إلى حدٍّ كبير، إلا أن موضوعاً مهمّاً طفا على السطح فجأة ولم يكن مُدرَجاً ضمن موضوعات جدول الأعمال وكانت له عواقبه المهمة، كما سأروي بعد قليل.

اختار شوارتزكوف أن يبدأ المباحثات بمناقشة موضوع أسرى الحرب.

قال: «أول موضوع نريد مناقشته هو موضوع أسرى الحرب. نريد منكم الأمور التالية. أولاً، السماح للجنة الدولية للصليب الأحمر بالاتصال الفوري بأسرانا المحتجزين لديكم».

أبدى الفريق سلطان موافقته الفورية على طلب شوارتزكوف. وقال: «سيتم تنفيذ ذلك». وأردف قائلاً: «كانت تلك وستظل نية العراق».

أثار شوارتزكوف، بعد ذلك، موضوع ترتيبات الإفراج عن أسرى الحرب، عندئذ قال الفريق سلطان: «إننا مستعدون لإطلاق أسرى الحرب جميعهم على الفور، وبالطريقة التي يراها الصليب الأحمر مناسبة».

فقال شوارتزكوف: «هل تقصد أن هذا الأمر برُمَّته ينبغي أن يُترَك في أيدي لجنة الصليب الأحمر للفصل فيه؟».

أجاب الفريق سلطان: «بكل تأكيد وفوراً». وأضاف: «إننا على استعداد لبدء إطلاق الأسرى على الفور، وفي المكان الذي ترتئيه لجنة الصليب الأحمر».

بعد ذلك، أثرتُ قضية الأسرى من المدنيين الكويتيين المحتجَزين في العراق، وكان الموضوع يهمني إلى حدٍّ بعيد. وتساءلت: «كيف سيغادرون العراق، وهم لا يندرجون تحت اسم أسرى الحرب؟».

فَرَدّ الفريق سلطان: «أرجو أن تتحدث بقدر أكبر من التحديد».

فأجبته: «إنني أتحدث عن ٥٠٠٠ كويتي أو أكثر أُخذوا عَنوة من الكويت. ما وضعهم؟ هل هم أسرى أم لا؟».

أجاب الفريق سلطان بأنه سيُوافينا بالأعداد الكاملة لأسرى الحرب الكويتيين. ولم تكن تلك الإجابة شافية بالنسبة إليّ. بدا لي كما لو كان يتعمد الخلط بين أسرى الحرب من العسكريين، والمدنيين المخطوفين. قلت له إنني أريد أن أعرف وضع المدنيين الكويتيين الذين نُقلوا إلى العراق قسْراً، والذين لا يَقِلّون أهمية، في نظري، عن أسرى الحرب.

أجاب الفريق سلطان قائلاً: «عندما بدأت الحرب، اختار كثير من الكويتيين من أصل عراقي، الذهاب إلى العراق . . .». وأضاف في محاولة منه للمراوغة: «إن المُهِم في الأمر هو تبادل أسرى الحرب، وسيتولى الصليب الأحمر هذه القضية».

فأجبته إجابة حاسمة، أن الذي يعنينا هو أعداد وأسماء المدنيين الكويتيين الذين أُخذوا إلى العراق قَسْراً. ولا بد من إدراج هؤلاء في قائمة تبادُل أسرى الحرب.

قال الفريق سلطان: «بالنسبة إلينا، سوف يتِم إطلاق جميع الأسرى. أما الكويتيون المقيمون في العراق، ففي إمكانهم البقاء أو المغادرة، كما يرغبون».

قلت له: «لا بد أن نحيط بكل الكويتيين المقيمين في العراق. يجب أن تتولى لجنة دولية مسألة تمييزهم والتحقُّق من رغبتهم في العودة أو البقاء».

الفريق سلطان: «نعم. ستتولى لجنة الصليب الأحمر الدولية هذه المهمة، ويمكن للراغبين في مغادرة العراق الاتصال بتلك اللجنة».

الفريق شوارتزكوف: «أعتقد أن النقطة المهمة التي يجب أن نتفِق عليها هي وجوب معاملة كل من أُخذ قسراً معاملة أسرى الحرب، وهذا أمر نتفِق عليه من ناحية المبدأ».

الفريق سلطان: «نحن لم نأخذ أحداً رغماً عن إرادته. ولكن إذا كانت ثمة حالة من هذا القبيل، فسوف تعامل معاملة أسرى الحرب. أما إذا كان هؤلاء الكويتيون من أصل عراقي، وكانوا يعيشون هناك (أي الكويت) فلهُم الحق في العودة إليها أو البقاء في العراق حسب رغبتهم».

الفريق أول شوارتزكوف: «لا خلاف على هذه النقطة، بالتأكيد إذا رغب شخص بمحض إرادته أن يعيش في العراق، فالأمر متروك لاختياره».

الفريق سلطان: «سنوافِيكم بقائمة أسماء أسرى الحرب، وستكون هذه القائمة دقيقة. وليس لدينا أي أعداد أخرى غيرها».

وبعد لحظة، التفت إليّ شوارتزكوف وقال: «أعتقد أن القضية، لكلا الجانبين، هي مَنْ يريد العودة ومَنْ يريد البقاء. ومن المحتمل أن تنتهي المسألة إلى تعيين وسيط مهمته التأكد من أن الكويتيين الموجودين في العراق في إمكانهم الاتصال بالصليب الأحمر». ثم التفتَ إلى الوفد العراقي وقال: «إذاً، اتفقنا على أن الصليب الأحمر سيتولى مهمة التثبت من أمر من يريد البقاء ومن يريد العودة، ومن ثم يتولى إعادة الراغبين في العودة».

الفريق سلطان: «إن اتفاقية جنيف واضحة تماماً لنا ولكم . . . نحن

مستعدون من هذه اللحظة أن نبدأ عملية التبادل من طريق الصليب الأحمر. وكل اقتراح خارج هذا الموضوع، يجب أن يُتّفق عليه في حينه».

الفريق أول شوارتزكوف: «إذاً، لا يوجد لديّ أي اعتراض، ما دمنا سنبدأ فوراً تبادُل الأسرى من طريق الصليب الأحمر».

وبعد هنيهة التفت إليّ شوارتزكوف مرة أخرى، وسألني: «هل لديك أية تساؤلات أخرى في شأن الأسرى؟».

فسألت شوارتزكوف: «عندما نتحدث عن الأسرى، هل يدخل في ذلك المدنيون؟».

الفريق أول شوارتزكوف: «نعم ... أعتقد أننا اتفقنا على ذلك».

فقلت: «وماذا عن الكويتيين الذين دخلوا العراق مع الجيش العراقي؟».

الفريق سلطان: «سبق أن قلت لكم، كل من دخل أرضنا بمحض إرادته سيغادرها بمحض إرادته كذلك. وأما أسرى الحرب، فسنوافِيكم بأعدادهم وأسمائهم».

قلت: «أريد أن أركّز في هذه المباحثات على أهمية هذه النقطة».

الفريق سلطان: «إنني أكرِّر أن كل من دخل العراق لديه الحرية في أن يخرج منه. أما أسرى الحرب، فسيطلَقون وسيعلن عن ذلك في حينه، وليس هناك أية مشكلة».

الفريق أول شوارتزكوف: «ولكن ينبغي أن يتمكن كل من دخل العراق، منذ بداية هذا الصراع، من الاتصال، على الأقل، بالصليب الأحمر للتحقُّق من رغبته في العودة أو البقاء، وإعادته إذا رغب في ذلك».

الفريق سلطان: «من الواضح أن الصليب الأحمر سيكون قادراً على التحقُّق من هذه الرغبة، لأننا قلْنا إن الأمر سيتِم من طريقه، وسنعلن ذلك من جانبنا وسيعلنه الصليب الأحمر من جانبه أيضاً».

أوردت الحوار الذي جرى في شأن المدنيين الكويتيين المحتجَزين في العراق كاملاً وبنصه لأبيِّن أنه، على الرغم من جهودنا المتكررة، لم تتِم إلى الآن تسوية ذلك الأمر بصورة مُرْضية. فلم نتمكن من الحصول على التزام عراقي صريح بتزويدنا بأعداد وأسماء الكويتيين المدنيين الذين أُخذوا إلى العراق، بل إن الفريق سلطان أكّد في قوله إنه لا توجد لدى العراقيين أية أعداد من المدنيين الكويتيين

بخِلاف أسرى الحرب. كما لم نحصل على وعْد قاطع بإعادة جميع المدنيين إلى الكويت. وتُرِكَ الأمر للكويتيين في العراق للاتصال بالصليب الأحمر إذا ما رغبوا في العودة إلى وطنهم. ولكن من شأن هذا الاتفاق في بلد كالعراق أن يجعل مصير أولئك الكويتيين رهْناً بنزوات الحكومة العراقية وأهوائها. كانت مقولة الفريق سلطان بأن أحداً لم يُؤخَذ إلى العراق قَسْراً، كذبة واضحة ونذيراً بأن هذه المشكلة لن تُحلّ بسهولة، إذ لا تخفَى على أحد حالات الاعتقال والترحيل الكثيرة للمدنيين الكويتيين أثناء الاحتلال العراقي، بما في ذلك مجموعة كبيرة احتُجزت ورُحِّلَتْ قبل نهاية الصراع بأيام قلائل.

بادر العراقيون، بعد اجتماع صفوان مباشرة، إلى إطلاق أكثر من ألف معتَقَل من المجموعة الأخيرة، في ما سُمِّي بـ «إجراء يستهدف بناء الثقة»، كما سمحوا للجنة الدولية للصليب الأحمر بزيارة وتسجيل وإعادة عدد كبير آخر منهم. وبلغ عدد المُفْرَج عنهم من المدنيين وأسرى الحرب أكثر من ٦٥٠٠ كويتي. كما نجح كثير من المعتقلين الكويتيين الآخرين، في الهرب من المعتقلات العراقية، في الأسابيع التالية خلال الفوضى التي نجمت بعد اندلاع التمرد في جنوب العراق. وعادوا إلى بلادهم سيراً على الأقدام في أغلب الأحوال.

ولكن، وحتى وقت كتابة هذه السطور، لا يزال نحو ٦٠٠ كويتي في عِداد المفقودين، ويُعتقد أن بعضاً منهم يرزح في سجون العراق، أو يختبىء داخل العراق أو قَضَى نَحْبَه. ولا تزال الحكومة العراقية ترفض إعطاء بيانات دقيقة عنهم، وتنكِر وجود كويتيين في سجونها، إلاّ أن منظمة حقوق الإنسان أصدرت في ٨ سبتمبر عام ١٩٩٣ تقريراً مفاده أن «هناك دلائل قوية تشير إلى أن كثيراً من الذين أَسَرَتهم القوات العراقية أثناء احتلال الكويت، وتم نقلهم بعد ذلك إلى العراق، لا يزالون قيد الأسْر».

عندما أعود بالذاكرة إلى الوراء، إلى مباحثات صفوان، يتَّضح لي أن الفريق سلطان عندما وعد بإعادة أسرى الحرب بشكل فوري، قد نجح في التهرب من إعطائنا إجابة واضحة وصريحة عن مصير المدنيين الكويتيين. وكان علينا أن نُجبِر العراقيين على الكشف عن أعداد وأسماء كل الكويتيين الذين اعتُقلوا على يد القوات العراقية. وإني أشعر بالأسف أن تلك القضية لم تَنَل حظها الكافي من التركيز والإصرار أثناء المباحثات. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى الجو غير الرسمي، أو قُلْ إن شئت الجو الوُدِّي الذي ساد المباحثات، فبدلاً من أن نُملِي

إرادتنا على العراقيين، دخلنا معهم في مناقشات. كنت أشعر أن من واجبي ألاّ أختلف مع شوارتزكوف على الملأ. وكان من الممكن أن يؤدِّي الاستطراد في النقاش في شأن موضوع الكويتيين المحتجَزين إلى اختلافنا على رؤوس الأشهاد. كما اقترح شوارتزكوف، بدوره، وضع حد لتلك المناقشة، ويبدو أنه أراد أن يتجنَّب احتدام المناقشة بيني وبين الفريق سلطان.

لم أكن راضياً عن ذلك الموقف أبداً. كان في وسع الولايات المتحدة أن تعطي إنذاراً لصدام: «أطلِق المحتجَزين من الكويتيين فوراً، وإلاّ سنستأنف الحرب!». ولكنها لم تفعل ذلك، وأضاعت فرصة لا تعوَّض.

أما الأمور الأخرى، فتمَّت معالجتها بنجاح أكبر. تسلمنا من العراقيين قائمة بأسماء أسرى الحرب المحتجَزين لديهم، وكذلك جثث القتلى والشهداء، وكان بعضها مجهول الهوية، وبعضها الآخر لم يُدفن بعد. وذُهل الوفد العراقي عندما أخبرناه بأن لدينا أكثر من ٦٠ ألف أسير عراقي. تسلَّمنا منهم أيضاً خرائط حقول الألغام في الكويت وفي المياه المحيطة بها. أخبرنا العراقيون أيضاً بمواقع مخازن الذخيرة الرئيسية. وتعهّدوا بإيقاف جميع هجمات صواريخ سكود.

تلت ذلك مناقشة في شأن ضرورة الفصل بين القوات الأمريكية والعراقية في الخطوط الأمامية تجنباً لأية اشتباكات في المستقبل. واحتجّ الفريق سلطان على المعركة التي وقعت صباح يوم ٢ مارس، وراح ضحيتها كثير من العراقيين، وقال إن الهجوم وقع على القوات العراقية أثناء انسحابها. وأشار أيضاً إلى أنه في صفوان نفسها، أُجبرت الوحدة العراقية التي كانت تحتل مهبط الطائرات على الانسحاب، على الرغم من أن وقف إطلاق النار كان ساري المفعول. كما أوضح أنه لم يتوقع دخول قوات التحالف إلى الأراضي العراقية بعد أن أعلن العراق انسحابه من الكويت. وكان شوارتزكوف حريصاً على ألاّ ينزلِق إلى مناقشات تتعلق بتلك الشكاوى.

كان الفريق سلطان حريصاً على أن يحصل على تأكيدات بأن الخط الذي اقترحه شوارتزكوف للفصل بين القوات المتضادة، والذي كان مقرَّراً أن تبتعد عنه القوات على كلا الجانبين لمسافة ١٠٠٠ متر، لن يكون خطّاً دائماً، ولن تكون له علاقة بترسيم الحدود.

أجاب شوارتزكوف قائلاً: «إطلاقاً . . . وأؤكد لك أنه لا علاقة لهذا الخط بالحدود، ولا علاقة له بالحدود الدائمة. فهو لا يعدو أن يكون إجراءً أمنياً. كما

أؤكد لك أننا لا ننوي الإبقاء على قواتنا بشكل دائم في الأراضي العراقية، إذا تم توقيع قرار وقف إطلاق النار».

بعد ذلك بدقائق عاد شوارتزكوف إلى الموضوع نفسه، فقال: «هذا وعد مني، أقسم لك، ليس لدينا نية أن يكون هذا خطّاً دائماً!».

بين تلك المداخلات، حدث نقاش قصير بين الفريق سلطان والفريق أول شوارتزكوف تمخّض عن النقطة الوحيدة المهمة والخطيرة في المباحثات.

سأل الفريق سلطان إن كنّا نسمح للطائرات العمودية العراقية بالتحليق في سماء العراق، وادّعى أن ذلك «لحاجتهم إلى نقل بعض المسؤولين الحكوميين وغيرهم من مكان إلى آخر، لأن الطرق والجسور قد دُمرت».

أجابه شوارتزكوف قائلاً: «ما دامت تلك الطائرات لن تحلّق فوق مواقعنا، فلا مانع من ذلك على الإطلاق. سنسمح بتحليق الطائرات العمودية، وهذه نقطة في غاية الأهمية، وأريد التأكد من تسجيلها في محضر الاجتماع. يُسمح بالتحليق فوق العراق للطائرات العسكرية العمودية فقط، دون المقاتلات أو القاذفات».

قال الفريق سلطان: «إذاً، أنت تعني أن الطائرات العمودية المسلحة يمكنها أن تطير في سماء العراق، وليس المقاتلات؟ لأن الطائرات العمودية تؤدي الغرض نفسه، أي تنقل أشخاصاً أو . . .».

قاطعه شوارتزكوف قائلاً: «نعم . . . سأصدر تعليماتي إلى قواتنا الجوية بألاّ تطلِق النار على أية طائرة عمودية تحلّق فوق العراق في ما عدا المنطقة التي نتمركز فيها، أمّا إذا كانت تحلّق فوق المنطقة التي تحتلها قواتنا، فمن الأفضل ألاّ تكون مسلحة، وأن تحمل علامات مميزة برتقالية اللون على جانبيها كإجراء أمني إضافي».

وبينما الجلسة توشك أن تنتهي، ودون أن يثير الفريق سلطان تلك النقطة مرة أخرى، كرَّر شوارتزكوف تعهده الذي قطعه على نفسه، قائلاً: «من جانبنا، لن نهاجم أية طائرة عمودية داخل العراق!».

ولا يخفَى على أحد، أن هذا التنازل المُهم كانت له عواقب وخيمة، لا سيما على أهل البصرة وجنوب العراق، الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة مدافع طائرات صدام العمودية، عندما أعلنوا تمردهم بعد انتهاء الحرب بفترة قصيرة.

نجح الفريق سلطان في دسّ طلبه، على نحو مفاجئ، بمكْر ودهاء، كما لو

كان أمراً غير ذي بال. وسارع شوارتزكوف إلى الموافقة عليه بالطريقة المفاجئة نفسها. فلم يناقش الأمر معي، أو يَسْعَ إلى معرفة وجهة نظري، سواء قبل الاجتماع أو خلاله. كان على شوارتزكوف أن يجعل موافقته مشروطة بأن يكون تحليق تلك الطائرات للأغراض السلمية، وألاّ تكون مسلحة. ولكنه لم يفعل. وأعتقد أنها زَلَّة ندِم عليها بعد ذلك.

دُهِشْت عندما سمعت شوارتزكوف يسمح للعراقيين باستخدام طائراتهم العمودية المسلحة. كنت أشعر بأن ذلك الأمر خطأ كل الخطأ. ولكنني لم أعرب عن وجهة نظري في الحال للسبب نفسه الذي دفعني إلى عدم الاستمرار في الإلحاح في موضوع عودة المدنيين الكويتيين. كنت أتجنَّب الاختلاف مع شوارتزكوف على الملأ، إذ لم أكن أدري توجُّه حكومتي في ذلك الشأن. ولم أتطرق إلى ذلك الموضوع حتى بعد انتهاء المباحثات لعدم جدوى النقاش في شأنه، فقد سبق السيف العذل.

وكما سبق أن ذكرت، كنت وشوارتزكوف قد اتفقنا، في الليلة السابقة على مباحثات صفوان، على الموضوعات التي ستتطرق إليها، وقسّمناها بيننا. ولم ترد فيها قضية الطائرات العمودية من قريب أو بعيد. ولم يكن الموضوع ضمن جدول الأعمال أصلاً. وربما أُثيرت الشكوك حول الحوار الذي دار بين الفريق سلطان وشوارتزكوف فَيُنْظر إليه على أنه أشبه بالأسئلة والأجوبة المُعَدة مسبقاً. وطبقاً لهذه النظرية، فلعل الأمريكيين توقعوا إثارة هذا الموضوع فأَعَدوا إجابتهم عنه. أو لعل شوارتزكوف تأثر بالجو الوُدِّي للمفاوضات، فشعر بأن العراقيين يستحقون أن يُمنحوا تنازلاً، مكافأة لهم بعد أن لَمَسَ تعاونهم في كل القضايا الأخرى، مثل تبادل الأسرى، وإعادة جثث القتلى والشهداء، والفصل بين القوات، وتحديد مواقع حقول الألغام.

وثمة فرضية بعيدة الاحتمال، ذُكرت في مقالة(*) نشرتها إحدى الصحف الأمريكية، تدَّعي أن شوارتزكوف سمح للعراقيين باستخدام طائراتهم العمودية اعتقاداً منه أن وحدات الطائرات العمودية يمكن أن تقود انقلاباً على صدام، وكان ذلك اعتقاداً خاطئاً. وتشير المقالة إلى أن سوء التقدير ذاك قد وَقَرَ في أذهان القيادة العليا الأمريكية من طريق عضو في مجموعة المعارضة العراقية المتمركزة

(*) See Laurie Mylroie, «Iraq's Real Coup: Did Saddam Snooker Schwarzkopf?», *Washington Post*, June 28, 1992.

في لندن، وكان ذا قربى لضابط عراقي يعمل قائداً للطائرات العمودية المسلحة. ولكن صحة هذه الفرضية لم تثبت على حدّ علمي.

استغرقت مباحثات صفوان، التي عُقدت في الثالث من مارس، ساعتين، من الحادية عشرة والنصف صباحاً إلى الواحدة والنصف بعد الظهر. وعندما صافحت الفريق سلطان قلت له أتمنى أن تعود علاقاتنا، بصفتنا عرباً، إلى ما كانت عليه قبل الصراع. ولكن ما أن خرجنا من الخيمة واحداً بعد الآخر إلى ضوء الشمس حتى شعرت بشيء من الإحباط لضحالة ما تحقَّق. إذ لم يوقِّع العراقيون أية وثيقة ناهيك من وثيقة استسلام. ولم يتم التوصل إلى شيء ذي بال، باستثناء ما ظفر به العراقيون من السماح لهم بحرية تحليق طائراتهم العمودية المسلحة. كانت خاتمة مريبة غريبة لحرب كانت حاسمة قاطعة في ميدان القتال. وبدا الأمر وكأنك تشاهد «فيلْماً» سينمائياً مملوءاً بالحركة والأحداث المثيرة. يشدّ انتباهك، فتُمَنّي نفسك بنهاية قوية مؤثِّرة تتناسب ومستوى الأحداث فإذا به ينتهي نهاية مثبطة ضعيفة لا تقنع أحداً. كانت صفوان خطأً فادحاً في كل المقاييس.

وعلى الرغم من التهاني التي تبادلتها وشوارتزكوف مع قادة قوات التحالف الآخرين، إلاّ أنني أعتقد أن شعورنا الداخلي بعدم الارتياح انعكس في حادثة وقعت أثناء المؤتمر الصحافي الذي أعقب المباحثات. صعدت، بعد شوارتزكوف، إلى المنصة لأجيب عن أسئلة المراسلين العرب والغربيين. سألني أحد الصحفيين العرب: «هل تعتقدون أن السلام قد تحقَّق؟». فأجبته بتلقائية: «نعم، والآن أخلع خوذة الحرب وأضع على رأسي قبعة (طاقية) السلام». وفعلت ذلك وأنا أجيب عن السؤال.

ولكن الواقعة التي أقصدها حدثت قبل ذلك بلحظات، عندما سألني أحد الصحفيين الغربيين إذا كان أي من أسرى الحرب قد مات أثناء الأَسْر. فقاطعني شوارتزكوف قبل أن أبدأ الإجابة، وهمهم: «أفضل عدم الإجابة عن هذا السؤال». فتظاهرت بأنني لم أسمع ما قاله، ولكنه كرّر كلماته مرة ثانية وثالثة. وظل يقول عندما يتكرر السؤال: «أفضل عدم الإجابة»، ويضيف: «لا تدخل في التفاصيل». لم تصل مقاطعاته الفظّة إلى أسماع معظم الحاضرين، لأنه كان يتكلم دون أن يحرك فكَّه. ولكن شبكة CNN كانت تستخدم لاقط صوت (ميكروفون)

يمكن أن يلتقط الأصوات من بعد ٢٠ قدماً، فبثَّتْ الموقف برُمَّته إلى جميع أنحاء العالم، مما سبب لكلينا شيئاً من الحرج.

لِمَ تصرف شوارتزكوف على هذا النحو؟ أعتقد أنه فعل ذلك بسبب توتّره وبدافع الصداقة التي تجمعنا. كان يعرف أن مباحثات صفوان لم تحقِّق ما كنتُ أَصْبُو إليه، وكان يخشى أن يدفعني الغضب أو الإحباط إلى أن أقول شيئاً يلقي بظلال من الشك على كل ما توصّلنا إليه. ولكنني لم ألقِ بالاً إلى مقاطعاته، بحكم العلاقة الودية التي كانت تجمعنا.

كان أحد الآراء التي سمعتها في تفسير تصرفه على هذا النحو، أن شوارتزكوف ربما شعر، بعد انتهاء الحرب، أنه لم يعد في حاجة إلى المزيد من تعاوني. كما لَمَسْتُ أن ضباط أركانه لم يكونوا راغبين في أن أتحدث إلى مراسلي وسائل الإعلام على الإطلاق. ومن المرجح أنهم أرادوا أن يُظهِروا قائدهم وكأنه «البطل الأوحد» في حرب الخليج!

الفصل الثالث والعشرون

هدوء العاصفة

أحدث تحرير دولة الكويت وانتهاء العمليات العسكرية، تغيراً جذرياً في واجباتي وواجبات كل من كان معي في قيادة القوات المشتركة. فما أن حلت عملية «وداع الصحراء» محل عملية «عاصفة الصحراء»، حتى وجدت نفسي مستغرقاً مرة أخرى، وبشكل أساسي، في دوامة الإمداد والتموين، كما كان الأمر في بداية الأزمة، إلاّ أن الصعوبات، هذه المرة، تتعلق بتفكيك الآلة الحربية الضخمة لقوات التحالف بدلاً من إقامتها.

تعهد الرئيس بوش للملك فهد بمغادرة القوات الأمريكية ومعداتها المملكة، فور انتهاء الحرب. وكان الأمريكيون حريصين على تنفيذ وعْدهم. ولكنهم كانوا محتاجين إلى مساعداتنا لتنظيم عمليات رحيل قواتهم، كما كانوا، عند بداية الأزمة، محتاجين إلى هذه المساعدات في عمليات تنظيم وصول القوات ونشْرها في المسرح. فوجدت نفسي، مرة أخرى، أعمل عن قرب مع الفريق يوساك، قائد القوات البرية للقيادة المركزية الأمريكية، وأعمل أيضاً مع الفريق پاجونيس رئيس الإمداد والتموين للقيادة المركزية، الذي بقي في المملكة، بحكْم وظيفته، للإشراف على رحيل القوات الأمريكية.

غادرتْ القوات الأمريكية المملكة في أعداد هائلة، وصلت إلى ٥٠٠٠ شخص تقريباً كل يوم، أي ما يزيد على ٣٠٠ ألف خلال ٩٠ يوماً. وربما كانت تلك أسرع عمليات رحيل نفذَتْها الولايات المتحدة عن منطقة صراع في تاريخها العسكري. استُخدم لهذا الغرض أكثر من ٤٠٠ سفينة ضخمة، ذات أماكن فسيحة تسمح بتحرك العربات والمعدات داخلها بحرّية. وهنا برزت، مرة أخرى، القيمة الكبرى للمرافق الحديثة في موانئنا.

يحدثنا تاريخ الحروب المعاصرة أن الجيوش الأمريكية خَلّفت وراءها، في نهاية الحرب العالمية الثانية، الكثير من معداتها الحربية في ألمانيا، ولم تأخذ معها سوى القليل. أما في الحرب الكورية، فلم يكن لدى القوات الأمريكية هناك إلاّ قدر قليل من العتاد. أمّا في ڤيتنام، ولأن الأمريكيين غادروها على عَجَل، فقد خَلّفوا وراءهم عتاداً يُقَدّر بمليارات من الدولارات مكدساً في المخازن، بما في ذلك دبابات وقِطع مدفعية وعربات نقل جُنْد مدرعة وورش كاملة وغير ذلك الكثير. ولعل حرب الخليج هي أول حرب في التاريخ الأمريكي يتِم فيها إخلاء كل الجنود وأغلب العتاد من مسرح العمليات. بينما بِيعَ الفائض من مختلف الأصناف بكمياته الهائلة في مزادات علنية قرب قاعدة الملك عبدالعزيز الجوية في المنطقة الشرقية. كانت هناك جميع مواد البناء: الأخشاب، والأسقف، وتوصيلات الكهرباء والمياه والصرف الصحي، بالإضافة إلى العربات والمعدات الهندسية من كل الأنواع. غطّت هذه البضائع والعربات مساحات شاسعة، فكان ذلك منظراً غير عادي يستحق المشاهدة حقاً.

في بداية الأزمة، حين بدأنا تعبئة موارد المملكة لتأمين احتياجات قوات التحالف، لم يحدث الكثير من الاتصالات المباشرة بيني وبين الفريق پاجونيس، إذ كان يتعامل مباشرة مع ضباط أركاني للتفاوض في شأن العقود وإبرامها لتأمين احتياجاته من الإمدادات والتموين. أما خلال عملية «وداع الصحراء»، فكان عملُنا في صورة أقرب من ذي قبل. كان يأتي لمقابلتي كل أسبوع؛ ليطلعني على أعداد القوات الأمريكية التي لا تزال في المملكة، وأعداد العقود التي ما زالت سارية المفعول، ومستحقات المقاولين التي لم تتِم تسويتها، وليطلب مساعدتي ومساعدة ضباط أركاني في حلّ كثير من المشاكل، مثل معالجة أمر الشاحنات والعربات التي استأجرناها لقوات التحالف، وفُقدت أو دُمّرت في العمليات العسكرية. وكذلك أمر بعض الحافلات التي استُخدمت لجمع أسرى الحرب من داخل العراق، فتعطلت أو دُمرت أو تُركت في الصحراء. وبلغ عدد الحافلات المفقودة، في إحدى المراحل، ألف حافلة من أربعة آلاف تقريباً كانت تُستخدم بالفعل. لذلك، أرسلنا مجموعات للبحث عنها، وإعادتها إن أمكن ذلك، قبل انتهاء فترة العقد ومطالبة أصحابها بالتعويضات. وكان علينا فحْص كل طلب من طلبات التعويض على حِدَة، لاتخاذ القرار المناسب في شأن الدفع.

انتهت الحرب، ولدى المملكة مخزون هائل من الخيام والبطاطين والملابس

والعربات من كل نوع وطراز، فضلاً عن قطع الغيار والمولدات، وغيرها كثير مما قمنا بتأمينه خشية أن يطول أَمَد الحرب. كانت توجيهات الأمير سلطان تقضي بأن نُهدي قوات التحالف التي هبَّت إلى مساندتنا (وبعضها جاء من أقاصى أفريقيا) كميات كبيرة من تلك المعدات، تعبيراً عن شكرنا وتقديرنا لوقوفها معنا في خندق واحد، ومؤازرة دولها السياسية والعسكرية التي تستحق منّا الإشادة والعرفان بالجميل. كما أخذت تلك القوات أيضاً جزءاً من المعدات العراقية، التي تم الاستيلاء عليها. فاكتفى بعضها بأشياء رمزية، بينما أخذ بعضها الآخر كميات غير قليلة من تلك المعدات.

كان من دواعي فخري أنه، على خلاف كل الحروب التي وقعت عبْر التاريخ، لم تنشأ في المملكة سوق سوداء للاتِّجار بالاحتياجات العسكرية. وكانت تلك مفاجأة لقادة قوات التحالف. كان من الممكن، إزاء فوضى الحرب ووفرة المعدات، أن تُسرق بعض البضائع أو تُشترى بطرق غير مشروعة، ومن ثم تظهر معروضة للبيع في السوق السوداء. ولكنني لا أذكر سوى حادثتين أو ثلاث من هذا النوع، وقعت في المملكة سواء أثناء الحرب أو في الأشهر التي تلتها.

كان من دواعي فخري، كذلك، أننا عندما ذهبنا لتفتيش المواقع التي كانت تتمركز فيها قواتنا، لم نجِد طلقة حية واحدة خَلّفَها الجنود وراءهم. ولربما كانت تعوز رجالنا بعض الخبرات القتالية، إلاّ أن اعتناءهم بمعداتهم كان محل الفخر والثناء! وكان هذا الانضباط لدى جنودنا يفوق ما لمسناه لدى بعض قوات التحالف الأكثر عدداً والأضخم عدةً. فعندما فتشنا بعض مواقع تمركُز القوات المتحالفة، عثرنا على كميات من الذخيرة الحية، تُرِكَت من دون حراسة، منها ذخيرة الدبابات وقذائف مدفعية الميدان وصواريخ الراجمات، بل إن بعض الأسلحة الفردية وذخيرتها تُركت وكأنها من المهمَلات. فعندما حمي الوطيس، أخذت القوات حاجتها وخلّفت الباقي وراءها. ولتوثيق هذه الحقائق، التقطْنا صوراً لِمَا وجدناه، وصوَّرنا «فيلم ڤيديو» على الطبيعة، وأحطنا حلفاءنا علماً بذلك. وحتى النفايات الضخمة التي خصصنا مناطق محددة لحرقها، لم تخلُ من وجود ذخيرة حية. وعليَّ أن أسجل، للتاريخ، وجود انتهاكات في تلك الحرب لأبسط قواعد الأمن والسلامة. فبعد انتهاء الحرب، استغرق الأمر عامين أو أكثر من العمل الشاق وإنفاق عشرات الملايين من الدولارات لرفع مخلفات الحرب

من مناطق الرعي شمالي المملكة، حفاظاً على أمن وسلامة المواطنين ومواشيهم في تلك المناطق. فغدت آمنة، كما كانت من قبل.

وجهت قدْراً كبيراً من اهتمامي، خلال الأشهر الأخيرة من قيادتي، إلى قضية الفارّين وأسرى الحرب واللاجئين المدنيين العراقيين. فعندما وصلتْ طلائع الفارّين في شهر سبتمبر١٩٩٠، سألت الأمير سلطان إن كان في وسعنا الإعلان عن وصولهم، إلا أنه أشار، بحكمته ونفاذ بصيرته، إلى أن الوقت لم يَحِنْ بعد لسببين: أولهما، أن علينا تجنب استفزاز صدام ريثما نستكمل استعدادنا لمجابهته. وثانيهما، أننا كنا لا نزال نأمل في استقبال المزيد منهم. لذلك، فالإعلان المبكر عن وصولهم سيدفع صداماً إلى الانتقام من ذويهم، ويؤدي إلى انقطاع تدفُّقهم إلى المملكة.

ومع مطلع شهر نوفمبر، كنا نُؤوِي ٣٥٠ عسكرياً من الفارين من الجيش العراقي. كانوا يَفِدون إلينا مثنى وفرادى، إما بدافع الخوف من الحرب القادمة، أو لخيبة أملهم في صدام، أو لأسباب شخصية أخرى. وقرّرنا منذ البداية أن نعاملهم كلاجئين، لا كأسرى حرب، فوفّرنا لهم مسكناً مريحاً وراتباً شهرياً مُجْزِياً وسوى ذلك من الرعاية. وخشية أن يكون بينهم عدد من الجواسيس، قرّرنا إخلاءهم جميعاً إلى الخطوط الخلفية، لاستجوابهم من جانب هيئة استخبارات وأمن القوات المسلحة السعودية، وتم إيواؤهم في أحد المعسكرات. وكان هؤلاء الفارّون مصدراً ثميناً للمعلومات. ففي ضوء معلوماتهم، بدأنا نرسم صورة أكثر دقة للقوات العراقية التي تواجهنا. وكانت النتيجة المبدئية التي توصلنا إليها، حتى قبل التدمير الذي أحدثته الحملة الجوية، أن الجيش العراقي لا يملك قدرة كبيرة على القتال. وأكدت مصادر استخبارية أخرى أن أعداداً كبيرة من الجنود تتحيّن الفرصة للاستسلام.

وتبيّن لي من تقارير الاستخبارات، أننا قد نحتاج إلى إيواء عدد كبير من أسرى الحرب. ودُهش بعض ضباط أركاني، حين أصدرت تعليماتي ببناء معسكرات تتَّسِع لمائة ألف رجل. فأقيم معسكر في النعيرية، وآخر قريب من حفر الباطن. أمّا المعسكر الثالث فأقيم على مشارف الأرطاوية في منطقة منعزلة بعيدة عن المدينة الرئيسية، وهو أكبر المعسكرات حجماً ويتّسِع لنحو ٤٥ ألف

رجل. وكان الأمر يستلزم شَق الطرق إلى تلك المعسكرات وتعبيدها، ونصْب الخيام، وتخزين المواد الغذائية، وتوصيل المياه إليها بالصهاريج. وأسندتُ قيادة كل معسكر إلى ضابط سعودي برتبة عميد، كما أَوْكلتُ مهمة الإشراف على كل المعسكرات إلى اللواء حاتم عبدالله العكاسي الذي كان يرأس قسم شؤون اللاجئين والأسرى في قيادة القوات المشتركة. وبنهاية الحرب، كان لدينا أكثر من ٦٠ ألف أسير عراقي، أعلن ما لا يقل عن ١٤ ألفاً منهم عن رغبتهم في عدم العودة إلى وطنهم! وأدليت، في ذلك الوقت، بتصريح للصحافة العالمية مؤداه أن سياستنا في معاملة هؤلاء الأسرى تقوم على أساس تطبيق بنود اتفاقية جنيف الخاصة بأسرى الحرب، وعليه فإنهم سيبقون في معسكراتهم حتى يقرِّروا العودة إلى بلادهم أو الهجرة إلى بلدان أخرى. وفي غضون ذلك، كان علينا أن نقوم على شؤونهم، من توفير للطعام والمأوى والرعاية الطبية والخدمات الأخرى اللازمة.

عندما بدأنا أخذ الأسرى، اندلعت أعمال شغب في أحد المعسكرات، فأرسلتُ لجنة للتحقيق في الأمر، علمتُ من تقريرها أن قائد المعسكر (الذي ربما قد شاهد «فيلماً» عن معسكرات الأسرى في الحرب العالمية الثانية)، كان متحمساً أكثر مما يجب. إذ أخضع الأسرى لطوابير عِدة، وإلى كثير من إجراءات الانضباط، كما منع التدخين الذي كان السبب المباشر لهذه الاضطرابات. قمت بتغيير القائد ومساعديه، وأصدرت تعليماتي إلى القائد الجديد: «لا تكن فظّاً معهم. عامِلهم معاملة لائقة. انظر إلى المعسكر على أنه مدرسة، ولْتكن مدرسة يسودها النظام والانضباط. اسمح لهم بالتدخين، إذا كان ذلك ما يريدون. شدّد الحراسة حول المعسكر، ولكن دَعْهم ينعَموا بقدْر أكبر من الحرية ما داموا لا يسيئون التصرف». وفي حقيقة الأمر، كانت تلك خبرة جديدة لنا جميعاً. فلم يَسبِق أن تعاملنا مع أسرى الحروب من قبل. ولم تكن ثمة سابقة نسترشد بها.

وصل معظم الأسرى إلى معسكراتنا في حالة يُرثى لها، منهوكين من الجوع والتعب، ويعانون الأمراض والأوساخ. كان جُلُهم من الشباب المراهقين الذين تطفح قصصهم بالمرارة والأسى. كان الجانب العراقي يعاني ندرة شديدة في المياه والطعام، وظل بعضهم أشهراً عدة من دون اغتسال. ولكنّ حالهم تبدّلت بشكل ملحوظ بعد يوم أو يومين من توافر الطعام والاستحمام والنوم المريح.

زرت أحد معسكرات الأسرى، وتحدثت طويلاً إلى مجموعة منهم، يتراوح

عددهم بين ٤٠ و٥٠ ضابطاً. طلبتُ من الحرس أن يغادروا المكان، جلست معهم، ولم يكن يرافقني، فقط، سوى قائد المعسكر والنقيب زكي، قائد مجموعة الأمن والحماية الخاصة. ها هم حلفاء الأمس ورفقاء السلاح، أسرى بين أيدينا. كان شعوراً يبعث على الأسى، ومناسبة لا تدعو إلى الابتهاج في حال من الأحوال.

بدأت بسؤالهم إن كانوا يَلْقَوْن معاملة طيبة، وأكّدت لهم أنهم سيحصلون على الوجبات الغذائية نفسها التي يحصل عليها ضباطنا وجنودنا. وعبّرت لهم عن حزني لما أصابهم، وأنه أمر خارج عن إرادتنا وإرادتهم. وأخبرتهم أنني أفضِّل، من جانبي، أن أسمِّيهم لاجئين عسكريين، لا أسرى حرب. وكان خادم الحرمين الشريفين قد أصدر توجيهاته بمعاملتهم كضيوف على المملكة، وألاّ ننسى أن كل إهانة لهم هي إهانة لنا.

رفع أحدهم يده قائلاً: «سيدي، إننا نُقَدّر كل ما تقوم به المملكة تجاهنا، ولكن نفضِّل تسميتنا أسرى حرب بدلاً من لاجئين».

أثارت كلماته فضولي، وأردت أن أعرف السبب.

أجاب: «إذا أطلقتم علينا اسم «لاجئين»، فإن عائلاتنا ستُقتل. وأضرب لك مثلاً ببعض الجنود الذين فَرّوا إليكم قبل الحرب الجوية. أنا أعرف واحداً منهم. ذهب رجال السلطة إلى بيته، فاغتصبوا النساء على رؤوس الأشهاد، ثم قتلوا كل أفراد عائلته. لذلك نرجوك ألاّ تدعونا لاجئين».

توسَّل إليّ الأسرى ألاّ تُنْشر أسماؤهم أو تظهر صوَرهم في وسائل الإعلام. ولهذا السبب، عندما زرت أحد الأجنحة في مستشفى مملوء بالجرحى العراقيين، أمرت بإبعاد جميع المراسلين والمصوِّرين المرافقين، وإتلاف كل «أفلام الڤيديو» أو الصور التي يظهر فيها العراقيون، وهم يشكرونني أو يمدحون المملكة. لم أحتمل مجرد التفكير في ما قد يَحلّ بذويهم أو أُسَرِهِم. فمع صدام حسين، كنّا نتعامل مع شخصية غير سوية في كل المعايير.

وعلى الرغم من أننا كنّا مُهَيَّئِيْن، إلى حدّ ما، للتعامل مع أسرى الحرب، إلاّ أن إيجاد مأوى لسيل عرم من اللاجئين العراقيين، لم يكن ضمن حساباتنا على الإطلاق. لم أكن أتوقع حدوث تمرد في جنوبي العراق في مارس١٩٩١،

وبالتالي لم يكن في حساباتي لجوء الآلاف إلينا، لحمايتهم من بطش صدّام. كان تسلسل الأحداث، الذي تخيلته بعد تحرير الكويت واحتلال القوات الغربية لثلث مساحة العراق، هو أن صداماً سوف يُنحَّى عن السلطة بفعل ثورة شعبية عارمة، ومن ثم تأتي حكومة تمثِّل الشعب العراقي تمثيلاً حقيقياً. ولكني أدركت سريعاً خطأ تقديري هذا.

تَجَمّعتْ في الأسابيع التي تلت عملية عاصفة الصحراء، أعداد غفيرة من العراقيين، رجالاً ونساءً وأطفالاً، معظمهم من الشيعة في الجنوب، في معسكرات مؤقتة داخل العراق على مقربة من الحدود الكويتية، ولجأوا إلى الحماية الأمريكية هرباً من اضطهاد صدام وبطشه. كان بين اللاجئين أفراد من الجيش العراقي، وكم كانت دهشتنا عندما اكتشفنا أن عدداً منهم وقع في أيدينا مرتين! فعندما وقعوا في أَسْرِنا، أثناء الحرب البرية، أعدناهم إلى العراق في عملية تبادل الأسرى التي أعقبت وقف إطلاق النار. ولكن السلطات العراقية أجبرتهم على الانخراط في الجيش مرة أخرى، وأَرْسلتهم إلى البصرة لإخماد التمرد هناك. أمّا الذين رفضوا الانصياع للأوامر، فقُتلوا على الفور. بينما فَرّ إلينا بعضٌ من أولئك الجنود، من تلك الجبهة، ضمن أعداد اللاجئين.

أرسلتُ نائبي اللواء عبدالعزيز آل الشيخ لتقييم موقف اللاجئين على الطبيعة. وأصدرتُ إليه تعليماتي بإسكانهم في الخيام، وتزويدهم بإعاشة طوارئ تكفيهم لأسابيع عدة. تصورت أن صداماً سَيُطاح به، ومن ثَم يعود هؤلاء اللاجئون إلى ديارهم.

بلغ عدد اللاجئين في صفوان ٦٥٠٠ شخص، وبلغوا أكثر من ذلك في السّادة، وهي منطقة تقع إلى أقصى الغرب من صفوان. لم تكن الكويت، بعد ما عانته من صدام، على استعداد لقبول هؤلاء اللاجئين. كانت مِحْنَتُهم قاسية حقاً. فالأمريكيون يستعدون للانسحاب من العراق، بعد سريان وقف إطلاق النار، وهذا من شأنه أن يترك اللاجئين تحت رحمة صدام مرة أخرى.

قال لي شوارتزكوف: «إننا نواجه مشكلة. عليَّ أن أسحب قواتي. ولكن الكويتيين يرفضون أخذ اللاجئين. فإذا مكثوا في أماكنهم، فذلك يعني الموت المحقَّق لهم لا محالة. فما الحل؟».

هكذا واجهتُ أصعب مأزق. شعرت بأن علينا إيواءهم في المملكة، ولكني كنت أدرك أنني ربما سأواجه في ذلك معارضة شديدة. ولكن بعد أن قَلّبت الأمر

على أوجهه، وحسبت حساب المؤيدين والمعارضين، وصلتُ إلى قناعة مَفادُها أن السعوديين أَوْلى بحماية العرب من الأمريكيين. وأردت أن يتاح للمملكة شرف القيام بهذه المهمة الإنسانية. لقد قاتَلْنا العراق، ولكننا سنتولى حماية العراقيين. كان ذلك أقلّ ما يمكن أن نقوم به لتلتئم جراح شعبين ما فتئت تنزف دماً.

طلبت من شوارتزكوف أن يُبقي على قواته في مواقعها، ريثما أتخذ الاستعدادات اللازمة لاستقبال اللاجئين. وطلبت من الفريق يوساك أن ينقل اللاجئين الموجودين في صفوان جواً إلى معسكرٍ أقمناه على عجل بالقرب من رفحا، على بعد نحو ١٥ كيلومتراً داخل حدودنا. كما نُقل اللاجئون المتجمعون عند مركز السّادة بالقرب من رفحا إلى المعسكر براً. كانت السعادة تغمرهم بعد أن كُتِبَت لهم النجاة من الانتقام الدموي لصدام. وخلال أيام قليلة كان لدينا ما يقرب من ٢٥ ألف عراقي، اقتضى أن نوفر لهم الطعام والكساء والمأوى ونرعى كل شؤونهم.

وعقِب زيارتي لهم، عيَّنت اللواء الركن عطية عبدالحميد الطوري قائداً للمعسكر، وكان يشغل منصِب قائد المجموعة الخامسة دفاع جوي في المنطقة الشرقية، وهو ضابط يُشهد له بالكفاءة الإدارية النادرة، وأعرف عنه الحكمة والمواقف الإنسانية. واتَّضح لي، بعد ذلك، أن اختياري كان في محله. فعندما غادر المعسكر ليعود إلى عمله في قوات الدفاع الجوي، ترك فراغاً كبيراً وافتَقَدَه كل اللاجئين. نجح اللواء عطية الطوري في كسب ثقتهم وحبهم، وكان عمله في ذلك المعسكر شاقاً بحق، بل كان أيضاً بالغ الحساسية من الوجهة السياسية.

كنت حريصاً على بناء معسكر نموذجي للاجئين. وبناءً على تعليمات خادم الحرمين الشريفين، وتوجيهات الأمير سلطان، وتعاون كثير من الأجهزة الحكومية السعودية والمنظمات الخيرية، بدأ سيل الإغاثة يتدفق إلى اللاجئين ليخفِّف من معاناتهم، مئات من الأغنام كل يوم، شاحنات محملة بالفاكهة والخضراوات، عشرات الآلاف من قوارير المياه، وأدوات المطبخ، ومسحوق الحليب للأطفال، وملابس، وبطانيات، وأغطية، وفُرُش، وأثاث، حتى الملابس الداخلية، وأدوات التجميل للنساء، كل أولئك حَظِيَ به اللاجئون. قامت هيئة الإغاثة الإسلامية، وهي منظمة عالمية مقرها الرياض، بجهد مشكور في أعمال الإغاثة، وأُسندت إليها مهام عدة، مثل: توزيع الملابس للرجال والنساء والأطفال، وإرسال الرسائل واستقبالها. وعند تخطيط المعسكر، خصَّصنا قسماً من الخيام للرجال الأعزاب أو

للرجال دون عائلاتهم، وقسماً آخر للعائلات، وقسماً ثالثاً للنساء غير المتزوجات. ولكن هذا التقسيم لم يكن يعكس الواقع الحقيقي، فكان هناك كثير من النسوة اللائي فَقَدْنَ الاتصال بآبائهن وأزواجهن أثناء هروبهن المذعور من قنابل صدام، وكان هناك رجال لا يعرفون ما حلّ بنسائهم وأطفالهم، وأطفال انفصلوا عن ذويهم وكانوا في عِداد اليتامى. ضمَّ المعسكر قلوباً يملأُها الأسى، وعيوناً لا تكاد تجفُّ في مآقيها الدموع.

ولتسهيل السيطرة على المعسكر من الناحية الإدارية، وفي محاولة لجمع شتات الأُسَر المتفرقة، أنزلنا اللاجئين في أقسام منفصلة، طبقاً للمحافظات التي نزحوا منها في العراق. وقمنا بتعيين واحدٍ من الأعيان أو شيخ قبيلة، ليكون رئيساً للمحافظة، ووسيطاً بين اللاجئين وقيادة المعسكر، للمساعدة على حلّ المشاكل عند حدوثها. وخصَّصنا خيمة اجتماعات لكل واحد من رؤساء المحافظات، بالإضافة إلى راتب مُجْزٍ وكميات من القهوة والسكر والتمر والفاكهة ليقوم بواجب الضيافة نحو زواره. وكانت مراكز السلطة والنفوذ تلك عوناً كبيراً لنا في إدارة المعسكر.

استأجرنا، كذلك، فندقاً في الرياض لإقامة اللاجئين عند مجيئهم إلى العاصمة لمراجعة المستشفيات أو السفارات. وتمكَّن الآلاف منهم، بمساعدتنا ومساعدة المفوضية العليا لهيئة الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين، من تحقيق رغبتهم في الاستيطان في أكثر من ثلاثين دولة.

واسترعى انتباهي أن بين اللاجئين العراقيين نحو ٢٥٠ مهندساً، وما يزيد على ١٠٠ طبيب، وكذلك عدد كبير من الموظفين المدنيين والدبلوماسيين والمدرسين وأصحاب المصانع والمحافظين، وشخصيات مرموقة أخرى. اجتمعت إليهم مرات عدة، وبذلنا كل ما في وسعنا لتوفير وظائف مناسبة لبعضهم داخل المعسكر تَدِر عليهم دخلاً معقولاً. كما ضَم المعسكر أيضاً عدداً من الهاربين من السجون ومثيري الشغب والمخربين، وعملاء من شرطة صدام السرِّية. وبعد إلقاء القبض على عدد منهم علِمنا أن بعضهم كان يخطط لإضرام النار في المعسكر، وتسميم مياه الشرب، وإذكاء نار الفتنة بين القبائل ، واغتيال المسؤولين، كذلك سرقة البطاقات الشخصية لرؤساء المحافظات وللشخصيات العراقية البارزة في المعسكر، الذين تم تعيينهم، حتى تتمكن السلطات العراقية من التعرف بهم والانتقام من ذويهم.

قَدّم إلينا أحد المخبِرين مساعدة كبيرة، عندما سَلّم نفسه إلى قيادة المعسكر، بعد أن شعر بوَخز الضمير جراء الأُسر الكثيرة التي لاقت حتْفها بسبب بلاغاته. أرشدَنا إلى عدد من العملاء العراقيين، من بينهم شخص ادَّعى أنه طبيب، وظل يعمل في إحدى عيادات المعسكر، ثم اتَّضح أنه لم يكن سوى بائع نظارات طبية، ودَأبَ على إرسال المعلومات إلى خارج المعسكر بتحويل مرضاه إلى المستشفى العام في مدينة رفحا القريبة، حيث يمكنِهم الاتصال بالجواسيس العراقيين. وكانت تساعده على عمله ممرضة ادَّعى أنها زوجته، واتَّضح، فيما بعد، أنها لم تكن ممرضة، ولم تكن زوجته، بل هي إحدى عميلات النظام العراقي. فوضَعنا الطبيب و الممرضة تحت المراقبة الدقيقة، وأوقَفنا نشاطهما، بعد فترة وجيزة.

ولعل أخطر هؤلاء العملاء أو «عقلهم المدبر»، كان ضابطاً برتبة ملازم، لم تتمكن استخباراتنا من إلقاء القبض عليه؛ لأنه كان دائب الحركة في أنحاء المعسكر. ولكن اللواء عطية الطوري، قائد المعسكر، تمكَّن بذكاء، من تجنيد لاجئَيْن من عتاة المجرمين السابقين للقيام بتلك المهمة، كان أحدهما ضخماً قوياً بارز العضلات. وبعد أن أعطاهما التعليمات سراً سلّمهما مبلغاً من المال، وهيَّأ لهما سيارة إسعاف، فعادا بعد قليل، بالملازم مشدود الوَثاق في مؤخرة السيارة. إذ تمكَّن الاثنان من استدراجه خارج إحدى الخيام، بعد أن أوهماه أن رجلاً مريضاً، ظن أنه أحد عملائه، يريد التحدث إليه. وبعد خروجه معهما طرحاه أرضاً وشدّا وَثاقه.

كانت هناك حوادث أخرى مماثلة، بعضها مثير للشفقة، وبعضها غريب مضحك، وبعضها خطير حقاً. ففي إحدى الليالي، اتصل بي اللواء عطية الطوري ليخبرني أن حراسنا عثروا على امرأة عراقية وبناتها الثلاث في الصحراء المجاورة للمعسكر. وادَّعت المرأة أن زوجها موجود في الداخل، وتوسَّلتْ أن تسمح لها السلطات بالدخول لتلْحَق به. كانت المرأة وبناتها الصغيرات في حالة تدعو إلى الشفقة. فما العمل؟

أصدرتُ تعليماتي إلى اللواء عطية أن يسمح لها بالدخول، ثم يتأكد من صِدق روايتها فيما بعد. وَوُضعت المرأة وبناتها تحت الحراسة تلك الليلة. وفي الصباح، عُثر على الزوج، واجتمع شمْل الأسرة مرة أخرى، وغلبتْهم جميعاً، الأب والأم والأطفال، دموع الفرح. حدث ذلك على مرأى من اللاجئين الذين

أَجْهَشوا بالبكاء، وهم يشاهدون تسابق الصغيرات البريئات إلى الارتماء في حضْن أَبِيْهِنَّ، ويسمعون نَشِيْجَ الزوجة تبكي ولا تكاد تصدِّق ما ترى. ويقول اللواء عطية إن المشهد كان مؤثِّراً للغاية. يحرِّك أعمق المشاعر، وتَلِين له أقسى القلوب.

وفي حادثة أخرى، تمكنتْ مجموعة كبيرة من اللاجئين مؤلفة من ٧٠ رجلاً وامرأة وطفلاً من الهرب، بعد أن فتحوا ثغرة في السلك الشائك المحيط بالمعسكر. طارَدَهم الحراس ولَحِقوا بهم وأعادوهم في حافلتين بعد جدال طويل معهم. وعند وصولهم إلى بوابة المعسكر رفضوا النزول، وبَدَوْا كأنهم في حالة من الهستيريا الجماعية.

قابل اللواء عطية الطوري قادة هذه المجموعة ليعرف منهم أسباب إقدامهم على تلك المغامرة الطائشة بل الانتحارية، إذ كانوا سيَلْقَوْن حتفهم جميعاً لا محالة، إن استمروا هائمين على وجوههم في الصحراء المفتوحة دون مأوى أو طعام أو شراب. وكم كانت دهشته، عندما علم أنهم استحضروا الأرواح في الليلة الماضية، وأخبرتهم روحٌ منها أن المعسكر سيتعرض لهجوم بصواريخ سكود العراقية في الخامسة من صباح اليوم التالي، وأنهم سيموتون في ذلك الهجوم، فصدَّقوها وانطلقوا لا يَلْوُوْنَ على شيء، ليفلِتوا من موت محقَّق!

علا صراخهم ونحيبهم، ورفضوا جميعاً النزول من الحافلتين. وتوسلوا إلى اللواء عطية أن يُخْلي سبيلهم. فتحدث إليهم طويلاً، وناشدهم، بصفتهم مسلمين، أن يدَعوا هذه الخرافات، وألاّ يعتقدوا بهذه الخزعبلات، لكن ذلك ما كان ليثنيهم عن عزمهم، كما لو كانوا جميعاً واقعين تحت تأثير التنويم المغناطيسي. هداه تفكيره إلى اتخاذ قرارٍ حكيمٍ بالسماح لهم بقضاء الليلة في الحافلتين بعيداً عن أسوار المعسكر. وفي صباحَ اليوم التالي، أشرقت الشمس، ومرت الساعة الخامسة ولم يحدث شيء. ولم يظهر أي صاروخ عراقي. وبعد أن ارتفعت الشمس إلى كبد السماء، اشتدت الحرارة داخل الحافلتين، وبدأت تتعالى صرخات الأطفال الجَوعَى وأنّات النساء المجهَدات. وما أسرع ما تحول الجدال بين اللاجئين إلى اشتباك بالأيدي. وبعد فترة وجيزة، سعد الجميع بالعودة إلى الراحة والأمان داخل المعسكر، مرة أخرى.

ومما يدعو إلى الدهشة، أن الطلبات التي قدَّمها إليَّ اللاجئون، أثناء زيارتي التفقدية للمعسكر، لم تكن تتعلق بأحوال معيشتهم قدْر تعلقها بالجوانب السياسية. هل يمكن أن تسأل الملك فهداً مساعدتنا ضد صدام؟ لِمَ لَمْ تقضِ قوات التحالف عليه؟ كان ذلك هو الموضوع الذي طرحوه في كل زيارة.

كان في المعسكر تياران سياسيان بارزان. الأول بزعامة الشيخ محمد رضا الساعدي، ويتألف من أتباع باقر الحكيم، وهو من زعماء المعارضة البارزين للنظام العراقي، ومقره إيران. والثاني يضم الشيخ حسين علي الشعلان وأتباعه، وهو أحد وجهاء القبائل وعضو في المجلس الوطني العراقي. وتبيَّن لنا أن بعض العملاء العراقيين كانوا يحاولون إثارة الفتن والإيقاع بين هذين التيارين. وكشفنا النقاب عن مؤامرة لاغتيال الشيخ الشعلان، واتِّهام مجموعة الساعدي بقتْله لإذكاء نار الفتنة بين الجانبين.

وحدث ذات مرة، أن زار المعسكر وفد من ١٤ رجلاً من مجموعة باقر الحكيم، كان بينهم رجال دين يرتدون العمائم. ولكن بعد دخولهم، توقفتْ حافلتهم عن السير بعد أن أحاطت بها الجموع من كل جانب، كان عددهم يربو على الألف شخص قَدِموا من كل حدب وصوب، يضربون صدورهم بأيديهم ويهتفون: «ماكو زعيم إلاّ حكيم». لم تستطع الحافلة التحرك لا إلى الأمام ولا إلى الخلف، ولم يتمكن ركابها من مغادرتها. كانت جموع الغوغاء تضرب نوافذ الحافلة بقبضات أيديها، وتتسلق إلى سقفها، وبدت كأنها تريد أن تقلب الحافلة بمن فيها. كان اللاجئون في حالة من الهياج الشديد حتى إن المرء لا يدري إن كانوا مناوئين لمن في الحافلة أم مرحبين بهم. وفي آخر المطاف، وبصعوبة بالغة، تمكن اللواء الطوري، الذي نشر وحدات مسلحة حول المعسكر، استعداداً للطوارئ كعادته، من إيصال مكبر للصوت إلى رئيس الوفد الذي استطاع تهدئة الجمع الغفير وتفريقه بعد ذلك.

لم نعرف سبب تلك الفوضى إلاّ بعد إلقاء القبض على عدد آخر من الجواسيس العراقيين. واتَّضح أن عملية الشغب كانت متعمَّدة من جانب العملاء العراقيين. كانوا يخططون لاغتيال الوفد بكامله، وإثارة المشاعر داخل المعسكر، وإشعال نار التمرد، وتعريض المملكة للإدانة العالمية.

وبعد أن هدأت الأوضاع في المعسكر، وأصبحت الأمور تسير بشكل عادي، أمر الملك فهد بتحسين الظروف المعيشية للاّجئين. وبناءً على هذا الأمر، أصدر الأمير سلطان تعليماته بأن نشرع في بناء معسكر جديد يتَّسِع لإيواء ٣٥ ألف نسمة في موقع ممتاز يبعد نحو خمسة كيلومترات عن المعسكر الأول. واستدعيت المقاولين المدنيين، ووضَعنا المخططات، منذ البداية، ليكون المعسكر مدينة نموذجية يرتبط بمدينة رفحا من طريق معبدة، وتُمَدّد إليه الكهرباء، ويزوّد بشبكة

للصرف الصحي، وعدد من محطات التحلية، بالإضافة إلى مساكن دائمة للاجئين، ومدارس ابتدائية وثانوية للبنين والبنات، ومستشفى كبير، وعدد من العيادات الصحية، والمكتبات، والصالات الداخلية والملاعب الرياضية، والمرافق الأخرى اللازمة للعمل والترفيه. كذلك، اتخذنا الترتيبات اللازمة لإرسال عدد كبير من اللاجئين لأداء فريضة الحج في كل عام. ونالت جهودنا استحساناً من وسائل الإعلام العالمية واللجنة الدولية للصليب الأحمر، التي أبلغتنا أن الأموال التي أنفقتْها المملكة على اللاجئين العراقيين تعادل ٣٠٪ من مجموع المبالغ التي أنفقتْها اللجنة على ١٨ مليون لاجئ في أرجاء المعمورة. فمعسكر رفحا يُعَدّ، في كل المقاييس، تحفة رائعة ومعسكر لاجئين «خمس نجوم»، ولا يوجد له مثيل في أي مكان في العالم، ويحق لنا أن نعتز به ونفاخر.

كان النهج الذي سلكته في تعاملي مع وسائل الإعلام، هو معاملة المراسلين على أسُس من الصراحة والاحترام، فضلاً عن مراعاة حقِّهم في أن يعرفوا كل شيء، بما لا يَمَس أمْن وسِرّية العمليات العسكرية. فإن كانت الصحافة هي المسوَّدة الأولى للتاريخ، فحرمان الصحفيين من المعلومات والأخبار يعني جفاف منابع التأريخ.

في بداية الأزمة، ومع تصاعد الأحداث، تعرضت لشيء من الضغوط للموافقة على مقابلة تليڤزيونية يجريها معي تيد كاپل Ted Koppel في برنامجه نايت لاين Night Line تُبَث على الهواء مباشرة. كان اللقاء ناجحاً، على الرغم من أنها المرة الأولى لظهوري أمام كاميرات التليڤزيون، مما شجعني على لقاء المراسلين بعد ذلك. ويطيب لي أن أشيد بلباقة تيد كاپل وكياسته في إدارة ذلك اللقاء.

وأثناء الحرب، قدمت أحاديث تليڤزيونية إلى عدد من المراسلين الأمريكيين أخصُّ منهم جون سويني من شبكة CNN، وفورست سوير Forest Sawyer من شبكة ABC News، وإد برادلي Ed Bradley من شبكة CBS، وكلهم يستحقون الإشادة. وعلى الرغم من أن أسئلة سويني كانت حساسة، إلا أنه نجح في تقديم صورة لشخصيتي، أعتقد أنها كانت منصِفة. وبعد أن التقيت فورست سوير أثناء تسجيلي برنامج نايت لاين، كتب لي خطاباً لطيف العبارات راجياً فيه إجراء

مقابلة معي. فاستجبت لطلبه، ودعوته إلى تناول وجبة معي في غرفة الطعام الخاصة المُلحَقة بمكتبي في وزارة الدفاع. طلب إليّ، في ذلك الاجتماع، السماح له بالتحليق في طائرة F-15 أثناء تنفيذها لمهمة جوية قتالية. ولعله دُهش حين رآني أرفع سماعة الهاتف وأصدر الأوامر بذلك على الفور. كما حَلّق مصوّره في طائرة أخرى مرافقة. ولم يسبق، من قبل، لقوات جوية، بما في ذلك القوات الأمريكية، أن سمحتْ لمراسل صحافي بالتحليق في طائراتها أثناء تنفيذها غارة جوية. وعندما حان الوقت لتحرير دولة الكويت، ألحَقْت سوير على الوحدات المتقدمة، وسهلت له اصطحاب الهوائي اللازم للاتصال بالأقمار الصناعية، ليتمكن من إرسال تقاريره على الهواء مباشرة من داخل الكويت. وأعتقد أنه كان أول إعلامي أمريكي، في ذلك الوقت، يقوم بمثل هذا العمل.

وبعد معركة الخفجي مباشرة، خصَّص إد برادلي حلقة كاملة من برنامجه «ستون دقيقة Sixty Minutes» للحديث عن الحرب. وكان قد زار أرض المعركة، وقابل اللواء سلطان المطيري، ثم أجرى مقابلة معي في الرياض، هي المقابلة الأولى التي يجريها مراسل غربي في غرفة الحرب في وزارة الدفاع. وأتذكر أننا قمنا بتغطية الخرائط والمخطَّطات والجداول المعلَّقة على جدران الغرفة، خشية تسرُّب أية معلومات سرِّية.

وأثلج صدري ما علمته عن التقييم الذي قدَّمه جوناثان ألتر Jonathan Alter كبير محرري نيويورك تايمز New York Times. إذ قال في برنامج National Public Radio: «كانت السلطات العسكرية السعودية أقرب إلينا، وأكثر تعاوناً، واستعداداً لإطلاع المراسلين الأمريكيين على الأخبار الحقيقية، مقارنة بالسلطات الأمريكية . . . وتمكَّنتْ مجموعات من المراسلين من زيارة أرض المعركة لتشاهد عن كثب ما يجري في الميدان، في حين كانت ثمة شكاوى كثيرة من المراسلين، ذكر بعضهم أن الأمريكيين أخذوهم في الاتجاه المعاكس لمواقع القتال الحقيقية». وجاءت ملاحظات جوناثان ألتر هذه لتؤيد وجهة نظري إلى أنّ منْع الصحفيين من الحصول على المعلومات، لا يأتي بنتائج إيجابية.

حازت جوديث ميللر Judith Miller من نيويورك تايمز على تقديري لإلمامها بالشؤون العربية، كما حاز على التقدير نفسه زميلها مايكل جوردون Michael Gordon لمعرفته بالشؤون الدفاعية، على الرغم من أن بعض ما كتباه عنّي لم يسعِدْني بالقدْر الذي كنت أتوقعه أو أرغب فيه. ومما أثار اهتمامي، على

الصعيد الأكاديمي، هو الحوار الذي دار مع المحلِّل العسكري المرموق أنتوني كورديسمان Anthony Cordesman (كان يعمل، آنذاك، مستشاراً لشبكة ABS)، كما أعجبتني كتاباته اللاحقة عن حرب الخليج.

كنت دوماً أشعر بأن الصحافة العربية. باستثناء القليل منها. متأخرة عن الصحافة الغربية، وتحتاج إلى إنعاش وتجديد. وكنت آمل أن أساهم في هذا المجال. وسنحت لي هذه الفرصة عام ١٩٨٨، حين علمت بمشروع إعادة إصدار جريدة «الحياة»، وهي صحيفة يومية لبنانية شهيرة، أسسها كامل مروة عام ١٩٤٦. فقد اغتيل في مكتبه عام ١٩٦٦، إلاّ أن الصحيفة واصلت الصدور، ولم تَحتجِب إلاّ عام ١٩٧٦، إثر الحرب الأهلية اللبنانية. وفي غمرة الصراعات السياسية والأيديولوجية، التي دارت في حُقبة الستينات بين التيار الناصري «الراديكالي» للقومية العربية، والتيارات المعتدلة والمحافظة بين قادة العرب، مثل الملك فيصل، وقف كامل مروة، رئيس تحرير «الحياة»، بكل شجاعة يساند الطرف المعتدل، ولا ريب أنه دفع حياته ثمناً لهذا الالتزام. (كانت المرة الأولى التي أظهر فيها على صفحات «الحياة» في أواخر الستينات، حين نشرت الجريدة صورتي، وأنا ما زلت طالباً في أكاديمية ساندهيرست، وكنت وقتها في طريقي إلى الرياض مروراً ببيروت، واحتفظتُ بقصاصة تلك الصورة سنوات عدة).

كان المحرك الأساسي وراء إعادة إصدار «الحياة» جهود كل من جميل مروة، ابن كامل مروة، والصحفي المرموق جهاد الخازن، الذي سبق أن أصدر، بنجاح، صحيفة عربية يومية أخرى، هي الشرق الأوسط. ولإعجابي بهذا الفريق، وافقت على تمويل المشروع، مع طموحي منذ البداية إلى تأسيس صحيفة عربية يومية مستقلة، لكل العرب، يمكِنها بتغطيتها الإخبارية الواسعة، وسياستها التحريرية الحكيمة، أن تُضارع كبريات الصحف الغربية مثل صحيفة إنترناشيونال هيرالد تريبيون International Herald Tribune. والحمد لله، تحقق طموحي إلى حدٍّ كبير، فاستأنفت «الحياة» صدورها وأصبحت واسعة الانتشار وتحظى بالاحترام. وفي عام ١٩٩٢، قمنا بتوسعة مجموعة النشر بإصدار المجلة الأسبوعية «الوسط». وتمكّنت بعد تقاعدي، من الخدمة العسكرية، في أعقاب حرب الخليج، أن أكرس جزءاً أكبر من وقتي للمهمة الشاقة والممتعة في الوقت نفسه، مهمة مالك المؤسسة الصحفية.

وعلى الرغم من اعتقادي أنني جندي محترِف، إلاّ أن ما يمكِن أن يسمى «النشاط الدبلوماسي» استحوذ على قدْر غير قليل من وقتي إبّان أزمة الخليج، تمثَّل ذلك في إعداد الترتيبات لاستقبال القوات من الدول الشقيقة والصديقة، والقيام بدور المضيف لها، وتزويدها بكل ما تحتاج إليه، وتقديم الشكر لها لاستجابتها لندائنا، وجعْل كل قوة منها تشعر بأنها جزء مهم من قوات التحالف، بصرْف النظر عن البلد الذي جاءت منه، صغيراً أو كبيراً، قريباً أو بعيداً. وبعد انتهاء الأزمة، استأنفتُ هذا الدور الدبلوماسي في سلسلة من الزيارات الرسمية قمت بها في ربيع عام ١٩٩١ لنقل شكر وتقدير الملك فهد والمملكة إلى قادة الدول التي ساندتنا. فتوجَّهت إلى مصر وسوريا والبحرين وقطَر، حيث شرَّفني أميرها الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني بتفتيش قواته مع سموه ـ والإمارات العربية المتحدة وعُمان. ثم توجَّهت، في جولة ثانية، إلى السنغال والنيجر والمملكة المغربية، حيث تأثَّرت كثيراً للفتة الكريمة للملك الحسن، الذي أرسل رئيس وزرائه وعدداً من الوزراء لاستقبالي في المطار.

وفي شهر أبريل، حان وقت وداع شوارتزكوف، الذي كانت له مكانة في نفسي، على الرغم من التقلّبات التي اعترَت علاقتنا. كانت حفلة الوداع مؤثّرة، على الرغم من بساطتها، وكم سعدت بوصفه لي بـ «الخادم المخلِص للمملكة». وفي تلك المناسبة، قلّدني «وسام الاستحقاق من درجة القادة»، بالإضافة إلى خطاب من الرئيس بوش يشيد فيه بدوري في تحقيق النصر بعبارات ودِّية. كما قلَّدتُ شوارتزكوف، بدورِي، «وسام الملك عبدالعزيز من الطبقة الأولى»، وهي المرة الأولى التي يتقلَّد فيها هذا الوسام الرفيع ضابط غير سعودي. أمّا هديتي الشخصية له فكانت ساعة مِعْصَم أنيقة، نُقِشَت عليها عبارة «من أجل صداقة دائمة»، وكان ذلك تعبيراً صادقاً عن مشاعري نحوه.

كثيراً ما كنت أفكر في أنني وشوارتزكوف أوفر القادة العسكريين حظّاً من بين الذين خاضوا حروباً. فما أقلّ القادة العسكريين في التاريخ، الذين كانوا واثقين من النصر، مثلما كنت وشوارتزكوف. لقد أدى شوارتزكوف مهمته بكفاءة تستحق الإعجاب، وإن لم تخلُ من شيء من الغطرسة. كما أشعر، أحياناً، أن مهمتي كانت أصعب من مهمته وأكثر تعقيداً، وأن المشاكل التي واجهتْها المملكة فاقت تلك التي واجهتْها الولايات المتحدة الأمريكية. إذ توافرت لشوارتزكوف وتحت تصرفه هيئة كبيرة من ضباط الأركان، وخطط واضحة مفصلة، وهيكل قيادي مثالي، وقوات ذات كفاءة قتالية عالية، ومهمة واضحة. أما مهمتي في إنشاء قيادة

القوات المشتركة، فلم تكن أمراً سهلاً. كان عليّ أن أختار هيئة أركاني، وأجاهد للحصول على الصلاحيات اللازمة، وأنشىء التنظيم الفعال القادر على استقبال القوات القادمة من أكثر من ٢٤ دولة ونشرها وإسنادها إدارياً. كان عليّ أن أوقِّع الاتفاقيات، وأُشرِف على إدارة موازنة ضخمة. وفوق ذلك كله، كان عليّ أن أبذل كل ما أوتيتَ من جهد كي أحافظ على سمعة بلدي وأرفع اسمه عالياً. كما كان عليّ أن أكون نداً للأمريكيين، حتى لا تبدو المملكة كتابع للولايات المتحدة.

وبعد انتهاء الحرب بثلاثة أسابيع، أبلغتني الحكومة البريطانية أن صاحبة الجلالة الملكة ترغب في منْحي «وسام القائد الفارس الشرفي». وبعد استئذان الملك فهد، سَمح لي بقبول الوسام. توجَّهت إلى لندن، بعد سنة تقريباً، وهناك رافقني الفريق السير پيتر دي لابلير وسفير خادم الحرمين الشريفين لدى بريطانيا إلى قصر باكنجهام. انتظرنا قليلاً في إحدى غرف الاستقبال، وبعدها طُلِب إليّ الدخول وحدي لمقابلتها. علمت، من قبل، أن من يُمنح هذا الوسام عليه أن يركع أمام الملكة، ومع تقديري الشديد للشرف الذي تفضلتْ به الملكة، إلاّ أنني لا أركع إلاَّ لله وحده. لذا، أخذ الاحتفال طابعاً غير رسمي، فتناولنا أقداح الشاي معاً، وأحضر الحاجب، بعد ذلك، الوسام فقدَّمته الملكة إليّ.

وخلال حديثنا، ذَكّرتها بأنني دخلت قصر باكنجهام عام ١٩٦٧، أي منذ ربع قرن من الزمان، طالباً مرتدياً الزي العسكري لأكاديمية ساندهيرست، خلال زيارة رسمية قام بها الملك فيصل إلى بريطانيا. وقد أُعجبت كثيراً بحرْص الملكة على معرفة تفاصيل الحرب. سألتني عن العمليات العسكرية خلال الحرب، وعن الخسائر في كلا الجانبين، وعن الكويت قبل الأزمة وبعدها. كانت تريد أن تسمع تحليلاً للحرب من وجهة نظرنا. ولعل هذا ما حاولتُ تحقيقه خلال هذا الكتاب.

ومن المصادفات، أنني ذهبت إلى القصر قبل ساعات من الإعلان عن أن المحقِّقين في قصة لوكيربي (حادثة تفجير طائرة الخطوط PAN AM الأمريكية فوق اسكتلندا والتي راح ضحيتها عدد كبير من الأرواح) توصلوا إلى تحديد هوية رجلين ليبيين، يشتبه في أنهما زرعا القنبلة في حقيبة سفَر كانت على متن الطائرة. كانت الملكة أول من أخبرني بذلك النبأ، وأسهبت في الحديث بكل اهتمام. كان أمراً مثيراً أن أعرف هذه التفاصيل من مثل ذلك المصدر الرفيع المستوى. ذهبت، بعد ذلك، لتناول الغداء مع رئيس الأركان وكبار الضباط

البريطانيين، قبل أن أعبُر الطريق، سيراً على الأقدام، إلى وزارة الدفاع، حيث كان في استقبالي عند الباب الرئيسي الوزير توم كينج، الذي نَمَّا إعجابي به أثناء الحرب.

بعد أسابيع عدة من زيارتي لقصر باكنجهام، شرّفني الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران باستقبالي في قصر الأليزيه في پاريس، ومنحني «الوسام الوطني لجوقة الشرف من درجة ضابط عظيم». (ولم أستطع أن أخفي ابتسامتي عندما علمت أن شوارتزكوف تقلَّد الوسام الفرنسي نفسه من الفريق أول موريس شميت، رئيس هيئة الأركان الفرنسي، إلاّ أن شوارتزكوف تفوَّق عَليّ بنقطة بحصوله على وسام من دولة الإمارات العربية المتحدة). وعلى كل حال، فقد تقلَّدت أوسمة من ١٢ دولة هي، البحرين، وفرنسا، والمجر، والكويت، والمغرب، والنيجر، وعُمان، وقطَر، والسنغال، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى المملكة العربية السعودية. وأظن أن هذا رقمٌ قياسيٌّ في الأوسمة، لم يحظَ به أي مقاتل عربي. ويطيب لي أن أعرِب عن شكري وعرفاني لكل الدول التي منحتني تلك الأوسمة، وكذلك الدول التي لم تمنحني أوسمة، إذ يكفيني أنها منحتني شرف قيادة قواتها في حرب تحرير الكويت.

ولا شك أن خبرة الحرب تُعَد أمراً حيوياً للقائد. إذ تعلمت في تسعة أشهر، هي فترة الأزمة، ما لم أتعلمه خلال ربع قرن من الزمان في وقت السلم. لقد أُتيحت لي فرصة التعامل المباشر مع أكبر التنظيمات العسكرية في العالم الغربي: القوات المسلحة الأمريكية متعاونة مع القوات المسلحة البريطانية والفرنسية. ورأيت، عن كثب، كيف تُدار حرب عالية التقنية، وكيف تُنقل أعداد ضخمة من القوات المقاتلة والقوات المساندة وكميات هائلة من الأسلحة والإمدادات، وكيف تُنشر في مواقع نائية. وفوق ذلك كله، شاهدت سرعة إيقاع الحرب الحديثة وتطوراتها، ومن ثم لمست فداحة الدمار الذي تُحدِثه.

أسهمت تلك الخبرة في وضوح الرؤية أمامي في شأن معرفة وتحديد المتطلبات اللازمة لتحسين وتطوير قدراتنا الدفاعية على مستوى المملكة، ومستوى شركائنا في مجلس التعاون لدول الخليج العربية. فالمنطقة التي نعيش فيها منطقة خطرة وسريعة الاشتعال، ولم ينجح انتصار قوات التحالف في القضاء

على التهديدات الإقليمية، أو ضمان أمن الخليج في المدى البعيد. وعلينا أن نكون متأهِّبين للتعامل مع الأحداث المستقبلية وأن نأخذ في الاعتبار أسوأ الاحتمالات. إذ ليس هناك ضمان أن أشقاءنا أو أصدقاءنا سوف يهرعون إلى مساندتنا في المرة القادمة، كما فعلوا هذه المرة. إن النظرة الواقعية واحترام الذات يحتمان على كل الدول العربية في الخليج الاهتمام بأمْنها ببناء قوات مسلحة محترفة. وهذه قضية أظن أنه يمكنني، لِمَا لي من خبرة، التحدث عنها بشيء من التفصيل (وسأتطرق إليها في الفصل التالي). فأنا، وإنْ كنت قد ولدت أميراً، إلاّ أن طريقي إلى القيادة كان محفوفاً بالعمل والكفاح.

عندما شرفني خادم الحرمين الشريفين وولي العهد والأمير سلطان بقيادة القوات المشتركة ومسرح العمليات، لم يكن أمامي إلاّ أحد بديلين، إما أن أكون رمزاً فقط، أي دُمْية في يد القوات الشقيقة والصديقة التي جاءت لمساندتنا، أو أن أكون قائداً حقيقياً، أمارس ما فُوِّض إلي من صلاحيات كاملة. وقرّرتُ اختيار البديل الثاني. كنت قائداً عسكرياً، ولم أكن رجل سياسة. كانت مهمتي رفْع الروح المعنوية والكفاءة القتالية لقواتنا، لتكون قوية حتى نحافظ على شرف بلدنا واستقلاله.

أدّى احتياجي إلى إنجاز بعض المهام على جناح السرعة إلى اتخاذي بعض الإجراءات، التي ربما أثارت حفيظة بعض الناس أو غضبهم، بمن فيهم المقربون. ظنّ بعضهم أني كنت أسعى إلى الشهرة والظهور والأضواء. ولعل عذْرهم في هذا الظن أنهم لم يدركوا أهمية العمل الذي كنت أؤدّيه وخطورته. على كل حال، فبعد انتهاء الأزمة وزوال الخطر، لم تعد هناك ضرورة لـ «قيادة القوات المشتركة ومسرح العمليات». وكان من غير المقبول أن أعود إلى موقعي القديم في المؤسسة العسكرية، بعد أن كنت أتولى أضخم المسؤوليات، فأُصبح، مرة أخرى، تحت قيادة ضباط كانوا هم أنفسهم، بالأمس القريب، تحت قيادتي ويأتمرون بأوامري. وثمة دافع آخر جعلني أتجه إلى التخلي عن القيادة بعد تحمل المسؤولية وإنجاز المهمة، وهو أن تكون تلك سابقة عزّ أن يوجد لها مثيل في العالم الثالث، حيث يتشبَّث الناس بالمناصب والألقاب، فلا يتخلون عنها، إلاّ بعد عشرات السنين، أو قُل إن شئت ما داموا على قيد الحياة.

وكما أسلفت في أكثر من موضع في كتابي هذا، أنني لن أكون إلا خادماً مطيعاً لمليكي، وأحد أعضاء العائلة المالكة، ومستعداً لخدمة بلدي في أي موقع

وبكل ما أُوتِيتُ من قوة ما دمت حياً. فبعد أن أدّيت واجبي، قدْر طاقتي، في حرب الخليج، أصبح الوقت ملائماً لأن أغادر الساحة في هدوء.

فكرت طويلاً في الأحداث التي مرّت بي.

لقد أكرمني الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأعلى مركز قيادي عسكري يمكن أن يشغله ضابط في العالَمين العربي والإسلامي.

لقد كُرمت بالتكليف من قِبَل مليكي قائداً للقوات المشتركة ومسرح العمليات، ثم كُرمت بثقته وثقة الرؤساء الذين أرسلوا قواتهم لمساندة المملكة وتحرير دولة الكويت. فأيّ منصِب أصْبُو إليه أعلى من منصبي الذي شغلته خلال الحرب؟ وأيّ شرف أحلم به أكثر من الشرف الذي نلته عقب تحرير الكويت وتحقيق النصر؟ وأية فرصة أنسب من هذه الفرصة لأترك المسرح لغيري، ليستكمل المسيرة؟ والله أحمد وأشكر أن وفَّقني في تحمل المسؤولية، وأداء الواجب، وتنفيذ المهمة.

وفي ٢٧ مايو ١٩٩١، رفعت خطاباً إلى خادم الحرمين الشريفين، القائد الأعلى للقوات المسلحة السعودية، أطلب إليه الموافقة على إحالتي إلى التقاعد. كان أصعب قرار اتخذته في حياتي. كنت أضحّي بكل ما ناضلت من أجْله، وأنا لا أزال في ريعان الشباب، (إذ لم أتجاوز الثانية والأربعين) وأترك رفاقي الذين أمضيت معهم أحلى سنيِّ العمر، وأضع نهاية لحياتي العسكرية التي طالما عشقتها وعشتها بكل جوارحي.

كان رفْع الخطاب مباشرة إلى القائد الأعلى للقوات المسلحة تجاوزاً للقواعد العسكرية المتبعة، وخروجاً على التسلسل القيادي العسكري. فكان عليَّ، حسب التسلسل العسكري، أن أرفع طلب إحالتي إلى التقاعد إلى الأمير سلطان، النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام، الذي يرفعها، بدَوره، إلى الملك إذا ارتأى ذلك. ولكنني آثرت ألاّ أسبب حرَجاً لوالدي، وألاّ أثقِل عليه بتحمل أية تبعة أو مسؤولية في هذا القرار. كما خشيت ألاّ يقبل إحالتي إلى التقاعد، فلا يكون أمامي خيار سوى السمع والطاعة. فهو، بالنسبة إليّ الوالد، والمعلم، والمربي، والمثل الأعلى الذي لا يمكن ولا أستطيع رد كلمته. فضّلت أن أضع القرار بين يدي خادم الحرمين الشريفين. فإذا كنت مصيباً في طلبي، كان الفضل لمن وافق عليه. وإذا كنت مخطئاً فلأتحمل وحدي مسؤولية خطئي.

ذكرت في خطابي الذي رفعته إلى الملك: «أنني لم أقدِم على هذه الخطوة طمعاً في منصِب ما، فالمنصِب لم يكن هدفاً لي في الماضي، ولن يكون هدفاً لي في المستقبل. فيكفيني ما وصلت إليه من تشريف وتكريم من مولاي. لقد كان المَطمَع الوحيد في حياتي هو خدمة ديني، ثم خدمة مليكي ووطني، والنهوض بقواتنا المسلحة كي تكون قوات مسلحة محترفة».

أرسلت نسخة من طلب الإحالة إلى التقاعد إلى الأمير سلطان مشفوعاً بخطاب أعتذر فيه عن رفْع طلبي إلى القائد الأعلى للقوات المسلحة مباشرة، وكتبت: «أعتذر لسموكم عن رفْعي هذا الطلب مباشرة إلى مولاي دون اتِّباع التسلسل العسكري، وذلك حتى لا أكون سبباً في إحراجكم، وحتى لا تتغلب عليكم عاطفة الأبوة الفياضة، التي يشعر بها سموكم في مثل هذه المواقف». بعد ذلك، لخصت لسموه الدروس العسكرية التي تعلمتها خلال الأزمة، ومقترحاتي لتطوير قواتنا المسلحة. وفي نهاية خطابي، وجدت نفسي أكتب عبارات تعبر عمّا يجيش في صدري من مشاعر الفخر والاعتزاز بهذا الوالد العظيم: «لن ينسى لكم التاريخ ما تتحملونه وتبذلونه وتصبرون عليه، وسيدوّن لكم أنكم وراء كل نصر، وخلْف كل نجاح، ومثال كل كفاح، تعملون في صمت، وتبنون بلا ضجة».

وفي اليوم نفسه الذي أرسلت فيه الخطابين، قمت بزيارة تفقدية إلى الكويت لأودِّع بعض الوحدات من القوات السعودية والعربية التي قاتلت تحت قيادة القوات المشتركة. أمضيت الليلة في حفر الباطن، ثم زرت معسكر اللاجئين قرب رفحا، يرافقني ما يقرب من ثلاثين مراسلاً صحافياً. وأثناء إجابتي عن أسئلة الصحفيين، صدرت عني زَلّة لسان، فقلت ما معناه: إن هذه آخر مرة أزوركم فيها، فهذه آخر قيادة لي». تَلَقَّفَتْ مراسلة أمريكية تلك الملاحظة وسألتني: «ماذا تقصد بقولك إن هذه هي آخر قيادة لك؟». حاولت أن أتدارك خطئي، فأجبت أن ما قصدتُه هو أن هذه هي آخر جولة لي بصفتي قائداً للقوات المشتركة ومسرح العمليات. ولكنها بدت غير مقتنعة تماماً بهذه الإجابة.

أقيمَ في اليوم الثاني من شهر يونيه، عرض عسكري ضخم، كمهرجان ختامي لأزمة الخليج، استمر ثلاث ساعات في مطار الملك فهد بن عبدالعزيز في الظهران. مُثِّلت في العرض كل وحدة سعودية وكل نظام سلاح رئيسي اشترك في الحرب. وكان ذلك أول عرض عسكري في تاريخ المملكة يضم، جنباً إلى جنب، وحدات من القوات المسلحة والحرس الوطني ووزارة الداخلية. كانت

مناسبة حقٌّ لنا أن نحتفل بها. لقد قَبلتْ بلادنا التحدي، وخرجت من الحرب مرفوعة الرأس موفورة الكرامة. وفي تلك المناسبة، مَنَحني الملك فهد القائد الأعلى للقوات المسلحة «وشاح الملك عبدالعزيز من الطبقة الأولى»، وهو من أعلى أوسمة المملكة.

في صباح اليوم التالي، اليوم الثالث من شهر يونيه، وفي العاشرة، نزلتُ إلى غرفة الحرب في وزارة الدفاع للاستماع إلى أحدث التقارير عن الموقف في مسرح العمليات، وأصدرتُ آخر أوامري العسكرية. كانت لحظة حزينة، لأن الضباط الذين قدّموا إيجازهم استشفّوا أنني لن أعود إليهم. أخرجوا آلات التصوير وطلبوا أن تلتقط لهم الصور التذكارية مع قائدهم. صعدت، بعد ذلك، للاجتماع الأخير إلى ممثلي الصليب الأحمر، لمراجعة أوضاع أسرى الحرب واللاجئين الذين أَوْلَيْتُهم جلَّ اهتمامي أسابيع عدة.

بعد ذلك، وفي حضور ما يقرب من ٣٠ من كبار الضباط، ألقيتُ كلمة وداع قصيرة. ثم أَعْلنت حَلّ « قيادة القوات المشتركة ومسرح العمليات» رسمياً. وهي القيادة التي كافحت من أجْل بنائها، والتي أسهمتْ إسهاماً فعّالاً في تحقيق النصر. وبعد الثانية والنصف بقليل، غادرتُ القيادة للمرة الأخيرة. وتوقفت برهة قبل خروجي، لآخذ معي لوحة الاسم والشعار، ذلك الشعار الذي كان مصدر إلهام لي خلال حياتي العملية كلها: «ومن يتهيَّب صعود الجبال . . . يعِشْ أبد الدهر بين الحفر». لم يكن يعلم بقرار طلب الإحالة إلى التقاعد سوى نائبي اللواء عبدالعزيز آل الشيخ، ولاحظت دمعة تترقرق في عينيه، وهو يرافقني إلى الباب الرئيسي، وعانقني للمرة الأخيرة مودّعاً.

كان أول مكان توجَّهت إليه هو بيت أبي. ذهبت لأقبِّل يَدَيْ والدتي وأطمئن على أخواتي. ثم ذهبت إلى منزلي، إلى زوجتي وأطفالي. كانت فَرْحَة أسرتي بعودتي إليهم، بعد تلك الفترة الطويلة في وزارة الدفاع، فَرْحَة لا توصف. زيَّنوا المنزل برايات كُتب عليها عبارات الترحيب: «أهلاً بك»، «مرحباً بك في بيتك يا أبي». كان من عادتي أن أخلع ملابسي العسكرية لدى دخولي المنزل، ولكن خلْعها هذه المرة استغرق منّي أكثر من ساعة. كنت أدرك أني أخلعها للمرة الأخيرة!

مرت أربعة أشهرٍ على رفْع طلبي بالإحالة إلى التقاعد، قبل أن يوافِق عليه مولاي القائد الأعلى للقوات المسلحة. وفي غضون تلك الأشهر الطويلة، وبينما

كان طلبي قيد الدرس، كان وضعِي مقلِقاً، وعانيت الشعور بعدم الاستقرار. هل انتهت حقاً حياتي العسكرية التي نذرت لها نفسي، أم أن الأمر سيُرجَأ إلى حين؟

مرت سنوات خدمتي أمام مخيلتي كأنها شريط سينمائي، وأنا أتقلب في فراشي، لايغمض لي جفن... التحدي الذي واجهْته في ساندهيرست، السعادة بالنجاح في أول قيادة لي في تبوك، سنوات الدراسة الشاقة في الولايات المتحدة، التنقل في كل أنحاء المملكة للتفتيش والتدريب والبناء ومشاركة رجالي في كل خبرة من الخبرات أو تجربة من التجارب، المسؤوليات المتنامية التي اضطلعتُ بها في الدفاع الجوي، المعركة الطويلة المريرة التي خضتها ليكون الدفاع الجوي قوة مستقلة، الحصول على الصواريخ الصينية وإنشاء قوة الصواريخ الإستراتيجية، تقلُّبي في المَناصِب من قائد سرية دفاع جوي، إلى ضابط تدريب، إلى رئيس قسم التخطيط والمشاريع، إلى مدير إدارة المشاريع، ثم إلى مساعد قائد الدفاع الجوي، إلى نائب قائد قوات الدفاع الجوي، إلى قائد قوات الدفاع الجوي. وأخيراً، تعييني قائداً للقوات المشتركة ومسرح العمليات، في وقت كانت بلادي تتعرض فيه لِمِحْنَة عصيبة. وكان هذا التعيين أسمى شرف تَصْبُو إليه نفس كل رجل عسكري. لم تكن الخدمة في القوات المسلحة ممارسة لهواية محبَّبة، أو مطيَّة للشهرة، أو الكسب الشخصي. كانت، بالنسبة إليّ، مهنة واحترافاً، أعطيتها كل ما أملك خلال ما يزيد على عقدين من الزمن. لم أدَّخر وسعاً في سعيي لتصبح بلادي حصينة مُحصَّنة ضد طمع الطامعين، وبذلت في سبيل ذلك كل مرتخص وغالٍ. والآن أترك الراية عالية خفاقة ... أُسَلِّم اللواء إلى الآخرين ليتحملوا المسؤولية ويواصلوا المسيرة. ويرجع أمر تعيين هؤلاء الآخرين إلى الملك، قائدنا الأعلى، يعاونه ولي عهده الأمين الأمير عبدالله والنائب الثاني الأمير سلطان.

وبينما كنت أنتظر قرار الملك في شأن طلب إحالتي إلى التقاعد، قرَّرت مغادرة البلاد لبضعة أسابيع، تهدأ فيها نفسي، وتستريح أعصابي، بعد هذا الخضم الهائل من الأحداث التي شاركت فيها. كنت محتاجاً إلى الانفراد بنفسي بعض الوقت، أن أكون بعيداً عن الجميع، حتى عن أسرتي. ولا أخفِي على القارىء أنه كانت تنتابني كوابيس القتال والموت والمسؤوليات الجِسام التي كانت تُثقِلُ كاهلي، كان جسمي أحياناً يتفصَّد عَرقاً. كنت أسأل نفسي: «هل كنت مسؤولاً عن استشهاد رجالي؟ هل وُفِّقت في أداء عملي؟». ولعلّي أترك الإجابة

عن هذين السؤالين وسواهما لمن شهد معي تلك الأحداث، ثم أتركها كلها، آخر الأمر، في ذمة التاريخ.

وفي يوم الرابع والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٩١، صدر مرسوم ملكي بترقيتي إلى رتبة فريق أول وإحالتي إلى التقاعد بناءً على طلبي. وأُعلن ذلك رسمياً في وسائل الإعلام. أُقيم لي بعد ذلك عدد من حفلات الوداع بما في ذلك دعوة غداء في نادي الضباط في الرياض، أقامها الشيخ عثمان الحميد مساعد وزير الدفاع، وحضرها رئيس هيئة الأركان العامة وكبار القادة من فروع القوات المسلحة، كما حضرها الفرقاء هورنر، ودي لابلبير، ورروكجوفر. وألقيتُ كلمة في الحفلة، تكرَّم الملك وأمر ببثِّها كاملة على شبكة التليفزيون المحلي. كانت لحظة مؤثِّرة تفيض بالمشاعر الجياشة، وأنا أخاطب زملائي قائلاً: «أقف بينكم لا لأودِّعكم، ولكن لأحيِّيكم، أُحيِّي فيكم سِنِيَّ العمر التي قضيناها معاً، وزهرة الشباب التي أفنيناها عملاً، وسِنِيَّ الرجولة التي قضيناها تضحية». واختتمتُ كلمتي: «وداعاً، وإلى الأمام دائماً يا رفاق العمر وزملاء السلاح، وشركاء النصر».

ولا يفُوتُني، قبل أن أنهي حديثي عن حياتي العسكرية، أن أقول بكل الصدق والأمانة، ومن صميم قلبي أنني، مثلي في ذلك مثل كل قائد آخر، ما كنت لأحقِّق شيئاً مما حقَّقته، في السلم أو في الحرب، دون مساندة وجهْد الجنود وضباط الصف الذين عملوا معي، والذين هم، حقاً، العمود الفقري لقواتنا المسلحة. ولا يَسَعُني إلا أن أسجل لهم كل التقدير والاعتزاز، لولائهم وتفانيهم واستعدادهم للتضحية بالنفس في سبيل الله، ثم المليك والوطن. «والجود بالنفس أقصى غاية الجود».

الفصل الرابع والعشرون

دروس مُستفادة وَرؤية مستقبليّة

عكفتُ في السنوات التي تلت حرب الخليج التي خضناها عام ١٩٩١، على استيضاح وتحديد الدروس التي يمكِن لنا في منطقة الخليج استخلاصها من ذلك الصراع. ولم يكن ذلك أمراً هيناً، إذ إن حرب الخليج فريدة في نوعها. فهي لا تشبه، من قريب أو بعيد، تلك الصراعات التي اندلعت في منطقتنا وما حولها في العقود الماضية. فهي لا تشبه مثلاً الحرب العراقية ـ الإيرانية، أو الحروب في القرن الأفريقي، أو في جنوب السودان، أو اليمن، أو الحرب الضروس التي تدور رحاها، حتى وقت كتابة هذه السطور، في يوغوسلافيا السابقة، تلك الحرب التي أهلكت الحرْث والنسل. ولا تشبه أيضاً الحروب التي دارت بين العرب وإسرائيل في ١٩٦٧ و١٩٧٣ و١٩٨٢، أو الانتفاضة في الأراضي المحتلة. هي حربٌ تخالف تماماً كل ما أَلِفَه العالم. فهي ليست حرباً تقليدية كالتي تقع عادة بين دولتين، أو حرب تحريرٍ وطنية، أو صراعاً، عِرقياً أو دينياً، أو صراعاً محدوداً كتلك الصراعات التي أَقَضَّتْ مضاجع دول العالم الثالث وجعلتها نهباً للفوضى والإفلاس.

كانت حرب الخليج شيئاً مختلفاً تماماً. ففي جانب التحالف، نجد القوة الرئيسية قوة عظمى، والأسلحة المتقدمة التي تم نشرها، مثل الأقمار الصناعية، والطائرات المتسلِّلة التي لا يكتشفها الرادار، وصواريخ كروز التي تنطلق من الغواصات، وغير ذلك من أسلحة متطورة ومعدات حديثة، هي أنظمة لا تتأتّى إلاّ لقوة عظمى. وفي الجانب الآخر، نجد طاغية متسلطاً لا تتعدى إمكاناته الحربية إمكانات دولة صغيرة من دول العالم الثالث، تكدَّست لديه، نتيجة حربه على إيران، آلة حربية ضخمة، وإن لم تكن متقدِّمة، استخدمها في عمل عدواني

طائش. أصمَّ أذنيه، فلم يستمع إلى نصح الناصحين، ولم يَعْبَأ بمعاناة شعبه، بل لم يلقِ بالاً إلى أبسط مبادئ الحرب أو حتى قواعد الفهْم السليم لها، فأَورَد بلده موارد التهلكة في صراع غير متكافئ مع تحالف دولي يمتلك أسباب القوة كلها.

وللوهلة الأولى، قد لا تبدو لحرب الخليج دروس يُستفاد منها في المستقبل. فإذا سلَّمنا بأنها حرب فريدة في طبيعتها، وربما الصراع الأول والأخير في هذا النوع، فهل ثمة دروس يمكِن أن نخرج بها من تجارب تلك الحرب؟ ربما كان من الحكمة ألا نفرط في استنباط الدروس منها، إذ من شأن ذلك أن يضلّنا ويَصرِفنا عن الأخطار الحقيقية التي نواجهها.

فالحروب التي من المحتمل أن نضطر إلى الاشتراك فيها مستقبلاً، كما يشهد بذلك واقع العالم الذي نعيش فيه، مثل الحروب المحدودة ومقاومة حركات التمرد والعصيان والحروب ضد الإرهاب والصراعات المنخفضة التقنية التي تدور بين دول العالم الثالث، تتطلب بناءً وتنظيماً للقوات، ونوعية للأسلحة والمعدات، وتخطيطاً للإستراتيجيات تختلف تماماً عمّا تم نشْره واستخدامه في الخليج. ولا يستدعي الأمر أن نركز اهتمامنا على حرب الخليج، حرب الحاسبات الإلكترونية وحرب الضغط على الأزرار والحرب العالية التقنية، كأنموذج للحرب المستقبلية، أو أن نُعِد أنفسنا لمثل تلك الحرب. لذلك، أضحى لزاماً علينا في تسليحنا، وبناء قواتنا، وترتيبات دفاعاتنا، مع شركائنا في مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ألاّ نجعل من قواتنا المسلحة نسخة مكرَّرة من القوات المسلحة لأكثر الدول الغربية تقدماً، تلك التي اشتركت معنا في حرب الخليج. فبدلاً من ذلك، علينا أن نبني ونشكِّل وننظِّم قواتنا، ونسلحها وندربها ونُعِدها، بناءً على تقييم واضح للتهديدات التي يُحتمل أن نواجهها مع افتراض أكثرها سوءاً وأشدها احتمالاً، ووَفقاً لإستراتيجيتنا وسياستنا وأهدافنا، وطَبقاً لقوتنا البشرية، ومواردنا وإمكاناتنا الأخرى المُتاحة.

ولكن السؤال الذي يفرض نفسه: هل يمكِن أن تتكرَّر أزمة الخليج مرة أخرى؟ والإجابة عن هذا السؤال، من الناحية النظرية، لا بد أن تكون «نعم». وذلك، إذا توافرت الظروف الداخلية نفسها، سواء في العراق أو في أية منطقة أخرى، والظروف الإقليمية في المنطقة، والعالمية للمجتمع الدولي. ولكن من الناحية العملية، لا يمكِن أن تتكرَّر تلك الأزمة مرة أخرى. وذلك لأسباب عدة،

أهمها أنه من غير المحتمل أن يتوافر لدى قيادة العراق الحالية أو المستقبلية أو أية قيادة أخرى في المنطقة مثل تلك القوة الجامحة التي توافرت لصدام في ذلك الوقت. وإذا توافرت، فلن ترضى قيادتها أن تكرِّر الخطأ نفسه وتتحدى العالم الصناعي بأسْره، ومن غير المحتمل أيضاً أن تقْبل قواتها المسلحة أن تدخل في حرب غير متكافئة مثل حرب الخليج.

أما السؤال عن مدى استجابة القوى العظمى للتدخل في أية أزمة مستقبلية في الخليج، فهذا أمر يصعب التكهُّن به. وينبغي ألاّ يغيب عن أذهاننا أن الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها الرئيسيين من الدول الغربية خفّضوا موازاناتهم الدفاعية بشكل ملحوظ، مما أثَّر في قدراتهم الدفاعية. وأن ما كان لدى الولايات المتحدة من بنْية عسكرية أساسية (قواعد عسكرية وانتشار قوات) في أوروبا، والتي ظهر دَورها الحيوي إبّان أزمة الخليج، بدأت تتناقص بشكل حاد. وعلينا أن نضع نصْب أعيننا أن الغرب لن يتدخل في النزاعات الإقليمية الآن بشكل تلقائي، أو أن استجابته ستكون حتمية. فعلى سبيل المثال، انسحبت القوات الأمريكية من الصومال حين واجهت مقاومة من الفصائل المحلية، إذ لم يكُن الوضع هناك يهدد المصالح الحيوية للولايات المتحدة بشكل مباشر، بينما في البوسنة، ظلت هي الدولة الوحيدة التي تتردد في إرسال قواتها. وتحضُرُني، في هذا السياق، مقولة تحذيرية أطلقها الفريق أول كولين پاول عام ١٩٩٣، وهو أحد العقول المفكرة التي أدارت حرب الخليج بصفته رئيساً لهيئة الأركان المشتركة الأمريكية إذ قال: «من الضروري، ونحن نخفض حجم القوات المسلحة، أن يكون واضحاً أمامنا ما سنعجز عن تنفيذه في المستقبل». وبعبارة أخرى، فإن الولايات المتحدة بتربُعها على قمة العالم، ليست على استعداد في جميع الحالات لتقوم بدَور الشرطي. ولا يَسَعُنا إلا أن نؤكد، وهذا مبدأ ثابت في حساباتنا السياسية منذ القِدم، أن الدول الغربية لن تتوانى عن مساعدتنا إذا تعرّضت مصالحها الحيوية في منطقتنا للخطر. أما إذا كان الخطر الذي نواجِهه لا يشكل تهديداً للمصالح الغربية، فعلينا أن نعتمد في مواجهته ـ بعد الله ـ على أنفسنا فقط.

إذاً فأول الدروس المُستَفادَة من حرب الخليج هو ألاّ ننظر إلى الغزو العراقي كأنموذج للتهديدات التي يمكِن أن نجابهها مستقبلاً، وألاّ ننظر إلى حرب الخليج كأنموذج لحل الأزمات التي قد نتعرَّض لها. إذ إن تلك الأزمة، والحرب التي

قامت على أثرها حَكَمَتْها ظروف خاصة، وتكرارها في المستقبل المنظور أمر بعيد الاحتمال.

غير أن هناك دروساً رئيسية أخرى يمكِن أن نستخلصها من أحداث ١٩٩٠ - ١٩٩١. ولعل من أهمها، على الإطلاق، تلك العلاقة الوثيقة بين السياسة والحرب. فعندما كتب العسكري البروسي والمفكر الإستراتيجي، كارل ڤون كلوزڤيتز Carl von Clausewitz، في أوائل القرن التاسع عشر، أن الحرب امتدادٌ للسياسة، كان يقصد أن الدول تلجأ إلى الأعمال العسكرية النظامية لتحقيق أهدافها السياسية. وهذا رأي لا غبار عليه، وإذا كانت ثمة إضافة إليه، فهي أن النصر أو الهزيمة في الحرب إنما يعتمد على النجاح أو الفشل في السياسة. لم تكُن ممارسات صدام السياسية سديدة في كل المقاييس، فعلى الرغم من كثرة أخطائه العسكرية، إلاّ أن أخطاءه القاتلة كانت كلها سياسية. إذ أخفَق في إدراك الأهمية التي يُولِيها المجتمع الدولي للكويت، ليس هذا فحسب، بل للاستقرار السياسي في منطقة الخليج.

وثمة سوابق تاريخية كان ينبغي على صدام أن يأخذها في حسبانه ويتّعظ بها، لكنه أصمّ أذنيه عنها وأغلق عينيه دونها. ففي عام ١٩٦١، على سبيل المثال، عندما هدّد الزعيم العراقي عبد الكريم قاسم باحتلال الكويت، دفعت بريطانيا، وكانت القوة المسيطرة في الخليج آنذاك، بقواتها إلى المنطقة لإحباط محاولته. وبعد وقت قصير، استُبْدِلت بها قوة مشتركة من جامعة الدول العربية تحت قيادة ضابط سعودي، هو العميد عبدالله عبدالعزيز العيسى. وحلّ محله في قيادة القوة المشتركة ضابط سعودي آخر هو العميد عبدالله علي المطلق، الذي شغل منصِب رئيس هيئة الأركان العامة عقب عودته والقوات السعودية إلى المملكة. كان التدخل من جانب بريطانيا، ثم من جانب جامعة الدول العربية في أزمة الكويت، في ذلك الوقت، يعني أن كلاً من بريطانيا والدول العربية مصمِّمة على منْع العراق من بسط هيمنته على منطقة الخليج بأسْرها. وما أشبه الليلة بالبارحة! فكأنما كانت أحداث عام ١٩٦١ تمريناً تجريبياً لما حدث عام ١٩٩١. فلو أن صداماً عكف على دراسة أزمة عام ١٩٦١ واستخلص منها العِظات والعِبَر، لما أقدَم على عدوانه ذاك بعد ثلاثين عاماً.

وسابقة أخرى غَفَلَ عنها صدام، هي قيام الولايات المتحدة بنشْر قِطعها البحرية لحماية ناقلات البترول الكويتية التي كانت ترفع علماً أمريكياً، في المراحل الأخيرة للحرب العراقية ـ الإيرانية. على الرغم من أن هذا العمل من جانب الولايات المتحدة كان مبعثه مبادرة سوفْيتية لحماية الناقلات الكويتية، إلاّ أنها دليل واضح على أن واشنطن لن تتردّد في استخدام القوة لضمان تدفّق البترول، وحرية المِلاحة البحرية واستقرار الأنظمة السياسية في الخليج.

وإذا رجعنا إلى مقولة كلوزفْيتز، خَلُصنا إلى صعوبة فصْل العمليات العسكرية عن الممارسات السياسية. فَلِتَجَنُّبِ حدوث كارثة ما، لا بد أن يحاط العسكريون علماً بأبعاد الموقف السياسي، وفي الوقت نفسه لا بد من أن تكون لدى القيادة السياسية صورة دقيقة وصريحة عن القدرات العسكرية لقواتها المسلحة. ففي عام ١٩٦٧، كان الرئيس المصري جمال عبدالناصر يتلقّى تقارير غير دقيقة من المشير عبدالحكيم عامر، القائد العام، عن الاستعداد القتالي للقوات المسلحة المصرية وقدْرتها على تلقّي الضربة الأولى الإسرائيلية. ومن الواضح أن المشير عبدالحكيم لم يكن مُلِمّاً بالمواقف السياسية على الصعيدين الإقليمي والدولي، إذ أخفَقَ في إدراك أن إسرائيل لن تتوانى لحظة، إذا ما سنحت لها الفرصة، في كسر شوكة القوة العربية الوحيدة التي يمكِن أن تُشكل تحدياً لها، وأن ذلك العمل سيكون برداً وسلاماً على الولايات المتحدة. وهكذا، بناءً على معلومات غير كافية، ونصيحة غير شافية، راهن عبدالناصر في سيناء، وخسر الرهان.

غاب عن صدام، عام ١٩٩٠، الفهم الصحيح لطبيعة التفاعلات والعلاقات داخل النظام الدولي، كما لم يدرك قدرات جيشه وفاعليته والمصير الذي سيؤول إليه عند مواجهته مع قوات دولة عظمى. كانت حساباته السياسية خاطئة عندما اعتقد أن في إمكانه تجنُّب الحرب، وكانت حساباته العسكرية أيضاً خاطئة عندما اعتقد أن في إمكانه تجنُّب الهزيمة. وهل نتوقع من طاغية جلاد يبثُّ الرعب في نفوس من حوله أن تصل الحقيقة المجردة إلى مسامعه في يوم من الأيام؟!

تولدت لديّ، بما اكتسبته من خبرة في حرب الخليج، قناعة راسخة بخطأ الاعتقاد الشائع أن القادة العسكريين ليسوا في حاجة إلى المعرفة السياسية. فلكي يتسنى للقادة العسكريين في منطقتنا تحديد وتقدير الأخطار المحتَملة وتقييمها وتقديم المشورة الدقيقة الصادقة إلى القيادة السياسية، لا بد لهم من الإلمام التام بسياسات منطقة الشرق الأوسط، والسياسات الدولية على السواء. ففي الحروب

التي تقوم على التحالف بين الدول خاصة، والتي ربما تصبح الأنموذج السائد للصراعات المستقبلية، لا بد أن يدرك القادة العسكريون الاهتمامات السياسية للدول المتحالفة. وهذا أمر تَبَيَّنت لي أهميته عند قيادة وإدارة قوات عسكرية من دول مختلفة. وقد يقتضي الأمر تدريب نوعية جديدة من القادة تصلح لقيادة قوات متعددة الجنسيات، يكون لديها إلمام تام بالأمور السياسية، إلى جانب إتقان فن الحرب. ولا بد أن أستدرك، هنا، وأؤكد أن دعوتي العسكريين إلى الإلمام بالشؤون السياسية الدولية، لا تعني دعوتي لهم أبداً إلى إقحام أنفسهم في الممارسات السياسية.

أضحَى متعذراً في عقدنا الأخير من القرن العشرين، خوض حرب حتى في أقصى بقاع العالم، ناهيك من منطقة شديدة الحساسية مثل منطقة الشرق الأوسط، من دون أن تؤخذ مصالح المجتمع الدولي في الحسبان. فقد يتوقف النصر أو الهزيمة على تأييد المجتمع العالمي لطرف دون آخر. لذا، كان لزاماً على القادة السياسيين أن يسعوا إلى كسب التأييد الدولي وإقناع الرأي العام العالمي بعدالة قضيتهم، قبل أن يفكروا في العمليات العسكرية. ومن الغريب أن صداماً لم يستوعب هذا الدرس أيضاً، فأقدَم على غزو الكويت في وقت كانت فيه صورته سوداء قاتمة، وسمعته سيئة في الحضيض. وبدلاً من أن يستميل الرأي العام إليه، أو يُحَيِّدَه على الأقل، قبْلَ الإقدام على مغامرته الطائشة، إذا به ينفِّر المجتمع الدولي منه ويزيده حنقاً عليه.

وأرى أن جزءاً من تدريب القادة العسكريين لا بد أن يوجَّه إلى كيفية التعامل مع وسائل الإعلام، وهذه في حد ذاتها مهارة سياسية. ففي عصر الأقمار الصناعية والبثّ المباشر، لا يمكِن للقادة العسكريين والسياسيين، على حدٍّ سواء، أن يتجاهلوا وسائل الإعلام. فتأثيرها في الرأي العام قوي وعميق ولا يمكن الاستهانة به. وإن كنّا في المملكة، لم نَعْتَدْ، من قبل، على التعامل مع أعداد كبيرة من المراسلين، إلاّ أننا أتقنَّاه في وقت قصير. كان قرار القيادة السياسية العليا، السماح لوسائل الإعلام العالمية بتغطية الأحداث وتسهيل مهمتها، نقطة تحوُّل أفسحت المجال لتحقيق خدمة إعلامية متميزة.

ولعل أهمية دور أجهزة الاستخبارات هو درس آخر تعلمناه من الأزمة.

فعلينا، حتى لا نؤخذ على غرَّة مرة أخرى، أن نخصِّص موارد أكثر وإمكانات أكبر لدراسة قدرات جيراننا وفهْم نواياهم، العرب منهم وغير العرب على حدٍّ سواء. ويلخِّص ماو تسي تونج Mao Zedong هذا الدرس بحكمة بالغة، في قوله: «اعرف نفسك واعرف عدوك . . يتحقَّق لك في كل مائة معركة مائة انتصار».

ومن الواضح، أننا لم نكن نعرف شخصية صدام معرفة جيدة، ولم نفهم كذلك حقيقة مشاعره أو كوامن دوافعه. لم نهتم بالطبيعة الوحشية لنظام حكْمه، ولم نُقَدِّر إلى أي مدى من اليأس أو الطيش يمكِن أن يدفعه مزاجه المتهور، وإحساسه المرير بالضَيْم والنقص الحاد في موارده المالية. ونتيجة لذلك، لم نتمكن من معرفة نواياه تجاه الكويت، على الرغم من أن خطة الغزو ربما تبلورت في ذهنه منذ أبريل أو مايو ١٩٩٠. ومن المؤكد أنه ناقشها، حينذاك، مع كبار مرؤوسيه العسكريين والمدنيين.

عندما بدأ صدام يحرك قواته في اتجاه الجنوب، كنّا نظن أنه يمارس ضغوطاً على الكويت، وأنها مجرد مناورة سياسية، وليس خطوة عسكرية. وخَلَصَت استخباراتنا، وكذلك وكالات استخبارات الدول الأكثر إمكانات وقدرة منَّا على مراقبة ومتابعة الأحداث، إلى أن صداماً يقوم بعملية مراوَغة. وعلمت، بعد ذلك، أن الأقمار الصناعية الأمريكية رصدت معدات للعبور مع القوات العراقية شمال الكويت، مما دفع ببعض المحلِّلين إلى الظن أن هدف صدام هو الجزيرتان اللتان تعوقان المدخل البحري إلى ميناء «أم قصر» العراقي، كان يسيل لهما لُعاب صدام منذ وقت طويل. وربما كان نشر معدات العبور محاولة خداع مدبَّرة من جانب صدام ليوحي بأنه سيسلك طريقاً دون آخر. وخلاصة القول أن أحداً من الاستخبارات العربية أو الغربية، لم يتنبأ أن صداماً سيستولي على الكويت بكاملها.

كان التحالف يعرف الكثير عن العراق، سواء قواته المسلحة أو صناعاته العسكرية. كما توافرت لديه معلومات أكثر في فترة الأشهر الستة التي تلت غزو الكويت في أغسطس ١٩٩٠ حتى نشوب الحرب في يناير ١٩٩١، إلاّ أن تلك المعلومات لم تَخْلُ من بعض الثغرات الخطيرة. فبناءً على المعلومات الاستخبارية التي كنا نتبادلها مع حلفائنا، خَلَصنا إلى أنه كان لدى الأمريكيين فهْم تام بتكتيكات التشكيلات العراقية، إلاّ أن إلمامهم بالتكتيكات على مستوى

الوحدات والوحدات الفرعية والوحدات الصغرى كان محدوداً. ولعل السبب في التقديرات الأمريكية المُبَالغ فيها عن حجم القوات العراقية في الكويت وقدراتها، يرجع إلى عدم الإلمام الكافي بأسلوب نشْر تلك الوحدات الصغيرة وتمركزها على الأرض. كان هناك إخفاق في إدراك أن معظم الفِرَق العراقية لم تكن في كامل قوتها (عدداً وعدة). ولو توافرت لقوات التحالف المعلومات الوافية عن مساحة مناطق التجمع وأسلوب انتشار الوحدات العراقية لَخَلَصَت إلى أن مسرح العمليات في الكويت لم يكُن ليتَّسع لهذه الفرق كلها، إن كانت في كامل عددها وعدتها، كما اعتقدت مصادر الاستخبارات الغربية.

وتعكس محاولات اصطياد صواريخ سكود مثالاً آخر على وجود الثغرات الاستخبارية لدينا ولدى العراق. وقع العراق في خطأ عندما طوَّر بعض صواريخ سكود في ترسانته الحربية دون دراسة كاملة لأثر تلك التعديلات على أدائها. وعندما حانت لحظة التجربة الحقيقية، اتّضح أن تلك الصورايخ فَقَدَت دِقتها وتحطم بعضها في الجو. فالدرس الذي نستخلِصه هذه المرة هو خطورة تعديل خصائص أنظمة الأسلحة دون أن تسبقه دراسة كافية. وكانت الولايات المتحدة، من جانبها، تعرف الخصائص العامة لصاروخ سكود، ولكنها لا تملك خبرة مباشرة بأسلوب استخدامه. فلم يكُن الأمريكيون يعرفون مثلاً أن القاذف يمكِن أن يُخلي موقعه خلال سبع دقائق من عملية الإطلاق. وتُعَد تلك المعلومة مهمة وحيوية في محاولة تحديد مواقع القواذف المراوِغة ومن ثم تدميرها. وأذكُر أن الأمريكيين كانوا يعتقدون أن إخلاء القاذف موقع الإطلاق يستغرق ٣٠ دقيقة! إضافة إلى ذلك، لو أن قوات التحالف كانت لديها معلومات أكثر عن تكتيكات وحدات صواريخ سكود، لَمَا افترضت أن العراق يمكِن أن يحرك تلك القواذف في وَضَح النهار ويعرِّضها لخطر الضربات الجوية.

وإني إذ أضرب هذه الأمثلة، لا أرمي إلى تصيُّد الأخطاء، بل لأؤكد على ضرورة أن تُبنى الخُطط العسكرية على معلومات تفصيلية عن العدو، وعن تكتيكاته على مستوى التشكيلات والوحدات والوحدات الفرعية، ونُظُم الأسلحة والمعدات لديه.

حَظِيَ موضوع الإمداد والتموين بمعالجة كافية في هذا الكتاب، ومن ثم فلا أرى ضرورة للحديث عنه هنا مرة أخرى. إلاّ أن الأهمية القصوى للإمداد والتموين في الحرب الحديثة تُمثِّل أحد الدروس البارزة من هذه الأزمة. إذ لا

يمكِن، في حال من الأحوال، التخطيط للعمليات العسكرية أو تنفيذها دون نظام للإمداد والتموين، يكون فعالاً قبل المعركة وبعدها، فضلاً عن كفاءته خلالها. وعلى كل دولة معرَّضة لخطر خارجي، أن تحتفظ بمخزون حرب احتياطي من الاحتياجات. وعلى القيادة العسكرية العليا، أن تبقَى على صلة وثيقة بالقطاعات الاقتصادية المدنية لتتمكن من تحديث معلوماتها في شأن المخزون من الموارد الوطنية المتوافرة. وبصفة عامة، لا بد من إعداد الدولة بأسْرها للدفاع من جميع الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية. وعند تنفيذ مشاريع صناعية أو مشاريع هندسية مدنية تجب مراعاة الاعتبارات العسكرية، وأن تكون متَّفِقة مع خطة إعداد الدول للدفاع.

ومرة أخرى، عليَّ أن أشير إلى أن حرب الخليج تُعَد فريدة في نوعها، وعمليات الإمداد والتموين التي أُنجزت خلالها قد لا تكون مقياساً لِمَا يمكِن أن تبرز الحاجة إليه في الصراعات المستقبلية، كما لا يصلُح أخذ معدلات الاستهلاك ونِسب الخسائر مؤشراً إلى ذلك الغرض. فبسبب الوفرة في جميع الأصناف، كان معدل الاستهلاك مرتفعاً بشكل ملحوظ في الإعاشة والمياه والذخيرة والوقود. فكميات الوقود والذخيرة التي استهلكت في الحملة الجوية، التي استمرت ٣٨ يوماً، يعجز عن تصورها الخيال. وفي المقابل، كانت الخسائر في صفوف قوات التحالف، والتي تقدر بـ ٠,٠٤٪، منخفضة بشكل مذهل، لأن العراقيين انهاروا سريعاً فاستسلموا أو فرّوا. فلا يمكِن، لذلك السبب، استخلاص نتائج واقعية من تلك المعدلات والنِّسب يمكن التعويل عليها في التخطيط المستقبلي.

تكررت الإشارة في هذا الكتاب إلى الدور الحيوي الذي قامت به البنْية الأساسية الحديثة للمملكة أثناء الأزمة، بما في ذلك المطارات والموانئ ومصافي البترول ومحطات التحلية وما إلى ذلك. فتلك البنْية بالفعل هي إحدى الدعائم الرئيسية في تحقيق النصر. كان علينا أيضاً أن نبذل جهوداً إضافية في مجال البنْية الأساسية كي نواكب متطلبات الحملة العسكرية، مثل تطوير المطارات ورفع كفاءتها ومدّ أنابيب الوقود وتعبيد الطرق. كان إعداد مسرح العمليات بكل ما يحتاج إليه من أعمال هندسية ونقل وصيانة وجوانب اقتصادية أخرى، من أهم القضايا التي رصَدنا لها الإمكانات كافة، ولا شك أنه لا يزال يستحق قدراً أكبر من الاهتمام.

وخلافاً لِمَا تردَّد من انتقادات حينذاك، فإنني أرى أن تلك الأزمة أظهرت

جلياً سَداد السياسة الدفاعية التي تبنَّتها المملكة في العَقدين الماضيين، وهي سياسة من أهم دعائمها التوسع في إنشاء بنْية أساسية عملاقة، بالإضافة إلى تشييد المدن العسكرية في المناطق الحيوية حول المملكة، لتكون قادرة على استيعاب التعزيزات وإسنادها في أوقات الأزمات والطوارئ. ولولا تلك الاستعدادات الطموحة الضخمة والباهظة النفقة، إضافة إلى العمق الإستراتيجي للمملكة، وهو عنصر مهم وحيوي، لأضحَى صعباً بل مستحيلاً على القوات العربية والإسلامية والغربية أن تهبّ إلى مساندتنا، ولوقعت المملكة وجيرانها الخليجيون ضحية عدوان صدام.

ومن الدروس العسكرية المحضة لهذه الحرب، بروز دَور القوة الجوية، وتأثير الأسلحة الذكية والدقيقة التوجيه، والإسهام الحيوي للحرب الإلكترونية التي باستخدامها بكفاءة وفعالية تضاعفت القدرة القتالية. فلا يمكِن أن تُشَنَّ حرب حديثة دون غطاء جوي، وأضحت السيادة الجوية في المراحل الأولى من الحرب أمراً بالغ الأهمية.

ولعل أفدح أخطاء صدام العسكرية، أنه ظل يكابر واستمر في الصراع بعد أن فَقَدَ قوته الجوية. كان الأجدر به أن يقبَلِ الهزيمة، ويعلِن انسحابه من الكويت في الأيام الأولى من المعركة. ولكنه بدلاً من ذلك، أَرْجَأَ القرار خمسة أسابيع، تم خلالها تدمير قواته الجوية والبحرية وجزء كبير من قواته البرية، قبل أن يدفع بما تبقّى من جيشه إلى معركة برية انتحارية. كان عاجزاً عن إدارة المعركة الدفاعية بسبب الشلل الذي أصاب مراكز القيادة والسيطرة والاتصالات لديه، بفعل الهجمات الجوية والصاروخية. وكانت المحصلة النهائية لهذه الأخطاء مجتمعة هي الهزيمة النكراء التي لَحِقَت بجيشه، وتدمير آلته العسكرية.

اعتمد صدام بشكل رئيسي في مسرح العمليات على مواقع دفاعية ثابتة، ظن أنها لن تُختَرَق. لذلك، ينبغي عند تخطيط دفاعاتنا أن نضع في اعتبارنا أن أي خط دفاعي، مهما كان محصَّناً لا يوفر بالضرورة تأميناً أو حماية كاملة. أكدت هذه الحرب أنه ليس ثمة خط دفاعي لا يمكِن اقتحامه أو الالتفاف حوله. فقد سبق الخط الحصين للقوات العراقية، خط ماجينو في الحرب العالمية الثانية، وخط بارليف في حرب أكتوبر ١٩٧٣.

يقال أحياناً إن هزيمة العراق مردّها إلى اعتناقه العقائد العسكرية السوڤيتية. ولكن هذا القول ينطوي على إجحاف في حق السوڤيت (التسمية التي كانت

مستخدمة قبل تفكُّك الاتحاد السوفيتي). فالفكر العسكري السوفيتي، مثله مثل الفكر العسكري الغربي، يؤكد على ضرورة الاعتماد على السرعة، وتحقيق الصدمة والمفاجأة، وحشد أكبر قوة ممكِنة في مواجَهة أكثر النقاط ضَعفاً في مواقع العدو، وهذا هو مبدأ صن زو Sun Tzu الذي يقضي باستخدام الصخر في تكسير البيض، والتنسيق والتعاون بين القوات، والمحافظة على معدَّل عالٍ للعمليات القتالية. فلو أن العراق استوعب الفكر السوفيتي وطبّقه على نحو صحيح، لكانت مهمة قوات التحالف أشد صعوبة وأكثر تعقيداً.

وثمة درس آخر يُستخلَص من حرب الخليج، وهو أهمية عمليات الخداع. فالخداع الناجح يعتمد على إستراتيجية شاملة متكاملة، تعمل في تناغُم وتناسُق على كل المستويات الإستراتيجية والعملياتية والتكتيكية. بيد أنه من الأفضل ألاّ يعرف قادة الوحدات على المستوى التكتيكي، الذين سينفذون العمليات الخداعية، أنها خطط للخداع، حتى تَظهَر عملياتهم كعمليات قتال فعلية. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكِن بها إقناع العدو أنه يواجِه تهديداً حقيقياً على هذه الجبهة أو تلك.

حقَّق العراق بعض النجاح في عمليات الخداع والإخفاء والتمويه، مما يشير إلى تأثُّره بالتكتيك العسكري السوفيتي للخداع المعروف باسم ماسكاروفكا Maskarovka. وأظهرت القوات العراقية مهارة فائقة في بناء الأهداف الهيكلية التي خَدَعَت قاذفات التحالف في بعض الأحيان، وجعلتها تنفِّذ عمليات قصف مكثَّفة على أهداف غير حقيقية. أدَّت الأهداف الهيكلية المصنوعة من الخشب والورق المقوّى دَوراً كبيراً في حماية قواذف سكود المتحركة، كما اكتُشفت أيضاً أهداف هيكلية للدبابات والطائرات. والدرس الذي نستخلِصه من ذلك هو أننا في حاجة إلى تحسين إمكاناتنا الفنية للتمييز بين الأهداف الهيكلية والأهداف الحقيقية. ولكي نتغلَّب على إستراتيجيات الخداع المعادية، يلزم معرفة تكتيكات الوحدات الصغرى، وتحسين قدراتنا على الاكتشاف، وتطوير إمكاناتنا على تحليل المعلومات ومعالجتها.

وفي ما يتعلق بالخداع الإستراتيجي، استطاع صدام أن يفاجِئ العالم كله باحتلاله دولة الكويت، بدلاً من احتلاله واحدة أو اثنتين من الجُزُر الصغيرة المواجهة لميناء «أم قصر». ومن جانبها، ردت قوات التحالف الصاع صاعين بأن جعلت صداماً يعتقد أن الهجوم الرئيسي سوف يُشنّ من الشرق بدلاً من الغرب.

ومن الدروس الأخرى من الحرب، ذلك الدَّور الكبير الذي يمكِن أن تؤدِّيه العمليات النفسية، إذا أُديرت على نحو مُتْقَن، وأهميتها البالغة في خفض الروح المعنوية للقوات المقاتلة المعادية. فالروح المعنوية عامل حيوي يحسم نتيجة المعركة حتى قبل أن تبدأ.

أكدت حرب الخليج درساً عسكرياً قديماً يقضي بأن المعركة الحديثة معركة أسلحة مشتركة (برية وجوية وبحرية ودفاع جوي) تديرها أنظمة قيادة وسيطرة واتصالات واستخبارات فعّالة. فالقوة الجوية بمفردها لا تستطيع أن تكسب حرباً، بل يحتاج الأمر إلى قوات برية تحتل الأرض وتُثَبِّت النصر. ومن مفاتح النصر في الحرب الحديثة أن تكون لديك القدرة على القتال أسرع من عدوك، والتحرك لمسافات أطول، والاشتباك من مسافات أبعد، وبقوة نيرانية مؤثِّرة، بينما لا يستطيع عدوك أن يصل إليك أو حتى يعرف موقعك بالتحديد، فضلاً عن القدرة على القتال على مدار الساعة، لا سيما في الليل. إن ما شاهدناه من أداء الوحدات الغربية، أثناء الحرب، أقنعنا أنه لا يزال أمامنا الكثير مما ينبغي أن نتعلّمه.

وإن كانت قوات التحالف قد خاضت معركة جوية برية Airland Battle طبقاً لأحْدَث ما توصلتْ إليه العقائد العسكرية الأمريكية، إلا أن مدى فعالية تلك العقائد لم يتم التحقق منها بشكل قاطع، لغياب المقاومة الحقيقية أثناء المعركة.

وبصفة عامة، أقنعتني حرب الخليج أن مبادئ الحرب، كما بَيّنها المفكرون الإستراتيجيون عبْر العصور، لا تزال صالحة للتطبيق، سواء أكانت الأطراف المتحاربة قوًى عظمى أم دولاً متواضعة من دول العالم الثالث، فالتخطيط للعمليات القتالية يجب أن يتِم وَفقاً لفنون الحرب ومبادئها.

عملنا في العَقدين الماضيين على إرساء دعائم قوية لقواتنا المسلحة، ووجَّهنا اهتماماً خاصاً إلى القوات الجوية وقوات الدفاع الجوي. وقد حقَّقَت كلتا القوتين مستويات باهرة من التقدم تدعو إلى الإعجاب. أَبْلَتْ القوات الجوية الملكية السعودية بلاءً حسناً، وشهدت لها القوات الجوية الأخرى، التي اشتركت معها بالأداء المتميز والاحترافية. بيد أن تلك الحرب جعلتنا ندرك أهمية تحسين وتطوير الجوانب التالية:

- الاستعداد القتالي للقوات، وإجراءات التنسيق بين الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة.
- قدرة القوات الجوية على تقديم «الإسناد الجوي القريب» إلى القوات البرية.
- التكامل بين قوات الدفاع الجوي وعناصر الدفاع الجوي في القوات الجوية.
- قدرة القوات البرية على خوض حرب حديثة سريعة.

فضلاً عن أهمية تحديد الإستراتيجية والسياسة والأهداف العسكرية للمملكة، والتحديد الدقيق الواضح لمهام القوات المسلحة والحرس الوطني وحرس الحدود.

أثبتت حرب الخليج أهمية التفاعل بين عناصر ثلاثة في تحقيق النصر، هي القيادة والانضباط والتدريب. وهي العناصر التي أطلقتُ عليها «ثلاثية النصر» أو «مثلث النصر». فلا بد أن تَحْظَى هذه العناصر بالدرجة نفسها من الاهتمام، وإن كانت القيادة أهمها جميعاً؛ إذ يعتمد عليها العنصران الآخران. قادتني ملاحظاتي لإدارة القوات الصديقة، إلى أن ضِلْع المثلث الخاص بالتدريب، يحتاج منّا إلى اهتمامنا الأكبر، فبالتدريب المستمر، الشاقّ والدؤوب، ليلاً ونهاراً، وفي ظروف تشبه ظروف المعركة الحقيقية، يمكِن تحقيق أعلى المستويات الاحترافية للقتال. وفي منطقة مضطربة سياسياً، كمنطقتنا، لا أقل من تنفيذ ذلك، وبهمة لا تعرِف الكَلَل.

انتقد المفكر العسكري البريطاني ليدل هارت Liddell Hart، في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، سَلَفَه البروسي كلوزفيتز. كان كلوزفيتز يعتقد أن كل دولة يمكِنها أن تحطم إرادة الدولة الأخرى إذا حطمت جيشها. ويرى هارت أن مثل هذا المبدأ هو المسؤول عن الإستراتيجيات العقيمة التي استُخدمت في الحرب العالمية الأولى، حين كان القادة يزجُّون بالحشود الضخمة من جيوشهم في هجمات متكرِّرة بالمواجهة ضد بعضهم بعضاً في أتون المعركة، مما أدّى إلى مذابحَ بشرية رهيبة لا معنى لها.

ولو بقي ليدل هارت حياً حتى اليوم، لانتقد بالشدة نفسها تلك الحرب التي استمرت ثماني سنوات بين العراق وإيران، وكانت تدور رحاها قرب حدودنا. لم تكن تختلف كثيراً عن المعارك الأوروبية ذات الإيقاع البطيء في الحرب العالمية الأولى. كنا نراقب حشوداً ضخمة تواجِه بعضها بعضاً عبْر خطوط دفاعية ثابتة

حصينة، ومن آن إلى آخر يندفع أحد الطرفين ليشتبك مع الطرف الآخر في معركة بالسلاح الأبيض. ويبدو الإيرانيون، بوجه خاص، أكثر إيماناً بتكتيك الموجات البشرية، إذ كانوا يرسِلون عشرات الآلاف من الشباب الذين يفتقرون إلى التدريب والتسليح لِيَلْقوا حتفهم في محاولة اقتحام الدفاعات العراقية.

نادى ليدل هارت، في محاولة منه لتغيير الفكر الإستراتيجي لقادة الجيش البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى، بأهمية مبدأَيْ «المرونة» و«المفاجأة» اللتين تحقِّقُهما وحدات صغيرة متخصصة مدربة، بدلاً من الهجوم بـ «المواجهة» الذي تشنّه أعداد هائلة من القوات وتنجُم عنه خسائر بشرية ضخمة دون طائل. كان يؤيد الحرب الآلية المتحركة، وهي قيام القوات المدرعة السريعة الحركة بالاختراق الإستراتيجي العميق لمواقع العدو. وطَوّر هارت نظريته الشهيرة المعروفة باسم «الاقتراب غير المباشر»، التي تعتمد على ضرب العدو في مناطق لا يتوقعها، أي ضربه في أضعف مواقعه، وليس أقواها، مردِّداً في ذلك ما قاله صن زو منذ آلاف السنين. فهدف الحرب، من وجهة نظره، هو «تحطيم إرادة العدو بأقل خسائر بشرية واقتصادية ممكِنة». ومن المعروف أن أفكار ليدل هارت أثّرت في الفكر العسكري لقادة فرق البانزر Panzer الشهيرة، من أمثال جودريان Guderian، وروندشت Rundstedt.

ولا تزال بعض أفكار هارت صالحة حتى اليوم، لا سيما تأييده أهمية بناء جيش محترِف يتمتع بخفة الحركة ودرجة عالية من التدريب. وهذا ما أكدته حرب الخليج. إن التحدي الذي تواجِهه دول العالم الثالث في الوقت الحاضر، هو بناء جيش محترِف حقاً. جيشٌ يتِم التعيين والنقل والترقية فيه على أساس من الاستحقاق، ولا شيء غير ذلك. جيش يتِم التركيز فيه على الثقافة والمهارة، بالإضافة إلى التقاليد والأخلاق العسكرية، كالانضباط والطاعة والولاء.

نحن في المملكة نعيش في بلد قليل السكان شاسع المساحة ذي سواحل طويلة ممتدة على البحر الأحمر والخليج العربي، وتحيطه قوى تتربَّص به الدوائر. فأصدقاء اليوم قد يصبحون أعداء الغد، كما قد يُمْسِي أعداء اليوم أصدقاء الغد. والمساحة الشاسعة للبلاد مع قلة السكان تجعلان نشْر قوات برية في كل جزء من أجزائها أمراً غير عملي. فليس في وسعنا أن نحتفظ بوجود عسكري في طول البلاد وعرضها. (كنت أُحلِّق وضباط أركاني، أثناء الأزمة، فوق مناطق انتشار قوات التحالف، ولولا يقيني أن ٧٥٠ ألف رجل يزحمون

مسرح العمليات بالفعل، ما كنت لأصدِّق ذلك. فلم يكن لهم أثر واضح في تلك الصحراء الشاسعة). إن الخطر كل الخطر هو أن تدفعنا أزمة الخليج إلى محاولة بناء قوة عسكرية ضخمة، أكثر مما تسمح به طبيعتنا السكانية. فالجيوش الجرارة ليست ضماناً للأمن أو استعراضاً للقوة. فهي في ذلك الحجم الضخم لا معنى لها، بل تصبح عبئاً يُثقِل كاهل البلاد. والأَولى، كما قال ليدل هارت منذ زمان بعيد، أن تكون لدينا وحدات صغيرة العدد نسبياً، خفيفة الحركة، جيدة التسليح والتجهيز، عالية التدريب، لديها القدرة على التحرك السريع والضرب العنيف، وتكون بمثابة نواة لأية قوة تتِم تعبئتها عند الأزمات. كما أؤيد بالحماسة نفسها بناء قوات خاصة متميزة، وهي قدرة كنّا نفتقر إليها أثناء حرب الخليج، إذ اضطررنا إلى الاعتماد على القوات الخاصة لحلفائنا في عمليات جمع المعلومات واصطياد صواريخ سكود، والعمليات الأخرى خلْف الخطوط العراقية. وجملة القول، إن الإقدام على إنشاء قوة عسكرية ضخمة لا يقلّ خطأً وخطورة عن الاحتفاظ بقوة عسكرية صغيرة الحجم. إن بناء القوة العسكرية لا بد أن يرتكز على تحليل دقيق للتهديدات التي سنواجهها في المستقبل.

إنني أنظر إلى الدفاع عن المملكة ودول مجلس التعاون كمجموعة من الدوائر ذات المركز الواحد، تتفاعل وتعزز بعضها بعضاً. نجد في مركز الدائرة المملكة وقواتها المسلحة، وتلك هي «دائرتنا الأولى»، كما هي الحال في كل بلد آخر. أما «الدائرة الثانية»، فتشمل الشركاء الستة في مجلس التعاون لدول الخليج العربية وهي المملكة، والكويت، وقطَر، والبحرين، والإمارات العربية المتحدة، وعُمان. فمجلس التعاون لدول الخليج العربية هو المصدر الأساسي لتضامن أعضائه. وبعبارة أخرى، تشكِّل الدائرتان الأولى والثانية دفاعاتنا الرئيسية عن أنفسنا وعن شركائنا في شبه الجزيرة العربية (وسأورد فيما بعد، بعض المقترحات الرامية إلى تحسين دفاعات دول مجلس التعاون الخليجي).

أما «الدائرة الثالثة»، من وجهة نظري، فتتكون من الدول الصديقة ضمن الحدود الأوسع لمنطقة الشرق الأوسط وجنوبي آسيا. وأعني بها مصر وسوريا، وهما دولتان عربيتان وقفتا إلى جانبنا إبّان أزمة الخليج، بالإضافة إلى تركيا وپاكستان، وهما قوتان صديقتان مسلِمتان تقعان على الحدود المباشرة لمنطقتنا.

فإذا خطَّطت هذه الدول الأربع، بالإضافة إلى دول مجلس التعاون الخليجي لدفاع مشترك يجمع بينها جميعاً، ونفَّذت تدريبات مشتركة، فإنها ستسهم بشكل كبير وفعّال في أمن المنطقة. فتركيا بصفتها عضواً في حلف شمال الأطلسي، وقوة عسكرية لا يستهان بها، تستطيع أن تؤدي دَوراً مهمّاً كقناة اتصال بين حلفائنا الإقليميين وأصدقائنا الغربيين. وتنفيذ تدريبات مشتركة مع تركيا سيعطينا ميزة التعرف بمستويات الأداء العسكري الغربي، ونكون كما لو أجرينا تدريبات مشتركة مع القوات الغربية.

لست أقترح هنا أن تقوم دول الخليج بشراء الخدمات العسكرية من الآخرين، فليس هذا مقصدي على الإطلاق. بل على العكس من ذلك، إن العلاقة بين تلك الدول كلها يجب أن تُبْنَى على المصالح المشتركة التي تجمعها. فكما يمكن لتلك الدول أن تكون درعاً ـ بعد الله ـ يحمينا، فإننا في شبه الجزيرة العربية يمكِن أن نكون عمقاً إستراتيجياً لها. فأهميتنا لها، لا تقلّ عن أهميتها لنا.

ويجب ألاّ يغيب عن أذهاننا أن أشد الأخطار التي يُحتمل أن تواجهنا، ستأتي من منطقة الشرق الأوسط. لذا، فإننا في حاجة إلى أصدقاء داخل تلك «الدائرة الثالثة» لِكَبْح مناوئينا وإيقافهم. ويبقى توازن القوى بين الدول الرئيسية في المنطقة هو أكبر ضمان لدوام الأمن والاستقرار.

ولكن إذا ما نشبت أزمة لا قِبل لنا ولا لأصدقائنا بها في المنطقة كتلك التي حدثت عام ١٩٩٠، فعلينا التوجه بطلب المساندة إلى «الدائرة الرابعة» لدفاعاتنا، وهي تشمل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا. ويمكِن أن تنضم إليها روسيا والصين بعد أن وَضَعَتْ الحرب الباردة أوزارها، واختفى من الوجود خطر التهديد الشيوعي. ومن المؤكد أن النمو الاقتصادي السريع الذي تشهده الصين سيجعل منها قوة عسكرية هائلة، لا بد من أَخْذها في الحسبان في منطقة الشرق الأوسط. وتشير بعض التقديرات إلى أن الصين ستصبح، في السنوات القادمة، مستهلِكاً رئيسياً لنفط الشرق الأوسط، مما سوف يفتح المجال للتعاون الأمني معها.

أعود، مرة أخرى، إلى تعليقاتي الأخيرة عن «الدائرة الثانية»، دائرة جيراننا الخليجيين، شركائنا في مجلس التعاون لدول الخليج العربية. فمن الدروس المهمة التي استخلصْتها من حرب الخليج، هو الحاجة الماسّة إلى دفاعات جماعية قوية في منطقة الخليج العربي. فما من دولة من الدول الأعضاء في مجلس التعاون الخليجي، باستثناء المملكة، تستطيع أن تبني بمفردها قوة عسكرية

قادرة على الدفاع عن نفسها وعن جيرانها ضد أيٍّ من القوى المعادية التي تتاخِم حدودها. فمن الوجهة الأمنية، تُعَد المملكة وجيرانها من دول الخليج كلاً متكاملاً. فعندما تعرَّضت الكويت للعدوان، شعرت كل دولة بالخطر يُحدِق بها. ولن نسمح مرة أخرى بأن تصبح إحدى دول المجلس جسراً للعدوان علينا. فالدرس الأول المستفاد من الأزمة، هو أهمية تحقيق قدْرٍ من الوحدة بين دول مجلس التعاون. فلو كان بينها أدنى مستوى من الوحدة الحقيقية، لاستطاعت تلك الدول أن تَبْلُوَ بلاءً حسناً، ولتمكَّنت من الصمود أمام الغزو والدفاع عن أنفسها.

ولو كان ثمة تكامل عسكري بين المملكة ودول الخليج لتشكِّل جميعها كتلة قوية، لكُنّا أَقدَرَ على الدفاع عن أنفسنا، ولكان لنا ثِقَل سياسي على مستوى المنطقة بل على مستوى العالم. إن الأمن الجماعي على مستوى دول الخليج، من وجهة نظري، أمر تفرضه الظروف الراهنة على أن تضطلِع المملكة فيه بدَور بارز، لِمَا لها من إمكانات أكبر وقوات أكثر عدداً وعدة.

لكن هذا الأمن الجماعي لا يمكِن أن يتِم في فراغ سياسي. فلا بد من قيامه على أساس سياسي مؤدّاه احترام كل دولة سيادة الدول الأخرى وحدودها، مع إنهاء كافة أشكال الصراع بين الدول الأعضاء والمحافظة على الوضع السياسي الراهن.

علمتنا الأزمة أن الدفاعات الخليجية، بالشكل الذي كانت عليه عام ١٩٩٠، دفاعات غير كافية على الإطلاق لمواجهة عدوان صدام. لم تكُن قوة «درع الجزيرة»، الجناح العسكري لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، قوية بالقدْر الذي يمكِّنها من ردْع العراق أو التصدي له بمفردها. ومن هنا، تظهر أهمية إعادة النظر في الترتيبات الدفاعية الجماعية.

والحل، من وجهة نظري، لا يكمن في قوة مثل قوة «درع الجزيرة» التي شُكلت على أساس اعتبارات سياسية لا تقلّ أهمية عن الاعتبارات العسكرية. ولا يكمُن، بالمثل، في جيش كبير يتشكل من دول مجلس التعاون، كاقتراح قوة من ١٠٠ ألف رجل. فعلى صعيد الواقع، نستبعد موافقة الدول الأعضاء على تخصيص أفْضل وحداتها بشكل مستديم لتشكيل قوة دفاع إقليمية كهذه. ثم أين سيتم انتشار هذه القوة؟ ومن الذي سيقوم بتمويلها وتموينها؟ وكيف تُحَلّ المشاكل الاجتماعية التي ستترتب على وجود الضباط والجنود من مختلف دول

مجلس التعاون بعيداً عن ذويهم؟

لا شك أن آرائي حول أمن الخليج هي وليدة خبرتي بالأزمة، فقيادة القوات المشتركة التي أنشأناها، آنذاك، لتعبئة وتدريب وتجهيز قواتنا الخليجية والقوات الصديقة للمعركة، يمكِن أن تكون أنموذجاً لقيادة عسكرية لمجلس التعاون لدول الخليج العربية.

لذا أقترح إنشاء قيادة عسكرية مشتركة، يكون مقرّها الرياض، ويُعَيّن فيها ضباط محترِفون من أعلى المستويات. على أن لا تنضم أية قوات عسكرية بصفة مستديمة إلى هذه القيادة، بل تبقى كل قوة في بلدها، وتُستدعى فقط عند تنفيذ التدريبات المشتركة أو مجابَهة الأخطار.

وتُحدَّد صلاحيات ومسؤوليات تلك القيادة العسكرية المشتركة بناءً على توجيهات قادة دول مجلس التعاون الخليجي ووزراء دفاعهم. كما لا بد أن تُمنح مثل هذه القيادة العسكرية الصلاحيات الحقيقية، لكي تبدي آراءها وتخطط وتتصرف في الشؤون العسكرية، حسب مقتضيات الظروف سواء في أوقات السلم أو في أوقات الحرب. ويكون منصِب القائد، كما هو الحال في منظمة حلف شمال الأطلسي (ناتو)، من نصيب الدولة ذات الإسهام الأكبر في مجهود الدفاع المشترك.

وفي حالة الحرب، تكون مهمة القيادة الدائمة هي ممارسة القيادة العملياتية على قوات دول مجلس التعاون لردْع أي عدوان محتمَل أو دحْر أي عمل عدائي.

أما في حالة السلم، فتكون مهمة القيادة على النحو الآتي:

- تقييم الأخطار المحتمَلة، وإعداد الخطط اللازمة لمواجهتها، وإعداد السيناريو (تسلسل الأحداث) المتوقَّع في كل حالة.
- تحقيق التنسيق بين القوات المسلحة لدول مجلس التعاون، وذلك بالتعاون الوثيق مع رؤساء أركان الدول الأعضاء.
- تقديم المشورة إلى الدول الأعضاء في شأن العقائد العسكرية، والحصول على الأسلحة والمعدات، بهدف زيادة إمكانات القوات المختلفة على العمل العسكري المشترك (العمل المتداخل). (يوجد في الوقت الحالي لدى الدول الأعضاء ما لا يقلّ عن عشرين نوعاً من ناقلات الجُند المدرعة ونحو ثمانية أنواع مختلفة من دبابات

القتال الرئيسية، ويشكِّل هذا كابوساً مزعجاً للمسؤولين عن الإمداد والتموين). ولا شك أن توحيد الفكر العسكري والعتاد الحربي سيزيد من القدرة العسكرية لدول مجلس التعاون إلى حدٍّ بعيد.

- إنشاء مركز مشترك للاتصالات والاستخبارات والعمليات العسكرية.
- الإشراف على تنفيذ تمارين ميدانية مشتركة بانتظام، بالإضافة إلى تدريب الوحدات التي تخصِّصها كل دولة لتعمل تحت القيادة المشتركة والتفتيش عليها وتقييمها، ومن ثَم رفْع التقارير إلى كل سلطة وطنية، وذلك لتحقيق أعلى مستوى من الاستعداد القتالي لتلك القوات.
- تقديم المشورة في شأن تجهيز البنْية الأساسية لمسرح العمليات.

ومن المهام الأولى لمثل تلك القيادة تحديد الإسهام العسكري لكل دولة من الدول الأعضاء بشكل مفصل، ومن ثَم تقسيم القوات المسلحة في كل دولة على النحو الآتي:

أ - قوات الأسبقية الأولى، وتكون تلك القوات جاهزة على نحو دائم للتعامل مع أية أخطار.

ب - قوات الأسبقية الثانية، وهي قوات تعزيز لقوات الأسبقية الأولى، وتكون جاهزة للتحرك عند الضرورة، وبتعليمات من القيادة المشتركة.

ج - قوات الأسبقية الثالثة، وهي القوات المتبقِّية في بلدها وتتولى مهام الأمن الداخلي.

وتنبغي الإشارة، هنا، إلى أن هذه اقتراحات أولية لا تعدو أن تكون المخطَّط العام الذي أتصوره، ويلزم صقْلها وتعديلها في ضوء الخبرات السابقة واللاحقة، مع مراعاة توجهات ومصالح كل دولة من دول مجلس التعاون الخليجي.

وخلاصة القول، إن أمْن الخليج يعتمد أولاً: على قوة المملكة، وثانياً: على التكامل العسكري بين دول مجلس التعاون الخليجي، وثالثاً: على علاقات الدعم المتبادل مع عدد من الدول العربية والإسلامية في منطقتنا، لنزع فتيل الأزمات التي تولد أخطاراً تهدِّد أمْننا، ورابعاً: على أصدقائنا الغربيين الذين نحتاج إلى مساندتهم في حالات الضرورة القصوى، كملجأ أخير، كما حدث في

حرب الخليج. فإن كنّا قد اعتمدنا عليهم في الماضي القريب، فعلينا أن نضع نصْب أعيننا أنهم قد يتردَّدون في مساندتنا مستقبلاً، ما لم يكُن الأمر متعلقاً بصُلب مصالحهم. علينا أن نتذكر دائماً أن العون الإلهي لا يتأتّى إلا بالجهد والعمل الدؤوب، ولْنتذكر قول الله عز وجل: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» (سورة التوبة، الآية ١٠٥).

مَثّل غزو صدام للكويت صدمة قاسية لنا ولجيراننا في الخليج. ولكن الحرب التي تلته وفرت لنا خبرات ثمينة لم تتوافر لدول عربية أخرى، وعلينا أن نستثمر تلك الخبرات ونستوعبها جيداً، لنكون على أتم الاستعداد في المرة القادمة. جعلتنا تلك الأزمة ندرك أهمية الاستعداد لمجابهة الخطر، أنّى كان مصدره. وعلَّمتْنا أهمية أن تكون دفاعاتنا شاملة تغطي كل الاتجاهات من حولنا. وأن يكون تخطيطنا بعيد المدى، فلا يقتصر على عام أو عامين قادمين، وأن يكون حجم قواتنا المسلحة وطبيعتها مبنيَّين على تحليل علمي دقيق للأخطار المحتملة.

إن أشد ما أخشاه أن تكون الصدمة التي عشناها عام ١٩٩٠ قد زال أثرها سريعاً، ولم تستقر دروسها في أذهاننا. فعاصفة الصحراء، إحدى أكبر الحملات العسكرية في التاريخ المعاصر، مَرّت أحداثها سريعة على كثير من الناس، وكأنها «فيلم سينمائي». وانتهت بالسرعة نفسها التي بدأت بها. فالآلة الحربية الضخمة لقوات التحالف سُحبت دون صعاب أو عقبات، حتى ليكاد بعض المحلِّلين يجزم أن استقلال بلادنا ومصالحها لم يكونا قَط مهدَّدَين، ولم يتعرضا لأي خطر من الأخطار. وأرى لزاماً عليَّ أن أُحذِّر من مثل هذه النظرة إلى الأمور، والتي لا تعدو أن تكون فِقْداناً جماعياً للذاكرة. ويَحْدُوني الأمل على أن يكون تسجيلي للأحداث التي عشتها لحظة بلحظة، عِبْرة وعِظَة وصوت نذير لا يفتأ يتردَّد في آذاننا، يدعونا إلى اليقظة كل اليقظة. ففي عالم يموج بالأحقاد والفتن، غابة يأكل فيها القوي الضعيف، لا سبيل إلى تحقيق أفضَل الأوضاع، إلا بالاستعداد لأسوأ الاحتمالات. فالقوة هي الدرع التي تحمي الحق وتصون الكرامة وتحقِّق الأمن والأمان.

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس الأماكن

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

استحوذت حرب الخليج على انتباه العالم بأسره، ولا غرو فقد تضمَّنت أضخم حملة جوية في التاريخ الحديث، وتمخضت عن آثار سياسية وعسكرية ستظل تؤثر في العالم بوجه عام، وفي منطقة الشرق الأوسط بوجه خاص، لأجيال قادمة.

يعدّ هذا الكتاب من أوثق المصادر التي تناولت حرب الخليج، إذ يصدر عن قائد القوات المشتركة ومسرح العمليات، الذي عاش أحداث تلك الحرب لحظة بلحظة وشارك في صنعها، وعايش أوقات القلق والترقب، والاستعداد والتخطيط، والإقدام والهجوم، والابتهاج والنصر. يضاف إلى ذلك أنه أول كتاب يصدر عن أحد أعضاء العائلة المالكة السعودية، فيعرض وجهة نظر الكاتب، لا من منظور دعائي أو صحافي، بل من منظور مهني علمي متخصص، فيكشف النقاب عن حقائق وأسرار، ويلقي الضوء على الكثير من المواقف والأحداث الغامضة والمجهولة. ويعتمد أسلوب العرض على الصراحة والموضوعية، والاستناد إلى الأرقام والوثائق التي لا تقبل الجدل أو المراء.

ويروي الكاتب في أسلوب شائق مثير ظروف نشأته وخبراته التعليمية، وتدرّجه في المناصب القيادية، وعمله جنباً إلى جنب مع الفريق أول نورمان شوارتزكوف في قيادة متوازية، ظهرت فيها المملكة نداً لحلفائها الأقوياء. فلم تستقر لقمة سائغة في بطون أصدقائها، ولم تذب هويتها العربية الإسلامية في خضمّ التعامل مع قوة عظمى. كما يبرز الكتاب الدور الكبير الذي قامت به الدول العربية والإسلامية في إحراز النصر وتحرير دولة الكويت، الأمر الذي أغفلته معظم الكتابات والتحليلات التي تناولت تلك الأحداث.

ويزخر الكتاب بالمواقف المثيرة، والمفارقات الطريفة، والأحداث التي تقشعر منها الأبدان وتذوب لها أقسى المشاعر، فتُضحك القارىء من خلال الدموع.

وهذا الكتاب، وإنْ كان يبدو للوهلة الأولى أنه كتاب عسكري محض، إلاّ أنه يخاطب العسكريين والمدنيين على السواء. كما يعرض رؤية مستقبلية إلى المنطقة العربية ومنطقة الخليج بناء على استقراء دقيق واع للظروف السياسية والعسكرية والجيوبوليتيكية التي واكبت حرب الخليج، مما يجعل منه كتاباً لا غنى عنه للقارىء العربي.